موقف كبار القساوسة من القرآن الكريم

دراسة في الموروث الكتابي لآباء الكنائس عن القرآن الكريم

تأليف الشيخ الدكتور
عبد العزيز بن أحمد بن محسن الحميدي
كلية الدعوة وأصول الدين - جامعة أم القرى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

دار الطرفين
للنشر والتوزيع

ح عبد العزيز بن أحمد بن محسن الحميدي، ١٤٣٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحميدي، عبد العزيز بن أحمد بن محسن

موقف كبار القساوسة من القرآن الكريم. / عبد العزيز بن أحمد بن محسن الحميدي .- مكة المكرمة، ١٤٣٧هـ

٦٤٠ص؛ ١٧×٢٤سم

ردمك: ٣ ـ ١٣٩٩ ـ ٠٢ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (مجموعة)

٩٧٨ ـ ٦٠٣ ـ ٠٢ ـ ١٤٠٠ ـ ٦ (ج١)

١ ـ القرآن ـ دفع مطاعن ٢ ـ القساوسة أ. العنوان

ديوي ٢٢٩,٩٠١ ١٤٣٧/٦٣٣٠

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ

يطلب هذا الكتاب من الطرفين للتسويق

جوال: 00966567108801 - بريد الكتروني: tarefenmarketing@gmail.com

يصلكم أينما كنتم! داخل وخارج المملكة العربية السعودية

دار الطرفين للنشر والتوزيع

الطائف، وادي وج، جنوب جسر خالد بن الوليد

جوال: ٠٥٠٥٧٠٤٨٠٨ - ٠٥٠٣٥١٢٤٩٩

www.tarafen.com

tarafen@hotmail.com

مَوْقِفُ كِبَارِ القَسَاوِسَةِ

مِنَ

القُرْآنِ الكَرِيمِ

دراسة في الموروث الكتابي لآباء الكنائس عن القرآن الكريم

تأليف الشيخ الدكتور

عبد العزيز بن أحمد بن محسن الحميدي

كلية الدعوة وأصول الدين - جامعة أم القرى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

دار الطرفين

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن الحمد لله، نحمده ونستعين به، ونستغفره، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حيٌ لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ختم به النبيين، وجعله حجته على الخلق أجمعين.

وأشهد أن عيسى ابنَ مريم، عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه.

وأشهد أن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم على نبيِّنا محمد وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين، وعلى أصحابه وآل بيته والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، **أما بعد:**

هذا كتاب وفق الله تعالى ـ وله الحمد والفضل والمنّة ـ لإنشائه، وتحريره، وجمع مصادره ومراجعه، في دراسة وتفنيد الشبهات والافتراءات التي دبّجها وزبرها، وكتبها ونشرها كبار قساوسة الكنائس الشرقية والغربية، عن كتاب الله المبين، القرآن العظيم حجة الله البالغة، وكلامه المبارك المنزّل على خاتم النبيين وإمام المرسلين محمد ﷺ، ليكون للعالمين نذيراً، وسراجاً منيراً، أنزله الله بعلمه، وشهد أنه حق مبين، وشهدت ملائكته وكفى بالله شهيداً.

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ١٦٦].

وسميته: «موقف كبار القساوسة من القرآن الكريم».

ولقد رتبته بعد هذا التقديم على ثلاث مقدّمات:

المقدمة الأولى: القرآن العظيم: كلمة الله الباقية، وحجته البالغة.

المقدمة الثانية: دور الكنيسة وآبائها في الحرب على الإسلام والمسلمين.

المقدمة الثالثة: موارد المستشرقين بين أحبار يهود وقساوسة النصارى.

وبعد هذه المقدمات الثلاث والتي أُرى أنها من الأهمية بمكان، ندخل إلى مقصودنا من إنشاء هذا الكتاب في دراسة مواقف كبار القساوسة وآباء الكنائس من القرآن العظيم، وهو جهدهم وعملهم الدؤوب في محاربة الإسلام في مصادره العظيمة، وأهمها وأعظمها القرآن العظيم، وسأذكر كل من وقفت عليه من القساوسة ممن له عمل كتابي أو بحثي عن القرآن الكريم بشرط أن أكون قد وصلت إليه، واطلعت عليه، ولا ألجأ إلى المصادر البديلة الناقلة إلا إذا تعذر الوصول للكتاب الأصلي كما وضعه مؤلفه، ويكون لكلامه من الأهمية بحيث لا يحسن تجاهله وتركه.

وسيكون منهجي في ذلك كما يلي:

١ ـ أعنون للمبحث باسم القسيس المراد دراسة عمله وكتابه.

٢ ـ ثم أذكر نبذة موجزة عنه من حيث اسمه وشخصيته وزمنه ومؤلفاته ومكانته في التاريخ الجدلي المسيحي.

٣ ـ ثم أذكر من كلامه وكتبه ما يتعلق بالقرآن الكريم، وأتبع ذلك بالدراسة والمناقشة والرد والتفنيد.

٤ ـ سأذكر هؤلاء القساوسة بحسب السبق الزمني مبتدأ بيوحنا الدمشقي باعتبار سبقه الزمني وهو الذي فتح باب النقد الكنسي للإسلام ومصادره.

٥ ـ ثم أُتبع ما ذكروه من شبهات بالرد والدراسة والتفنيد معتمداً على ما ذكره وفنّده القرآن الكريم من شبهات المعترضين، ثم بما كتبه وسطره أئمة الإسلام الكبار من السابقين واللاحقين من دراسات وبحوث فيها الرد الجميل، والحجة البالغة، والعلم النافع، نصحاً لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم.

٦ ـ ثم خاتمة فيها نتائج البحث وتوصياته، ثم قائمة بمصادره ومراجعه.

ومما ينبغي أن أنبّه عليه هنا، أنني بفضل الله تعالى، حاولت جهدي الحصول على المصادر الرئيسة في هذه الدراسة، والمتمثلة في الكتب التي ألفها القساوسة الذين شملتهم هذه الدراسة، وقد وفّق الله تعالى في الحصول على بعضها، ولم أتمكن من الظفر بأخرى لكونها ما زالت بلغاتها القديمة أو ترجمت إلى لغات أجنبية إما ألمانية، أو يونانية، أو فرنسية، أو إنجليزية، أو أسبانية، لذلك ونظراً لأهميتها لجأت إلى لَمِّ شتاتها من مصادر بديلة متعددة، كما إني أقدّم الاعتذار إلى الباحثين والقرّاء عن القصور المتوقّع في هذه الدراسة، فقد أقدمت على دراسة على درجة من الصعوبة والعسر، ولكن ما شجعني للقيام بها، إيماني العميق بأهميتها ورغبة في أنها بإذن الله تعالى ستفتح الباب للباحثين في هذا المجال الذي ربما قلّ الإنتاج العلمي فيه، خدمة لكتاب الله تعالى.

ولكنّ عزائي لنفسي وللقرّاء الكرام، أني بذلت الوُسْع والطاقة،

وسافرت عدة أسفار لجمع ما يمكن جمعه من مصادر ومراجع، لسدّ ولو جزء يسير من النقص المعرفي والدراسي في هذا الجانب المهم.

وإني حقّاً لأتمثّل ما ذكره الإمام الكبير محمد بن إدريس الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عندما فقد «رسالته» القديمة، فعمل على تأليفها وجمعها من جديد في «رسالته» الحديثة في مصر، وقال: «وغاب عني بعض كتبي، وتحققت بما يعرفه أهل العلم مما حفظت فاقتصرت خوف طول الكتاب، فأتيت ببعض ما فيه الكفاية، دون تقصّي العلم في كل أمره»[1].

والله الموفق لا إله إلا هو

د. عبد العزيز بن أحمد بن محسن الحُمَيْدِي
كلية الدعوة وأصول الدين ـ جامعه أم القرى
١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦هـ

(١) الرسالة (٤٣١).

المقدمة الأولى

القرآن العظيم
كلمة الله الباقية

المقدمة الأولى

القرآن العظيم كلمة الله الباقية

إن القرآن العظيم، هو الوثيقة الوحيدة في العالم اليوم الحقيقية الصحيحة الثابتة المتصلة بالله ربِّ العالمين، وفيه المقومات الكبرى التامة لإصلاح الخلق، واستصلاح الأرض ومن عليها، وهي الوحيدة اليوم الضامنة لإيصال الحقوق، وردع الظلم والاعتداء، وتعبيد الخلق جميعاً على السواء لله الخالق وحده لا شريك له، وهو المقوم الوحيد اليوم الصافي الخالص من أهواء البشر وأغراضهم وتدخلهم، ولا حتى النبي الأعظم الخاتم محمد ﷺ، وهذه المقدمة يدل عليها أمور:

• الأمر الأول:

إخبار الله تعالى أنه لا يمكن لأحد أن يفتري عليه هذا القرآن العظيم بما فيه من حجج باهرة عظيمة، وإعجاز وتحدي، وبما تضمنه من هدى ورشاد، وأنه لو فُرض أن أحداً حاول أن يفتري على الله كذباً؛ فإن الله تعالى لا بد أن يقصمه، ويذهب افتراءه، ويظهر كذبه، ويُحل عليه عذابه ونقمته، وإخزاءه وإهانته.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [يونس: ٣٧].

قال **الإمام الطبري** رَحِمَهُ اللهُ: «ما كان هذا القرآن ليختلقه أحد من عند غير الله؛ لأن ذلك لا يقدر عليه أحد من الخلق»(١).

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٥٦١).

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١].

كذا قال تعالى في آخر آية في هذه السورة الجليلة سورة يوسف، وكان قد افتتح تعالى هذه السورة بنسبة القرآن وإنزاله وقصصه إليه تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف: ١ ـ ٣].

• الأمر الثاني:

إن الله تعالى توعد من افترى عليه الكذب ونسب إليه من القول والكلم ما لم يكن به قد تكلم، ونسب إليه من الدين ما لم يأذن به الله بأنواع عظيمة من العقوبات، وكل هذه العقوبات انتفت في حق النبي المصطفى ﷺ، فدل على أنه عليه الصلاة والسلام لم يفتر على الله شيئاً، ولا نسب إليه قولاً لم يقله تعالى، ولا شرع شيئاً من دون ربه تعالى، وإنما بلّغ رسالة ربه حق البلاغ، وأتمه وأكمله، فرفع الله شأنه، وأعلى مكانه، وشرف مقامه، واتخذه خليلاً صفيّاً مقرباً. ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشرح: ١ ـ ٤].

وهذه العقوبات التي لمن افترى على الله كذباً بالمرصاد هي:

١ ـ الخيبة والخسارة والفضيحة والعار، وأنه لا يفلح أبداً، هذا وقد أفلح رسول الله ﷺ أحسن الفلاح، ونجح غاية النجاح، وعلا ذكره ودينه أتم العلو وأطيبه وأبركه.

• قال الله تعالى في تهديد نبيه موسى عليه السلام في منازلته المشهورة مع السحرة: ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴿٦١﴾﴾ [طه: ٦١].

• وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام: ٢١].

• وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: ٩٣].

• وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأنعام: ١٤٤].

فأخبر تعالى في الآية الأولى بخيبة من افترى عليه الكذب، وأخبر في الثانية بأنه أشد الناس ظلماً وأنه لا يفلح وأن الخزي وعذاب الهوان ينتظره، وأن الضلال والإضلال هو نتيجة فعله، وكل هذا منتفٍ في حق رسول الله ﷺ، فقد أفلح وأنجح غاية الفلاح، وهداه الله وهدى به كل من اتبعه إلى الصراط المستقيم.

٢ ـ أن من افترى على الله كذباً فإن الله هو خصمه، ومن كان الله خصمه فهو خاصمه وقاصمه ومهلكه.

• قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ [الأحقاف: ٨].

• وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [هود: ٣٥].

• وقال الله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٣ ـ ٤٧].

في آيات سورة الحاقة هذه أعظم البرهان؛ فأخبر تعالى أن هذا القرآن كلامه وتنزيله وهو رب العالمين، ولو فُرِض أن محمداً ﷺ ـ وحاشاه ـ افترى على ربه الأكاذيب وتقوَّل على الله الأقاويل، لما أمهله الله؛ بل عاجله بالعقوبة فأخذه أخذاً شديداً باليمين وقطع نياط وعروق قلبه، وأهلكه أعظم الهلاك وما أحد من الخلق قادر على رد ذلك عنه، وهذا لم يقع؛ بل عزَّ النبي ﷺ وساد وارتفع قدره وذكره وعلا مقامه؛ فدل على أنه ما صنع من ذلك شيئاً؛ بل بلَّغ رسالة ربه ونصح لأمته؛ فانتفاء النتيجة هو بالضرورة انتفاء للمقدمة، وصدق حسان رضي الله عنه إذ قال:

وشـق لـه مـن اسـمـه لـيـجـلَّـه ... فذو العرش محمود وهذا محمدُ
وضم الإله اسم النبي إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذنُ أشهدُ

قال **أبو جعفر ابن جرير** رحمه الله: «ولو تقوّل علينا محمد بعض الأقاويل الباطلة. وتكذَّب علينا لأخذنا منه باليمين، يقول: لأخذنا منه بالقوة والقدرة، ثم لقطعنا منه نياط القلب وإنما يعني بذلك أنه كان يعاجله بالعقوبة ولا يؤخره بها»[(١)].

وقال **العماد ابن كثير** رحمه الله: «ولو تقوَّل علينا؛ أي: محمد ﷺ لو كان كما يزعمون مفترياً علينا فزاد في الرسالة أو نقص منها أو قال شيئاً من عنده فنسبه إلينا وليس كذلك لعاجلناه بالعقوبة . . .والمعنى في هذا بل هو صادق بارٌّ راشدٌ؛ لأن الله تعالى مقرر له ما يبلغه عنه ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات»[(٢)].

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٢٢٣).
(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣).

• **الأمر الثالث:**

إخبار الله تعالى أنه يذهب افتراء المفترين عليه، ويكشف كذبهم ويبطل باطلهم ويحق الحق بكلماته، وبما أن محمداً ﷺ هو آخر أنبيائه والقرآن الكريم هو آخر كتبه نزولاً؛ فهو الحق الذي أحقه الله بكلماته. وأن محمداً ﷺ بلَّغ هذا الكتاب العظيم كما أنزله رب العالمين.

• قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾ [الشورى: ٢٤].

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله: «وأما المتنبئون الكذابون: فلا يطيل تمكينهم؛ بل لا بد أن يهلكهم؛ لأن فسادهم عام في الدين والدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ﴾، فأخبر أنه بتقدير الافتراء، لا بد أن يعاقب من افترى عليه»[1].

• وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: ١٥ ـ ١٦].

• ولما حاول عدو الله الشيطان أن يلقي شيئاً من الباطل على قراءة وتلاوة النبي ﷺ في قصة الغرانيق، أبطل الله ما ألقاه الشيطان وأحكم آياته أعظم الإحكام، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤/٢٦٩ ـ ٢٧٠).

يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج: ٥٢ ـ ٥٤].

• الأمر الرابع:

شهادة الله تعالى للقرآن بأنه كتابه المنزل من عنده وأنه حق، ودفاعه عن نبيِّه محمد ﷺ أنه لم يفتر على ربه تعالى كذباً قط، والملكوت الأعلى كله يشهد بذلك، وكفى بالله شهيداً.

• قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾ [السجدة: ١ ـ ٣].

قال **الإمام الطبري** رَحِمَهُ اللهُ: «إن هذا القرآن الذي أنزل على محمد لا شك فيه أنه من عند الله، وليس بشعر ولا سجع كاهن، ولا هو مما تخرصه محمد ﷺ، وإنما كذَّب جلَّ ثناؤه بذلك قول الذين قالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: ٥]، وقول الذين قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾ [الفرقان: ٤]»[(١)].

• وقال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ١٦٦].

قال **قتادة** رَحِمَهُ اللهُ: شهود والله غير متهمين[(٢)].

---

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٢٢٩).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٣٧٠).

قال **الزجاج**: «الشاهد: المبين لما شهد به فالله جلَّ وعزَّ يبينه ويعلم مع إبانته أنه حق»(١).

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: قوله: لكن الله يشهد، شهادته هو بيانه وإظهار دلالته وإخباره؛ فالآيات البينات التي بيَّن لها صدق الرسول تدل عليه ومنها ما ورد في القرآن، هو شهادة بالقول، وهو في نفسه آية ومعجزة تدل على الصدق كما تدل سائر الآيات، والآيات كلها شهادة من الله؛ كشهادة القول، وقد تكون أبلغ، ولهذا لما ذكر هذا في سورة هود لما تحداهم بالإتيان بالمثل فقال: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٣، ١٤]، فإن عجز أولئك عن المعارضة دل على عجز غيرهم بطريق الأولى، وتبين أن جميع الخلق عاجزون عن معارضته، وأنه آية تدل على الرسالة وعلى التوحيد.

وكذلك قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾، بعد قوله: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٣]، إلى قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقد ذكروا أن من الكفار من قال: لا نشهد لمحمد بالرسالة، فقال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٦]، وأحسن من هذا أنه لما قال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾، نفى حجة الخلق على الخالق فقال: لكن حجة الله على الخلق قائمة بشهادته بالرسالة، فإنه يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه فما للخلق على الله حجة؛ بل له الحجة البالغة وهو الذي هدى عباده بما أنزله»(٢).

• وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ

---

(١) معاني القرآن (٢/ ١٣٤).

(٢) تفسير سورة العلق ضمن مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٦٥ ـ ٤٦٦).

قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان: ٤ ـ ٦].

قال العماد ابن كثير: «يقول تعالى مخبراً عن سخافة عقول الجهلة من الكفار في قولهم عن القرآن: ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾؛ أي: كذب، ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾، يعنون: النبي ﷺ، ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾؛ أي: واستعان على جمعه بقوم آخرين، فقال الله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾؛ أي: فقد افتروا هم قولاً باطلاً، هم يعلمون أنه باطل، ويعرفون كذب أنفسهم فيما يزعمون، ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾، يعنون: كتب الأوائل؛ أي: استنسخها، ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾؛ أي: تقرأ عليه ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾؛ أي: في أول النهار وآخره، وهذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته منهم يعلم كل أحد بطلانه؛ فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة أن محمداً رسول الله ﷺ لم يكن يعاني شيئاً من الكتابة، لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه، وصدقه ونزاهته وبره وأمانته وبعده عن الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى أنهم كانوا يسمونه في صغره وإلى أن بُعِثَ: الأمين، لما يعلمون من صدقه وبره، فلما أكرمه الله بما أكرمه به، نصبوا له العداوة ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، وحاروا فيما يقذفونه به، فتارة من إفكهم يقولون: ساحر، وتارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: كذاب، وقال الله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفرقان: ٩]، وقال تعالى في جواب ما عاندوا ها هنا وافتروا: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخباراً حقاً صدقاً مطابقاً للواقع في الخارج ماضياً ومستقبلاً، ﴿ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾؛ أي: الله الذي يعلم غيب

السمٰوات والأرض ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر»[١].

● **الأمر الخامس:**

إن القرآن نزل بعلم الله الرحمٰن، لا بعلم أحد من الخلق، وكفى بالله عليماً حكيماً، وهذا من أعظم الدلالات وأوضح البيّنات على أن القرآن حق من عند الله تعالى وما فيه هو علم الله تعالى، خبره وحكمه.

● قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ١٦٦].

● وقال تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود: ١٤].

والباء في قوله في آية النساء ﴿بِعِلْمِهِۦ﴾، وفي آية هود ﴿بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ لها وجهان من التفسير:

● **الوجه الأول:**

أن الباء هي باء المصاحبة؛ أي: أن الله أنزل القرآن العظيم متضمناً لعلمه العظيم مستصحباً له، ولذلك كان القرآن كله من علم الله تعالى فلا يمكن إذن أن يفترى من دونه، ولا يستطيع أحد كائناً ما كان أن يأتي بمثله ولا قريباً منه.

عن **عطاء بن السائب** قال: أقرأني أبو عبد الرحمٰن السلمي القرآن، وكان إذا أقرأنا قال: أخذت علم الله فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل ثم قرأ: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾[٢].

وهذا القول هو المأثور عن السلف الصالح، وهو اختيار أكثر

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٥٧٧ ـ ٥٧٨).
(٢) رواه ابن أبي حاتم (٤/ ١١٢١).

العلماء والمفسرين. فما في القرآن من خبر هو خبر بعلم الله تعالى، وما فيه من حكم وشرع هو حكم الله وشرعه؛ لأنه بعلمه ومن علمه وحكمته.

وهذا قول الزجاج: «أي: أنزل القرآن فيه علمه»(١).

وهو اختيار شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، فإنه قال: «وذلك أن ما جاء به الرسول ﷺ هو من علم الله فما أخبر به عن الله فالله أخبر به. وهو سبحانه يخبر بعلمه ويمتنع أن يخبر بنقيض علمه وما أمر به فهو من حكم الله.

والله عليم حكيم، ثم ذكر الآيتين السابقتين ثم قال: «وقوله: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ﴾، قال الزجاج: أنزله وفيه علمه. وقال أبو سليمان الدمشقي: أنزله من علمه، وهذا المعنى مأثور عن السلف...»، ثم ذكر أثر أبي عبد الرحمٰن السلمي السابق ذكره ثم قال ابن تيمية: «قلت: الباء قد تكون للمصاحبة، كما تقول: جاء بأسياده وأولاده. فقد أنزله متضمناً لعلمه، مستصحباً لعلمه، فما فيه من الخبر هو خبر بعلم الله، وما فيه من الأمر فهو أمر بعلم الله، بخلاف الكلام المنزل من عند غير الله؛ فإن ذلك قد يكون كذباً وظلماً؛ كقرآن مسيلمة، وقد يكون صدقاً لكن إنما فيه علم المخلوق الذي قاله فقط ... وأما القرآن فهو متضمن لعلم الله ابتداء. فإنما أنزله بعلمه لا بعلم غيره، ولا هو كلام بلا علم، وإذا كان قد أنزله بعلمه فهو يقتضي أنه حق من الله، ويقتضي أن الرسول رسول من الله الذي بيّن فيه علمه»(٢).

- **والوجه الثاني من التفسير:**

أن الباء هي باء السبب؛ فإنه تعالى لما قدَّم شهادته الجليلة المهيبة

---

(١) معاني القرآن وإعرابه (٢/ ١٣٤).

(٢) تفسير سورة العلق ضمن مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٦٤ ـ ٤٦٥).

للقرآن بأنه منزل من عنده، جعل سبب هذه الشهادة أن هذا القرآن أُنزل بعلم الله، والله أعلم بما أنزل فهو يشهد بعلمه على كلامه، وهو أعلم بصدق رسوله الذي أنزل عليه وأنه أهل للرسالة.

وهذا القول هو اختيار ابن جرير الطبري؛ بل إنه لم يذكر غيره، فقال: «أنزل ذلك إليك بعلم منه بأنك خيرته من خلقه، وصفيه من عباده، ويشهد لك بذلك ملائكته فلا يحزنك تكذيب من كذبك، وخلاف من خالفك»[١].

وذكر نحو هذا في آية هود.

وهذا المعنى الذي اختاره ابن جرير هو المعنى المراد في آية سورة النحل، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [النحل: ١٠١].

قال **ابن جرير**: «يقول تعالى ذكره: وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكم أخرى والله أعلم بما ينزل، يقول: والله أعلم بالذي هو أصلح لخلقه فيما يبدل ويغير من أحكامه»[٢].

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: «وقد قيل: أنزله وهو عالم به وبك، قال ابن جرير الطبري في آية النساء: أنزله إليك بعلم منه أنك خيرته من خلقه. وذكر الزجاج في آية هود قولين: **أحدهما**: أنزله وهو عالم بإنزاله، وعالم أنه حق من عنده، **والثاني**: أنه أنزله بما أخبر فيه من الغيوب، ودل على ما سيكون وما سلف.

قلت[٣]: هذا الوجه هو الذي تقدم.

وأما الأول: فهو من جنس قول ابن جرير؛ فإنه علم به وبمن أُنزل

---

(١) تفسير الطبري (٤/ ٣٧٠).

(٢) المصدر السابق (٧/ ٦٤٦).

(٣) القائل: شيخ الإسلام ابن تيمية.

إليه وعالمٌ بأنه حق، وأن الذي أُنزل عليه أهل لما اصطفاه الله له، ويكون هذا كقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الدخان: ٣٢]، وهذا الوجه يدخل في معنى الأول؛ فإنه إذا نزل الكلام بعلم الرب تضمن أن كل ما فيه فهو من علمه، وفيه الإخبار بحاله وحال الرسول.

وهذا الوجه هو الصواب، وعليه الأكثرون. ومنهم من لم يذكر غيره، والأول وإن كان صحيحاً فهو جزء من هذا الوجه»[(١)].

• **الأمر السادس:**

تحدى الله تعالى الخلق جميعاً أن يأتوا بمثل كتابه وكلامه، فلو فُرض أن القرآن من نظم محمد وكلامه وافتراءه كما يقوله المكذبون؛ فإن محمداً من جنسكم فيصير القرآنُ وما فيه من علوم مقدوراً للبشر أن يأتوا بمثله، فليأتوا بمثله إذاً أو بشيء من مثله، وليجتمعوا على ذلك، فلما عجزوا مع شدة حرصهم ورغبتهم في إبطال أعظم دلالات نبوة محمد ﷺ، وأقروا بالعجز ظهر حقيقة هذا التحدي وهيبته وثبت يقيناً أن القرآن حقّاً من عند الله، فهو كلامه الجليل. وما فيه من علمه العظيم.

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: «والقرآن ـ نفسه ـ فيه تحدي الأمم بالمعارضة، والتحدي هو أن يحدوهم؛ أي: يدعوهم فيبعثهم إلى أن يعارضوه»[(٢)].

وآيات التحدي متعددة في القرآن، معلنة بأشد الوضوح في القرآن المكي والمدني.

• قال الله تعالى في الطور: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤].

---

(١) تفسير سورة العلق ضمن الفتاوى (١٦/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨).

(٢) الجواب الصحيح (٥/ ٤٢٢).

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية:** «فهنا هنا قال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ في أنه تَقَوَّله؛ فإنه إذا كان محمد قادراً على أن يتقوَّله، كما يقدر الإنسان على أن يتكلم بما يتكلم به، من نظم ونثر، كان هذا ممكناً للناس، الذين هم من جنسه فأمكن الناس أن يأتوا بمثله»[1].

• وتحداهم بأن يأتوا بعشر سور من مثل القرآن، فقال تعالى في هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾.

• ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله، فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: ٣٨].

وأعلن أنهم عاجزون عن ذلك، وهذا أبلغ ما يكون في التحدي أن يتحداهم أن يأتوا بشيء مثل القرآن ثم أعلن أنهم لا يفعلون ولا يمكن أن يفعلوا مهما اجتمعوا ومهما فعلوا، فقال تعالى في الإسراء: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾.

وهذا التحدي كان في القرآن المكي؛ فإن هذه السور الطور وهود ويونس والإسراء مكية، وأعاد التحدي وبقوة ووضوح بعد الهجرة في القرآن المدني.

فقال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

---

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٤٢٣).

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولن لنفي المستقبل، فثبت الخبر أنهم فيما يستقبل من الزمان، لا يأتون بسورة من مثله، كما أخبر قبل ذلك، وأمره أن يقول في (سبحان) وهي سورة مكية، افتتحها بذكر الإسراء وهو كان بمكة . . . : ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨]، فعم بالخبر جميع الخلق معجزاً لهم، قاطعاً بأنهم إذا اجتمعوا كلهم، لا يأتون بمثل هذا القرآن، ولو تظاهروا وتعاونوا على ذلك، وهذا التحدي والدعاء، هو لجميع الخلق وهذا قد سمعه كل من سمع القرآن، وعرفه الخاص والعام، وعُلم مع ذلك أنهم لم يعارضوه، ولا أتوا بسورة مثله، ومن حين بعث وإلى اليوم، والأمر على ذلك مع ما عُلم من أن الخلق كلهم كانوا كفاراً قبل أن يبعث، ولما بُعث إنما تبعه قليل وكان الكفار من أحرص الناس على إبطال قوله مجتهدين بكل طريق ممكن. . . فإذا كان قد تحداهم بالمعارضة، مرة بعد مرة، فمعلوم أنهم لو كانوا قادرين عليها لفعلوها؛ فإنه مع وجود هذا الداعي التام المؤكد ـ إذا كانت القدرة حاصلة ـ، وجب وجود المقدور ثم هكذا القول في سائر أهل الأرض، فهذا القدر يوجب علماً بيّناً لكل أحد بعجز جميع أهل الأرض عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن بحيلة وبغير حيلة»[١].

- **الأمر السابع:**

القرآن العظيم هو من أعظم وأجل نعم الله ربِّ العالمين على العالمين أجمعين لو كانوا يعقلون، ولذلك نوّه الله تعالى به وامتن به، وأخبر أنه الكمال والتمام، والنعمة، والرضا والغاية.

---

(١) الجواب الصحيح (٥/٤٢٦ ـ ٤٢٧) باختصار.

• قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

أخرج البخاري في «الصحيح»: عن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطاب، أن رجلاً، من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقر»نها، لو علينا معشر اليهود نزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: أي آية؟ قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] قال عمر: «قد عرفنا ذلك اليوم، والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ، وهو قائم بعرفة يوم جمعة»(١).

في هذا الحديث الشريف فوائد نفيسة:

١ ـ يظهر من قول اليهودي: آية تقرؤونها اتهام من هذا اليهودي للمسلمين بأنهم لا يُقَدِّرون ما نزل عليهم ولا يفهمون عمقه وشرفه وكأن فيه اتهام مبطن بأنهم غير جديرين بأن ينزل عليهم هذا الكتاب المتضمن مثل هذه المنّة العظيمة.

٢ ـ وفيه تزكية من اليهودي لقومه وكأنهم العارفون بعظمة معاني الكتاب المنزل، وكأنهم أجدر بمثل هذه الآية من المسلمين، وهم الذين قابلوا نعم الله جميعاً بالنكران والتحريف والكفران.

٣ ـ في جواب عمر ﷺ تحقيق مقاصد جليلة:

(أ) فيه رد لاتهام اليهودي ـ المبطن ـ بأننا والحمد لله أعلم بمواقع كتابنا ومنازله بدقة كبيرة.

(ب) فيه غيظ من كفر بهذا الكتاب العظيم المنزل، وهذا النبي الكريم الخاتم ﷺ، وذلك بإخبارهم بأن الله تعالى: جمع للمؤمنين بهذا الكتاب المنزل وهذا النبي الخاتم ﷺ بين الشرف والفضل من أطرافه ومجامعه.

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٤٦٠٦).

• فمُنْزِلُ هذه الآية المتكلم بها: هو الله تعالى، وهو أعظم وأكبر وأجل من كل شيء.

• والنازل بها هو روح القدس أمين الوحي، جليل الملائكة وكبيرهم جبريل عليه السلام.

• والمنزل عليه: هو النبي الأمي الخاتم الذي يؤمن بالله وكلماته محمد ﷺ.

• في أعظم موقف وهو الموقف بعرفة.

• في أشرف يوم: يوم عرفة الذي وافق يوم جمعة.

(ج) في الحديث إشعار بأن اتخاذ الأعياد جزء من التشريع الديني المنزل؛ فالمؤمنون فيه متبعون لأمر الله، فلما أتم الله على رسوله والمؤمنين النعمة وأكمل لهم الدين، ورضي لهم الإسلام ديناً، كان اليوم الذي يلي يوم عرفة هو يوم العيد الأعظم والحج الأكبر.

وهذا فارق كبير جليل بين هذه الأمة المسلمة، المتبعة لهذا النبي الخاتم ﷺ، وبين اليهود وغيرهم من أهل الديانات، الذين يضعون ويصنعون أعيادهم ومواسمهم حسب أهوائهم، ورغبات أحبارهم، وتقديرات رهبانهم، وحياة زعمائهم، فرق كبير بين أمة مؤمنة متبعة لشرع نبيِّها في كل عظيم وصغير، وجليل ويسير، وبين أمة متلاعبة عابثة مبتدعة تصوغ لها أحبارها ورهبانها دينهم على ما يشتهون ويريدون.

وهذا هو مضمون هذه الآية الكريمة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، فليس بعد الكمال شيء يُطلب، ويُبحث عنه ويُرغب، إلا من قبل الكافرين بالنعمة المستبدلين الذي هو أدنى بالذي هو خير، مما فيه شبه باليهود، وكل عابث أثيم، من مرضى القلوب الذين يريدون أن يتخذوا كتاب الله وراءهم ظهريّاً، ويحدثون في شرع الله ودينه ما لم ينزل الله به سلطاناً وما ليس لهم به علم.

فكل صاحب بدعة محدثة، وكل من يزعم أن أحكام الشريعة الإسلامية غير مناسبة لمستوى ومتطلبات العصر، ففيه شبه باليهود الذين يحرفون الكلم من بعد مواضعه، ويُبَدِّلون ظلماً قولاً غير الذي قيل لهم.

ويجب أن لا يصرفنا فعلهم عن اعتقاد الكمال والتمام لشرع الله المنزل، وأن لا يكدر علينا فعلهم فرحنا بتمام نعمة الله علينا.

• الأمر الثامن:

من تعقيبات القرآن الجليلة: توجيه المؤمنين في خضم معركتهم مع الرافضين لشرع الله المنزل، الكارهين له، المجادلين فيه، من أهل الكفر والفسوق والنفاق ـ أن لا يزلزلهم ذلك. ولا يؤثر فيهم شكّاً في أمر الله، ولا يزعزع تسليمهم لحكم الله؛ لأن ذلك هو بحق مقتضى لا إله إلا الله.

• قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود: ١٣، ١٤].

• تأمل قوله تعالى: ﴿لَكُمْ﴾ فإنه على أحد تفاسير السلف: محمد ﷺ وأصحابه وأتباعه، وهو تفسير دقيق موفق.

ففيه دليل على استمرار الافتراء، واستمرار الزعم الكاذب بأن القرآن مفترى، واستمرار التحدي بأن يأتوا بعشر سور مثله أو حتى بسورة من مثله.

ثم ذكر هنا ثلاث نتائج وتعقيبات عظيمة:

١ ـ ذكر أولاً أن أعداء القرآن والكافرين به الزاعمين أنه مفترى عاجزون أن يأتوا بمثله بسبب أنه إنما أنزل بعلم الله، كما مر تحريره.

٢ ـ ونبهنا ثانياً نحن المؤمنين قبل الكافرين أنه لا إله إلا الله، وأن سبب المعركة مع أعداء الله وأعداء رسوله وكتابه هو رفضهم لهذه

المسلّمة الجليلة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥﴾ [الصافات: ٣٥]، ولما كان القرآن العظيم كله دعوة إلى لا إلٰه إلا الله عبادة وتشريعاً، جادلوا فيه، وزعموا أنه مفترى، فتحداهم أن يأتوا بمثله إن كانوا صادقين فلما كذبوا وظهر عجزهم، بان أنهم كافرون رادون لهذه المسلمة الجليلة لا إلٰه إلا الله.

٣ ـ ثم خاطبنا ثالثاً داعياً لنا بأن نُسلِّم له ونبقى مسلمين له، لا يشككنا في إسلامنا ولا في لا إلٰه إلا الله أعداء الله من الكفار والمشركين والمنافقين. فقال لنا تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٤﴾.

قال **الإمام مجاهد** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عنى بهذا القول أصحاب محمد ﷺ[1].

فحذَّر الله تعالى النبي الكريم وأتباعه من بعده تحذيراً متواصلاً من أن يستجيبوا لضغط الكفار والمنافقين المجادلين في أحكام وحقائق القرآن العظيم، فيذهب أولئك المؤمنون تفادياً لهذا الضغط أو تخفيفاً منه فيحرفوا معاني كتاب الله، ويخرجوها عن مواقعها ويصرفوا وضوحها وصراحتها. والتي تصب في النهاية في زعزعة هذه المسلمة الجليلة «لا إلٰه إلا الله» عبادة وتألهاً، «لا إلٰه إلا الله» تشريعاً وحكماً وخضوعاً.

وقد تعرض النبي الكريم ﷺ نفسه لضغط من الكفار هائل، ليحرف الكلم عن مواضعه، فيكتم شيئاً أو يحرف شيئاً مما أوحاه الله إليه تفادياً لضغطهم واستجابة لإغرائهم ـ وحاشاه ﷺ. فحذره ربه أعظم التحذير ونبهه أشد التنبيه، فقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝٧٣ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥﴾ [الإسراء: ٧٣ ـ ٧٥].

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٢).

ومعلوم أن قوله: ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾؛ أي: تفتري على الله غير هذا القرآن، والمعنى: تفتري على الله أحكاماً وتشريعاً غير ما أنزل الله في القرآن لثبوت عجز البشر جميعاً بمن فيهم رسول الله ﷺ أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فصار المعنى: تفتري على الله أحكاماً وشرعاً غير ما حكمه وشرعه في كتابه مما لم يعجب الكفار وأعداء الله ولم يرق لهم.

قال **الإمام الطبري** رَحِمَهُ اللَّهُ: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى أخبر عن نبيه ﷺ أن المشركين كادوا أن يفتنوه عما أوحاه الله إليه ليعمل بغيره، وذلك هو الافتراء على الله»[(١)].

وبهذا يظهر بجلاء أن دعوات المرسلين هي جهاد باللسان والبيان والسيف والسنان لتحرير البشر المنهكين المستعبدين من الطواغيت والشياطين، والذين استخفوهم واستعبدوهم لأنفسهم وأحكامهم وشهواتهم.

ـ أدرك فرعون وهامان وجنودهما أن دعوة نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هي دعوة حقيقية لتحرير البشر الذين يستعبدهم فرعون لنفسه، البشر الذين لم يخلقهم، ولم يرزقهم، ولا يملك لهم شيئاً لكنه استخفهم وسخرهم لنفسه، وجعل من نفسه رباً أعلى وإلٰهاً يُرجى.

ـ قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٢]، قال مجاهد: قهرتهم واستعملتهم.

وقال **ابن جريج**: قهرت واستعملت وغلبت بني إسرائيل.

وقال **قتادة**: أتمنّ علي أن اتخذت بني إسرائيل عبيداً»[(٢)].

ـ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ

---

(١) تفسير الطبري (٨/ ١١٩).

(٢) المصدر السابق (٩/ ٤٣٨ ـ ٤٣٩).

يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: ٤].

- ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: ٥، ٦].

- ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: ٥٤].

ولذلك فإن أسرع الناس استجابة للأنبياء هم الفقراء المسحوقون، والبسطاء المنهكون، الذين استذلهم الطواغيت والإقطاعيون، وبارونات الربا فهتكوا حريتهم واستعبدوهم سخرة لأنفسهم.

- ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الشعراء: ١١١ ـ ١١٣].

- ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود: ٢٧].

- في سؤالات هرقل عظيم الروم لأبي سفيان عن النبي ﷺ. قال هرقل لأبي سفيان: أفقراء الناس يتبعونه أم أغنياؤهم؟ قال أبو سفيان: بل فقراءهم، قال هرقل: كذلك أتباع الأنبياء»[(١)].

لأن هؤلاء الفقراء والضعفاء والبسطاء وجدوا في دعوات ورسالات المرسلين، تحريرهم من استعباد الكبراء بغير حق، وظلمهم، والبغي عليهم؛ لأن هؤلاء الفقراء والضعفاء والبسطاء وجدوا في رسالات الرسل الكرام تحرير عقولهم وقلوبهم من الأوهام والأساطير والأكاذيب التي يمليها عليهم قهراً الكبراء.

إنه باختصار الإعلان الوحيد لتحرير الإنسان؛ ليكون عبداً لربه وخالقه وحده لا شريك له.

---

(١) صحيح البخاري رقم (٧).

المقدمة الثانية

دور الكنيسة وآبائها في الحرب على الإسلام والمسلمين

المقدمة الثانية

دور الكنيسة وآبائها في الحرب على الإسلام والمسلمين

كَتَبَ المستشرقون عن القرآن الكريم كثيراً، وصنَّفوا المصنفات، ولاكوا الشبهات، وافتروا عظيم الافتراءات، ولكن المستشرقين في كل ما قالوا وفعلوا وكتبوا، ما هم إلا صدى يردد ما كتبه أسلافهم من كبار آباء وبطاركة الكنائس الشرقية والغربية على حدٍّ سواء، والناظر في كل الشبهات والافتراءات التي يذكرها المستشرقون عن القرآن الكريم سيجد أنها بعينها التي ذكرها وافتراها قبل بطاركة وآباء الكنائس، إلا أن المستشرقين، أذابوها وجملوها ثم باعوها وأكلوا ثمنها.

ومن هنا نعلم أن الحرب المستعرة على الإسلام ومصادره ووجوده وأهله سواء أكانت عسكرية حربية لقتل المسلمين وإضعافهم واحتلال بلدانهم وإذلالهم، أو فكرية علمية جدلية للتشكيك في أصول الدين الحق، ومصادره، وعلى رأسها وفي مقدمها القرآن الكريم، وفي دلائل نبوة النبي الخاتم محمد ﷺ، إنما مصدرها ومنشأها بل ومحركها وقائدها هي الكنيسة وآباء الكنيسة وبطاركتها الشرقية والغربية على حدٍّ سواء، وهذه دراسة موجزة لجهد وعمل الكنائس وآبائها وبطاركتها وقساوستها في تحريك وقيادة الحروب الصليبية الموجهة ضد المسلمين ونتائجها المدمرة؛ لتكون مقدمة لجهد وقيادة الكنائس وآبائها وقساوستها للجهد الفكري في محاولة إطفاء نور الله ومهاجمة القرآن الكريم وهو موضوع هذا الكتاب، وإنشاء مختلف أنواع الشبه ضده، وكذلك القدح في دلائل نبوة النبي الخاتم ﷺ.

أولاً: تأثر النصارى بكتابات العهد القديم المؤسِّسة للحرب ضد الإسلام والمسلمين:

- «الله محبة، فمن أقام في المحبة أقام في الله، وأقام الله فيه»[١].
- «أحبوا أعداءكم وصلّوا لأجل من يضطهدكم لكي تكونوا أبناء أبيكم السماوي الذي يشرق شمسه على الأبرار والفجار»[٢].
- «كل ما تكره لا تفعله لأحد من الناس»[٣].
- «كل ما تحبون أن يفعل الناس لكم فافعلوه أنتم لهم»[٤].
- «المحبة تصبر، المحبة تخدم ولا تحسد...، لا تحنق، ولا تبالي بالسوء،... وهي تعذر كل شيء وتصدق كل شيء وترجو كل شيء وتتحمل كل شيء»[٥].

لما اعتمد النصارى على مختلف طوائفهم توراة يهود وأسفار الأنبياء ضمن الكتاب المقدس، تحت مسمّى «العهد القديم».

ظهر التناقض الصارخ بين الدموية، والدعوة للحرب والقتل والإبادة التي تطفح بها كتب يهود، خصوصاً سفر «يشوع» وسفر «تثنية الاشتراع». وبين هذه النصوص في الأناجيل وكتب العهد الجديد الداعية للمحبة والتسامح، حتى مع الأعداء.

لقد لحظ بعضهم[٦] ذلك وسجّل اعتراضه فقال: «كيف يأمر الله

---

(١) الكتاب المقدس، العهد الجديد، إنجيل يوحنا، الإصحاح: ٤ (٨).
(٢) المصدر السابق، إنجيل لوقا، الإصحاح: ٥ (٤٤ ـ ٤٥).
(٣) المصدر السابق، سفر طوبيا، الإصحاح: ٤ (١٦).
(٤) المصدر السابق: إنجيل متى، الإصحاح: ٧ (١٢)، ولوقا، الإصحاح (٦/ ٣١).
(٥) المصدر السابق: الرسالة الأولى إلى أهل قورنثس، الإصحاح: ١٣ (٤ ـ ٧).
(٦) هو: الفيلسوف سابليوس وثني عاش في القرن الثاني الميلادي. انظر: موسوعة أعلام الفلسفة؛ لروني إيلي ألفا (١/ ٥٣١).

اليهود بواسطة موسى أن يلتمسوا الغنى والسلطة، ويتكاثروا حتى يملئوا الأرض، وأن يقتلوا أعداءهم ويذبحوا الأطفال، ويفنوا الشعوب عن بكرة أبيها، ثم يطلع علينا بعدها ابنه الناصري[١] بتعاليم مغايرة جدّاً تقول: أن لا الغني ولا الطامح إلى السلطة مؤهل للإقامة بجوار أبيه وأنه يفترض بك إذا ما تلقيت صفعة من أحدهم، أن تعرض نفسك لاستقبال أخرى! فمن تراه يكذب؟ موسى أم يسوع؟ وهل نسي الله عندما أرسل ابنه ما سبق أن قاله لموسى وجهاً لوجه؟»[٢].

وقد تصدى للرد عليه فيلسوف لاهوتي يدعى «أوريجانس»[٣] سالكاً مسلك التأويل الشديد على أنها نضال الروح ضد الجسد[٤]، فلم يقدم جواباً؛ بل زاد إشكالاً.

هذه النصوص التي يتغنى بها المصلون في كنائس النصارى على اختلاف طوائفهم لم تغن شيئاً دون بروز الرغبة في نفوس النصارى بالتفوق على بقية البشر، ووجوب حمل السلاح وإخضاع العالم تارة للكنيسة وتارة لأطماع الملوك والدول المسيحية المتعاقبة.

بل استخدموا مصطلحات «الحرب المقدسة»، «الحرب من أجل يسوع»، «الحرب العادلة»، وغيرها من الشعارات لتأجيج المشاعر ثم ممارسة القتل والحرب والإبادة باسم السيد المسيح والكتاب المقدس ومباركة الرب.

---

(١) يقصد: المسيح عليه السلام.

(٢) نقلاً عن كتاب: تاريخ التسامح في عصر الإصلاح؛ جوزيف لوكلير (٦٧ ـ ٦٨).

(٣) هو: الفيلسوف «أوريجينس» لاهوتي يوناني توفي سنة ٢٥٣م، في كتابه «الرد على سابليوس»، انظر: موسوعة أعلام الفلسفة، إعداد الأستاذ: روني إيلي ألفا (١/ ١٤٧).

(٤) انظر كتاب: تاريخ التسامح في عصر الإصلاح (٦٨).

ووجد الرهبان والقسس والأباطرة والملوك في الكتاب المقدس، وفي العهد الجديد أيضاً مضافاً إلى ما يطفح به العهد القديم ما يسند هذه النفسية المتعطشة للقتل والإبادة، من أجل شهواتها، ومن أجل الاستغلال وتوسيع الممالك، ونحو ذلك من الأهداف الدنيئة.

• في إنجيل متى[١]: «لا تظنوا أني جئت لأحمل السلام إلى الأرض، ما جئت لأحمل سلاماً بل سيفاً، جئت لأفرِّق بين المرء وأبيه، والبنت وأمِّها، والكَنَّة وحماتها، فيكون أعداء الإنسان أهل بيته».

• وفي إنجيل لوقا[٢]: «من لم يكن معي كان عليَّ[٣]، ومن لم يجمع معي كان مبدِّداً».

• وفي متى[٤]: «من لم يكن معي كان عليَّ، ومن لم يجمع معي كان مبدداً».

• وفي لوقا[٥]: «أتظنون أني جئت لأجل السلام في الأرض؟ أقول لكم: لا؛ بل الانقسام. فيكون بعد اليوم خمسة في بيت منقسمين ثلاثة منهم على اثنين، واثنان على ثلاثة، سينقسم الناس فيكون الأب على ابنه، والابن على أبيه، والأم على ابنتها، والبنت على أمها، والحماة على كنتها، والكنة على حماتها».

---

(١) الكتاب المقدس، العهد الجديد، إنجيل متى، الإصحاح: ١٠ (٣٤ ـ ٣٦).
(٢) المصدر السابق، إنجيل لوقا، الإصحاح: ١١ (٢٣).
(٣) تُرى هل كان الرئيس الأمريكي جورج بوش «الصغير» مستحضراً هذه الجملة من الإنجيل. عندما أعلن في أعقاب أحداث (١١/٩/٢٠٠١م) أن من لم يكن معنا فهو ضدنا، ليقسم العالم كله إلى أنصار له، وأعداء، ولو لم يسجلوا أي موقف عدائي لأمريكا.
(٤) الكتاب المقدس، العهد الجديد، إنجيل متى، الإصحاح: ١٢ (٣٠).
(٥) المصدر السابق، إنجيل لوقا، الإصحاح: ١٢ (٤٩ ـ ٥٣).

يقول الأب **مايكل بْرَير**: «تقدم الحروب الصليبية مثالاً صارخاً على الرابطة بين الدين والسلطة السياسية، وتمثل كيف تم توظيف «الكتاب» أداة للقمع، ويكفي هنا أن نشير إلى نمط التفكير الديني واللاهوتي اللذين قدَّما تسويغاً لمثل ذلك التصرف، ويمكن العثور على جذور التسويغ البابوي للعنف في إنكار القديس أغسطين الذي لجأ إلى «العهد القديم» ليظهر أن من الممكن أن يأمر به الرب مباشرة، لقد كانت الحرب التي شُنَّت باسم الرب «حرباً عادلة» بامتياز، وعُدَّ إنكار خُلُقية شن حرب موافق عليها سماويّاً نفياً لوجود العناية الإلٰهية بحد ذاتها. علاوة على ذلك فإن الرب سيساعد أولئك الذين خاضوا حروباً باركتها السماء، كما ساعد الربُ بني إسرائيل في الانتصار على الأموريين»(١).

يقول المؤرخ الشهير **آرنولد توينبي**: «إن اعتقاد بني إسرائيل المسجل كتابيّاً بأن «يَهْوَه» حضهم على إبادة الكنعانيين هو الذي أقر للإنجليز الاستيلاء على أمريكا الشمالية وإيرلندا واستراليا، وأقر للهولنديين الاستيلاء على جنوب أفريقية، وللبروسيين الاستيلاء على بولندا، وللصهاينة الاستيلاء على فلسطين»(٢).

ويقول الأب **مايكل بْرَير** أيضاً: «اكتشفت بعد عودتي من القدس في آب عام (١٩٩٤م) أن بعض التقاليد الكتابية، إضافة إلى كونها انتشرت دعماً للصهيونية؛ فإنها أيضاً قدمت جزءاً من التسويغ العقدي للفصل العنصري في جنوب أفريقيا أيضاً، وفوق ذلك قدم اللاهوت المسيحي الدعم الفكري للغزو الإسباني لأمريكا اللاتينية. إذن بدا واضحاً الآن أن القصص الكتابية أسهمت في معاناة أعداد لا تحصى من المواطنين المحليين الأصليين . . . إن القصص الكتابية قد شجعت فعليّاً

---

(١) الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني (٥٧).

(٢) المصدر السابق.

كل أشكال الاستعمار العسكري المنبعث من أوروبا من طريق تزويده بالشرعية السماوية للمستعمرين الغربيين في حماسهم لزرع «مراكز تقدم» في «قلب الظلام»... أن التفسير النزيه للتقاليد الكتابية التي تأمر بالأعمال الفظيعة، وجرائم الحرب قد قدمت العزاء والسلوى لأولئك المصممين على استغلال الأراضي الجديدة على حساب الشعوب المحلية الأصلية، هناك دليل وافر بأن «الكتاب» كان ولا يزال إلى حد ما المثل الأعلى الذي يسعى إلى استلاب الأرض بالفتوحات»(١).

إن ما أصاب اليهود من فوبيا ضد الأغيار، واستغلال للنصوص المقدسة لتبرير القتل والإبادة واستلاب الثروات، أصاب نظيره النصارى مع زيادة إرغام الناس على المسيحية أو القتل والإبادة باعتبار أنهم لا يستحقون الحياة.

وهي مخالفة صريحة لأعظم تعاليم «بولس الرسول» التي يتغنى بها النصارى من دعوته الصريحة لحرية الإنسان، وأن قبول المسيحية إنما هو للتحرر من عبودية الفساد؛ ولذا برّر لأتباعه تحمل اضطهاد اليهود لهم، تمسكاً بالحرية التي وفرّها لهم إيمانهم بيسوع المخلص.

في رسالته إلى أهل رومية نجده يقيم تعارضاً بين «عبودية الفساد» و«حرية أبناء الله ومجدهم»، فيقول: «وأرى أن آلام الزمن الحاضر لا تعادل المجد الذي سيتجلى فينا، فالخليقة تنتظر بفارغ الصبر تجلي أبناء الله، فقد أُخضعت للباطل لا طوعاً منها؛ بل بسلطان الذي أخضعها، ومع ذلك لم تقطع الرجاء لأنها هي أيضاً ستحرر من عبودية الفساد، لتشارك أبناء الله في حريتهم ومجدهم»(٢).

---

(١) الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني (٢٢ ـ ٢٤) باختصار.

(٢) الكتاب المقدس، العهد الجديد، رسالة إلى أهل رومة (٨/١٨ ـ ٢٠).

وفي رسالته إلى أهل غلاطية يقول: «إن المسيح قد حررنا تحريراً، فاثبتوا إذاً، ولا تدعوا أحداً يعود بكم إلى نير العبودية»[١].

لقد تميز العالم المسيحي عبر عصوره بالنزعة إلى الإبادة، والاحتلال. وفي هذا العصر الحديث بشكل كبير، الذي يستحق أن يسمى «عصر الرعب»؛ فإن العالم البشري كله اليوم يشهد في هذا العصر من الاضطراب والفوضى، وسوء المستقبل، وتجهم المصير ما يرعب القلوب، ويزلزل الأفكار... وقد أمسك بزمامها أمم كافرة ـ مسيحية ـ عملاقة «تستعمل قوة العفاريت بعقول الأطفال ـ كما قاله جود ـ... ومع سباق التسلح الرهيب، والتنافس في نشر أسلحة الفتك المبيد، أحس الناس بالهلع الذي يقض المضاجع»[٢].

يقول المفكر الألماني **«ديتر تسمر لنغ»** Dieter Zimmerling: «بالنسبة إلى كثيرين في العالم بأسره تحول قرننا إلى عصر رُؤْيَوي، كنا نحن الآخرين محض نظَّارة وإن كنا لم نبق بمنأى عن المشاركة فيه، من المنطقي إذاً أن يدور الحديث بالنتيجة عن: «عصر الخوف» و«عصر الحروب العالمية» و«نهاية كل أمان» وأخيراً عن «نهاية العصر الحديث».

تلك النزعة الإبادية كانت قد توطنت الخواطر، وهي تتلقى كل يوم غذاءً جديداً وتمدها كل نظرة نلقيها على الجريدة أو شاشة التلفاز بزاد وفير.

تقسم شعاراتها وتكثيفاتها الكلامية مثل: بيئة، مناخ، غابات، إبادة الشعوب، مجاعات، حروب، أوبئة، طاقة نووية، فائض السكان، وغير ذلك من كلمات مرعبة... لقد بدأ الإنسان رحلة إلى الجحيم لا أحد

---

(١) الكتاب المقدس، رسالة إلى أهل غلاطية (٥/ ١).

(٢) من مقدمة كتاب: منهج الأشاعرة في العقيدة؛ للدكتور: سفر بن عبد الرحمٰن الحوالي (٣ ـ ٤) باختصار.

غيره مسؤول عنها... سيهلك العالم ما دام هناك بشر، لذلك ثمة تصورات حول نهاية ما في مختلف الثقافات والأديان... غير أن المسيحية اخترقت هذا التصور وجعلت للزمان والمكان بداية ونهاية قطعيتين.

تخلت العلوم الطبيعية الحديثة التي تكونت في ركاب العقلانية والتنوير عن هذه التصورات، وركزت اهتمامها على تهيئة علاقات «فردوسية» للإنسان على الأرض... كما عُقِدت الآمال على رفع الإنسان إلى سوية أخلاقية أعلى؛ لكن لم يتحقق هذا الهدف في أي مكان كما يبدو... وكل الذي حدث هو ترقية نوعية الحياة على الصعيد المادي فقط في ما يسمى اليوم «العالم الغربي»[(١)].

ويقول المؤرخ والمفكر الأمريكي الشهير **نعوم تشومسكي** (Noam Chomsiky): «كان الأوروبيون يحاربون بهدف القتل، وكان لديهم من الوسائل ما مكّنهم من إرضاء شهوة الدم عندهم، فقد دهش السكان الأصليون في المستعمرات الأمريكية من وحشية الأسبان والبريطانيين، وبالمثل أرعب غضب آلة الحرب الأوروبية المدمرة شعوب أندونيسيا في الطرف الآخر من العالم»[(٢)].

ويقول «**باركر**»: «إن هيمنة الأوروبيين على العالم قد اعتمدت بشكل حاسم على الاستخدام المستمر للقوة، وبفضل تفوقهم العسكري، لا بفضل أية ميزة اجتماعية أو أخلاقية أو طبيعية، تمكن البيض من بناء وقيادة أول هيمنة عالمية في التاريخ وإن لفترة وجيزة»[(٣)].

ويقول **ديتر تسمر لنغ**: «نشأ الفرسان في ألمانيا من غير الأحرار

(١) كتاب: النهايات، الهوس القيامي الألفي (٧ ـ ٩) باختصار.
(٢) كتاب: سنة ٥٠١ الغزو مستمر (١٨).
(٣) المصدر السابق.

فكانوا يقاتلون من أجل سيدهم النبيل ثم يتباهون ويتفاخرون بعد ذلك بأفعالهم ويبالغون فيها إلى درجة أغرت إثارتها النبلاء بالانتساب إليهم.

وصف الأسقف **«بوتز يوسوتري»** من إيطاليا العليا ـ توفي عام (١٠٩٩م) في مؤلف وضعه عام (١٠٩٠م) عنوانه: «كتاب عن الحياة المسيحية»، ما كان منتظراً من المحاربين؛ أي: الفرسان، إنه بين أمور أخرى: القتال حتى الموت في سبيل خير الجماعة العامة، ومحاربة المرتدين والهراطقة، والدفاع عن الفقراء والأرامل والأيتام، والالتزام بقسم الولاء وعدم الشعور بالحسد تجاه سادتهم»[١].

لقد استخدم النصارى منذ القديم مصطلح «الحرب العادلة» لإبادة الشعوب الأخرى، والاستيلاء على أراضيهم ثم تنصيرهم بالقوة بعد ذلك.

يقول الأب **مايكل بْرَير**: «وهكذا أرسى «التنصير» الذي مارسته الكنيسة أساسات سلطة الدولة النهَّابة، ومنحها السلطة على ثقافة الشعوب الأصلية، وتمت مماهاة الرب بالغزاة الأوروبيين والشيطان بالكفار البرابرة، قدم التنصير الأساس العقدي للإخضاع تماماً كما قدم البارود والحصان الأساس العسكري، وكان كلاهما في خدمة الهدف الحقيقي للغزوات وهو الإخضاع الاقتصادي للمنطقة وقد استمد «دكرتوريه غرا كانو» «Decreto de Graciano»: التسويغ الأساسي للحرب المقدسة من العهد القديم (يشوع والقضاة وشاول وداود) عاكساً التفويض السماوي بشن حرب مقدسة للسيطرة على الأرض الموعودة، وإحكام قبضتهم عليها وثم تلطيف الشكوك بكون ذلك عدواناً عسكرياً من خلال ادعاء «أغستين» اليقيني بأن الحرب التي أمر بها الرب هي «حرب عادلة» حيث

---

(١) كتاب: النهايات، الهوس القيامي الألفي (١٢٢).

من غير الممكن أن يكون في الرب شر»[١].

ويقول أستاذ اللاهوت الألماني **لود فيغ هاغِمن**: «أما تاريخ المسيحية الغربية فقد وَضَع من جانبه، متأثراً بالأفكار الفلسفية في العصر القديم، النظرية التقليدية عن «الحرب العادلة/ Cbellum iustum» وكان هذا في الحقيقة تناقضاً واضحاً مع المسيحية في أقدم أشكالها، وهي التي كانت تتخذ لنفسها من الحرب والخدمة العسكرية مكاناً قصياً»[٢].

وقد اعتمدوا في إجبار الناس على الدخول في المسيحية والخضوع لها، على ما جاء في إنجيل لوقا[٣]: «أخرج إلى الطرقات والدروب وألزم الناس بالدخول حتى يمتلئ بيتي».

فأفادت عبارة: «ألزم الناس بالدخول»، في تسويغ حرب عادلة على الهراطقة.

حاول بعض شُراح الكتاب المقدس تفادي ما في هذه العبارة من استخدام القوة لإرغام الناس على الدخول في المسيحية فقال: «ليس المقصود هو العنف، بل دعوة ملّحة، هناك تفسيرات متأخرة أرادت استخدام هذا النص في سبيل الاهتداءات بالقوة ليس لها أي مبرر في هذا المثل، وكم بالأحرى في روح الإنجيل.

ثم يأتي «**توما الأكويني**» «Thomas Von Aquen» فيذكر المعايير الأخلاقية التي تسوغ شن الحروب والتي تحدد أهداف الحرب العادلة في الدفاع عن النفس أو الإحساس بالظلم وخدمة السلام، ونحو ذلك.

ولكن قبل أن يضع توما الأكويني في القرن الثالث عشر الميلادي

---

(١) كتاب: الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني (٨٢).
(٢) مسيحية ضد الإسلام (٥٠).
(٣) الكتاب المقدس، العهد الجديد، إنجيل لوقا، الإصحاح: ١٤ (٢٣ ـ ٢٤).

معاييره الأخلاقية، كانت الممارسات الحربية في المسيحية قد انتشرت وشاعت وكان رجال الكنيسة من أمثال «**البابا غريغور يوس الأول**» بين عامي (٥٩٠ ـ ٦٠٤) يدعو إلى الحرب لنشر المسيحية.

وكانت الحرب تعد وسيلة مناسبة للانتقام من إهانة فعلية أو متوهمة للمسيح، أو المساس بالعقيدة المسيحية.

بل إن الحرب كذلك تأمن مجال النفوذ المسيحي وتوسيعه، ونتج من ذلك الحملات الحربية الشعواء التي قام بها الإمبراطور «**شارلمان**» ضد شعوب الجرمان والسُّلاف، وضد المسلمين في أسبانيا على ضفاف جبال البيرنيه(١).

وهكذا ارتبطت فكرة «الحرب العادلة» بمفهوم الحرب على الكفار.

وضَمِنَ البابوات من أمثال «**البابا ليون الرابع**» (٨٤٧ ـ ٨٥٥م) و«**البابا يوحنا الثامن**» (٨٧٢ ـ ٨٨٢م) الحياة الأبدية والاتصال بالمسيح للذين يسقطون في القتال ضد المسلمين وضد النورمانديين الوثنيين.

وهكذا أصبحت الحرب المقدسة لتوسيع نفوذ الكنيسة والرعاية البابوية لها، هي التي مهدت لفكرة الحروب الصليبية على نحو حاسم وجعلتها في النهاية تتحول إلى حقيقة واقعة.

يقول المفكر الألماني **ديتر تسمر لنغ**: «طاف البابا أوربان الثاني منذ أشهر فرنسا داعياً لمشروعه الكبير: حملة الصليب، مدعياً أن الشرق طلب بإلحاح عوناً مسلحاً ضد السلاجقة المسلمين. قال البابا: إن الفرسان النبلاء يتكاسلون ويتشاجرون في حين يحتل الوثنيون الأماكن

---

(١) مسيحية ضد الإسلام (٥٠ ـ ٥١)، وكتاب الحرب المقدسة، تأليف: جان فلوري (١٣٠ ـ ١٣٥)، وكتاب ورثة الإمبراطورية الرومانية، تأليف: ريتشارد. أ. ساليفان (١٠٩ ـ ١١٨).

المسيحية المقدسة ويتوطنون فيها، إنه يعتقد بوجود فرصة سانحة لتوجيه فائض قوة الفروسية نحو أهداف جديدة، أهداف أعلى، ليسود السلام في الداخل، وتنقل الحرب إلى الخارج»(١).

والعصر الحاضر لا يختلف عن سابقه في حب الغرب المسيحي للحرب والقتال إن لم يكن أشد وأقسى، ودخول البعد الديني فيه واضح.

يقول البرفسور الدانماركي «**نيلز لمكة**»: «منذ سنوات قليلة، دُعيت لإلقاء محاضرة على قساوسة الجيش الدانماركي عن موضوع «الحرب في العهد القديم» كما دُعي زميلي في دراسات العهد الجديد بالأسلوب نفسه لإلقاء محاضرة عن «الحرب والعهد الجديد» قبلت الدعوى بسرور بدافع من قناعتي أن ثمة الكثير لأقوله... في اليوم المحدد للمحاضرة وصلت إلى الحفل لا أحمل معي سوى نسختي من الكتاب المقدس، وأنا أقول بإمكاننا أن نختار صفحة من العهد القديم لا على التعيين، وسيكون هناك بالتأكيد شيء ذو صلة بموضوعنا، وما تبين في النهاية، من دون امتلاك أي نوع من المخطوط أو المذكرات، تمكنت بسهولة من تسلية الحضور لمدة حوالي ساعة عن الحرب في العهد القديم.

هذا جانب واحد من جوانب الموضوع، أما الجانب الآخر فله علاقة بالعنف الغربي، الذي له تاريخ طويل جدّاً، منذ عدة سنوات، عندما وصلت النزعة الإجرامية «Hooli Ganism» في كرة القدم إلى أسوئها، شرح عالم اجتماع بريطاني أسباب هذه النزعة في الرياضة الحديثة، وفسّرها على هذا النحو: «نحن الأوروبيون ببساطة نحب القتال»...

---

(١) النهايات: الهوس القيامي الألفي (١٢٦).

إن القتال ينتمي على نحو ما إلى موروثات الإنسان الغربي، قد تتغير الطريقة التي نقاتل بها، لكننا بالأساس نحب القتال، إن هدف هذه المحاضرة هو مع ذلك ليس أن أعد ملخصاً لنشاطات القتال، ولا أن أعلق على الشؤون الحديثة في هذه المنطقة، فهي ليس محاضرة سياسية؛ بل أن أجمع الشهوة الواضحة لدى الغربيين للحرب والغزو مع العقيدة الموجودة في أحد الأعمدة الأساس للحضارة الغربية؛ أي: العهد القديم. . .

إن ما أود التشديد عليه هو أن العنف الذي لا معنى له، الذي هو جزء من الحروب الأوروبية قد يكون له ألوان عقدية، يمكن أن تمثلها على سبيل المثال فظاعات الحرب العالمية الأولى في الخنادق، مع الحرب الكيميائية بوصفها الوسيلة النهائية للحرب، أو الحرب العالمية الثانية التي وصلت إذا جاز القول خاتمتها المشهدية «Spectacular» عندما تم إلقاء قنبلتين نوويتين فوق مدينتين يابانيتين»[١].

ويقول أيضاً: «بهذه الطريقة كان على النمط السائد للتاريخ أن يقدم خلفية لأجل خبرة المستقبل ودولة أمة (دولة قومية) يمكنها أن تستدعي مواطنيها الكثيرين إلى شن الحرب لمصلحة الأمة، فكانت النتيجة مدمرة. إن حروب «نابليون بونابرت» كلفت خمسة ملايين شخص على الأقل أرواحهم، والحروب الألمانية ربما كلفت عشرة أضعاف هذا الرقم[٢]»[٣].

---

(١) يشوع والعنف الغربي، ضمن الجديد في تاريخ فلسطين القديمة (١٠٣ - ١٠٥).

(٢) الكاتب هنا يتحدث عن كلفة الحروب في أوروبا، أما ما فعله الاستعمار الغربي في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية فأمر مهول حقاً.

(٣) يشوع والعنف الغربي (١١٤).

ويضيف **لمكة**: «تتغير الأحوال عندما يقدم الدين عقيدة الحرب، عندما تصبح الحرب حملات صليبية تهدف إلى تدمير العقيدة المنشقة، ويقدم التاريخ أمثلة كثيرة على ذلك قديماً وحديثاً، من الواضح أن عقيدة الصليبيين في العصور الوسطى كانت توجهها عواطف كتلك التي صاغها سفر يشوع: إنها إرادة الرَّب «Deus Vult» صرخة الحرب الشهيرة للصليبيين قبل أن يقوموا بذبح سكان القدس لكي ينتقلوا إلى كنيسة الضريح المقدس ليسبّحوا بحمد الرب ويحتفلوا بانتصاره، من الواضح مع ذلك أن الطرفين [المتحاربين] في أثناء الحرب العالمية الثانية كانا يحملان مثل هذه العواطف وخاضا حرباً كان ينظر لها الطرفان على أنها حملة صليبية مقدسة، فكانت في عيني الأمريكي حرباً حقيقية بين الخير والشر، هكذا كانت مذكرات الحرب الخاصة بالجنرال «أيزنهاور» التي حملت عنوان «حرب صليبية في أوروبة «Acrusade in Europe»، وقد خيضت بوحشية لا سابق لها، لا رحمة، لا قيود، ولا قواعد للاشتباك»[1].

يصور لنا «**ديتر تسمر لنغ**» صورة قاتمة ومرعبة لما ينتظر البشرية.

فيقول: «كان لا بد من وقوع حرب عالمية ثانية، وبناء قنبلة ذرية جربت فعليّاً على عدو ومن ممارسة النهب الأكثر فظاعة للمواد الأولية الطبيعية، ومن نمو سكاني انفجاري الطابع، وتدمير حادث أو مرتقب لمجالات حياة الإنسان، والحيوان والنبات، كان لا بد من مرور زمن لا نهاية له، قبل أن يدرك أناس بصيرون، خاصة أن له أبعاداً قيامية وأن الإنسان صنعه بنفسه فلا يجوز أن تسأل عنه أية قوة متعالية إلا إذا كان يرى فيه فعل الشيطان كي يبرئ نفسه»[2].

---

(١) يشوع والعنف الغربي (١١٩).

(٢) النهايات: الهوس القيامي الألفي (١٨٧).

يضيف **تسمرلنغ**: «جسدت الأسلحة النووية الإسهام الأكثر قذارة في الموت المعاصر للعالم بعد أن جرب الأميركيون عام (١٩٤٥م) باليابانيين ما يمكن لأسلحتهم النووية فعله بالبشر، وتعادل الاتحاد السوفيتي مع أميركا في تقنية السلاح الذري، بدأ سباق التسلح النووي إلى أن صار بوسع كل واحدة من القوى النووية القضاء مرات عديدة على مختلف أنواع الحياة في الأرض»(١).

يضيف: «وفقاً للاتجاهات المسيطرة في السياسة، ولتقنيات التدمير، يعدّ نشوب حرب عالمية ـ ثالثة ـ محتمل الحدوث كما استخلصت دراسة نشرت في لندن، عنوانها: الصراع في الفضاء الكوني. قالت الدراسة: «إن الشرق والغرب سيحتاجان ذات يوم إلى خوض تجربة قوة من أجل تسوية تناقضاتهما»(٢).

يضيف: «تريد إسرائيل إضافة السلاح النووي إلى ترسانتها، كي تحافظ على تفوقها العسكري حيال جيرانها العرب، وقد كدست مائتي رأس نووي(٣) إلى الآن، ورفضت كالهند وباكستان توقيع اتفاقية حظر انتشار الأسلحة النووية»(٤).

ألقت الولايات المتحدة قنبلة نووية على هيروشيما باليابان، وأخرى على ناغازاكي يوم السادس من آب عام (١٩٤٥م).

---

(١) النهايات: الهوس القيامي الألفي (١٩٣). (٢) المصدر السابق (١٩٣ ـ ١٩٤).

(٣) أثبت الصحفي الأمريكي الشهير: «سيمور هيرش» بالوثاق امتلاك إسرائيل لنحو (٣٠٠) رأس نووي تستطيع تدمير العالم العربي ثلاث مرات وتدمير نفسها أيضاً على مبدأ «الخيار شمشون »؛ لأنه يعتني بمقولة شمشون كما تروي التوراة الذي هدم المعبد على نفسه وعلى آسرِية الفلسطينيين بعد معركة دامية. انظر كتاب: «الخيار شمشون» لسيمور هيرش.

(٤) النهايات: الهوس القيامي الألفي (١٩٦).

لم يغب البعد الديني والتجذير الإيماني لمباركة هذا التدمير الإجرامي الذي لم يعرف له البشر مثيلاً.

فيقول **«ديتر تسمر لنغ»** في اندهاش وسخرية: «كتب شخص بخط يده على التقرير المسجل يوم (٢٦) تموز من عام (١٩٤٥م) حول المادة الانشطارية المستخدمة في قنبلة هيروشيما يقول: «هذه المادة التي استعرضناها نقلها «بارسن» و«تيبت»[١] لتكون حصة هيروشيما من يوم القيامة».

واستنزل الكاهن الميداني «وليام دوناي» بركة الرب على بعثة هيروشيما من خلال الصلاة التالية: «أيها الأب العلي القدرة الذي يصغي إلى صلوات من يحبونه، نرجوك أن تقف إلى جانب من يحلقون في أعالي سمائك لينقلوا القتال إلى أعدائنا ... نضرع إليك أن تجعل نهاية الحرب وشيكة كي ننعم من جديد بالسلام على الأرض ... سنواصل معتمدين عليك طريقنا لأننا نعرف أننا تحت حمايتك: الآن وإلى الأبد...آمين، استجاب الرب لدعائه»[٢].

ثانياً: الحملات الصليبية لنشر المسيحية وإبادة الأمة الإسلامية في التاريخ الوسيط (القرون الوسطى):

بعد دخول القدس تحت حكم المسلمين السلاجقة السُّنَّة في القرن الثاني عشر الميلادي. أطلق الإمبراطور **«الكسيوس الأول كُمنتُس»** (Alexia's I komnenos) نداء استغاثة إلى البابا **«أوربان الثاني»** وعلى إثره انعقد المجمع الكنسي في كلير مونت (Cler Mont) في (٢٧/ ١١/ ١٠٩٥م).

---

(١) الطياران اللذان قادا الطائرة التي ضربتا هيروشيما.

(٢) النهايات: الهوس القيامي الألفي (١٩٧ ـ ١٩٨).

وكان هدف انعقاد هذا المجمع: تحرير القدس من أيدي الكفار (أي: المسلمين).

يقول «**ديتر تسمر لنغ**»: «دعا «**أوربان الثاني**» إلى عقد مجمع لرؤوساء الكنائس في كليرمونت... كما أبدى رغبته في التحدث علناً إلى الشعب، الذي يعرف لغته؛ لأنه من أصل فرنسي نبيل فجمع الناس يوم ٢٧ تشرين الثاني عام (١٠٩٥م) في ساحة كبيرة وشارك في الحشد عدد ضخم من رجال الدين بينهم رهبان، وحضر الفرسان وصغار النبلاء (التجار والحرفيون) إلى جانب المتسولين، انتظر هؤلاء البابا بتلهف وتوتر، ظهر «**أوربان الثاني**» في أردية احتفالية بابويه، يرافقه أساقفة في ملابسهم الكهنوتية حين تقدم البابا إلى الأمام، وصمت الحشد فقال: «يا شعب الفرنجة، يا شعب شمال الألب، أنتم بدلالة أعمالكم الكثيرة شعب الرب المحبوب والمختار... إن شعب إمبراطورية فارس الغريب والكافر، مهزوز الطباع... احتل أراضي المسيحيين وأفرغها من أهلها بالموت، والنهب والحرق، وساق قسماً من الأسرى إلى بلاده، وقتل القسم الآخر أشنع قتلة، ودمر كنائس الرب تدميراً منظماً... إنهم يدنسون الهياكل بفظاعاتهم ويهدمونها ويختنون المسيحيين ويسكبون دم الختان على المذابح أو في أجران العماد... لمن غيركم نترك الثأر لهذا الهوان، ولمن غيركم نكل تحرير هذه الديار، لقد منحكم الرب سمعة قتالية ممتازة وأعطاكم الشجاعة والقوة التي تحنون بها هامات أعدائكم لا بد أن تضعوا حدّاً للكراهية فيما بينكم... انطلقوا إلى القبر المقدس وانتزعوا تلك الأراضي من الشعب الكافر وأخضعوه. يقول الإنجيل: إن العسل واللبن يسيلان هناك، إن القدس مركز الأرض كأنها فردوس ثاني. باركها المخلص بقدرته. وزينها بتبدلات حياته وقدسها بآلامه، وخلصها بموته، وميزها بقبره... سيروا إذاً تكفيراً عن خطاياكم، لتنالوا مجداً

لا يزول في الملكوت السماوي»[(١)].

يعلق **«ديتر تسمر لنغ»**: «ربط البابا أوربان الثاني بطريقة لا تُجارى روح العصر بالمشاعر اللحظية فهيَّج الشعب في ساحة «كلير مونت» وحمله على جناح الكلمات إلى محط جميع الأشواق إلى بلاد الأحلام، والفردوس إلى مركز الكون، عندما تقدم الأسقف «أديمارفون بوي» نحو البابا وأعلن بصوت جهوري رغبته في أن يكون أول محارب ضد الوثنيين، بدا وكأن في الأمر لعبة متفقاً عليها. الحقيقة أن «أوربان الثاني» كان قد عينه خلال محادثات تمهيدية قاصداً رسوليّاً ومرافقاً دينياً لرحلة الحج المقررة، غير أن الجمهور كان يجهل هذا بطبيعة الحال.

حذا آخرون حذو الأسقف.. لا يكون الذاهب إلى الحج في«سنتياغو» مسلحاً؛ لأن فرسان الأخوية يحمونه، أما من يذهب إلى الحج في الديار المقدسة، فيجب أن يحمل هو نفسه السلاح.. لاقت الكنيسة مصاعب في تبرير استخدامها السلاح رغم أن «أغسطين» كان قد وضعه في يدها من خلال مذهبه حول «الحرب العادلة» تكون الحرب مبررة ويسمح بخوضها إن كانت للدفاع عن أمر استرداد ممتلكات منهوبة أو شنت ضد هراطقة ومرتدين ثم من جانبه وسّع البابا «غريغروس الكبير» دائرة «الحرب العادلة» لتشمل إخضاع الوثنيين واعتبرها حرباً مقدسة، فحدد البابا «أوربان الثاني» شهر آب من عام (١٠٩٥م) موعداً لانطلاقها»[(٢)].

- أعلن البابا «أوربان الثاني» عن بدء الحملة الصليبية الأولى.

ودعا الجنود المسلحين بالصليب إلى أن يخوضوا الحرب من أجل المسيح، وضمن لهم الصفح والغفران عن كل خطاياهم.

---

(١) النهايات: الهوس القيامي الألفي (١٢٦ ـ ١٢٨) وانظر كتاب: الخلفية الأيدلوجية للحروب الصليبية: د: قاسم عبده قاسم (١١٥ ـ ١٢٦).
(٢) النهايات: الهوس القيامي الألفي (١٢٩ ـ ١٣٠).

وتشكلت المؤسسات التي تحمل الطابع الديني والعسكري ومن أشهرها:

- رهبان الحرب (Cister Ciars).
- فرسان الهيكل (Templars).
- الأخويّات (Orders).
- ميلشيا القديس بطرس (militia Sancti Peters).

وقد وضع لهم القدِّيس «**برنار كلرفو**» تشريعاً خاصاً يقضي بأن: القتل من أجل المسيح هو القضاء على الظلم، فقتل وثني[1]؛ يعني: حقاً أن تكسب المجد؛ لأن ذلك مجد المسيح.

ويُعطي الفرسان وجبتين يتم تناولهما بصمت مع قراءة مؤثرة من الكتاب المقدس مع تركيز خاص على سفري «يشوع» و«المُكابيين»، ليجد الجميع الإلهام في مآثر «يهوذا المُكَابي» من أجل استعادة الأرض المقدسة من أيدي الكفار المتوحشين.

ويخطب البابا «أوربان الثاني» في الحشود المحاربة التي حملت الصليب القماشي الضخم وهم يصرخون: «هذه إرادة الرب/ Deus Lo Vult»، ويقول: «إن تحرير «أورشليم» من «الأجناس النجسة»[2] التي دنَّسَت الأماكن المقدسة وعاملتها بطريقة غير محترمة تسوِّغ عدوان المسلحين بالعهدين القديم والجديد، وقد حملوهما في يدٍ، والسيف في اليد الأخرى، والصليب على جباههم وعلى صدورهم استجابة لما يحض عليه الإنجيل» «ومن لا يحمل صليبه، ويلحق بي فهو غير جدير بي»[3].

---

(١) أي: مسلم.
(٢) كانت القدس في ذلك الوقت تحت حكم المسلمين السلاجقة.
(٣) إنجيل متى (١٠/٣٨) وانظر لما تقدم كتاب: مسيحية ضد الإسلام. تأليف =

• تخرج الحملة الصليبية الأولى في سنة (١٠٩٧م) إلى القسطنطينية، وفي سنة (١٠٩٨م) يتم الاستيلاء على أنطاكية، وفي شهر تموز عام (١٠٩٩م) يتم غزو القدس. وتقام المجازر.

ويعترف أستاذ اللاهوت الألماني «لو فيغ هاغِمن» فيقول: «إن حمام الدم الذي أقامه الصليبيون هناك يدع كل الدوافع الدينية المسيحية تتحول إلى كلام فارغ، وجرى تحقيق الهدف العسكري لهذه الحملة: وهو توطيد السيادة المسيحية في الشرق الأدنى، ونشأت أربع دول صليبية «مملكة القدس» و«إمارة أنطاكية» و«دوقيّتا أنطاكية وطرابلس» ومن أجل الدفاع عن المناطق المغزوة تأسست نظم رهبنة تجمع بين نظام الأديرة والنظام العسكري معاً ومن أهمها فرسان القديس يوحنا وفرسان المعبد ونظام الرهبنة الألماني»[1].

يقول الأستاذ «**ديتر تسمر لنغ**»: «اقتحم حملة الصليب القدس عام (١٠٩٩م) وأعلنوها في العام التالي عاصمة مملكة جديدة. ثم تبعت حملة الصليب الأولى حملات أخرى قصدت الديار المقدسة وبلداناً أخرى؛ لكن المسيحيين خسروا فلسطين في النهاية»[2].

ويبتهج الجميع وهم يرددون نشيد المديح للسيد المخلص:

«تسيل أنهار كثيرة من الدم، الذي سفحناه بسعادة، من شعب الخطيئة.

فابتهجي يا قدس.

تغطت أحجار بلاط الهيكل بسيقان الموتى جميعاً.

= لودفيغ هاغمن (٥٣ ـ ٥٤)، وكتاب: الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني؛ للأب مايكل برير (٥٧ ـ ٥٨).

(١) كتاب: مسيحية ضد الإسلام (٥٤).

(٢) كتاب النهايات (١٣٠).

فابتهجي يا قدس.

أُلقوا بهم إلى النار وتهللوا فرحاً، أيها الطيبّون، فالأشرار ينزفون.

وابتهجي يا قدس».

يعلق «**ديتر تسمر لنغ**»: «إنه ببساطة غناء رؤيوي وقيامي تبرز لحظة نهاية الزمن في حملات الصليب لدى من يسمون الفقراء أكثر مما تبرز لدى جيوش الفرسان لما تردد نداء «أوروبا الثاني» في فرنسا وعبر حدود البلدان المجاورة لها، سمعه أناس لم يكن البابا يفكر فيهم أول الأمر... فجاء الفقراء والمحرومون والمظلومون وعديمو المِلْكية يطالبون بحصتهم في المشروع الكبير..»[1].

• وفي عامي (١١٤٧ ـ ١١٤٩م) يعلن «البابا أوجين الثالث» الحملة الصليبية الثانية.

وحوصرت دمشق وانتهت هذه الحملة بالإخفاق.

• وكان استعادة «صلاح الدين الأيوبي» ﵀ للقدس من أيدي الصليبين سنة (١١٨٧م) السبب في قيام الحملة الصليبية الثالثة بين عامي (١١٨٩ ـ ١١٩٢م) وأخفقت وبقيت القدس في أيدي المسلمين.

• وبين عامي (١٢٠٢ ـ ١٢٠٤م) قامت الحملة الصليبية الرابعة والتي دعى لها «البابا إنوسنت الثالث» ومنيت بالإخفاق.

يقول أستاذ اللاهوت الألماني «**لودفيغ هاغمن**»: «ومن الفصول بالغة المأساوية في تاريخ الحروب الصليبية حملة الأطفال الصليبية في عام (١٢١٢م) إذا انتهت في «مرسيليا»، ومن ثم في «برند يزي» حيث مات قسم كبير من الأطفال أو بيعوا أرقاء»[2].

---

(١) كتاب: النهايات (١٣١) باختصار.

(٢) مسيحية ضد الإسلام (٥٦).

ويقول «**ديتر تسمر لنغ**»: «شهدت نهاية عصر الحملات الصليبية أمراً أصاب الناس في أوروبا بالدهشة، فقد تجمعت في شهري آذار وأيار من عام (١٢١٢م) عُصب كبير من الأطفال ونصف اليافعين، وأعلنت رغبتها في الحج إلى الديار المقدسة. . .كان هؤلاء إذا ما سألهم أحد عن وجهتهم: قالوا: ادع إلى الرب، وأنهم يريدون تحقيق ما عجز عنه آباؤهم: أعني استرداد قبر المسيح، بدؤوا مسيرتهم فقصدوا الراين الأعلى ثم جبال الألب حتى وصلوا إلى «جَنَوا» وعددهم سبعة آلاف كما يقال. . .اختفت آثار الأطفال. . .شُحِنوا على ظهر سبعة سفن غرقت اثنتان قرب «سردينيا»، ووصلت الأخرى إلى مرافئ في الجزائر، ومصر، حيث أسروا وبيعوا كعبيد»[1].

يعلق «**ديتر تسمر لنغ**» فيقول: «لماذا تُرك صبية صغار ببطون خاوية، وأرجل حافية، وأجسام عارية يذهبون إلى هلاكهم، ويتم تشجيعهم على تحقيق مشروعهم. . .على المرء أن يضع عواطفه جانباً إذا أراد فهم ظاهرة: «الأطفال في حملة الصليب»[2].

• وفي أواسط القرن الثالث عشر الميلادي وعند قيام الحملة الصليبية الخامسة سنة (١٢٢١م) وكانت هذه الحملة تحاصر مدينة «دمياط المصرية» عند مصب الذراع الأيمن لنهر النيل، حدث لهذه الحملة عاملان خطيران وحدثان مهمان:

الأول: أنها الحملة الصليبية التي شاركت فيها البابوية الكنسية بفعالية ومشاركة مباشرة.

يقول «**ريتشارد سوذرن**»: «قد كانت الحملة الوحيدة التي شاركت

---

(١) كتاب: النهايات (١٣٥) باختصار.

(٢) المصدر السابق (١٣٦ ـ ١٣٧) باختصار.

فيها البابوية مشاركة فعالة؛ بل إنها هي التي قادتها من خلال وكيل بابوي وجهها بتصميم وبدون رحمة إلى نهايتها المحتومة. وقد كادت تشكل نقطة تحول في التاريخ الأوروبي ثم تحولت فجأة إلى هزيمة كبرى، قليلاً ما عرفت لها أوروبا مثيلاً»(١).

والثاني: يقول الأستاذ «**رضوان السيد**»: «وفي لحظة تاريخية حاسمة نحو أواسط القرن الثالث عشر الميلادي، انقض حَدَثٌ هائل غيَّر مجاري الاهتمام أو أنه حولها لعقود قادمة، كان فرسان الحملة الصليبية الخامسة يحاصرون دمياط، ويرجون أن تسقط مصر كلياً في قبضتهم عندما نُمِيَ إليهم أن ملكاً مسيحياً مشرقياً يقود جحافل ضخمة انطلاقاً من جورجيا، وقد اجتاح بلاد فارس، وهو يتقدم لاجتياح بغداد وإنهاء الإسلام فيما وراء الفرات. وإذا تحقق الأمل خلال شهور فإن معنى ذلك أن يلتقي المنتصرون في مصر والشام من المسيحيين الغربيين بأولئك المسيحيين المشرقيين، فيزول الإسلام من الأرض»(٢).

لقد نمت عند الصليبين إبان الحملة الصليبية الخامسة أسطورة: أن ملكاً مسيحياً مشرقياً قادم بقوة هائلة لاجتياح العالم الإسلامي من جهة الشرق اسمه: «الأب يوحنا» أو «الملك داود».

ولم يكن في الحقيقة هذا الأب يوحنا سوى «جنكيز خان» المغولي قائد التتر المغول الذي اجتاح المشرق الإسلامي كله ثم خلفه حفيده «هولاكو» الذي وصل واجتاح بغداد بعد ذلك سنة (٦٥٦هـ) (١٢٥٦م).

وتقدم الكتابات المسيحية المختلفة ثلاث روايات عن «جنكيز خان» أو «الأب يوحنا» أو «الملك داود».

---

(١) كتاب: صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى (٨٨).

(٢) مقدمة كتاب: مسيحية ضد الإسلام (١٦).

الرواية الأولى:

أنه الملك داود الابن الأصغر للملك إسرائيل بن الملك سيرجيوس بن الأب يوحنا، بن الملك بولغا بوغا المسيحي(١).

والرواية الثانية:

قدمها الرحالة الشهير «ماركو بولو» Marco polo»، في كتابه الشهير «وصف العالم»، أن جنكيز خان تزوج ابنة الأب يوحنا وأخذ مكانه(٢).

والرواية الثالثة:

قدمها المؤرخ الجورجي «بروسِت» «Broscet»، وهي أن الأمير المغولي «جنكيز خان» تسلق جبلاً عالياً وشهد تجلي سيد العالم يسوع المسيح الذي علمه العدل والدين القويم، والطهارة والأمانة ورهبة الكذب، والسرقة وسائر الرذائل، وقال له: إذا اتبعت هذه المبادئ فسأعطيك وقومك الأرض كلها، اذهب لإخضاع كل ما تستطيعه من البلاد، وبعد أن فتح جنكيز خان «قاين» ذهب إلى «خاتاي» شمال الصين، حيث أراد أن يرى داخل إحدى الكنائس، وما إن رأى صورة مخلصنا يسوع المسيح حتى خر ساجداً على الفور وهو يصلي قائلاً: «هذا هو الإنسان الذي رأيته على جبل «التشين» وهذه كانت ملامحه، وهو نفسه الذي علمني كل ما هو صحيح فعله»(٣).

هذا وقد أشار «شيخ الإسلام ابن تيمية» إلى نوع من التشابه بين اعتقاد المغول في «جنكيز خان» واعتقاد النصارى في «المسيح».

فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وذلك أن اعتقاد هؤلاء التتر كان في جنكسخان

---

(١) كتاب: الأب يوحنا والمغول، تأليف: ديفيد مورغان (٢١٣).

(٢) كتاب: ماركو بولو هل وصل إلى الصين، تأليف: فرنسس وود (١٥).

(٣) تاريخ جورجيا (٤٩٠)، وقارن مع البداية والنهاية لابن كثير (١٣/١١٨).

عظيماً؛ فإنهم يعتقدون أنه ابن الله من جنس ما يعتقده النصارى في المسيح ويقولون إن الشمس حَبَّلَت أمه، وأنها كانت في خيمة فنزلت الشمس من كوة الخيمة فدخلت فيها حتى حبلت، ومعلوم عند كل ذي دين أن هذا كذب وهذا دليل على أنه ولد زنا، وأن أمه زنت فكتمت زناها. وادعت هذا حتى تدفع عنها معرة الزنا، وهم مع هذا يجعلونه أعظم رسول عند الله في تعظيم ما سنَّه لهم وشرعه بظنه وهواه حتى يقولوا لما عندهم من المال. هذا رزق جنكسخان ويشكرونه على أكلهم وشربهم وهم يستحلون قتل من عادى ما سنَّه لهم هذا الكافر الملعون المعادي لله ولأنبيائه ورسوله وعباده المؤمنين»[(١)].

وأيّاً كان فقد شاعت هذه الأسطورة عند النصارى في أوروبا وكانت هي سبب بعثة المبشرين إلى وسط آسيا لاستحثاث نصرة هذا الملك المسيحي لهم في حربهم للمسلمين إبان الحملات الصليبية المتكررة، ومن أشهر هؤلاء المبشرين «ماركو بولّو» ووالده «مافيو بولّو» وعمه «نيكولا بولّو».

تقول الدكتورة «**فرنسس وود**» «Frances»: «ومثيل تلك الأهداف كان لها أهمية كبيرة في نظر حكام أوروبا المسيحيين حتى بدا وكأن الرحالة التبشيريين في العصر الوسيط كانوا فعلاً منتشرين في سائر أرجاء آسيا الوسطى من أدناها إلى أقصاها، وعلى الرغم من أن «وصف العالم» لماركو بولو هو الوصف القروسطي[(٢)] الأكثر شهرة لمنغوليا والصين؛ فإن عدد الوثائق التبشيرية الباقية يبعث على الدهشة حقاً، فهناك رسائل بالفارسية والمنغولية من خانات المغول محفوظة في الفاتيكان، ومركز الوثائق الوطني الفرنسي. . .

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٢١ ـ ٥٢٢).

(٢) أي: القرون الوسطى.

وكانت الأسباب الأشد إلحاحاً التي دفعت حكام أوروبا المسيحيين إلى الاتصال بالمغول في الطرف الآخر من العالم متناقضة، فالحملات الصليبية المختلفة التي جُردت بين عامي (١٠٩٦ ـ ١٢٠٧م) بدأت بمبادرات عسكرية لحماية طرق الحجاج إلى مدينة القدس، ثم ما لبثت أن تحولت إلى عمليات عسكرية مباشرة أكثر صراحة، هادفة إلى استعادة أجزاء من الأراضي المقدسة، التي كان حكام مسلمون مختلفون قد وطدوا احتلالهم إياها، وفي مواجهة قوة السيطرة الإسلامية، فكر القادة المسيحيون بتحالفات ممكنة مع الحكام المغول الذين كان موطنهم يقع خلف المواقع الإسلامية الحصينة... وفي عملية إرسال المبشرين إلى المغول، كان الباباوات مثلهم مثل الحكام المسيحيين واقعين تحت تأثير الإشاعات الدائرة حول وجود حاكم «مسيحي» في الطرف الآخر من العالم، يدعى «الأب يوحنا» وقد ساد شعور بأن هذا الحاكم المسيحي ربما كان مستعداً لمد يد العون لأولئك الذين يدافعون عن المسيحية في مواجهة الإسلام»[١].

ويقول الأستاذ «**ريتشارد سوذرن**»: «فالمغول الذين ظهروا على المسرح التاريخي رغم نزعتهم التخريبية المدمرة لم يكونوا من المسلمين. فإنهم لم يكونوا يشكلون خطراً على المسيحية الأوروبية من الناحيتين: الفكرية والعسكرية، ثم نشأ موقف معقد نوعاً ما، فالمغول القساة كانوا بحكم الضرورات الجغرافية أعداء للإسلام وليس للمسيحية الأوروبية، وقد أمل لاهوتيون كثيرون إمكان استخدام المغول أداة لضرب الإسلام عن طريق اتباع سياسة ذكية في التعامل معهم وفهم أهدافهم القريبة»[٢].

وكان الوكيل البابوي المصاحب للحملة الصليبية الخامسة

(١) كتاب: ماركو بولو، هل وصل إلى الصين (٣٥ ـ ٣٦) باختصار يسير.
(٢) صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى (٨٦).

المحاصرة لدمياط بمصر قد كتب إلى البابا «غريغوريوس التاسع» عن الآمال الضخمة بالانتصار القريب بمساعدة «الملك داود» القادم من الشرق، وهذا نص الرسالة:

«إن العليّ الأعلى يقف إلى جانبنا، ويريد أن ينصر دينه فقد عانى شعبه الكثير ولا يزال يعاني، وقد سمع سبحانه دعاء الضعفاء واستغاثاتهم فكما أخبرنا أخونا المحترم «بلاغيوس Palagius» أسقف «ألبانو ALbano» ووكيل الكرسي الرسولي، فقد أسرع «الملك داود» المعروف بـ«الكاهن يوحنا» وهو ـ كاثوليكي يخشى الله ـ على رأس جيش ضخم إلى بلاد فارس، فهزم سلطانها في معركة حامية، ثم استمر في زحفه بقلب البلاد عشرين يوماً فاستولى عليها كلها، وقد سقطت في قبضته مدن كثيرة وقلاع وهو الآن على مبعدة عشرة أيام من بغداد مدينة السلام، ودار الخليفة الذي يعتبره «السرازانيون»[١] أسقفهم الأعلى. هذا كله أثار فزع سلطان حلب شقيق سلطاني دمشق والقاهرة، الذي كان يخطط لمساعدة أعداء المسيحية الذين يقفون في مواجهة جيوشنا عند دمياط، فوجّه أسلحته ضد «الملك داود» عندها كتب وكيلنا إلى الجيورجيين ـ وهم كاثوليك شجعان شاكو السلاح ـ مستغيثاً بهم ضد السرازانيين، لذا نأمل أن تتمكن جيوشنا عند دمياط عندما تتلقّى المساعدة المنتظرة من احتلال أرض مصر كلها في فصل الصيف، إذ في هذا الوقت ستكون جحافل الأمراء السرازانيين التي اجتمعت من كل أفق لردّ الهجمة على مصر مضطرة للتفرق والعودة إلى بلادها للدفاع عن حدودها»[٢].

يعلق الأستاذ «**ريتشارد سوذرن**» على هذه الرسالة فيقول: «يُظهر

(١) يعنون بهذا المصطلح «المسلمين».
(٢) المصدر كتاب: صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى. تأليف: ريتشارد سوذرن (٨٨ ـ ٨٩).

هذا النص بوضوح الآثار الأولى التي تركتها هجمات المغول على النفسية الأوروبية فقد أيقظ الاعتقاد بوجود جيوش مسيحية كاثوليكية خارج العالم الإغريقي الروماني، آمالاً ضخمة في أعماق اللاهوتيين ورجال السياسة... وبكلمة واحدة كان الغرب يقف للمرة الأولى على عتبة إنهاء المسألة الإسلامية بواسطة جحافل مسيحية ضخمة زاحفة من الشرق الأقصى، لقد حلّ الوقت الذي ستتمكن فيه المسيحيتان الشرقية والغربية من الالتقاء لحصار عدوهما المشترك وسحقه....ولكنها فشلت»(١).

كان لهذا التزامن بين الهجمات المغولية الشرسة على المسلمين من الشرق والحملات الصليبية الحاقدة على المسلمين من أوروبا المسيحية ولهذا الاعتقاد بوجود جيوش مسيحية قادمة من الشرق نتائج مهمة على النصارى في صراعهم وحربهم على الإسلام والمسلمين. وأهم هذه النتائج:

١ ـ استمر بابوات أوروبا ببعث المبشرين إلى الشرق لبعث التقارير عن المغول وأحوالهم والوجود المسيحي ونحو ذلك، وكلهم كانوا يبعثون بوجود الأمل بالجحافل المسيحية القادمة من الشرق.

فمن «باكون» الإنجليزي إلى «فلهلم روبرك» الفلمنكي، إلى «وليم الطرابلسي» الفرنسي، إلى «يوركا ردوس دي مونت» الصهيوني الألماني(٢) وغيرهم.

تقول الدكتورة «**فرنسس وود**»: «وصل إلى «قره قُرُم» أوائل

---

(١) انظر كتاب: صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى لريتشارد سوذرن (٩٠).

(٢) المصدر السابق (١٠٨)، وفصل: المبشرون في كل مكان من كتاب: ماركو بولو هل وصل إلى الصين (٣٥ ـ ٤١).

المبشرين المسيحيين المسلحين بالرسائل البابوية والمكلفين العثور على أناس تحولوا إلى المسيحية، وعلى حلفاء محتملين بين صفوف المغول قبل قيام الأخوين بولو برحلتهم الأولى إلى الشرق»[١].

٢ ـ قامت علاقات وزيارات بين المغول وأوروبا المسيحية توجت بقيام بعثة مغولية بزيارة لأوروبا عام (١٢٨٥م) يرافقها مسيحيون من الطائفة النسطورية أرسلهم «طغرل بك» أو «طووريل خان» ملك القيراتيين ـ وهم شعب منغولي وطنه في منغوليا الوسطى وهم كانوا نصارى نسطوريين يعود تاريخ اعتناقهم للمسيحية إلى القرن الحادي عشر.

وجرى تحالف بين «طغرل بك» ملك القيراتيين والزعيم المغولي «يسوغي».

ويذكر التاريخ السري للمغول أنه بعد وفاة الزعيم المغولي «يسوغي» ظهر رجل اسمه «تيموشين» أو «تمرجين»[٢] ادعى أنه ابن الملك «يسوغي» وتسمى باسم «جنكيز خان» ونشأ تحالف جديد بين القيراتيين والمغول أدى إلى صعود جنكيز خان إلى موقع السلطة والنفوذ في منغوليا»[٣].

هذا وقد حضرت هذه البعثة المغولية عام (١٢٨٧م) قُدّاساً برئاسة البابا في كنيسة القديس بطرس بروما[٤].

يعلق الأستاذ «**ريتشارد سوذرن**» فيقول: «يا لهذه الأعوام الرائعة، فالإمبراطورية المغولية الممتدة حتى الصين تتحول قريباً إلى المسيحية،

---

(١) ماركو بولو هل وصل إلى الصين (٣٦ ـ ٣٧).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٢/٢٤٣).

(٣) انظر: الأب يوحنا والمغول، ديفيد مورغان (٢١٨ ـ ٢١٩).

(٤) صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى (١٠٨ ـ ١٠٩).

ولم يبق للإسلام إلا أن ينسحق أو يهتدي أتباعه للمسيحية عن طريق الفلسفة التي ملكتها المسيحية عن الإغريق من خلال المفكرين المسلمين. . .هذا كله كان حلماً عظيماً رائعاً»[١].

٣ ـ وكان من أهم نتائج هذه الدعايات بوجود «الأب يوحنا» في شرق العالم: أن قامت الحملة الصليبية الخامسة برفض عرض السلام الذي تقدم به إليهم الملك الأيوبي، الملك الكامل «محمد بن عبد الملك العادل أيوب».

قال **الحافظ الذهبي**: «وَبَذَلَ لَهُم الكَامِل قَبْل مجِيْء النّجدَة القدس وطبرية وعسقلان وجبلة واللاذقية وأشياء على أن يَردّوا لَهُ دِمْيَاط فَأَبَوا، وَطَلَبُوا مَعَ ذَلِكَ ثَلَاث مائة أَلْف دِيْنَار ليعمرُوا بِهَا أَسوَار القُدْس، وَطَلَبُوا الكَرَك، فَاتّفقَ أَن جَمَاعَة مِنَ المسلمين، فجروا من النيل ثلمة على نزلة العَدُوّ، فَأَحَاط بِهِم النِّيل فِي هيجَانه، وَلَا خِبرَة لَهُم بِالنِّيل، فَحَال بَيْنهُم وَبَيْنَ دِمْيَاط، وَانقطعت المِيْرَة عَنْهُم، وَجَاءُوا وَذلوا، فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِ الأَمَان عَلَى تَسْلِيم دِمْيَاط، وَعَقدَ هدنَة، فَأُجيبُوا، فَسلمُوا دِمْيَاط بَعْد اسْتَقْرَارهم بِهَا ثَلَاث سِنِيْنَ، فَلِلَّه الْحَمد»[٢].

وفي ذلك يقول **الشاعر البهاء زهير**:

وأقسم إن ذاقت بنو الأصفر الكرى   لما حلمت إلا بأعلامك الصفر
ثلاثة أعوام أقمت وأشهرا   تجاهد فيه لا بزيد ولا عمرو

يقول «**ديفيد مورغان**»: «إذا كانت الأنباء الدائرة حول تقدم «جنكيز خان» أو «الملك داود» ساعدت على جعل الصليبيين في دمياط يتخذون قراراً يقضي برفض عرض السلام السخي الذي جاءهم من

---

(١) صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى (١٠٩).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢٢/١٢٩ ـ ١٣٠).

السلطان الأيوبي الكامل؛ فإن الملك داود أثبت أنه عديم الجدوى، مثله مثل سلفه المفترض «الأب يوحنا»، ومهما يكن فإن جنكيز خان انسحب في عام (١٢٢٣م) من الشرق الأوسط ليعود إلى منغوليا، وتوفي هناك في عام (١٢٢٧م)، وبعد ذلك لم يعاود المغول المساس بالوعي الغربي بقوة حتى بدأت أخبار غزو «باتو» لروسيا وأوروبا الشرقية في أعوام (١٢٣٧ ـ ١٢٤١م) تتوارد، وقد مضى بعض الوقت حتى تمكن العالم المسيحي الغربي من فهم الهجوم الكبير.... إن فكرة «الأب يوحنا» كانت قد باتت راسخة حتى أصبحت غير قابلة للدحض بوصفها وهماً مضللاً ببساطة وتعين على الناس أن يبحثوا عن العاهل اللغز في مكان آخر غير شخصية جنكيز خان وأسرته المباشرة، ولكن المغول كانوا قد أصبحوا قوة مهيمنة في آسيا بما يحتم ظهورهم في ثنايا القصة هنا أو هناك»[(١)].

وقد كان للحملات الصليبية على المشرق الإسلامي انعكاسها الخطير على حروب المسيحيين ضد المسلمين لاستعادة أسبانيا وإخلاء أوروبا من الوجود الإسلامي.

فمنذ أن وضع «شارل مارتل» الفرنسي «Karl Martell» نهاية للتقدم الإسلامي بالانتصار الذي أحرزه في معركة «بواتييه» في إقليم تور «Tors» وبواتييه «Poities» سنة (٧٣٢م) وهي المعركة التي يسميها المسلمون «بلاط الشهداء» لكثرة من قتل فيها من المسلمين وعلى رأسهم قائدهم عبد الرحمٰن الغافقي، وكانت في ٢١ من شهر أكتوبر سنة (٧٣٢م) الموافق شهر رمضان سنة (١١٤هـ). فمنذ هذه المعركة وحروب الاستعادة من قبل الأوروبيين لا تزال مستمرة.

يقول الأستاذ «**لودفيغ هاغمن**»: «ولكن الوضع تغير فقد أخرج

---

(١) الأب يوحنا والمغول (٢١٧).

النورمانديون المسلمين من فرنسا وإيطاليا وصقلية. أما في أسبانيا فقد كانت للمسلمين قدم بلغ من رسوخها أن استعادة إسبانيا بالغزو أو ما سمي الاستعادة «Reconquisto» استغرق حتى نهاية القرون الوسطى»(١).

ويقول أيضاً: «كانت فكرة الحرب الصليبية قد اشتعلت في أوروبة إلى درجة بلغ معها أنه سرعان ما أعلن عن حملات أخرى على أنها حروب صليبية. وقد جرى إدراك حرب الاستعادة من أيام البابا «أوربان الثاني»، وهي استعادة الأقاليم التي حكمها المسلمون من إسبانيا بالغزو على أنها حرب صليبية. وأضفى على ألوان القتال ألوان الغفران والامتيازات ذاتها كما فعل تجاه الصليبيين في الشرق»(٢).

ورغم أن المسيحيين الأسبان وكذلك اليهود عاشوا حياة هادئة وادعة تحت حكم المسلمين في الأندلس. ولم يبادوا أو يرغموا على اعتناق الإسلام. إلا أن الحقد الصليبي والكره المسيحي لكل ما هو مسلم ظل مسيطراً على الأسبان لا تزيده الأيام إلا سُعاراً شديداً.

يقول «**ريتشارد سوذرن**»: «تقضي تعاليم القرآن بحماية المسيحيين «أهل الكتاب الذميين» وعدم التعرض لعقائدهم أو لحياتهم على أن يؤدوا الجزية للمسلمين، وبمقتضى ذلك احتفظوا بمطارنتهم وكهنتهم ورهبانهم ودياراتهم. ثم إن فئة منهم تولّت مناصب معتبرة في ديوان صاحب قرطبة. ويبدو هذا كله أمراً طيباً...

في هذه الحقبة من الزمان كانت الحضارة الإسلامية ذات اللسان العربي تنمو وتزدهر وتحقق إنجازات عبقرية في الأندلس في المجالات كلها، وكانت كثرة الإسبان المسيحيين تشارك في الاستمتاع بميزات هذه

---

(١) كتاب: مسيحية ضد الإسلام (٤٥).

(٢) المصدر السابق (٥٧ ـ ٥٨).

الحضارة ومنجزاتها. ولم يكن منتظراً والحالة هذه أن تنشأ موجات من عدم الرضا بين الإسبان بمواجهة العرب المسلمين ولم ينفرد المسيحيون الإسبان بموقف التسليم والمشاركة هذا، بل انتشر هذا الإحساس بين المجموعات غير المسلمة في كل الأقطار التي ضرب فيها الإسلام بجذوره»[١].

وبعد تسجيل «ريتشارد سوذرن» هذا الاعتراف بتسامح المسلمين وحمايتهم للمسيحيين وكذا اليهود في الأندلس.

يسجل ما يلي: «وقد رأى اللاهوتيون الغربيون فيما بعد أن حماية المسيحية من الإسلام لا تكون إلا بضربه عسكرياً والاستيلاء على أرضه أو إقناع معتنقيه باتخاذ المسيحية ديناً»[٢].

ويقول البروفيسور «**نيلز لمكة**»: «من الخطأ إذاً القول إن العرب الذين فتحوا فلسطين قللوا من الوجود اليهودي في البلاد، كما أنهم لم يطلبوا من السكان السابقين الدخول في الإسلام، لقد كان يجري التسامح مع اليهود والمسيحيين لكونهم أهل الكتاب»[٣].

ويسجل «لودفيغ هاغمن» هذه الشهادة أيضاً: «حين وضع شارل مارتل في عام (٧٣٢م) نهاية للمسيرة المظفرة للقوات الإسلامية. كان مقدراً لهذا أن يكون إيذاناً بحدوث انعطاف في الأبعاد التاريخية، إذ بات الإسلام منذ الآن مضطراً إلى التقهقر شيئاً فشيئاً عن أوروبا الغربية، إلى أن توارى في النهاية عام (١٤٩٢م) ولكن هناك بين هذين التاريخين قروناً

---

(١) صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى (٥٦ ـ ٥٨) باختصار.
(٢) المصدر السابق (٥٩).
(٣) كتاب: استخدام التاريخ ذريعة للاستيلاء على الأرض، مطبوع ضمن كتاب: الجديد في تاريخ فلسطين القديمة (١٢٧).

من الزمان[١]، فكيف أمكن أن تنتهي الأمور إلى هذا التطور، أوَلم يكن اليهود والنصارى والمسلمون خلال عصر الحكام الأمويين بين عامي (٧٥٦م و١٠٣١م) يعيشون معاً على الإجمال حياة وادعة على شبه جزيرة «إيبريا» التي دخلت بأكملها تحت السيادة الإسلامية خلال القرون الوسطى؟

لا ريب في ذلك... تشكلت منذ القرن العاشر جبهة هجومية بطيئة لكنها صلبة من الملوك النصارى على الحدود كانت تصب في خانة حركة الاستعادة، بدأت بسقوط طليطلة عام (١٠٨٥م) وانتهت بسقوط غرناطة عام (١٤٩٢م) الذي نجمت عنه معاناة لا مثيل لها وقمع وطرد للسكان من اليهود والمسلمين»[٢].

يقول **الأستاذ أحمد رائف**: «لم يكن ينتظر المسلمين بعد السقوط غير الإبادة طعنة غادرة بليل، أو تحريق بالنيران في ميدان عام، بعد المرور على ديوان التحقيق إلى محكمة شحنت بالأحبار والرهبان. أو التنصير. التنصير الحقيقي...

وكان موكب «الأوتودافي Auto-da-Fe» يمر بشوارع المدينة.. فهو موكب الإحراق، فهم يقودون المحكوم عليهم بالموت حرقاً عبر الطرقات حتى الساحة... ثم يتم حرقهم وسط ضجة المتفرجين وهياجهم...

---

(١) دخل الإسلام أوروبا على يد القائد المسلم طارق بن زياد في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ونزل جيش طارق في الجبل الذي يحمل اسمه إلى اليوم يوم ٥ رجب سنة ٩٢هـ الموافق ٢٧ إبريل سنة ٧١١م، وانهزم القوط بقيادة رودريك في معركة وادي «لكه» في رمضان سنة ٩٢هـ يوليو سنة ٧١١م فيكون بين دخول الإسلام أوروبا سنة ٧١١م وغروبه بسقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م: ٧٨١سنة.

(٢) مسيحية ضد الإسلام (٥٨).

وكانوا يأتون بأهل المحكوم عليهم ليشاهدوا ما يحدث... ولا يمكنهم أن يمتنعوا ويعلوا صراخ البنين والبنات والزوجات والأمهات.... هكذا كانوا يفعلون بالمسلمين»[١].

ويسجل المؤرخ والمفكر الأمريكي الشهير «نعوم تشومسكي» «Noam Chomsky» شهادته فيقول تحت عنوان: «جور الأوروبيين الوحشي»: «كان للفتوحات الإسبانية البرتغالية نظير محلي، ففي عام (١٤٩٢م)[٢] تم تهجير اليهود الإسبان، أو إرغامهم على التحول للمسيحية. وعانى ملايين المور[٣] من المصير ذاته. لقد سمح سقوط غرناطة في عام ١٤٩٢م والذي ختم ثمانية قرون من سيادة المور، لمحاكم التفتيش الإسبانية بتوسيع سيطرتها البربرية، وأتلف الغزاة كتباً ومخطوطات لا تقدر بثمن بما حملته من سجل غني للتعاليم الكلاسيكية، ودمّروا الحضارة التي ازدهرت في ظل حكم المور المتسامح المثقف، وهكذا أعدت إسبانيا المسرح لانحدارها، وكذلك الوحشية وعنصرية غزو العالم، إنها «لعنة كولومبوس» حسب كلمات المؤرخ الإفريقي بازيل دافيد سون»[٤].

---

(١) كتاب: وتذكروا من الأندلس الإبادة (٢٥١ ـ ٢٥٢) باختصار وانظر بقية الكتاب فإنه مهم.

(٢) هي السنة التي سقطت فيها غرناطة الإسلامية.

(٣) المور «Moors» هي التسمية التي أطلقها الإسبان على المسلمين والعرب في الأندلس. انظر مقدمة الدكتور حسين مؤنس لكتاب: أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر؛ لأحمد بن يحيى الونشريسي (١٣ ـ ١٧).

(٤) كتاب: سنة ٥٠١ لغزو مستمر (١٣ ـ ١٤).

المقدمة الثالثة

موارد المستشرقين
بين أحبار اليهود وقساوسة النصارى

المقدمة الثالثة

موارد المستشرقين بين أحبار اليهود وقساوسة النصارى

كتب المستشرقون عن القرآن الكريم كثيراً، وصنفوا المصنفات، ولاكوا الشبهات، وافتروا عظيم الافتراءات، ولكنَّ المستشرقين في كل ما قالوا وفعلوا وكتبوا، ما هم إلا صدى يردد كتابات أسلافهم من كبار آباء وبطاركة الكنائس الشرقية والغربية على حد سواء؛ بل وما كتبه ولاكه حاخامات يهود أيضاً، والناظر في كل الشبهات والافتراءات التي يذكرها المستشرقون عن القرآن الكريم سيجد أنها بعينها التي ذكرها وافتراها قبل بطاركة وآباء الكنائس، إلا أن المستشرقين أذابوها وجملوها ثم باعوها وأكلوا ثمنها(١).

ومن هنا نعلم أن الحرب المستعرة على الإسلام ومصادره ووجوده وأهله سواء أكانت عسكرية حربية لقتل المسلمين وإضعافهم واحتلال بلدانهم وإذلالهم، أو فكرية علمية جدلية للتشكيك في أصول الدين الحق، ومصادره وعلى رأسها وفي مقدمتها القرآن الكريم، وفي دلائل نبوة النبي

---

(١) ذكر عبد الرحمٰن بدوي في موسوعة المستشرقين (٥٩٥): أن شيخ المستشرقين الألمان، ورائد الكتابة الاستشراقية عن القرآن الكريم «تيودور نيلدكه (١٨٣٦ ـ ١٩٣١م)»، ألَّف دراسته الواسعة عن «تاريخ القرآن»، حين أعلنت أكاديمية باريس عن جائزة لبحث يُكتب في هذا الموضوع، فتقدم نيلدكه وحصل على الجائزة مقاسمة مع زميليه «واشبر نجر» و«ميكليه أماري» إذ حصل كل واحد منهم على مبلغ «١٣٣٣½» فرنك فرنسي.

الخاتم محمد ﷺ، إنما مصدرها ومنشأها؛ بل ومحركها وقائدها هي الكنيسة وآباء الكنيسة وبطاركتها الشرقية والغربية على حدٍ سواء.

وهذه مقدمة في دراسة الكتابات الأولى عن القرآن الكريم والنبي الخاتم محمد ﷺ لدى بعض حاخامات يهود، وكذلك الكتابات الأولى لقساوسة النصارى، والتي يمكن اعتبارها الدراسات الاستشراقية الأولى التي مهدت الطريق، وأعطت المحاور والأفكار للدراسات الاستشراقية الحديثة.

بدأ الحديث لدى اليهود والنصارى عن الإسلام والقرآن ومحمد ﷺ مبكراً جدّاً، ولقد تركزت دراساتهم على أمرين اثنين:

١ ـ القرآن الكريم باعتباره «المصدر الوحيد الموثوق به كلياً» على حد تعبير المستشرق «مكسيم رودنسون»[(١)].

٢ ـ شخصية رسول الله ﷺ ودلائل نبوته.

فالباحثون سواء كانوا من حاخامات يهود أو قساوسة النصارى عندما يكتبون ويتحدثون عن دينهم أو تاريخهم أو المسيرة التاريخية لأنبيائهم، يقع لهم خلط واضح بين ما هو «ديني ـ ميثولوجي ـ غيبي»، وبين ما هو «دنيوي تاريخي ـ واقعي».

«والحقيقة أن الباحثين اليهود عموماً، لم يستطيعوا التخلص من البذرة «الغيبية ـ الميثولوجية»، التي تأخذ في أحيان كثيرة دور المرشد، والدليل في توجيه مسارات بحوث يفترض أنها واقعية علمانية بالكامل، من ناحية أخرى فالمسيحية، رغم علمانيتها المشهودة خاصة في الأزمنة المتأخرة ما تزال تحاول حتى الآن قسر النصوص المتقدمة السابقة لخدمة التوجهات العقائدية الخاصة بها، فالعهد القديم، على سبيل المثال يُطوّع بغير وجه حق علمي، لجعله بشيراً أو نذيراً بالمسيح، رغم أن الحقيقة

---

(١) انظر بحثه: «محصلة إجمالية للدراسات المحمدية» (١٩٢).

التاريخية للشخصية الأخيرة ما تزال محط جدل بين الباحثين اللادينيين»[١].

ولكنهم عندما يكتبون عن الإسلام والقرآن يطالبون بالأدلة الواقعية والرقوم التاريخية، وينكرون المقدّس في الإسلام، فيخرجون بصورة مشوهة هم في الحقيقة يريدونها.

أولاً

الكتابات اليهودية القديمة عن القرآن والنبي محمد ﷺ، وأثرها في الاستشراق.

[١] «أسرار الحاخام شمعون بن يوحاي»[٢]:

من أقدم النصوص اليهودية التي تحدثت بسلبية شديدة عن النبي محمد ﷺ والإسلام.

تبدأ هذه الأسرار بذكر صلاة الحاخام شمعون بن يوحاي وتضرعه

---

(١) انظر مقدمة الدكتور نبيل فياض لكتاب: الإسلام المبكر في أربعة نصوص يهودية (١١).

(٢) من أعظم حاخامات يهود في القرن الثاني الميلادي يقول عنه: «برنارد لويس»: «تُعزا له واحدة من أهم الأبوكاليبتات اليهودية، نُشرت صلاة الحاخام شمعون بن يوحاي للمرة الأولى على يد «أدولف يلنك» عام ١٨٥٥م من مخطوطة نادرة، وبدأ وكأنها تعتمد جزئياً على عمل أقدم من نمط مشابه يحمل عنوان: «أسرار الحاخام شمعون بن يوحاي»، فكتاب «الأسرار» نُشر للمرة الأولى ضمن مختارات سالونيك عام ١٤٧٣م، ثم أعاد «يلنك»، بعد ذلك طباعته»، انظر رؤيا أبوكاليبتية للتاريخ الإسلامي (٥ ـ ٦).
وقد ترجمها إلى العربية ضمن مجموعة نصوص الدكتور نبيل فياض، طبع المركز الأكاديمي للأبحاث تحت عنوان «نصوص يهودية مبكرة»، عليها أعتمد هنا في النقل.

في أحد الكهوف الذي كان مختبئاً فيه، ثم زعم بأنه فتحت له أبواب السماء ورأى رؤيا إلهية وفاضت عليه الأسرار المستقبلية، ومن أهمها ظهور مملكة «الإسماعيليين»، وهي مملكة العرب المسلمين أبناء إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام.

ويأتي ذكر النبي محمد ﷺ مشوهاً مكذوباً مغلوطاً، ففي نص كتاب الأسرار: «بسبب ظلمهم لإسرائيل ـ المقصود مملكة القينيين ـ سوف يرسل القدوس المبارك «الإسماعيليين» ضدهم، الذين يشنون حرباً عليهم كي يخلصوا إسرائيل من أيديهم، ثم يظهر رجل مجنون تتملكه روح، ويطلق أكاذيب حول القدوس، المبارك، ويغزو الأرض، وهنالك عداوة بينهم وبين أبناء عيسو»[١].

هذا النص أسس لكل المواقف والدراسات عن النبي الخاتم محمد ﷺ لدى اليهود، وهذا الوصف «المجنون» سيتوارد على إطلاقه على النبي الخاتم محمد ﷺ، كل الحاخامات اليهود بعد.

ولكن النُّسخ من كتاب الأسرار اختلفت في هذا الإطلاق:

١ ـ فالنسخة التي أخرجها وشرحها «برنارد لويس» نص فيها كما نُقل سابقاً.

٢ ـ والنسخة المُسَمّاة «الفنيزا»[٢] النص فيها هكذا: «يقيم عليهم نبياً مجنوناً تتملكه روح، ويغزو الأرض لأجلها ويأتون إليه، وستكون هناك عداوة عظيمة بينهم وبين أبناء عيسو».

---

(١) كتاب: أسرار الحاخام شمعون بن يوحاي، ضمن كتاب: الإسلام المبكر في أربعة نصوص يهودية (٢٥) ترجمة: د. نبيل فياض.

(٢) نشر المستشرق «فرنهايمر» قطعة من «الفينيزا» تحتوي نسخة مختلفة من الفقرات الافتتاحية «للأسرار» تحت عنوان «صلاة الحاخام شمعون بن يوحاي» طبعت سنة ١٨٩٤م، حسبما أفاد د. نبيل فياض، الإسلام المبكر (١٧).

٣ ـ ونسخة ثالثة من مخطوطة عبرية في ميونيخ[١] يشبه نصها نص «الفينيزا».

يعلق «برنارد لويس» فيقول: «نقول من جديد، إنه في نص سالونيك للأسرار، يظهر محمد كنبي، والذي يقيمه الله عليهم بحسب إرادته، أما في الملوك العشرة فلا توجد إشارة لا لله ولا للنبي، وصورة محمد ذاته تصبح مشوّشة مع صور الخلفاء الأوائل، في الصلاة يزداد انزياح الوهم، وهكذا فقد أصبح «رجلاً مجنوناً، تتملكه روح»، وهذه العبارة ربما تكون تلميحاً إلى سفر هوشع «٩:٧» [ليعلم إسرائيل أن النبي غبي، ورجل الروح مجنون]، والتلميح في الملوك العشرة إلى محاولته: «إيذاء إسرائيل» ربما يكون صدى تعاملات محمد مع اليهود في المدينة المنورة، في حين أن الإشارة إلى «عظماء إسرائيل» الذين ينضمون إليه مأخوذة عن أسطورة موجودة في المراجع اليهودية والمسيحية، وربما ترتكز على نسخة محرفة من حكاية أو حكايتين في التقليد الإسلامي»[٢].

وأصبح هذا الوصف «المجنون» تقليداً في جميع الكتابات اليهودية، وأصبح وصف القرآن الكريم بأنه «روح تملكت النبي» سيأتي وصفها بعد بأنها روح شريرة أيضاً تقليداً كتابياً يهودياً.

[٢] الرسالة اليمنيّة:

للحاخام الأكبر والفيلسوف موسى بن ميمون، «موشيه بن ميمون»، القرطبي الإسرائيلي وينطق اسمه كثيراً باليونانية «مزيس ميمونديس»، هو

---

(١) أفاد الدكتور نبيل فياض باطلاعه عليها ونقلها في كتابه: الإسلام المبكر (١٧ ـ ١٨) ونقل نصّها.

(٢) تفاسير كتاب الأسرار (٤٥)، وانظر كتاب: «محمد وصحابته اليهود» للمستشرق «ج. ليفين» (٣٩٩ ـ ٤٠٦) تحديداً.

المرجع التوراتي والشارح للمَشْنا، والفيلسوف والطبيب، وصف بأنه أشهر شخصية يهودية في حقبة ما بعد «التلمود»(١).

وهذه الرسالة «الرسالة اليمنيّة» كتبها الحاخام موسى بن ميمون للطائفة اليهودية المقيمة باليمن وإلى رئيس هذه الطائفة اليمنية: الحاخام «نيتانئيل الفيومي» الذي يرد اسمه في مقدمة الرسالة، يثبتهم فيها الحاخام موسى بن ميمون على الديانة اليهودية، في مواجهة الاضطهاد الذي تعرضت له الطائفة في اليمن في ذلك الوقت كما يزعم، وانتقال بعض اليهود إلى الإسلام، وكتبها موسى بن ميمون سنة (١١٧٢م)(٢).

• **موقف موسى بن ميمون من رسول الله ﷺ ومن القرآن الكريم:**

لموسى بن ميمون في رسالته هذه موقف سيئ جدّاً من خاتم الأنبياء محمد ﷺ، التقط موسى بن ميمون وصف «مجنون» كما جاء في «أسرار الحاخام شمعون بن يوحاي» السابق ذكرها، وأطلقها على رسول الله محمد ﷺ في كل رسالته، فهو لا يذكره إلا بهذا الوصف.

يقول **موسى بن ميمون**: «بعده(٣) ظهر مجنون نافس سلفه كونه مَهَّد له الطريق لكنّه أضاف غرضاً آخر تجلى في الحكم والتسليم له»(٤).

---

(١) ولد موسى بن ميمون في قرطبة بالأندلس سنة (١١٣٥م)، وأصبح الحاخام الأكبر لليهود في العصور الوسطى من أهم أعماله: تفسير المَشْنا، وهو كتاب السراج، وكتاب دلالة الحائرين، والرسالة اليمنية، توفي سنة (١٢٠٤م) في مدينة الفسطاط بمصر، انظر عنه كتاب: طبقات الأطباء لابن أبي أُصيبعة (٥٨٢)، وقصة الحضارة، وِلْ ديورانت (١٤/ ١٢١).

(٢) اعتمدت على النسخة التي ترجمها وقدّم لها الدكتور: نبيل فياض، وطبعها المركز الأكاديمي للأبحاث، تورنتو كندا، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م.

(٣) أي: بعد ظهور «يسوع الناصري» الذي تقدم حديث موسى بن ميمون عنه في رسالته هذه.

(٤) الرسالة اليمنية (٤٨).

أما الوصف بالجنون فما أتى الحاخام موسى بن ميمون بجديد لا هو ولا سلفه الحاخام شمعون بن يوحاي، فإن هذا الوصف من أول ما أطلقه المشركون الوثنيون من مشركي قريش والعرب على رسول الله ﷺ، وقد علموا رجاحة عقله، وحسن سيرته، وصدقه وأمانته.

قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾ [الحجر: ٦].

ونقول لموسى بن ميمون: إن هذا الوصف «المجنون» يطلقه كل أعداء أنبياء الله ورسله عليهم، وسبق أن عدو الله فرعون الذي أرسل إليه نبي الله ورسوله موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام وصفه فرعون بعين هذا الوصف لما دعاه إلى عبادة الله الواحد الأحد، وأخبرنا الله تعالى بذلك في سورة الشعراء فقال الله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٣ ـ ٢٧].

بل إن هذه سُنَّة مطردة لكل المشركين أعداء رسل الله تعالى، فكلما بعث رسول إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد وترك ما كان يعبد آباؤهم، جابهوه بهذه التهمة، ورموه بهذا الوصف، حتى قال الله تعالى في سورة الذاريات: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

يقول **الإمام ابن كثير** رحمه الله: «يقول تعالى مسلياً لنبيه ﷺ: وكما قال لك هؤلاء المشركون، قال المكذبون الأولون لرسلهم: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾! قال الله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾؛ أي: أوصى بعضهم بعضا بهذه المقالة؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾؛ أي: لكن هم قوم طغاة، تشابهت قلوبهم، فقال متأخروهم

كما قال متقدموهم»[١].

فما زاد موسى بن ميمون على أنه ضم نفسه إلى هؤلاء المجرمين، وصفّ في صفوف هؤلاء الطغاة المكذبين ضد جميع أنبياء الله تعالى والمرسلين.

وما صنع موسى بن ميمون إلا أنه سَنَّ سُنَّة فرعون وهامان وجنودهما عندما جابهوا نبي الله ورسوله موسى عليه السلام بهذا الوصف، فيكفيه أن سلفه ومعلِّمه في إطلاق هذا الوصف على الأنبياء عليهم السلام هو عدو الله الأكبر فرعون، عدو نبيه موسى عليه السلام.

وتحت عنوان: النبوءات حول مملكة العرب:

يقول **موسى بن ميمون**: «لقد تم التنبوء بهذا الحدث في إحدى نبوءات دانيال الموحاة من الله، التي تقول: إنه سيظهر في أحد الأزمنة المستقبلية شخص بديانة جديدة تشبه الديانة الحقيقية، وكتاب يحتوي نصوصاً مقدساً، ورسائل شفهية، وسوف يدَّعي بعجرفة أن الله أعطاه وحياً منزلاً وأنه يحادثه»[٢].

يدَّعي موسى بن ميمون في هذا النص أن رسول الله محمداً ﷺ يَدَّعي النبوة، وأن القرآن الكريم رسائل شفوية تشبه النصوص المقدسة، وما يملك موسى بن ميمون أمام ذلك إلا الإنكار، والتذرع بزعم دعوى النبوة، ولم يقدم شيئاً يصحح به دعواه؛ بل إنه أعاد الكلام السابق فقال: «يعني أنه يأتي بدين يشبه الدين الإلهي، ويَدَّعي الوحي والنبوة، ويكثر الكلام»[٣].

وقال أيضاً مكرراً نفس الكلام: «وقد تقدم لنا الإنذار من الله تعالى على يدي دانيال بأن ذلك سيكون، وأن في آخر الأمر يقوم قائم يأتي بدين

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٨). (٢) الرسالة اليمنية (٥١).
(٣) الرسالة اليمنية (٥٣).

يشبه الدين الحق، ويأتي بكتاب وخطاب، ويتكلم بعظائم؛ يعني: أنه نزل عليه كتاب، وأنه قال الله له، وقال هو لله وغير ذلك من كثرة كلامه»[١].

لنعلم أن السبب الحقيقي لكتابة موسى بن ميمون هذه الرسالة للطائفة اليهودية التي باليمن هو انزعاج الحاخام الأكبر للطائفة اليهودية اليمنية وهو «نتانئيل الفيومي»، من تحول بعض اليهود إلى الإسلام لوجود البشارات الصريحة بالنبي الخاتم محمد ﷺ في التوراة، فاستدار يهود اليمن بيأس إلى موسى بن ميمون ليكتب إليهم ما فيه تثبيت الديانة وبيان ما عليه هذا النبي وكتابه وشرعه.

وفي هذا الجو اليائس كتب موسى رسالته هذه، ولكنه كما نقلنا كلامه لا يملك ما يدفع به إشراق شمس رسالة النبي الخاتم ﷺ إلا الزعم والادعاء بأنه مجنون وأنه يَدَّعي النبوة.

وهذا حال اليهود منذ أن بعث النبي ﷺ، فإنهم عرفوه حقاً وقرأوا وصفه صدقاً، فكفروا به حسداً وعناداً وأضلهم الله على علم.

قال الله تعالى عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩].

والعجيب أن موسى بن ميمون هذا الرِّبي اليهودي له مسلكان ومنهجان علميان متناقضان، فهو هنا في نبوءة دانيال وغيرها من النبوءات يسلك مسلك اللفظية والأخذ بظاهر النص بدون تأويل، ولكنه في شرحه الشهير «للمَشْنا» يسلك مسلك الفيلسوف في التفسير العقلي، والتأويل

(١) الرسالة اليمنية (٥٢).

المنطقي لتفادي الخلل الكبير في معلومات التوراة المتناقضة، ولذلك يسلك موسى بن ميمون وعدد ممن جاء بعده مسلك الرمزية في ذلك، لتفادي هذا الارتباك والتناقض، يقول الرِّبي اليهودي: «زالمان شازار» عن هذه المنهجية: «لقد حدّدوا قواعد عامة للتخلص من أي ارتباك للتناقض بين العديد من روايات «المَقْرا» وتعبيراتها، وبين الفهم الصحيح أو الملاحظات التاريخية، ومن هذه القواعد:

• أن أحداث التوراة لم تُعط مُرَتَّبَة (مدراش المزامير ٣).

• أنه لا يوجد هناك متقدم ومتأخر في التوراة، و«أن التوراة تحدثت بلغة البشر» (ذباحيم ٢: ١٠٨)، نيدا ٢: ٤٢، براخوت ٢: ٣١، بابا مصيصا ٢: ٩٤، سنهدرين ٢: ٦٤، جيطين ٢: ٤١، وما يشبه ذلك كثير.

• وذهب آخرون أبعد من ذلك وقالوا: «تحدثت التوراة بلغة المستقبل»، حولين ٢: ٩٠، ولم يتورع الرِّبي «يوسى بن دور مسكيت» من تقرير أنه: «منذ الأزل لم يهبط الوحي الإلٰهي إلى أسفل، ولم يصعد موسى وإلْياهو إلى السماء؛ لأن السماء سماء يَهْوه، والأرض منحت للبشر» (سوكه ١: ٥)[1].

ويقول الرِّبي اليهودي: زالمان شازار أيضاً عن منهج موسى بن ميمون خاصة: ولم يترك لنا الرِّبي موسى بن ميمون سفراً قائماً بذاته عن «المقرا» ووصلت إلينا تفاسير بعض أسفار التوراة بواسطة ابنه الرِبّي «إبراهام بن موسى بن ميمون»، ولا تشمل فيما بينها أسلوب ربط، كما أن كتابه الأساسي «دلالة الحائرين» ليس سوى تفسير لأقوال النصوص المقدسة المناسبة لأسلوب العلم كما أنه ليس سوى[2] توضح للتوراة

---

(١) نقد العهد القديم (٦١ ـ ٦٢).

(٢) كتاب دلالة الحائرين، كتبه موسى بن ميمون بين عامي ١١٨٦م ـ ١١٩٠م لتلميذه يوسف بن عقنين، سلك فيه مسالك الفلاسفة والمناطقة في قدم العالم، وواجب الوجود، وما يجب له وما ينفى عنه وبراهين الأنبياء خصوصاً موسى =

والنبوة، وفي عصر موسى بن ميمون، وفي رأيه لم يكن العلم سوى علم الطبيعيات والميتافيزيقا لأرسطو، وعلم الكونيات [الكوز مولوجيا] السائد في عصره، وإليها توجه موسى بن ميمون للتوفيق بينها وبين النصوص، وفي سبيل ذلك وضع تحت مجهر النقد نظرية الخلق في «المقرا» وصفات الألوهية وأقوال الملائكة، وقضية ظهور الإله للشعب ومختاريه، ورؤى الأنبياء وروايات المعجزات وخصّص لذلك أفضل فصول «دلالة الحائرين»، وقد أحس إحساساً ذاتياً بأنه غير مرتبط كلية بالحروف المدونة وسعى لكي يلائم أسلوبه مع النصوص، فنسج شبكة كاملة «لغموض التوراة» وأسرار النص المقدس، واستخدم في سبيل ذلك كل معارفه الذاتية، وحدَّة ذكائه الجاؤرنية، وتفوق على كل الباحثين الذين سبقوه، فلم يترك نصاً مقدساً واحداً يناقش الأمور المتصورة دون أن يمررها في بوتقة تأويله»(١).

واعلم أن موسى بن ميمون هذا من أشهر المنتسبين، للحركة «القُبالِيّة» وهي حركة يهودية تأثرت بالديانة «الزرادشتيّة»، واقتبست منها بعضاً من عقائدها، وأدخلتها إلى صلب تعاليمها الجديدة والتي سُمّيَت «الحكمة المستورة»، أو «القُبالة»، وهذه العقائد اليهودية الممزوجة بالزرادشتية يَدَّعي «القُباليُّون»، أنها أنزلت من السماء على عدد من الأحبار الذين تناقلوها منذ عصور قديمة.

يقول عنهم الحاخام «**يوسي بوكس**»: «إن القُبالية استمدت مواضيعها من الفلسفة الأفلاطونية، ومن جماعة الغاؤونيم المتصوفة، ومن الزوايا التلمودية الباطنية، ومن تعاليم زرادشتية تتضمن فكرة الصراع بين الخير والشر»(٢).

= وأنبياء بني إسرائيل، وقد ترجمه من العبرية إلى العربية وطبعه الدكتور: حسين آتاي من تركيا، طبع مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

(١) نقد العهد القديم (١٠٣). (٢) تراث إسرائيل (٢٧٩).

وهم وموسى بن ميمون منهم يعتقدون بالتفسير الباطني للتوراة، وهو ما صنعه موسى بن ميمون بوضوح في شرحه للمَشْنا المُسَمّى «السراج».

ولكن موسى بن ميمون وقف مشدوهاً أمام حقائق القرآن الكريم، فما زاد في نقدها على أن اعتبرها أقاويل شفوية لرجل مجنون.

وهذه بعينها ما أراد أسلافه من مشركي العرب أن يقاوموا بها براعة القرآن وفصاحته وحقائقه فقالوا: كما أخبر الله عنهم في القرآن الكريم: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾ [الفرقان: ٥].

فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦﴾ [الفرقان: ٦].

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فبيَّن سبحانه أن قول هذا من الكذب الظاهر المعلوم لأعدائه فضلاً عن أوليائه، فإنهم يعلمون أنه ليس عنده أحد يعينه على ذلك، وليس في قومه، ولا في بلده من يحسن ذلك ليعينه عليه؛ فلهذا قال تعالى: ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤﴾ [الفرقان: ٤]، فإن جميع أهل بلده وقومه المعادين له يعلمون أن هذا ظلم له وزور، ولهذا لم يقل هذا أحد من عقلائهم المعروفين، وكذلك قولهم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾، فإن قومه المكذبين له، يعلمون أنه ليس عنده من يملي عليه كتاباً، وقد بيّن ما يظهر كذبهم بقوله ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الفرقان: ٦]، فإن في القرآن من الأسرار ما لا يعلمه بشر إلا بإعلام الله إياه، فإن الله يعلم السر في السماوات والأرض»[١].

ثم حاول موسى بن ميمون بعد ذلك في البشارات بالنبي الخاتم محمد ﷺ المذكورة في التوراة والإنجيل محاولاً إثبات خطأ ما دلّ عليه

(١) الجواب الصحيح (١/ ٤٠٥ ـ ٤٠٦).

القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فقال موسى بن ميمون في جواب سؤال صديقه: إن سبب إسلام بعض اليهود باليمن أنهم وجدوا البشارات بالنبي الخاتم منطبقة على رسول الله محمد ﷺ.

فقال في رد ذلك وجوابه: «تذكر في رسالتك أن الرسول بذل جهوده على عدد من الناس كي يؤمنوا بأن آيات عديدة من الكتاب المقدس تشير إلى «المجنون» مثل: «بميؤد ميؤد» [تك ٢٠ : ١٧]، ومثل: «سطع من جبل فاران» [تث ٣٣ : ٢] ومثل: «نبياً من وسطك» [تث ١٨ : ١٥] والوعد لإسماعيل: «أجعل منه أمة عظيمة» [تك ١٧ : ٢٠]».

وهذه الحجج تكرر على نحو مستمر إلى درجة أنها صارت تبعث على الغثيان، ويكفي الإعلان أنها واهية بالكامل، وإن إيرادها كحجج أمر سخيف، وغير عقلاني إلى أبعد حد»(١).

ثم فَسّر: «بميئود ميئود» بأنها تعني ببساطة: «على نحوٍ مفرط»(٢)، وكذلك «أمة عظيمة» على أنها تعني: العدد الكثير فقط، قال: «ولو كان هناك أي تلميح في الآية إلى محمد لوجوب أن تكون بالتالي هكذا: «وسوف أباركه بميئود ميئود» وحده الذي يتعلق بخيوط العنكبوت يمكنه أن يكتشف هناك إشارة إلى محمد»(٣).

---

(١) الرسالة اليمنية (٦٨). (٢) المصدر السابق (٧٠).
(٣) المصدر السابق (٧٠ ـ ٧١).

وجوابه من وجوه:

• **الوجه الأول:**

لا يتوقف ثبوت نبوة النبي الخاتم محمد ﷺ بالضرورة على ثبوت أن من قبله قد بشروا به، فدلائل نبوته كثيرة وعظيمة، وما البشارات السابقة إلا بعضها، وأقلها.

وقد وضح هذا الوجه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بما لا مزيد عليه فقال: «العلم بنبوة محمد ﷺ ونبوة المسيح لا يتوقف على العلم بأن من قبلهما بشر بهما، بل طرق العلم بالنبوة متعددة، فإذا عُرِفت نبوته بطريق من الطرق ثبتت نبوته عند من علم ذلك، وإن لم يعلم أن من قبله بشّر به، لكن يقال: إذا كان الواجب أو الواقع أنه لا بد من إخبار من قبله بمجيئه وأن الإشعار بنسخ شريعة من قبله واجب أو واقع، صار ذلك شرطاً في النبوة، ومن علم نبوته علم أن هذا قد وقع، وإن لم ينقل إليه، فإذا قال المعارض: عدم إخبار من قبله به يقدح في نبوته، وأنه إذا قدر أنه لم يخبر به من قبله، والإخبار شرط في النبوة، كان ذلك قدحاً؟ قيل: الجواب هنا من طريقين:

أحدهما: أن يقال: إذا عُلِمت نبوته بما قام عليها من أعلام النبوة؛ فإما أن يكون تبشير من قبله لازماً لنبوته واجباً أو واقعاً، وإما أن لا يكون لازماً، فإن لم يكن لازماً لم يجب وقوعه، وإن كان لازماً علم أنه قد وقع، وإن كان ذلك لم ينقل إلينا، إذ ليس كل ما قاله الأنبياء المتقدمون علمناه ووصل إلينا، وليس كل ما أخبر به المسيح ومن قبله من الأنبياء وصل إلينا، وهذا مما يعلم بالاضطرار، ولو قدر أن هذا ليس في الكتب الموجودة لم يلزم أن المسيح ومن قبله لم يذكروه، بل يمكن أنهم ذكروه وما نُقل، ويمكن أنه كان في كتب غير هذه، ويمكن أنه كان في نُسخ غير هذه النسخ فأزيل من بعضها، ونسخت هذه مما أزيل منه، وتكون تلك النُّسَخ التي هو موجود فيها غير هذه، فكل هذا ممكن في العادة لا يمكن

الجزم بنفيه، فلو قُدِّر أنه ليس في هذه الكتب الموجودة اليوم بأيدي أهل الكتاب، لم يُقطع بأن الأنبياء لم يبشروا به، فإذا لم يمكن لليهود أن يقطعوا بأن المسيح لم يبشر به الأنبياء، ولا يمكن أهل الكتاب أن يقطعوا بأن محمداً ﷺ لم يُبشّر به الأنبياء، لم يكن معهم علم بعدم ذلك، بل غاية ما يكون عند أحدهم ظَنٌّ لكونه طلب ذلك فلم يجده[١]، ودلائل نبوة المسيح عليه السلام ومحمد ﷺ قطعية يقينية، لا يمكن القدح فيها بظن؛ فإن الظن لا يدفع اليقين، لا سيما مع الآثار الكثيرة المخبرة بأن محمداً كان مكتوباً باسمه الصريح فيما هو منقول عن الأنبياء.

الطريق الثاني من الجواب: أن نبين أن الأنبياء قبله بشّروا به، وهذا دليل مستقل على نبوته وعلم عظيم من أعلام رسالته، وهذا أيضاً يدل على نبوة ذلك النبي إذ أخبر بأنباء من الغيب مع دعوى النبوة، ويدل على نبوة محمد ﷺ لإخبار من تثبت نبوته بنبوته، هذا إذا وُجد الخبر ممن لا نعلم نحن نبوته، ولم يذكر في كتابنا ـ القرآن ـ وأما من ثبتت نبوته بطرق أخرى، كموسى والمسيح، فهذا مما تظاهر فيه الأدلة على المدلول الواحد، وهو أيضاً يتضمن أن كل ما ثبتت به نبوة غيره، فإنه تثبت به نبوته، وهو جواب ثان لمن يجعل ذلك شرطاً لازماً لنبوته»[٢].

- **الوجه الثاني**:

تواترت الأخبار، واستفاضت الشهادات قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام وبعده: أن نبياً سيختم الله به الأنبياء أزف ظهوره، وجاء أوانه، وذكر باسمه ووصفه ومكان مبعثه، ودار هجرته، وسطع نجمه، وشاع خبره.

---

(١) كحال موسى بن ميمون، فإنه سلك في البشارات بالنبي الخاتم مسلكين، الأول: نفى أن يكون في التوراة شيء من ذكر خبره والبشارة به، والثاني: ما وُجد سلك فيه مسلك التحريف للمعنى ليبعده تماماً عن أن يكون فيه ذكر للنبي ﷺ.

(٢) الجواب الصحيح (٥/ ١٥٣ ـ ١٥٩) باختصار.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «لما قامت الأعلام على صدقه، فقد أخبر أنه مكتوب في الكتب المتقدمة، وأن الأنبياء بَشّروا به، علم أن الأمر كذلك... وهو من أظهر الحجج على أهل الكتاب، وأظهر الأعلام على نبوته»(١).

وقال: «فإنه لا ريب عند كل من عرف حال محمد ﷺ من مؤمن وكافر، أنه من أعقل أهل الأرض، فإن المكذبين له لا يشكون في أنه كان عنده من الخبرة والمعرفة والحذق، ما أوجب أن يقيم مثل هذا الأمر العظيم، الذي لم يحصل لأحد مثله، لا قبله ولا بعده، فعلم ضرورة أنه لا يفعله ولا يخبر به، وهو من أحرص الناس على أن يصدقه الناس، وأَخْبرَهم بالطرق التي يُصَدّق بها، وأَبْعَدَهم عن أن يفعل ما يعلم أنه يُكَذَّب به، فلو لم يعلم أنه مكتوب عندهم؛ بل على انتفاء ذلك لامتنع أن يخبر بذلك مرة بعد مرة، ويستشهد به ويظهر ذلك لموافقيه، ومخالفيه، وأوليائه وأعدائه، فإن هذا لا يفعله إلا من هو أقل الناس عقلاً؛ لأن فيه إظهار كذبه عند من آمن به منهم، عند من يخبرونه، وهو ضد مقصوده»(٢).

- **الوجه الثالث:**

أما تفسيرات موسى بن ميمون لما في التوراة من بشارات بالنبي الخاتم محمد ﷺ، فسنقف معها لنكشف مدى اضطرار موسى بن ميمون إلى التحريف محاولة يائسة لصرفها عن دلالالتها الصريحة بالنبي الخاتم محمد ﷺ.

- قوله: «بميئود ميئود» تعني ببساطة: «على نحو مفرط»(٣).

---

(١) الجواب الصحيح (١٨٦/٥ - ١٨٧) باختصار.
(٢) المصدر السابق (١٨٦/٥).
(٣) الرسالة اليمنية (٧٠).

هذا النص الذي يتكلم عنه موسى بن ميمون أحال هو على [تك ١٧ : ٢٠]، والمراد سفر التكوين، الإصاح (١٧)، آية رقم (٢٠).

ونصها كما في طبعة الرهبانية اليسوعية: «وأما إسماعيل فقد سمعت قولك فيه، وهأنذا أباركه، وأنمِّيه وأُكثِّره جدّاً جدّاً، ويلد اثنى عشر رئيساً، وأجعله أمة عظيمة».

وفي نسخة الملك «جيمس الخامس» المعتمدة لدى الكاثوليك: «وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه: ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جدّاً، اثنى عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة».

هذا النص عن إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام يدل على ما يلي:

• أن إبراهيم عليه السلام دعا الرب لابنه إسماعيل وأن الرب سمع له واستجاب.

• أن مضمون هذه الدعوة لإبراهيم المجابة أن يبارك الرب إسماعيل وذريته ويكثرهم جدّاً جدّاً، وأنه يخرج من نسله اثنى عشر رئيساً للأمة الكبيرة.

إذا تقرر هذا من ظاهر النص السابق فلنقف على هذه الحقائق التاريخية:

١ ـ لقد كثر العرب جدّاً، وانتشروا في الأرض وحكموها، وكل ذلك لم يقع إلا بعد أن بعث الله فيهم النبي الخاتم محمداً، فآمنوا به وجاهدوا معه فكثروا وعزوا وسادوا وانتشروا في الأرض.

٢ ـ كان العرب قبل البعثة النبوية أمة مشتتة لا يجمعهم إمام جامع ولا رئيس واحد، كل قبيلة لها رئيسها وزعيمها، ولم يحصل قط أن اجتمع العرب في تاريخهم على قائد واحد وزعيم واحد، وكانت بينهم حروب وثارات مشهورة، وأيام معروفة، فلما بعث الرسول ﷺ وآمنوا به واجتمعوا بعد الفتح عليه، وكثروا وتوفي رسول الله ﷺ والعرب أمة واحدة قوية، فخلا

فيهم اثنا عشر خليفة بعد رسول الله ﷺ وهم في قوة وعزة وغلبة ومنعة.

في «صحيح البخاري» و«مسلم»: قال رسول الله ﷺ: **«لا يزال أمر هذه الأمة عزيزاً ما وليهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش»**[(١)]، فانظر إلى كلام رسول الله ﷺ وقارن مع نص التوراة السابق.

فثبت بهذا أن هذا النص لا ينطبق إلا على رسول الله ﷺ والخلفاء بعده قطعاً.

وقد اعترف بهذا المهتدون إلى الإسلام من أحبار يهود.

يقول **الحبر المهتدي**: «السموأل بن يحيى المغربي» المتوفى (٥٧٠)[(٢)]:

بعد أن نقل النص السابق: «فهذه الكلمة «بمادماد»[(٣)] إذا عددنا حساب حروفها بالجُمَّل[(٤)] كان: اثنين وتسعين وذلك عدد حساب حروف اسم (محمد) فإنه أيضاً اثنان وتسعون، وإنما جعل ذلك في هذا الموضع مُلغِزاً لأنه لو صُرح به لبدلته اليهود أو أسقطته من التوراة كما عملوا في غير ذلك»[(٥)].

وحساب الجُمَّل غير معتبر عندنا نحن المسلمين ولا نقول به،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٢٢٢)، ومسلم برقم (١٨٢١) واللفظ له.

(٢) من أحبار يهود بالمغرب في القرن السادس وكان اسمه شموائيل بن يهوذا بن أبوان.

(٣) كلمة «بمادماد» هي الكلمة العبرية المقابلة للكلمة العربية «جدّاً جدّاً» التي في نص التوراة المنقول سابقاً.

(٤) حساب الجُمَّل هو حساب «أبجد هوز» هو حساب يهودي معتمد عندهم وهو قائم على أن كل حرف من «أبجد هوز حطي كلمن سعفص ـ قرشت ـ تخذ ـ ضظغ» كل حرف يساوي عدداً معيناً أ = ١، ب = ٢، ج = ٣، د = ٤، هـ = ٥، و = ٦، إلى ي = ١٠، ثم ينتقل إلى مضاعفات العشرة ك = ٢٠، إلى ق = ١٠٠، ثم إلى مضاعفات المئة، ر = ٢٠٠، إلى غ = ١٠٠.

(٥) إفحام اليهود (١١٦).

ولكنه لما كان معمولاً به عند اليهود ومعتبراً به فهو بذلك حجة عليهم.

وقال أيضاً: «وإذا كانت هذه الآية أعظم الآيات مبالغة في حق إسماعيل وأولاده وكانت تلك الكلمة أعظم مبالغة من باقي كلمات تلك الآية فلا عجب أن تتضمن الإشارة إلى أجل أولاد إسماعيل شرفاً وأعظمهم قدراً صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم»(١).

يقول **شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله: «ومعلوم باتفاق الأمم، والنقل المتواتر: أن إسماعيل عليه السلام تربى بأرض مكة، فعلم أنها «فاران»، وأنه هو وإبراهيم بنيا البيت الذي ما زال محجوجاً من عهد إبراهيم، تحجه العرب وغير العرب من الأنبياء وغيرهم، . . . والله تعالى قال في إسماعيل(٢): «إني جاعله أمة عظيمة ومعظَّمة جدا جدّاً»، وهذا التعظيم المؤكد بـ جدّاً جدّاً يقتضي أن يكون تعظيماً مبالغاً فيه، فلو قدر أن البيت الذي بناه لا يحج إليه أحد، وأن ذريته ليس منهم نبي، كما يقوله كثير من أهل الكتاب(٣)، لم يكن هناك تعظيم مبالغٌ فيه جدّاً جدّاً؛ إذ أكثر ما في ذلك أن يكون له ذرية، ومجرد كون الرجل له نسب وعقب، لا يعظم به إلا إذا كان في الذرية مؤمنون مطيعون لله. . . ، وأيضاً فهذا التعظيم المبالغ فيه، الذي صار به ولد إسماعيل فوق الناس، لم يظهر إلا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فدل ذلك على أنها حق وأنه مُبشَّر به»(٤).

---

(١) إفحام اليهود (١١٧).

(٢) بناءاً على نص سفر التكوين المنقول سابقاً، باعتبار أن اليهود وكذا النصارى مسلمون بأنه وحي من الله تعالى.

(٣) ومنهم موسى بن ميمون هذا فإنه أوّل قوله عن إسماعيل: «واجعل منهم أمة عظيمة» على أنه مجرد نسل وذرية وكثرة عدد بلا شأن ولا مجد فقال: «قوله: أمة عظيمة، ليس يعني النبوة ولا الشريعة، بل كثرة العدد فقط» الرسالة اليمنية (٧١).

(٤) الجواب الصحيح (٥/٢١٩ ـ ٢٢١) باختصار.

وفي نص صلاة الحاخام شمعون بن يوحاي[١] ما يأكد ذلك تماماً من كثرة أبناء ذرية إسماعيل جدّاً جدّاً وظهور النبوة فيهم وملكهم على رقاب الأمم بمن فيهم بنو إسرائيل.

وهذا نص الصلاة: «وللحال فُتحت لي بوابات السماء ورأيت رؤى إلٰهية، فوقعت على وجهي... وقلت: «ماذا تقول يارب؟...».

ثم أراني مملكة إسماعيل التي كانت ستأتي بعد القينيين، وللحال بكيت بحرقة، وقلت له: «ربِّ هل سيكون لديه آنئذٍ قرون وحوافر يدوس بها إسرائيل؟ فأجاب: «نعم»[٢].

وفي نص آخر من صلاة الحاخام شمعون بن يوحاي: «قال لي: شمعون، فأجبته: ها أنا، قال لي: «أعرف أن الواحد القدوس المبارك، أرسلني إليك لأخبرك بشأن السؤال الذي وضعته أمامي، الآن وقد رأيت القينيين، ومملكة إسماعيل بكيت، وأنت لم تكن لتبكي إلا بسبب مملكة إسماعيل فقط؛ لأنه عند نهاية تلك المملكة سوف يقومون بمذبحة عظيمة في إسرائيل، تفوق كل حساب، ويصدرون قرارات قاسية، وسوف يتحول بعض من إسرائيل إلى ديانتهم»[٣].

بل في نص آخر تصريح بأن ظهور مملكة إسماعيل وعظمتها مرتبط بظهور النبي القادم المبشر به، ففي كتاب الأسرار: «لا تخف يابن الإنسان؛ لأن القدوس المبارك لا يأتي بمملكة إسماعيل، إلا كي يخلصكم من هذا الشر، إنه يقيم عليهم نبياً بحسب إرادة الله، يغزو الأرض لأجلهم، وسوف يأتون يستردونها بعظمة، وسيكون هناك رعب

(١) سبق الحديث عنها.

(٢) كتاب الأسرار، صلاة الحاخام شمعون بن يوحنا، ضمن: الإسلام المبكر في أربعة نصوص يهودية (٢٤).

(٣) المصدر السابق (٢٥).

عظيم بينهم وبين أبناء عيسو»[١].

فهذه مملكة إسماعيل، وأن الله يكثره جدّاً جدّاً وتكون أمة عظيمة لها سيادة حتى على بني إسرائيل، وأنها لا تكون كذلك إلا بظهور النبي الخاتم المبشَّر به، والواقع التاريخي يصدق هذا، فلم يكن للعرب من عهد إسماعيل إلى بعثة النبي الخاتم محمد ﷺ أي شأن، ولا كانوا أمة عظيمة ولا كثيرة جدّاً جدّاً ولا سيادة لها على الأمم.

فمحاولة موسى بن ميمون صرف ذلك بالتأويل الذي تأوله: إنه مجرد كثرة عددية معينة لا شأن لها، إنما هو تحريف لمدلول النص وصرف له عن أن يكون أحد النصوص التي لا تزال موجودة في كتب أهل الكتاب ودلالتها واضحة بحمد الله.

ثم قال موسى بن ميمون أيضاً تحت عنوان: اسم النبي محمد:

«لا بد أن نلاحظ أيضاً أن اسم النبي العربي الذي يعتقد المحمديون متوهمين أنه مذكور في التوراة، والذي يجده المرتدون من اليهود في عبارة: «بميئود ميئود» هو: أ ح م د، وليس م ح م د، وهكذا ففي القرآن يقال بوضوح: «يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل اسمه أحمد» [٧: ١٩٧]»[٢]، لكن القيمة العددية للفظ الأخير لا تساوي القيمة العددية لكلمتي: «بميئود ميئود» اللتين يفترض أنهما تتضمنان تلميحاً لنبي الإسلام»[٣].

---

(١) الإسلام المبكر في أربعة نصوص يهودية (٤٠).

(٢) يشير إلى أن هذه الآية في السورة السابعة حسب ترتيب المصحف هي سورة الأعراف، والآية المذكورة رقمها [١٩٧] وهي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ الآية، ولكن الآية رقمها الصحيح [١٥٧].

(٣) الرسالة اليمنية (٧٣).

وأعاد الكلام مرة أخرى فقال: «ومما يجب أن تعلمه أن الاسم الذي توهم الإسماعيليون أنه مكتوب في التوراة، التي يتعلق به المرتدون، من «بميئود ميئود» ليس هو: م ح م د، بل إنه: أ ح م د، وهكذا نص قولهم: «يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل اسمه أحمد» [٧: ١٩٧]، وليس عدد بميئود ميئود، مثل عدد هذا الاسم الذي زعم أنه مكتوب في التوراة»[١].

في كلام موسى بن ميمون هذا أخطاء ومغالطات وجهل وتحريف واعتراف، كل ذلك وقع منه.

وسيكون توضيح ذلك على وجهين:

الأول: في كلا الموضعين السابقين، وقع له تحريف في ذكر الآية الكريمة رقم [١٥٧] من سورة الأعراف، فقد أضاف موسى بن ميمون من عنده لنص الآية: «اسمه أحمد»، وهذه جهالة منه وجرأة سخيفة على التحريف، بل واضطرار أوصله إلى هذا الحال؛ لأن النص صريح في البشارة بالنبي الخاتم «محمد» و«أحمد» ﷺ.

الوجه الثاني: اضطرار موسى بن ميمون إلى إقحام اسم «أحمد» في نص الآية؛ لأن القيم العددية بحساب «أبي جاد» لكلمة «بميئود ميئود» تساوي تماماً حسابها في اسم «محمد» وليس أحمد، فاضطر إلى هذا الإقحام لكلمة «أحمد» في نص الآية ليزعم أن القيم العددية لكلمة «بميئود ميئود» لا تساوي القيم العددية لكلمة «أحمد» ليتوصل بذلك إلى خطأ الآية القرآنية ويفوت هذا النص الصريح في البشارة بالنبي الخاتم ﷺ.

ولكنه في غمرة حماسته اعترف بأن القيم العددية لكلمة «بميئود ميئود» تساوي القيم العددية لاسم النبي ﷺ: «محمد» فهذا اعتراف منه صريح بأن «بميئود ميئود» هو «محمد» ﷺ.

---

(١) الرسالة اليمنية (٧٣ ـ ٧٤).

وهذا يهودي آخر يعترف بذلك أيضاً في وضوح وصراحة وهو المؤرخ اليهودي «مارك ر. كوهين»[١].

يقول بعد أن ساق النص السابق من سفر التكوين: «وثمة نبوءة أخرى، أُخذت من المقطع نفسه، وتعتمد على القيمة العددية للكلمات أكثر من معناها الحرفي، وهي بلا شك منهج يهودي أصيل، فالعبارة العبرية «bime od, me od»، «بميئود ميئود»، إذا حُسبت رياضياً، كل حرف من العبرية يساوي قيمة عددية، يُنتج قيمة عددية مساوية لاسم» النبي، فالصوامت: «م ـ ح ـ م ـ د»، يصل مجموعها إلى (٩٢)، وهو المجموع نفسه الذي ينتج عن جمع القِيَم العددية لأحرف: «B-M-D-M-D» «ب ـ م ـ ء ـ د ـ م ـ ء ـ د»، وهذه الطريقة التفسيرية، وتدعى في التلمود: «الطريقة الحسابية «gematria»، يمكن اعتبارها منقولاً يهودياً إلى الجدل الإسلامي، إذ أن هذه وغيرها من الطرق الحسابية تظهر في كتب الجدل ضد اليهودية التي كتبها يهود اعتنقوا الإسلام»[٢].

● هذه بعض الدراسات والكتابات اليهودية القديمة التي أعطت مادة للاستشراق اليهودي بعد ذلك، وأهم هذه الدراسات الاستشراقية اليهودية:

١ ـ المستشرق اليهودي التوراتي «غوستاف فايل» (١٨٠٨ ـ ١٨٨٩م)، أصدر دراستين استشراقيتين:

---

(١) أستاذ دراسات الشرق الأوسط بجامعة «برنستون» بالولايات المتحدة الأمريكية، وهو أحد أعلام البحث التاريخي عن اليهود في القرون الوسطى، وهو صاحب مشروع «الفنيزا» وهو مشروع يضم أكثر من (٧٠٠٠) وثيقة كتابية عن حياة اليهود في القرون الوسطى.

(٢) كتاب: بين الهلال والصليب، وضع اليهود في القرون الوسطى، ترجمة: إسلام دية ومعز خلفاوي (٣٣٨).

الأولى: عن النبي ﷺ وشخصيته أسماها: «النبي محمد، حياته، وتعاليمه»، وفيها: «لم يكن محمد وهو النبي العربي الذي يظهر بعد قرون من انقطاع النبوءات سوى محتال، وليس لتعاليمه المنسوبة إلى الله إلا شبه قليل باليهودية الرَّبِّيَّة الكتابية، إضافة إلى أن النبي قد بسط تعاليمه في شكل من القول والبلاغة لم يكونا مألوفين من اليهودية، ولهذا فقد كان نفور اليهود من محمد أكثر عمقاً من نفورهم من دعوة عيسى الذي لم يكن قد ادّعى تأسيس دين جديد»(١).

والثانية: عن القرآن الكريم وعنوانها: «مدخل تاريخي نقدي إلى القرآن».

يقول **الدكتور رضوان السيد** عن هذا الكتاب: «نهج «فايل» في تلك «المقدمة» نهج علماء دراسات العهد القديم، الذين كانوا وقتها يكتبون مقدمات لفهم نقدي لنصوص التوراة وبخاصة الأسفار الخمسة، وتاريخيتها، وتركيب أجزائها، وقد تركّز اهتمامه على سور العهد المكي التي قَسَّمها إلى ثلاثة أقسام: المرحلة المكّية المبكرة، والمرحلة الوسطى، والمرحلة المتأخرة، واعتمد في ذلك نهجاً تطورياً في الفكر والتركيب اللغوي، أو تبلور فكرتي التوحيد واليوم الآخر، وطول السُّور وقصرها، وبمذهب «فايل» هذا أخذ «نولدكه» فيما بعد في كتابه الشهير: «تاريخ القرآن»، وظل هذا التقسيم سائداً في دراسات الألمان عن القرآن حتى «رودي بارت» في الستينات، و«أنجليكا نويفرت» في الثمانينات والتسعينيات من القرن العشرين»(٢).

وتأثر بكتاب «فايل» أيضاً المستشرق الفرنسي «ريجي بلاشير»(٣) في

---

(١) بين الهلال والصليب، وضع اليهود في القرون الوسطى (٨٠)، وكتاب المستشرقون الألمان، رضوان السيد (٢١).

(٢) المستشرقون الألمان: النشوء، والتأثير، والمصائر، (٢٠ ـ ٢١).

(٣) مستشرق فرنسي توفي سنة (١٩٧٣م)، وانظر عنه وعن أعماله: موسوعة المستشرقين لبدوي (١٢٧).

كتابه: «مدخل إلى القرآن» الذي وضعه مقدمة بين يدي الترجمة التي قام بها للقرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية[١].

٢ ـ الحاخام الإصلاحي اليهودي الألماني: «إبراهام غَايْغَر»، ألَّف في حدود عام (١٨٣٣م) ما يعتبر أقدم كتاب استشراقي نقدي للقرآن الكريم، وهو كتاب: «ماذا اقتبس محمد من اليهودية».

يقول أحد الدارسين باهتمام له وهو المستشرق: «يوهان فوك»: «فمنذ قرن تقريباً، وبدعوة مفتوحة من الجامعة الملكية البروسية، نال المستشرق الألماني: التوراتي: «إبراهام غايغر» جائزة الدولة على بحثه: «ماذا اقتبس محمد عن اليهودية»، وأهمية هذا الكتاب الذي احتل مكان الصدراة في قائمة ما يسمى بالدراسات المحمدية، لا يكتسي الأهمية بوصفه الأول من نوعه، بل لأنه الأول في منهجه وتوجهه، وبحكم توقيته، شكّل «غايغر» مفترقاً بين مرحلتين اجتازتهما حركة الاستشراق عبر مسيرة الألف سنة منذ «بطرس المبجل»، وحتى «غايغر»، مرحلة اتسمت بالتخبط والعفوية في طريقة استقبال النص العربي الإسلامي وأخرى خططت لمواجهته، وأفادت من الشوارد المعرفية التي مَنَّ بها عليهم باحثون أكفاء، عكفوا على استكشاف حضارات الشرق القديم فقدموا خدمة جليلة، من حيث يدرون أو لا يدرون، لسلالة لا تضمر الخير لجنس ولا معتقد»[٢].

ويضيف الدكتور رضوان السيد عن دراسة «غايغر» فيقول: «فتح «غايغر»، و«فايل» المجال لجدالية من نوع جديد، ظلّت محلّ صراع لقرن

---

(١) انظر: القرآن والمستشرقون للدكتور: التهامي نقرة، ضمن: منهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية (١/ ٤٠)، وموسوعة المستشرقين لعبد الرحمٰن بدوي (١٢٧).

(٢) تاريخ حركة الاستشراق (٧ ـ ٨).

كامل، وأضرّت بسمعة الاستشراق كما بعلميته، وهي: من أين أتى محمد بدينه، أمِنَ اليهودية، أم من المسيحية؟

أو ما هي العناصر الغالبة في ذاك الدين: العناصر التوراتية، أم العناصر الإنجيلية؟

الدارسون الاستشراقيون ذوو الأصول اليهودية يذهبون إلى الأمر الأول، بينما يذهب المسيحيون «الإنجيليون» إلى نصرة الرأي القائل بالأصل المسيحي للإسلام»(١).

مع أنهم يُقرِّرون في دراساتهم عن شخصية النبي محمد ﷺ، أنه مجنون ومحتال ومريض ومتسلط ونحو ذلك.

لكن الذي يدفعهم إلى هذا التصرف هو عجزهم عن إعطاء جواب عن ما في القرآن من أخبار مفصلة عن الأنبياء السابقين، خصوصاً الخليل إبراهيم عليه السلام، وكذا نبي الله موسى عليه السلام، والمسيح عيسى عليه السلام، وأخبار بني إسرائيل وأحوال اليهود والنصارى، فهنا يفترقون، فالمستشرقون اليهود يزعمون أن ما في القرآن من هذا ما هو إلا انعكاس للثقافة اليهودية التي تلقاها محمد ﷺ من أحبار يهود بالمدينة، ليعطوا لليهودية مكان الأسبقية ومقام المعلم، والنبي ﷺ مقام المتعلم المتلقي، والمستشرقون النصارى يصنعون الأمر نفسه لكن زاعمين أنه تلقى ذلك من راهب نصراني إما نسطوري أو رومي أو غير ذلك كما سيأتي ذلك في الفصول القادمة إن شاء الله.

ثانياً

أما النصارى فسنعرض في هذا الكتاب للجهد الكبير للقساوسة والرهبان في تأسيس أدب كتابي ضد القرآن الكريم، وضد معالم نبوة

(١) المستشرقون الألمان (٢١).

النبي الخاتم محمد ﷺ، والذي مَثّل الأرضية الفكرية للدراسات الاستشراقية الواسعة بعد ذلك.

ولكن من المناسب جدّاً أن نذكر هنا الكتابات الأولى المبكرة جدّاً التي وضعها قدماء الرهبان والتي تناولوا فيها شيئاً من الوصف والتحليل عن النبي محمد ﷺ وعن القرآن، وسأذكر نصان قديمان يعتبرهما الدارسون أقدم نصوص نصرانية ورد فيها ذكر النبي محمد ﷺ والقرآن والعرب والموقف من ذلك.

• النص الأول: توما القسيس:

تعد المصادر السريانية، والأرمينية والقبطية، مصادر أدبية وكتابية للنصرانية قديمة سابقة على اليونانية وما بعدها، والكتابات عن الإسلام والقرآن، والنبي الخاتم ﷺ قليلة جدّاً في هذه المصادر، ومهما كانت الكتابات النصرانية القديمة قليلة جدّاً ومقتضبة، فإن النظر فيها متى توفرت، واستنطاقها واستخراج موقف يُسَجل عن الإسلام والنبي ﷺ يعتبر هام جدّاً، والسبب هو أن بعض هذه الكتابات كان معاصراً لفجر الإسلام، ومرحلته المبكرة الأولى وبعد بحثٍ وتقصي نستطيع أن نظفر ببعض تلك الكتابات، وهي بحسب ما وقفت عليه:

- نص إخباري سرياني منسوب لقسِّيس في القرن السابع الميلادي في حدود سنة: (٦٤٠م) اسمه: «توما القسِّيس» [Thomas Le Presbytre][(١)]، وكان يعيش بمنطقة الجزيرة بوادي الرافدين بين العراق والشام.

تحدث فيه «توما القسيس» عن حادثتين لها علاقة بالفتح الإسلامي المبكر.

---

(١) توجد معلومات مقتضبة عنه في كتاب: تأسيس الإسلام بين الكتابة والتاريخ، تأليف: الفرد لويس دي بريمار (٣٢، ٣٩، ١٦٠).

الأولى: سنة (٦٣٤م)، والثانية بعدها بسنتين، وتحدث فيها «توما القسيس» عن ما أسماهم: «عرب محمد»، وباللغة السريانية «d-mhmt Tayaye»؛ أي: «طيايي د ـ مهمت».

طَيَاي: أي: عرب بالسريانية.

ومهمت: أي: محمد بالسريانية.

والحديث عن معركة للمسلمين ضد البيزنطيين بالقرب من غَزَّة في سنة (٦٣٤م) وانتصار عظيم للمسلمين عليهم.

والحادثة الثانية: غارة عربية أخرى وقتل فيها أخوه وكان راهباً هو الآخر يعمل بوّاباً لأحد الأديرة.

ويظهر أن «توما القسيس» يتكلم عن أوائل غزوات المسلمين في فتوح الشام خاصة غزوة «أجنادين» سنة (١٣هـ) الموافق لسنة (٦٣٤م)، وهي نفس السنة التي يتحدث عنها «توما القسيس»، وفيها قتل «تِذْراق» وهو شقيق «هرقل» عظيم الروم(١)، وقتل فيها عدد من القسس والرهبان الذين خرجوا مع الجيش البيزنطي.

وهذا نص الرواية: «بسنة تسعمائة وخمس وأربعين، اندقطيونا السابع الجمعة، الرابع من شباط، دار قتال بين الروم و«طيايا مهمت» بفلسطين، على بعد اثني عشر ميلاً من غزة، فهرب الرومان وتركوا البطريق «باريردان» فقتله «طيايا»، وقتل هناك نحو أربعة آلاف من مساكين القرويين من مسيحيين ويهود وسامريين، فخرب «طيايا» القطر كله»(٢).

وواضح أن «توما القسيس» يريد أن يقدم صورة بشعة عن المسلمين

(١) انظر تاريخ الطبري (١/ ٣٣٥)، وكتاب الفتوح لابن أعثم (١/ ١١٥ ـ ١٢٠).
(٢) الكتابات المسيحية الأولى عن محمد، للمستشرق: جوزيف فان أيس، ضمن موسوعة «سيرة محمد» التي جمعها: هـ. موتزكي (٢٨٩).

من خلال تسميتهم «بعرب محمد» ليستبعد الاسم الديني «المسلمون»، على أنهم غزاة متعطشين للقتل للمساكين والضعفاء، وهي قضية كبيرة أخذت عملاً دؤوباً بعد ذلك في كتابات المستشرقين عن الإسلام والجهاد والفتوحات.

لذلك يعلق أحدهم على كتابة «توما القسيس» فيقول: «هذه اللمحة التاريخية شديدة الدقة من حيث ذكر تاريخ المعركة، ومواقعها، واسم محمد «مهمت بالسريانية» وأما فيما يخص القيمة التقريبية للرقم (٤٠٠٠)، الذي ربما كان يعني فقط «كثيراً» فيمكننا أن نتوقع سقوط العديد من المدنيين داخل قطاع زراعي مأهول بالسكان ومزدهر كقطاع غزة، ونلاحظ أن «توما القسيس» يتحدث عن التركيبة الفلاحية للسكان، وأنهم ينتمون إلى أديان متعددة: من مسيحية، ويهودية، وسامرية، وهذا ما يتوافق مع الواقع المحلي بالفعل، فبالنسبة للمسيحين كانت غزة مقراً للمطرانية، وأما فيما يتعلق باليهود والسامريين فقد جاء ذكرهم في أخبار مختلفة تتعلق بفلسطين تلك الفترة»[١].

- **النص الثاني: «عقيدة يعقوب» «Doctrina Jacobi»:**

هذا نص كتب في الفترة الزمنية ما بين (٦٣٤ ـ ٦٤٠م) كما يزعم لويس دي بريمار، ووصفه بأنه: «عبارة عن كراس للمنافحة عن العقيدة المسيحية، ومكتوب بلغة حكائية وموجه إلى اليهود، وكان كتب للمرة الأولى باللغة اليونانية في قرطاجة، عاصمة الإقليم البيزنطي من أفريقيا، وضمن السياق العام الذي اختاره المؤلف «المُغْفَل الاسم»؛ أي: ضمن سياق السياسة البيزنطية الهادفة إلى إجبار اليهود على اعتناق المسيحية»[٢].

(١) لويس دي بريمار في كتابه: تأسيس الإسلام بين الكتابة والتاريخ (١٦١).
(٢) المصدر السابق (١٦٢).

وهو نص يشير إلى حوادث كانت تجري في فلسطين على شكل رسالة من رجل يهودي اسمه «إيوستوس» إلى يهودي آخر اعتنق المسيحية اسمه «يعقوب» يخبره فيها أن أخاً له اسمه «إبراعام» أو «إبراهيم» أخبره أن نبياً ظهر في بلاد العرب، وهذا نص «عقيدة يعقوب» الذي يتحدث عن النبي ﷺ.

«قال «إيوستوس» لـ«يعقوب»: كتب إليَّ أخي «إبراعام»: بأن نبياً كذاباً قد ظهر، لقد ظهر نبي كاذب بين «الساراسنيين»، إنهم يقولون إن النبي الذي ظهر مقبل مع «الساراسنيين»، وأنه يعلن عن قدوم «Advent»، المسيح الممشوح الذي سيأتي «Kei khristou tou erkhomenou» وأخبرني أنه توقف عند رجل راهب مُسنّ متضلع جدّاً بالكتابات المقدسة وقال له: ما الذي تقوله لي عن النبي الذي ظهر عند «الساراسنيين»؟ فردّ عليَّ وهو يتنهد بعمق: «إنه نبي كذّاب»، فهل يجيء النبي مسلح بسيف وعربة حرب، وقال لي أخي «إبراعام»: ذهبت واستخبرت عن هذا النبي، وأخبرني أولئك الذين التقوه بأنه ليس ثمة حقيقة يمكن أن توجد عند النبي المزعوم سوى إراقة الدماء، أما ما يقوله بأنه يمتلك مفاتيح الجنة فهو أمر غير قابل للتصديق»(١).

واضح من النص موقف رهبان النصارى في ذاك الزمن المبكر ومعهم بعض المنتقلين إلى المسيحية من اليهود، فإنهم مباشرة أطلقوا وصف «كذاب» على هذا النبي القادم، وأن دعوته إلى الفلاح والجنة غير قابلة للتصديق، والضاغط عليهم واضح من النص هو بداية الفتوحات لبلاد الشام فحكموا على هذا النبي وجنوده بإراقة الدماء والقتل كدليل يريدون أن يستدلوا به على كذبه وعدم صدق نبوته، ونسجل هنا عدة أمور جديرة بالاهتمام في النص السابق:

---

(١) عقيدة يعقوب، شرح «جيلبير داغرون» (٢٤١)، وانظر كتاب: الإسلام المبكر للدكتور نبيل فياض (٨٨ ـ ٨٩).

١ ـ يظهر من سياق النص أن النبي ﷺ كان على قيد الحياة حين غزا المسلمون بلاد الشام وفلسطين، وهذا وإن كان بعيداً عن الصواب لأن بدايات فتوح الشام «بأجنادين» وكانت سنة (١٣هـ) زمن الصّدّيق ﷺ، وأكمل الفتوحات بعد أمير المؤمنين عمر ﷺ، وذاك يوافق سنة (٦٣٤م)، لكن هذا الإيحاء بوجود النبي ﷺ واقعة في التقاليد التاريخية للنصارى النساطرة خصوصاً[١].

٢ ـ ما ذكر في النص أن النبي ﷺ بشر بالمسيح الممشوح، وهي لا شك إضافة بسبب الخلفية الميسيائية لليهود، والواقع أن النبي ﷺ وكُلَّ الأنبياء قبله حَذّروا ولم يبشروا بالمسيح الدجال وفتنته العظيمة.

٣ ـ حديث النص عن «امتلاك النبي ﷺ لمفاتيح الجنة» هو إقرار ضمني بأن دعوته ونبوته هي النبوة الخاتمة، فلا طريق إلى الجنة بعدها، فهو إذن النبي المنتظر المبشر به عند أنبياء بني إسرائيل وآخرهم المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، ولذلك سارع كل من اليهود والنصارى إلى التنصيص على ذلك في هذه الكتابات المبكرة والمسارعة إلى تكذيبه وعدم القبول به.

يقول **الدكتور نبيل فياض**: «الحديث حول امتلاك النبي لمفاتيح الجنة يدعمه نص آخر متضمن في قسم بيزنطي بالتنكر للإسلام يقول هذا القسم: «إني ألعن عقيدة السراسنيين السّرّية ووعد «موامد»[٢] «Moamed» بأنه سيكون حارس بوابة الجنة «Kieidukhos»»[٣].

٤ ـ أما كلمة «السراسنيين» فهي استخدام قديم ومألوف في اللغة الإغريقية واليونانية للدلالة على العرب بشكل عام.

---

(١) تأسيس الإسلام بين الكتابة والتاريخ، لويس دي بريمار (١٦٢ ـ ١٦٣).
(٢) أي: محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ.
(٣) الإسلام المبكر (٨٩).

يرجع بعضهم تركيبها:

- إما إلى كلمة «عرب سينيت» «Arabes Scenites»، والمقصود به «عرب الخيام»[١].

- وتارة يطلقون على العرب المسلمين اسمن «الهاجريّين» نسبة إلى هاجر أم إسماعيل ﷺ تمييزاً عنصرياً لأن بني إسرائيل أبناء «سارة» أم إسحاق ﷺ.

- وتارة يطلقون عليهم «الإسماعيليّين» نسبة إلى إسماعيل ﷺ الفرع الثاني من ذرية إبراهيم ﷺ[٢].

يقول المستشرق «**ميكيلي أماري**»: «لم يتخذ العرب أبداً اسم «سارسنيين» أو اسماً يشابهه، ولم يرد في تذكراتهم أي أناس بهذا الاسم، وهذا اللفظ حسبما كتبه اللاتين واليونانيون... كما ورد لدى «بيلينيو» و«بطليموس»، و«ستيفانو البيزنطي»، وهو لفظ يشير إلى عدد من قبائل وتجمعات سكنية صغيرة، ويعطيه كتاب الغرب امتداداً بعد الإسلام، وأصل اشتقاق اللفظ غير مؤكد... وحسبما أراه قريباً من المعقول فقد يكون لفظ «سارسنيين» هو كتابة صوتية للفظ العربي «شرقيون» في حالة جر، وهذا اللفظ لم يكن بمقدور اليونانيين والرومان كتابته صوتياً، ولا النطق به كذلك سوى أن يخرج على شكل «ساركين» أو «ساراكين»، ذلك أن أبجديتهم تفتقد إلى حرف «الشين»، التي يقابلها التركيب «CH» في الفرنسية، و«SH» في الإنجليزية»[٣].

أما المراجع العربية فوجدت شيئاً من ذلك في كتاب «التنبيه

---

(١) تأسيس الإسلام (٤٠).

(٢) يراجع في هذا كتاب: الهاجريّة، كيفيّة تشكيل العالم الإسلامي، تأليف: المستشرق كرون كوك (٨ ـ ٩، ٢٧ ـ ٢٩).

(٣) تاريخ مسلمي صقلية، ترجمة: د. محب سعد إبراهيم (١/١٥٣).

والإشراف» لعلي بن الحسين بن علي المسعودي، فقد ورد فيه ما يلي: «أن «نقفور» ملك الروم أنكر على الروم تسميتهم العرب «ساراقينوس» تفسير ذلك «عبيد سارة» طعناً منهم على «هاجر» وابنها إسماعيل، وأنها كانت أمة لسارة، وقال: تسميتهم عبيد سارة كذب، والروم إلى هذا الوقت تسمي العرب «ساراقينوس»[1].

● **النص الثالث: الرسالة السينودوسيّة، وعِظة الميلاد:**

أما الرسالة «السينودوسيّة، فهي رسالة استنصارية كتبها الراهب الأكبر بطريرك أورشليم الأرثوذكسي «صوفرو نيوس».

وهو راهب أرثوذكسي شهير انتخب بطريركاً لأورشليم «القدس»، وإن كان هو من أصل دمشقي، وهو الملقب «بفم المسيح»، المتوفى سنة (٦٣٨م)؛ أي: ما يوافق سنة (١٧هـ) أو التي بعدها[2].

وهذه الرسالة بعثها إلى بابا روما، وبطريرك القسطنطينية معاً، يستدعيهم فيها ليهبوا لمحاربة المسلمين، والمقصود في معركة «أجنادين» الشهيرة، والتي كانت سنة (١٣هـ) أو التي بعدها، إذن المحرك لها والدافع لكتابتها هو الشعور بأفول النصرانية عن بلاد الشام في تباشير الفتوحات الإسلامية القادمة.

ولغتها هي نفس اللغة الاستعلائية التي سبقت في النصوص النصرانية السابقة، وتصوير المسلمين بأنهم برابرة همجيون قتلة سفاكوا دماء.

جاء فيها: «ليهب الله أباطرتنا القوة الكافية والصولجانات العاتية لكي يسحقوا عنجهية كل البرابرة، وبخاصة «الساراسنيين» بسبب الذنوب

---

(١) التنبيه والإشراف للمسعودي، تحقيق: يارون روزن (١٦٨).

(٢) انظر عنه: كتاب المخطوطات العربية لكَتَبَة النصرانية للأب: لويس شيخة اليسوعي (١٣٤).

التي ارتكبناها ابتلينا فجأة بهم وأصبحوا يهجمون علينا بكل وحشية وينهبوننا ويسلبوننا»[(١)].

يقول المستشرق **«لويس دي بريمار»**: «لكن يبدو أن صولجان هرقل لم يكن ذا قوة كافية لكي يستطيع احتواء الساراسنيين»؛ أي: العرب، ففي شهر تموز يوليو من عام (٦٣٤م) استطاع هؤلاء أن يهزموا «ثيودوروس» وهو أخو هرقل الإمبراطور في موقعة «أجنادين» جنوب غربي «أورشليم».

وتذكر التواريخ الإسلامية هذه الحادثة التي قتل فيها أخو هرقل.

يقول **الطبري**: «كان على الروم رجل منهم يقال له: «القُبُقْلار» وإليه انصرف «تذراق» أخو هرقل بمن معه من الروم، فأما علماء الشام فيزعمون إنما كان على الروم «تذراق» أخو هرقل»[(٢)].

ويقول **ابن الأثير**: «واجتمعت الروم بأجنادين وعليهم «تذراق» أخو هرقل لأبويه»[(٣)].

وكذا فصل خبر الوقعة ابن أعثم في كتاب الفتوح، وذكر قتل أخي هرقل «تذراق» هذا، وكذا من كان معهم من البطارقة المقاتلين[(٤)].

هذه ثلاثة نصوص قديمة نصرانية معاصرة للفتوحات الأولى لبلاد الشام وفلسطين، ومعاصرة لزمن الصّديق والفاروق بعيد وفاة خاتم

---

(١) انظر النص في: أخبار بطاركة كرسي المشرق، ماري سليمان، تعريب د. لويس صليبا (٢٧٦)، وكتاب: صوفرو نيوس الأورشليمي، الحياة الرهبانية والجهر بالعقيدة، تأليف: المستشرق كريستوف فون شو نبورن (٨٩ ـ ٩٠).
(٢) تاريخ الأمم والملوك (٣/ ٤٦).
(٣) الكامل (٢/ ٢٠٣).
(٤) كتاب الفتوح (١/ ١١٥ ـ ١٢٠).

الأنبياء عليه الصلاة والسلام بقليل، وهي كما ترى قد وضعت الأرضية الفكرية للقضايا التي سيخوض فيها كل القساوسة والبطاركة الذين كتبوا بعد ذلك عن الإسلام والقرآن والنبي الخاتم محمد ﷺ، كما سيأتي ذكره مفصلاً في فصول هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

ثم إن نفس القضايا والشبهات والإنذارات انتقلت إلى المستشرقين، فما هم إلا اقتداء فكري لتلك الكتابات الكنسية وإن حاولوا أن يظهروها بمظهر البحثية العلمية المحايدة في زعمهم.

وسأنقل هنا نصّاً لأحد المستشرقين حدّد فيه بمهنية ـ إلى حد ما ـ محاور العمل الاستشراقي في التعاطي مع القضايا الإسلامية الكبرى: القرآن الكريم ـ شخصية النبي محمد ﷺ ـ الأحكام الشرعية عامة والجهاد خاصة، وإنما أنقل كلامه لأنه يصور العمل الاستشراقي من داخله وإن كنت لا أوافق على لغته ولا بعض أطروحاته.

يقول المستشرق الفرنسي الشهير «**دومينيك سورديل**»: «يقدم المسلمون دينهم بأن محمداً ﷺ قد أرسل ليوضح الدين الجديد، في مواجهة مسيحية ويهودية كانت قائمة لكنها منحرفة، ويرفض الرأي العام المسلم فكرة الكلام على أي تأثير ممكن قد يكون أثر في دعوة رسول الله محمد ﷺ».

هذا الوضع قلما يوجد عند علماء غربيين يترددون في وضع الوحي القرآني، على إثر الوحي السابق الذي شوّهه المؤتمنون عليه، بل إنهم على العكس من ذلك، إن هؤلاء العلماء عند ما يعملون على إبراز أوجه الشبه الممكنة بين نبوءة محمد، والدعوات السابقة يقعون صراحة وعلناً في الجدل الديني، الذي ليس من شأن المؤرخ.

إن احتمالات النزاع الكامنة بهذا الشأن، ويشعر بوجودها كل أولئك الذين يهتمون بالإسلام، فتبدر عنهم في موضوعه مواقف ومشاعر

شخصية قد حَرَّفتها أهواء عصرية ذات صبغة سياسية، لا شك أنه من المفيد هنا أن نشير إلى بعض الطروحات التي لم تنفك تغذي هذا الشأن، بحوثاً ومناقشات، ويمكن استشفاف وراء حياديتها المجردة المعروضة: خلفية من الصراعات الدينية ما تزال حية[١]، بعد أن سبق لها أن تحكمت إلى حد كبير بالمواجهات التي حصلت في العصر الوسيط[٢]»[٣].

يقول «**دومينيك سورديل**» أيضاً: «كما أن العلماء المعنيين بالإسلام كثيراً ما تساءلوا حول هذا «التحول»[٤] في الوحي القرآني، وقد حاولوا أن يتفهموه من خلال إطاره الديني؛ أي: من خلال الآيات المتنوعة المعزوة، بحسب السُّنَّة، مرة إلى الحقبة المكية، ومرة إلى الحقبة المدنية، أثناء حياة الرسول، البعض ظن أنه اكتشف بهذا الصدد تطوراً بموجبه أعطيت شخصية «إبراهيم» أهمية متزايدة، في الحين الذي أصبحت فيه مكة قبلة المسلمين في صلواتهم، وأن محمداً قد انفصل عن اليهود، وأخذ يهاجمهم بعنف».

كتب الهولندي «وِنْسنْك» مثلاً بعد «سنوك»[٥]: «لقد استطاع محمد

---

(١) أي: عند المستشرقين في تعاطيهم مع القضايا الإسلامية.
(٢) أي: عند القساوسة في العصور الوسطى في تعاطيهم مع القضايا الإسلامية فهم سلف أولئك المستشرقين.
(٣) الإسلام في القرون الوسطى (٢١ ـ ٢٢) باختصار وتصرف قليل للإيضاح.
(٤) يظن المستشرقون أن ما جاء في القرآن الكريم من الثناء على أنبياء بني إسرائيل كموسى وعيسى عليهما السلام وذكرهما مع مريم بالتبجيل والثناء، ثم ما جاء فيه من ذم بني إسرائيل ولعنهم واتهام اليهود والنصارى بالتحريف وتضييع الدين الحق، إنما هو تحول غريب في الخطاب القرآني وكثيراً ما يفسرونه بأنه تحول سياسي من النبي ﷺ، بحسب معطيات القوة والتمكن.
(٥) هو: هرخسونيه سنوك مستشرق هولندي من أشهر تلاميذ «تيودور نيلدكه»، =

أن ينعتق من اليهودية القائمة بالاستناد إلى اليهودية الإبراهيمية[١] «إبراهام»، فاعتبر الأخيرة سابقة الإسلام، وبذات المعنى تكلم الإنكليزي «طوري»، عن: «أساس يهودي للإسلام.

ولم يتردد اليسوعي الفرنسي «لامنسي»[٢]، في وصف الإسلام بأنه: «تكييف عربي للوحدانية التوراتية»[٣].

وكما صرّح الألماني «هارناك»: «إن الإسلام هو إعادة صياغة للديانة اليهودية في الأرض العربية بعد أن تعرضت الديانة اليهودية بالذات لعملية مماثلة بعد تعاطيها مع مسيحية غنوصية متهودة»[٤].

هذا في جانب جهد المستشرقين في جعل الإسلام صياغة أخرى لليهودية وأسفار العهد القديم، وفي المقابل هناك مستشرقون نحو منحى

= استطاع عام (١٨٨٥م) دخول مكة تحت اسم مستعار «عبد الغفار»، وبقي ستة أشهر فلما فُطن به أمَره القائم مقام بالخروج فوراً، ووضع أشهر كتبه الاستشراقية وهو كتاب «مكة»، انظر موسوعة المستشرقين لعبد الرحمٰن بدوي (٣٥٣).

(١) قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

(٢) هو: الأب «هنري لامنسي» مستشرق ولاهوتي يسوعي وهو بلجيكي، توفي سنة (١٩٣٧م) قال عنه عبد الرحمٰن بدوي في موسوعة المستشرقين: (٥٠٣): «شديد التعصب ضد الإسلام، يفتقر افتقاراً تاماً إلى النزاهة في البحث والأمانة في نقل النصوص وفهمها، ويُعَدّ نموذجاً سيئاً جداً للباحثين في الإسلام من بين المستشرقين».

(٣) نص «لامنسي» وجدته في كتابه «دور مكة زمن الهجرة»، وهذا نصه: «ولهذا فإننا لا نتراجع عن القول إنه ـ أي: محمد ـ وإن استعمل التعبير النصراني، فلا يفتأ يفكر تفكيراً يهودياً» (٩٤) طبع المركز الأكاديمي للأبحاث.

(٤) الإسلام في العصور الوسطى (٢٣).

جعل الإسلام هرطقة مسيحية محرفة يعرض. لهذا أيضاً «دومينيك سورديل» فيقول: «وبرزت الفكرة القديمة لأن بعض مسيحي القرن السابع الميلادي، وإن لم يذهبوا إلى تقديم الإسلام، وكأنه «نسخة عربية» عن المسيحية، ولم يترددوا في تصنيفه، على ما يبدو بين «البدع» في هذا الدين، مركزين بالضبط على شخصية «بحيرا» الراهب، الذي ما انفك متكلمون مسيحيون شرقيون متأخرون يتهمونه، إلا أن العناصر التي يبني عليها هؤلاء المناظرون تحليلاتهم لا تنطبق إلا على مصادفات عامة تفصيلية، ثانوية في مجملها، في حين يعارض الإسلام الإيمان المسيحي في معتقدات أساسية مثل: الإيمان بالتثليث، أو مثل فكرة الخطيئة الأصلية، وفكرة الخلاص، وهكذا تبدو واهية القاعدة التي ترتكز عليها جهود بعض المؤلفين المحدثين الذين أرادوا تقريب مسيح الإسلام من يسوع الإنجيل وهم يبنون مزاعمهم على مفارقات دون تمحيص، ولا تستبعد في جميع الأحوال، النقل المحتمل عن أشكال قديمة من العقيدة المسيحية»[١].

❁ ❁ ❁

---

(١) الإسلام في العصور الوسطى (٢٥).

يوحنا الدمشقي

وتلميذه: ثيودور أبو قرة

يوحنا الدمشقي
وتلميذه: ثيودور أبو قُرَّة

اسمه: منصور بن سرجون بن منصور، ولد في دمشق في حدود عام: (٦٧٥م)، وتوفي في حدود عام: (٧٥٤م)[١]، وكان جده منصور هو الذي يتولى مع أسقف دمشق الملكي تسليم مدينة دمشق لخالد بن الوليد في ١٠ أيلول سنة (٦٣٥م)[٢].

تمتَّع يوحنا الدمشقي بتسامح كبير من المسلمين، وعمل وزيراً لبعض الخلفاء الأمويين، وكان كاتباً وجابياً إلى أن سرَّحه وعزله الخليفة الأموي «عمر بن عبد العزيز» رَحِمَهُ اللهُ، سنة (٧٢٠م)، فانعزل في دَيْر شهير، هو دَيْر «مارسابا» ببيداء البحر الميت بفلسطين، وانكبَّ على تأليف الكتب في الرد على الإسلام ومهاجمته، إلى أن رَسَمَه البطريرك: «يوحنا الخامس الأورشليمي» كاهناً، وأصبح مستشاره الخاص[٣].

وصفه المؤرخ فيليب حتّي: «بأنه مفخرة من مفاخر الكنيسة التي ازدهرت في ظل الخلافة الأموية، وذلك لما اتصف به من النضوج

(١) هذه التواريخ حسب أستاذالدراسات الشرقية الألماني: «لودفيغ هاغِمَن» في كتابه: «مسيحية ضد الإسلام، حوار انتهى إلى الإخفاق» (٤٦) ترجمه: محمد جديد، دار قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ط. الثانية، ٢٠٠٥م.

(٢) كتاب: القديس يوحنا الدمشقي، تأليف: الإكسرخوس جوزيف نصر الله (٧).

(٣) يشكك الإكسرخوس جوزيف نصر الله في هذا زاعماً أن البطريرك يوحنا الخامس الأورشليمي كان قد مات قبل ولادة يوحنا الدمشقي، كتاب القديس يوحنا الدمشقي (١٩).

والمقدرة كمنشد ولاهوتي وخطيب في فنّ الجدل»[١].

وأطلق عليه البابا يوحنا بولس الثاني لقب: «البطل المناضل عن الإيمان الأرثوذكسي»[٢].

وكان قد سبقه إلى ذلك الدير أخوه بالتبني: «قزما الراهب» الذي صار معلمه وقد تولىَّ يوحنا الدمشقي في فترة إقامته بالدير أيضاً تكريس وعمل الأيقونات المقدسة، ومحاربة من يدعون إلى نبذها، وهو صراع شهدته الكنيسة في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين وكتب في ذلك كتابه الشهير: «الدفاع عن الأيقونات المقدسة»[٣].

وانتهى هذا الصراع في غير صالح يوحنا الدمشقي، إذ عقد الإمبراطور البيزنطي «كونستانتين كوبرو نيم» مَجْمَعاً مسكونياً حضره (٣٣٨) أسقفاً، ليصدروا حرماناً كنسياً على يوحنا الدمشقي جاء فيه: «اللعنة على منصور بن سرجون الذي خان المسيح، اللعنة والحرمان لعدو الإمبراطورية يوحنا الدمشقي المبشِّر بالجحود والمعظِّم للأيقونات»[٤].

وعُرف يوحنا الدمشقي أيضاً بصفته واحداً من مشاهير كتاب الأناشيد الدينية، والتي ما زال بعضها يتلى إلى اليوم في كنائس النصارى وعندما توفي دفن في دَيْر«مارسابا»، ثم تنقل رفاته إلى القسطنطينية.

يقول «روجيه جارودي»: «في عام (٤٧٨م) أقام أحد النُّساك الذي

---

(١) تاريخ العرب (٣١).

(٢) في رده على خطاب البطريرك الأنطاكي أغناطيوس الرابع: انظر سيرة البابا يوحنا بولس الثاني كتبها: ماري كريغ (٨٤).

(٣) طبع هذا الكتاب مترجماً للعربية بعناية: السيدة حَمَّا طُورِه، لبنان، ١٩٩٧م.

(٤) المصدر: كتاب تاريخ الكنيسة في الأرض المقدسة، تأليف: فردريك هاير، ترجمة: فهد أبو غزالة، القدس ١٩٩٥م، (١٩٧).

ظلَّ يجوب صحراء يهوذا على مدى خمس سنوات، وعُرف فيما بعد باسم القدِّيس «سابا» في مغارة تقابل دَيْر ما تزال آثاره ماثلة حتى اليوم، وراح مريدوه يتوافدون عليه ثم أقيم عام (١٠٠٥م) على المغارة دَيْر يُعد من أشهر الأديرة في الشرق، وقد مرَّ بهذا الدَّيْر أو عاش فيه قدِّيسون كبار كالقديس «تيودور» والقديس «كيربلوس»، وكذلك الشخصية المرموقة القدِّيس «يوحنا الدمشقي» (٦٧٥ ـ ٧٥٣م) الذي أمضى في هذا الدَّيْر ثلث قرن، وكتب فيه كل أعماله التي تعد نقطة انطلاق لحوار بين المسيحيين والمسلمين ولكن بصيغة جدلية هجومية»[١].

ألَّف «يوحنا الدمشقي» عدداً من المؤلفات، وهي كلها في تكريس الاعتقاد المسيحي الأرثوذكسي، وتعظيم الأيقونات، ومهاجمة الإسلام والقرآن الكريم، وسنعرض هنا لأهم مؤلفاته:

١ ـ كتاب «ينبوع المعرفة»، أكبر كتب يوحنا الدمشقي وأهمها، يقول عنه الإكسرخوس جوزيف نصر الله: «أهم مؤلفات يوحنا الدمشقي وتحفته الفريدة الحقيقية هو عرضه للعقيدة الكاثوليكية في كتاب «ينبوع المعرفة» تتقدمه توطئة فلسفية وتاريخية، إنه أفضل تلخيص للتقليد اليوناني ولا سيما قضايا المعتقد الخاصة باللاهوت الشرقي العقائدي»[٢].

وهذا الكتاب على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: نقل فيه أقوال وآراء علماء كنسيين في المنطق والفلسفة الممهدة للعلم اللاهوتي، تحت عنوان «فصول فلسفية».

والقسم الثاني: في الهرطقات وهي الجماعات التي انشقت عن المسيحية الأرثوذكسية، وعددها (١٠٣) واعتنقت تعاليم دينية زائفة بحسبه.

---

(١) كتاب: فلسطين أرض الرسالات السماوية (١١٢)، روجيه جارودي، ترجمة: قصي أتاسي وميشيل واكيم، دمشق، دار طلاس، ١٩٩١م.

(٢) كتاب: القديس يوحنا الدمشقي (١٧٢).

والقسم الثالث: في تقرير العقيدة ونص الأمانة الأرثوذكسية التي يلزم بها النصارى جميعاً[(١)].

يقول «فيليب حَتِّي» عن هذا الكتاب «ينبوع المعرفة» ليوحنا الدمشقي: «هذا الكتاب أول خلاصة لاهوتية وصلت إلينا، وقد اعتمده كل من: «بطرس اللومباردي» و«توما الأكويني»، وغدا المرجع المعتمد لمشاهير علماء الدين ممن جاء بعدهما وقد نقل الكثير من مؤلفات يوحنا إلى اللسان اللاتيني، واتفقت الكنيسة اليونانية وكذا اللاتينية على اعتباره قدِّيساً»[(٢)].

ويعد القسم الثاني في الهرطقات أخطر ما في كتابه هذا فإنه تحدث فيه عن (١٠٣) طائفة انشقت عن المسيحية كما يزعم.

ويفيد دارس حياته، الإكسرخوس جوزيف نصر الله: «أن المؤلف ينقل حرفياً في الثمانين الأولى منها، ما كتبه قبله: القديس أبيغا نيوس، ويستمد ما تبقى منه من كَتَبة عديدين نظير: تيودور يتوس، وتيموثاوس القسطنطيني، ولاونسيوس البيزنطي، وصفرونيوس الأورشليمي، أما عمله الشخصي فهو ما يتعلق بالإسلام، وبدعة محطِّمي الأيقونات وشيعة الأبوسخيتيين»[(٣)].

٢ ـ الدفاع عن الأيقونات المقدسة، كتبها يوحنا الدمشقي بين سنتي (٧٢٦م) و(٧٣٠م)[(٤)].

---

(١) كتاب: القديس يوحنا الدمشقي، جوزيف نصر الله (١٧٢)، يوجد تخبط عند جوزيف نصر الله، فتارة يزعم أن يوحنا الدمشقي يقرر العقيدة الكاثوليكية، وتارة يزعم أنه يقرر العقيدة الأرثوذكسية، والحقيقة أن يوحنا أرثوذكسي جلد كما يدل عليه كتابه: المئة مقالة في الإيمان الأرثوذكسي.

(٢) تاريخ سورية (٢/١١٦ ـ ١١٧).

(٣) كتاب: القديس يوحنا الدمشقي (١٧٢).

(٤) طبع هذا الكتاب مترجماً إلى اللغة العربية بعناية السيدة: حَمَّا طُورِه، لبنان، ١٩٩٧م.

٣ ـ المئة مقالة في الإيمان الأرثوذكسي وهو في الحقيقة الجزء الثالث من كتاب «ينبوع المعرفة» السابق ذكره في ذكر الأمانة الأرثوذكسية وقد طبع معرباً إلى اللغة العربية تحت عنوان «المئة مقالة في الإيمان الأرثوذكسي، ترجمة: الأرشمندريت أدريانوس شكّور، عن النسخة اليونانية المنشورة في مجموعة الآباء اليونانين».

وله كتب ورسائل وأناشيد كثيرة غير ما ذكر(١).

لقد قاد الدمشقي حركة الرد على الإسلام ومحاولة تشويهه، وكذا محاولة نقد القرآن الكريم وأنه ليس وحياً منزلاً من عند الله تعالى، وأسس منهجاً سلكه قساوسة كُثر من بعده يعترف بذلك مترجموا حياته ونشاطه من المعجبين به من النصارى

يقول الإكسرخوس جوزيف نصر الله: «لقد شمل تأثير الدمشقي حتى الإسلام، وذلك بطريقتين: فقد دفع يوحنا التيار القدري والمعتزلي، ونشَّط الحركة الفكرية المبررة للعقيدة المسيحية ضد الإسلام، وتابع تلميذه من بعده «تيودورس أبو قُرَّة»، عمل معلمه.

ونهج نهج الدمشقي مدافعون آخرون من أمثال البطريرك النسطوري «تيموثاوس الكبير» (٧٧٩ ـ ٨٢٣م)، أو أبو الفرج الأنباري (القرن الثامن ـ التاسع)، والراهب إبراهيم الطبراني المعروف ببطرس الراهب، وأبو الفضل علي بن ربّان النصراني وأبو الفرج سعيد بن علي الأنباري، وأبو العباس عيسى بن زيد بن أبي مالك، وأبو الخير عيسى بن هبة الله المسيحي، وكاتب رؤيا بحيرة المجهول، وعبد المسيح الكندي كاتب الرسالة الشهيرة إلى عبد الله بن إسماعيل الهاشمي، وأبو رايطة التكريتي،

---

(١) انظر عن مؤلفاته: المخطوطات العربية لكتبة النصرانية للأب لويس شيخو اليسوعي (٢١٧) ومقدمة المئة مقالة للأب ميخائيل أبرص (٣٩ ـ ٤٣).

وقد اقتصرنا على ذكر المدافعين الذين سبقوا القرن العاشر»[١].

ويظهر التراث الذي تركه الدمشقي في الرد على الإسلام والقرآن فيما يلي:

١ ـ الفصل الذي يحمل رقم (١٠١) من كتاب «الهرطقات» وهو القسم الثاني من كتابه الكبير «ينبوع المعرفة» نشر هذا الفصل في مجلة «الآباء اليونان»[٢].

٢ ـ حوار بين مسيحي ومسلم، من دروس يوحنا الدمشقي، جمعها تلميذه «تيودورس أبو قرة» نشرت في مجلة «الآباء اليونان»[٣].

موقفه من القرآن الكريم:

في الجزء الثاني من كتاب «ينبوع المعرفة» خصصه يوحنا الدمشقي للرد على ما سماه بالهرطقات المشاقة للعقيدة الأرثوذكسية التي يعتنقها، وكان للإسلام والقرآن نصيبه من ردّه واتهامه، ويتمثل جهده الشخصي في اتهام القرآن والإسلام، لذلك يمكن أن نعتبر يوحنا الدمشقي أول آباء الكنيسة تعرض بالنقد للقرآن الكريم.

زعم يوحنا الدمشقي أن النبي ﷺ قابل راهباً «آريوسيا» وأن هذا الراهب هو الذي أملى عليه هذا الكتاب وهذه الهرطقة[٤].

يعتبر يوحنا الدمشقي أول قساوسة النصارى التقط هذه الشبهة من وثنيّ العرب، نظراً لعيشه ومخالطته للعرب المسلمين وعمله بينهم في البلاط الأموي، ثم طورها وأعاد صياغتها ونشرها، وعنه تلقى القساوسة بعده هذه الشبهة ولاكوها كثيراً.

---

(١) كتاب: القديس يوحنا الدمشقي (٢٢١ ـ ٢٢٢).

(٢) مجلد (٩٤) (٧٦٣ ـ ٧٧٣).

(٣) مجلد (٩٤) (١٥٨٥ ـ ١٥٩٦).

(٤) مجلة الآباء اليونان (٩٤/٧٦٩).

والجواب من وجوه:

• **الوجه الأول:**

كان من ضمن اتهامات المشركين للنبي ﷺ وللقرآن: ما ذكره الله تعالى أنهم زعموا أن النبي ﷺ تعلم من رجل رومي[١] وأخذ عنه هذا القرآن، فقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

وهذا تشغيب منهم لا غير مع فجاجة هذا الادعاء وسخافته.

ويوحنا الدمشقي عاش بين المسلمين وعمل لفترة في البلاط الأموي قبل تسريحه فلما أن أراد أن يتهم القرآن الكريم ما وجد إلا ما ذكره القرآن من شبهة أولئك المشركين أهل الجاهلية الأولى وهذا يدل على مدى اضطراره فلجأ راغماً إلى هذه الشبهة الفجة السخيفة[٢].

لكن الإضافة الجديدة عند يوحنا الدمشقي هي في زعمه أن الراهب الذي قابله النبي ﷺ وتعلم منه القرآن هو راهب «آريوسي».

وجعل الدمشقي هذا الراهب المزعوم آريوسيا فيه نوع من الذكاء لما سيأتي ذكره وتفصيله من حال «آريوس».

يقول أستاذ الدراسات اللاهوتية الألماني «**لودفيغ هاغِمَن**»: «في الشرق تحاور يوحنا الدمشقي مع الإسلام، وكان يدين بمعرفته للدين الجديد لاحتكاكه الشخصي بالمسلمين الذين عاش بين ظهرانيهم ومارس العمل، وفي كتابه «حول الهراطقة» وهو القسم الثاني من كتابه في

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٧/٦٤٨ ـ ٦٥٠).

(٢) سيأتي دراسة واسعة لهذه الشبهة والرد عليها في دراسة رسالة عبد المسيح الكندي من هذا الكتاب إن شاء الله.

اللاهوت «ينبوع المعرفة»، يعد يوحنا الإسلام ضرباً من الهرطقات؛ لأن محمداً تلقى معلوماته على الخصوص من راهب آريوسي، وهذا ما يفسر برأي يوحنا أيضاً: أن المسيح يطلق عليه في القرآن اسم «الكلمة» و«الروح»؛ أي: كلمة الله وروحه، غير أن ألوهيته يجادل فيها، وهكذا رأى يوحنا الدمشقي في تعاليم محمد بصدد شخص المسيح هرطقة مسيحية ذات طابع آريوسي»[١].

• **الوجه الثاني:**

يَعُدّ عموم النصارى على رأسهم يوحنا الدمشقي «الأريوسية» بدعة وانشقاق على الكنيسة والعقيدة النصرانية التي اعتمدتها الكنائس، وبالتالي هي هرطقة فما هي الآريوسية؟

نسبة إلى أسقف كنيسة الإسكندرية «آريوس السكندري» الذي عاش في الفترة من سنة (٢٥٠م) إلى وفاته سنة (٣٣٦م)[٢] تقريباً.

وقع انشقاق في كنيسة الإسكندرية اتسع وتخطى مصر إلى كنائس سوريا وآسيا الصغرى في بداية تولي الإمبراطور الروماني قسطنطين.

وكان الخلاف في الرأي بين أسقف الكنيسة بالإسكندرية «الإسكندر» وبين رجل الكنيسة وأسقفها بعد «آريوس» حول مسألة شغلت أذهان رجال اللاهوت وآباء الكنيسة فترة طويلة من الزمن وهي: العلاقة بين الآب والابن الكلمة المتجسدة وطال بينهما الجدال، وبعد وفاة الاسكندر أسقف الكنيسة خلفه على الكرسي الرسولي وخلفه في مناظرة آريوس والرد عليه الأب «اثنا سيوس»، وكتب رسائل ضد الآريوسيين[٣].

---

(١) مسيحية ضد الإسلام (٤٦).

(٢) المجمل في تاريخ الكنيسة الجامعة للأب انطون الفرغاني (٤٠ ـ ٤١).

(٣) المصدر السابق (٤١).

وتتلخص آراء آريوس التي انشق بها عن تعاليم الكنسية وعدت هرطقه حرم بسببها:

١ ـ الله «تعالى» لم يكن دوماً أبا فهناك فترة من الزمن لم يكن فيها الله أباً.

٢ ـ كلمة الله «المسيح» لم تكن دوماً، ولكنها من العدم نشأت، فالله قد جعل هذا الذي لم يكن من ذلك الذي لا وجود له.

٣ ـ وعليه فالابن «المسيح» مخلوق، فقد مر عليه زمان لم يكن، وهو لا يساوي الأب في الجوهر.

٤ ـ إن الابن «المسيح» قد نشأ بكلمة الله، التي بها سواه الله، ومن ثم فهو بطبيعته عرضة للتغيير والتغاير شأن كل المخلوقات.

وملخص ذلك: أن الأب هو الإلٰه الحق، وأن الابن ليس إلهاً حقاً، فهما متعارضان بالضرورة على أساس التقابل بين الخالق والمخلوق، ومن ثم ليس هناك اثنان غير مخلوقين، ولا إلهان لا متناهيان[١].

وهكذا رأى آباء الكنيسة بالإسكندرية وغيرها في تعاليم آريوس هرطقة وانشقاقاً خطيراً على تعاليمها، إذ ينكر صراحة إلوهية المسيح، وأنه مخلوق من مخلوقات الله، كان بكلمه الله، وعقد الاسكندر أسقف الكنيسة مجمعاً في الإسكندرية سنة (٣١٩م) قضى بإدانة تعاليم آريوس، وقام أسقف الكنيسة البطريرك الاسكندر أيضاً بحط آريوس من درجة الكهنوت سنة (٣٢١م).

ولكن اثنان من الأساقفة وأحد عشر شمّاساً رفضوا ذلك فقطعهم

(١) انظر لذلك: تاريخ بطارقة كنيسة الإسكندرية، تأليف سوريس بن المقفع، إعداد وتحقيق: د. عبد العزيز جمال الدين (١/ ٣٦٤ ـ ٣٦٧).

البطريرك وطردهم، واستمر آريوس بشجاعة في دعوته ونشر تعاليمه واستمرت الكنيسة في محاربته وحرمانه وقطعه نهائياً من العمل بالكنيسة[١]، وانتشرت تعاليم آريوس ولقيت رواجاً.

ورحل آريوس من الإسكندرية بعد تعرضه للحرمان شاخصاً إلى فلسطين ثم إلى مقدونيا ونزل على صديق له يدعى «يوُسَاب» كان له حظوة في البلاط الإمبراطوري وفي رسالته لصديقه هذا يقول آريوس: «لقد أمسينا نعاني تلف الحياة لاضطهاد أنزله الأسقف بنا، وما من حجر إلا وقذفت به وجوهنا، لقد لفظونا ملاحدة خارجة المدينة»[٢].

وناصره «يوساب» وعقد مجمعاً بمقدونيا سنة (٣٢٢م)، وقرر اتخاذ جانب آريوس وكتب إلى جمهور الأساقفة في مختلف البلاد يدعوهم إلى مناصرة آريوس، وأن يسعوا جاهدين إلى إعادة آريوس إلى مكانه بكنيسة الإسكندرية.

ولاقت عقيدة آريوس وتعاليمه رواجاً كبيراً في الدوائر الكنسية في فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى وانضم إليه أساقفة كبار من ذوي الشهرة والنفوذ «كيوساب النيوقوميدي» «وباولينوس» أسقف صور، ويوساب أسقف قيسارية وغيرهم.

وفي سنة (٣٢٤م) عقد بأنطاكية مجمعاً كبيراً ضم أساقفه من كل الأقاليم التي تنظر لأنطاكية باعتباراها عاصمتها الروحية، وأعلنوا معادات الآريوسية وقرروا اختيار خصم آريوس العنيد يوستاثيوس أسقفاً بكنيسة أنطاكيا خلفاً «الفيلوجون» المتوفى، وإدانة العقيدة الآريوسية[٣].

---

(١) تاريخ بطاركة كنيسة الإسكندرية (١/ ٣٧٢ و٣٧٥).

(٢) الكنائس القبطية القديمة، ألفرد ج. بتلر، ترجمة إبراهيم سلامة (١/ ٢٦١).

(٣) تاريخ البطاركة (١/ ٣٨٤).

وفي شهر مايو سنة (٣٢٥م) تدخل الامبراطور قسطنطين لحسم الأمر ورأب الصدع عقد مجمعاً مسكونياً ضخماً يضم أساقفة الامبراطورية كلها ليكون قرارهم نهائياً وحاسماً، وعقد المجمع في مدينة «نيقية»[١] في بيثينيا، ويعد أول مجمع مسكوني تشهده الكنيسة الشرقية والغربية معاً.

واتفقوا في هذا المجمع على نص الأمانة الآرثوذكسية والتي فيها التنصيص على أن الابن «المسيح» مساوي للأب «الله» في الجوهر[٢].

واعترض آريوس وقلة قليلة من القساوسة معه فتم حرمانهم ولعنهم وطردهم وأصدر الامبراطور قسطنطين أمراً بنفيهم خارج الإسكندرية، وأرسل إلى الأساقفة في كل مكان يخبرهم أن آريوس ورفاقه مبتدعون مضللون وأن عليهم لعنة الله والامبراطور والأساقفة أجمعين.

يقول «وِلْ ديورانت»: «لقد كان الامبراطور قسطنطين يأمل من وراء عقد مجمع نيقية إلى أن يكون حاكماً مطلق السلطان، وهذا النوع من الحكم يفيد من تأييد الدين، وقد بدا له أن النظام الكهنوتي، وسلطان الكنيسة يقيمان نظاماً روحياً يناسب نظام حكومته ولعل هذا النظام العجيب بما فيه من أساقفة وقساوسة يصبح أداة لتهدئة البلاد وتوحيدها وحكمها»[٣].

والحق أن قررات مجمع نيقية لم تنه العقيدة الآريوسية، فعادت من جديد في الإسكندرية وتبعها طوائف كثيرة وعدد من رجال الإِكْلَيروس، مما استدعى الامبراطور قسطنطين إلى استمالته ودعوته للحضور عنده في بلاطه فجاء آريوس إلى القسطنطينية بصحبته الشماس «يوزيوس» وكتب

(١) هي اليوم بلدة صغيرة ضمن الجمهورية التركية تسمى (أزنيق).
(٢) انظر نص الأمانة كاملاً في: تاريخ البطاركة لسويرس بن المقفع (١/ ٣٩٨).
(٣) قصة الحضارة مجلد (٣) (٣/ ٣٨٨).

نص عقيدتهما وأخليا النص من تلك العبارات التي هي مثار الخلاف كعبارة «مولود غير مخلوق» وعبارة «من نفس الجوهر»، وقبل منهما الامبراطور، وأصدر عفواً عنهما، إلا أن كنيسة الإسكندرية وأسقفها «اثنا سيوس» رفضت الانصياع لأوامر الإمبراطور، فبدأ فصل جديد من فصول الصراع بين الكنيسة بالإسكندرية المتمسكة بنص الإيمان الأرثوذكسي المقرر في مجمع نيقية وبين الآريوسية ولم يسدل عليه الستار بعد إلى القرن السابع الميلادي إبان الفتح الإسلامي لمصر.

وفي مجمع الأساقفة الذي عقد سنة (٣٣٥م) بأورشليم أعلن الامبراطور موافقته على نص الأمانة الذي قدمه آريوس وزميله، ووافق عليها الأساقفة، وأعاد آريوس وصحبه إلى الكنيسة، وعُد هذا انتصاراً للآريوسية كبيراً، واستدعى الامبراطور آريوس إلى القسطنطينية وفي أثناء حضوره مع جموع المؤيدين له سنة (٣٣٦م) مات آريوس فجأة لأسباب مجهولة[١].

ولكن الصراع بين الآريوسية وكنيسة الإسكندرية خاصة استمر طويلاً فلما تولى الامبراطور «قسطنتيوس» بعد وفاة والده قسطنطين سنة (٣٥٠ ـ ٣٦١م) مال لمصلحة الآريوسيين فتصدى له القديس أثناسيوس أسقف الإسكندرية مع بعض الأساقفة الغربيين، ودعا الامبرطور قسطنتيوس إلى مجمع ميلانو سنة (٣٥٥م) ودعا الآباء والبطاركة إلى خلع اثنا سيوس أسقف الإسكندرية المدافع عن نص الأمانة المعتمدة في مجمع نيقية، فيكون مجمع ميلانو (٣٥٥م) بالضد تماماً لمجمع نيقية (٣٢٥م)[٢].

وهكذا استمر الصراع إلى أن عُقِدَ مجمع مشهور هو مجمع

---

(١) تاريخ البطاركة لسويرس بن المقفع (١/ ٤٩٨).

(٢) تاريخ التسامح في عصر الاصلاح جوزيف لوكلير (٧٩ ـ ٨١).

«خلقيدونية» سنة (٤٥١م) واعتمدوا فيه الطبيعتين والمشيئتين وأن المسيح مساوٍ للأب في الجوهر والطبيعة الإلٰهية وهو ضد تعاليم ودعوة آريوس تماماً.

واستطاعت الكنيسة الكاثوليكية مع الدولة البيزنطية اضطهاد الأريوسيين والقضاء عليهم حتى ضعف التوحيد والقائلين به وعم الاعتقاد المنحرف بالتثليث والطبيعة الإلٰهية للابن «المسيح» بفعل الدولة وانزوى الموحدون من النصارى هنا وهناك خوفاً من الاضطهاد والبطش، أو أظهروا الاعتقاد الكاثوليكي تقيةً وخوفاً إلى أن ظهر الإسلام وبعث النبي الخاتم محمد ﷺ والحال على هذا.

وهنا يمكن لنا أن نفهم خطاب النبي ﷺ لامبراطور الروم الشهير «هرقل» فقد كتب له النبي ﷺ كتباً يدعوه إلى الإسلام، ويحمّله وزر وإثم الآريوسيين الذين يضطهدهم وهم يدعون إلى التوحيد ونفي أن يكون لله تعالى شريك في الإلوهية مساوٍ له.

وفي «صحيح الإمام البخاري» نص كتاب النبي ﷺ لهرقل في حديث ابن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنهما.

وهذا نص كتابه عليه السلام:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلامٌ على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيّين»[١].

أقر أهل اللغة أن هذه الكلمة الواردة في خطاب النبي ﷺ «الأريسيّين» ليست عربية، قاله ابن فارس.

---

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٧).

وما حاول به شراح الحديث تفسيرها بالفلاحين أو الضعفاء أو العشارين لا يستند لأصل لعدم عربيتها، بل هي نسبة إلى اسم علمٍ أعجمي هو «آريوس» والظاهر أن هذه الكلمة في الخطاب النبوي لهرقل تعني الفرقة الآريوسية ومن بقي منهم، فالنبي عليه الصلاة والسلام يبلّغ هرقل زعيم الروم أنه إن لم يسلم ويؤمن بوحدانية الله تعالى وأن لا إله إلا هو فإنه سيتحمل إثم من ضل من النصارى بعد التوحيد إلى التثليث وإثم هذه الطائفة التي كانت يوماً ما تشكل أغلبية، وكانوا يعتقدون ببشرية المسيح وأنه مخلوق خلقه الله بالكلمة كسائر المخلوقات وأنه غير مساوٍ لله في الألوهية تعالى الله، وأنهم بفعل التزام هرقل بمقررات مجمع خلقدونية اضطهدهم وحملهم بالقوة على الشرك والتثليث.

وقد أشار أبو البركات ابن الأثير الجزري رَحِمَهُ اللهُ إلى ذلك فقال: «وفي رهط هرقل فرقة تعرف بالآريوسية فجاء على النسب إليهم»[(١)].

وإنما سقنا هذا البحث عن آريوس وعقيدته، لنبين أن يوحنا الدمشقي عندما زعم في النقل السابق عنه: أن النبي ﷺ أخذ القرآن من راهب آريوسي، إنما ينطلق من معلومات يعرفها من تاريخ دعوة التوحيد في النصرانية، وأكبر ظني أنه اطلع على خطاب النبي ﷺ لهرقل، واختار بذكاء أن يجعل الراهب الذي أخذ عنه النبي ﷺ آريوسياً.

- **الوجه الثالث:**

ولكن هذا لا يغني من الحق شيئاً، والفرية مكشوفة فقد ابتدعها وثنيو العرب أهل الجاهلية، ليصدوا الناس عن سماع القرآن العظيم، ولكنهم زعموا أن الذي تلقى عنه النبي ﷺ القرآن رجل رومي واختلف

---

(١) النهاية في غريب الحديث (١/ ٣٨).

في تحديده وذكر اسمه كما في كتب التفاسير[(١)].

وكان رد القرآن العظيم عليهم رداً واضحاً حاسماً يدركه كل أحد وهو كيف يتلقى العربي الفصيح قرآناً عربياً مبيناً فصيحاً بليغاً معجزاً لكافة العرب العرباء والقوم الفصحاء من رجل أعجمي رومي؟!

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣﴾ [النحل: ١٠٣].

والجديد الذي أضافه يوحنا الدمشقي إلى هذه الفرية المكشوفة يتمثل في أمرين:

الأول: أنه جعل ذلك الرجل المزعوم الذي ادعوا أن النبي ﷺ تلقى عنه القرآن جاعله راهباً قسيساً ثم جعله من الطائفة الآريوسية المهرطقة المنشقة عن الكنيسة في نظر يوحنا الدمشقي، مستغلاً التشابه إلى حدٍ ما بين ما يدعو إليه آريوس من نفي ألوهية المسيح وأنه مخلوق خلقه الله يجري عليه ما يجري على سائر المخلوقات وبين ما بينه القرآن العظيم ورد به على النصارى زعمهم أن المسيح ابن الله وأنه إله مساوٍ لله تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

الثاني: يعتبر يوحنا الدمشقي أول قسيس من أهل الكتاب من النصارى يتلقط هذه الفرية من مشركي العرب، ويروج لها، ليتبعه على ذلك كل القساوسة الذين جاءوا من بعده على لوك هذه الفرية وتكرار ذكرها تكرراً ممجوجاً.

ولكنهم يختلفون في تحديد هوية ذلك الراهب الذي تلقى عنه النبي ﷺ القرآن كما زعموا فيوحنا الدمشقي جعله آريوسياً، ومنهم من جعله نسطورياً ومنهم من جعله غير ذلك وكل ذلك تفنن في لوك الفرية ثم عرضها.

---

(١) انظر تفسير الطبري (٧/ ٦٤٨ ـ ٦٥٠).

مع أن القرآن ذكرها ورد عليها وفندها، وذكر القرآن لها لما سبق في علم الله أن هؤلاء القسس ومِنْ قبلهم مشركي العرب ومن بعدهم أفراخهم من المستشرقين سيكررون لوك هذه الفرية المرة بعد المرة، والكرة بعد الكرة، وهذا يدل على أمرين من الأهمية بمكان عظيم:

الأمر الأول: مدى اضطرار أعداء القرآن الكريم وأعداء النبي ﷺ، فلما رأوا آيات الله تعالى تتلى وأنوار القرآن تسطع، وحجة الله تفلج كل كفارٍ عنيد.

فلا بأس عليهم إذاً أن يقولوا ما لا يعقل، ويرددوا ما لا يقبل ويلتقط يوحنا وأضرابه من مزابل الشبهات القديمة التي حُلِّت فانحلَّت واضمحلت مثل هذه الفرية يرددها في تكرار بليد ممل.

الأمر الثاني: أن حجة القرآن بالغة وجوابه ملجم وأنه بحق كلام رب العالمين وأن ما فيه علم الله كما قال تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦].

فلعلم الله أن الجميع سيرددون هذه الفرية المكشوفة ويتداولونها الواحد بعد الآخر ولن تكون قاصرة على بعض سخفاء العقول من مشركي العرب، ذكرها الله تعالى في القرآن بأسلوب الاستقبال ليعطي الجواب عنها ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

يقول أستاذ الدراسات اللاهوتية الألماني «**لودفغ هاغمَن**»: هذه الأطروحة الخاصة بتأثر محمد براهب مسيحي تظل المرة بعد الأخرى، تلقى التأييد والاحتضان على مدى التقليد الطويل الخاص بالجدل المذهبي المعادي للإسلام، سواء أكان ذا مصدر بيزنطي أم لاتيني، ومن الممكن أن يكمن أصل تلك الأسطورة عن معلم مسيحي لمحمد كان يوجهه في قصة «بحيرا» العائدة إلى عصر الإسلام الأول.

وفي الروايات البيزنطية واللاتينية اللاحقة يصبح الراهب الآريوسي الذي ورد الحديث عنه عند يوحنا الدمشقي: سيرجيوس، ونسطوريوس وجيروجيوس، ونيقولاوس، ويوحنا.. إلخ، وهو يظهر أيضاً نسطورياً كما يظهر من أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة بل يظهر مرتداً، وحتى مؤلفاً للقرآن وكان ينظر إليه أكثر ما ينظر على أنه نسطوري ويصور على أنه مصدر غامض لمعلومات محمد»[(١)].

• **الوجه الرابع:**

ولكن الاضطرار إلى هذه الشبهة يستمر حتى الوقت الحاضر بإصرار مفضوح وتكرارٍ سقيم مع زيادة الأكاذيب لتبدوا قضية صادقة منطبقة وهي كاذبة فاضحه لمن يرددها.

لنأخذ مثلاً معاصراً على ذلك وهو بحوث وكتابات الدكتور لويس صليبا الخوري والذي يصف نفسه بأنه باحث وأستاذ الدراسات الإسلامية المقيم بباريس.

أصدر كتاباً تحت اسم «النّساطرة والإسلام: جدليّة علاقة وتأثر» وهو مقدمة ومدخل لتحقيقه لكتاب: أخبار بطاركة المشرق لماري بن سليمان، من كتاب المجدل للاستبصار والجدل لعمرو بن متّى الطيرهاني[(٢)].

وفي مدخله هذا حاول الدكتور لويس صليبا جهده إثبات أن ﷺ أخذ من تعاليم الكنيسة الناسطورية وأن تعاليمه بإثبات الطبيعتين، وبشرية المسيح وصلت إلى محمد ﷺ من طريق لقياه براهب نسطوري هو

(١) مسيحية ضد الإسلام (٤٦ ـ ٤٧).
(٢) طبع الكتاب مع المدخل للدكتور لويس صليبا، دار مكتبه بيبليون، بيروت، ٢٠١٢م.

«بحيرا» واستشهد ببعض الروايات من سيرة ابن هشام وغيره.

أما قصة بحيرا ورؤياه للنبي ﷺ فقد أخرج القصة الترمذي[(١)]، والحاكم[(٢)]، وغيرهما، لكن أسانيدهما ضعيفة ومرسلة لا يصح منها شيء وقد بين الإمام الذهبي نكارتها سنداً ومتناً[(٣)].

ولكن الدكتور لويس صليبا أتى بما هو أدهى وأمر كذباً وبهتاناً فتحت عنوان: الإسلام والعقيدة النسطورية.

قال لويس صليبا: «اعتبر عدد من المستشرقين أن عقيدة القرآن في طبيعة المسيح ولا سيما رفضه لما ينسبه إلى النصارى من تأليه لمريم أم المسيح، هي بالحقيقة صدى لموقف نسطور وعقيدته»[(٤)].

فصرح أنَّ اعتماده إنما هو على مفتريات المستشرقين التي هي إعادة توظيف لمفتريات القساوسة من قَبْل كيوحنا الدمشقي وغيره.

واعتمد لويس صليبا تحديداً على ما قاله المستشرق «زاهنر» في ذلك.

ثم أضاف لويس صليبا من عنده ما زعم أنه أدلة تثبت تلقي النبي ﷺ معلوماته في القرآن من راهب نسطوري.

فقال: «ولكن ما أثاره «زاهنر» ليست النقطة الوحيدة التي تلتقي فيها عقيدة نسطور بالتعاليم القرآنية عن المسيح، فثمت الكثير مما قاله نسطور ورددت أصداءه آيات الذكر الحكيم، وأحاديث الرسول محمد[(٥)].

ثم ذكر ما يلي:

---

(١) سنن الترمذي حديث رقم (٣٦٢٠).
(٢) مستدرك الحاكم (٢/ ٦١٥ ـ ٦١٦).
(٣) السيرة النبوية للذهبي، تحقيق: د. بشار عواد معروف (١/ ٥٧ ـ ٦٠).
(٤) الناساطرة والإسلام، جدلية علاقة وتأثر (٢٣).
(٥) المصدر السابق (٢٤).

١ ـ ورد في القرآن ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، وهذا المفهوم لا نجد له أي أثر في العقيدة المسيحية الرسمية.

٢ ـ قال نسطور: إن الله لم يلد ولم يولد، وهذا ما ركز عليه القرآن في سورة الإخلاص الشهيرة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤][(١)].

٣ ـ قال نسطور: لا يجوز أن يقال أن الله تألم ومات، وأبطل عبارة «يا من صلبت من أجلنا»؛ أي: أنه يشكك في عقيدتين أساسيتين في المسيحية هما: الفداء والصلب، وهذا بالتحديد ما رفضه الإسلام، إذ ترفض العقيدة الإسلامية أن يكون المسيح قد افتدى البشر وأن يكون قد تألم ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧][(٢)].

والجواب عن ما أورده د. «لويس صليبا» من وجوه:

- **الوجه الأول:**

من هو نسطور؟

هو راهب أنطاكي تذكر المصادر أنه ولد سنة (٣٧٨م)، وتنسك في دير «أبريببوس» بأنطاكيا ورافق أستاذه ومعلمه القديس يوحنا فم الذهب[(٣)].

ورسم بطريركاً على كنيسة القسطنطينية سنة (٤٢٨م) كانت له تعاليم

---

(١) الناطرة والإسلام (٢٤ ـ ٢٥). (٢) المصدر السابق (٢٥).

(٣) هو: القديس بطريرك القسطنطينية، لُقب «فم الذهب» لجمال مواعظه وخطبه، توفي سنة (٤٠٧م). انظر عنه وعن مؤلفاته: المخطوطات العربية لكتبة النصرانية للأب لويس شيخو (٢١٨).

خاصة فيما يخص طبيعة المسيح، عرفت بالبدعة النسطورية، وتقوم تعاليم نسطور على: أن للمسيح أقنومين وطبيعتين هما: الكلمة وهي من الله، ويسوع الإنسان الذي ولد، وأنكر أن تكون مريم ولدت إلهاً وانعقد لأجل بدعته مجمع مشهور وهو مجمع «أَفْسِس» وهو المجمع المسكوني الثالث في تاريخ المجامع الكبرى وذلك سنة (٤٣١م).

والذي قام بمناظرة نسطور والرد عليه بطريرك الإسكندرية وهو القديس «كرليوس» الذي اشتكا في أول الأمر نسطور للبابا ففوضه البابا «قلستينس» ليترأس مجمع أفسس بالنيابة عنه.

وفي هذا المجمع قرروا أمومة مريم العذراء للإله يسوع، وأضافوا ما يسمى بالسلام الملائكي ورفضوا تعاليم نسطوريوس[١]، وأصدروا حرماناً وطرداً لنسطور وأن تعاليمه هرطقة ومن ثم عزل عن البطريركيه، ونفي إلى الأردن ثم إلى ليبيا وبها كانت[٢].

ويظهر أن نسطوريوس هذا ما هو إلا أحد من تلقى تعاليم آريوس التي سبق الحديث عنها، وكما عقد لآريوس مجمع نيقية سنة (٣٢٥م) عقد لنسطوريس مجمع أفسس سنة (٤٣١م) وفي كل منهما صدر حرمان لهما ومن ثم اضطهد أتباعهما إلى أن عقد مجمع «خلقدونيا» الشهير سنة (٤٥١م) وكان نسطوريوس لازال حياً إذ ذاك، وفيه حسم النصارى أمرهم وقرروا نص الأمانة التي وحّدت أقنوم الابن«المسيح» بأنه إله كامل في صورة إنسان بلا اختلاط ولا تغير ولا انقسام ولا انفصال[٣].

وهو المعتقد الذي تتبناه الكنائس الكاثولكية والأرثذوكسية إلى الآن، ويظهر من تواريخ النصارى أن نسطور في آخر حياته وافق أن

---

(١) المجمل في تاريخ الكنيسة الجامعة الأب أنطون الفرغاني (٤١ ـ ٤٢).
(٢) معجم الإيمان المسيحي للأب صبحي اليسوعي الحموي (٥٠٩).
(٣) المصدر السابق (٢٠٥).

تدعى مريم أمّاً للإله، وقبل لفظة «تيوتوكس»؛ أي: أم الله(١)، تعالى الله علواً كبيراً.

ولأن يوحنا الدمشقي من المؤلّهين صراحة لمريم وأنها حملت وولدت بالإله فقد وجّه كثيراً من جهده العلمي للرد على النساطرة ورميهم بشتى التهم، فكتب بحثين ضد النساطرة وحاول أن يبرهن على ألوهية الابن «المسيح» ووحدة أقنومه بالاستناد إلى الكتاب المقدس وقرارات المجمعين «نيقية» و«خلقدونية»(٢).

فقضية نسطور تشبه إذاً قضية آريوس فكما استغل يوحنا الدمشقي دعوة آريوس ليزعم أن الراهب الذي تلقى عنه النبي ﷺ القرآن كان راهباً آريوسياً، أيضاً لويس صليبا يستغل ما ذُكر عن نسطوريوس ليحاول أن يوظف ذلك في اتهام الإسلام والقرآن أنه أُخذ من تعاليم نسطوريوس.

• **الوجه الثاني:**

زعم لويس صليبة أنه لا يوجد في العقيدة المسيحية تأليه لمريم أم المسيح وهو يريد بذلك أن يتوصل إلى تكذيب القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: ١١٦].

ولا أدري أهذا غباء منه أم تغابي؟! أجهل منه أم تجاهل؟!! فعلام تلك النقاشات الطويلة والخلافات المحتدمة مع آريوس ونسطوريوس اللذين رفضا أن تكون مريم أماً للإله أو أن تكون من الآلهة؟ وهل يعقل أن تحمل الأم البشرية وتلد إلهاً؟

(١) انظر: كتاب كنيستي السريانية إسحاق ساكا (٣٥١).

(٢) انظر: كتاب القديس يوحنا الدمشقي للاكسرخوس جوزيف نصر الله (١٧٨).

ثم هذا أحد مشاهير أباء الكنيسة وقديسيها يوحنا الدمشقى من المألهين صراحة لمريم أم المسيح.

يقول أحد الدارسين لسيرته وهو الاكسرخوس جوزيف نصر الله: «أما موقف الدمشقي المتعلق بالعذراء مريم فهو مذهب فيزيولجي بشأن التجسد وإصرار فائق على قداسة مريم.

قد يعتري المرء الذهول لدى بُعد إدراك علّامتنا الدمشقي فكأنه شارف قضايا كانت معروفة قبله بدون شك إنما كان الدمشقي أول من دعمها لاهوتياً، كان يوحنا الدمشقي أحد كبار المتعبدين لمريم، وأول رتل المتعبدين لها تجلت رقة عبادته لوالدة الإله من خلاله تآليفه كلها إن ما قاله «الكلمة» للملفان[1] الملائكي، «توما الأكويني» قالته «أم الكلمة» المتجسد ليوحنا الدمشقي: «لقد أحسنت النطق عنّي»[2].

وقد ذكر أحد المؤرخين النصارى وهو البطريرك «أفتشيوس» وهو سعيد بن البطريق في «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» أن من النصارى طائفة تقول بألوهية مريم أم المسيح، فقال: «فمنهم من كان يقول: إن المسيح وأمه إلهان من دون الله وهم المريمانية، ويسمون المريميين»[3].

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله: «فذكر ﷺ أنهما ـ أي: عيسى وأمّه ـ كانا يأكلان الطعام لأن ذلك أظهر الأدلة على أنهما مخلوقان مربوبان، إذ الخالق أحد صمد لا يأكل ولا يشرب، وذكر مريم مع

---

(١) الملفان: كلمة آرامية تعني في الاصطلاح الكنسي: رئيس الأساقفة الأول، انظر: معجم كنز اللغة الآرامية للمطران: توما أودو (١:٣١٧)، الموصل، العراق، ١٩٠٧م.

(٢) كتاب القديس يوحنا الدمشقي (٢٠٦ ـ ٢٠٧) باختصار.

(٣) تاريخ ابن البطريق (٣١٣).

المسيح لأن من النصارى من اتخذها إلهاً آخر فعبدها كما عبد المسيح، والذين لا يقولون بهذا كثير منهم يَطلب منها كل ما يُطلب من الله حتى يقول لها اغفري لي وارحميني وغير ذلك، بناءً على أنها تشفع في لذلك عن ابنها فتارة يقولون يا والدة الإله اشفعي لنا إلى الإله، وتارة يسألونها الحوائج التي تطلب من الله ولا يذكرون شفاعة، وآخرون يعبدونها كما يعبدون المسيح وقد ذكر سعيد ابن الطريق هذا عنهم، لما ذكر اجتماعهم عند قسطنطين بنيقية، قال: وكانوا مختلفي الآراء مختلفي الأديان فمنهم من يقول المسيح وأمه إلهين من دون الله وهم المريميون ويسمون المريمانية كذلك قال ابن حزم، وهو تعالى لم يحكي هذا عن جميع النصارى بل سأل المسيح سؤالاً يقرع به من اتخذه وأمه إلهين من دون الله»[1].

• **الوجه الثالث:**

أما ما نقله عن نسطريوس من أن الله لم يلد ولم يولد، وأن المسيح لم يصلب وبنى على هذا أن القرآن أخذ هذا منه وتأثر به فتهمة سقيمة وباردة.

فلا زال في النصارى من يرفض تأليه غير الله، ومن يرفض نص الأمانة التثليثي، ومن يرفض نسبة الابن إلى الله، ومن يرفض بدعة الصلب والفداء التي اخترعها بولس وغيره.

وكذلك بقيت بقايا من حقٍ عند أحبار يهود يبدونها ويخفون كثيراً.

وأخبر الله تعالى أن محمداً ﷺ خاتم أنبيائه وما أنزل الله عليه من القرآن العظيم إنما جاء مصدقاً لما مع أهل الكتاب من هذه البقايا من الحق الذي جاء به أنبيائهم، ويُظهر ما أخفوه ويكشف ما حرفوه وبدلوه.

---

(١) الجواب الصحيح (٤/ ٤٥٥ ـ ٢٥٧).

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥﴾ [المائدة: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [المائدة: ٤٨].

وهؤلاء البقايا من الموحدين من النصارى سواء كان نسطوريوس وأتباعه منهم أم لا فالله أعلم به هم الذين سماهم الله تعالى في قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٨٢ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٤ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٨٥﴾ [المائدة: ٨٢ ـ ٨٥]، فما ذكر أن آريوس وبعده نسطوريوس ومن تبعهما كانا يقولان به إنما جاء الحق في القرآن الكريم مصدقاً له لأنه حق من بقايا دعوة أنبيائهم ﷺ، وفي القرآن كذلك إظهار لما أخفوه وكشف لما حرفوه وبدلوه، هذه هي الحقيقة لا كما حاول لويس صليبا أن يصل إليه ولكن من طرف خفي.

❁ ❁ ❁

عبد المسيح بن إسحاق الكندي

عبد المسيح بن إسحاق الكندي

بعد افتتاح المسلمين للأندلس (إسبانيا) وقيام الإسلام بها وقعت محاورات عديدة بين المسلمين والنصارى الأسبان حول الإسلام والقرآن والنبي الخاتم محمد ﷺ.

وقد كتب الأساقفة بالأندلس رسائل في مناظرة الإسلام والقرآن وحقيقة نبوة خاتم الأنبياء محمد ﷺ.

هذه المساجلات والمناظرات التي قام بها القساوسة والبطاركة الإسبان في الأندلس تحت ظل حكم المسلمين، شكلت محاورها أحد أهم روافد الدراسات الاستشراقية الإسبانية والأوربية عن الإسلام والقرآن والنبي الخاتم ﷺ، طوال فترة التاريخ الوسيط، وكذلك أصبحت أهم روافد ومجالات الاستشراق في العصر الحديث، تمثلت في العمل النشط والدؤوب في إعادة صياغة ونشر تلك الرسائل والمساجلات وإعداد الدراسات حولها وحول أهميتها، وتكرار ترتيب لشبهاتها من قبل المستشرقين في العصر الحديث.

وقد برز للساحة العلمية وبقي متداولاً عدد لا بأس به من تلك الرسائل، سأذكر هنا بعضاً منها:

• المناظرة الخيالية الإفتراضية التي تخيَّلها وصاغها على هيئة مناظرة: القسِّيس الدومينيكاني ألفونسوبوين أمبري «Alfonso Buenhombre».

وأفترض شخصِيَّتَيْ المتناظِرَيْن: فقيهاً مسلماً سمّاه: أبو طالب

السَّبتي، والرِّبّي اليهودي الذي تنصَّر وسمّاه: صمويل المغربي.

وادَّعى ألفونسوبوين، أنه نقلها من العربية إلى اللاتينية.

وانتهت المناظرة التي صاغها ألفونسو إلى أن المتناظِرَيْن انتهيا إلى أن الدين الحق هو النصرانية.

وواضح الهدف من هذه المناظرة المتخيلة وهو الإسهام من هذا القسيس ألفونسوبوين أمبري في هدف تنصير المسلمين واليهود معاً[(١)].

• الرسالة التي كتبها الراهب الفرنسي: القدِّيس «هيو» «St.Hugh».

وقد وصُف بأنه كبير رهبان دير شهير هو دير: كُلُوني «Cluny»، وقد بعث «هيو» برسالته إلى الأمير المسلم المقتدر بالله أمير وحاكم «سَرَقُسْطة» يدعوه فيها إلى الدخول في دين النصارى ويشرح له محاسن النصرانية وقواعدها.

وقد كلف الأمير المقتدر بالله الإمام القاضي أبا الوليد سليمان بن خلف التُجَيْبي المالكي الباجي، نسبة إلى «باجة» مدينة بالأندلس، كلفه بالرد على هذه الرسالة التي بعث بها القسيس «هيو» إلى المقتدر بالله[(٢)].

• إلا أنَّ أشهر هذه الرسائل المتبادلة: هي الرسالة الجدلية المنسوبة لعبد المسيح بن إسحاق الكندي. وسنفرد لها فصلاً لأهميتها، واعتماد كثير من الدراسات الاستشراقية عن الإسلام والقرآن والنبي الخاتم محمد ﷺ عليها.

---

(١) كتاب: الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني، د. محمد العَشرِي (١٠٣ - ١٠٤).

(٢) حقّق الرسالتين وقدم لهما وعلّق عليهما ونشرهما الدكتور: محمد بن عبد الله الشرقاوي، وهي من مطبوعات الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية، ١٤٠٧هـ.

رسالة الكندي إلى الهاشمي:

أولاً: يرى مُؤرِّخو ودارسو المجادلات النصرانية والدراسات الاستشراقية للإسلام والقرآن والنبي الخاتم محمد ﷺ، بأن رسالة عبد المسيح بن إسحاق الكندي، قامت بدور مهم وحاسم منذ صدورها وظهورها.

فلقد شكّلت هذه الرسالة عند وصولها إلى الأندلس انقلاباً جذرياً في التعرف على الإسلام ومن ثم مجادلته ودحضه كما يزعمون.

وأبرز أحد الدارسين لأثر هذه الرسالة وهو: «كونينْكز فِلد» هذا الأمر من خلال استخدامات النصارى لمحتويات هذه الرسالة في مجادلاتهم للإسلام. ذاكراً لذلك شواهد عديدة(١).

ورسالة عبد المسيح الكندي هي كما أُظهر ردّ منه على رسالة وجهها له أحد أبناء عمومة الخليفة العباسي «المأمون» وهو: عبد الله بن إسماعيل الهاشمي، يظهر فيها محاسن الإسلام ويدعوه فيها إلى الإسلام، فقام عبد المسيح الكندي بالجواب عنها والرد عليها.

ويظهر أن عبد المسيح بن إسحاق الكندي هو الذي صنع الرسالة المزعومة من الهاشمي له ليتولى هو الرد عليها، والذي يدل على ذلك عندي أمور:

(١) أن هذا الرجل المزعوم: عبد الله بن إسماعيل الهاشمي والذي وُصف في رسالة الكندي أنه ابن عم الخليفة المأمون. شخص لا وجود له، وقد فتشت في كتب التراجم وأنساب بني العباس وأحفادهم وكتب التواريخ فلم أعثر على أحد بهذا الاسم مطلقاً.

(٢) لا يوجد لعبد المسيح بن إسحاق الكندي صاحب الرسالة ولا

---

(١) انظر: كتاب: الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني (١٠٨).

للمردود عليه: عبد الله بن إسماعيل الهاشمي أي ذكر في المصادر والتواريخ الإسلامية، إلا أن أبا الريحان البيروني المتوفى سنة (١٠٤٨م) ذكر شيئاً عنها، ربما هو الوحيد الذي ذكرها، ويظهر من عبارته أنه وقف على هذه الرسالة المنسوبة لعبد المسيح بن إسحاق الكندي التي أجاب فيها على رسالة عبد الله بن إسماعيل الهاشمي.

قال **البيروني**: «وكذلك حَكَى عبد المسيح بن إسحاق الكندي النصراني عنهم[١]، في جوابه عن كتاب عبد الله بن إسماعيل الهاشمي، أنهم[٢] يُعْرَفون بذبح الناس...»[٣].

(٣) الضعف العلمي والإيجاز المخل الذي يظهر في رسالة الهاشمي، وهذا يدفعني إلى القول أن واضع هذه الرسالة تعمد ذلك ليظهر ضعف حجة المسلمين، وليكون لرده عليها ميزة علمية وتنظيرية قوية كما يزعم.

ثانياً: رسالة عبد الله بن إسماعيل الهاشمي إلى عبد المسيح بن إسحاق الكندي وجواب الكندي عليها.

ظهرت هذه الرسالة للنشر أول مرة في لندن سنة (١٨٨٠م)، وهي بعناية: أَنْتون تيان «Anton Tien» وهي الرسالة التي نص الشيخ نعمان خير الدين الآلوسي أنه اطَّلع عليها فقال: «فقد رأيت في السنة الرابعة بعد الثلثمائة والألف من هجرة النبي الأشرف أوراقاً مطبوعة في لندن سنة ١٨٨٠م.... منسوبة إلى عبد المسيح بن إسحاق الكندي مجيبة بها في زمن المأمون العباسي رسالة عبد الله بن إسماعيل الهاشمي»[٤].

---

(١) الحديث عن الصابئة. (٢) أي: الصابئة.

(٣) كتاب: الآثار الباقية عن القرون الخالية (٣٢٢)، طبعة بغداد، مصورة عن مخطوطة ليبزيخ، سنة ١٩٢٣م.

(٤) الجواب الفسيح لما لفَّقه عبد المسيح (١/ ٣٤)، تحقيق: د. أحمد حجازي السَّقا، القاهرة ١٩٨٧م، ط. الأولى.

ثم أُعيد نشرها سنة (١٨٨٥م) ثم سنة (١٩١٢م)، وطبعت ونشرت مترجمة إلى اللغة العربية بالقاهرة سنة (١٨٩٥م) وسنة (١٩١٢م) تحت هذا العنوان: «رسالة عبد الله بن إسماعيل الهاشمي إلى عبد المسيح بن إسحاق الكندي، ورسالة الكندي إلى الهاشمي»[١].

ثالثاً: تضمنت رسالة الهاشمي بحسب ما وُضعت عليه ثلاثة محاور أساسية:

- **المحور الأول:**

مقدمة يذكر فيها الأمور الآتية:

(١) يذكر خبرته وتبحّره في معرفة الأديان خصوصاً دين النصارى.

(٢) يذكر أنه ناظر الجاثليق «طيماثاوس»[٢] الأول وكذا طوائف النصارى الثلاثة: الملكانية واليعقوبية والنسطورية، وقد ذمّ الهاشمي في

---

(١) انظر: كتاب: الفكر الإسلامي في الرد على النصارى للدكتور عبد المجيد الشرفي (١٥١ ـ ١٥٢).

(٢) هو: الجاثليق: طيماثاوس الأول المتوفى سنة (٨٢٣م)، هو الذي وضع كتاب: «الأحكام القضائية للطائفة النصرانية» ببغداد وعموم المشرق، وكان يحضر للمناظرة والمحاورة مجالس خلفاء بني العباس المهدي وكذا الهادي إلى الخليفة المأمون. انظر: الخلاصة التاريخية للكنيسة الكلدانية (٥١ ـ ٥٢)، وكتاب: ذخيرة الأذهان (١/ ٣٤٤)، وأخبار بطارقة كرسي المشرق لماري بن سليمان (٨٥)، وقد نشرت مجلة المشرق البيروتية في عددها رقم ١٩ (٣٥٩ ـ ٤٠٨) محاورة للخليفة العباسي الهادي المتوفى سنة (١٧٠هـ ٧٨٦م) للجاثليق طيماثاوس الأول طرح عليه فيها سبعة وعشرين سؤالاً وإشكالاً وتولى الجاثليق طيماثاوس الجواب عنها، ولا ذكر لهذه المحاورة في المصادر التاريخية الإسلامية، إلا أن مجلة مسيحية أخرى هي: «إسلاميات مسيحيات» تجعل المحاورة مع تيموطاوس الأول هي للخليفة العباسي المهدي أبي عبد الله محمد بن أبي جعفر المنصور (ت١٦٩هـ) وليس لابنه الهادي موسى (ت١٧٦هـ). انظر المجلة المذكورة عدد (٣) (١٢٥ ـ ١٥٢).

رسالته اليعقوبية واعتبرهم: «أكفر القوم وأخبثهم قولاً وأشدهم اعتقاداً وأبعدهم عن الحق».

(٣) ذكر أن المسلمين ملتزمون بهدي وسنة نبيهم ﷺ باحترام العهود والمواثيق التي مُنِحَت لأهل الذِّمَّة.

(٤) أفاد أنه تجول ولقي جماعة من الرهبان المعروفين بشدة الزهد وكثرة العلم، ودخل ديارات وبيعاً كثيرة، وحضر صلواتهم، وأنه شهد صلواتهم وقرابينهم وأدعيتهم.

(٥) أفاد أنه ناظر على المناصفة والعدل عدداً من المطارنة والأساقفة المذكورين بحسن المعرفة وكثرة العلم[١].

• **المحور الثاني:**

يذكر الهاشمي في رسالته محاسن الإسلام ليُرَغِّب صديقه النصراني «الكندي» فيه:

[١] وأهم محاسنه دعوته إلى عبادة الله الواحد الأحد، وأن هذه هي دعوة إبراهيم عليه السلام، فإنه ما كان يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً.

[٢] والإقرار بنبوة محمد ﷺ وآيته العظيمة هذا القرآن العظيم المُعْجز للخلق جميعاً.

[٣] محاسن الإسلام في عباداته من إقامة الصلوات الخمس، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام، والجهاد في سبيل الله بغزو الكفار والمشركين حتى يدخلوا في الدين الحق دين الله.

[٤] الإقرار بالبعث بعد الموت، وأن الله تعالى يبعث الخلائق ليوم

---

(١) انظر: رسالة الهاشمي، طبعة القاهرة (٢ ـ ١٢).

الدينونة الكبرى حتى يدخل أولياءه الجنة التي أُعِدَّت لهم فيها الطيبات، ويجزي الذين كفروا بنار جهنم.

[٥] وفي ختام هذا العرض يقول الهاشمي: «ولو لم يكن في دين الإسلام شيء إلا الطمأنينة والأمن وتسليم القلب لله، والراحة والثقة بما ضمن الله لنا عن نفسه أنه يثيبنا على ذلك في الآخرة الأجر العظيم، ويدخلنا جنات النعيم فنكون فيها خالدين»[١].

• **المحور الثالث:**

(١) بيان الخطأ في النصرانية، فالهاشمي يدعو صديقه الكندي إلى ترك القول بالتثليث: الأب والابن والروح القدس، وترك عبادة الصليب، ويسوق بعض الآيات من القرآن الكريم في بيان بطلان ذلك.

(٢) يعقد الهاشمي مفاضلة بين اليُسْر الذي في الإسلام، في مقابل العسر الذي في النصرانية.

(٣) يطالب الهاشمي صاحبه الكندي إن كان لا يزال مصراً على رأيه أن يكتب بما عنده من أمر دينه، ويكون العقل هو الفيصل، والحكم بينهما[٢].

يتَّجه كثير من الباحثين إلى التشكيك في رسالة الهاشمي وكون كاتبها مسلم من أقارب الخليفة، وأن الحقيقة التي لا تخطئها عين الفاحص الأريب أن كاتب الرسالتين واحد، والظاهر أنه الكندي نفسه إن كان الكندي أيضاً شخص معروف أو غيره، كما نبهت إلى ذلك، ويتأكد ذلك بأمور:

[١] أن شخصية الهاشمي شخصية افتراضية، فلا يوجد في الحقيقة أحد بهذا الاسم، ولا أنه من أبناء عمومة خليفة المسلمين المأمون.

---

(١) رسالة الهاشمي (١٢ ـ ٣٢). (٢) المصدر السابق (٣٢ ـ ٣٧).

والنصارى يفعلون ذلك بافتراض بعض الشخصيات والتصديق بذلك، وقد كشف أبو الريحان البيروني هذا الجانب عند النصارى فقال: «وفي التاسع والعشرين من كانون الأول: ذكران - أي: عيد - أنطونيوس الشهيد، وزعموا أنه: أبو رَوْح وأنه ابن عم هارون الرشيد، وأنه تنصّر بعد الإسلام، فصليه هارون الرشيد، وله عندهم قصة طويلة عجيبة، ما سمعناها، ولا قرأناها، ومثلها في كتب الأخبار والتواريخ، على أن النصارى قوم سمّاعون مصَدِّقون لمثل ذلك، وخاصة فيما يتعلق بدياناتهم، غير ناظرين من ميع الجهات في تصحيح الأخبار وتحقيق الآثار»[١].

[٢] توصل المستشرقان الشهيران: لويس ماسينيون «L. Massignon» وم.ت. دالفيرني «M. th. d'Alverny» إلى أن كاتب الرسالتين لا الهاشمي ولا الكندي وإنما هو الفيلسوف النصراني: يحي بن عدي التكريتي الشهير «بالمنطقي»[٢]، واعتمدا على تحليل تاريخي متناسب مع الزمن الذي عاش فيه يحي بن عدي، وبعض القرائن الأخرى والتي من أهمها وجود شيء من الصناعة المنطقية والفلسفية في محاولة تبرير التثليث ونحو ذلك.

[٣] في الرد الإسلامي على رسالة الكندي وهو كتاب: «الجواب الفسيح لما لفَّقه عبد المسيح» لأبي البركات نعمان خير الدين بن محمود الآلوسي، ينص على أن كلا الشخصيتين لا وجود لهما وأن واضع رسالة الكندي نصراني معاصر أو زنديق أراد إبطال دين الإسلام، وتصحيح التثليث ودين النصارى.

---

(١) الآثار الباقية من القرون الخالية (٣٣١).

(٢) هو: يحيى بن عدي التكريتي النصراني الملقب بالمنطقي من طائفة اليعاقبة، له كتب منطقية وفلسفية ولاهوتية، توفي سنة (٣٦٤هـ)، ترجم له ابن النديم في الفهرست (٢٦٤)، وابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء (١/ ٢٣٥).

فقال **الآلوسي**: «وكلاهما ـ أي: الهاشمي والكندي ـ فيما أظن «هيّ بن بيّ» وأن الصائغ لهما عصريٌّ خدا الحيَّ باللّيِّ أو زنديق متقدم العصر أراد ترويج الغيِّ، وأن ينسخ نور الشمس بالفيِّ»[١].

وقال في موضع آخر: «وإن كان الظن الغالب أنهما مفتعلتان مختلقتان من بعض البروتستانتيين أو نحوهم على لسان هذين الرجلين إذ لم نعثر على ترجمة هذين الرجلين، ولا وجدنا هاتين الرسالتين عند أحد من أهل الإسلام ولا في مكتبة أحد من الأنام»[٢].

وظهر لي بعد تتبع شديد أن أقرب من يفسر بأنه عبد المسيح بن إسحاق الكندي كاتب هذه الرسالة في الرد على الهاشمي:

هو: أبو نوح عبد المسيح بن الصلت الأنباري الكندي وهو كاتب شهير كان قسيساً نصرانياً وكاتباً شهيراً، يعرف بأبي نوح الأنباري واسمه عبد المسيح[٣] وكان في الفترة من أواخر القرن الثامن الميلادي وأوائل التاسع.

والذي يدعو للاعتقاد بأنه هو عبد المسيح بن إسحاق الكندي صاحب الرسالة أمور:

الأول: أنه كان كاتباً لأمير الموصل بالأنبار بالعراق ولذلك قيل له الأنباري، وهذا الأمير الموصلي هو أبو موسى بن مصعب، وعاصر خلافة هارون الرشيد والأمين والمأمون.

---

(١) الجواب الفسيح (١/ ٣٤). (٢) المصدر السابق (١/ ٣٨ ـ ٣٩).

(٣) ذكره بهذا المؤرخ القسيس النصراني أبو البركات بن كَبرَ، في كتابه «مصباح الظلمة» (٢١٨)، تحقيق ريدل، كوتنكن ١٩٠٢م، وكذا ذكره ابن العَبَري في تاريخ البطاركة (٢/ ١٨٨)، وابن العَبَري مؤرخ نصراني سرياني اسمه «غريغوريوس أبي الفرج بن هارون»، وهو صاحب كتاب: مختصر تاريخ الدول.

وكذا ولده إبراهيم بن أبي نوح كتب لإبراهيم المهدي، وكذا حفيده عيسى بن إبراهيم كتب للفتح بن خاقان أيام المتوكل(١).

فكما ترى هذه عائلة من الكتبة النصرانيين مخالطين مجالس أمراء وولاة بني العباس.

الثاني: أن عبد المسيح أبا نوح أدرك زمن المأمون العباسي ويظهر أنه كتب رسالته في هذه الفترة وهو مناسب لما نصّ عليه في مقدمة رسالته عندما قال: «لما يظهر من رأي سيدنا وسيدك وابن عمك أمير المؤمنين فينا» فإن المأمون توفي سنة (٢١٨هـ) الموافق لسنة (٨٣٣م) فهي نفس فترة هذا الكاتب النصراني.

الثالث: أن عبد المسيح هذا المعروف بأبي نوح الأنباري كان على علاقة وثيقة جدّاً بالجاثليق المكرَّس رئيساً على نصارى العراق وهو الجاثليق «طيما ثاوس الكبير» ويقال له «الأول» المتوفى سنة (٨٢٣م) وهو الذي سعى في تنصيبه هذا المنصب(٢)، وقد مرَّ معنا أن «طيما ثاوس الكبير» الجاثليق كان يغشى مجالس الخلفاء ويناظر ويجادل عن النصرانية.

يقول المؤرخ النصراني العراقي «**رفائيل بابو إسحاق**»: «وارتاد رؤساء الدين النصارى دواوين الخلفاء العباسيين ونالوا من لدنهم الكرامة والحظوة والثقة وكانوا أحياناً يعقدون مجالس المناظرة للبحث في الأمور الدينية والعلمية، فالجاثليق «طيما ثاوس: الأول» المتوفى سنة (٨٢٣م) حظي بالمثول لدى الخلفاء المهدي والهادي والرشيد والأمين

---

(١) كتاب: وزراء النصرانية وكتّابها في الإسلام للأب لويس شيخو اليسوعي (١٢٢) ترجمة رقم (١٦٤).

(٢) ذكر هذا المؤرخ النصراني السرياني «ماري بن سليمان» في «أخبار بطاركة كرسي المشرق» (٧٢).

والمأمون، وحاوره الخليفة الهادي المتوفى سنة (٧٨٦م) في مسائل الدين وعرض عليه سبعة وعشرين سؤالاً فأجابه إليها»[١].

وهذه الأسئلة نشرتها مجلة المشرق الصادرة ببيروت[٢]، وهي مجلة تُعنى بالتراث النصراني، ويوجد تشابه كبير مع الرسالة المنسوبة لعبد الله بن إسماعيل الهاشمي.

ثم أفادتنا مصادر نصرانية عديدة أن الجاثليق «طيما ثاوس الأول» كان على علاقة وثيقة وصداقة بأبي نوح عبد المسيح الأنباري وكان يراسله وأرسل له طيماثاوس تلك الرسالة المضمنة تلك الأسئلة[٣].

ومن ثم ألّف أبو نوح عبد المسيح الأنباري رسالتين في الرد على رسالة الهاشمي يظهر أنهما دُمِجَتا معاً لتكون رسالة واحدة، والرسالتان المذكورتان حسب المصادر النصرانية.

- **الرسالة الأولى**: مسائل وأجوبة في معاني الاعتقاد[٤].
- **الرسالة الثانية**: الرد على الهراطقة وتفنيد القرآن[٥].

والرسالة الثانية: إما أن تكون هي الأولى بعنوان آخر، أو أن

---

(١) كتاب: أحوال نصارى بغداد في عصر الخلافة العباسية (٦٣).
(٢) في عددها (١٩) ص(٣٥٩) وما بعدها.
(٣) كتاب: وزراء النصرانية وكتّابها في الإسلام، للأب لويس شيخو اليسوعي (١٢٢).
(٤) ذكر هذه الرسالة منسوبة لأبي نوح عبد المسيح الأنباري الكاتب، المؤرخ النصراني العراقي أبو البركات ابن كَبَر في كتابه: «مصباح الظلمة في إيضاح الخدمة» (٢١٩) تحقيق: ريدل «H. Riedel» كوتنكن ١٩٠٢م، وأبو البركات بن كَبَر له ترجمة في كتاب: وزراء النصرانية وكتّابها في الإسلام للأب لويس شيخو (٩٠) ترجمة رقم (٨٨).
(٥) ذكر الرسالة منسوبة إلى عبد المسيح الأنباري: جورج السمعاني في المكتبة الشرقية (٣/ ٨٣، ١٦٤).

الرسالتين دُمجتا معاً لتكوّن تلك الرسالة الشهيرة المنسوبة لعبد المسيح بن إسحاق الكندي لأنها تتضمن بحثاً مفصلاً بشبهات كثيرة ضد القرآن الكريم، وبحثاً مفصلاً في تصحيح الاعتقاد النصراني في التثليث وغيره.

الرابع: أن رسالة الكندي هذه كانت شائعة منتشرة عند النصارى بالعراق في ذلك الوقت وبعده في الموصل وما حولها، يقرأها، وينقل منها مقاطع من جاء بعد من البطارقة والقساوسة العراقيين، خصوصاً من طائفة السريان بالعراق.

وقد وقفت على شيء من ذلك:

ففي عهد الخليفة العباسي المقتدى بالله (١٠٧٥ ـ ١٠٩٤م) ألزم النصارى بلبس الملابس الخاصة بهم وعدم تشبههم بالمسلمين وألزمهم الغيار والصغار، مما أثر في ارتداد كثير منهم عن النصرانية.

فقام مطران الموصل في ذاك الوقت وهو المطران «مكّيخا الأول»[(١)]، توفي سنة (١١٠٩م)، بكتابة رسالة في حقيقة الديانة النصرانية، أرسلها إلى نصارى أصفهان يثبتهم على النصرانية وفيها نقل «مكّيخا» مطران الموصل، التي كان عبد المسيح الأنباري الكندي مطراناً لها قبلُ، نقل مقاطع مطولة من نص رسالة الكندي، مما يؤكد أن عبد المسيح الأنباري مطران الموصل هو كاتبها.

والمقطع الذي نقله «مكيخا» من رسالة الكندي يبدأ من قوله في ذكر الشهداء من أتباع المسيح عبر القرون: «ومما يستعان به في تقوية الإيمان ما جرى من قصص أصفياء سيدنا المسيح وشهاداتهم على عهد

---

(١) هو: مكيخا الأول، راهب وكاهن وطبيب، عُيِّن أسقفاً على الطيرهان، ثم مطراناً على الموصل نحو عشرين سنة، ثم اختير جاثليقاً على عموم نصارى المشرق من سنة ١٠٩٢ إلى وفاته، انظر: أخبار بطارقة كرسي المشرق لماري سليمان (١٣٧).

ملوك اليونانيين، وملوك فارس، وصبرهم ومسارعتهم إلى بذل دمائهم ودماء أولادهم، والخروج عن نعمهم ولذات دنياهم. . .» إلى قوله: «وهم في ذلك العذاب وشدتهم في غاية التمسك بدين النصرانية»[1].

وهو مقطع طويل منقول بنصه عن رسالة الكندي.

فيظهر لي من هذه المعطيات أن أقرب من يفسّر به عبد المسيح بن إسحاق الكندي هو أبو نوح عبد المسيح بن الصلت الأنباري الكندي، وأنه كنّى عن اسمه حتى لا يخسر وظيفته، وأن تلك الأسئلة من موسى الهادي للجاثليق طيما ثاوس هي الأقرب رسالة الهاشمي، والرد عليها من أبي نوح برسالتيه السابق ذكرهما، والله أعلم.

وعلى العموم سواء كان هذا أو ذاك فهي رسالة خطيرة اعتمد عليها جلّ القساوسة بعد في طعونهم على القرآن، وعلى دلائل نبوة النبي الخاتم محمد ﷺ، وكذلك اعتمد عليها من بعدهم جميع المستشرقين.

أما رسالة عبد المسيح بن إسحاق الكندي:

أولاً: هذه الرسالة تشغل نحواً من (١٤٠) صفحة، وهي جواب جدلي على رسالة الهاشمي المزعومة السابق ذكرها.

اهتم النصارى بهذه الرسالة منذ عهد قديم، واتخذوا من مضامينها مادة جدلية لمحاورة المسلمين والقدح في نبوة النبي ﷺ والقدح في القرآن الكريم والمجادلة في كونه وحياً من عند الله، والمجادلة في كونه كلمة الله تعالى.

ومن قدماء النصارى الذين اهتموا بهذه الرسالة القسيس الشهير

---

(١) نشرها الأب: جان ماريا السالسي ضمن كتابه: نصوص مختارة من كنيسة المشرق (٧٦ ـ ١٢٠).

«بطرس المبجَّل»[١] فأدخلها ضمن مشروعه الكبير لترجمة القرآن العظيم من العربية إلى اللغة اللاتينية.

فقد كلَّف الراهب «بطرس المبجل» أحد أعوانه وهو: «بطرس التوليتاني» (الطليطلي) نسبة إلى مدينة طليطلة المدينة الأندلسية الشهيرة، كلفه بإعداد ترجمة لهاتين الرسالتين: رسالة الهاشمي إلى الكندي، ورسالة الكندي إلى الهاشمي من العربية إلى اللاتينية؛ لأنها تمثل مادة ثرية لمجادلة المسلمين بالأندلس[٢].

ومن نصها اللاتيني نُشِرت الرسالة باللغة الإسبانية على يد: خوسيه مونوث سيدينو «Jose munoz sedino» وصدرت بمدريد[٣].

ثانياً: يشكك كثير من الباحثين من الغربيين والشرقيين في وجود شخصية عبد المسيح بن إسحاق الكندي ورسالته التي كتبت كما يُزْعَم في القرن الثالث الهجري.

• فقد مر أن المستشرقين الشهيرين: لويس ماسينيون وم.ت. دالفيري شكَّكا في رسالة الكندي ونسباها صراحة إلى الفيلسوف المنطقي واللاهوتي اليعقوبي «يحي بن عدي التكريتي»، ومرَّ ذكر شواهدهما على ذلك.

• لم تَحْظى رسالة الكندي على ما فيها من مغالطات ومطاعن في

---

(١) سيأتي الحديث عنه مفصلاً في فصل خاص به إن شاء الله تعالى.

(٢) انظر لذلك: كتاب: مسيحية ضد الإسلام، تأليف: لودفيغ هاغِنمن (١١٤)، وكتاب تاريخ حركة الاستشراق، تأليف: يوهان فوك (١٨).

(٣) انظر كتاب: الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني للدكتور محمد العسري (١٠٩ ـ ١١٠)، كما أفاد الدكتور العسري أن باحثة هولندية تدعى: إ.دي هاس «E. de Haas» تجمع جميع مخطوطات رسالة الكندي هذه لدراستها وتحقيقها (١١٠).

الإسلام والقرآن لأي ذكر أوردّ من علماء المسلمين في القرن الثالث وما بعده إلى العصر الحديث.

والرد الإسلامي عليها هو كتاب: «الجواب الفسيح لما لفَّقه عبد المسيح» من تأليف الشيخ أبي البركات خير الدين نعمان الآلوسي رَحِمَهُ اللهُ[١][٢].

• قدّم الباحث محمد حمدي البكري شواهد وقرائن عديدة تشكك في الرسالة وزمن كتابتها وشخصية كاتبها كذلك[٣].

وأيّاً كان فرسالة الكندي بهذا الإخراج التحاوري كُتبت بأيدي قسيس نصراني تدخل ضمن أعمال القسس في مناهضة الإسلام ولمحاولة إضعاف حجة القرآن.

ثالثاً: منهج رسالة عبد المسيح الكندي:

اتبع عبد المسيح الكندي في رسالته منهجاً يقوم على المحاور الآتية:

(١) فيما يورده من شواهد واستدلالات من القرآن الكريم أو من سيرة النبي ﷺ فإنه يتبع مذهب الانتقائية واقتصاص النصوص من سياقاتها واختزالها، ومن ثم تفكيكها، وإعادة تركيبها بطريقة فجة استفزازية ليحقق مقاصده بالتشنيع على القرآن والنبي ﷺ.

---

(١) هو: العالم الفقيه: نعمان بن محمود الآلوسي، كنيته: أبو البركات، ولقبه: خير الدين، ولد ببغداد (١٢٥٢هـ)، من أشهر كتبه: جلاء العينين في محاكمة الأحمدين في الانتصار لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، توفي رَحِمَهُ اللهُ سنة (١٣١٧هـ)، الأعلام للزركلي (٨/ ٤٢).

(٢) طبع بتحقيق الدكتور أحمد حجازي، بيروت (١٩٩٢م).

(٣) مقال: «رسالة الهاشمي إلى الكندي ورد الكندي عليها» مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٤٧م (٢٩ ـ ٤٩).

(٢) اتبع الطريقة الاختزالية، فهو يترك الشواهد الجليّة الواضحة الدالة على المقصود ويذهب لدلالات أبعد وفي تحقيق المقصود أضعف، ليمارس عليها فوقية عجيبة وإظهار الدلائل الإسلامية بمظهر الضعف والقصور.

(٣) برهن على اطلاع لا بأس به على نصوص الكتب المقدسة عندهم: من أسفار التوراة وأسفار الرسل والأناجيل الأربعة وما يتبعها فيما يورده من نصوص منها إلا أنه يلاحظ عليه في ذلك أمران:

الأول: اختلاف ليس بالقليل بين النص الذي يورده وبين ذات النص كما هو في الكتاب المقدس بحسب النسخ التي وصلت إلينا.

الثاني: يذكر نصوصاً معزوة إلى الكتاب المقدس لا وجود لها البتّة فيه، وهذا يدل على استمرار عملية الحذف والإضافة والتعديل والتحوير التي تسلط بها الأحبار والرهبان على النصوص المقدسة عبر الأزمان.

٤ ـ أقام عبد المسيح في رسالته منهجاً قياسياً، صاغ فيه من عنده تصوراً للإسلام نشأةً وأحكاماً ومضامين وقارنه بالنصرانية عبر العديد من الجدليات الثنائية ليصل إلى نتيجة صرح بها من أول رسالته وهي: أن الإسلام دين دينوي مادي يقدس الشهوات ويدعو إليها وهو موضوع من وضع صاحبه؛ يعني: النبي ﷺ، والآخر روحي قدسي أخروي من وحي الله تعالى وكلمته.

- **مضامين رسالة الكندي مما يتعلق بالقرآن الكريم ومناقشتها:**

تضمنت رسالة عبد المسيح الكندي محاور متعددة، توزعت بين البحث في نشأة الإسلام وشخصية النبي ﷺ، ودلائل نبوته وأحكام الشريعة، والطعن في القرآن الكريم.

وسنقتصر هنا بحسب موضوع دراستنا على موقف عبد المسيح بن إسحاق الكندي من القرآن الكريم ومطاعنه فيه، ومحاولاته إبطال دلائل

القرآن الكريم في عدد من القضايا الكبرى، مع مناقشته في ذلك، وسنورد كلامه في القرآن متسلسلاً بحسب وروده في رسالته، وقد أخالف هذا التسلسل لأمور تنظيمية تخص هذه الدراسة:

[١] قال عبد المسيح الكندي: «ومكتوب في التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى النبي، وناجاه بجميع ما فيها وخبَّره أسراره في السفر الأول من أسفارها الخمسة وهو المعروف بسفر الخليقة (التكوين): إن إبراهيم كان نازلاً مع آبائه بحران، وأنها كانت مسكناً له، وأن الله تجلّى له بعد تسعين سنة، فآمن به وحُسِبَ له ذلك بِرًّا، ولكنه قبل ذلك التجلّي، كان يعبد الصنم المسمى «العُزَّى» وهو المعروف بحرّان المتخذ على اسم القمر؛ لأن أهل حرّان كانوا يعبدون هذا الصنم، فكان إبراهيم يعبد الصنم حنيفاً مع آبائه وأجداده وأهل بلده إلى أن تجلّى الله عليه، فآمن بالرّب فحسب له ذلك برّاً»(١).

في هذا النص عدة أمور:

• زعم الكندي أن نبي الله ورسوله وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان يعبد الأصنام مع قومه بحران، وكان يعبد الصنم المسمى «العُزَّى» مع قومه إلى تسعين سنة من عمره، وهذه معارضة منه ومصادمة لدلالة القرآن الكريم.

فإن الله تعالى عظّم شأن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام في القرآن ورفع قدره ومدحه وأثنى عليه بالإسلام والتوحيد الخالص والقلب السليم، وأنه حنِيف مسلم ولم يك قط من المشركين.

قال تعالى في القرآن الكريم في وصف إبراهيم ﷺ وتزكيته بالتوحيد والحنيفية والإسلام:

---

(١) رسالة الكندي (١١) وكذا نقل النص عن طبعة لندن (١٨٨٠م) الشيخ نعمان الآلوسي في الجواب الفسيح (١/ ٤٠ ـ ٤١).

- ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠].

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: ٧٤].

- ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات: ٨٣ ـ ٨٧].

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨].

- ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم: ٤١ ـ ٤٨].

- ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ٦٩ ـ ٧٧].

- ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١].

والآيات في ثناء القرآن على إبراهيم عليه السلام وبراءته من الشرك وعبادة الأصنام كثيرة معلومة، حتى لقد بلغت نحواً من سبعين آية قرآنية كريمة في كتاب الله تعالى، فيأتي هذا الكاتب المدعو بعبد المسيح الكندي، يريد ببضعة أسطر أن يبطل دلالاتها الصريحة في الثناء على إبراهيم عليه السلام بالإيمان والإسلام والتوحيد الخالص، والحرب على الأصنام والأوثان وعابديها من دون الله تعالى، فيزعم أن إبراهيم عليه السلام عبد الأصنام مع آبائه وقومه تسعين سنة من عمره، سبحانك هذا بهتان عظيم.

• فلما أراد الكندي أن يسند افتراءه على نبي الله وخليله إبراهيم عليه السلام وتكذيبه لثناء القرآن الكريم عليه بالإيمان والإسلام والتوحيد الخالص والقلب السليم، لم يجد إلا افتراءً آخر ولكن هذه المرة على الكتاب المقدس عنده، فنسب لسفر التكوين من أسفاره التوراة وهو السفر الأول فيما يسمى بالكتاب المقدس عند النصارى، ما افتراه وزعمه من أن نبي الله وخليله وصفيَّه ورسوله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كان تسعين سنة من عمره مشركاً مع قومه يعبد الأصنام.

وإذا رجعنا إلى سفر التكوين في كل النسخ نجد أنه لا ذكر للأصنام ولا أن إبراهيم عليه السلام كان يعبد الصنم المسمى (العُزَّى) بحران مع آبائه تسعين سنة، فلا ذكر للعُزَّى مطلقاً في سفر التكوين.

وقصة إبراهيم وخروجه من أرضه وتجلّي الرب له مذكورة مفصلة في سفر التكوين، الإصحاح رقم (١٢، ١٣ ،١٤، ١٥) وفي آخر الإصحاح (١٥): «فآمن بالرَّب فَحُسِب له ذلك براً»[١].

---

(١) سفر التكوين (١٥/٦).

فعبد المسيح يريد إبطال ودفع ما في القرآن من ثناء الله على إبراهيم وتبرئته من عبادة الأصنام، وما كان قط من المشركين، بافتراء وكذب من عنده زعم أنه مكتوب في التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى النبي عليه السلام.

قال الشيخ نعمان خير الدين الآلوسي رحمه الله بعد نقله لكلام عبد المسيح الكندي السابق: «فهذا كذب وتمويه على الجاهل بما في التوراة كما يتضح لك من عباراتها»[1].

ثم نقل مقاطع من سفر التكوين بطولها.

ثم قال: «وإنما سردناه لك على طوله، لتقف على خيانة هذا المؤلف ودسائسه، وزخرفته للباطل من وجوه عديدة، منها: عزوه للتوراة في سفر التكوين أن إبراهيم كان يعبد الصنم وهذه عبارات سفر التكوين بعينها، وليس فيها سوى بيان خروجه عليه السلام من «حران»»[2].

ثم قال رحمه الله: «وَلْنُذَكِّرْ هذا المؤلف بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران: ٧١]، والمقصود هنا أن هذا المؤلف ادَّعى شيئاً تكذبه فيه الكتب السماوية، والعقول المرضيّة من عبادة إبراهيم للأصنام مع أنه كسرها وأُدْخِل النار لذلك فكانت عليه برداً وسلاماً»[3].

• زعم عبد المسيح الكندي أن إبراهيم عليه السلام كان يعبد الصنم المسمى «العُزَّى».

لما رأى هذا الكندي ذكر «العُزَّى» في القرآن الكريم، وأنها من

---

(١) الجواب الفسيح (١/ ٥٤).
(٢) المصدر السابق (١/ ٥٦).
(٣) المصدر السابق (١/ ٥٧).

معبودات العرب في جاهليتهم لقط اسم هذا الصنم ليزعم أن إبراهيم عليه السلام كان يعبده تسعين سنة من عمره وهي المرحلة الأولى من حياة إبراهيم عليه السلام قبل أن يتجلّى له الرَّب تعالى.

وله في ذلك مقصد خفي ليتوصل بعدُ إلى ذمّ خاتم أنبياء الله محمد ﷺ بنفس التهمة: أنه كان مع قومه يعبد هذا الصنم «العُزَّى» وسيأتي ذكر ذلك وردّه.

ذكر الله تعالى في القرآن العظيم أسماء بعض آلهة العرب وأصنامهم التي كانوا يعظِّمون ويعبدون، ولا يخفى مقدار الصنمية والوثنية التي كانت عند العرب في عصور الجاهلية البائدة، والتي بُعِثَ خاتم الأنبياء محمد ﷺ لهدمها ودثرها وإبطالها، وهدم الشرك والوثنية من عقول وقلوب وأعمال أولئك المشركين الغافلين.

في سورة النجم السورة الوحيدة في القرآن التي ذكر الله فيها أسماء أصنام العرب الكبرى التي كانوا يعبدون.

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٢٣﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢٣].

والسياق ذم لهذه الأصنام وتقريع شديد للمشركين الذين اتخذوها آلهة، وما هي إلا أصنام خلعوا عليها أسماء من عندهم.

التقط القساوسة كما فعل هنا عبد المسيح ذكر العُزَّى في القرآن وجعل نبي الله إبراهيم يعبدها.

والذي ظهر لي أنهم استغلوا كلمات متشابهة في سفر التكوين وترجموها على كلمة في القرآن.

فقد ورد في سفر التكوين النص الآتي: (فاجتاز إبرام في الأرض إلى موضع شَكِيم)(١).

ثم رأوا شبهاً بين كلمة (شَكِيم) العبرية وكلمة (سَقيم) العربية الواردة في القرآن في قول الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصافات: ٨٨، ٨٩]، ثم وجدوا في كتب السيرة أن العرب وقريشاً حمت للصنم «العُزَّى» شِعباً يقال له: «سُقَام»(٢).

فجعلوا «سُقَام» هو سقيم في قول إبراهيم وهي كلمة «شَكِيم» التي في سفر التكوين، هذا الربط الميثولوجي هو الذي جعل عبد المسيح الكندي يزعم أن إبراهيم عليه السلام كان يعبد الصنم الذي يسمَّى «العُزَّى» ثم ربط بينه وبين النجوم والقمر فقال: المسمَّى على اسم القمر(٣).

وهذا ربط متعسف وباطل، يفتقد كل المعايير العلمية.

فشكيم في نص التكوين هي مدينة نابلس الفلسطينية، هذا هو اسمها في المصادر العبرية القديمة، وقد تكرر هذا الاسم في سفر التكوين وفي غيره، وأنها موطن يعقوب عليه السلام.

- في سفر التكوين: «ثم وصل يعقوب سالماً إلى مدينة شَكيم التي بأرض كنعان»(٤).

---

(١) سفر التكوين (٦/١٢).

(٢) قال هشام بن محمد بن السائب الكلبي في كتاب الأصنام (١٩): «وكانت قريش قد حمت لها - أي: للعُزَّى - شِعباً من وادي حُراض يُقال له سُقَام يضاهون به حرم الكعبة، وأنشد قول أبي جندب الهذلي:

لقد حلفت جهداً يميناً غليظة   بفرع التي أحمت فروع سُقامِ».

(٣) انظر: كتاب: «عبادة إيزيس وأوزيريس في مكة في الجاهلية» لزكريا محمد (١٥٧).

(٤) سفر التكوين (١٨/٣٣).

ـ «واشترى من حَمُور أبي شكيم قطعة الحقل التي نصب فيها خيمته بمائة قسيطة، أقام هناك مذبحاً ودعاه باسم إيل إله إسرائيل»[١].

ويفاجأنا سفرالتكوين في هذا النص بأن شكيم اسم لشخص: هو شكيم بن حمور الحُوِيّ رئيس البلد الذي سُمِّي باسمه، وأن شكيم هذا رأى ابنة يعقوب واسمها: دِينة، فأخذها شكيم وضاجعها واغتصبها في قصة طويلة انتهت بزواجه بعد بها[٢].

فأين شكيم إذن، وأين حمى العُزَّى المسمى «سُقام»؟!.

أما قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصافات: ٨٩]؛ أي: إني مريض من السُّقْم[٣] وهو المرض، فهي نظير قوله تعالى عن يونس عليه السلام: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الصافات: ١٤٥]، نفس هذه السورة؛ سورة الصافات: أي: ضعيف البدن مريض[٤].

ليست اسم مكان، ولا علاقة لها بأسماء الأمكنة.

● ذكر عبد المسيح الكندي في الفقرة السابقة كلمة: «حنيف» ولكنه جعل معنى كلمة «حنيفاً» و«الحنيفية» أنها تعني الشرك وعبادة الأوثان، فقال ما نصه: «فكان إبراهيم يعبد الصنم حنيفاً».

وقال أيضاً: «فترك الحنيفية التي هي عبادة الأصنام».

وأضاف هذا المعنى للحنيفية إلى ما سمّاه «كتب الله المنزلة» فقال: «لأننا نجد الحنيفية في كتب الله المنزلة اسماً لعبادة الأصنام».

في هذه العبارات لعبد المسيح الكندي كذب وافتراء ومغالطات شنيعة لغوية وعلمية، سنكشف عنها إن شاء الله.

ـ الحنيف عند العرب في لسانهم يدور على معاني تعود إلى:

---

(١) سفر التكوين (٣٣/ ١٩).
(٢) المصدر السابق (٣٤/ ١ ـ ٢٤).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٣٧٢).
(٤) المصدر السابق (٧/ ٣٩٨).

أ ـ المخلص.

ب ـ الذي أسلم في أمر الله لم يَلْتَوِ في شيء.

ج ـ المستقيم، ومنه قول الشاعر:

تعلَّمْ أنْ سَيَهْدِيَكُم إلينا طريقٌ لا يَجُورُ بِكُم حَنِفُ

وإنما قيل لمن به مَيْلٌ بساقيه: أحنف تَيَمُّناً باستقامتها[1].

د ـ الذي اعتزل الأوثان وتعبَّد لله.

ومنه قول الشاعر:

وأَدْرَكْنَ أعجازاً من الليل بعد ما أقام الصلاة العابدُ المتحنِّفُ[2]

وهذه الأوصاف قد اجتمعت بكليتها في نبيّ الله ورسوله، وصفيه وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

• فهو: المخلص الصادق في إيمانه ويقينه، قال تعالى في وصفه: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: ٨٤]؛ أي: مخلص موقن خالصٌ من الشرك[3].

• وهو الذي أسلم وجهه وأمره لله بلا تردد ولا توان، وقد مدحه ربه تعالى بذلك فقال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: ١٣١]، قال المفسرون: إن ارتباط «إذْ» بما مضى في الآية قبلها: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وتأويل الكلام: ولقد اصطفيناه في الدنيا حين قال له ربه: أسلم، قال: أسلمت لرب العالمين[4].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ٦١٥ ـ ٦١٦).

(٢) انظر: الصحاح للجوهري (٤/ ١٣٤٧)، ولسان العرب لابن منظور (٩/ ٥٧ ـ ٥٨).

(٣) تفسير الطبري (١٠/).

(٤) المصدر السابق (١/ ٦١٠).

ولقد سلّم إبراهيم أمره ودينه وقلبه ووجه لربه تعالى، متبعاً فطرته، مستجيباً لدعوة ربه تعالى بلا تردد ولا التواء ولا تأخر.

فالحنيفية ملة هذا النبي الكريم عليه السلام: هي الطهارة من كل رجس شرك قليلاً أو كثيراً، وإسلام الدين والقلب والوجه لله تعالى، ولمّا لم يلبث إبراهيم طرفة عين حين قال له ربه: «أسلم»، حتى أعلن «أسلمت لرب العالمين»، فكان له تمام الدين وكماله، وصار هو رأسه وإمامه(١).

وما أجمل إعلانه على رؤوس الملأ المشركين من قومه: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٨، ٧٩].

عندما ناظر قومه وبيّن لهم أن ما يعظّمون ويُألِّهون من الكواكب والأفلاك: ما هي إلا مخلوقات مُدَبَّرة، مُسَيَّرة لا تخرج عن فلكها ولا مدارها ولا نظامها الذي وضعه لها ربُّها خالقها الله ربُّ العالمين.

والسياق القرآني الكريم يدل بوضوح على أن إبراهيم عليه السلام كان في هذا المقام يناظر قومه ويظهر لهم الحجج البينات ويتدرج معهم؛ ليصل بهم إلى الحجة الباهرة الظاهرة أنه لا إلٰه إلا الله رب العالمين.

وأوضح دليل على هذا أن إبراهيم عليه السلام قبل مخاطبته قومه في شأن الكواكب والنجوم عاتب أباه آزر ووبّخه على عبادة الأصنام واتخاذها آلهة مفتراة من دون الله رب العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: ٧٤]، ثم بعدها مباشرة أخذ يناظر قومه في شأن الأفلاك والكواكب فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

---

(١) تفسير الشهرستاني المسمى «مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار» (٢/ ٦٢٦).

وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٥ ـ ٧٩].

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كان في هذا المقام مناظراً لقومه مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبيَّن في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية... وبيَّن في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل وهي الكواكب السيارة السبعة المُحيرة...»[١].

فما نسبه عبد المسيح إلى كتب الله المنزلة: أن الحنيفية هي عبادة الأصنام فباطل وافتراء مكشوف.

فهذا القرآن الكريم يذكر الحنيف بمعنى الإسلام والإيمان، والخلوص من الشرك مضافاً إلى خليل الله إبراهيم عليه السلام.

أما الكتب المقدسة عند عبد المسيح فسفر التكوين هو الذي فيه ذكر لخبر إبراهيم وشأنه فإننا نجد ما يلي:

أ ـ لا ذكر مطلقاً لهذه المفردة «حنيف» و«حنيفية» بأي معنى، لا في سفر التكوين ولا في بقية الأسفار أيضاً، وهو أحد الوجوه الكاشفة لافتراء هذا المدعو عبد المسيح الكندي حتى على كتبهم المقدسة.

ب ـ يكاد يجمع الدارسون للكتاب المقدس، أن الكتاب المقدس يقدم لنا شخصيتين لإبراهيم عليه السلام أو «إبراهام»:

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٦٧) باختصار.

ـ شخصية آرامية اسمه «أبْرام» يبدأ الحديث عنه في سفر التكوين: «بأن تارح بن ناحور بن سَروج بن رَعُو بن فالج بن عابر بن شالح بن أرْفَكشاد بن سام بن نوح ﷺ»، ولد ثلاثة أولاد هم: أبْرام وناحور وهاران، هذه سلالة تارح.

وأن أبْرام اتخذ له امرأة اسمها «ساراي» وأخوه ناحور اتخذ له امرأة اسمها «مِلْكَة» وأن «ساراي» كانت عاقراً.

وأن تارح رحل بابنه أبرام وزوجته ساراي وابن ابنه لوط بن هاران، وخرج بهم من أُور الكلدانيين إلى أرض كنعان فجاءوا إلى حاران، فأقاموا بها. ومات تارح بها(١).

ـ شخصية «إبراهام» العبراني، وهنا يبدأ الحديث في الإصحاح الثاني عشر مباشرة عن خطاب الرّبّ لأبرام «انطلق من أرضك وعشيرتك وبيت أبيك إلى الأرض التي أريك، فأنا أجعلك أمة كبيرة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة»(٢).

في خبر طويل جدّاً عن وراثة الأرض، وطرد إسماعيل وأمه وولادة إسحاق وأنه الذبيح أمر الله له بتغيير اسمه من: «أبرام» إلى «إبراهيم» إلى وفاته ليبدأ الحديث عن إسحاق ثم عن يعقوب(٣) ﷺ.

وإني أجزم أن عبد المسيح الكندي رأى هاتين الشخصيتين عن إبراهيم التي تحدث عنها سفر التكوين.

ـ شخصية: «أَبْرَام» الآرامي ابن تارح الذي كان يعبد الأصنام مع أبيه وقومه مدة تسعين سنة.

ـ وشخصية «إبراهيم» العبراني جد اليهود الذي تجلى له الله وبنى لله

---

(١) سفر التكوين (١١/٢٦ ـ ٣٢).
(٢) المصدر السابق (١٢/١ ـ ٢).
(٣) المصدر السابق، الإصحاحات من (١٢ ـ ٢٥).

مذبحاً بشكيم وورَّث ابنه إسحاق ثم يعقوب الإيمان والوعد بوراثة الأرض.

ليتوصل بذلك إلى نتيجة: أن أنبياء بني إسرائيل: موسى والمسيح بعد من ذرية هذا إبراهيم المؤمن الذي تجلى له الرّبّ تعالى.

وأن آبرام الآرامي الذي كان يعبد الأصنام وكان يعبد العُزّى هو السلف المتقدم للنبي الخاتم محمد ﷺ(١).

ليأتي عبد المسيح بعد صفحات ليقول رداً على الهاشمي: «فقد علمنا الآن أن إبراهيم كان منذ ولد إلى أن أتت عليه تسعون سنة حنيفاً عابد صنم، ثم آمن بالله إلى أن قبض، فأنت تدعوني إلى دين إبراهيم وملته، فليت شعري إلى أي مذهبَيْه ودِينَيْه تدعوني؟ وفي أي حالتَيْه ترغبني؟ أحيث كان حنيفاً يعبد الصنم المعروف بالعُزَّى مع آبائه وأهل بيته وهو بحران؟ أم حيث خرج من الحنيفية ووحّد الله وعبده وآمن به....؟»(٢).

وقد بيَّنا أن إبراهيم عليه السلام ما كان مشركاً عابد صنم، فلا ذكر للأصنام ولا أن إبراهيم كان يعبدها مطلقاً لا في القرآن الكريم ولا حتى في سفر التكوين الذي يستند إليه.

ولكنه لما رأى حديث سفر التكوين عن «أبرام» ابن تارح وخروجه مع أبيه وأهله من أرض الكلدانيين ونزولهم حرَّان، أضاف من عنده كذباً

---

(١) انظر لذلك: كتاب: خفايا التوراة، لكمال الصّليبي (٩٣)، دار الساقي، مع تحفظي على النتائج التي توصل إليها كمال الصليبي في كتابه هذا، وكذلك كتابه الآخر: التوراة جاءت من جزيرة العرب، وإنما أردنا أن سفر التكوين يعطي تصوراً لأكثر من شخصية لأبرام أو إبراهام.

(٢) رسالة الكندي (١٤).

وزوراً: أن إبراهيم في هذه الحالة كان مشركاً يعبد الأصنام، ليربط بخبث بين «أبرام» هذا وبين نبي الله محمد ﷺ.

* * *

[٢] نجد عبد المسيح الكندي يعود ليتهم خاتم الأنبياء محمداً ﷺ بنفس التهمة التي وصم بها نبي الله إبراهيم ﷺ، وهي أنه كان يعبد الأصنام، وعاد عبد المسيح مرة أخرى ليستخدم اسم الصنم «العُزَّى».

أيضاً فقال عن رسول الله ﷺ: «كان هذا الرجل يتيماً في حجر عمه عبد مناف المعروف بأبي طالب... وكان يعبد أصنام اللّات والعُزى مع عمومته وأهل بيته بمكة...»[١].

ولكنه هنا في حق النبي ﷺ أضاف إلى ذلك استدلاله بآيات سورة الضحى فقال عبد المسيح عن النبي ﷺ: «وكان يعبد أصنام اللّات والعُزّى مع عمومته وأهل بيته بمكة على ما حكى هو في كتابه، وأقرّه على نفسه حيث قال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى: ٦ ـ ٨]»[٢].

فأقول بتوفيق الله تعالى جوابه والرد عليه من وجوه:

- **الوجه الأول:**

قد عُلِم بيقين بالنقل والتواتر المعنوي وبشهادة خصوم النبي ﷺ من المشركين أنه عليه الصلاة والسلام ما عظّم صنماً قط، ولا تمسَّح بصنم قط، ولا حلف بالأوثان قط، فضلاً عن عبادتها والتقرب لها، هذا قد علم كل أحد نظر ببصيرة وإنصاف في سيرة النبي ﷺ، طوال الأربعين سنة قبل أن يوحى إليه، وبعد أن أوحي إليه عاد ذاماً لها، مبطلاً لها، حرباً عليها وقامت سوق العداوة والحرب مع قومه لأجل ذلك.

(١) رسالة الكندي (١٧). (٢) المصدر السابق (١٧).

ولا يستطيع أحد أن يذكر حادثة واحدة ـ واحدة فقط ـ تدل على أنه عليه الصلاة والسلام عَظَّم صنماً أو تمسَّح به أو حلف به ونحو ذلك، وهذا العلم اليقيني كافٍ في إبطال تهمة هذا النصراني المتقوّل على الله وأنبيائه ﷺ.

بل الحوادث المنقولة بالنقل الصحيح تدل على أنه عليه الصلاة والسلام كان يجانب أفعال الجاهلية التي ابتدعوها وحرّفوا بها ملة إبراهيم عليه السلام، وسأذكر على ذلك برهانين:

الأول: شاع عند العرب وَأْدَ البنات، وانتشر فيهم حتى قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

وامتنع النبي ﷺ قبل النبوة من أفعالهم هذه وجانبها، فكانت ذريته كلها بنات فرزق ببناته الأربع: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، كلهن وُلِدْنَ له قبل النبوة في تلك الأيام الجاهلية ولكنه عليه الصلاة والسلام لم يَأْدُهُنَّ؛ بل أحسن إليهن، ورباهن وزوجهن كُلهنَّ، وهذا من حفظ الله له وتوفيقه.

والثاني: كان النبي ﷺ يحج قبل النبوة، وكان أهل الجاهلية الحُمُس من قريش ومن والاها يمتنعون من الوقوف بعرفة موقف نبي الله إبراهيم عليه السلام، ويقفون بالمزدلفة ويقول: نحن أهل الحرم فلا نخرج منه حميّة جاهلية، وكانت قريش كلها تفعل ذلك وهو مما غيّروا به معالم دين إبراهيم عليه السلام.

ولكن الله تعالى وفق نبيه محمداً ﷺ فخالف قومه جميعاً في ذلك فكان يقف بعرفة موقف نبي الله ورسوله إبراهيم عليه السلام، وهذا من حفظ الله له وتوفيقه له.

وهذا الشاهد الذي شهد بذلك: هو جبير بن مطعم بن عدي، قال: أضللت بعيراً فذهبت أطلبه يوم عرفة، فرأيت النبي ﷺ واقفاً بعرفة، فقلت: هذا والله من الحُمُس، فما شأنه ها هنا؟!»(١).

وفي رواية: «رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية يقف مع الناس بعرفة على جمل ثم يصبح مع قومه بالمزدلفة ويدفع إذا دفعوا»(٢).

وفي رواية: «أضللت بعيراً لي في الجاهلية فوجدته بعرفة فرأيت رسول الله ﷺ واقفاً بعرفات مع الناس، فلما أسلمتُ علمت أن الله وفَّقَه لذلك»(٣).

فهذان برهانان يدلان على أن الله تعالى حفظ وصان نبيّه محمداً ﷺ من أعمال الجاهلية وبدعها ومحدثاتها وأخلاقها، في مثل هذه الأمور، فكيف لا يصونه مما هو أعظم من ذلك وهو عبادة الأصنام صراحة كما يزعمه هذا النصراني المتقوّل على أنبياء الله تعالى، سبحانك هذا بهتان عظيم.

وقد بيّن علماء الإسلام ذلك ووضحوه:

قال **الشيخ أبو البركات خير الدين الآلوسي** رحمه الله: «الأنبياء كلهم معصومون من الشرك والكفر قبل النبوة وبعدها خلافاً لما قال «عبد المسيح» سابقاً عن إبراهيم أنه كان يعبد الصنم قبل نبوته.

وأنه ثبت بالتواتر أن النبي ﷺ لم يعبد صنماً، وأنه كان أكثر ما يكره الأصنام، وأنه لو كان يعبد الأصنام لقال له كفار قريش حينما دعاهم لعبادة الله وحده: إنك كنت تعبد معنا هذه الآلهة إلى بلوغك أربعين سنة فما بالك رجعت عنها؟....»(٤).

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (١٦٦٤).
(٢) انظر فتح الباري (٧/ ٣١٩). (٣) المصدر السابق.
(٤) الجواب الفسيح (٢/ ٢٥١ ـ ٢٥٢) باختصار.

• **الوجه الثاني:**

إن عبد المسيح الكندي اتهم صراحةً قبلُ أبا الأنبياء وخليل الله وإمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام بأنه كان يعبد الأصنام مع قومه إلى مدة تسعين سنة من حياته ثم فجأة تجلى له الله وخاطبه وباركه.

فيقال له: إن كان إبراهيم لم يَعِبْه شيئاً ولم ينقص من كماله ونبوته شيئاً ما كان عليه قبل تجلي الإلٰه. فكذلك لا يعيب محمداً ﷺ شيئاً ما كان عليه قبل النبوة ولم ينقص من كماله ونبوته ذلك شيئاً.

وإن كان ذلك يعيب محمداً ﷺ ويقدح في نبوته فإنه بمقتضى قوله يقدح في نبوة إبراهيم عليه السلام، فأي القولين اخترت فأنت محجوج به.

أما نحن المسلمين فإنا ننزه أنبياء الله ورسله من ذلك مطلقاً قبل النبوة وبعدها، خصوصاً أبا الأنبياء إبراهيم الذي جعل الله النبوة والكتاب في ذريته، وكذلك خاتم الأنبياء محمداً ﷺ.

هذا وقد بَرّأ خاتمُ الأنبياء محمد ﷺ جدَّه نبي الله وخليله إبراهيم من ملاطخة شيء من أمور الوثنية والجاهلية والشرك مطلقاً طول حياته.

وذلك كما ثبت عندنا في صحيح الإمام البخاري رحمه الله من حديث **ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، لَمَّا رَأَى الصُّوَرَ فِي البَيْتِ لَمْ يَدْخُلْ حَتَّى أَمَرَ بِهَا فَمُحِيَتْ، وَرَأَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عليهما السلام بِأَيْدِيهِمَا الأَزْلَامُ، فَقَالَ: «قَاتَلَهُمُ اللهُ، وَاللهِ إِنِ اسْتَقْسَمَا بِالأَزْلَامِ قَطُّ»**[1].

وفي رواية أخرى عند البخاري **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** رضي الله عنهما: **أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «قَاتَلَهُمُ اللهُ، لَقَدْ عَلِمُوا: مَا اسْتَقْسَمَا بِهَا قَطُّ»**[2].

وكلمة: «قَطّ» إذا جاءت مع أدوات النفي فإنها تفيد غاية النفي وتمامه.

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٣٣٥٢).

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (١٦٠١).

فإبراهيم عليه السلام وكذا إسماعيل عليه السلام. لم يستقسما في حياتهما بالأزلام قط ولما يفعلا من أمور الشرك والجاهلية في حياتهما قط، وهذه هي الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٧٨﴾ [الحج: ٧٨].

- **الوجه الثالث:**

استدل عبد المسيح على ما ذكر من اتهامه لخاتم الأنبياء محمد ﷺ بأنه كان يعبد الأصنام مع قومه، استدل بسورة «الضحى» لأن فيها قوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى: ٧]، وهذا من طعنه في القرآن الكريم، وأن فيه ما يدل على عدم نبوة محمد ﷺ، ليتوصل أنه كتاب ملفق متناقض، وأقول في جواب هذه التهمة من عبد المسيح الكندي:

(أ) هذه السورة الكريمة سورة «الضحى» وكذلك شقيقتها التي بعدها في ترتيب المصحف الشريف وهي سورة «الانشراح» فيهما أعظم الإكرام والإنعام والاصطفاء من الله تعالى لخاتم أنبيائه محمد ﷺ.

فقد نزلت هذه السورة الكريمة لردع ودفع ما تَقوَّلته تلك الشَّقية حمّالة الحطب زوج أبي لهب وهي أم جميل بنت حرب التي كانت تؤذي رسول الله ﷺ، وتضع الشوك والأذى في طريقه تضره به، فأنزل الله فيها: ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ۝٥﴾ [المسد: ٣ ـ ٥].

فأخرج الإمام البخاري في الصحيح من حديث **جُنْدَب بْن عَبْدِ اللهِ** رضي الله عنه، **قَالَ: «احْتَبَسَ جِبْرِيلُ ﷺ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ»، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْ**

قُرَيْشٍ: أَبْطَأَ عَلَيْهِ شَيْطَانُهُ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى: ١ ـ ٣][١].

وأخرجه في موضع آخر عن جُنْدُب بْن سُفْيَانَ رضي الله عنه، قَالَ: «اشْتَكَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ ـ أَوْ ثَلاثاً ـ»، فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ، لَمْ أَرَهُ قَرِبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ ـ أَوْ ثَلاثَةٍ ـ فَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾[٢] هذا سبب نزولها.

(ب) وهذه السورة الكريمة: عدد آياتها إحدى عشرة آية.

فالآية الأولى والثانية قسم من الله تعالى بالضحى والليل إذا سكن، وجواب هذا القسم الإلٰهي العظيم هو ما رد الله به على تلك الشقية الخاسرة بأن الله تعالى ما ودَّع رسوله ولا قلاه، فهو قسم بأنه تعالى ما ترك رسوله ﷺ ولا أبغضه ولا جفاه، كما زعمت تلك الشقية الخاسرة.

ثم تفضل الله العظيم على رسوله الكريم بعطاياه الكريمة البالغة المؤكدة بأنه سيعطيه حتى تطيب نفسه ويرضى، وهذا العطاء يشمل الدنيا والآخرة.

أما الدنيا بتتابع الوحي عليه، وحفظ الله له، وإنزال الكتاب والميزان عليه، وهدايته لأحسن الكلام وأحكم التشريع وكثرة الأنصار والأصحاب، ورفع ذكره في العالمين، وبقاء رسالته وكتابه وتفاصيل شرعه في الأرض إلى يوم الدين، وغير ذلك من العطايا التي قرّت بها عين النبي الخاتم ﷺ، وطابت بها نفسه.

وأما الآخرة: ففي أعظم المقامات: فهو صاحب المقام المحمود

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (١١٢٥).

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (٤٩٥٠).

الذي يحمده عليه الأولون والآخرون، وهو صاحب الحوض المورود من شرب منه لا يظمأ بعده أبداً، وهو صاحب لواء الحمد آدم فمن دونه تحت لوائه، ثم هو أول شافع وأول مشفع، وهو أول من يفتح له باب الجنة، وهو أول داخل وأمته على أثره، ثم المقامات الرفيعة في الجنة التي أعظمها وأجلّها الوسيلة، وهي درجة عالية في الجنة لا تنبغي إلا لعبد واحد من عباد الله هو خاتم الأنبياء محمد ﷺ.

والآية السادسة والسابعة والثامنة من هذه السورة: وجه آخر من امتنان الله تعالى على رسوله ﷺ، فقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۞﴾ [الضحى: ٦]، أواه وحفظه ويسّر له من يقوم عليه ويحفظه.

(ج) وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۞﴾ [الضحى: ٧]، وهي الآية التي أراد عبد المسيح في كلامه السابق أن يستدل بها على أن رسول الله ﷺ كان يعبد الأصنام مع قومه ضالاً مثلهم فليس الأمر كما ذكر.

وإنما تفسيرها الذي يوضح معناها ما جاء في الآية الأخرى التي في سورة الشورى في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞﴾ [الشورى: ٥٢].

ولا شك أن النبي ﷺ قبل أن يوحى إليه لم يكن يعرف الإيمان وعلوم الغيب ومعاقد العقائد الغيبية، ولا أخبار الأنبياء ونشأة الكون وخلق الله للعالم في ستة أيام ولا تفاصيل الشرائع وأنواع العبادات وغير ذلك، حتى أوحى الله إليه هذا الروح من أمره ليهدي به وبمحمد ﷺ إلى صراط مستقيم.

وليس محمد ﷺ بِدْعاً من الأنبياء والرسل في ذلك، فكل الأنبياء قبل النبوة وقبل أن يوحى إليهم كذلك حتى هداهم الله وأنزل عليهم من أمره ما شاء تعالى.

هذا نبي الله وخليله إبراهيم عليه السلام يقول كما أخبر الله عنه: ﴿فَلَمَّا رَءَا الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنعام: ٧٧].

وهذا نبي الله موسى الكليم عليه السلام يقول كما أخبر الله عنه: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص: ٢٢].

بل هؤلاء الملائكة الكرام عمّار السموات العلى يشهدون أنهم لا علم لهم إلا ما علمهم ربهم فقال تعالى عنهم: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة: ٣١، ٣٢].

فالنبي ﷺ قبل النبوة وإنزال الوحي عليه كان غافلاً عن هذا العلم العظيم من علم الله تعالى، غافلاً عن القرآن العظيم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف: ٢، ٣].

وهذا لا شك فيه، فقبل نزول الوحي عليه كان غافلاً عن القرآن وما تضمنه من علم الله العظيم في الأمور الغيبية وأخبار الأنبياء السابقين وتفاصيل الشرائع الكريمة.

ولكن هذا لا يعني مطلقاً كما هو حال الأنبياء قبله لا يعني أنه بالضرورة كان على دين قومه يعبد معهم الأصنام والأوثان، بل كان بفطرته منابذاً لها كارهاً لها، لم يحلف بها قط، ولم يتمسّح بها قط، ولم يعظمها قط.

(د) وقد ذكر أبو الحسن الماوردي في الدلائل وجهاً بديعاً لهذا المعنى فقال: «لما دنا مبعث رسول الله ﷺ بالنبوة رسولاً، وإلى الخلق بشيراً ونذيراً، انتشر في الأمم أن الله تعالى سيبعث نبياً في هذا الزمان، وأن ظهوره قد اقترب وآن، فكانت كل أمة لها كتاب يُعرف ذلك من

كتابها، والتي لا كتاب لها ترى من الآيات المنذرة ما تستدل عليه بعقولها وتنتبه عليه بهواجس فطرها إلهاماً أعان به الفطن اللبيب، وأنذر به الحازم الأريب، هذا ورسول الله ﷺ غافلٌ عنها، وغير عالم أنه مراد بها، ومؤهل لها، لم يشعر بها حتى نودي، ولا حققها حتى نوجي، ليكون أبعد من التهمة، وأسلم من الظِّنَّة فيكون برهاناً أظهر، وحجاجه أقهر، وكان مع تمييزه عن قومه بشرف أخلاقه، وكرم طباعه لم يَعْبد معهم صنماً، ولا عظم وثناً، وكان مُتَدَيِّناً بفرائض العقول[١] في قول جميع الفقهاء»[٢].

وهذا أبلغ في دلائل نبوته، وأعلام رسالته عليه الصلاة والسلام.

فلو كان يقرأ الكتب قبله ويكتبها ويستنسخها لوجد المبطلون شيئاً يتعلقون به في رد دعوته، ومحاولة إبطال نبوته، بأن هذا مما نسخ وكتب وقرأ من كتب الأوائل، وقد ذكر الله تعالى ذلك في القرآن وأبطله.

فقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وأخبر تعالى عن تهمتهم الباطلة فقال: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: ٥].

(هـ) ثم أخبر تعالى عن عظيم منته عليهم بإنزال هذا الكتاب العظيم، وما فصّل الله فيه الحكم والأمثال وأخبار الغيب وتفاصيل الشريعة العظيمة، وقد كان محمد ﷺ عن ذلك غافلاً، مدة أربعين سنة، لم ينطق بشيء مطلقاً أليس في هذا برهان وحجة؟!

---

(١) أي بفطرته السليمة وما هو مستقر في بداءة العقول.

(٢) كتاب دلائل النبوة (٢٢١ ـ ٢٢٢).

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥١].

قال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «أي وما كنت يا محمد تقرأ قبله، ولا تختلف إلى أهل الكتاب، بل أنزلناه إليك في غاية الإعجاز والتضمين للغيوب وغير ذلك، فلو كنت ممن يقرأ كتاباً، ويخط حروفاً ﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾؛ أي: من أهل الكتاب، وكان لهم في ارتيابهم متعلق، وقالوا الذي نجده في كتبنا أنه أمي لا يكتب ولا يقرأ وليس به.

قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمداً ﷺ لا يخط ولا يقرأ فنزلت هذه الآية.

قال النحاس: دليلاً على نبوته لقريش؛ لأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب ولم يكن بمكة أهل الكتاب فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم وزالت الريبة والشك»[(١)].

* * *

[٣] أعاد عبد المسيح دعوى اليهود والنصارى المتكررة بأنهم أحفاد نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، والمختصون به دون العالمين، وأراد إبطال ما دل عليه القرآن من عظيم الصلة ووثيقها نسباً وديناً وإيماناً وتوحيداً بين نبي الله وخليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وبين خاتم الأنبياء محمد ﷺ.

قال عبد المسيح: «فتجدد ذلك التراث لإبراهيم ولم يزل يتجدد إلى أن وُلد يعقوب الذي هو إسرائيل وَرَّثه إسرائيل الاثني عشر سبطاً... ثم تجدد عندما بعث الله موسى»[(٢)].

وقال في رده على الهاشمي ودعوته له إلى ملة إبراهيم: «فاليهودي

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٢٣٣).

(٢) رسالة عبد المسيح الكندي (٣).

ابن إبراهيم أولى بهذه الدعوة منك لأنه هو صاحب تراث إسحاق الذي ورث هذا التوحيد عن إبراهيم أبيه، وهو أولى منك وأحق بهذا الأمر»[١].

واضح من كلام عبد المسيح أنه سلك مسلك رهبان وحاخامات يهود في تحويل العلاقة بيّن الله وبين خليله إبراهيم عليه السلام من علاقة دينية توحيدية إلى علاقة أنثرولوجية عِرقية وراثية، فإبراهيم عندهم هو كما يلي:

١ ـ رجل آرامي اسمه «أَبْرام» من ولد تارح، هاجر مع أبيه وزوجه ساره وابن أخيه لوط من أرضهم «أُور الكلدانيين» واستقروا في «حاران».

٢ ـ فجأة خاطبه الربّ بأن سيجعله أمة كبيرة وأبارك مباركيك، وألعن لاعنيك.

٣ ـ واجتاز «أبرام» إلى موضع «شَكيم» وهي من أرض الكنعانيين، وهنا أيضاً يتجلى له الربّ ليقول له: لنسلك أعطي هذه الأرض، وبنى لله مذبحاً بها.

٤ ـ أنه أثناء دخول «أبرام» مصر أخذ فرعون زوجته لأنها جميلة جدّاً وأعطى بسببها «أبرام» غنماً وبقراً وحميراً وخداماً وخادمات وجمالاً.

٥ ـ وصعد «أبرام» من مصر وهو غني جدّاً بالماشية والذهب والفضة، وافترق عنه لوط حتى لا تكون خصومة بينه وبين «أبرام».

٦ ـ ظهر له الرب وأعطاه وعداً آخر أن كل هذه الأرض له ولنسله للأبد.

٧ ـ أبرام كان له غلمان مدربون وكان هو يحارب ويقود الحروب بنفسه وينتصر.

---

(١) رسالة عبد المسيح الكندي (٥).

٨ ـ ويطلب منه الربّ أن يغير اسمه من «أبرام» إلى إبراهيم.

٩ ـ يولد له إسماعيل من هاجر الخادمة المصرية ويعود الربّ ليُأكد لإبراهيم عهده بإعطائه أرض كنعان ملكاً أبداً ويكون نسله وسيكثره الربّ جدّاً جدّاً.

١٠ ـ ثم تأمر سارة زوجته بطرد إسماعيل وأمه ووصف سفر التكوين إسماعيل بأنه سيكون حماراً[١] وحشياً بشرياً.

١١ ـ ثم مولد إسحاق من سارة الحرة، وطرد إسماعيل وأمه.

١٢ ـ ثم قصة إسحاق وأمر الربّ بذبحه وفدائه بعد ذلك.

١٣ ـ ثم زواج إسحاق ومباركته وانتقال الوراثة له.

١٤ ـ ثم الحديث المفصل عن يعقوب وكيف اختلس من أبيه إسحاق بركته في قصة يعترف شراح الكتاب المقدس بأنها يتخللها الاستنكار وفيها كذب وأعمال غير أخلاقية تفيد بطريقة غامضة كيف أخذ يعقوب بركة أبيه، وفيه قول إسحاق: «قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك» [تكوين ٢٧/ ٣٥].

١٥ ـ ثم ما هو أشد وهو مصارعة يعقوب لله تعالى، وانتزاع البركة منه، وهي رواية يهودية غامضة مقحمة لا شك في ذلك، وفيها أن يعقوب يصارع الله تعالى، ويغتصب منه بركة تكون واجبة على الله نحو يعقوب الذي انقلب اسمه بعد هذه المصارعة إلى إسرائيل، ونحو الذين سيحملون بعده اسم إسرائيل[٢].

فهذا التلخيص لقصة إبراهيم وذريته من سفر التكوين[٣] استطاع

---

(١) كذا في طبعة الرهبانية اليسوعية، سفر التكوين (١٦/ ١٢)، أما في طبعة العيد المئوي فالكلمة «إنساناً».

(٢) سفر التكوين (٣٢/ ٢٣ ـ ٣٣).

(٣) من الإصحاح (١٢) إلى الإصحاح (٣٧).

كاتبوا هذا السفر أن يحولوا إبراهيم إلى زعيم ورَّث الأرض والبركة والعهد إلى إسحاق ثم بخديعة ومكر ورثها وأخذها يعقوب الذي هو إسرائيل وبنيه بعد ذلك، وهو تحويل لقيمة إبراهيم من نبي مرسل بالتوحيد والإيمان وعبادة الله وحده إلى قيمة إنثروبولوجية. وراثية للعهد والأرض حتى تصل يعقوب وبنيه من بعده.

وهذا هو منطلق عبد المسيح في كلامه السابق بقوله للهاشمي: «إن اليهودي ابن إبراهيم أولى بهذه الدعوة منك».

وهذا ممّا أخفوه من الكتاب وكتموه وموَّهوا به مما بُعث خاتم الأنبياء محمد ﷺ ليظهره ويبينه كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝١٦﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وهذا الفعل من اليهود والنصارى كان موضع عناية في القرآن الكريم، ففصّلَ الله فيه الأمر وكشف الشبهة وأظهر الحق في قيمة إبراهيم عليه السلام وما ورّث من الملة والدين القيم.

فأولاً: أخبر الله تعالى أن دين إبراهيم عليه السلام هو «الإسلام» وهو توحيد الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له.

فبعد (١٢٣) آية من سورة البقرة معظمها كان حديثاً عن موسى عليه السلام وبني إسرائيل وأفعالهم وأحوالهم مع أنبيائهم وكفرهم وجرائمهم.

بدأ الحديث في سورة البقرة ابتداء من آية رقم (١٢٤) عن إبراهيم عليه السلام ودعاءه لمكّة المعظمة وأهلها وبناء البيت العتيق ورفع قواعده ومعه ابنه إسماعيل عليه السلام.

وفي هذا السياق إعلان إلهي كريم بإسلام إبراهيم وإسماعيل وأن

الإسلام بمعناه العام الذي هو: «توحيد الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له» هو ملة إبراهيم عليه السلام.

• ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ١٢٨].

• ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة: ١٣٠].

• ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: ١٣١].

قال أهل التفسير واللغة: المسلم هنا هو المستسلم لأمر الله، المخلص في عبادة الله.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: مسلِمَيْن موحِّدَين مطيعَيْن.

وقال الضحاك ومقاتل: مسلمَيْن ومخلصَيْن.

ثم أخبر تعالى أن الإسلام والإيمان وتوحيد الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له الذي هو «ملة إبراهيم» عليه السلام هو إرْث إبراهيم وتركته لأبنائه من بعده وأحفاده وذريته، وهو وصيته التي أوصى بها بنيه. لا أرض ولا مال ولا ممالك ولا غير ذلك ممّا افتراه اليهود وصدقهم النصارى.

فقال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٢].

قال عبد الكريم الشهرستاني رحمه الله: «الإسلام إسلامان، إسلام بمعنى المبدأ، ويشترك فيه المؤمن والمنافق، وإسلام بمعنى الكمال وهو أكمل درجات السالكين كما قال تعالى لإبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾، وقال للمصطفى ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال لخواصّ أمته: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وهذا التسليم لأمره والانقياد لحكمه في طوريْ تكليفه

وتقديره، وهو العمل بما يعلم، والتسليم لما لا يعلم، وهو درجة فوق العلم والعمل... فالدعاء الذي جرى على لسان الخليل وولده إسماعيل هو بمعنى كمال درجات المؤمنين والمرسلين: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، لا يشوب أعمالنا رياء وعُجْب، ولا يخالط حركاتنا في أفكارنا وأقوالنا وأفعالنا ما ليس لك.

وسرٌّ آخر: وكما طلب الإسلام الذي هو الكمال لنفسيهما طلباً ذلك الإسلام بعينه لبعض ذريتهما من ولد إسماعيل؛ لأنّ ولد إسحاق قد فرغ عن ذلك بدعاء آخر أو تولّى ذلك بعده بسؤال آخر إذ قال في قصة سارة: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٧٣]، فلما قال ها هنا: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، فيجب أن يتعين ذلك في ولد إسماعيل، فلا يخلو الزمان الأول والآخر عن ذرّية مسلمة إسلام الكمال كإسلام إبراهيم وإسماعيل، فكما أجاب الله تعالى دعاءهما في نفسيهما حتى رزقهما ذلك الإسلام الذي هو كمال حال الرجال، كذلك أجاب تعالى دعاءهما في ذريتهما حتى رزقهم ذلك الإسلام... فيريهم مناسكهم ويشرع شرائعهم ويتوب عليهم بالمغفرة والرحمة ثم ظهر سر الحال وأبرز مكنون الأسرار بالمصطفى محمد ﷺ وأمته المسلمة»[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣]: «وإذا كان الله قد أمر الأولين والآخرين بأن يقيموا الدين، ولا يتفرقوا فيه،

(١) تفسير الشهرستاني المسمّى: مفاتيح الأسرار ومصابيح الأنوار (٣/ ٦١٩ ـ ٦٢٠) باختصار وتصرف.

وقد أخبر أنه شرع لنا ما وصى به نوحاً، والذي أوحاه إلى محمد ﷺ. فيحتمل شيئين:

أحدهما: أن يكون ما أوحاه إلى محمد ﷺ يدخل فيه شريعته التي تختص بنا؛ فإن جميع ما بعث به محمد ﷺ قد أوحاه إليه من الأصول والفروع بخلاف نوح وغيره من الرسل؛ فإنما شرع لنا من الدين ما وُصُّوا به؛ من إقامة الدين، وترك التفرق فيه. والدين الذي اتفقوا عليه: هو الأصول. فتضمن الكلام أشياء:

ـ **أحدها**: أنه شرع لنا الدين المشترك وهو الإسلام والإيمان العام والدين المختص بنا؛ وهو الإسلام والإيمان الخاص.

ـ **الثاني**: أنه أمرنا بإقامة هذا الدين كله المشترك والمختص ونهانا عن التفرق فيه.

ـ **الثالث**: أنه أمر المرسلين بإقامة الدين المشترك، ونهاهم عن التفرق فيه.

ـ **الرابع**: أنه لما فصل بقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ بين قوله: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾ وبين قوله: ﴿وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ﴾ [الشورى: ١٣] أفاد ذلك»(١).

ثانياً: ثم بعد ما تقدم من إسلام إبراهيم عليه السلام وإسماعيل وأن الإسلام بمعناه العام هو ملة إبراهيم عليه السلام أخبرنا ربنا تبارك وتعالى عن وصية خليله إبراهيم وكذا نبيّه يعقوب لذريتهما وأبناءهما من بعدهما وهي وصية محددة: الإسلام لله تعالى بالتوحيد والخلوص من جميع صور الشرك، وعبادة الله الواحد الأحد، فقال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝١٣٢﴾ [البقرة: ١٣٢].

---

(١) مجموع الفتاوى (١/١٣ ـ ١٤).

ثم أفرد يعقوب بالذكر لأن بني إسرائيل من ذريته، وذكر الله وصيته مفصلة:

فقال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣].

هذه هي ملة إبراهيم: الإسلام الخالص الصريح، ولم يكتف إبراهيم بنفسه إنما تركها في عَقِبه وجعلها وصيته في ذريته، ووصّى بها إبراهيم بنيه كما وصّى بها يعقوب بنيه، ويعقوب هو إسرائيل الذي ينتسبون إليه، ثم لا يلبّون وصيته، ووصية جدّه وجدهم إبراهيم عليه السلام.

هذا حديث القرآن الكريم عن أنبياء الله الكرام، حديث ملؤه التكريم وبيان رسالة الأنبياء وهي الدعوة والحرص على الدين القويم، وأنهم عاشوا لأجل ذلك وماتوا عليه، وجعلوا الدعوة إليه هي ميراثهم الذي ورثّوه لأبنائهم وذرياتهم وأممهم من بعدهم.

هذا هو إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب كما وصفهم القرآن الكريم وأثنى عليهم، وبيّن أقدارهم ومنازلهم وجهادهم في الدعوة إلى دين الله وتوحيده وإخلاص العبادة له، والقيام بذلك إخلاصاً وصدقاً.

ومن ثم أوصانا ربنا تعالى باتباعهم والإيمان بما أُنزل إليهم لا نفرق بين أحد منهم، فقال تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦].

* * *

[٤] وبعد ما ذكر عبد المسيح ما تقدم أراد أن يستدل على قطع الصلة بين إبراهيم عليه السلام وبين النبي الخاتم محمد ﷺ، وأن دين إبراهيم وملته لا علاقة لها بالإسلام الذي بعث به محمد ﷺ.

فقال في رده على الهاشمي: «وصاحبك يقر في كتابه: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام: ١٤]، أفلا ترى أنه أول من أظهر الإسلام، وأن قبله إبراهيم وغيره لم يكونوا مسلمين؛ لأن صاحبك قد أقر بأنه أول من أسلم»[١].

وهذا من فجاجة فهمه وسوء استدلاله؛ فإنه يعمد إلى ما هو ضده وعليه وكاشف فاضح له فيحسبه لسوء فهمه وتقديره له ويؤيد موقفه، فهو يصدق عليه قول الشاعر:

أَبِنْ لي ما ترى والمرءُ تأبى خلائِقُهُ ويغلِبُهُ هواهُ
فَيَعْمى ما يرى فيه عليه ويحسب ما يَرَاه لا يَرَاهُ

وبيان خطأه وسوء فهمه من وجوه:

الوجه الأول:

فإن هذه الآية الكريمة من أعظم الدلائل على:

- أن محمداً ﷺ خاتم الأنبياء وهو المُقفّي الذي جاء بعد الأنبياء جميعاً مجدداً لملتهم وداعياً إلى سبيلهم.

- أن محمداً ﷺ جاء بالحق من عند الله تعالى، وصدّق المرسلين: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الصافات: ٣٧].

- أن الإسلام بمعناه العام هو الدين المشترك للأنبياء جميعاً عليهم الصلاة والسلام، فهو ملة آدم ونوح وإبراهيم ومن بعدهم من أنبياء الله تعالى.

- أن محمداً ﷺ لأنه جاء على حين فترة من الرسل، وانطماس من السبل ضاعت فيها معالم دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب

---

(١) رسالة عبد المسيح الكندي (٧).

والأسباط وموسى وعيسى والنبيين، فأظهرها الله تعالى من جديد برسالة هذا النبي الخاتم المختار ﷺ.

ثم انظر إلى اعتراف عبد المسيح بلسانه: «بأن محمداً هو أول من أظهر الإسلام».

نعم صدق وهو كذوب، فبين آخر أنبياء بني إسرائيل وهو المسيح عيسى عليه الصلاة والسلام وبين رسالة خاتم الأنبياء محمد ﷺ فترة من الزمان خلت من الأنبياء، وزالت فيها معالم دين الأنبياء، وأظلمت الأرض بالشرك والخرافة والظلم والبغي والعدوان.

وهي مدة تُقَدّر بستمائة سنة.

شهد بذلك: أحد طالبي الحق والهدى ممن تنقل بين أرباب الديانات حتى استقر به القرار بين يَدَيْ خاتم الأنبياء محمد ﷺ وهو سلمان الفارسي رضي الله عنه.

قال رضي الله عنه: «وفترة ما بين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة»[(١)].

فلما بُعث محمد ﷺ أظهر الدين الحق الذي كتمه وحرّفه وضيعه أحبار يهود ورهبان النصارى، فصح عقلاً وشرعاً ولغة أن يكون هو أول المسلمين المظهرين للدين الحق الذي غيّبه وضيعه بنو إسرائيل وأحبارهم ورهبانهم.

وهذه نظرة موجزة لكنها مركّزة تبين حال أهل الأرض كلهم من ضلال الديانة وعموم الشرك والخرافة عليهم مع سوء الأخلاق وكثرة الظلم، وانطماس كل معالم الخير.

حتى يعلم الجميع مقدار الخير، والرشد، والنور، والعدل، الذي أحدثته الرسالة المحمدية في العالم يجب أن نتعرف على أحوال هذا العالم قبل أن يطرقه أعظم حدث في تاريخ البشرية قاطبة.

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٣٩٤٨).

• **أولاً: حالة العرب:**

كان العرب يعيشون أسوأ الأوضاع، وأشدها شراً وجهلاً وظلماً:

ـ من جهة المعتقد الديني كانت الخرافة هي المسيطرة على عقولهم وتصوراتهم، يعبدون أصناماً، ويعظمون أوثاناً، يصنعونها بأيديهم ثم يعبدونها. ونظرة في كتاب «الأصنام» للمؤرخ ـ هشام بن السائب الكلبي ـ تكفي لمعرفة مدى الصنمية والوثنية في حياة هؤلاء العرب[١].

في «صحيح البخاري» عن أبي رجاء العطاردي قال: «كنا معشر العرب نعبد الحجر فإذا وجدنا حجراً هو أخير منه ألقيناه وعبدنا الآخر، وكنا إذا نزلنا وادياً أخذنا أربعة أحجار فنظرنا أمثلها فعبدناه وجعلنا الثلاثة الأخرى أثافي للقدر، فإذا لم نجد حجراً جعلنا كومة تراب وأتينا بالشاة فحلبناه عليه حتى يستجمع ثم طفنا به»[٢].

وعن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال: «إذا سرّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأنعام ١٤٠][٣].

والمقصود الآيات من سورة الأنعام من آية ١٣٥ ـ ١٤٠ فهي كلها في بيان أحوال العرب قبل الإسلام من الجهل والضلال والخرافة والقسوة والتشريعات الضالة وقتل الأولاد ووأد البنات ونحو ذلك من جهالاتهم وضلالاتهم.

وعن **ابن عمر** رضي الله عنهما قال: بينما عمر جالس إذ مر به رجل جميل[٤]،

---

(١) انظر: كتاب الأصنام لهشام بن السائب الكلبي، تحقيق: الأستاذ أحمد زكي.
(٢) صحيح البخاري رقم (٤٣٧٦).
(٣) صحيح البخاري رقم (٣٥٢٤)، وبوب عليه البخاري: باب جهل العرب وقصة زمزم.
(٤) هو: سواد بن قارب السدوسي. انظر: فتح الباري (١٥/ ٢٢).

فقال عمر: لقد أخطأ ظني أو إن هذا على دينه في الجاهلية أو لقد كان كاهنهم. عليَّ بالرجل، فدُعي له فقال له ذلك، فقال: ما رأيت كاليوم استقبل به رجل مسلم، قال عمر: فإني عزمت عليك إلا ما أخبرتني، قال: كنت كاهنهم. قال: فما أعجب ما جاءتك به جنِّيتك؟ قال: بينما أنا يوماً في السوق، جاءتني أعرف فيها الفزع، فقالت: ألم تر إلى الجن وإبلاسها، ويأسها من بعد إنكاسها، ولحوقها بالقلاص وأحلاسها[1]، قال عمر: صدقت. بينما أنا عند آلهتهم إذ جاء رجل بعجل فذبحه فصرخ به صارخ لم أسمع صارخاً أشد صوتاً منه يقول: يا جليح أمر نجيح رجل فصيح يقول: لا إله إلا أنت. فوثب القوم، وقلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا، ثم نادى: يا جليح أمر نجيح رجل فصيح يقول: لا إله إلا أنت، فقمت. فما نشبنا أن قيل: هذا نبي[2].

قال **المؤرخ الاجتماعي صاعد بن محمد الأندلسي**: «وجميع عبدة الأوثان من العرب، إنما كانت عبادتهم لها ضرباً من التدين بدين الصابئة في تعظيم الكواكب والأصنام الممثلة في الهياكل،... وكان جمهورهم ينكر البعث والنشور، ولا يصدق بالمعاد ولا يقول بالجزاء، وكان فيهم من يقر بالمعاد، ويعتقد أن من نُحرت ناقته على قبره حُشر راكباً، ومن لم يفعل ذلك حُشر ماشياً، وفي ذلك يقول **جريبة بن الأشيم الفقعسي** يوصي ابنه:

يا سعد إما أهلكنّ فإنني أوصيك إن أخا الوصاة الأقرب
لا تتركن أباك يعثر راجلاً في الحشر يصرع لليدين وينكب

---

(١) زاد في رواية البراء عند البيهقي:
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ما مؤمنوها مثل أرجاسها
فاسْمُ إلى الصفوة من هاشم واسْمُ بعينك إلى رأسها
(٢) صحيح البخاري رقم (٣٨٦٦).

واحمل أباك على بعير صالح وثق الخطيئة إن ذلك أصوب

فهذه كانت ديانات العرب»[١].

كان النظام الطبقي هو السائد فيهم، قيمة الإنسان بحسب قوة ومكانة قبيلته، وكانوا يقيمون الحروب الطاحنة لأتفه الأسباب، وكان الظلم والاستبداد هو خلقهم وديدنهم.

شعارهم: إنما العاجز من لا يستبد.

قال **زهير**: ومن لا يظلم الناس يظلم.

ينطبق عليهم قول القائل:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعله لا يظلم

حياتهم الحروب والقتل والزنا والخمر، والظلم والبغي وقتل الأبناء ووأد البنات.

قال **طرفة**:

فَلَوْلا ثَلاثٌ هُنَّ من عِيشَةِ الفَتى وَجَدِّكَ لم أَحْفِلْ متى قامَ عُوَّدي
فَمِنْهُنَّ سَبقي العاذلاتِ بشَرْبَةٍ كُمَيتٍ متى ما تُعْلَ بالماءِ تُزْبِدِ
وَتقصِيرُ يوم الدَّجن والدجن مُعْجِبٌ بِبَهكَنَةٍ تَحْتَ الخباء المُعَمَّدِ[٢]

أما المرأة فهي من جملة المتاع عندهم، تورث إذا مات زوجها كما تورث الدواب والبهائم، وكانوا يستقذرون المرأة ويحتقرونها، وقد سجل القرآن عليهم ذلك في قصة الموءودة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِي التُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

---

(١) كتاب طبقات الأمم (١١٧ ـ ١١٨).

(٢) انظر الأبيات من معلقة طرفة في: جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي (١/ ٤٣٩).

وقال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأنعام: ١٣٩].

ومن جملة أحكامهم القاسية الجاهلية فيما يتعلق بالمرأة أنها تحبس إذا مات زوجها سنة كاملة في شر مكان وأخبثه ولا تمس ماءً فإذا انقضى العام تمسحت بطائر أو حمار أو كلب تفتض به وتعطى بعرة ترمي بها وتخرج.

في «صحيح **البخاري**» عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها قالت: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن ابنتي توفي زوجها وقد اشتكت عينها أفنكحلها؟ قال: لا، مرتين أو ثلاثاً كل ذلك يقول لا. ثم قال رسول الله ﷺ: «**إنما هي أربعة أشهر وعشراً، وقد كانت إحداكن في الجاهلية ترمي بالبعرة على رأس الحول**».

قال **حميد**: فقلت لزينب: وما ترمي بالبعرة على رأس الحول؟

فقالت **زينب**: كانت المرأة إذا توفي زوجها دخلت حفشاً ولبست شرّ ثيابها، ولم تمس طيباً حتى تمر عليها سنة، ثم تؤتى بدابة حمار أو شاةٍ أو طائر فتفتض به، فقلما تفتض بشيء إلا مات ثم تخرج فتعطى بعرة فترمي بها، ثم تراجع بعد ما شاءت من طيب أو غيره.

سئل **مالك** رحمه الله: ما تفتض به؟ قال: تمسح به جلدها[(١)].

قال **ابن قتيبة**: «سألت بعض الحجازيين عن الافتضاض؟ فذكروا أن المعتدة كانت لا تمس ماءً ولا تقلم ظفراً، ولا تزيل شعراً، ثم تخرج بعد الحول بأقبح منظر ثم تفتض؛ أي: تكسر ما هي فيه من العدة بطائر تمسح به قبلها، وتنبذه فلا يكاد يعيش ما تفتض به»[(٢)].

---

(١) صحيح البخاري رقم (٥٣٣٦ ـ ٥٣٣٧). (٢) نقله في الفتح (٢٠/ ١٧٥).

وكانت الفوضى الجنسية عامة مطبقة فيهم، وهي نتيجة طبيعية للجاهلية المغرقة التي كانوا عليها[١].

تصور **أم المؤمنين عائشة** رضي الله عنها هذه الحال فتقول: «كان النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء: منها نكاح الناس اليوم: يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته، فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً، حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع. ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة، كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت، ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل، ونكاح رابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة، لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاط به، ودعي ابنه، لا يمتنع من ذلك «فلما بعث محمد ﷺ بالحق، هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم»[٢].

---

(١) انظر: كتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي (٦١ - ٧١).

(٢) صحيح البخاري رقم (٥١٢٧).

• ثانياً: حال أهل الكتاب اليهود والنصارى:

كان المفترض في أهل الكتاب أن يكونوا أصلح من غيرهم؛ بل كان الواجب أن يكونوا مصلحين لغيرهم. ولكن أهل الكتاب غيروا وبدلوا وضلوا ضلالاً بعيداً، حرفوا الكتب المنزلة إليهم، وقتلوا الأنبياء والرسل، وأحلوا ما حرم الله، وحرموا ما أحل الله، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله.

فسدت الكنيسة فساداً عظيماً، وطغت طغياناً كبيراً.

وإن أوثق مصدر سجل على أهل الكتاب انحرافهم وضلالهم وبغيهم وفسادهم هو القرآن الكريم الذي هو عهد الله الأخير للبشرية.

قال الله تعالى عن حال أهل الكتاب واستحكام الظلمة فيهم:
﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ
وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى
وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ
سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ
يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ
عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾
وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟
بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ
بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ
لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ
جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ
رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ
وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٢ - ١٦].

هذا النص الكريم الموثق في تضييعهم ما عُهد إليهم من الكتاب المنزل إليهم، أما بقية أحوالهم من الفساد والإثم والعدوان فقال تعالى عن ذلك: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة: ٥٩ ـ ٦٣].

وفي **الأسفار**: «هذا الشعب يكرمني بشفتيه، وأما قلبه، فبعيد عني، إنهم بالباطل يعبدونني، فليس ما يُعلِّمون من المذاهب سوى أحكام بشرية»[(١)].

والنبوة أصبحت عندهم غباء وجنون: «ليعلم إسرائيل أن النبي غبي ورجل الروح مجنون»[(٢)].

«وكان في الغد أن اعترى شاول الروح الشرير من لدن الله فأخذ يتنبأ في داخل بيته»[(٣)].

ثم ذكر تعالى استحكام ذلك الفساد فيهم:

فقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المائدة ٧٠، ٧١].

---

(١) سفر أشعيا (٣٩/ ١٣).
(٢) سفر هوشع (٩/ ٧).
(٣) سفر صموئيل الأول (٨/ ١٠).

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء: ١٥٥ ـ ١٦١].

ثم نتج عن ذلك كله لعن الله تعالى لهم وغضبه عليهم والحكم عليهم بالذلة والمسكنة، فكانوا بحق غير جديرين بأن تكون فيهم كلمة الله وعهده وميثاقه، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة: ٧٧ ـ ٨١].

أما فسادهم الاقتصادي والسياسي فسجله القرآن أيضاً، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ [التوبة: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة: ٦٢، ٦٣].

وقال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة: ٦٤].

يقول «**جوزيف لوكلير**»: «ما أكثر ما تمت الإحالة إلى نصوص الكتاب المقدس واستقاء الشواهد والنماذج منها إثباتاً لحق الأمير في التدخل في المجال الروحي وتبريراً للضغوط والتدابير الصارمة بحق الهراطقة»(١).

ويقول: «إن يهوه ملك إسرائيل الحقيقي، فيما السلطة المنظورة هي بيد الملك البشري أو الشخصية البشرية الممثلة للملك وهي سلطة جامعة تحكم القبضة على الزمني والروحي والمدني والقدسي بحيث لا يفلت منها شيء»(٢).

- **ثالثاً حال الفرس:**

كان الفرس أمة وثنية ثنوية دينها المجوسية، يعتقدون أن العالم له خالقان ربان متكافئان بينهما صراع؛ سديمي: إله الخير، ويمثله النور

---

(١) كتاب تاريخ التسامح في عصر الإصلاح (٢٩).

(٢) المصدر السابق.

والنار، وإله الشر ويمثل الظلام. ولذلك اتخذوا النار معبدهم وإلههم بناء على ذلك.

والاعتقاد بوجود إلهين متكافئين مصادم للفطر وبداهة العقول السليمة.

قال المؤرخ **صاعد الأندلسي**: «وكان سبب تمجسهم أن زرادشت الفارسي ظهر في زمان «بستاسف» ـ ملك الفرس ـ لثلاثين سنة خلت من ملكه ودعا إلى دين المجوسية من تعظيم النار، وسائر الأنوار والقول بتركيب العالم من النور والظلام واعتقاد القدماء الخمسة والتي هي عندهم ـ الباري تعالى عما يقولون ـ وإبليس والهيولة والزمان والمكان. . . . ولم تزل الفرس على دينه وملتزمين شريعته قريباً من ألف سنة وثلاث مائة سنة»(١).

• كان النظام الطبقي هو السائد فيهم: الأسرة الحاكمة أسرة آل ساسان أسرة مقدسة تجري في عروقهم دماء إلهية مقدسة وبقية الشعب ملك لهم وخدم لهم، وعبيد لهم.

• كان الفساد الخلقي والإباحية الصارخة التي طالت كل المحارم حتى الأمهات والبنات والأخوات هي أخلاق وأحوال الفرس المجوس.

يذكر المؤرخ الإمام «**الطبري**» أن يزدجرد الثاني الذي حكم في أواسط القرن الخامس الميلادي تزوج ابنته ثم قتلها. وأن بهرام جوبين في القرن السادس تزوج أخته(٢).

وشاعت هذه الإباحية المقيتة فيهم وذاعت وعمت وطمت، يسجل المؤرخ الإمام الطبري هذا فيقول: «افترض السفلة ذلك واغتنموه وكاتفوا مزدك وشايعوه فابتُلي الناس بهم في بلاد فارس وقوي أمرهم حتى كانوا

---

(١) طبقات الأمم (٦٤ ـ ٦٥).

(٢) تاريخ الأمم والملوك (٢/ ٧٩).

يدخلون على الرجل داره ويغلبونه على نسائه وأمواله لا يستطيع الامتناع منهم حتى حملوا الملك قُباذ على ذلك فشاع ذلك فيهم حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده ولا المولود أباه»[١].

• **رابعاً: حال بلاد الهند:**

كانت الهند تعتقد بقاء العالم وتناسخ الأرواح وعبادة الأصنام وتعظيم الهياكل والاعتقاد في النجوم والأفلاك.

يقول المؤرخ **صاعد الأندلسي**: «فمنهم براهمة ومنهم صابئة، فأما البراهمة فهي فرقة قليلة العدد فيهم شريفة النسب عندهم فمنهم من يقول بحدوث العالم، ومنهم من يقول بأزليته، إلا أنهم مجمعون على إبطال النبوات وتحريم ذبح الحيوان والمنع من إيلامه وأكل أقواته، وأما الصابئة وهي جمهور الهند ومعظمها فإنها تقول بأزل العالم، وأنه معلول لذات علة العلل ـ التي هي الباري جل وعز ـ وتعظم الكواكب وتصور بها الصور تمثلها بها وتتقرب إليها بأنواع القرابين»[٢].

أما النظام الاجتماعي: فمنذ القرن الثالث قبل الميلاد فإن القانون الطبقي العنصري الذي يعرف عندهم باسم «سنوشا ستر» هو السائد وهو يقسم الناس في الهند إلى أربع طبقات:

(١) طبقة البراهمة: وهم السادة المقدسون، وتضم هذه الطبقة الكهنة وسدنة الأصنام والمعابد ورجال الدين وملوك الهند.

(٢) طبقة شتري: وتضم رجال الحرب والجنود.

(٣) طبقة ويسن: وتضم الفلاحين وأهل الصناعات والحرف والزراعة.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك (٢/ ٨٨).
(٢) طبقات الأمم (٥٣).

(٤) طبقة شودر: وهي طبقة المنبوذين الذين هم كالكلاب[١].

- **خامساً: إذا انتقلنا إلى الشرق الأقصى (الصين) ماذا نجد؟!**

كانت تسود في الصين ثلاث ديانات كلها وثنية.

- ديانة لاوتسو ـ ديانة ملوك الصين القدماء.
- ديانة الكنفوشوس وهي ديانة الحكماء وأهل المعارف.
- الديانة البوذية التي انتقلت إلى بلاد الصين من بلاد الهند وما حولها[٢].

يقول **احد الباحثين**: «فمن المعلومات التي نقلت إلينا من الوثائق التاريخية والآثار القديمة والتاريخ المسجل عرفنا الأحوال الدينية والعقائد عند قدماء الصينيين وهي تتلخص في:

(١) تأليه قوى الطبيعة وأرواح الموتى؛ فإنه حسب التسجيلات القديمة كانت عبادة الطبيعة من أقدم صور التدين عند الصينيين حيث شاهدوا القوى الغامضة في الطبيعة فبدأوا يعبدون السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم وغيرها من قوى الطبيعة[٣].

(٢) الاعتقاد بما وراء الطبيعة من الأرواح فاعتقدوا أن لكل الظواهر الطبيعية أرواحاً خفية لها سلطة جبارة، فصاروا يعبدون هذه الأرواح التي تسمى عندهم «شيْن» «Sheng» بمعنى الآلهة[٤].

---

(١) انظر: كتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، لأبي الحسن الندوي (٥٥ ـ ٦١).
(٢) المصدر السابق (٥٣).
(٣) العقائد البدائية والآلهة القديمة في الصين، وان شاو دون (١٠٢).
(٤) التعريف بالداوية (٤٠).

(٣) تأليه الملوك والعظماء وهذا كان منتشراً فيهم مثل تأليههم «خوان دي» «Haangdi» و«لَوْتِس» «Laozi» من ملوكهم القدماء[١].

الكنفوشسية. وهي مدرسة فكرية فلسفية نسبة للحكيم الصيني كنفوشيوس (٥٥١ ـ ق.م. ٤٧٦ ق.م) وأفكاره ضمنها كتابه «الحوار» وتقوم على القيم الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية كالفضيلة والواجب والآداب والحكمة والوفاء، ثم نشأت فيهم نزعة التدين بأن ألهوا الملك القديم «Yao» كإله أعلى وقدسوا كنفوشيوس وأنه تلقى التعاليم من الإلٰه الأعلى «Yao»[٢][٣].

هذا أحوال العالم عند مبعث الهادي البشير عليه الصلاة والسلام، على حين فترة من الرسل، وانطمار من السبل، وضلال ملأ الأرض كلها، فكان بحق أول المسلمين، الداعين إلى ملة المرسلين ﷺ.

الوجه الثاني:

أن هذه الأولية المذكورة في الآية: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ [الأنعام: ١٤]، ونظائرها؛ كقوله تعالى: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٣]، إنما هي أولية نسبيّة.

والمعنى: أنا أول من أسلم ودعا إلى الإسلام ملة إبراهيم والأنبياء جميعاً ﷺ بعد اندراس آثار الأنبياء ومعالم الدين القويم من الأرض، هذا معناها المفهوم المدرك لكل صاحب عقل ولب وفهم مستقيم.

قال الإمام الطبري رحمه الله: «أول من خضع له بالعبودية، وتذلل

---

(١) كتاب عقيدة الإلٰهية في الديانة الداوية، أيوب نور الحق دين شي رين (١٠).

(٢) مختصر تاريخ الفلسفة الصينية، فون بولان (٤٩).

(٣) المزيد من التفصيل انظر: كتاب: عقيدة الألوهية في الديانة الداوية، لأيوب نور الحق دين شي رين.

لأمره ونهيه، وانقاد له من أهل دهري وزماني»(١).

وهذه الآية من سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ [١٤]، تفسرها نظيرتها في أواخر هذه السورة بعينها سورة الأنعام: قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾، فهذا إعلام بأنه عليه الصلاة والسلام هداه الله إلى ملة إبراهيم وهي الصراط المستقيم، ووصفها بالحنيفية وعدم الشرك.

ثم قال بعدها: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

فقوله هنا بعد استقامته على ملة إبراهيم: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾؛ أي: اتباع ملة إبراهيم وهي الإسلام الخالص لله في الحياة والممات والصلاة والمنسك وغيرها.

قال: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾؛ أي: أول من استقام على هذا ودعا إليه بعد ضياعه واضمحلاله.

الوجه الثالث:

أن هذا الأسلوب مطروق في القرآن، بمعنى الأولية النسبية إما بالزمان أو بحالة خاصة أو قضية معينة خاصة.

- فمن ذلك: قوله تعالى في خبره عن نبيه موسى عليه الصلاة والسلام لما طلب من الله فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فقال له تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ

---

(١) تفسير الطبري (٥/ ١٥٩).

قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فهل موسى عليه السلام هنا ينفي إيمان أنبياء الله قبله من آبائه وأجداده إلى جده الأعلى إبراهيم عليه السلام؟ أم أن مراده أولية خاصة بقومه.

قال الإمام الطبري رحمه الله: «﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ بك من قومي أن لا يراك في الدنيا أحد إلا هلك».

وروى عن أبي العالية قوله: «كان قبله مؤمنون، ولكن يقول: أنا أوّل من آمن بأنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة».

وروى هذا المعنى كذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أول المؤمنين من بني إسرائيل».

وعن مجاهد كذلك.

ثم قال الطبري رحمه الله: «وإنما اخترنا القول الذي اخترناه في قوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾، على قول من قال: معناه: أنا أول المؤمنين من بني إسرائيل؛ لأنه قد كان قبله في بني إسرائيل مؤمنون وأنبياء، منهم ولدُ إسرائيل لصلبه، وكانوا مؤمنين وأنبياء»(١).

• ومن ذلك قوله تعالى عن سحرة فرعون لما آمنوا بالحق وصبروا على القتل فكانوا في أول النهار سحرة أشقياء، وفي آخره شهداء سعداء.

قال تعالى عنهم: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء: ٥١]؛ أي: أول قوم فرعون إيماناً، أو أول أهل ذلك الزمان.

قال الطبري رحمه الله: «لأنا كنا أول من آمن بموسى وصدقه بما جاء به من توحيد الله وتكذيب فرعون في ادعائه الربوبية في دهرنا هذا وزماننا»(٢).

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٥٥ ـ ٥٦). (٢) المصدر السابق (٩/ ٤٤٣).

فبطل ما زعمه عبد المسيح في كلامه السابق.

* * *

[٥] جادل عبد المسيح في القرآن الكريم وفي كونه من أعظم المعجزات والبراهين الدالة على أنه حق من عند الله، وأنه من أعظم دلائل نبوة نبينا محمد ﷺ، في فصل طويل من رسالته معتمداً على مجادلات وتمحّلات أسّس بها عبد المسيح شبهة جدلية بنى عليها واعتمد عليها كل من جاء بعده من الرهبان والقسس الآتي ذكرهم، وكذا المستشرقون الذين جادلوا في حجية القرآن وكونه وحياً من عند الله تعالى.

قال عبد المسيح في ردّه على الهاشمي: «وقد ألجئت إلى أن تقول إن الحجة البالغة عندك في هذا الكتاب الذي في يدك، وأن الدليل على صحة كونه منزلاً من عند الله، ما فيه من الأخبار القديمة عن موسى والأنبياء، وعن سيدنا المسيح، وصاحبك رجل أمّي لم تكن له معرفة، ولا علم بتلك الأخبار، فلا بد أنه أوحي إليه، وأُنبئ بما قاله، ثم تقول: لا يقدر إنسيٌ ولا جنيٌ أن يأتي بمثله، ثم تقول: «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين». و«لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله». ونظائر هذه أعظم دليل على نبوته، فكأنك جعلت هذا آية له وحجة، مثل فلق البحر لموسى، ووقوف الشمس ليوشع بن نون، وإحياء الموتى للمسيح وأعاجيب الأنبياء السالفين.

ولعمري إن هذا الكلام قد أضل قوماً كثيرين، وقد أويت من هذا الكلام إلى ركن ضعيف القواعد متداعي الدعائم، واهي القوائم، وجوابك في هذا قريب غير بعيد، وحاضر غير غائب ولا متخلف ولا بد لنا من كشف هذه القصة..»[١].

---

(١) رسالة عبد المسيح (٢٥ ـ ٢٦).

في مجادلته هذه في حجيّة القرآن وكونه وحياً من عند الله اعتمد عبد المسيح على عدة محاور سنوردها بحسب إيراده لها مع كشفها وبيان زيفها بعون الله تعالى.

• المحور الأول:

قال عبد المسيح: «فنقول إنه ينبغي عليك أن تعلم أولاً كيف كان السبب في هذا الكتاب ـ يعني: القرآن الكريم ـ وذلك أن رجلاً من رهبان النصارى اسمه «سر جيوس» أحدث حدثاً...» فذكر كلاماً عن هذا الراهب وأنه طرد من الكنيسة وأتى إلى مكة وسمى نفسه «نسطوريوس» وأنه هو الذي علم النبي ﷺ القرآن وأخبار الأنبياء(١).

والجواب عن هذا الإفك المكشوف والافتراء المفضوح من وجوه:

الوجه الأول:

كنتُ كلما قرأتُ القرآن العظيم أو استمعت إليه يتلى في محاريب الصلاة وتلاوات التالين له من المسلمين، وتمر بي هذه الآيات الكريمات من سورة النحل وهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النحل: ٩٨ ـ ١٠٥].

---

(١) رسالة عبد المسيح الكندي (٢٦).

أتأمل فيها بما يليق بها، فإذا هي تقرر أموراً عظيمة:

أحدها: أمر الله بالاستعاذة به تعالى من الشيطان الرجيم عند قراءة القرآن؛ لئلا يُلَبِّس هذا الشيطان على القارئ قراءته، ويخلط عليه ويمنعه من التدبر والتفكر ولئلا يصرف قلبه بالخواطر والصوارف فلا يعي ما يقرأ ولا يتذوقه فإذا استعاذوا بالله منه فلا سبيل له عليهم ولا سلطان يتسلط من خلاله إليهم.

الثاني: أخبر تعالى أن سلطان هذا الشيطان وقوة صولته وعظيم وساوسه المشغلة الصارفة عن الحق وفهمه واتباعه إنما تكون لمن أرخى سمعه وفتح قلبه لوساوس الشيطان وتقبلها، واستجاب لها واتخذ الشيطان وليّاً من دون الله.

الثالث: أخبر تعالى أنه إذا بدّل آية مكان آية، وإذا نسخ تعالى آية بآية أخرى اتخذ أعداء القرآن وأعداء النبي ﷺ من ذلك مدعاة للسخرية والتكذيب واتهام النبي ﷺ بالتخليط والتناقض.

فردّ الله عليهم بأن ذلك كله من أمر الله تعالى فهو الذي أنزل الكتاب وهو الذي يثبت ما يشاء ويرفع ما يشاء، وليس للنبي ﷺ إلا البلاغ عن ربّه تعالى، بأن الذي نزل بالقرآن من عند الله تعالى هو روح القدس، أمين الوحي «جبريل عليه السلام» منجماً حسب تقدير الله وتدبيره لتثبيت المؤمنين وهدايتهم بالرفق والتدرج لأحسن الشرائع وبشرى لمن آمن به وأسلم لله رب العالمين.

وهؤلاء المعترضون أياً ما كانوا من المشركين أم من اليهود أم من النصارى، أم من غيرهم لو لم ينزل القرآن منجّماً مفرقاً ليتقبله الناس على مكث ومهل، لو لم يكن ذلك ونزل القرآن جملة واحدة في كتاب مكتوب دفعة واحدة لانتقلوا إلى اعتراض آخر وصارف آخر كما أخبر الله عنهم بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ

كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ [الأنعام: ٧]، فالاعتراض والعناد والرد هو غايتهم يتذرعون إليه بكل سبيل.

الرابع: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ [النحل: ١٠٣]، هذه شبهة فجّة من شبه المشركين، إذ يزعمون أن محمداً ﷺ وهو عربي الوجه واليد واللسان أخذ هذا القرآن البليغ المعجز من رجل رومي أعجمي، كيف هذا والقرآن بلسان عربي مبين معجز بليغ؟ عجزوا هم وهم عرب أقحاح أن يأتوا بمثله ولا شيئاً منه.

وأنا أقرأ هذه الآية أو إذا مرت بي وهي تُتلى وتُقرأ أقف معها متعجباً، وأسرُّ في نفسي أمراً: ما قيمة هذه الشبهة الفجّة السخيفة، الظاهرة البطلان والحُمْق والسخف؟!

ما قيمتها حتى يهتم بها القرآن الكريم، ويذكرها وينزل بها روح القدس من ربه مفنِّداً لها، ذاكراً الوجه الواضح لبطلانها؟!

خصوصاً إذا نظرتُ في كتب التفسير أجدهم يذكرون أن المشركين يقولون: إن محمداً ﷺ يجلس إلى غلام رومي لبعض بطون قريش كان يبيع عند الصفا وإن اسمه «جبر» وبعضهم قال اسمه «يعيش»، وبعضهم قال: «بلعام».

مع أن كل ذلك لم تثبت به رواية، إنما هي أقوال مرسلة، من أخبار أهل السير.

وإن هذه الآية الكريمة واهتمام القرآن العظيم بهذه الشبهة وردّها رغم فجاجتها لمن أعظم ما حرّكني لجمع هذا الكتاب؛ لأني على قناعة: ما دام أن الله تعالى ذكرها وتولى هو ﷻ ردّها وتفنيدها، فلا بد أن الأمر عظيم، وجدير بأن ينزل به القرآن ويرد به كيد وكذب أولئك الكاذبين.

ثم وجدت ما يقنعني في الجواب عن ذلك:

وجدت ومن خلال هذا الكتاب كما سترى إن شاء الله: أن جميع أعداء الله تعالى وأعداء خاتم أنبياءه محمد ﷺ، وأعداء هذا القرآن العظيم تداولوا هذه الشبهة وذكروها، وجملوها وأذابوها وباعوها وأكلوا ثمنها.

اليهود وأحبارهم من جهتهم، والنصارى وقساوستهم من قِبَلهم مع المشركين كما تقدم، كلهم يحكون هذه الشبهة ويجعلونها عمدهم في الاعتراض على القرآن الكريم ومحاولتهم اليائسة إبطال كونه منزل من عند الله تعالى.

وما عبد المسيح الكندي هذا إلا واحداً من صف طويل من الأحبار والقساوسة ذكروا هذه الشبهة وتعلقوا بها كل من جهته، وعلى شاكلته، يحكي بعضهم عن بعض هذه الشبهة، وربما غيّروا في تفاصيلها؛ كمن هو الشخص الرومي أو الراهب النصراني أو الحبر اليهودي الذي أخذ عنه النبي ﷺ هذا القرآن.

فلعلم الله تبارك وتعالى: بأنهم سيتداولون هذه الشبهة، ويتداعَوْن لها، ويوصي بعضهم بعضاً بها: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٣].

لعلمه تعالى السابق بذلك، ذكرها في القرآن وفنّدها، وردّها، وبين سخافة عقول القائلين بها، والمردّدين لها.

ولا أدل على ذلك من تصدير الله تعالى هذه الآية بالإحالة إلى علمه السابق بأفعال وأقوال أعداء رسوله الخاتم ﷺ، ونَصر نبيه وكتابه بالجواب الشافي المبطل لشبههم، الكاشف لكذبهم.

فتأمل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

والإتيان بألفاظ التوكيد من «اللام» و«قد» ثم الإتيان بـ «نعلم» على صيغة المضارع تفيد بأنها ليست شبهة قديمة قالها من قالها من أجلاف المشركين وإنما يفيد بأنها شبهة متجددة سيرددها كل أعداء القرآن من المشركين وأحبار يهود وقساوسة النصارى، ولذلك ذكرها تعالى وقدّم الجواب عنها.

وسأذكر بيان ذلك من ما كتبه أحبار يهود وقساوسة النصارى.

• الحاخام والفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون[١] «Musa b. Mayiun» أرسل له صديق له يهودي من يهود اليمن اسمه «الحاخام يعقوب» رسالة يسأله فيها عدة أسئلة، وأجابه موسى بن ميمون برسالة عُرِفت بـ «الرسالة اليمنية» أو: «شريعة اليهود وجدالهم مع الفرق الإسلامية ونبؤات آخر الزمان»[٢].

وقد عرضنا لبعض ما فيها في المقدمة الثالثة من هذه الدراسة:

ففي هذه الرسالة زعم موسى بن ميمون «بأن النبي ﷺ[٣] لفّق ديانته من مصادر شتى منها اليهودية والنسطورية النصرانية»[٤].

واستناداً إلى تفسيره لرؤيا دانيال والتي نصّها: «ويقوم بعدهم آخر، وهذا يختلف عن الأولين، ويذل ثلاثة ملوك، ويتكلم بأقوال ضد العلي،

---

(١) موسى بن ميمون القرطبي الإسرائيلي الحاخام اليهودي والفيلسوف الشهير صاحب «دلالة الحائرين» أشهر شخصية يهودية في حقبة ما بعد التلمود، كما وصفته الموسوعة اليهودية، توفي سنة ١٢٠٤م. انظر عنه «طبقات الأطباء» لابن أبي أُصيبعة (٥٨٢)، ومعجم الفلاسفة لجورج طرابيشي (٣١).

(٢) ترجمها وقدّم لها، د. نبيل فيّاض، طبع المركز الأكاديمي للأبحاث، تيرنتو، كندا، ط. الأولى، ٢٠١٥م.

(٣) يطلق ابن ميمون على النبي ﷺ لفظة «المجنون» وهذا وصف دارج عند اليهود للنبي ﷺ.

(٤) الرسالة اليمنية (٤٨).

وينوي أن يغيّر الأزمنة الشريفة»(١).

ويُنزِّل موسى بن ميمون هذه الرؤيا على النبي ﷺ، وأن القرآن ما هو إلا رسائل شفهية تلقّاها النبي ﷺ من النسطورية وبقايا ما جاء به المسيح، وأنه يدعي بعد ذلك بعجرفة أن الله أعطاه وحياً منزلاً، وأن الله يحادثه ويخاطبه(٢).

وصدق الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾ [الفرقان: ٥].

هذه دعوى اليهود وموسى بن ميمون يمثلهم.

فرد الله تعالى عليهم فقال: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦﴾ [الفرقان: ٦].

قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وذكر السّرّ دون الجهر لأنه من علم السّرّ فهو في الجهر أعلم، ولو كان القرآن مأخوذاً من أهل الكتاب وغيرهم لما زاد عليها، وقد جاء بفنون تخرج عنها فليس مأخوذاً منها، وأيضاً لو كان مأخوذاً من هؤلاء لتمكن المشركون منه أيضاً كما تمكن محمد ﷺ، فهلا عارضوه فبطل اعتراضهم من كل وجه»(٣).

• أما قساوسة ورهبان النصارى فقد انتهبوا هذه الفرية الفجّة وما بقي أحد منهم إلا ذكرها، والتغيير الذي يحدثه أحدهم إنما هو في اسم الرجل النصراني الذي أخذ منه النبي ﷺ القرآن.

إنه «سُعار نصراني محموم ضد القرآن الكريم» هكذا كشف أحدهم مستخدماً هذه العبارة وهو الأب جورج قنواتي الدُّمِنيكاني، وذلك في

(١) الكتاب المقدس، سفر دانيال (٧/ ٢٥).
(٢) الرسالة اليمنية (٥١ ـ ٥٢).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٥).

المؤتمر الخامس للدراسات الدينية اللاهوتية بمدينة «فيينا» سنة (١٩٨٦م)[١].

فأول رهبان النصرانية أطلق هذه الفرية، وهي أن القرآن الكريم تلقاه النبي ﷺ من رجل نصراني، هو يوحنا الدمشقي، اسمه منصور بن سرجون بن منصور[٢].

فقد أطلق في كتابه «حول الهراطقة» «De Haereibs» وهو القسم الثاني من كتابه الشهير: «ينبوع المعرفة»: «أن محمداً ﷺ تلقّى القرآن من راهب آريوسي، وبناء عليه فمعلومات محمد عن المسيح هي هرطقة مسيحية ذات طابع آريوسي»[٣].

ثم تتابع قساوسة ورهبان النصارى بعده على تكرار هذه الشبهة الفجة يعترف اللاهوتي الألماني «لودفيغ هَاغِمن» بذلك فيسجل هذه الشهادة: «وهذه الأطروحة الخاصة بتأثر محمد ﷺ براهب مسيحي، تظل المرة بعد الأخرى تلقى التأييد والاحتضان على مدى التقليد الطويل الخاص بالجدل المذهبي المعادي للإسلام سواء أكان ذا مصدر بيزنطي، أم لاتيني، ومن الممكن أن يكمن أصل تلك الأسطورة عن معلم مسيحي لمحمد في قصة «بحيرا» العائدة إلى عصر الإسلام الأول...»[٤].

يواصل هَاغمن شهادته فيقول: «وفي الروايات البيزنطية يصبح الراهب الآريوسي الذي ورد الحديث عنه عند «يوحنا الدمشقي» هو: سرجيوس«Sergius»» وتارة يصبح: «نسطور نوس» «Nestrnous»، وتارة

(١) كتاب مسيحية ضد الإسلام، لودفيغ هَاغِمَن (٢٤)، دار قَدْس للنشر والتوزيع، دمشق، ترجمة: محمد جديد. ط، الثانية، ٢٠٠٥م.

(٢) تقدم ذكره وذكر موقفه من القرآن سابقاً.

(٣) كتاب: مسيحية ضد الإسلام (٤٦).

(٤) المصدر السابق (٤٧).

يصبح: جيورجيوس «Georgios»، وتارة: نيقولاس «Nikolaas»... إلخ. وهو يظهر أيضاً تارة نسطورياً، وكما يظهر مرة من أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة، كما يظهر أيضاً آريوسياً، بل يظهر مرة مرتداً وحتى مؤلفاً للقرآن، وفي هذا الصدد كان يُنظر إليه أكثر ما ينظر على أنه نسطوري، ويُصَوَّر على أنه مصدر غامض لمعلومات محمد».

ثم يبيّن هَاغمن: أن هذه الشبهة استخدمها كبار رهبان النصارى، مثل: «ثيوفانِس المعترف» «وأنا ستازيوس المكتبي»، «وبطرس المبجّل»، «ويعقوب الأَكْوي»، وغيرهم.

ثم يقول: «ومن الواضح للعيان أن الخيال الشعبي المتعلق بمحمد ونشوء الإسلام لم يكن يعرف حدوداً، وكل هذه الروايات الأسطورية تجري وراء هدفها الجليّ وهو تصوير الدين الجديد على أنه غير أصيل، وغير عريق، بل على أنه صدى لتوجه مسيحي مطبوع بطابع الهرطقة ووصمه بذلك على أنه تزييف، وبذلك كان يراد تجريد القرآن من ادعائه الحق في أن يُعد كتاباً من الكتب المنَّزلة ذات المصدر الإلٰهي وإضعافه وإبطاله»[1].

وصدق الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

- **المحور الثاني:**

قال عبد المسيح: «فلما قوي الأمر في النصرانية وكاد أن يتم توفي نسطوريوس هذا، فوثب عبد الله بن سلام، وكعب المعروف بالأحبار، اليهوديان بخبثهما ومكرهما، فأظهرا له ـ أي: للنبي ﷺ ـ أنهما قد تابعاه

(١) كتاب: مسيحية ضد الإسلام (٤٨).

على رأيه، وقالا بقوله، فلم يزالا على ذلك المكر والدهاء والتدبير عليه، إلى أن وجدا الفرصة بعد موته، فلما توفي وارتد القوم، وانتهى الأمر إلى أبي بكر، قعد علي بن أبي طالب عن تسليم الأمر إلى أبي بكر...» حتى قال: «وكان عبد الله بن سلام وكعب الأحبار قد عمدا إلى ما في يد علي بن أبي طالب من الكتاب الذي دفعه إليه صاحبه - أي: النبي ﷺ - على معنى الإنيل فأدخلا فيه أخبار التوراة، وشيئاً من جل أحكامها، وأخباراً من عندهما بدلها، وشنّعا فيه وزادا ونقصا، ودسّا تلك الشناعات كقولهما: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة: ١١٣]».

هذه فرية أخرى من جنس سابقتها، وكأن عبد المسيح هذا استشعر أن الفرية الأولى خاصة بما كان من القرآن المكي بمكة قبل الهجرة فمن أين تلقّى النبي ﷺ القرآن بالمدينة بعد الهجرة؟!

هنا فتش هذا المفتري فوجد اسم عبد الله بن سلام الحبر الإسرائيلي الذي أسلم وتبع النبي ﷺ ووجد اسماً آخر وهو كعب الأحبار، فذهب وركب الأحموقة وقال ما قال، وأتى بهذه الفرية المكشوفة.

وسيكون ردّنا لها وجوابنا عنها من وجوه:

الوجه الأول:

نعم عبد الله بن سلام رضي الله عنه، كان يقرأ في التوراة وأخبار أنبياء بني إسرائيل صفة ووصف وبلد النبي القادم الخاتم، فلما رأى النبي ﷺ وطبّق الوصف على الموصوف، والخَبَر على الخُبْر، وجد حق اليقين فأسلم بيقين.

اسمع له وهو يقول: «لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَبَنْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِسَلَامٍ»(١).

ولنعلم أن المبرر الأكبر لوجود هذه القبائل اليهودية (النضير ـ قينقاع ـ قريظة) بيثرب إنما هو بإيحاء كتابي من أخبار التوراة وأسفار الأنبياء: أن هذه هي أرض ومهاجر النبي الخاتم القادم.

فقد علم أهل الكتاب من توراة موسى، ونبوءات الأنبياء، ومزامير آل داود، وإنجيل ابن مريم؛ أن نبياً سيظهر للعالم تحرس لأجله السماء، وتشرق بنوره الأرض.

يقرأون: «سأقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه فيخاطبهم بكل ما آمره به، وأيّ رجل لم يسمع كلامي الذي يتكلم به باسمي فإني أحاسبه عليه»(٢).

وقد سجّل القرآن الكريم ذلك بوضوح فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والأخبار بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمد ﷺ عندهم في الكتب المتقدمة متواترة عنهم، وكان قبل أن يبعث النبي ﷺ تجري حروب وقتال بين العرب وبين أهل الكتاب فيقول

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٢٤٨٥) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه رقم (١٣٣٤)، وأحمد في المسند رقم (٢٣٧٨٤).

(٢) سفر التثنية (١٨/١٨ ـ ١٩).

أهل الكتاب: قد قرب مبعث هذا النبي الأمي الذي يبعث بدين إبراهيم؛ فإذا ظهر اتبعناه وقتلناهم شر قتلة، فلما بعث النبي ﷺ كان منهم من آمن به ومنهم من كفر به فقال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة: ٨٩]؛ أي: يستنصرون بمحمد ﷺ على الذين كفروا، ولهذا كان النبي ﷺ في خطابه لأهل الكتاب يقول لهم: **«والله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله»** وكذلك من أسلم منهم كعبد الله بن سلام كان يقول لغيره من أهل الكتاب: «والله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله»، وهذا أمر معروف في الأحاديث الصحاح المخرجة في الصحيحين وغيرهما، فظهر بما ذكرناه تحريف هؤلاء لكلام الله وأنه لا حجة لهم فيما أنزل على محمد ـ ﷺ»[1].

وهذه شواهد واقعية تدل دلالات قاطعة على هذا الانتظار الحار من كل أحبار يهود قبل أن يبعث النبي الخاتم محمد ﷺ.

ـ كانت الأوس والخزرج أيام جاهليتهم وشركهم يسمعون من جيرانهم اليهود ما كانوا يخبرون به عن مبعث رسول الله ﷺ وأنه قد طلع نجمه وتنفس صبحه، فلما بعث النبي ﷺ سبقتهم الأوس والخزرج إلى الإيمان به مما سبب حسداً وحقداً في قلوب يهود فكفروا بالنبي المنتظر الذي كانوا به يبشرون وله ينتظرون، وأنكروه بعد ما عرفوه، فلعنة الله على الكافرين الحاقدين الخاسرين.

(أ) مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ الأنصاري. وَبِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ، أَخُو بَنِي سَلِمَةَ وداود بن سلمة الأنصاري قالوا: يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، اتَّقُوا اللهَ وَأَسْلِمُوا، فَقَدْ كُنْتُمْ تَسْتَفْتِحُونَ عَلَيْنَا بِمُحَمَّدٍ وَنَحْنُ أَهْلُ شِرْكٍ، وَتُخْبِرُونَنَا أَنَّهُ مَبْعُوثٌ، وَتَصِفُونَهُ لَنَا بِصِفَتِهِ، فَقَالَ سَلَّامُ بْنُ مِشْكَمٍ ـ وهو زعيم بني النضير ـ: مَا

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٢/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧).

جَاءَنَا بِشَيْءٍ نَعْرِفُهُ، وَمَا هُوَ بِالَّذِي كُنَّا نَذْكُرُهُ لَكُمْ»(١).

(ب) عَنْ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ، قَالَ: وَاللهِ إنِّي لَغُلَامٌ يَفَعَةٌ، ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ أَوْ ثَمَانٍ، أَعْقِلُ كُلَّ مَا سَمِعْتُ، إِذْ سَمِعْتُ يَهُودِيّاً يَصْرُخُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ عَلَى أُطُمَةٍ بِيَثْرِبَ: يَا مَعْشَرَ يَهُودِ، حَتَّى إِذَا اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، قَالُوا لَهُ: وَيلك مَالك؟ قَالَ: طَلَعَ اللَّيْلَةَ نَجْمُ أَحْمَدِ الَّذِي يُبعث الليلة»(٢).

(ج) عَنْ سَلَمَةَ بْنِ سَلَامَةَ بْنِ وَقْشٍ، قَالَ: كَانَ بَيْنَ أَبْيَاتِنَا يَهُودِيٌّ، فَخَرَجَ عَلَى نَادِي قَوْمِهِ: بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَذَكَرَ الْبَعْثَ وَالْقِيَامَةَ وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَالْحِسَابَ وَالْمِيزَانَ، فَقَالَ ذَلِكَ لِأَصْحَابِ وَثَنٍ لَا يَرَوْنَ أَنَّ بَعْثاً كَائِنٌ بَعْدَ مَوْتٍ، وَذَلِكَ قُبَيْلَ مَبْعَثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قال: يَا فُلَانُ، فَمَا عَلَامَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: نَبِيٌّ يُبْعَثُ مِنْ نَاحِيَةِ هَذِهِ الْبِلَادِ - وَأَشَارَ بِيَدِهِ نَحْوَ مَكَّةَ وَالْيَمَنِ - قَالُوا: فَمَتَى تَرَاهُ؟ فَرَمَى بِطَرْفِهِ، فَرَآنِي... وَأَنَا أَحْدَثُ الْقَوْمِ، فَقَالَ: إِنْ يَسْتَنْفِذْ هَذَا الْغُلَامُ عُمُرَهُ يُدْرِكْهُ فَمَا ذَهَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى بَعَثَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ، وَإِنَّهُ لَحَيٌّ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، فَآمَنَّا بِهِ وَصَدَّقْنَاهُ، وَكَفَرَ بِهِ بَغْياً وَحَسَداً. فَقُلْنَا لَهُ: يَا فُلَانُ، أَلَسْتَ الَّذِي قُلْتَ مَا قُلْتَ وَأَخْبَرْتَنَا؟ قَالَ: لَيْسَ به»(٣).

- بل إن سبب توافد اليهود إلى سكنى يثرب وما حولها دون بقية أرض العرب أيام الفترة بين آخر أنبياء بني إسرائيل وهو عيسى عليه السلام والنبي محمد ﷺ سبب توافدهم هو انتظارهم لخروج النبي الخاتم، وأن هذه الأرض حسب ما عندهم في التوراة هي مهاجره ومستقره، وإلا كيف

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٩٦).
(٢) المصدر السابق (١/ ١٦٨).
(٣) المصدر السابق (١/ ٢٢٥).

تركت يهود أرض الشام بخيراتها ومياهها واعتدال هوائها إلى أرض الحرار السود والجوع والفقر والبداوة وعداء من كان فيها من الأوس والخزرج لهم.

(أ) عَنْ أَنسٍ بن مالك: أَنَّ غُلَاماً يَهُودِيّاً كَانَ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَوَجَدَ أَبَاهُ عِنْدَ رَأْسِهِ يَقْرَأُ التَّوْرَاةِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَا يَهُودِيُّ! أَنْشُدُكَ بِاللهِ الَّذِي أَنْزلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى هَلْ تَجِدُ فِي التَّوْرَاةِ نَعْتِي وَصِفَتِي وَمَخْرَجِي؟ قَالَ: لَا. قَالَ الْفَتَى: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّا نَجِدُ لَكَ فِي التَّوْرَاةِ نَعْتَكَ وَصِفَتَكَ وَمَخْرَجَكَ، وإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: أَقِيمُوا هَذَا مِنْ عِنْدِ رَأْسِهِ وَلُوا أَخَاكُمْ»(١).

(ب) قَدِمَ إلى يثرب حَبْر يَهُودِيٌّ مِنَ بلاد الشَّامِ قبل مبعث رسول الله ﷺ، يُقَالُ لَهُ ـ أبو عمير ـ ابْنُ الْهَيِّبَانِ، وكان يقول لليهود في يثرب: يَا مَعْشَرَ يَهُودَ أَمَا تَرَوْنَهُ أَخْرَجَنِي مِنْ أَرْضِ الْخَمْرِ وَالْخَمِيرِ، إِلَى أَرْضِ الْبُؤْسِ وَالْجُوعِ! قالوا: أَنْتَ أَعْلَمُ، قَالَ: فإنه إنما أَخْرَجَنِي أتوقع خروج نَبِيٍّ قد أظل زمانه. هذه البلاد مهاجره. فاتبعوه وَلَا تُسْبَقُنَّ إِلَيْهِ إذا خرج»(٢).

وكان سبب إسلام عبد الله بن سلام ﷺ أنه أيقن أن محمداً ﷺ هو النبي المنتظر المذكور خبره، وكان سأل النبي ﷺ ثلاثة أسئلة لا يعلمها إلا نبي كما في الحديث الصحيح: عَنْ أَنَس بن مالك، قَالَ: سَمِعَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ، بِقُدُومِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُوَ فِي أَرْضٍ يَخْتَرِفُ، فَأَتَى

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٢٧٢) وأصل هذا الحديث في صحيح البخاري رقم (١٣٥٦).

(٢) السيرة لابن هشام (١/ ٢٢٦)، ودلائل النبوة للبيهقي (٤/ ٣١ ـ ٣٢).

النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ: فَمَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟، وَمَا أَوَّلُ طَعَامِ أَهْلِ الجَنَّةِ؟، وَمَا يَنْزِعُ الوَلَدُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ؟ قَالَ: «أَخْبَرَنِي بِهِنَّ جِبْرِيلُ آنِفاً» قَالَ: جِبْرِيلُ؟: قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: ذَاكَ عَدُوُّ اليَهُودِ مِنَ المَلَائِكَةِ، فَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]. «أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ المَشْرِقِ إِلَى المَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ المَرْأَةِ نَزَعَ الوَلَدَ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ المَرْأَةِ نَزَعَتْ»، قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ...»[١].

وقد بلغ الكذب والافتراء باليهود أنْ وضعوا كتاباً نحلوه زوراً لعبد الله بن سلام عُرف هذا الكتاب باسم: «أسئلة عبد الله بن سلام على النبي».

يعترف «إسرائيل وِلْفُنْسُون»[٢] بأنه كتاب ملفق موضوع فيقول: «وكذلك نسب إلى عبد الله بن سلام كتاب قديم منذ الحقبة الهجرية الأولى عرف باسم «أسئلة عرضها عبد الله بن سلام على النبي» ولما وجد هذا المصنَّف رواجاً عظيماً في الأقطار الإسلامية تنافس في شأنه المتنافسون من المؤلفين، وضموا إليه معلومات شتّى إلى أن عرف بكتاب: «الأسئلة الألف»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري حديث رقم (٤٤٨٠).

(٢) الدكتور إسرائيل ولفنسون ولد سنة (١٨٩٩م) وتوفي سنة (١٩٨٠م)، مؤرخ يهودي من أهم مؤلفاته: «تاريخ اليهود في بلاد العرب».

(٣) كتاب: كعب الأحبار مسلمة اليهود في الإسلام (٨)، المركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت، ٢٠١٣م.

وهذا تلفيق واضح وكذب ظاهر حتى بلّغوها ألف سؤال.

فلا عجب إذن أن ينضم عبد المسيح الكندي إلى هؤلاء الكذابين الملفقين، ليلفق مثل تلك التهمة الفجّة المكشوفة.

والعجب أن الشيعة شاركوا في تطوير هذه الفرية، ومشاركة النصارى في لوكها.

فتذكر مصادر شيعية(١) أن لعبد الله بن سلام ابن اسمه «أحمد» وأنه عمّر طويلاً جدّاً حتى أدرك عصر هارون الرشيد، وأنه قام بترجمة التوراة وكذا الإنجيل وكتب الأنبياء من العبرانية واليونانية والسريانية إلى العربية.

وهذا كذب آخر مكشوف ولا وجود في الحقيقة ابن لعبد الله بن سلام اسمه «أحمد» ولم تذكر كتب التواريخ والتراجم لعبد الله بن سلام إلا ابْنَيْه «يوسف» وله ذكر في التاريخ الكبير(٢) للإمام البخاري، وكذا «محمد» وله ذكر أيضاً في التاريخ الكبير(٣) للبخاري، ثم هذا لا يمكن أن يكون لأن وفاة عبد الله بن سلام رضي الله عنه سنة (٤٠هـ)، هذا يعني أن أحمد هذا عاش أكثر من (١٥٠ سنة) وهذا بعيد جدّاً.

أما كعب بن ماتع الحميري فالأمر فيه أوضح، فهو لم يسلم ولم يقدم المدينة إلا بعد وفاة النبي ﷺ زمن عمر بن الخطاب، ففي كلام عبد المسيح مغالطة ومخاطرة تاريخية كاذبة لكنه مضطر إليها إما جهلاً وإما تعمداً للكذب المكشوف مما يفضحه الله به.

الوجه الثاني:

إن اليهود أنفسهم رغم شدة عداوتهم وبهتهم للنبي ﷺ وللقرآن الكريم لم يستطيعوا أن يذكروا مثل هذه التهمة الفجّة، التي تكذبها بداهة

---

(١) ذكر هذا ابن النديم في الفهرست (٣٣).

(٢) التاريخ الكبير (٤/ ٢/ ٣٧١). (٣) المصدر السابق (١/ ١/ ١٨).

المعطيات التاريخية، والواقعية، ثم فارق فصاحة اللسان وبلاغة القرآن وإعجازه.

يقول الحاخام والمؤرخ اليهودي الشهير «مارك. ر. كوهين»[١] في كتاب: «وضع اليهود في القرون الوسطى» عن النبي ﷺ ومدى تأثره باليهودية كما زعم: «تأمل مثلاً الاستجابة اليهودية لمحمد، ورد فعل النبي على ذلك، لم يكن محمد وهو النبي العربي الذي يظهر بعد قرون من انقطاع النبؤات سوى محتال في نظر القبائل اليهودية وليس لتعاليمه المنسوبة إلى الله إلا شبه قليل باليهودية الربِّية الكتابية، إضافة إلى أن النبي قد بسط رسالته في شكل من القول ونوع من البلاغة لم يكونا مألوفين في اليهودية، وبهذا فقد كان نفور اليهود من محمد نوعاً ما أكثر عمقاً من نفورهم من دعوة عيسى الذي لم يكن قد ادّعى تأسيس دين جديد والذي كان يهودياً وبقي كذلك»[٢].

فهذا اليهودي مع عدائه الواضح للقرآن وللنبي ﷺ، عجز أن يدعي أن اليهود تدخلوا عن طريق عبد الله بن سلام أو غيره في وضع القرآن وكتابته، والمانع له من ذلك أن فصاحة لسان القرآن وعظيم بلاغته وقيمة محتواه معجز لا يستطيع اليهود كتابة شيء منه.

وصدق الله تعالى: ﴿لِسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

وكوهين رغم عدائه إلا أنه أكثر تعقلاً وتهوراً من عبد المسيح

---

(١) أستاذ دراسات الشرق الأوسط بجامعة برنستون بالولايات المتحدة ورئيس معهد الدراسات اليهودية بالولايات المتحدة وهو صاحب مشروع «وثائق الجنيزم» الذي يضم الآلاف من الوثائق عن اليهود وتاريخهم وطوائفهم في القرون الوسطى.

(٢) بين الهلال والصليب، وضع اليهود في القرون الوسطى (٨٠).

الكندي، وكل الذي استطاع كوهين ذكره تبريراً لوجود ذكر لأخبار بني إسرائيل وأنبيائهم في القرآن الكريم، إنما هو رغبة من النبي ﷺ في استمالة يهود يثرب وغيرها إليه ليدخلوا معه في دعوته[١].

الوجه الثالث:

كيف يتدخل ابن سلام وكعب الأحبار في صياغة وكتابة القرآن كما يزعم عبد المسيح خصوصاً القرآن المدني، وكله مليء بذمّ اليهود ولعنهم وطردهم ونزع الملك والنبوة والكتاب منهم، وذكر كذبهم على الله وقتلهم الأنبياء وأكلهم السحت وقسوة قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة، وقولهم قلوبنا غلف وكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً، وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، وقولهم يد الله مغلولة، وقولهم: إن الله فقير ونحن أغنياء، واتخاذهم العجل، وذمهم نبي الله هارون وإغضاب نبي الله موسى وغير ذلك من كفرهم وقبائحهم وسوء أعمالهم؟؟! كيف يضع ابن سلام وكعب ما فيه أعظم الذم لقومه ونحلته؟!

هذا مما يكشف جانباً من عظيم فرية وكذب عبد المسيح في قوله السابق.

الوجه الرابع:

زعم عبد المسيح أن القرآن كتاب دفعه النبي ﷺ لابن عمه عليّ واستطاع ابن سلام وكعب الأحبار بعد ذلك التدخل ليكتبوه ويدخلوا فيه ما شاءوا، وهذه الأسطورة التي لا وجود لها إلا في ذهن من افتراها وكتبها وهو عبد المسيح.

(١) فقد قرأ النبي ﷺ القرآن على الناس مراراً، وسمعوه وحفظه

---

(١) بين الهلال والصليب، وضع اليهود في القرون الوسطى (٧٩).

منه عشرات الصحابة ﷺ، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦].

ولما توفي النبي ﷺ وكثر موت وقتل قرّاء القرآن من الصحابة خصوصاً في حروب الردة، قام أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ بجمع القرآن بمشورة من عمر رضي الله عنه وكتب في صحف حفظت ومنها نسخت مصاحف المسلمين بعد ذلك زمن عثمان رضي الله عنه، فنزل القرآن منازله ووقع مواقعه ولهجت به الألسن وحفظته الصدور وتلاه حتى صبيان المسلمين[١].

فالزعم بأنه لا يعلم به أحد وأن النبي عليه الصلاة والسلام دفعه لابن عمه عليّ وتدخل ابن سلام وكعب بعد وأدخلا فيه ما شاءا قصة خيالية لكنها اضطرارية تدل على عمق الأزمة النفسية والعلمية التي يعاني منها كاتب هذه الرسالة عبد المسيح الكندي.

(٢) يبدو أن هناك تبادلاً في الأدوار لمحاولة دفع قيمة القرآن الكريم وحجيته بين هؤلاء القساوسة من رؤوس النصارى وبين رؤوس الباطنية وزنادقتهم.

فقد زعمت طوائف الباطنية من الرافضة والإسماعيلية أن هذا القرآن الذي بأيدي المسلمين ليس هو الذي أنزل على محمد ﷺ وأن القرآن الحقيقي وسموه «مصحف فاطمة» دفعه النبي ﷺ لعليّ فهو مكتوم عند الأئمة من آل البيت[٢].

---

(١) انظر: لجمع القرآن: فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني (٩/ ١١) وما بعدها.

(٢) انظر رواياتهم في ذلك وأقوالهم: من كتب الإسماعيلية، كتاب: الافتخار، تأليف الداعي أبي يعقوب السجستاني، تحقيق مصطفى غالب، دار الأندلس (١١٧ ـ ١١٩)، وكتاب: سرائر وأسرار النطقاء، تأليف: جعفر بن منصور =

وزعم الباطنية أن مصحف فاطمة ﷺ ثلاثة أضعاف القرآن الموجود ومن ثم فلا عُتب على المستشرق «آرثر جِفري» أن يلتقط هذه الأكذوبة، ويصوغها بشكل أفحش في الكذب والبهتان فيقول: «لأن علياً حمل ما جمعه على ظهر ناقته وجاء به إلى الصحابة»(١).

(٣) توجد لهذا الزعم المسيحي الذي يمثله عبد المسيح خلفية يهودية أيضاً.

ففي التراث الكتابي اليهودي: إبراز لعلاقة حميمية جدّاً بين اليهود، وبين علي بن أبي طالب، ولفّق اليهود إذ ذاك أخباراً وقصصاً من عندهم عن علاقتهم به، وإحاطتهم به ومساعدتهم له، وتحاول تلك الكتابات اليهودية أن تجعل من اليهود أنصاراً محاربين إلى جانب علي بن أبي طالب في خلافته ضد معارضيه، وهذان شاهدان من تلك الكتابات اليهودية:

- المؤرخ اليهودي الألماني: «هايزيش غريتس» في كتابه «تاريخ اليهود» حيث يقول: «وقف اليهود البابليون والمسيحيون النساطرة إلى جانب علي بن أبي طالب، وقدموا له يد العون، بل يقال إن علياً لما أخذ بلدة الأنبار وهي «نيروز شابور» تجمع نحو من (٩٠) ألف يهودي بقيادة «ما إسحاق»، رئيس إحدى الكليات الدينية، لأداء الولاء للخليفة، الذي تميز دعم أتباعه له بنوع من اللامبلاة، وذلك سنة (٦٥٨م)»(٢).

- والثاني: المؤرخ والفيلسوف اليهودي الإسباني: «إبراهيم بن

= اليمن، دار الأندلس، بيروت (١٧٤ ـ ١٧٦)، ومن كتب الاثنى عشرية، كتاب: أوائل المقالات، للمامقاني (٩١ ـ ٩٥)، وكتاب: تفسير القمي (١/ ٩ ـ ١١) وغيرها.

(١) مقدمة تحقيقه لكتاب المصاحف، لابن أبي داود (٥)، ط. الأولى، ١٩٣٦م.

(٢) نقلاً عن: الإسلام المبكر في أربعة نصوص يهودية (١٣٩).

داود» في كتابه: «سفر القُبالة»، حيث يقول: «وخلال ذلك الزمن غزا المسلمون بابل، حيث توجه «مار إسحاق» مع (٩٠) ألف يهودي للقاء عليّ بن أبي طالب، فقابلهم بكل مودة»[١].

فها قد جمع هذا الشقي من كل بحر كذب قطرة، ليروج لهذا الباطل المكشوف.

وصدق الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٣].

فهو والباطنية والمشركين واليهود ما زادوا على اللغو في القرآن محاولة بائسة يائسة لإبطال عظمته وبلاغته وعلومه وحجيته القاهرة الباهرة.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [فصلت: ٢٦، ٢٧].

ومعنى قوله: «والغوا فيه»؛ أي: عارضوه بأي قول حتى لو كان لا طائل منه ولا معنى له؛ لأن اللغو: هو ما لا يعلم له حقيقة ولا تحصيل[٢].

وهذا ما صنعه عبد المسيح فما زاد على اللغو والكذب سالكاً مسالك الباطنية.

ثم ساق عبد المسيح فصلاً مطولاً فيه مغالطات كثيرة، وافتراءات مكشوفة عن القرآن الكريم سنعرض لها وسنذكرها مرقّمة بتوفيق الله.

[١] قال: «وأنت تعلم أن الحجاج بن يوسف جمع المصاحف وأسقط منها أشياء كثيرة».

---

(١) الإسلام المبكر في أربعة نصوص يهودية (١٤٥).
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٥/ ٢٣٢).

وهذا كذب مفضوح لوجوه:

الأول: أن القرآن الكريم جمع وحفظ وكتب وانتشرت المصاحف بأيدي المسلمين، وحفظه صبيانهم قبل الحجاج الثقفي بزمن، فلا يتمكن أحد مطلقاً بعد أن يسقط من القرآن شيئاً بعد أن نزل منازله والحمد لله.

الثاني: نُقل أن الحجاج عدَّل أحرفاً في المصحف هي أحد عشر حرفاً، روى أبو بكر بن أبي داود من طريق عباد بن صهيب عن عوف ابن أبي جميلة أن الحجاج بن يوسف غير في مصحف عثمان أحد عشر حرفاً فذكرها[(١)].

وهذا سند ضعيف لا تقوم به حجة، عباد بن صهيب أبو بكر الكُليبي البصري متروك الحديث.

قال البخاري: تركوه، وقال مرة: سكتوا عنه، وهذا تضعيف شديد؛ بل هو متروك الحديث.

وقال النسائي: متروك الحديث.

وتركه علي بن المديني[(٢)].

فهذه روايات منكرة تدل على كذب هذا الأمر.

الثالث: أن قائل هذا الكلام هو عوف بن أبي جميلة، وهو شيعي جلد؛ بل هو خطيب الشيعة بالكوفة[(٣)]، والحجاج الثقفي ناصبي[(٤)] معادي لعلي بن أبي طالب، فإلحاق الشناعة بالحجاج هوى مقصود عند هذا الراوي الشيعي، فكما ترى وهاء وتهاوي هذه الرواية فلا يلتفت إليها ولا يعول عليها إلا ضعيف الحجة واهي المسلك.

---

(١) كتاب المصاحف (٤٩)، وأعاده في (١١٧).

(٢) انظر: الكامل لابن عدي (١١٧٩)، ولسان الميزان لابن حجر (٣/ ٢٣٠).

(٣) انظر عنه وعن تشيعه: سير أعلام النبلاء للذهبي (٦/ ٣٨٣).

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٣٤٣).

ومع ذلك لما أراد عبد المسيح ذكرها صاغها صياغة تشعر أن الحجاج جمع مصاحف المسلمين، وأسقط منها أشياء كثيرة من سور وآيات، وهذا من الكذب المفضوح الدال على مدى اضطرار عبد المسيح فيلجأ لمثل هذا الحال.

ثم إن عبد المسيح لما لم ترو أحدوثته السابقة عن الحجاج ظمأه في الكذب والافتراء أعاد ذكرها مرة أخرى بزيادة أكاذيب غاية في الافتضاح، وأعظم دليل على اضطراره الشديد، فهو يريد الشُّنْعَة على كتاب الله المجيد لكنه بهذا الدافع يفتري الكذب الشنيع.

فقال في موضع آخر من رسالته: «ثم إن الحجاج بن يوسف لم يدع مصحفاً إلا جمعه، وأسقط منه أشياء كثيرة، فذكروا أنها كانت نزلت في بني أمية بأسماء قوم، وفي بني العباس بأسماء قوم، وزاد فيه أشياء، وكتبت نسخ بتأليف ما أراد الحجاج في ستة مصاحف، فوجه واحداً إلى مصر، وآخر إلى الشام، وآخر إلى المدينة، وآخر إلى مكة، وآخر إلى الكوفة، وآخر إلى البصرة، وعمد إلى المصاحف المتقدمة فغلى لها الزيت وسرحها فيه فتقطعت، كما فعل عثمان»[1].

* * *

[٢] زعم عبد المسيح أن علي بن أبي طالب لما يأس أن يصير الأمر إليه صار إلى أبي بكر بعد أربعين يوماً وقيل بعد ستة أشهر فبايعه فلما سأله أبو بكر: ما حبسك عنا وعن متابعتنا يا أبا الحسن؟ قال: كنت مشغولاً بجمع كتاب الله لأن النبي كان أوصاني بذلك».

ثم زعم أن هذه النسخة أخذها علي لما اشتد عليه الأمر وهي النسخة التي كانت متفقة مع الإنجيل الذي دفعه نسطوريوس إلى

(١) رسالة عبد المسيح (٤١).

النبي ﷺ، فلماذا قال لأبي بكر في البيعة الأولى: إني شغلت بجمع الكتاب»(١).

هذه مغالطات أخرى جمع فيها عبد المسيح بين الكذب على عليّ بن أبي طالب وعلى الصحابة، وعاد يجتر شبهته الأولى عن نسطوريوس التي مرّ ذكرها وتفنيدها.

والجواب من وجوه:

الأول: أن زعمه أن علياً تأخر عن بيعة أبي بكر فلما سأله قال: كنت مشغولاً بجمع القرآن، وأن النبي ﷺ أوصاه بذلك، هذا كذب وتزوير للحقائق التاريخية والواقعية.

فأما الواقع حقاً والثابت فعلاً هو ما رواه الإمام البخاري في أصح كتب الحديث وهو الجامع الصحيح بأوثق وأثبت الأسانيد قبل أن يخلق الله عبد المسيح هذا وأضرابه من المتلاعبين بالحقائق المزورين للوقائع.

فأخرج البخاري من حديث أم المؤمنين عائشة ﵂: **«عن عائشة، أن فاطمة ﵍، بنت النبي ﷺ أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول الله ﷺ مما أفاء الله عليه بالمدينة، وفدك وما بقي من خمس خيبر فقال أبو بكر: إن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث، ما تركنا صدقة، إنما يأكل آل محمد ﷺ في هذا المال»، وإني والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله ﷺ عن حالها التي كان عليها في عهد رسول الله ﷺ، ولأعملن فيها بما عمل به رسول الله ﷺ. فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئاً، فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك، فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت، وعاشت بعد النبي ﷺ ستة أشهر، فلما توفيت دفنها زوجها علي**

---

(١) رسالة عبد المسيح (٤٢).

ليلاً، ولم يؤذن بها أبا بكر وصلى عليها، وكان لعلي من الناس وجه حياة فاطمة، فلما توفيت استنكر علي وجوه الناس، فالتمس مصالحة أبي بكر ومبايعته، ولم يكن يبايع تلك الأشهر، فأرسل إلى أبي بكر: أن ائتنا ولا يأتنا أحد معك، كراهية لمحضر عمر، فقال عمر: لا والله لا تدخل عليهم وحدك، فقال أبو بكر: وما عسيتهم أن يفعلوا بي، والله لآتينهم، فدخل عليهم أبو بكر، فتشهد علي، فقال: إنا قد عرفنا فضلك وما أعطاك الله، ولم ننفس عليك خيراً ساقه الله إليك، ولكنك استبددت علينا بالأمر، وكنا نرى لقرابتنا من رسول الله ﷺ نصيباً، حتى فاضت عينا أبي بكر، فلما تكلم أبو بكر قال: والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصل من قرابتي، وأما الذي شجر بيني وبينكم من هذه الأموال، فلم آل فيها عن الخير، ولم أترك أمراً رأيت رسول الله ﷺ يصنعه فيها إلا صنعته، فقال علي لأبي بكر: موعدك العشية للبيعة، فلما صلى أبو بكر الظهر رقي على المنبر، فتشهد، وذكر شأن علي وتخلفه عن البيعة، وعذره بالذي اعتذر إليه، ثم استغفر وتشهد علي، فعظم حق أبي بكر، وحدث: أنه لم يحمله على الذي صنع نفاسة على أبي بكر، ولا إنكاراً للذي فضله الله به، ولكنا نرى لنا في هذا الأمر نصيباً، فاستبد علينا، فوجدنا في أنفسنا، فسر بذلك المسلمون، وقالوا: أصبت، وكان المسلمون إلى علي قريباً، حين راجع الأمر المعروف»(١).

ويظهر أن عبد المسيح هذا اطلع على مذهب الشيعة وأكاذيبهم، فرأيناه سابقاً كيف أخذ فكرة المصحف الذي يزعمون أن النبي ﷺ خصّ أهل بيته به سموه مصحف فاطمة.

والآن أخذ منهم فكرة الوصية مع المفارقة، فالشيعة تزعم كذباً أن النبي ﷺ أوصى بالأمر بعده لعليّ بن أبي طالب، وأنه الخليفة والإمام بعده.

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٢٤٠، ٤٢٤١).

وعبد المسيح هنا يزعم أن النبي ﷺ أوصى علياً بالمصحف الذي جمعه نسطوريوس.

وهذا وذاك مما قال الله تعالى فيه وفي ردِّه: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: ١١١].

وقد أكذبتهم أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

فأخرج البخاري في صحيحه **عَنِ الأَسْوَدِ، قَالَ: ذُكِرَ عِنْدَ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَوْصَى إِلَى عَلِيٍّ، فَقَالَتْ: مَنْ قَالَهُ؟ «لَقَدْ رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَإِنِّي لَمُسْنِدَتُهُ إِلَى صَدْرِي فَدَعَا بِالطَّسْتِ، فَانْخَنَثَ فَمَاتَ فَمَا شَعَرْتُ فَكَيْفَ أَوْصَى إِلَى عَلِيٍّ؟»**[1].

بل أكذبهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بنفسه وكشف زورهم وهتك إفكهم، فقد سأله جمهرة أصحابه الملازمين له في أيام خلافته حيث لا تقية ولا مواربة.

- فأخرج البخاري في الصحيح عن أبي جحيفة وهب بن عبد الله السُّوائي رضي الله عنه قال: قلت لعليّ: هل عندكم كتاب؟

هذا لفظ السؤال عند البخاري في كتاب العلم[2] من رواية مطرِّف عن الشعبي عن أبي جحيفة.

ولفظ السؤال عند البخاري في كتاب الجهاد[3]: «هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟».

ولفظ السؤال عند البخاري في كتاب الديات[4]: «هل عندكم شيء ممّا ليس في القرآن؟»

فكان جوابه رضي الله عنه صريحاً، ولعبد المسيح والشيعة مكذباً وكاشفاً

---

(١) صحيح البخاري رقم (٤٤٥٩).
(٢) حديث رقم (١١١).
(٣) حديث رقم (٣٠٤٧).
(٤) حديث رقم (٦٩١٥).

وفاضحاً: فقال: «لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا كتاب الله أو فهم أعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة، قال أبو جحيفة: قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، ولا يُقتل مسلم بكافر».

وسأله هذا السؤال بعينه أيضاً من خواص أصحابه والمناصرين له قيس بن عباد(١) والأشتر بن مالك النخعي(٢).

فعَنِ الْحَسَنِ البصري عَنْ قَيْسِ بْنِ عَبَّادٍ، قَالَ: انْطَلَقْتُ أَنَا وَالْأَشْتَرُ، إِلَى عَلِيٍّ، فَقُلْنَا: هَلْ عَهِدَ إِلَيْكَ رسول اللهِ ﷺ شَيْئاً لَمْ يَعْهَدْهُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً؟ فقَالَ عليّ: لَا، إِلا مَا فِي هَذِه الصحيفة فِي قِرَابِ سَيْفِي، فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى أَخْرَجَ الصَّحِيفَةَ، فَإِذَا فِيهَا: «الْمُؤْمِنُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ»(٣).

فهذه هي الحقائق المنقولة بالأسانيد الثابتة، في كتب الحديث والرواية عند أهل الإسلام، وكذب الشانؤون الحاقدون.

بل ثبت ثبوتاً نصياً بما لا يدع خيط شبهة ولا طرف كذب لأحد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﵁ أنه نصّ نصّاً صريحاً: أن أبا بكر الصديق هو أول من جمع كتاب الله في مصحف، وهو أعظم الناس أجراً في المصاحف.

فأخرج أبو بكر بن أبي داود في كتاب المصاحف عَنْ عَبْدِ خَيْرٍ(٤)

---

(١) هو: قيس بن عباد الضبعي أبو عبد الله البصري، ثقة مخضرم، ذو حلم وعبادة، انظر: تهذيب التهذيب (٤/ ٥٤٥)، والتقريب (٥٥٨٢).

(٢) هو: الأشتر بن مالك النخعي من قادة جيوش عليّ وخواصه، انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٤).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٩٩٣)، والنسائي (٤٧٣٤، ٤٧٤٥).

(٤) هو: عبد خير بن يزيد بن جوني الهمداني، تابعي مخضرم كوفي ثقة من أثبت الناس في الرواية عن عليّ كما قال الإمام أحمد، انظر: التهذيب (٣/ ٣١٢).

قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيّاً ﷺ يَقُولُ: «أَعْظَمُ النَّاسِ أَجْراً فِي الْمَصَاحِفِ أَبُو بَكْرٍ رَحْمَةُ اللهِ عَلَى أَبِي بَكْرٍ هُوَ أَوَّلُ مَنْ جَمَعَ كتاب الله»(١).

ولعل عبد المسيح اطلع على رواية أخرجها ابن أبي داود فاستند عليها وهي هذه: عن مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْأَحْمَسِيِّ قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ فُضَيْلٍ، عَنْ أَشْعَثَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ النَّبِيُّ ﷺ أَقْسَمَ عَلِيٌّ أَنْ لَا يَرْتَدِيَ بِرِدَاءٍ إِلَّا لِجُمُعَةٍ حَتَّى يَجْمَعَ الْقُرْآنَ فِي مُصْحَفٍ فَفَعَلَ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَ أَيَّامٍ أَكَرِهْتَ إِمَارَتِي يَا أَبَا الْحَسَنِ؟ قَالَ: «لَا وَاللهِ إِلَّا أَنِّي أَقْسَمْتُ أَنْ لَا أَرْتَدِيَ بِرِدَاءٍ إِلَّا لِجُمُعَةٍ فَبَايَعَهُ ثُمَّ رَجَعَ»(٢).

وهذا الأثر ضعيف السند ومرسل ومنكر، ومخالف لما ثبت بالأسانيد الصحيحة خصوصاً حديث أم المؤمنين عائشة السابق ذكره.

انفرد به أشعث وهو لين الحديث.

ومحمد بن سيرين لم يدرك وفاة النبي ﷺ، فهي رواية مرسلة، ولفظها منكر مخالف لما تقدم من الثابت من الأحاديث والروايات.

لكنه لا عُتب على عبد المسيح لأنه يريد التشنيع فيتعامى عن تلك الروايات والأحاديث الصحيحة الثابتة ويذهب يتمسك بمثل هذه الرواية الضعيفة المرسلة، مع أنه يزعم أنه إنما اعتمد على المنقول الثابت وهو يخالف ذلك، فقد قال في رسالته مخاطباً الهاشمي: «وأنت تعلم أننا لم نكتب إليك بشيء من ذات أنفسنا، ولم نثبت إلا الصحيح ممّا نَقَلَتْه رواتكم العدول عندكم، المأخوذ بقولهم المعوَّل في الدين على ما نقلوه من هذه الأخبار وغيرها في صحتها وأنهم لم يزيدوا ولا مالوا إلى أحد الفريقين»(٣).

---

(١) كتاب المصاحف (٥ ـ ٦) بعدة طرق إلى عبد خير، وحسّن الحافظ ابن حجر إسناده في فتح الباري (١٣/١٩).

(٢) كتاب المصاحف (١٠).

(٣) رسالة الكندي (٤٧).

فقد كشفنا لك الحال.

* * *

[٣] قال عبد المسيح عن جمع القرآن: «وجمعوا ما كان حفظه الرجال من أجزائه كسورة التوبة التي كتبوها عن الأعرابي الذي جاءهم من البادية وغيره من الشاذ والوافد وما كان مكتوباً على اللخاف والعُسُب... وكانت لهم صحف وأدراج على منهاج أدراج اليهود وذلك من حيلة اليهود»(١).

والرد من وجوه:

• **الأول:**

لم يكن للصحابة مصحف ولا صحف مكتوبة في أدراج ولفائف مطوية كبعض كتب يهود، ولا يعرفون ذلك ولم يكن في العرب كلهم شيء من ذلك.

وإنما اعتمادهم على الحفظ فأناجيلهم صدورهم، والكتابة في المتاح لديهم من الألواح الخشبية والعُسُب واللخاف والعظام الكبيرة ونحو ذلك.

• **الوجه الثاني:**

كذب عبد المسيح في زعمه أن الصحابة الذي شاهدوا التنزيل وسمعوا القرآن من فم رسول الله ﷺ وحفظوه وضبطوه إنما كتبوا سورة بحجم سورة التوبة من أعرابي مجهول قدم عليهم من البادية، هذا كذب صريح فجّ باطل.

• **الوجه الثالث:**

ما يصنع هذا النصراني الحاقد حين جعل القرآن البليغ المعجز

---

(١) رسالة الكندي (٤٤).

المتحدى به الجن والأنس أن يأتوا بشيء من مثله جعله ملفقاً، فما أبقى عبد المسيح أحداً إلا أدخله في تأليف القرآن.

فاليهود كتبوا ودسوا.

والنصارى ـ نسطوريوس ـ كتب القرآن.

والآن أعرابي مجهول هو الذي أملى عليهم سورة التوبة.

فما زاد عبد المسيح على ما ذكره سفهاء المشركين وجهالهم، من أن محمداً يتلقى القرآن من مصادر شتى.

فهم ذكروا:

• مرةً أن أعجمياً رومياً أملى القرآن على محمد ﷺ فرد الله عليهم وأكذبهم، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

فقلدهم عبد المسيح فزعم أن من سمّاه نسطوريوس هو الذي علّم محمداً ﷺ القرآن كما مرّ ذلك.

• ومرةً: زعموا أنها أساطير الأولين وأقاصيصهم طلب النبي ﷺ كتابتها له من الأعراب والكهان ونحوهم، فأكذبهم الله وكشف باطلهم فقال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: ٥].

فقلدهم عبد المسيح فزعم أن أقاصيص القرآن من وضع عبد الله بن سلام وكعب الأحبار كما مرّ ذلك.

• ومرةً زعموا مكابرة وفجاجة وكذباً أنهم باستطاعتهم أن يقولوا مثل القرآن، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنفال: ٣١].

• ومرةً فعلوا وزعموا ما قلّدهم فيه عبد المسيح، فادّعى أن هذا القرآن ما هو إلا إفك جاء به محمد ﷺ بمعونة قوم آخرين جاءوا من كل مكان، فما بقي إلا أن يأتي أعرابي مجهول ليملي على أصحاب رسول الله ﷺ سورة بحجم سورة التوبة.

فقال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾ [الفرقان: ٤].

فرد الله عليهم بأن ما في القرآن من علوم الغيب وبدأ الخلق وعظيم الأحكام ما لا يعلمه إلا علّام الغيوب مما يعجز عن أن يأتي بشيء منها أحد من البشر مما زعمه هؤلاء الكاذبون فقال تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان: ٦].

إني أعلم ما الذي أغاظ عبد المسيح وأحنقه من سورة التوبة على وجه الخصوص حتى ادعى ما ادّعاه، ففيها قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ

فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ [التوبة: ٢٩ ـ ٣٥].

* * *

[٤] تكلم عبد المسيح عن مصير المصاحف التي كتبها أمير المؤمنين عثمان ووجهها للأمصار بكلام يفتقد لأقل المعايير العلمية الصحيحة لا من الناحية التاريخية، ولا من غيرها، فهو يخترع من عنده أحداثاً ثم يصوغها كأنها حقائق ووقائع مسلمة.

يقول عبد المسيح عن مصحف مكة: «فلما كان في تلك الأيام وهو آخر سَلْبٍ سلبت الكعبة سنة (٢٠٠هـ) ليس أن أبا السرايا سلبها؛ بل في تلك الفتنة فقد قيل: احترق في ما احترق»[(١)].

الجواب من وجهين:

- **الأول:**

أما المصاحف فقد قال الإمام أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني: «أكثر العلماء على أن عثمان بن عفان ﷺ لما كتب المصحف جعله على أربع نسخ وبعث إلى كل ناحية من النواحي بواحدة منهن فوجّه إلى الكوفة إحداهن وإلى البصرة أخرى وإلى الشام الثالثة وأمسك عند نفسه واحدة وقد قيل إنه جعله سبع نسخ ووجّه من ذلك أيضاً نسخة إلى مكة ونسخة إلى اليمن ونسخة إلى البحرين والأول أصح وعليه الأئمة»[(٢)].

فالثابت الذي عليه أكثر علماء القرآن والقراءات أنها أربعة مصاحف، وليس منها مصحف مكة.

لأن مصحف عثمان لأهل الحجاز وأرض العرب قاطبة، ومن هذه

---

(١) رسالة عبد المسيح (٥).

(٢) كتاب المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار (٩).

المصاحف نسخت مصاحف المسلمين بعد، فعلى فرض أن بعضها فُقِدَ فلا ضير فقد نسخت المصاحف وانتشرت بأيدي المسلمين.

• **الوجه الثاني:**

أما قصة أبي السرايا وسلب الكعبة، فهي حادثة متأخرة وقعت سنة (١٩٩هـ) على ما ذكره الطبري، وقد تتبعت جميع روايات الطبري في تاريخه فلم أجد أي ذكر للمصحف واحتراقه؛ بل لم يقع احتراق أصلاً[١].

ولكن عبد المسيح وجد تلك الأحداث والفتنة مدونة في كتب التواريخ فلقطها ونسب إليها احتراق مصحف مكة. كما زعم.

ونحن نقول: سواء أكان مصحف مكة أو لم يكن، وسواء بقي إلى سنة (٢٠٠هـ) ثم احترق أم لم يبق فلا ضير، فقد نسخ المسلمون مصاحفهم من تلك المصاحف العثمانية، ولا يعقل أن يبقى أهل مكة إلى سنة (٢٠٠هـ) ليس لهم إلا ذاك المصحف فلما احترق بقوا هكذا بلا مصحف؟!

أما مصحف عثمان بالمدينة فقال عبد المسيح عنه: «وأما مصحف المدينة فَفُقِد في أيام الحرَّة وهي أيام يزيد بن معاوية».

الجواب من وجهين:

الأول: وقعة الحرة كانت أواخر سنة (٦٣هـ) وقد امتلأت دور المسلمين بالمدينة وغيرها ومساجدهم من المصاحف، فلو فرضنا فَقْد مصحف المدينة أيام الحرّة فأي ضير في ذلك؟!

---

(١) أبو السرايا اسمه: السَّرِيُّ بن منصور، وهو قائد جيش محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن حسن بن حسن الهاشمي الخارج على الخليفة العباسي المأمون، وانظر تلك الأحداث وسلب الكعبة وتجريدها في: تاريخ الطبري (٥/ ١٢٢ _ ١٢٥).

الثاني: أن مصحف عثمان وهو المصحف الإمام بقي محفوظاً حتى رآه أعيان علماء القرن الثالث الهجري، وهذا شاهد عيان رأى هذا المصحف وقرأه.

ـ فأخرج الإمام أبو عمرو الداني بسنده عن علي بن عبد العزيز قال: حدثنا أبو عبيد القاسم بن سلام[١] قال: «رأيت في الامام مصحف عثمان بن عفان اسْتُخْرِجَ لي من بعض خزائن الأمراء، ورأيت فيه أثر دمه»[٢].

فهذا شاهد إمام حافظ ثقة مأمون قال إنه رأى المصحف مصحف أمير المؤمنين عثمان، والذي يدل على صدقه وهو صادق بار أمران:

الأول: رؤيته آثار وبقايا دم أمير المؤمنين الشهيد عثمان ﷺ.

الثاني: في بقية الرواية السابقة قول أبي عبيد: «فرأيت في سورة البقرة: «خطاياكم» بحرف واحد، والتي في الأعراف: «خطيئاتكم» بحرفين».

فهذا شاهد فاحص مدقّق، وصدق ﷺ.

فهذا أبو عبيد المتوفى في منتصف القرن الثالث رأى مصحف عثمان الإمام، فبطل ما زعم عبد المسيح أن مصحف المدينة الإمام فُقِد أيام وقعة الحرة زمن يزيد بن معاوية، والحرة كانت في أواخر سنة (٦٣هـ) فأين هذا وأين ما ذكره الإمام أبو عبيد ﷺ؟!.

* * *

[٥] زعم عبد المسيح: «أن سورة النور كانت أطول من سورة

---

(١) الإمام الشهير صاحب التصانيف، ومن أشهرها كتاب: فضائل القرآن ومعالمه وآدابه، توفي أبو عبيد ﷺ سنة (٢٢٤هـ)، انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٠/ ٤٩٠).

(٢) كتاب المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار (١٥)، وعلي بن عبد العزيز راوي الأثر عن أبي عبيد هو البغوي صاحب المسند الكبير، قال الدارقطني: ثقة مأمون، انظر: سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٤٨).

البقرة، وأن الأحزاب مبتورة ليست بتمامها، وأن سورة التوبة لم يفصلوها بسطر بسم الله الرحمٰن الرحيم عن الأنفال، وأن ابن مسعود قال عن المعوذتين لما أثبتوهما في المصحف: «لا تزيدوا فيه ما ليس منه»، وقول عمر على المنبر: «لا يقولَنّ أحد أن آية الرجم ليست في كتاب الله.... فلولا أن يقال عمر زاد في كتاب الله لزدتها، وقوله في آخر خطبها: «إني لا أعلم أن أحداً قال إن المتعة ليست في كتاب الله بل قد كنا قرأنا آية المتعة ولكنها سقطت، فلا جزى الله من أسقطها خيراً، فإنه أوءتمن في أداء الأمانة ولا نصح لله ولا لرسوله، فقد أسقط المموه عليه من القرآن شيئاً كثيراً....وأن أبي بن كعب قال: «سورتان كانوا يقرؤونها فيه وهما سورتا القنوت والوتر وهي «اللَّهُمَّ إنا نستعينك ونستغفرك ونستهديك، ونؤمن بك ونتوكل عليك إلى آخر الوتر»(١).

وهذا ينظر إليه من وجوه:

- **الأول:**

أما زعمه أن سورة النور كانت أطول من سورة البقرة وأن الأحزاب مبتورة، ليست بتمامها فهو زعم باطل، وقائله كذاب مفتر.

وإنما الذي نقل في ذلك ما يتعلق بسورة الأحزاب وهما روايتان فلننظر فيهما.

الرواية الأولى: قال أبو عبيد القاسم بن سلام: «حدثنا ابن أبي مريم عن ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمن رسول الله ﷺ مائتي آية، فلما كتب عثمان المصاحف لم يقدر منها إلا على ما هي الآن»(٢).

---

(١) رسالة عبد المسيح (٥٢).

(٢) كتاب فضائل القرآن (٢/١٤٦/ ٧٠٠).

وهذا سند ضعيف من أجل ابن لهيعة.

ابن أبي مريم هو سعيد بن الحكم المصري الجمحي وهو ثقة ثبت[١].

وأما ابن لهيعة فهو ضعيف[٢].

وأبو الأسود هو محمد بن عبد الرحمٰن بن نوفل هو يتيم عروة وثقوه.

فهذا النص مع ما في سنده، إلا أن كلام عائشة عن سورة الأحزاب لا سورة النور، وجواب هذا وكذا ما بعده: هو ما قاله الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام فبّوب على هذين الأثرين وغيرهما فقال: «باب ذكر ما رُفع من القرآن بعد نزوله ولم يثبت في المصاحف».

والمقصود إن صح شيء من ذلك فالجواب أنها رفعت آيات كثيرة كانت قد أنزلت وذلك في العرضة الأخيرة واستقر القرآن على ما حفظه كبار الصحابة وأثبته الشيخان في الصحف الأولى التي كتبت أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وبعض العلماء يرد هذه الروايات ويطعن فيها أصلاً لضعف رواتها وانفرادها ومصادمتها ما تواتر نقله من القرآن، وهذه طريقة القاضي أبي بكر بن العربي وغيره.

وبعضهم يُفَرِّق بين النَّسخ والإنْتساء، فيرون أن هذا الذي ذُكر عن سورة الأحزاب ونظائره مما ينسيهم الله إياه ويرفعه من صدورهم،

---

(١) انظر: التقريب لابن حجر (٣٠٠)، وتهذيب الكمال (١٠/ ٣٩١).

(٢) نقل البخاري عن الحميدي: أن يحيى بن سعيد القطان كان لا يروي عن ابن لهيعة شيئاً، وضعفه ابن مهدي، روى عنه البخاري لكن مقروناً بحيوة بن شريح وأبهمه أيضاً، وكذا مسلم روى له لكن مقروناً بعمرو بن الحارث. انظر: التهذيب (٣/ ٢٢٧).

ويأمرهم بالإعراض عن تلاوته وكتبه في الصحف، فيندرس وذلك إنما يكون في زمان النبي ﷺ فيمح الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب، وإنما ثبت ما ثبت من القرآن في تلك العرضة الأخيرة، وهذه طريقة أبي بكر الرازي وابن ظفر وغيرهما.

وفي كلام عائشة ما يشعر بذلك، فإنها قالت: «فلما كتبت المصاحف لم يُقْدر منها إلا على ما هي عليه الآن»، فهذا رفع من صدورهم وإنساءٌ لهم، ليرفع الله منه ما شاء ويثبت ما أراد إثباته مما تواتر نقله وحفظه وكتب في المصاحف.

وفَرَّق ابن ظفر في تفسيره «ينبوع الحياة» بين النسخ والإنساء، فالنسخ: رفع التلاوة وما تضمنته من حكم، وأما الإنساء: فرفع التلاوة مع بقاء علمهم بالحكم كحكم الرَّجم كما جاء عن عمر وأبيّ وغيرهما، مما لا يثبت قرءاناً لفقده شرط التواتر لكن بقي العمل بحكم الرجم للمحصن لفعل النبي ﷺ والخلفاء من بعده[١].

والرواية الثانية: قال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم وإسماعيل بن جعفر، عن المبارك بن فضالة، عن عاصم بن أبي النجود، عن زر بن حبيش، قال: قال لي أبي بن كعب: يا زر كأين تقرأ سورة الأحزاب؟ قلت: اثنتين وسبعين آية، أو ثلاثاً وسبعين آية. فقال: «إن كانت لتعدل سورة البقرة، وإن كنا لنقرأ فيها آية الرجم»[٢].

وهذا سند ضعيف: المبارك بن فضالة أبو فضالة البصري لين كثير الخطأ شديد التدليس[٣].

---

(١) انظر: الإتقان للسيوطي (٢/ ٣٤).
(٢) كتاب: فضائل القرآن (٢/١٤٦/٧٠١).
(٣) انظر: تهذيب التهذيب (٥/ ٣٤١).

وعاصم بن أبي النجود، محلّه الصدق لكن له أوهام، وهو حجة في القراءة[١].

وأما زرّ فهو ثقة مخضرم.

والكلام على هذا الأثر كسابقه.

ومنه يظهر أن ما حاول أن يشغِّب به عبد المسيح، لا طائل من ورائه، ونحن نقول له إن هذا القرآن الموجود بأيدي المسلمين هو الكتاب المنزل المعجز، المتحدى به، فأبطل إعجازه واكسر التحدي إن استطعت. أما هذه التمحلات فلا تسمن ولا تغني من جوع، ولا يلجأ لها ويذكرها ظاناً أنه أتى بالبرهان إلا واهي الحجة، معدوم البرهان، فليس بمثل هذا يغطى ضوء النهار المشرق.

وأما ما نسبه إلى ابن مسعود من قوله عن المعوذتين لما أثبتوهما في المصاحف: «لا تزيدوا فيه ما ليس منه».

فنقول بتوفيق الله تعالى: أما ما نُقل عن ابن مسعود في «قل أعوذ برب الفلق» «قل أعوذ برب الناس» فروي عنه واشتهر عنه ذلك.

فأخرج الإمام أحمد والبزار وغيرهما عن ابن مسعود أنه كان يحكّ المعوذتين من المصحف، ويقول: لا تخلطوا القرآن بما ليس منه، إنهما ليستا من كتاب الله، وإنما أمر النبي ﷺ أن يتعوذ بهما»[٢].

وأخرج البخاري في الصحيح عن زرّ بن حبيش قال: سألت أبي بن كعب قلت: أبا المنذر، إن أخاك ابن مسعود يقول كذا وكذا، فقال أبيّ: سألت رسول الله ﷺ فقال لي: قيل لي فقلتُ، قال: فنحن نقول كما قال

(١) تهذيب التهذيب (٥/ ٣٨).
(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٣٥/ ح٢١١٨٨)، والبزار (١٥٨٦) وإسناده صحيح، انظر: الدر المنثور للسيوطي (٨/ ٦٨٣).

رسول الله ﷺ»[١].

قال الحافظ ابن كثير: «هذا مشهور عند كثير من القراء والفقهاء: أن ابن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه»[٢].

وهذا لا يقدح بحمد الله في كون المعوذتين من القرآن، وأما الجواب عن ما نقل عن ابن مسعود فقد سلك العلماء في ذلك طرقاً:

الأول: أن ذلك انفرد به ابن مسعود ولم يتابعه أحد من الصحابة، وقد ثبتت عندهم بإجماعهم أن النبي ﷺ كان يقرأ بهما ولذلك أثبتوهما في المصاحف.

قال الحافظ البزار بعد روايته لأثر ابن مسعود السابق: «لم يتابع ابن مسعود أحد من الصحابة، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قرأ بهما في الصلاة، وأثبتتا في المصحف»[٣].

الطريق الثاني: وسلك فريق من العلماء أن ذلك لم يصح من ابن مسعود ولا يمكن أن يقدح في قرآنية شيء من القرآن العظيم بمثل هذه المنقولات التي يدخل الضعف والشذوذ في أسانيدها أو ألفاظها.

وهذا مسلك الباقلاني حيث قال: «أما دعوى من ادّعى أن عبد الله بن مسعود أنكر أن تكونَ المعوذتان قرآناً منزلاً من عند الله تعالى وجحدَ ذلك فإنها دعوى تدلُّ على جهل من ظن صحتها وغباوته، وشِدةِ بُعده عن التحصيل، وعلى بُهتٍ من عرفَ حال المعوذتين وحالَ عبد الله بن مسعود وسائر الصحابة؛ لأن كل عاقلٍ سليم الحسّ يعلمُ أن عبد الله لم يجحد المعوذتين ولا أنكرهما، ولا دفعَ أن يكون النبي صلى الله عليه تلاهما على الأمّة، وأخبر أنهما منزلتان من عندِ الله تعالى، وأنه أُمِرَ بأن

(١) البخاري رقم (٤٩٧٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٧٠٢).

(٣) مسند البزار (٥/ ٢٩).

يقولَهما على ما قيل له في أولهما، وكيف يمكنُ ابن مسعودٍ أو غيره من الصحابة جحدُ ذلك، وإنكارُه، وذلك مما أعلنه الرسولُ وأظهره وتلاه وكرّره وصلى به وجهر به في قراءته، وأخبرَ أنّه من أفضل ما أُنزل عليه، وكشف ذلك وأبانه.

إنّ عبد الله بن مسعود لا يجوزُ منه مع عقله، وتمييزه، وجَرَيان التكليف عليه، أن يحمل نفسه على جحد المعوذتين وإنكار نزولهما وأن الله تعالى أوحى بهما إلى نبيّه ﷺ، ومما يوضح ذلك، ويُبيّنه أنّه لو كان قد جحد المعوّذتين وأنكرَهما مع ظهور أمرهما وإقرار جميع الصحابة بهما لم يكن بُد من أن يدعوه داعٍ إلى ذلك وأن يكون هناك سبب بعثه عليه، ولو كان هناك سبب حداه على ذلك وحرّكه للخلاف فيه لوجب في موضوع العادة أن يحتجّ به، ويذكره ويعتد به، ويُبدِيَ ويُكثِرَ اعتداده له، وتعويله عليه، وظهوره عنه وانتشاره وحصول العلم به، إذ كان خلافاً في أمرٍ عظيم وخطرٍ جسيمٍ، وأعظمَ مما نُهي عنه من الإقامةِ على التطبيق في الصلاة[(١)]، وقوله في تزويج بنتِ واشق[(٢)]، وخلافه في الفرائض. وغير ذلك، مما اشْتُهِرَ من مذاهبه، . . . ولو كان منه هذا

---

(١) التطبيق في الصلاة: جعل اليدين بين الفخذين في الركوع، انظر: اللسان (١٢/ ٨٠)، وكان هذا فعل النبي ﷺ في أول الأمر ثم نسخ هذا بما ثبت في حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.

(٢) وقصتها كما أخرجها أبو داود (٢١١٦) أن عبد الله بن مسعود، أتي في رجل بهذا الخبر، قال: «فاختلفوا إليه، شهراً ـ أو قال: ـ مرات، قال: فإني أقول فيها إن لها صداقاً كصداق نسائها، لا وكس، ولا شطط، وإن لها الميراث وعليها العدة، فإن يك صواباً، فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان، فقام ناس من أشجع فيهم الجراح، وأبو سنان، فقالوا: يا ابن مسعود نحن نشهد أن رسول الله ﷺ قضاها فينا في بروع بنت واشق وإن زوجها هلال بن مرة الأشجعي كما قضيت قال: ففرح عبد الله بن مسعود فرحاً شديداً حين وافق قضاؤه قضاء رسول الله ﷺ».

الخلاف مع الصّحابة، لوجب أن يَعظُمَ ردهم عليه، ويغلظ قولهم له، والحكمُ عليه بالكفر والردة، وأنه بمثابة من جحدَ جميعَ كتاب الله، وأن يطالبوا الإمامَ بإقامةِ حق الله عليه في ذلك، وفي عدم ظهور ذلك كله، وحدوثه، أوضح دليل على أنه لم يكن منه قط جحد المعوذتين، وإنكار لكونهما قرآناً منزلاً»(١).

وسلك الإمام النووي هذا المسلك أيضاً، فاعتبر ما نقل عن ابن مسعود باطل وليس بصحيح(٢)، وكذا ابن حزم(٣).

وقد ظهر لي بالتأمل والنظر الأمور الآتية:

الأمر الأول: أن عبارة: «إن ابن مسعود حكّ المعوذتين من المصحف» في النفس منها شيء والظاهر أنها من تصرف الرواة لأمر عقلي واضح:

فإن كان المراد أنه حكهما من مصحفه فهذا إقرار منه بأنه كتبها بنفسه في مصحفه على أنهما قرآناً، فكيف يتراجع بعد ويعتقد عدم قرآنيتهما فيحكهما.

وإن كان المراد أنه يحكهما من مصاحف المسلمين فهذا أبعد، فلا يمكن أن يعمد ابن مسعود إلى مصاحف المسلمين وقد تفرقت بالأمصار، وسارت بها الركبان، وتليت في محاريب الصلاة، فيحك ذلك كله، وهذا لا يعقل ولا يقبل، وانظر الثاني.

---

(١) كتاب الانتصار للقرآن لأبي بكر الباقلاني (١/ ٣٠٢ ـ ٣٠٤).

(٢) قال النووي في المجموع شرح المهذب (٣/ ٣٩٦): وأجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن، وأن من جحد منهما شيئاً كفر، وما نقل عن ابن مسعود باطل، ليس بصحيح.

(٣) قال ابن حزم في المحلى (١/ ٣٢): «وكل ما روي عن ابن مسعود من أن المعوذتين وأم القرآن لم تكن في مصحفه فكذب موضوع لا يصح».

الأمر الثاني: نص ابن مسعود أنه إنما أخذ من فيّ رسول الله ﷺ سبعين سورة، وأحكمها وضبطها وحفظها، وهي التي أودعها مصحفه الخاص به، وهذه السبعين أكثرها من القرآن المكي القديم النزول، فيظهر أن مصحفه ليس فيه سورٌ كثيرة مما سمعه وضبطه وكتبه غيره كزيد بن ثابت وأبي بن كعب وغيرهما وما تفرق في مصاحف الصحابة وصدورهم هو الذي جمعه الصِّدِّيق في تلك الصحف ثم عثمان في المصحف الجامع الإمام، وفيه المعوذتان، وانظر الثالث.

الأمر الثالث: ويزيد الأمر وضوحاً ما نقل أن مصحف ابن مسعود ليس فيه سورة الفاتحة وقرآنيتها محل إجماع حتى من ابن مسعود، وهي مما اختص به النبي ﷺ، وانفرد بها القرآن الكريم عن سائر كتب الله المنزلة.

فعن محمد بن سيرين البصري الإمام التابعي الكبير قال: «إن أُبيّ بن كعب كان يكتب فاتحة الكتاب والمعوذتين... ولم يكتب ابن مسعود شيئاً منهن، وكتب عثمان بن عفان فاتحة الكتاب والمعوذتين»[(١)].

وليس ذلك أن ابن مسعود ينكر أن تكون الفاتحة من القرآن؛ بل هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيه النبي ﷺ، وإنما بيّن ابن مسعود عذره في ذلك: «أنه لو كتبها في أول المصحف لكتبها في أول كل شيء».

فعن إبراهيم بن يزيد النخعي التابعي الشهير قال: «كان عبد الله لا يكتب فاتحة الكتاب في المصحف، وقال لو كتبتها لكتبت في أول كل شيء»[(٢)].

---

(١) أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور للسيوطي (١/ ١٠)، ومحمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ١٨٣).

(٢) الدر المنثور للسيوطي (١٠).

فاكتفى بحفظها من عموم المسلمين وقيامهم بها في الصلاة وشهرتها عن كتابتها في مصحفه فكذلك يقال عن المعوذتين: اكتفى بشهرتهما وحفظ المسلمين لها، ودخولها في رقاهم وتعويذاتهم وأذكارهم بكرة وعشياً.

قال ابن قتيبة: «لكنه ذهب فيما يظن أهل النظر إلى أن القرآن إنما كتب وجمع بين اللوحين مخافة الشك والنسيان، والزيادة والنقصان، ورأى ذلك لا يجوز على سورة الحمد لقصرها، ولأنها تُثَنَّى في كل صلاة وكل ركعة، ولأنه لا يجوز لأحد من المسلمين ترك تعلمها وحفظها كما يجوز ترك تعلم غيرها وحفظه إذ كانت لا صلاة إلا بها»[1].

الأمر الرابع: ومما يدل بوضوح ويحل الإشكال ويدل على أن ابن مسعود ﷺ لا ينكر أن المعوذتين من القرآن المنزل على رسول الله ﷺ أو كان ربما عنده تردد فلما رأى أهل الإسلام جميعاً يكتبونها في مصاحفهم ويتلونها في صلاتهم زال تردده وجزم بقرآنيتهما بعد.

ومما يدل على هذا روايات صحيحة ثابتة عنه ﷺ تقتضي قوله مع بقية الصحابة بقرآنية المعوذتين وهذه بعض تلك الروايات:

(أ) أخرج الطبراني عن ابن مسعود: «أن النبي ﷺ سئل عن هاتين السورتين فقال قيل لي فقلت فقولوا كما قلت»[2] وهي نفس لفظ كلام أبي بن كعب الذي في البخاري.

(ب) وأخرجه الطبراني في الأوسط عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال «لقد أنزل عليَّ آيات لم ينزل علي مثلهن: المعوذتان»[3].

---

(١) تأويل مشكل القرآن (٤٩).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط رقم (٣٤٨٧)، والمعجم الكبير رقم (١٠٠٢١١).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط رقم (٢٦٥٨)، وقال السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٦٨٤) إسناده حسن.

(ج) وأخرج أبو داود وغيره عن ابن مسعود: أن النبي ﷺ كان يكره عشر خصال.. فذكرها ومنها: «وعقد التمائم والرُّقى إلا بالمعوذات»[١].

(د) أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال: «كان رسول الله ﷺ يكره الرُّقى إلا بالمعوذات»[٢].

(هـ) وأخرج الطبراني **عَنْ عَبْدِ اللهِ، أَنَّهُ: رَأَى فِي عُنُقِ امْرَأَةٍ مِنْ أَهْلِهِ سَيْراً فِيهِ تمائمُ فَمَدَّهُ مَدّاً شَدِيداً حَتَّى قَطَعَ السَّيْرَ، وَقَالَ: «إِنَّ آلَ عَبْدِ اللهِ لَأَغْنِيَاءُ عَنِ الشِّرْكِ»، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ التُّوَلَةَ، وَالتَّمَائِمَ، وَالرُّقَى لَشِرْكٌ»، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ: إِنَّ أَحَدَنَا لَيَشْتَكِي رَأْسُهَا فَتَسْتَرْقِي فَإِذَا اسْتَرْقَتْ ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ قَدْ نَفَعَهَا، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِي إِحْدَاكُنَّ فَيَخُشُّ فِي رَأْسِهَا فَإِذَا اسْتَرْقَتْ خَنَسَ فَإِذَا لَمْ تَسْتَرْقِ نَخَسَ، فَلَوْ أَنَّ إِحْدَاكُنَّ تَدْعُو بِمَاءٍ فَتَنْضَحُهُ فِي رَأْسِهَا وَوَجْهِهَا، ثُمَّ تَقُولُ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ثُمَّ تَقْرَأُ: قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ، وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ نَفَعَهَا ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ»**[٣].

فهذه روايات متنوعة من مصادر مختلفة يصّدق بعضها بعضاً، ويقوي بعضها بعضاً، تدل على أن ابن مسعود رضي الله عنه لا يشك في أن المعوذتين من القرآن الكريم، وإن لم يكتبها في مصحفه على ما مرّ تقريره.

ومنه يظهر أنه لا متمسك لعبد المسيح بما ذُكر عن ابن مسعود في شأن المعوذتين ولا فيما يقدح في قرآنيتهما، وتواترهما شأن بقية كتاب الله تعالى.

---

(١) أبو داود رقم (٤٢٢٢)، والنسائي في الصغرى رقم (٥٠٨٨).
(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم (٢٣٣٨).
(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير رقم (٨٨٦٣).

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأعراف: ١١٨، ١١٩].

الأمر الخامس: ثم إن بلاغة المعوذتين، ونسقها القرآني الذي لا يخفى، وأن تحدي الخلق أن يأتوا بمثلهما قائم، والعجز من الجن والإنس واقع، أمر لا يمكن أن يخفى على من هو أقل علماً وبياناً وعربية وفضلاً من ابن مسعود بكثير، فكيف يخفى على من هو من السابقين الأولين، ومن عرب هذيل الفصحاء، ومن علماء القرآن الكبار؟؟!

هذا لا يمكن أن يكون فدل هذا على ما تقدم تقريره سابقاً من أن ابن مسعود لاينكر أبداً أن المعوذتين من القرآن الكريم، وبهذا نرد على إبراهيم بن سيار النظام المعتزلي الذي تكلم على ابن مسعود بكلام لا يليق متهماً له بأنه خفي عليه بلاغة القرآن وفصاحته وإعجازه.

قال النظام: «ثم جحد ابن مسعود من كتاب الله سورتين، فهبه لم يشهد قراءة النبي ﷺ بهما، فهلا استدل بعجيب تأليفهما، وأنهما على نظم سائر القرآن المعجز للبلغاء أن ينظموا نظمه، وأن يحسنوا مثل تأليفه»(١).

فهذا مردود فلا يمكن خفاء قرآنية هاتين السورتين على صحابي كبير عربي الوجه واليد واللسان حتى يستدرك عليه ويأنِّبه به مثل هذا الجاحد لكون القرآن كله كلام الله الذي تكلم به وإنما يجعله خلقاً خلقه، وأن الناس في قدرتهم معارضته والإتيان بمثله لولا أن الله صرفهم عن ذلك مع تأخر زمانه، وعُجْمة نفسه ولسانه.

وأما ما نسبه إلى أبي بن كعب رضي الله عنه أنه قال: كانوا يقرؤونهما فيه؟

---

(١) نقل كلام النظام هذا ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (٣٠).

وهما سورتا القنوت والوتر وهما: «اللَّهُمَّ إنا نستعينك ونستغفرك ونستهديك...» إلى آخر الوتر.

فالنظر فيه وجوابه من وجوه:

الأول: لا يصح هذا ولا يثبت عن الصحابي الجليل القارئ، أحد أقرأ الصحابة للقرآن الكريم: أبي بن كعب الأنصاري ﷺ، وإنما ذُكِرَ هذا عنه ذكراً، ولم أجد مسنداً متصلاً وإنما نقل بروايات مرسلة.

فأخرج أبو عبيد عن محمد بن سيرين قال: «كتب أبي بن كعب في مصحفه فاتحة الكتاب والمعوذتين، واللَّهُمَّ إنا نستعينك واللَّهُمَّ إياك نعبد»(١).

فهذا إن صح إلى محمد بن سيرين رَحِمَهُ اللهُ فهو مرسل لعدم إدراكه لأُبيّ، وعدم رؤيته لمصحفه قطعاً الذي أحرق أيام عثمان رضي الله عنه.

قال **الباقلاني**: «ومما يدل على وهاء هذا الخبر عن أُبيّ علمنا بأن عثمان تشدَّد في قبض المصاحف المخالفة لمصحفه، وفي المطالبة بها وتحريقها.

وإذا كان ذلك كذلك لكانت العادة توجب أن يكون مصحف أُبيّ، أول مقبوض ومأخوذ وقد جاءت الرواية عن محمد والطُّفَيْل ابنيّ أُبيّ بن كعب أنهما قالا: لوفد أصحاب عبد الله عليهما بطلب مصحف أبيهما: «إن عثمان قد قبضه منه»(٢).

وأخرج محمد بن نصر المروزي: «عن أبي بن كعب أنه كان يقنت بالسورتين فذكرهما، وأنه كان يكتبهما في مصحفه»(٣).

الثاني: الظاهر أن هذا دعاء كانوا يقنتون به في الوتر وغيره، وربما

---

(١) كتاب فضائل القرآن (٢/ ١٤٤/ ٦٩٦).
(٢) الانتصار للقرآن (٨٠). (٣) كتاب قيام الليل (٣٢١).

كتبه أبي بن كعب لئلا ينساه، فلما جمعت المصاحف زمن عثمان في المصحف الإمام لم يزعم أبي أنهما حتماً من القرآن، ودفع مصحفه لعثمان فَحُرِّق إجماعاً مع الجماعة على أن القرآن هو ما جمعه المصحف الإمام الذي جمعه أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه.

ويدل على هذا ما رواه أبو عبيد القاسم بن سلام من طريق بُسْر بن سعيد عن محمد بن أُبيّ بن كعب: «أن ناساً من أهل العراق قدموا عليه، فقالوا: إنا قدمنا عليك من العراق فأخرج لنا مصحف أُبيّ، فقال محمد: قد قبضه عثمان، فقالوا: سبحان الله أخرجه إلينا، فقال: قد قبضه عثمان رضي الله عنه»[1].

وهذا أثر يدل على أن ذلك إنما هو دعاء كانوا يقنتون به في صلاة قيام رمضان.

قال الإمام أبو إسحاق ابن خزيمة رحمه الله: **«نا الربيع بن سليمان المرادي، نا عبد الله بن وهب، أخبرني يونس، عن ابن شهاب، أخبرني عروة بن الزبير، أن عبد الرحمٰن بن عبد القاري، وكان في عهد عمر بن الخطاب مع عبد الله بن الأرقم على بيت المال، أن عمر، خرج ليلة في رمضان فخرج معه عبد الرحمٰن بن عبد القارئ، فطاف بالمسجد وأهل المسجد أوزاع متفرقون، يصلي الرجل لنفسه، ويصلي الرجل، فيصلي بصلاته الرهط، فقال عمر: والله إني أظن لو جمعنا هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل، ثم عزم عمر على ذلك، وأمر أُبي بن كعب أن يقوم لهم في رمضان، فخرج عمر عليهم، والناس يصلون بصلاة قارئهم، فقال عمر: نعم البدعة هي، والتي تنامون عنها أفضل من التي تقومون، - يريد آخر الليل - فكان الناس يقومون أوله، وكانوا يلعنون الكفرة في النصف:**

(١) كتاب فضائل القرآن (٢/ ١٠٠).

اللَّهُمَّ قاتل الكفرة الذين يصدون عن سبيلك ويكذبون رسلك، ولا يؤمنون بوعدك، وخالف بين كلمتهم، وألق في قلوبهم الرعب، وألق عليهم رجزك وعذابك، إلٰه الحق، ثم يصلي على النبي ﷺ، ويدعو للمسلمين بما استطاع من خير، ثم يستغفر للمؤمنين قال: وكان يقول إذا فرغ من لعنة الكفرة، وصلاته على النبي، واستغفاره للمؤمنين والمؤمنات، ومسألته: اللَّهُمَّ إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، ونرجو رحمتك ربنا، ونخاف عذابك الجد، إن عذابك لمن عاديت ملحق، ثم يكبر ويهوي ساجدا»[١].

قال **أبو بكر الباقلاني**: «ثم إذا صرنا إلى القول فيما رُوِيَ عنه، من إثباتِ هذا الدعاءِ في مصحفه لم نجده ظاهراً منتشراً، ولا مما يَلزَمُ قلوبنا العلمُ بصحته، ويلزَمُنا الإقرارُ بصحته والقطعُ على «أُبيّ» بأنه كتبَ ذلك، بل إنّما يُروى ذلك من طُرقٍ يسيرةٍ نزرةٍ، روايةَ الآحادِ التي لا تُوجبُ العلم ولا تَقطعُ العُذر، ولا ينبغي لمسلمٍ عرفَ فضل «أُبى» وعقله وحُسن هَدْيِه وكثرةَ علمه ومعرفتَه بنظم القرآن وما هو منه مما ليس من جُملته: أن تُنسَبَ إليه أنه كتب دعاءَ القنوت في مصحفه أو اعتقد أنه قرآن، فإن اعتقادَ كونه قرآنا، أَبْيَنُ وأفحَشُ في الغلط من كتبه في المصحف... فإذا كان ذلك كذلك سقطَ التعلق بها سقوطاً ظاهراً»[٢].

الثالث: وقد تركوا أيضاً من أحرف أُبيّ شيئاً كثيراً اكتفاء بالعرضة الأخيرة مع كونه من أفضل قرائهم حتى في الجمع الأول زمن الصديق.

وقد أخرج البخاري في الصحيح ما يدل على ذلك عن ابن عباس قال: قال عمر: «أقرؤنا أُبيّ، وأقضانا عليّ، وإنا لندع من قول أُبيّ،

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه رقم (١١٠٠)، وصححه الألباني في التعليق عليه.
(٢) كتاب الانتصار للقرآن (٨٠).

وذاك أن أُبياً يقول: لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ، وقد قال الله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]»(١).

وهذا النص يفيد:

أن أُبيّ كان لا يترك من القرآن شيئاً سمعه وأخذه مباشرة من النبي ﷺ؛ لأن العلم القطعي حصل له بذلك، فلما علمنا أنه ترك دعاء القنوت ذلك ولم يُصر على أنه من القرآن الذي أخذه من النبي ﷺ وسلّمه مصحفه طائعاً لعثمان علمنا جزماً أن أُبيّ لم يكن يعتقد أن دعاء القنوت ذلك من القرآن وإلا لم يدعه لقول أحد، وهذا واضح لا شك فيه.

ويفيد:

أن أُبيّ بقي عنده من القرآن الذي نُسخ ورُفع مما لم يعلم برفعه ونسخه ولذلك لم يدخلوه في المصحف الذي جُمع أيام الصديق، ولا في المصحف الإمام أيام عثمان. والله أعلم.

ومنه نعلم أن القرآن الكريم محفوظ كما أنزله الله، وما هذه التمحّلات لعبد المسيح الكندي هذا إلا دليل خوائه واضطراره، فإذا كان يظن أن يغطي ضوء الشمس الساطع بمثل هذه التمحلات فساء ما ظن وساء ما فعل، وإنما يكشف عن وهاء قوله وسقوط تمحله.

وأما ما نسبه إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فإن عبد المسيح نسب إليه في كلامه خطبتين:

فالخطبة الأولى: قوله: «ومثل قول عمر على المنبر: لا يقولن أحد إن آية الرجم ليست في كتاب الله فإنا كنا نقرأ «والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» فلولا أن يُقال عمر قد زاد في القرآن لزدتها بيدي».

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٤٨١) و(٥٠٠٥).

النظر في هذا من وجوه:

الأول: أما نص كلام عمر ﷺ كما رُويَ عنه بالأسانيد الموثقة فكما يأتي:

أخرج الإمام البخاري كَلَلهُ عن ابن عباس ﷺ قال: فذكر حديثاً طويلاً وفيه: «فَجَلَسَ عُمَرُ عَلَى المِنْبَرِ، فَلَمَّا سَكَتَ المُؤَذِّنُونَ قَامَ، فَأَثْنَى عَلَى اللهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: . . . - فذكر خطبة عمر وفيها - إِنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّداً ﷺ بِالحَقِّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الكِتَابَ، فَكَانَ مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ آيَةَ الرَّجْمِ، فَقَرَأْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا، رَجَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ، فَأَخْشَى إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: وَاللهِ مَا نَجِدُ آيَةَ الرَّجْمِ فِي كِتَابِ اللهِ، فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا اللهُ... ثُمَّ إِنَّا كُنَّا نَقْرَأُ فِيمَا نَقْرَأُ مِنْ كِتَابِ اللهِ: أَنْ لَا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ»[(١)].

هذه خطبة عمر ﷺ فكما ترى ذكر عمر ﷺ أن آية الرجم كانت مما نزل من القرآن الكريم ولكنه رُفع لفظها وبقي حكمها؛ بدليل أن رسول الله ﷺ رجم، ورجم الخلفاء الراشدون من بعده.

ولتوضيح معنى رفع التلاوة واللفظ وبقاء الحكم ذكر عمر ﷺ نموذجاً آخر في ما رفع لفظه وبقي حكمه، وهو قوله: «أَنْ لَا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ، فَإِنَّهُ كُفْرٌ بِكُمْ أَنْ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ» فإن هذا مما رفع لفظه وتلاوته؛ لكن هذا الحكم وهو انتفاء الرجل من أبيه وانتسابه لغير أبيه وتوليه غير مواليه من أعظم المحرمات ومن كبائر الذنوب وكفر وجحود لنسبه وصلته بأبيه، كما قال النبي ﷺ: «مَنْ وَالَى قَوْماً بِغَيْرِ إِذْنِ مَوَالِيهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[(٢)]، وفي لفظ: «مَنِ انْتَسَبَ إِلَى

---

(١) صحيح البخاري برقم (٦٨٣٠)، ومسلم رقم (١٦٩١)، ومالك في الموطأ (٢/ ٨٢٣).

(٢) صحيح البخاري برقم (٧٣٠٠)، ولمسلم رقم (١٣٧٠) بلفظ: «مَنِ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ =

غَيْرِ أَبِيهِ أَوْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»(١).

وإنما ذكرها عمر لتكون مثالاً توضيحياً لما رفع لفظه وبقي حكمه، كآية الرجم.

وقوله: المنسوب إليه: «لولا أن يقول الناس: زاد عمر في كتاب الله لأثبتها كما أنزلت»، ليست في رواية البخاري كما ترى، ولا في رواية مالك وإنما جاءت عند أبي عبيد في كتاب فضائل القرآن(٢).

ومراد عمر ﷺ إن صح أنه قال ذلك واضح فليس معناه أنه سيزيد في القرآن المتفق عليه ما أخبر هو أنه نسخ لفظه ورفعت تلاوته، وإنما المراد أن يكتب حكم الرجم في حاشية المصحف لكي لا يتلاعب أحد بهذا الحكم وينكره.

وقد جاءت عنه رواية تفسير ذلك بما ذكرته.

فأخرج أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب فضائل القرآن عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب أنه قال: «لقد هممت أن أكتب في ناحية المصحف: شهد عمر بن الخطاب وعبد الرحمٰن بن عوف أن رسول الله ﷺ قد رجم ورجمنا»(٣).

أما الخطبة الثانية: زعم عبد المسيح ناسباً لعمر هذه الخطبة: «ومثل قوله في آخر خطبة خطبها: «إني لا أعلم أحداً قال: إن المتعة ليست في كتاب الله...».

= أَبِيهِ، أَوِ انْتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

(١) أخرجه ابن ماجه رقم (٢٦٠٩) واللفظ له.

(٢) كتاب فضائل القرآن (٢/ ١٤٦/ ٧٠٣).

(٣) المصدر السابق (٢/ ١٤٨/ ٧٠٤).

هذا أوان الكذب والافتراء من عبد المسيح، فلما رأى أن ما تمحل بذكره لا يحقق شيئاً ابتكر من عنده هذه الأحدوثة، ونسب لعمر هذه الأكذوبة التي لا حقيقة لها ولا وجود إلا في ذهن من اخترعها وكذبها.

وقد كان أمير المؤمنين، من أشد الناس في المنع من المتعة، والمعاقبة عليها، حتى ظن بعض الصحابة ممن لم يعلموا ولم يحضروا نهي النبي ﷺ عنها أن عمر هو الذي نهى عنها، وإنما كان من عمر تأكيد نهي النبي ﷺ والعمل به والقيام في الرعية زجراً وتأديباً عليه[١].

ممّا يؤكد كذب وافتراء عبد المسيح هذا في زعمه السابق.

وكذلك ما ذكره عنه أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه ورد عائشة رضي الله عنها عليه في شأن المتعة بقولها: «إنه يجلد على القرآن ويضرب عليه وينهى عنه وقد بدّل وحرّف».

كل ذلك كذب لا أصل له، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النحل: ١٠٥].

وإذا كان عبد المسيح يظن أنه سيبطل حجة القرآن ودلالاته العظيمة بمثل هذه الخرافات والأكاذيب فساء ما ظن، وساء ما كانوا يعملون.

• قال عبد المسيح بن إسحاق: «وأخبرني عن قول صاحبك[٢] ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

أفتقول: أفصح ألفاظاً منه؟

فجوابنا لك في هذا: نعم، أفصح منه كلام اليونانية عند الروم،

---

(١) انظر في ذلك: «ونهي عمر عن المتعة» فتح الباري لابن حجر (٩/ ٧١ ـ ٧٩).

(٢) يقصد بقوله في خطابه للهاشمي: «صاحبك» النبي ﷺ.

والزوبة[١] عند الفرس، والسريانية عند أهل الرُّها والسريانيين، وعبرانية بيت المقدس عند العبرانيين، فإن كل لسان له كلام فصيح عند أهله من سائر الألسن، ولهم ألفاظ فصيحة يتخاطبون بها»[٢]، ثم ساق فصلاً طويلاً فيه مغالطات عن القرآن سنذكرها تباعاً مع الجواب عنها، وكشف باطلها بإذن الله تعالى.

في هذا الفصل من كلام عبد المسيح الكندي جادل فيه عبد المسيح في إعجاز القرآن الكريم والتحدي للعرب وغيرهم بمعارضته أو الإتيان بمثله، وأدخل نفسه في معترك صعب المنال، ورام غاية قد رامها قبله فحول الفصاحة وفرسان البيان، حتى قال أحد أدعيائهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنفال: ٣١].

فأعاد عبد المسيح إدارة المعركة من جديد ظاناً أنه أتى من الحجج بما لم يأت به الأوائل.

فلننظر ما احتج به وما ذكره في رسالته، مفندين له كاشفين وهاءه، مستعينين بالله وحده، فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

المحور الأول:

أما قوله: إن القرآن أفصح منه لسان اليونانية عند الروم والسريانية عند أهلها والعبرانية عند العبرانيين، فهو كلام ضعيف الإيراد، وخروج عن موضع الكلام، وتعلق بمحال.

فجوابه من وجوه:

- **الأول:**

فهذه الألسن التي ذكرها اندثر كثير منها وضاع، ودخلها

---

(١) كذا «الزوبة».

(٢) رسالة الكندي (٥٥ ـ ٥٧).

المُوَلَّدات، وقلت مفرداتها حتى لم يعد يتكلم بها على أصولها، إلا القليل من أهلها، حتى تدخل المتأخرون منهم فوضعوا لها أصولاً وصرفاً ومفردات ولّدوها وتراكيب كتبوها وجمعوها.

يقرر أحد أشهر الدارسين للغات الشرقية القديمة كالفينيقية وما تولد منها كالسريانية والعبرانية وغيرها وهو المستشرق الألماني وأستاذ اللغويات الشرقية «روزنبرغ» في كتاب: «اللغة الفينيقية وآثارها الكتابية».

فيقول: «الآثار الفينيقية المكتشفة إلى يومنا هذا نزرة قليلة لا يمكن أن تستخرج منها الأصول الصرفية والنحوية، وغاية ما يعرف عن أمر هذه اللغة علاقتها مع العبرانية وألفاظ وردت في جملة الكتابات»[١].

يضيف الأب لويس شيخو اليسوعي معلقاً على كلام «روزنبرغ» فيقول: «فلذلك أراد «روزنبرغ» وغيره أن يسد هذا الخلل فوضع للأفعال تصريفاً استعاره من اللغات المجاورة للفينيقية «كالفونية» القديمة والحديثة وغير ذلك من المصادر المبهمة والمشكوك فيها كالفقرات التي نقلها الشاعر اللاتيني «بلوتومس» فجاء هذا «الغراماطيق» مجموعاً غريباً لا يستطيع الدارسون أن يرجعوا إليه بثقة»[٢].

ومن المقرر عندهم استمداد واتصال اللغات العبرانية والسريانية وغيرها من الفينيقية.

- **الوجه الثاني:**

أما السريانية فهذا أحد أبنائها وكتبتها يعترف بضياعها، وصعوبة

---

(١) كتاب اللغة الفينيقية وآثارها الكتابية (٥٩)، دار المجدل للدراسات اللسانية، بيروت ط الثانية ١٩٤٥م.

(٢) مجلة المشرق الكاثوليكية، السنة العاشرة، ١٩٠٧م، العدد (١٩) صفحة (٩٠٩).

تعلمها وضيق مفرداتها جداً وإبهام رسم كلماتها مما يتعذر معه تعليمها لأبناء السريانية أنفسهم.

فألَّف القسيس السرياني «إسحاق أرملة المارديني» كتاب أسماه «رغبة الأحداث» رغبة في تدارك ما يمكن تداركه، وذلك سنة (١٩٠٧م).

يقول الأب لويس **شيخو اليسوعي**: «إن الكتب السريانية قليلة جداً بالنسبة للكتب العربية، ولعل ذلك ممّا يزيد الأحداث[١] نفوراً عن درسها إذ لا يجدون ما يعينهم على تعلمها، وعليه إننا نشكر حضرة «القسّ أرملة» كاتب أسرار غبطة السيد البطريرك إغناطيوس أفرام الثاني الرحماني الذي نشر هذا الكتاب وفيه من المفردات والمركبات والتمارين المختلفة والمكالمات بالسريانية والعربية ممّا يرغِّب الطلاب في درس لغة السريان التي هي لغة ثلاث طوائف شرقية، وفيها من الكنوز والمآثر اللسانية ما يحمل عدداً لا يحصى من المستشرقين على تلقفها وتدريسها في الكليات الأوربية هذا فضلاً عن سهولة مأخذها وقرب منالها على من يعرف العربية واللغتان شقيقتان ليس بينهما بون عظيم، وهذا الكتاب الجديد من شأنه أن يزيد رغبة الأحداث في تعلم لغة الآراميين أجدادهم»[٢].

فلما لم يجدوا لغة سريانية مكتملة الأصول كثيرة المواد اللغوية لجأوا إلى التلفيق والاستمداد من اللغة المحفوظة الثرية المؤصلة وهي اللغة العربية زاعمين هكذا: أن اللغتين شقيقتان.

يقر بذلك آباء كنائس المشرق من السريان بوضوح مستخدمين الكلمات العربية للتعبير عن القضايا اللاهوتية المبهمة التي لم يجدوا في السريانية ولا اليونانية والعبرانية ما يوصل إلى المقصود.

---

(١) الأحداث يقصد الناشئة الصغار من أبناء السريان.

(٢) مجلة المشرق الكاثوليكية، السنة العاشرة، ١٩٠٧م، العدد (٢٠) صفحة (٩٥٦).

يقول الأب «لويس ماري ساكو»: «نتكلم اليوم عن المثاقفة والتأوين، في مجالات تراثنا الكنسي، من أجل تجسيد البشري في الواقع الحالي، وبلغة القوم وبَيِّنَتهم، كي يتمكن معاصرونا من فهمها وعيشها بانشداد، فأمام الإيمان لا يبقى الموروث حدوداً، ولا الوارث أسيراً إنما الإيمان صيرورة وانفتاح وانطلاق، هذا ما فعله «آباؤنا في الإيمان»، أمام انتشار الدين الإسلامي واللغة العربية في المنطقة، فاتفقوا في الحضارة الجديدة، وقاموا بالتأوين في مجالات تفسير الكتاب المقدس، والفقه واللاهوت، والطقس والروحانية مستخدمين اللغة الجديدة من دون غموض ولا تعقيد، واستنبطوا مصطلحات جديدة مشتقة من السريانية واليونانية، واستعملوا المفردات العربية للتعبير عن إيمانهم، ومعتقداتهم، وعباداتهم لتلائم الحالة الجديدة... هذا الجهد خلّف تراثاً حضارياً مسيحياً عربياً عظيماً وعريقاً، بإمكان اليوم أن يساعدنا في عملية المثاقفة والمعاصرة»[(١)].

كما أوصى مجلس بطارقة الشرق الكاثوليكي بالاستمداد والاستخدام للمصطلحات والمفردات العربية في التعبير عن القضايا الإيمانية واللاهوتية في رسالتهم المشهورة: «الحضور المسيحي في الشرق شهادة ورسالة».

وفيها يوصي المجلس: «إن العود إلى مثل هذا التراث المسيحي العربي لهو حافز لملاقاة احتياجات كنائسنا في المجال الثقافي والفكري واللاهوتي»[(٢)].

وأشهر المصطلحات العربية التي أوصى المجلس باعتمادها:

---

(١) مقدمة كتاب نصوص مختارة من كنيسة المشرق (٥).

(٢) الحضور المسيحي في الشرق شهادة ورسالة (٣٢)، الدار العربية للموسوعات، ط. الأولى، ١٩٩٢م.

[١] مصطلح «الصفات الذاتية» بدلاً عن العبارة الشهيرة: «الأقانيم الإلٰهية» لأن الأقانيم تفيد التعددية في الآلهة، بينما الصفات الذاتية تفيد الفردية والتوحيدية.

[٢] مصطلح «الشريعة» بدل «ناموس المسيح».

ومن ثمَّ أوصت الكنائس المشرقية بوضع قواميس عربية سريانية لتساعد على تحقيق تلك الغاية فصدرت عدة قواميس من أهمها: قاموس اللّباب سرياني ـ عربي، وقاموس ميخائيل عربي ـ سرياني، وقاموس لويس كوستاز سرياني ـ عربي، وغيرها.

• **الوجه الثالث:**

ومما يأكد هذا أن نصوص كتب القوم المقدسة اليهود والنصارى معاً قد ضاعت معانيها الحقيقية في خضم الترجمات الكثيرة التي نقلت لها، ما بين اليونانية وبقايا العبرية والسريانية، وما ترجم عنها لاحقاً إلى الإنجليزية والعربية، مما أوقع تبايناً يصل إلى التضاد لكثير من نصوص الكتاب المقدس، مما اضطروا معه إلى التدخل كثيراً للإصلاح والتفسير، وسأذكر لذلك نموذجين ما يزال الصراع عليهما محتدماً بين تفسيرات الطوائف والكنائس من جهة، وبين الكنائس والمجامع المسكونية ومنكري قدسية الكتاب من جهة أخرى.

النموذج الأول:

ورد في سفر أعمال الرسل من العهد الجديد هذا النص: «ثم طافا «فريجة» وبلاد «غلاطية» لأن الرُّوح القُدُس منعهما من التبشير بكلمة الله في آسية، فلما بلغا «ميسية» حاولا دخول «بتينية» فلم يأذن لهما الروح القدس فاجتازا»[١].

---

(١) سفر أعمال الرسل (١٦/ ٦ ـ ٧).

هاتان العبارتان «الروح القدس» اضطربت الأناجيل حسب مترجميها وحسب تفسيرات الكنائس وآبائها اضطراباً كثيراً.

ففي الترجمة المعتمدة للروم الأرثوذكس «الروح القدس».

وفي الترجمة الشهيرة المعروفة بطبعة «جيمس الخامس» ملك انجلترا: «الروح» فحسب.

ولما قامت الطائفة اليسوعية بترجمة الكتاب المقدس ونقله إلى العربية جعلوا الكلمة الأولى «الروح القدس» وأما الثانية فجعلوها «روح يسوع».

واعتماد الجميع على النُسخ الخطية اليونانية.

ولما صدرت الطبعة اليسوعية التي أصدرتها الرهبانية اليسوعية سنة (١٨٨١م) على المبادئ الأدبية التالية: الأمانة في النقل من الأصل العبري ونص الترجمة القديمة قدر المستطاع لا سيما في استعمال المفردات الكتابية المسيحية المألوفة «بساطة في اختيار الألفاظ»[(١)].

فقامت عليهم الشُنْعَة من بقية الطوائف، واتُّهموا بعدم الأمانة في الترجمة عندما أضافوا كلمة «روح يسوع» دون غيرهم.

وقد أَلَّف أستاذ اللاهوت الألماني «تشندروف نوفم» كتابه الشهير «نسخة العهد الجديد اليونانية ورواياتها».

وبَيَّن أن سفر أعمال الرسل شأنه شأن الإنجيل الثالث من تأليف القدِّيس لُوقا رفيق بولس، وكما وضع لوقا مقدمة لإنجيله، وضع مقدمة لسفر أعمال الرسل ووجههما لوقا لرجل عزيز عليه سماه «تاوفيلس».

وإن أَقْدم النُسخ لسفر أعمال الرسل هي النسخة اليونانية المعرفة بالنسخة «الواتبكانية» وهي ترجع إلى القرن الرابع الميلادي، وأن هذه

---

(١) انظر: ما كتبوه في مقدمة طبعتهم من العهد الجديد (١).

العبارة التي عليها الخلاف رسمها باليونانية في النسخة «الواتبكانية» هكذا «Tollvevua, Izoov».

وكذا في النسخة الإسكندرية المحفوظة بمتحف لندن وكذا بقية النسخ المنقولة منها(١).

ثم بيّن «تشيندروف» الخلاف في ترجمتها هل هذه العبارة تعني الرّوح أم الروح القُدُس؟ أم روح الملاك أم روح يسوع؟

وتفردت طبعة الرهبانية اليسوعية بعبارة «روح يسوع» مما أقام عليهم الشنعة واللوم من بقية الرهبنات الأخرى.

واعتذروا مبررين صحة ترجمتهم زاعمين بأن النسخة اللاتينية، مثلها السريانية المعروفة «بالبسيطة» وكذلك النسخة الأرمينية المنقولة عن اليونانية، تفيد حسب قراءتهم بكلمة «روح يسوع» لذلك اعتمدوها.

النموذج الثاني:

وهو أشد والدلالة منه أقوى على أن اللغات التي كتبت بها الأسفار المقدسة لديهم لم تسعف في تحديد اللفظة الدالة على المعنى بوضوح مما يسبب لغطاً شديداً، ويفتح باب النقد بقوة من الباحثين عن مدى قدسية تلك الأسفار ومدى اتصالها فعلاً باللغة التي تكلم بها الرسل كموسى وعيسى عليهما السلام.

ورد في سفر التكوين وهو أول أسفار العهد القديم.

وفي أول آية منه: «في البدء خلق الله السمٰوات والأرض»(٢).

وكذلك: «ورأى الله أن النور حسن»(٣).

و: «فصل الله بين النور والظلام»(٤).

---

(١) كتاب: نسخة العهد الجديد اليونانية ورواياتها (١/ ١٣٩).

(٢) سفر التكوين (١/ ١).

(٣) المصدر السابق (١/ ٤).

(٤) المصدر السابق (١/ ٤).

وبضع آيات بعدها فإن الكلمة التي تشير إلى «الإلٰه» أو «يَهْوه» يوجد اضطراب كبير في النسخ القديمة اليونانية والعبرانية والسريانية، وبناء عليه وقع اضطراب عظيم في الترجمات التي نقلت عنها، فإن رسم الكلمة باللغة العبرانية في النسخ العتيقة هكذا «א ' ז ל ל ב ק ק ן»(١).

ونطقها بالحرف العربي: «إلُوهِيم».

ولكن الإشكال في معناها فقد أجمعت معاجم التراجم على أن الكلمة معناها: صيغة الجمع من كلمة «الإلٰه» فيصبح معناها «الآلهة» فيكون معنى الآية السابقة من سفر التكوين: «في البدء خلق الآلهة السمٰوات والأرض»، و«رأت الآلهة أن النور حسن»، و«فصلت الآلهة بين النور والظلام» وهكذا.

وهذا خطير جداً.

فإن من المعلوم لدارسي كتابات وترجمات العهد القديم «التوراة» أنها من زمن نبي الله موسى ﷺ، وعلى مدى ثمانية قرون تنقل روايات شفوية حلت محل النص الإلٰهي المنزل على موسى ﷺ إلى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، حيث تم تثبيت النص الشفوي وتم تدوينه على أنه التوراة، وهذه المرحلة الزمنية الهائلة التي تغطي ما يقرب من ثمانية قرون كاملة، مما جعل هذه التوراة أشبه بالسِّجل المفتوح الذي يضاف إليه، وينتقص منه حسب الاتجاهات والمذاهب الدينية اليهودية، واختلاطهم بالشعوب الأخرى البابلية والآشورية والفارسية وغيرهم.

حتى جاء «عزرا الكاتب» فقام بعملية تحرير ما هو متوفر أمامه من روايات لا حصر لها، وحاول القيام بعملية دمج وتوفيق بين المواضع

---

(١) الرسم للكلمة حسب الجمعية الكتابية الأثرية، مجلة المشرق الكاثوليكية، السنة العاشرة، ١٩٠٧م، عدد (٢٤) صفحة (١١٠٥).

المتناقضة، وتم وضع نسخة واحدة للتوراة تم الاعتراف بها هي نسخة «عزرا الكاتب»[١].

ويتفق معظم أهل الاختصاص من علماء التوراة على أن أسفار العهد القديم جُمعت وكُتبت عبر قرون عديدة اعتماداً على مصادر مختلفة تعرف في هذا العلم باسم «التقاليد» ويرى القسم الأكبر من علماء التوراة أن أقدم تلك النصوص يعود إلى القرن العاشر قبل الميلاد، وقد كتبت مختلف الأسفار بما يعرف باللغة العبرية، وبعد التوسع الجغرافي للآراميين في القرن الخامس قبل الميلاد أدّى ذلك إلى تراجع العبرية كلغة محكية عند بني إسرائيل، واندثارها، فوجدت ضرورة لترجمة العهد القديم إلى الآرامية في حدود القرن الرابع قبل الميلاد، وفي القرن الثالث قبل الميلاد حلّت الآرامية وكذا اليونانية محل العبرية.

ويرى المحقِّقون الدارسون لأسفار العهد القديم أن النسخة الآرامية الأقدم التي عُثر عليها من العهد القديم هي التي يطلق عليها اسم: «الترجوم» وتتمثل في لفائف البحر الميت[٢] التي تحوي في ما نُشر منها على ما يلي:

سفر إشعيا، وسفر اللاويين، وسفر أيوب وغير ذلك.

وتم كذلك إنجاز ترجمة يونانية من التوراة في الإسكندرية خلال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد وهي التي تُسمَّى «السبعونية».

---

(١) انظر كتاب: نقد العهد القديم، تحرير: زالمان شازار، ترجمة: د. أحمد هويدي (٣٤ ـ ٣٧)، وكتاب: الأسطورة والحقيقة في التوراة تأليف: زينون كوسيد فسكي، ترجمة: د. محمد مخلوف (٩٣)، دار الأهالي، دمشق، ١٩٩٦م.

(٢) انظر: كتاب: مخطوطات البحر الميت، قصة الاكتشاف، تأليف: أسامة العيسة، تقديم: زياد مُنى، من إصدارات دار قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٥م.

وفي شمال إفريقية وفي الفترة ما بين ٣٩٠، و٤٠٥ ميلادي تم إنجاز ترجمة أخرى للتوراة باللاتينية وهي التي تُسمَّى «الفولجاتا»؛ أي: الشائعة، وهي النسخة المعتمدة من قِبَل الكنيسة الكاثوليكية حتى أيامنا هذه.

إلى ترجمات أخرى من السريانية والقبطية والحبشية وغيرها[(١)].

وهذه الكلمة «الآلهة» ونظائرها، فتحت للباحثين مجال بحث عن وثنية بني إسرائيل، واتخاذهم آلهة شتّى، مما جعل التعددية في الآلهة منطبعة في تصوراتهم ومن ثم في لغتهم فكتبوا توراتهم بعد قرون من الضياع بوثنيتهم، وهذا هو التفسير المعقول والمقبول لدى الباحثين.

يقول المؤرخ الشهير **«وِلْ ديورانت»**: «إن العبريِّين في أول ظهورهم على مسرح التاريخ، كانوا بدواً رُحلاً يعبدون الصخور والماشية والضأن وأرواح الكهوف والجبال، ولم يتخلصوا قط من عبادة العجل والكبش والحمل، ذلك أن موسى لم يستطع منع مطيعية من عبادة العجل الذهبي؛ لأن عبادة العجول كانت لا تزال حيّة في ذاكرتهم فكانوا في مصر، وظلوا زمناً طويلاً يتخذون هذا الحيوان آكل العشب رمزاً لآلهتهم، وإنا لنقرأ في سفر الخروج «الإصحاح ٣٢ ـ الآيات ٢٥ ـ ٢٨» كيف أخذ اليهود يرقصون وهم عُراة أمام العجل الذهبي، وكيف أعدم موسى واللاويون ثلاثة آلاف منهم عقاباً لهم على عبادة هذا الوثن.

وفي تاريخ اليهود الباكر شواهد كثيرة تدل على أنهم عبدوا الأفعى، ومن هذه الشواهد صورة الأفعى التي وُجدت في أقدم آثارهم... والتي عبدها اليهود في الهيكل إلى أيام حزقيا (حوالي ٧٢٠ ق.م) وكانت الأفعى تبدو حيواناً مقدساً لليهود، كما كانت تبدو لشعوب

---

(١) انظر: كتاب: جغرافية التوراة، تأليف: زياد مُنى (٢٥ ـ ٢٩).

كثيرة عداهم، وذلك لأنها رمز الذكورة المخصبة من جهة، ولأنها من جهة أخرى تمثل الحكمة والدّهاء والخلود، وكما أن آثار عبادة الآلهة الكثيرة البدائية قد بقيت في عبادة الملائكة والقديسين، وفي الأصنام الصغيرة المتنقلة التي كانوا يتخذونها آلهة لبيوتهم كذلك، ظلّت المعتقدات السحرية التي كانت منتشرة في العبادات القديمة باقية في اليهود إلى عهود متأخرة»(١).

ويقول الأب **حنّا حنّا الدمشقي**: «إن كل المعبودات الوثنية نجد لها امتداداً في عبادات العبريّين؛ أي: أن كل هذه الأشياء والرموز عبدها العبريّون تحت مسميات إلهية مختلفة: مُوْلَكّ «الملاك»، وكَامُوْش «الجاموس»، وإِيل «الشجرة» ويِمْ «البحر» وشمش «الشمس» وأسماء أخرى كثيرة، إن هذه الآلهة ظهرت أو تجسدت بأشكال مختلفة من شكل إنسان وحيوان، وجماد، تُجسِّد الإله العبري في كل شيء، حتى بما لا يخطر على بال كما في الوثنية وأكثر»(٢).

وأما وثنية وشرك اليهود عبر التاريخ فلا مجال للشك فيها، ولذلك ملأوا توراتهم وأسفارهم بذلك.

والقرآن الكريم وهو أوثق مصدر وأصدقه، ذكر من شركهم ووثنيتهم شيئاً عظيماً حتى والأنبياء الكرام معهم؛ بل حتى نبي الله العظيم ورسوله الكريم موسى بن عمران وأخوه هارون بينهم فإنهم ينتقلون إلى الوثنية والشرك بسرعة وعجرفة عجيبة.

قال تعالى عنهم: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ

---

(١) قصة الحضارة، المجلد الأول، الجزء الثاني (٣٣٨ ـ ٣٣٩).

(٢) كتاب: صورة الله الوثنية والدموية في التوراة (٧).

تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٤٠].

وذكر تعالى قصة العجل وعبادتهم له من دون الله تعالى في مواضع من القرآن، وبسطها في سورة طه فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٨٣ ـ ٩٨].

وأخبر تعالى أن قلوبهم القاسية استمرأت الشرك والكذب وعبادة العجل وغيره، فهذا حالهم الدائم.

فقال تعالى عنهم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ

ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة: ٩٣].

فإن الكلمة التي تشير إلى «الإلٰه» أو «يَهْوَه» كما هي في اللغة العبرية وما ترجم عنها، أما «الله» حسب الكلمة العربية، فإن هذا الاسم الجليل: «الله» من خصائص اللغة العربية فقط، فلا توجد لغة من اللغات التي كتبت بها الأسفار المقدسة لدى اليهود أو النصارى عبر التاريخ سواء أكانت العبرانية أو السريانية أو اليونانية أو الآرامية أو اللغات الحديثة كالإنجليزية والفرنسية والألمانية واللاتينية، لا يوجد في هذه اللغات هذا الاسم الكريم، للدلالة على رب العالمين: «الله».

والمستخدم في العبرانية عند اليهود «الإلٰه» و«يَهْوَه»، «إله الجنود»، «إله موسى»، «رب إسرائيل»، «إلوهيم» «الرّبّ».

والمستخدم في اليونانية والسريانية ولغات العهد الجديد عند النصارى «الرّب»، «الأب»، «أبانا السماوي»، «القدير».

ولما ترجمت الكتب المقدسة والأسفار إلى العربية استخدموا هذا الاسم «الله» مكان تلك الأسماء كلها.

أما هذا الاسم الكريم «الله» فهو من خصائص اللغة العربية فحسب، فهو الاسم العلم الدال على الله رب العالمين، وبه تعرف الأسماء: فيقال: الرحمٰن من أسماء الله، والعظيم من أسماء الله، والعزيز من أسماء الله، ولا يقال: الله من أسماء العزيز أو الحكيم أو العظيم.

فالله: أعلم الأعلام، وأعرف المعارف، به تعرف الأسماء، ولا يعرف هو بالأسماء، فيقال: الرحمٰن من أسماء الله تعالى، ولا يقال: الله من أسماء الرحمٰن، ولا يقال: الرحيم من أسماء الله تعالى، ولا يقال: الله من أسماء الرحيم.

قال **الإمام ابن قيم الجوزية**: «فاسم الله دال على جميع الأسماء الحسنى، والصفات العليا بالدلالات الثلاث، فإنه دال على إلٰهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلٰهية له مع نفي أضدادها عنه، وصفات الإلٰهية: هي صفات الكمال، المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص، ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠] ويقال: الرحمٰن والرحيم، والقدوس، والسلام، والعزيز، والحكيم من أسماء الله، ولا يقال: الله من أسماء الرحمٰن، ولا من أسماء العزيز، ونحو ذلك، فعلم أن اسمه الله مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى، دال عليها بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلٰهية التي اشتق منها اسم الله، واسم الله دال على كونه مألوهاً معبوداً، تؤلهه الخلائق محبة وتعظيماً وخضوعاً، وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب، وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنين لكمال الملك والحمد»(١).

واعلم أن هذا الاسم الجليل المهيب «الله» لا يطلق إلا على الله ﷻ وحده لا شريك له، لم يتسمَّ به أحد غيره تعالى مطلقاً.

قال الله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥].

قال **الإمام أبو عبد الله القرطبي** رحمه الله: «قال قتادة والكلبي: هل تعلم أحداً يسمى الله تعالى غير الله، أو يقال له: الله إلا الله، وهل بمعنى لا؟ أي: لا تعلم»(٢).

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٢ ـ ٣٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٨٧).

وقال **أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «والسميَ من توافق في الاسم، تقول: هذا سميَك أي: اسمه مثل اسمك، فالمعنى أنه لم يسم بلفظ «الله» شيء قط، وكان المشركون يسمون أصنامهم آلهة، والعزى إله، وأما لفظة «الله» فلم يطلقوه على شيء من أصنامهم»[1].

وقال **أبو حامد الغزالي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولأنه أخص الأسماء، إذ لا يطلقه أحد على غيره لا حقيقة ولا مجازاً»[2].

وللعلماء بحث متنوع في اشتقاق هذا الاسم الجليل «الله»، على ثلاثة أقوال:

الأول: أنه مشتق من «الإلٰه»؛ أي: المعبود.

وهذا قول الكسائي والفراء والأخفش وغيرهم.

قال **أبو القاسم الزجاجي**: «قال يونس بن حبيب، والكسائي، والفراء، وقطرب، والأخفش: أصله «الإلٰه» ثم حذفت الهمزة تخفيفاً فاجتمعت لامان، فأدغمت الأولى في الثانية، فقيل: «الله»، فإله «فعَال»، بمعنى: «مفعول»، كأنه مألوه؛ أي: معبود مستحق للعبادة يعبده الخلق ويؤلهونه.

والتأله: التعبد، قال رؤبة بن العجاج السعدي:

لِلَّه در الغانيات المُدَّهِ ... سبّحْن واستَرْجَعْن من تألُّهي

أي: من تعبدي، والمصدر من ألِهتُ: الألوهَة»[3].

ووافقهم إمام النحو «سيبويه» إلا أنه جوزّ أن يكون أصله «لاهٍ» على وزن «فَعَل» ثم دخلت عليه الألف واللام للتعريف فقيل: «الله»[4].

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٢٨٣). (٢) المقصد الأسنى (٦٠).
(٣) كتاب: اشتقاق أسماء الله تعالى (٢٣ ـ ٢٤).
(٤) انظر: الكتاب لسيبويه (١/ ٣٠٩).

قال **الإمام أبو جعفر الطبري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما تأويل قول الله تعالى ذكره «الله»، فإنه على معنى ما رُوي لنا عن عبد الله بن عباس ـ: هو الذي يَألَهه كل شيء، ويعبده كل خلْقٍ.

فإن قال لنا قائل: فهل لذلك في «فعل ويفعل» أصل كان منه بناءُ هذا الاسم؟

قيل: أمّا سماعاً من العرب فلا ولكن استدلالاً.

فإن قال: وما دلّ على أن الألوهية هي العبادة، وأنّ الإله هو المعبود، وأنّ له أصلاً في «فعل ويفعل».

قيل: لا تمانع بين العرب في الحكم لقول القائل ـ يصف رجلاً بعبادة، وبطلب مما عند الله جل ذكره: «تألّه فلان» ـ بالصحة ولا خلاف.

ومن ذلك قول رؤبة بن العجاج:

لِلَّهِ دَرُّ الغانِياتِ المُدَّهِ سَبَّحْنَ واسْتَرْجَعْنَ مِن تَأَلُّهِي

يعني: من تعبدي وطلبي اللهَ بعملي»[1].

وقال أيضاً: «ولا شك أنّ الإلاهة ـ على ما فسره ابن عباس ومجاهد ـ مصدر من قول القائل: أله الله فلانٌ إلاهةً، كما يقال: عَبَد الله فلانٌ عبادةً، وعَبَر الرؤيا عبارةً، فقد بين قول ابن عباس ومجاهد هذا: أن «أله» عبد، وأن «الإلاهة» مصدرُه»[2].

القول الثاني: أنه مشتق من «الوَلَه» أي: التحيّر الذي سببه شدة المحبة، وهذا قول نسبه أبو القاسم الزجاجي إلى إمام العربية: «الخليل بن أحمد» رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3].

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٨٢).

(٢) المصدر السابق (١/ ٨٢ ـ ٨٣).

(٣) اشتقاق أسماء الله تعالى (٢٦).

ولكن ما قاله الخليل بن أحمد في معجم «العين» يوافق القول الأول، وأن «الله» اسم موضوع لله تعالى.

فقال **الخليل**: «إن اسم الله الأكبر هو: الله، لا إلٰه إلا هو وحده. وتقول العرب: الله ما فعلت ذاك، تريد: والله ما فعلته، والتأله: التعبد.

قال رؤبة:

سبحن واسترجعن من تألهي

وقولهم في الجاهلية الجهلاء: لاه أنت؛ أي: لله أنت.... والله لا تُطْرَحُ الألفُ من الاسْمِ إنما هو الله على التمام، وليس [الله] من الأسماء التي يجوز منها اشتقاقَ فعل، كما يجوز في الرحمٰن الرحيم»[1].

وعلى هذا القول فيفيد معناه: أن الواجب على العبد أن يتعلق قلبه بالله محبة وإجلالاً وتعظيماً، فتكون محبة الله تعالى في قلب العبد أعظم المحبات وأكملها، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وكما قال النبي ﷺ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»[2].

القول الثالث: إن هذا الاسم الجليل «الله».

اسم هكذا موضوع لله تعالى ليس أصله «إله» ولا «ولَه» ولا «لاه»، وهذا قول الإمام أبي عثمان المازني[3] رحمه الله.

---

(١) معجم العين (٤/ ٩٠ ـ ٩١).

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٦)، ومسلم برقم (٤٣).

(٣) اسمه: بكر بن محمد بن عثمان المازني. انظر ترجمته في: طبقات النحويين واللغويين لمحمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي (٨٧).

فنقل عنه أبو القاسم الزجاجي قوله: «إن قولنا «الله» إنما هو اسم هكذا موضوع لله ﷻ. . . والدليل على ذلك، أني أرى لقولي «الله» فضل مزية على «إله» وأني أعقل به ما لا أعقل بقوله «إله»[(١)].

ونقل أبو إسحاق الزجاج هذه المناظرة: حدثني المبّرد عن أبي عثمان المازني قال: سألني العباس بن الفرج الرياشي[(٢)] فقال: الله ما أنكرت أن يكون أصل قولنا «الله» «الإلٰه» فحذفت الهمزة وأدغمت اللام الأولى في الثانية كما أجزت في «الناس» أن تكون تخفيف «الأناس» ثم أدغم؟!.

قال **أبو عثمان**: فقلت له: من قِبَل أن «الناس» على معنى «الأناس» وكذلك كل شيء خفف من الهمزة فهو على معناه مخففاً. وأنت إذا قلت: «الإلٰه» فلم تعلم «الله» ﷻ على معنى «إله» فلو كان «الله» مخففا من «إلٰه» لبقي على معناه»[(٣)].

واعلم أن هذا الاسم الجليل «الله» لكثرة استخدامه في الكلام ودوره على ألسنة العرب فقد كثرت فيه اللغات.

فمن العرب من يقول: «والله لا أفعل»، ومنه قوله تعالى في القرآن ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: ٢٣].

ومنهم من يقول: لاهِ لا أفعل.

ومنهم من يقول: واللهْ لا أفعل، بإسكان الهاء.

وأنشد بعضهم شاهداً له قول الشاعر:

---

(١) اشتقاق أسماء الله (٢٨ ـ ٢٩)، ومجالس العلماء (٦٩).

(٢) انظر ترجمته في: طبقات النحويين (٩٧).

(٣) انظر هذه المناظرة في: مجالس العلماء للزجاجي (٦٩)، واشتقاق أسماء الله له (٢٩).

أقبل سيل جاء من أمر اللّهْ   يحرد حرد الجنة المُغِلَّةْ[١]

ومنهم من يقول: واه لا أفعل كذا[٢].

ثم اعلم أن لهذا الاسم الجليل «الله» خصائص لا تكون لغيره من الأسماء الحسنى:

- منها: تفخيم اللام في «الله» إذا كان قبله حرف مفتوح أو مضموم[٣].
- ومنها: دخول التاء في القسم عليه نحو: تالله، ولا يجوز في غيره، فلا يقال: تالرحمٰن، ولا تالرحيم مثلاً[٤].
- ومنها: قولهم في النداء: اللَّهُمَّ اغفر لنا، فيدخلون الميم المشدّدة في آخره عوضاً عن ياء في أوله نحو: يا الله.
- ومنها: نداؤهم لفظة «الله» من غير إدخال «أيها» فيها، فيقولون: يا الله، وكل ما كان فيه اللام إذا نودي أُتي فيه بـ «أيّ»، نحو: يا أيها الرجل، ويا أيها الإنسان، ولا يجوز يا الرجل، ويا الإنسان[٥].

هذا وإن الاسم الجليل «الله» له وقعه العظيم في النفوس، وأثره الجليل على القلوب، وهو مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى، دال عليها بالإجمال والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلٰهية التي اشتق منها اسم «الله»، فاسمه تعالى «الله» دال على كونه معبوداً، تألهه الخلائق كلها محبة وتعظيماً وخضوعاً وإجلالاً، وافتقاراً إليه، وفقراً وذلاً

---

(١) انظر: أمالي القالي (١/ ٧).

(٢) اشتقاق أسماء الله تعالى للزجاجي (٢٩ ـ ٣٠).

(٣) انظر: كتاب: الكشف عن وجوه القراءات السبع، لمكي بن أبي طالب (١/ ٢١٩)، وكشف المشكلات لأبي الحسن الباقولي (١/ ١٦٦).

(٤) انظر: كشف المشكلات للباقولي (١/ ١٦٦).

(٥) انظر: الجمل للزجاجي (١٥١)، وإيضاح المشكلات للباقولي (١/ ١٦٦ ـ ١٦٧).

بين يديه، وفزعاً إليه عند النوائب، واضطراراً إليه عند الحوائج، أما سمعت إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس: ٢٢].

وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنين لكمال الملك والحمد وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله[(١)].

وقال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله: «ينبغي أن يكون حظ العبد من هذا الاسم التأله وأعني به أن يكون مستغرق القلب والهمة بالله عز وجل لا يرى غيره ولا يلتفت إلى سواه ولا يرجو ولا يخاف إلا إياه وكيف لا يكون كذلك وقد فهم من هذا الاسم أنه الموجود الحقيقي الحق وكل ما سواه فانٍ وهالك وباطل إلا به»[(٢)].

وأيد هذا قول النبي ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر، كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطلُ»[(٣)].

والمراد بكلمة باطل في قول الشاعر: إما ذاهب زائل لا فائدة فيه إلا الله تعالى والعمل الذي يبتغى به وجهه، وإما فانٍ هالك لا بقاء له إلا الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص: ٨٨].

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٦، ٢٧][(٤)].

---

(١) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٣٢ ـ ٣٣).
(٢) المقصد الأسنى (٦٠).
(٣) أخرجه البخاري برقم (٣٨٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) انظر: فتح الباري (١٤/ ٣٠٩).

وبناءاً على ما تقدم يظهر اختصاص اللسان العربي بهذا الاسم العظيم «الله» لفظاً، ومعناً، وبالتالي يتعذر ترجمته إلى لغة أخرى، بل ينقل كما هو.

وبالتالي فإنه لا يوجد في لغات الناس اليوم الإنجليزية وغيرها، ما يقابل هذا الاسم الجليل، ويؤدي تماماً إلى كل معانيه العظيمة.

فمثلاً لا يصح ترجمة اسم «الله» من العربية إلى كلمة «God» في الإنجليزية إذ إن كلمة «God» معناها «إله» ومفهوم الإلٰه يختلف حسب اعتقادات أصحاب الديانات، فلكل ديانة إلههم الذي يعبدون، فالإلٰه عند المسيحي: ثلاثة الأب، الابن، روح القدس.

وعند اليهود «يَهْوَه».

وعند الهندوسي «رام».

وعند البوذي «بوذا»، وهكذا.

فإذن لا يصح أن نترجم كلمة «الله» في العربية، إلى كلمة «God» في الإنجليزية.

فإن هذه الكلمة «God» لها في معاجم وقواميس اللغة الإنجليزية معاني عديدة، منها:

أبانا السماوي، سيد الكون، الكلي القدرة، الأب اللاهوتي، جاهونا، ياهو، المطلق الكلي القدرة. . . .غيرها كثير[1].

فالإلٰه عند اليهود، قد يكون عجلاً أو أفعى، أو موصوف بصفات البشر من الندم والبكاء، فلا يستحق أن يكون ذلك يترجم باسم «الله» تعالى الله وتقدس.

---

(١) انظر لذلك بحث: إشكالية ترجمة لفظ الجلالة «الله» إلى الإنجليزية، رؤية شرعية للأستاذ الدكتور: سالم بن حمزة أمين مدني، منشور في مجلة التأصيل للدراسات الفكرية المعاصرة، عدد (٦)، ١٤٢٣هـ، (٢٠٩).

والإله عند النصارى ثالث ثلاثة، أقنوم من ثلاثة أقانيم، يلد ويولد، فلا يمكن أن نعمد إلى كلمة «God» عندهم بهذا المفهوم تقابل كلمة «الله» بكل معانيها العظيمة السامية.

يقول الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال ابن الحصار: ولم أر أحداً يقول باشتقاق هذا الاسم حتى يرده إلى اسم الإله، فإذا دللنا على أنه غيره بطلت حجة من قال باشتقاقه، وأنه لا نظير له من أسماء المخلوقين العلم، وإن أُخذ من الصفة أو نُقل من أسماء الأجناس، إذا صار اسماً علماً انتقل من حكم الاشتقاق، وعن جريان مجرى الأوصاف المشتقة، وصار يدل على ذات مخصوصة، وما وجب لها دلالة مطلقة، فإذا أثبت ما قلناه، فلا ينبغي لأحد أن يتصرف في هذا الاسم بغير ما ورد في الشرع؛ لأن ذلك تحكم لا حجة عليه»[١].

ويقول العلامة أبو الأعلى المودودي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن كلمات «خدا» بالفارسية، و«ديوتا» بالهندية»، و«God» بالإنجليزية، كلها مرادفات لهذه الكلمة: إله، وكذلك توجد في لغات العالم الآخر كلمات تشابه هذه الكلمة أيضاً، أما كلمة «الله» فهي اسم علم للحق تبارك وتعالى»[٢].

وقد حاول بعض آباء الكنيسة وقساوسة النصارى أن يجدوا مبرراً يُسَوِّغ به وجود هذه الكلمة «الآلهة» بصيغة الجمع محاولة لتبرأة اليهود من الوثنية، ولهم في ذلك مسلكان:

الأول: قولهم: إن صيغة الجمع هذه «الآلهة» لا تدل على تعدد الآلهة ولا على الشرك، وإنما غايتها أنها تستخدم على سبيل التعظيم والتفخيم، واستعاروا من اللغة العربية جواب ذلك بأن الواحد المعظم

(١) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى (٢٧٩).
(٢) مبادئ الإسلام (٨٢).

لنفسه يتكلم بصيغة الجمع تعظيماً وتفخيماً، فيقول: فعلنا، قلنا، أعطينا وفي القرآن الكريم من ذلك كثير، يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١].

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، ونظائرها كثير، وقد تزعم هذا الاتجاه الأب «يوسف أُوفَرْد» عضو الجمعية الكتابية الأثرية، فنشر بحثاً في مجلة المشرق الكاثلوكية[١] بعنوان: التوحيد في بني إسرائيل.

فقال: «ومن جملة المطالب التي كان العلماء يتباحثون فيها الاسم الكريم الذي ورد في أول سفر التكوين في آيات متعددة على صورة الجمع فيُدعى الرب ﷻ باسم «الوهيم»، الذي تفسيره «الآلهة» فذهب بعض العلماء لا سيما الألمانيين، إلى أن استعمال هذه اللفظة في الأسفار المقدسة دليل واضح على تَوَثُّن بني إسرائيل في أول عهدهم، وأنهم سجدوا للطواغيت كبقية الأمم المتسكعة في ظلمة الشرك، وزاد هؤلاء الكتبة على زعمهم هذا أن الوثنية بقيت مدة قرون متوالية شائعة في شعب إسرائيل بخلاف التوحيد الذي كان منحصراً في بعض الأفراد منهم فقط، وهذا القول لو ثبت لنقض ما يدعيه المحافظون على كرامة الوحي والمدافعون عن صدق الأسفار الإلٰهية».

هكذا عرض الأب يوسف الإشكال الكبير، وذكر أن هذا يعرض صدقية الأسفار المقدمة للخطر، وأن التحريف فعلاً قد أصابها في أخص ما ينبغي أن تدعو إليه الكتب الإلٰهية، وهو توحيد الله تعالى.

ثم أجاب الأب يوسف بجواب وهو أن هذا الجمع إنما هو لمجرد التعظيم والتفخيم ولا يعني تعدد الآلهة، وأن هذا شائع مطروق في اللغات القديمة كلها.

---

(١) المشرق، السنة العاشرة، ١٩٠٧م، عدد (٢٤) صفحة (١١٠٥).

فقال: «ولدينا براهين تؤيد قولنا وتبطل رأي أولئك الكتبة في صحة معنى هذه الجموع وذلك بأن تقابلها بجموع التفخيم التي وجدت في الكتابات السامية المكتشفة في أنحاء الشرق المجاورة لمملكة بني إسرائيل أعني مصر والشام وفينيقية»(١).

المسلك الثاني: وهو عجيب وتأكيد للشركية من حيث ظنوا غير ذلك.

فزعموا أن هذه الصيغة «الآلهة».

في العهد القديم ورسائل الرسل قد دُفِنَ تحتها سر التثليث المقدس، حتى جاء زمن المسيح الذي يسمونه «الرب يسوع» فأظهره وجلّاه.

ومن أشهر من تزعم هذا الاتجاه عبد المسيح بن إسحاق الكندي صاحب هذه الرسالة التي نحن بصدد تفنيدها والرد عليها.

فقال: «فقد صحت نتيجة هذه المقدمات: أن الله واحد، ذو كلمة وروح في ثلاثة أقانيم قائمة بذاتها. فهذه صفة الواحد المثلَّث الأقانيم الذي نعبده، وهذه الصفة التي ارتضاها لنفسه ودلّنا على سرِّها في كتبه المنزلة على أَلْسُن أنبيائه ورسله، فأول ذلك ما ناجى به موسى كليمه، حيث أعلمه كيف خلق آدم فقال في السفر الأول من كتاب التوراة: «في البدء الآلهة بَرِا السموات والأرض» [تكوين: ١: ١] فبهذا يشير الكتاب المقدس إلى تثليث الأقانيم(٢) ووحدة الطبيعة؛ لأنه بقوله الآلهة» بصيغة الجمع يشير إلى الأقانيم الثلاثة، وبقوله: «بَرَا» أي: «خلق» بضمير المفرد يشير إلى وحدة الطبيعة والجوهر الذي هو للأقانيم الإلٰهية الثلاثة»(٣).

---

(١) المشرق، السنة العاشرة، ١٩٠٧م، عدد (٢٤) صفحة (١١٠٧).

(٢) اعلم أن كلمة «أقنوم» كلمة أصلها سرياني ومعناها ما يقوم بنفسه، وربما استخدمت في معنى كُنه الشيء وحقيقته، ويوافقه في اللاتينية «Persona».

(٣) رسالة الكندي (٢٧).

ولكنه تحامق كثيراً وبلغت المغالطة عنده منتهاها، عندما زعم أن القرآن العظيم دلّ أيضاً على سرّ التثليث، فيذهب يستدل على دعواه هذه بما ورد في خطاب الله تعالى عن نفسه بِصِيَغ التعظيم فقال في رده على الهاشمي: «وفي كتابك أيضاً شبيه بما ذكرنا عن الله: «فعلنا» و«خلقنا» و«أمرنا» و«أوحينا» و«أهلكنا» أفيشك أحد في أن هذا القول: قول شتَّى لا قول فرد؟»[1].

فنرد عليه بما قاله شريكه في ديانته، وهو الأب يوسف أَوْفرد.

بما تقدم تقريره في دفاعه عن نص سفر التكوين وأنه لا يدل على الشرك وتعدد الآلهة، وإنما هو من باب التفخيم والتعظيم، مع أن هذا العذر لا يُسَوِّغ لغة مطلقاً بذكر الآلهة بصيغة الجمع كما يسوغ في الضمائر كضمير المتكلم.

فلا يمكن أن يأتي في القرآن: نحن الآلهة خلقنا، أو الآلهة تفعل كذا ونحو ذلك، لكن يأتي خطاب الله عن نفسه تفخيماً وتعظيماً بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١١].

ولم يفهم العرب المخاطبون بهذا إلا ذلك، حتى قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥].

فلو فهموا ولو نزراً قليلاً، ولو على غرائب اللسان أن هذه الصيغ من نحو: «خلقنا» و«أنزلنا» ونحوها تدل على الآلهة لما قالوا ما قالوا، بل ولَمَا عَادَوْه وحاربوه ألم يقل تعالى عنهم: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ۝١٢﴾ [غافر: ١٢].

فدل ما تقدم على تميز اللسان العربي في أصوله وجذوره ونحوه

(١) رسالة الكندي (٢٧).

وبيانه وكثرة مفرداته على بقية الألسُن مما يجعل كلام عبد المسيح السابق من جعل تلك اللغات المندثرة أفصح من هذه اللغة المحفوظة ضرباً من العبث، فهي صرخة في واد، ونفخة في رماد.

• **الوجه الرابع:**

يتأكد هذا الذي تم تقريره في الوجه الثالث بما توصل إليه كثير من الباحثين الجادين في لغات الشرق الأدنى القديم أنه يوجد تقارب بين عدد من هذه اللغات من بينها: الأكدية والكنعانية، والعبرية، والفينيقية، والآرامية، والعربية، والنبطية، والحبشية، وأن هذا التقارب في جذور الأفعال، وأصوات التصريف وفي تشابه يصل حد المطابقة في مدلول بعض الألفاظ[١].

ومن ثَمَّ نشأت نظرية «الأصل الواحد للغات» بالقول بوجود لغة هي اللغة الأم وهي لغة سام بن نوح وأطلقوا عليها: اللغة السامية الأم أو اللغة الأصلية[٢].

ويذهب فريق لا بأس به من الباحثين والعلماء إلى أن بلاد العرب هي الأرض التي خرج منها الساميون الأول، ومن أشهر من ذهب لهذا من المؤرخين والباحثين: «دوغوية» (Degoege)، و«كرادر» (Schrader) و«ماير» (mayer)، و«نولدكة» (Noeldeke).

واستدلوا لتثبيت ما ذهبوا له بما يلي:

• أن التاريخ يشهد أن كثيراً من الشعوب خرجت من جزيرة العرب واستوطنت بلاداً أخرى.

---

(١) انظر كتاب: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، د. فيليب حِتّي، ترجمة: د. جورج حداد وعبد الكريم رانق (١/٦٦)، وانظر: كتاب: الحضارات السامية القديمة، سبتينو موسكاتي، ترجمة د. السيد يعقوب بكر (٢٠٨).

(٢) المصدران السابقان.

• أن اللغة العربية بمادتها الثرية وبيانها أقرب اللغات السامية للغة الأصلية الأولى.

• يشابه تركيب العرب الجثماني ما امتاز به الساميون من صفات جسدية.

• أن الحياة العربية البدوية التي يحياها العرب، هي أثر بدائي قديم للمعيشة عند الساميين.

• أن الدين العربي القديم هو الخطوة السابقة للدين البابلي الآشوري المعقّد[١].

ومن أكثر الذين بسطوا هذا الموضوع وقرروا ما تقدم هو المستشرق الألماني الشهير: ثيودور نيلدكة[٢].

يقول في بحث له عن اللغات السامية: «إن بعض كبار العلماء يرى أن جزيرة العرب الوطن الأول للجنس السامي، وهناك أدلة كثيرة تؤيد هذه النظرية، ويحفل التاريخ بأخبار القبائل التي خرجت من جزيرة العرب منذ فجر التاريخ، واستقرت في الأراضي الزراعية التي تتاخم صحراء بلاد العرب، وقد احترفوا الزراعة، واتخذوها نظاماً لحياتهم، وهناك كثير من الأدلة اللغوية تشير إلى أن العبرانيين والآراميين من أصل

---

(١) انظر: التاريخ العربي القديم، ديتلف نيلست، ترجمة د. فؤاد حسنين، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨م، صفحة (٥٠) وما بعدها، وكتاب: أصل العرب ومواطنهم. د. ماجد عبد الله الشمس، دار علاء الدين للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٤م (١٠٠ ـ ١٠٢)، وكتاب: الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. هاشم يحيى الملاح، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٩٤م (٣٤) وما بعدها.

(٢) يعتبر شيخ المستشرقين الألمان وصاحب إنتاج كبير وإتقان لثلاث لغات شرقية هي العربية والسريانية والعبرية، ولد سنة (١٨٣٨م) وتوفي سنة (١٩٣١م)، موسوعة المستشرقين، عبد الرحمٰن بدوي (٥٩٥).

بدوي، والحق أن جزيرة العرب وامتدادها الشمالي في بادية الشام، هي الوطن الحقيقي الملائم لشعب بدوي، والمفروض أن العرب يمثلون الصفات السامية أصدق تمثيل، وأن لغتهم أقرب إلى الأصل السامي من لغات الأجناس التي تشبههم، ونحن نؤيد تأييداً تاماً هذه النظرية التي ترى أن جزيرة العرب هي الوطن الأول لكل الشعوب الساميّة؛ لأنها نظرية جديرة بالتعضيد»[(١)].

يضيف خبير آخر هو: سبتينو موسكاتي فيقول: «إن الشعوب التي تتكلم اللغات الساميّة وفدت في العصور التاريخية من جزيرة العرب»[(٢)].

ويضيف الفرنسي «بيير روسي» فيقول: «لو أننا تكلمنا عن العرب، ذلكم الشعب الحقيقي الذي يمتلك وجوداً اجتماعياً مستمراً، ووجوداً ثقافياً ولغوياً يعطي حياةً وتوازناً لهذا البحر المتوسط من عدة آلاف من السنوات»[(٣)].

هذا ما قرره القوم فاللسان العربي القديم هو اللسان الجامع، واللغة العربية هي اللغة الأم الأصلية التي انبثقت منها تلك اللغات، فلا يمكن إذن للفرع أن يكون أفصح لساناً وأحسن بياناً من الأصل، وفي هذا من كشف سوء تصرف عبد المسيح بكلامه السابق ما يكفي.

---

(١) أبحاث في علم اللغات السامية، نقلاً عن كتاب: التاريخ الجغرافي للقرآن الكريم، تأليف: سيد مظفر الدين نادفي، ترجمة: د. عبد الشافي غنيم عبد القادر (١٢٢ ـ ١٢٣)، سلسلة الألف كتاب، لجنة البيان العربي، مصر (١٩٥٦م).

(٢) كتاب: الحضارات السامية (١٩)، ترجمة: د. السيد يعقوب بكر، الهيئة المصرية للكتاب (١٩٩٧م).

(٣) كتاب: التاريخ الحقيقي للعرب (٢٤)، ترجمة: فريد جحا، ط. الأولى، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩٦م.

• **الوجه الخامس:**

قرر علماء الإسلام الأوجه المتعددة لإعجاز القرآن.

• قال الإمام أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني رَحِمَهُ اللهُ: «ذكر أصحابنا وغيرهم في ذلك **ثلاثة أوجه من الإعجاز:**

• **أحدها:**

يتضمن الإخبار عن الغيوب، وذلك مما لا يقدر عليه البشر، ولا سبيل لهم إليه، فمن ذلك ما وعد الله تعالى نبيه، عَلَيْهِ السَّلَامُ، أنه سيظهر دينه على الأديان، بقوله جَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٣]، ففعل ذلك، وكان أبو بكر الصديق، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، إذا أغزى جيوشه عرَّفهم ما وعدهم الله، من إظهار دينه، ليثقوا بالنصر، ويستيقنوا بالنجح.

وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يفعل كذلك في أيامه، حتى وقف أصحاب جيوشه عليه، فكان سعد بن أبي وقاص، رَحِمَهُ اللهُ، وغيره من أمراء الجيوش، من جهته، يذكر ذلك لأصحابه، ويحرضهم به، ويوثق لهم، وكانوا يلقون الظفر في مُتَوَجَّهاتهم، حتى فُتِحَ إلى آخر أيام عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، إلى بَلْخ، وبلاد الهند، وفتح في أيامه مرو الشاهجان، ومرو الرُّوذ، ومنعهم من العبور إلى جيحون، وكذلك فتح في أيامه فارس إلى اصطخر، وكرمان، ومكران، وسجستان، وجميع ما كان من مملكة كسرى، وكل ما كان يملكه ملوك فارس، بين البحرين من الفرات إلى جيحون، وأزال ملك ملوك الفرس، فلم يعد إلى اليوم ولا يعود أبداً، إن شاء الله تعالى، ثم إلى حدود أرمينية، وإلى باب الأبواب، وفتح أيضا ناحية الشام، والأردن، وفلسطين، وفسطاط مصر، وأزال ملك قيصر عنها، وذلك من الفرات إلى بحر مصر، وهو ملك قيصر، وغزت الخيول في أيامه إلى عمورية، فأخذ الضواحي كلها، ولم يبق منها إلا ما حجز

دونه بحر، أو حال عنه جبل منيع، أو أرض خشنة، أو بادية غير مسلوكة.

وقال الله ﷻ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران: ١٢]، فصدق فيه.

وقال في أهل بدر ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧] ووفى لهم بما وعد، وجميع الآيات التي يتضمنها القرآن، من الإخبار عن الغيوب، يكثر جداً، وإنما أردنا أن ننبه بالبعض على الكل.

• **الوجه الثاني:**

أنه كان معلوماً من حال النبي ﷺ، أنه كان أمياً لا يكتب، ولا يحسن أن يقرأ، وكذلك كان معروفاً من حاله أنه لم يكن يعرف شيئاً من كتب المتقدمين، وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم، ثم أتى بجمل ما وقع وحَدَث من عظيمات الأمور، ومهمات السير، من حين خلق الله آدم عليه السلام، إلى حين مبعثه...

ونحن نعلم بالضرورة أن هذا ممّا لا سبيل إليه، إلا عن تعلم، وإذ كان معروفاً أنه لم يكن ملابساً لأهل الآثار، وحملة الأخبار...علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد، من جهة الوحي.

ولذلك قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨] وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنعام: ١٠٥].

• **الوجه الثالث:**

أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه»[١].

---

(١) كتاب: إعجاز القرآن (٣٣ ـ ٣٥) باختصار، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، ط٣.

ولأبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام بديع في إعجاز القرآن في مقدمة تفسيره.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المعزات التي أتى بها الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، ضربان: حسِّي، وعقلي، فالحسِّي: ما يدرك بالبصر، كناقة صالح، وطوفان نوح، ونار إبراهيم، وعصا موسى عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

والعقلي: ما يدرك بالبصيرة، كالإخبار عن الغيب تعريضاً أو تصريحاً، والإتيان بحقائق العلوم التي حصلت عن غير تعلم.

فأما الحسِّي: فيشترك في إدراكه العامة والخاصة، وهو أوقع عند طبقات العامة وآخذ بمجامع قلوبهم، وأسرع في إدراكهم.

وأما العقلي: فيختص بإدراكه كملة الخواص من ذوي العقول الراجحة، والأفهام الثاقبة والروية المتناهية الذين يغنيهم إدراك الحق..

ومما خصه الله تعالى به من المعجزات القران: فهو آية حسّية عقلية صامتة ناطقة باقية على الدهر، مبثوثة في الأرض ولذلك قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١].

ودعاهم ليلاً ونهاراً مع كونهم أولي بسطة في البيان إلى معارضته بنحو قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٣].

وفي موضع آخر: ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: ٣٨].

وقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

فجعل عجزهم علماً للرسالة، فلو قدروا ما أقصروا، إذ قد بذلوا

أرواحهم في إطفاء نوره وتوهين أمره، فلما رأيناهم تارة يقولون ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦].

وتارة يقولون: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا﴾ [الأنفال: ٣١]، وتارة يصفونه بأنه: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [النحل: ٢٤]، وتارة يقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، وتارة يقولون: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥]، كل ذلك منهم عجز أن يأتوا بمثله أو بشيء منه علمنا يقيناً قصورهم عنه، ومحال أن يقال: إنه عورض فلم ينقل فالنفوس مهتزة لنقل ما دقّ وجلّ، وقد رأينا كتباً كثيرة صُنِّفت في الطعن على الإسلام قد نقلت وتداولت»(١).

وقال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: «والذي جاء بالقرآن قال للخلق كلهم: أنا رسول الله إليكم جميعاً، ومن آمن بي دخل الجنة، ومن لم يؤمن بي دخل النار، وقد أبيح لي قتل رجالهم، وسبي ذراريهم، وغنيمة أموالهم، ووجب عليهم كلهم طاعتي، ومن لم يطعني كان من أشقى الخلق، ومن آياتي هذا القرآن، فإنه لا يقدر أحد على أن يأتي بمثله، وأنا أخبركم أن أحداً لا يأتي بمثله، فيقال: لا يخلو إما أن يكون الناس قادرين على المعارضة أو عاجزين، فإن كانوا قادرين، ولم يعارضوه، بل صرف الله دواعي قلوبهم، ومنعها أن تريد معارضته مع هذا التحدي العظيم، أو سلبهم القدرة التي كانت فيهم قبل تحديه، فإن سَلْب القدرة المعتادة أن يقول رجل: معجزتي أنكم كلكم لا يقدر أحد منكم على الكلام ولا على الأكل والشرب، فإن المنع من المعتاد كإحداث غير المعتاد، فهذا من أبلغ الخوارق، وإن كانوا عاجزين، ثبت

(١) مقدمة جامع التفاسير (١٠٢ ـ ١٠٤) باختصار، تحقيق: د. أحمد حسن فرحات، دار الدعوة، الكويت، ط. الأولى، ١٤٠٥هـ.

أنه خارق للعادة، على تقدير النقيضين؛ النفي والإثبات. فثبت أنه من العجائب الناقضة للعادة في نفس الأمر، فهذا غاية التنزل، وإلا فالصواب المقطوع به أن الخلق كلهم عاجزون عن معارضته، لا يقدرون على ذلك، ولا يقدر محمد ﷺ نفسه من تلقاء نفسه على أن يبدل سورة من القرآن، بل يظهر الفرق بين القرآن وبين سائر كلامه، لكل من له أدنى تدبر، كما قد أخبر الله به في قوله، ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ [الإسراء: ٨٨]، وأيضاً فالناس يجدون دواعيهم إلى المعارضة حاصلة، لكنهم يحسون من أنفسهم العجز عن المعارضة، ولو كانوا قادرين لعارضوه...

وكذلك أيضاً يعرفون أنه لم يختلف حال قدرتهم قبل سماعه، وبعد سماعه، فلا يجدون أنفسهم عاجزين عما كانوا قادرين عليه...

وأيضاً فلا نزاع بين العقلاء المؤمنين بمحمد والمكذبين له، إنه كان قصده أن يصدقه الناس ولا يكذبوه، وكان مع ذلك من أعقل الناس وأخبرهم وأعرفهم بما جاء به... فإن من دعا الناس إلى مثل هذا الأمر العظيم، ولم يزل حتى استجابوا له طوعاً أو كرهاً، وظهرت دعوته وانتشرت ملته هذا الانتشار... فإقدامه مع هذا القصد في أول الأمر وهو بمكة، وأتباعه قليل، على أن يقول خبراً، يقطع به أنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، لا في ذلك العصر، ولا في سائر الأعصار المتأخرة، لا يكون إلا مع جزمه بذلك، وتيقنه له، وإلا فمع الشك والظن لا يقول ذلك من يخاف أن يظهر كذبه فيفتضح فيرجع الناس عن تصديقه، وإذا كان جازماً بذلك متيقناً له لم يكن ذلك إلا عن إعلام الله له بذلك، وليس في العلوم المعتادة أن يعلم الإنسان أن جميع الخلق لا يقدرون أن يأتوا بمثل كلامه إلا إذا علم

العالم أنه خارج عن قدرة البشر، والعلم بهذا يستلزم كونه معجزاً»[١].

ويضيف **شيخ الإسلام ابن تيمية** بياناً عن أوجه الإعجاز في القرآن العظيم فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما التفصيل، فيقال: نفس نظم القرآن وأسلوبه عجيب بديع ليس من جنس أساليب الكلام المعروفة، ولم يأت أحد بنظير هذا الأسلوب، فإنه ليس من جنس الشعر، ولا الرجز، ولا الخطابة، ولا الرسائل، ولا نظمه نظم شيء من كلام الناس عربهم وعجمهم، ونفس فصاحة القرآن وبلاغته هذا عجيب خارق للعادة، ليس له نظير في كلام جميع الخلق...

ونفس ما أخبر به القرآن في باب توحيد الله وأسمائه وصفاته، أمر عجيب خارق للعادة، لم يوجد مثل ذلك في كلام بشر، لا نبي ولا غير نبي، وكذلك ما أخبر به عن الملائكة والعرش والكرسي والجن وخلق آدم، وغير ذلك، ونفس ما أمر به القرآن من الدين، والشرائع كذلك، ونفس ما أخبر به من الأمثال، وبيَّنه من الدلائل هو أيضاً كذلك... فالإعجاز في معناه أعظم وأكثر من الإعجاز في لفظه، وجميع عقلاء الأمم عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه، وما في التوراة والإنجيل: ولو قُدِّر أنه مثل القرآن، لا يقدح في المقصود، فإن تلك كتب الله أيضاً ولا يمتنع أن يأتي نبي بنظير آية نبي... فكيف وليس ما في التوراة والإنجيل مماثلاً لمعاني القرآن؛ لا في الحقيقة ولا في الكيفية ولا الكمية، بل يظهر التفاوت لكل من تدبر القرآن وتدبر الكتب[٢]...

---

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٤٣٠ ـ ٤٣٣) باختصار يسير.

(٢) للباقلاني رأي ثمين في الفرق بين القرآن وبين الكتب السابقة المنزلة على الأنبياء فقال: «فبان بهذا ونظائره ما قلناه، من أن بناء نبوته ﷺ على دلالة القرآن ومعجزته، وصار له من الحكم في دلالته على نفسه وصدقه أنه يمكن أن يُعْلَم =

وهذه الأمور من ظَهَرت له من أهل العلم والمعرفة، ظهر له إعجازه من هذا الوجه، ومن لم يظهر له ذلك اكتفى بالأمر الظاهر الذي يظهر له ولأمثاله كعجز جميع الخلق عن الإتيان بمثله مع تحدي النبي، وإخباره بعجزهم، فإن هذا أمر ظاهر لكل أحد»[(١)].

وقال **الحافظ ابن حجر** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد جمع بعضهم إعجاز القرآن في أربعة أشياء:

أحدها: حسن تأليفه والتئام كلمه مع الإيجاز والبلاغة.

ثانيها: صورة سياقه وأسلوبه المخالف لأساليب كلام أهل البلاغة من العرب نظماً ونثراً حتى حارت فيه عقولهم، ولم يهتدوا إلى الإتيان بشيء مثله مع توفر دواعيهم على تحصيل ذلك وتقريعه لهم على العجز عنه.

ثالثها: ما اشتمل عليه من الإخبار عما مضى من أحوال الأمم السالفة والشرائع الداثرة مما كان لا يعلم منه بعضه إلا النادر من أهل الكتاب.

رابعها: الإخبار بما سيأتي من الكوائن التي وقع بعضها في العصر النبوي وبعضها بعده ومن غير هذه الأربعة: آيات وردت بتعجيز قوم في

= أنه كلام الله تعالى، وفارق حكمه حكم غيره من الكتب المنزلة على الأنبياء؛ لأنها لا تدل على أنفسها إلا بأمر زائد عليها، ووصف منضاف إليها؛ لأن نظمها ليس معجزاً، وإن كان ما تتضمنه من الإخبار عن الغيوب معجزاً، وليس كذلك القرآن لأنه يشاركها في هذه الدلالة، ويزيد عليها في أن نظمه معجز، فيمكن أن يستدل به عليه، وحلَّ في هذا من وجهٍ محل سماع الكلام من الله تعالى؛ لأن موسى لما سمع كلامه علم أنه في الحقيقة كلامه، وكذلك من يسمع القرآن يعلم أنه كلام الله، وإن اختلف الحال في ذلك من بعض الوجوه». إعجاز القرآن (١٤ ـ ١٥)، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط. دار المعارف بمصر، الثالثة.

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٤٣٣ ـ ٤٣٥) باختصار.

قضايا أنهم لا يفعلونها فعجزوا عنها مع توفر دواعيهم على تكذيبه كتمني اليهود الموت، ومنها الروعة التي تحصل لسامعه، ومنها أن قارئه لا يمل من ترداده وسامعه لا يمجه ولا يزداد بكثرة التكرار إلا طراوة ولذاذة، ومنها أنه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا، ومنها جمعه لعلوم ومعارف لا تنقضي عجائبها ولا تنتهي فوائدها»(١).

وأما زعم عبد المسيح بقوله: «ونحن نرى صاحبك قد افتقر في كتابه إلى استعمال كلمات غيره وهو القائل ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾، ولكنه استعان من الفارسية بالاستبرق وسندس وأباريق ونمارق، ومن الحبشية المشكاة وهي الكوة، ومثل هذا كثير قد استعمله في كتابه، فنقول إن العربية ضاقت عليه فلم يكن فيها من الاتساع ما ألجأه إلى لسان غيره في هذه الأشياء»(٢).

فإن عبد المسيح ينزع إلى الاحتجاج بمسألة إن القرآن العربي فيه كلمات من غير لسان العرب؛ كالأمثلة التي ذكرها.

وجوابه من وجوه:

- **الوجه الأول:**

اختلف أهل الإسلام والعلماء بالقرآن: هل في القرآن ما ليس من لسان العرب على أقوال:

أحدها: قول من أنكر ذلك احتجاجاً بقوله تعالى عن وصف القرآن الكريم ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف: ٢]، وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥].

---

(١) فتح الباري (٨/١٩).

(٢) رسالة عبد المسيح الكندي (٢٤).

فالقرآن كله عربي بلسان العرب فصيح مبين، لا عجمة فيه، وهذا قول الإمام الشافعي، ووافقه اللغوي الشهير أبو عبيدة معمر بن المثنى ـ رحمهما الله ـ واللغوي أحمد بن فارس، وهو قول الإمام شيخ المفسرين أبي جعفر الطبري أيضاً.

قال الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله: «ومن جماع علم كتاب الله عز وجل، العلم بأن جميع كتاب الله إنما نزل بلسان العرب، والمعرفة بناسخ كتاب الله ومنسوخه. . .فالواجب على العالمين أن لا يقولوا إلا من حيث علموا، وقد تكلم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه منه، لكان الإمساك أولى به وأقرب من السلامة له إن شاء الله، فقال منهم قائل: إن في القرآن عربياً وأعجمياً، والقرآن يدل على أن ليس في كتاب الله شيء إلا بلسان العرب، قال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥].

وقال عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الرعد: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧].

فأقام حجته بأن كتابه عربي، ثم أكد ذلك بأن نفى عنه كل لسان غير لسان العرب في آيتين في كتابه:

فقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ﴾ [فصلت: ٤٤].

ولعل من قال: إن في القرآن غير لسان العرب، وقبل ذلك منه ذهب إلى أن من القرآن خاصاً يجهل بعضه بعض العرب.

ولسان العرب: أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها، حتى لا يكون موجوداً فيها من يعرفه.

والعلم به عند العرب كالعلم بالسُّنَّة عند أهل الفقه، لا نعلم رجلاً جمع السنن فلم يذهب منها عليه شيء...

وهكذا لسان العرب عند خاصتها وعامتها: لا يذهب منه شيء عليها، ولا يطلب عند غيرها، ولا يعلمه إلا من قَبِلَه عنها، ولا يشركها فيه إلا من اتبعها في تعلمه منها، ومن قبله منها فهو من أهل لسانها، وإنما صار غيرهم من غير أهله بتركه، فإذا صار إليه صار من أهله وعِلم أكثر اللسان في أكثر العرب أعمُّ من علم أكثر السنن في العلماء.

فإن قال قائل: فقد نجد من العجم من ينطق بالشيء من لسان العرب؟

فذلك يحتمل ما وصفت من تعلمه منهم، فإن لم يكن ممن تعلمه منهم فلا يوجد من ينطق إلا بالقليل منه، ومن نطق بقليل منه، فهو تبع للعرب فيه.

ولا ننكر إذ كان اللفظ قيل تعلما، أو نطق به موضوعاً: أن يوافق لسان العجم، أو بعضها قليلاً من لسان العرب، كما اتفق القليل من ألسنة العجم المتباينة في أكثر كلامها، مع تنائي ديارها، واختلاف لسانها، وبعد الأواصر بينها وبين من وافقت بعض لسانه منها».

قال **الشافعي** رحمه الله: (فإذا كانت الألسنة مختلفة بما لا يفهمه بعضهم عن بعض، فلا بد أن يكون بعضهم تبعاً لبعض، وأن يكون الفضل في اللسان المتبع على التابع.

وأولى الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبي. ولا يجوز ـ والله أعلم ـ أن يكون أهل لسانه أتباعاً لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد، بل كل لسان تبع للسانه، وكل أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه.

وقد بيَّن الله ذلك في غير آية من كتابه: فقال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، وقال: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الزخرف: ١ ـ ٣]، ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزمر: ٢٨].

قال **الشافعي**: فأقام حجته بأن كتابه عربي في كل آية ذكرناها، ثم أكد ذلك بأن نفى عنه ـ جل ثناؤه ـ كل لسان غير لسان العرب في آيتين من كتابه، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣]، وقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصلت: ٤٤]»[1].

نبَّه الشافعي إلى أن لسان العرب واسع جدّاً ومفرداته في غاية الكثرة والانتشار، بحيث لا يمكن لأحد من العرب الإحاطة به إلا أن يكون النبي ﷺ.

فإن لغة العرب التي نزل بها القرآن وهي لسان النبي ﷺ هي اللغة المُضَرية المشتركة بين القبائل الكبرى من فروع مُضر، وهي: كنانة وقيس

---

(١) الرسالة للشافعي (٤٠ ـ ٤٧)، وكذا كتاب أحكام القرآن للشافعي الذي جمعه البيهقي (٣١ ـ ٣٢).

علان وهذيل وتميم وأسد وبعض طيء، كما نبّه على ذلك أبو نصر الفارابي في كتابه الشهير كتاب الحروف(١).

وذلك لوضوح الاختلاف بين لغة جنوب الجزيرة العربية، ولغة شمالها في المفردات وفي الأصوات وفي الصرف والتركيب.

حتى قال الإمام اللغوي الكبير أبو عمرو بن العلاء البصري: «ما لسان حِمير وأقاصي اليمن بلساننا، ولا عربيتهم بعربيتنا»(٢).

وقال **محمد بن سلام الجمحي** بأن عربية القرآن ولسان النبي ﷺ هي عربية إسماعيل وبنيه من بعد، أما عربية حِمْير واليمن فعربية أخرى ليست كعربيتنا(٣).

قال ذلك تعليقاً وتوضيحاً منه لقول الإمام محمد بن علي أبي جعفر الباقر رحمه الله: «أول من تكلم بالعربية ونسي لسان أبيه إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام»(٤).

كما نبّه الشافعي إلى أن القرآن الكريم نزل بلسان العرب كله، وما فيه مما نطق به العجم فهو من باب توارد اللغتين، وتواطئهما. مما تكلمت به العجم موافقة للعرب وليس العكس.

ووافقه أبو عبيدة معمر بن المثنى فقال: «إنما أُنزل القرآن بلسان عربي مبين، فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول، ومن زعم أن «طه» بالنبطيّة فقد أكبر القول، وإن لم يُعْلَم ما هو، فهو افتتاح كلام، وهو اسم للسورة وشعار لها، قد يوافق اللفظ ويقاربه ومعناهما واحد»(٥).

---

(١) كتاب الحروف (١٤٧)، ونقله عنه السيوطي في كتابه المزهر (١/ ٢١١ ـ ٢١٢).
(٢) نقله عنه محمد بن سلام الجمحي في طبقات فحول الشعراء (١/ ١١).
(٣) المصدر السابق (١/ ١٠). (٤) المصدر السابق (١/ ٩).
(٥) مجاز القرآن (١٨).

فتفسير أبي عبيدة لما في القرآن من هذه الكلمات، إن هو من باب توافق اللفظ في الدلالة على المعنى الواحد.

وبسط أبو عبيدة قوله بمزيد من الأمثلة فقال: «وقد يوافق اللفظُ اللفظَ ويفارقه ومعناهما واحد، وأحدهما بالعربية والآخر بالفارسية أو غيرها، فمن ذلك الإستبرق بالعربية، وهو الغليظ من الدّيباج، والفرند، وهو بالفارسية إستبره».

وذكر أبو عبيدة أمثلة أخرى: البَلاس، والبَالِغَاء، والدّست، والسَّخت وغيرها، ثم قال: «وذلك كله من لغات العرب وإن وافقه في لفظه ومعناه شيء من غير لغاتهم»[١].

ونقل أحمد بن فارس كلام أبي عبيدة وأيده وجعله هو قول سائر أهل اللغة فقال: «وهذا كما قاله أبو عبيدة، وقول سائر أهل اللغة: إنه دخل في كلام العرب ما ليس من لغاتهم، فَعَلى هذا التأويل الذي تأوله أبو عبيدة»[٢].

القول الثاني: قول من يرى أنه وقع في أحرف من القرآن بلغات العجم.

فقد نُقِل عن بعض أئمة التفسير من التابعين وغيرهم من ذلك كلمات وهي:

طه، اليَمّ، الطور، الربانيون، وقالوا: إن هذه بالسريانيّة.

الصِّراط، القِسطاس، الفردوس، وقالوا: هذه بالرومية.

ومِشْكاة، وكفلين، قالوا: هذه بالحبشية.

وهَيْتَ لك، بالحورانية.

ذكر ذلك أبو عبيد القاسم بن سلام[٣].

---

(١) مجاز القرآن (١٧). (٢) الصاحبي (٥٠).

(٣) نقل قول أبي عبيد هذا السيوطي في المزهر (١/ ٢٦٨).

وقد جمع تلك الكلمات تاج الدين السُّبْكي في نظم، وأضاف له الحافظ ابن حجر ما يرى أنه فاته، فقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتتبع القاضي تاج الدين السبكي ما وقع في القرآن من ذلك ونظمه في أبيات ذكرها في شرحه على المختصر وعبر بقوله يجمعها هذه الأبيات فذكرها. وقد تتبعت بعده زيادة كثيرة على ذلك تقرب من عدة ما أورد ونظمتها أيضاً، وليس جميع ما أورده هو متفقاً على أنه من ذلك، لكن اكتفى بإيراد ما نقل في الجملة فتبعته في ذلك، وقد رأيت إيراد الجميع للفائدة فأول بيت منها من نظمي والخمسة التي تليه له وباقيها لي أيضاً فقلت:

مِنَ الْمُعَرَّبِ عَدَّ التَّاجُ كَزَّ(1) وَقَدْ أَلْحَقْتُ ... كَدَّ(2) وَضَمَّنْتُهَا الْأَسَاطِيرُ
السَّلْسَبِيلُ وَطَهَ كُوِّرَتْ بِيَعٌ ... رُومٌ وَطُوبَى وَسِجِّيلٌ وَكَافُورُ
وَالزَّنْجَبِيلُ وَمِشْكَاةٌ سُرَادِقُ مَعْ ... إِسْتَبْرَقٍ صَلَوَاتٌ سُنْدُسٌ طُورُ
كَذَا قَرَاطِيسُ ربانيهم وغسا ... ق ثُمَّ دِينَارُ الْقِسْطَاسِ مَشْهُورُ
كَذَاكَ قَسْوَرَةٌ وَالْيَمُّ نَاشِئَةٌ ... وَيُؤْتِ كِفْلَيْنِ مَذْكُورٌ وَمَسْطُورُ
لَهُ مَقَالِيدُ فردوس يُعد كَذَا ... فِيمَا حكى بن دُرَيْدٍ مِنْهُ تَنُّورُ
وَزِدْتُ حَرمَ وَمُهْلَ وَالسِّجِلَّ ... كذَا السَّرِيُّ وَالأَبُّ ثُمَّ الْجِبْتُ مَذْكُورُ
وَقِطَّنَا وَإِنَاهُ ثُمَّ مُتَّكَأً ... دَارَسْتَ يُصْهَرُ مِنْهُ فَهْوَ مَصْهُورُ
وَهَيْتَ وَالسَّكَرَ الْأَوَّاهُ مَعْ حَصَبِ ... وَأَوِّبِي مَعْهُ وَالطَّاغُوتُ مَنْظُورُ
صُرْهُنَّ إِصْرِي وَغِيضَ الْمَاءُ مَعْ وَزَرَ ... ثُمَّ الرَّقِيمُ مَنَاصٌ وَالسَّنَا النُّورُ»(3)

القول الثالث: هذا وقد رام الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ الجمع بين القولين السابقين، قول المنكرين، وقول المجيزين بقول ثالث:

فقال: «والصواب عندي مذهبٌ فيه تصديقُ القَوْلين جميعاً وذلك أنَّ

---

(1) كلمة تشير إلى العدد (٢٧).
(2) كلمة تشير إلى العدد (٢٤).
(3) فتح الباري (٨/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣).

هذه الحروف أصولُها عجمية كما قال الفقهاء، إلا أنها سقطت إلى العرب فأعْرَبتها بألْسِنتها وحوَّلتْها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال إنها عربية فهو صادق ومن قال عجمية فهو صادق، وإنما فسَّرنا هذا لئلا يُقْدِم أحد على الفقهاء فينسُبَهم إلى الجهل، ويتوهم عليهم أنهم أقدموا على كتاب الله جل ثناؤه بغير ما أراده الله ﷻ، وهم كانوا أعلم بالتأويل وأشدَّ تعظيماً للقرآن»[(١)].

يُعَلِّق أحمد بن فارس على كلام أبي عبيد فيقول: «وليس كل من خالف قائلاً في مقالته فقد نسبه إلى الجهل، وذلك أن الصدر الأول اختلفوا في تأويل آيٍ من القرآن، فخالف بعضهم بعضاً، ثم خالف من بعدهم مَنْ خَلَف، فأخذ بعضهم بقولٍ، وأخذ بعضهم بقول، حسب اجتهادهم، وَمَا دلَّتهم الدَّلالة عَلَيْهِ. فالقول إذن مَا قاله أبو عبيد، وإن كَانَ قوم من الأوائل قَدْ ذهبوا إِلَى غيره»[(٢)].

- **الوجه الثاني:**

اتجه بعض علماء اللغة إلى أن هذه الكلمات الدائرة بين أكثر من لغة، هي هكذا موضوعة ليس للغة بها اختصاص، فلا يقولنّ أحد أنها أعجمية دخلت أو نُقِلت إلى العربية، وهذا المذهب قاله ونصره العلّامة الكبير أبو الحسن علي بن مؤمن الشهير بابن عصفور[(٣)].

فقال في كتابه الممتع: «إذا نحن تكلمنا بهذه الألفاظ المصنوعة،

---

(١) نقله السيوطي في المزهر (١/ ٢٦٨).

(٢) الصاحبي (٥١).

(٣) هو الإمام اللغوي الكبير: أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن علي الحضرمي الإشبيلي، من أشهر كتبه: الممتع، توفي سنة (٦٦٣هـ)، انظر ترجمته في: بغية الوعاة (٢/ ٢١٠)، وشذرات الذهب (٥/ ٣٣٠).

كان تكلماً بما لا يرجع إلى لغة من اللغات»[١].

وهو مصير منه إلى أن بين العربي والعجمي واسطة من كلام لا يرجع إلى لغة من اللغات؛ بل هو دائر بينها.

ونقل السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الاقتراح قول ابن عصفور، وأفاد بأن أبا حيان[٢] في التسهيل وافق ابن عصفور، حيث عبّر بالنقل، ولا نقل في المصنوعة[٣].

وحقيقة هذا القول: أن اللغة الأعجمية على اختلاف أنواعها، وتباين أجناسها، موضوعة لأهلها بالرواية عنهم لم يختلقها أحد، والقول الذي اختاره ابن عصفور، هو أن العرب تكلمت بهذه الألفاظ إنما تكلمت بما لم يضعه واضع، فلا يتم قول من قال إنها أعجمية؛ لأنه لم يكن من وضع أهل اللسان العجمي، إلا أن يتكلف أحد لذلك بما لا يخلو من تعسف[٤].

وإنما توسع بعض المتأخرين من المشتغلين باللغة والأدب توسعاً لا تحمد عقباه، ويصدر عن غير تحقيق ولا رويّة، بل ربما للأصول الأعجمية، والحركة الشّعُوبية دورها في هذا التوسع، وسأمثّل لذلك بما صنعه أبو منصور النيسابوري المعروف «بالثعالبي»[٥].

---

(١) الممتع (٢/ ٧٣٣).

(٢) هو: الإمام أثير الدين أبو حيّان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان الأندلسي الغرناطي النّفزي نسبة إلى نفزة بكسر النون وسكون الفاء قبيلة من البربر، نحوي عصره ولغويّه، من مصنفاه: شرح التسهيل، والنضار، توفي سنة (٧٤٥هـ). انظر: شذرات الذهب (٨/ ٢٥١).

(٣) فيض نشر الإنشراح من روض طي الاقتراح لابن الطيب الفاسي (١/ ٣٨٨).

(٤) انظر: المصدر السابق (١/ ٣٨٢).

(٥) هو: أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري من أهل فارس، =

فإن الثعالبي إنما فنّه الأدب والأشعار ومجالس الأسمار كمجالسه مع أمير خوارزم التي جمعها في كتابه الشهير «الخوارزمشاهيات»[١]، واشتهر كتابه الأدبي «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر»[٢].

والثعالبي فيما يألف هو جَمَّاعٌ؛ بل ربما إنه يسطو على كتب سبقته فيشفّها شفّاً، ولذلك نسبت له عدة كتب عديدة بعناوين، إنما هي لغيره.

ومن ذلك:

١ ـ كتاب «تحفة الظُّرفا وفاكهة اللُّطفا» المنسوب للثعالبي، إنما هو في الحقيقة كتاب الإمام علي بن أحمد النيسابوري الواحدي المتوفى سنة (٤٦٨هـ) وعنوانه الحقيقي كتاب «الدعوات والفصول»[٣].

٢ ـ «المنتحب من أشعار العرب» نُسب للثعالبي وهو ليس له[٤].

٣ ـ كتاب «الشكوى والعتاب» للثعالبي وهو في الحقيقة كتاب «ربيع الأبرار» لمحمود الخوارزمي الشهير بالزمخشري[٥].

كما عُرف عن الثعالبي إعادة تصنيف كتبه أو بعضها بعناوين جديدة.

١ ـ كتابه الشهير «فقه اللغة» والذي سيكون موضع حديثنا ونقدنا إن

= كان يعمل في خياطة جلود الثعالب في شبابه ولذلك قيل له الثعالبي، المتوفى سنة (٤٢٩هـ).

(١) ولهذا الكتاب اسم آخر هو «منادمة الملوك»، انظر المقدمة التي كتبها هلال ناجي والدكتور زهير زاهد في تحقيقهما لكتاب الثعالبي «التوفيق للتلفيق» (٣٠ ـ ٣١)، وكذا طبقات النحاة واللغويين (٣٨٨).

(٢) مطبوع بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

(٣) انظر: المقدمة التي كتبها الدكتور عادل الفريحات لتحقيقه للكتاب المذكور.

(٤) انظر أدلة ذلك في: مقدمة تحقيق الكتاب المذكور للدكتور عادل سليمان جمال.

(٥) انظر: مقدمة كتاب الشكوى والعتاب، تحقيق د. إلهام المفتي.

شاء الله تعالى، أعاده الثعالبي كاملاً بعنوان: «سر الأدب في مجاري كلام العرب»[١].

٢ ـ كتابه المعنون «نسيم السحر» هو جزء مقتطع من كتابه «فقه اللغة»[٢].

٣ ـ ألف الثعالبي بنيسابور في حدود سنة «٤٠٠هـ» كتابه الذي عنونه «النهاية في الكناية» وأهداه إلى أمير نيسابور أبي الفضل عبيد الله بن أحمد بن ميكال؛ لينال جائزته ثم لما كان بخوارزم واتصل بأميرها أبي العباس مأمون خوارزمشاه في حدود سنة (٤٠٧هـ) أعاد ذات الكتاب وعنونه «الكناية والتفويض» وأهداه له ونال جائزته[٣].

وأما كتابه «فقه اللغة وسرّ العربية» ففي هذا الكتاب توسّع الثعالبي في ذكر المعرب وأنه واقع بكثرة في اللغة والقرآن، وقسمه إلى ثلاثة أقسام كما سيأتي، وقبل النظر فيما ذكر ننبّه إلى أمور:

(١) أن الثعالبي في كتابه هذا خصوصاً قسمه الثاني «سرّ العربية» إنما هو في الحقيقة عالة على كتاب الإمام اللغوي الكبير أحمد بن فارس المتوفى سنة (٣٩٥هـ) وهو كتاب «الصاحبي».

يقول محقق كتاب «فقه اللغة» للثعالبي، الدكتور: خالد فهمي: «ويكاد يوقن المتصفح للكتابين أن الثعالبي كان عالة في سر العربية على كتاب «الصاحبي» لابن فارس، لدرجة تجعلنا نقول دون شطط: إن الثعالبي لا جهد له يذكر تقريباً في هذا الكتاب اللَّهُمَّ إلا إعادة توزيعه»[٤].

---

(١) انظر: مقدمة عادل الفريجات (٧).

(٢) انظر: مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد (٦١) جزء (٣) صفحة (٤٥٠).

(٣) انظر: المقدمة التي كتبها د. أسامة البحيري لكتاب الكناية والتفويض للثعالبي (١١).

(٤) مقدمة تحقيق «فقه اللغة» (٥٨).

إلا أن الثعالبي حذف ما ذكره ابن فارس في أول كتابه «الصاحبي» عن فضل لغة العرب على غيرها من اللغات وسعتها وأنه ليس في كتاب الله تعالى شيء بغير لغة العرب[١].

ونبّه على ذلك أيضاً محقق كتاب «الصاحبي» الشيخ أحمد صقر[٢].

(٢) واضح أن الثعالبي ميّالٌ لعرقه الفارسي، ويظهر ذلك بوضوح في أمرين:

الأول: أنه صنّف عدداً من المصنفات عن الفرس وفضلهم وملوكهم ومن ذلك:

- كتاب: «غُرر أخبار ملوك الفرس»[٣]، ونَقَل ذلك من كتب تواريخ الفرس المدونة بالفارسية لكونه كان يحسن لغته الأم.
- كتاب «الفصول الفارسية»، ذكره معزواً للثعالبي ابن قاضي شهبة في طبقاته[٤].

الثاني: ما زعمه في كتابه هذا «فقه اللغة» من أن كثيراً من المفردات العربية ومنها كثير في القرآن الكريم إنما هو مفردات أصولها فارسية وتوسع في ذلك وذكر عدداً كبيراً من الكلمات والمفردات العربية الصريحة خصوصاً مما يكثر ورودها في القرآن الكريم، هكذا بلا دليل ولا تأصيل ولا تحليل، وقسمها إلى ثلاثة فصول وهو أمر لا أعلم أن أحداً حتى ممن جوّزوا دخول المعرّب إلى لسان العرب والقرآن، ذكره كما فعل الثعالبي.

---

(١) الصاحبي (٤٧).
(٢) مقدمة التحقيق (٥).
(٣) أفاد الدكتور خالد فهمي أن هذا الكتاب طبع في باريس سنة ١٩٠٠م بعناية المستشرق الفرنسي «زوتنبرج». انظر: مقدمة كتاب فقه اللغة للثعالبي (٢٦).
(٤) انظر: مقدمة كتاب التوفيق للتلفيق (٣٥).

ففي الباب التاسع والعشرون من القسم الأول من الكتاب، قال الثعالبي: باب ما يجري مجرى الموازنة بين العربية والفارسية[١]، ثم ذكر أربعة فصول:

الفصل الأول: في سياقة أسماء فارسيِّتها منسيَّة وعربيتها محكية مستعملة[٢]، ثم ذكر كمّاً كبيراً من المفردات العربية المعلومة عربيّتها، والسائرة في كلام العرب وأشعارها، والواردة في القرآن الكريم الذي هو بلسان عربي مبين.

ولم يقدم الثعالبي أي دليل أو برهان لما ذكر، فهو زعم خالٍ من أي تحقيق علمي.

ثم من أين عرف أن هذه المفردات فارسية منسيَّة، فهل عرف الكلام الذي اندثر في غابر الزمان؟ ليس إلا الزعم الذي ليس وراءه إلا نفسيّة تحنّ لأصولها الفارسية، فكيف سيُقبل منه: أن كلمات الحسد، والحلال والحرام، والشراب، والصّواب، والخطأ، والغلط، والوسوسة، والكساد، والنّصيحة، والصورة، والنّعل، والوفاء، والجفاء، وأمثالها، أنها فارسية الأصل لكن نسيتها أمة الفرس، وحفظتها أمة العرب وصارت في كلامها؟!

وأما **الفصل الثاني**: فقال فيه: في أسماء عربية يتعذَّر وجود فارسيّة أكثرها[٣].

وهو كالأول في الزعم وحتى لا يطالب بإثبات أن هذه الكلمات العربية أصولها فارسية زعم: أنه يتعذر وجود أصولها الفارسية. إذن فما بقي إلا الزعم الباطل والادعاء الخالي من الحجة والبرهان.

---

(١) فقه اللغة (٢/ ٥٢٢).
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق (٢/ ٥٢٤).

والأدهى أنه وضع في هذا الفصل معظم الكلمات العربية الإسلامية الواردة بكثرة في القرآن العظيم من مثل: الزكاة، الحج، المسلم، المؤمن، الكافر، المنافق، الفاسق التيمم، الطلاق، الظِّهار، الإيلاء، القِبْلة ونحوها.

أما **الفصل الثالث**: فقد ذكر فيه ما يقع بالتواطئ والاشتراك في اللغتين وهو الذي ذكره الإمام الشافعي وأبو عبيدة معمر بن المثنى قبلُ.

فقال الثعالبي: في ذكر أسماء قائمة في لغتي العرب والفرس على لفظٍ واحد[١]، ولكنه لم يذكر في هذا الفصل إلا بضع كلمات فقط هي: التَّنُّور، الخمير، الزمان، الدِّين، الكنز، الدينار، الدرهم.

وأما **الفصل الرابع** فجعله الثعالبي: في سياق أسماء تفردت بها الفرس دون العرب، فاضطرت العرب إلى تعريبها أو تركها كما هي[٢].

وجميع ما ذكره في هذا الفصل إنما هو في أسماء الأواني: كالطِّست، أو الملابس كالدِّيباج، أو الجواهر كالياقوت، أو الأطعمة والحلويات كالسّكباج والفالوذج، أو الأنبذة كالجلاب، أو التوابل كالفلفل والخولنجان، أو الرياحين كالنرجس والنَّسرين والجلنار، أو الأطايب كالمسك والعنبر.

ثم أضاف الثعالبي **فصلاً خامساً**: في ما حاضرت به مما نسبه بعض الأئمة إلى اللغة الرومية[٣].

وذكر مفردات كثيرة: كالفردوس، والقسطاس وغيرها.

وهذا توسع مردود، وهو ادعاء من الثعالبي تأُزُّه إليه نفسِّية فارسية، هذا وقد حذر قدماء علماء اللغة وأعلامها الكبار من مثل فعل الثعالبي.

---

(١) فقه اللغة (٢/ ٥٢٥).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٢٥٦).
(٣) المصدر السابق (٢/ ٥٣٠).

فقال **الخليل بن أحمد** رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن النحارير منهم ربما أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب إرادة اللَّبس والتَّعنيت»[١].

ونقل أحمد بن فارس كلام الخليل هذا بالسند عنه، ثم علّق عليه فقال: «فليتحرَّ آخذ اللغة وغيرها من العلوم أهل الأمانة والثقة والصدق والعدالة فقد بلغنا من أمر بعض مشيخة بغداد ما بلغنا، والله جل ثناؤه نستهدي التوفيق، وإليه نرغب في إرشادنا لسبل الطريق إنه خير موفق ومعين»[٢].

ثم إن الثعالبي نفسه رد على غيره شيئاً من ذلك مستنداً إلى أنهم فعلوا ذلك تعصباً، فنقل عن الأزهري أنه قال عن العمائم المهرَّاة: «أن تلك العمائم المهرّاة كانت تحمل إلى بلاد العرب من هراة»[٣]، فرده الثعالبي قائلاً: «وأحسبه اخترع هذا الاشتقاق تعصباً لبلده هذه»[٤].

ثم ردّ على آخر وهو حمزة الأصبهاني قوله: «السَّام: الفضة، وهو معرّب عن سِيْم»[٥].

فرده الثعالبي قائلاً: «وإنما تقول هذا التعريب وأمثاله تكثيراً لسواد المُعرَّبات من لغات الفرس وتَعصّباً لهم»[٦].

فما رده الثعالبي هنا وقع فيه هناك فيما نقل وزعم.

- **الوجه الثالث:**

إن هذه الكلمات التي جُمعت وذكرت أنها من ما نُقِل من اللغات الأخرى إلى لسان العرب، وسُمِّيَت اصطلاحاً «بالمُعَرَّب» ودخلت في القرآن العظيم، هي على أنواع:

---

(١) كتاب العين (١/ ٥٣).
(٢) الصاحبي (٥٣).
(٣) تهذيب اللغة (٦/ ٤٠١).
(٤) فقه اللغة (٢/ ٤١٤).
(٥) كتاب الجماهر في معرفة الجواهر (٢٤٢).
(٦) فقه اللغة (٢/ ٤١٤ ـ ٤١٥).

النوع الأول: ما كان من أسماء الأعلام من الأنبياء السابقين أو الأعلام الماضيين من الأمم الغابرة، فهذه أسماء الأعلام تنقل وتذكر في كل لغة كما هي لأنها اسم وضع للدلالة على علم مسمّى به، فإذا ذُكرت هذه الأعلام في العربية وفي القرآن إنما تُذكر كما هي، وصار لها في إعرابها بابٌ في علم النحو العربي: فهي ممنوعة من الصرف لعلتين، العلة الأولى: كونها أعلاماً، والعلة الثانية: كونها عجمية.

ويدخل في هذا النوع كل أسماء الأعلام التي في القرآن كإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، وأيوب، ويونس، ويوسف، وموسى، وعيسى، وإلياس، وداود، وسليمان، من أسماء أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام.

وكذا فرعون، وهامان، وقارون، ولقمان، وطالوت، وجالوت، ونحوهم، فلا يمكن لأحد أن يقول إن في القرآن ما ليس بلغة العرب لأجل ورود هذه الأسماء لأولئك الأعلام فيه، فهي أسماء لأشخاص وأعلام تلزم حالها مهما دارت بين اللغات.

فإبراهيم هو إبراهيم في العبريّة والسريانيّة والعربية وغيرها، وكذا إسحاق ويعقوب وإسماعيل وغيرها من الأسماء.

قال **السيوطي**: «ولا خلاف في وقوع الأعلام الأعجمية في القرآن»[1].

وكذلك أسماء الأماكن: كبَابل، ومَدْيَن، ويَثْرب، وإرَم، وطُوى.

النوع الثاني: أسماء وضعها الله تعالى لأشياء معلومة مما سبقت لغات الخلق، بل سبقت وجودهم فهذه لا يمكن لأحد أن يزعم أنها تتبع لغة من اللغات لا عربية ولا أعجمية، ومن هذا النوع مما جاء في القرآن:

---

(١) التحبير في علم التفسير (٢٠٠).

• أسماء الملائكة الكرام: جبريل، ميكائيل، عليهما السلام.

ويدخل فيه: هاروت وماروت، فإنهما ملكان أُنزلا للفتنة والاختبار في أمر السحر.

• جهنم: وهو اسم سمّى الله تعالى به ناره العظيمة الموقدة التي هي عذابه التي يعذب بها من شاء من خلقه وهو اسم لا يتبع لغة من اللغات إلا بالزعم والادعاء، فإن الله تعالى خلق هذه النار وسمّاها بهذا الاسم الذي لا يطلق على غيرها قبل وجود آدم عليه السلام، وهذا ما يفسّر خلاف أهل اللغة فيها، فمنهم من جعلها عربية كما هو قول الجوهري وابن خالويه وغيرهم، وفسّروها بأنها مأخوذة من الجِهِنَّام، وهو القعر البعيد، العرب تقول: بئر جِهِنّام؛ أي: بعيدة القعر[١].

ومنهم من جعلها أعجمية وهؤلاء اختلفوا، فمنهم من جعلها فارسية معرَّبة، ومنهم من جعلها عبرانية تعريب للكلمة العبرانية «كِهِنَّام».

واعلم أن ببيت المقدس ياور الصخرة وادٍ يسمى في كتب يهود «وادي بن هِنُّوم في الناحية الجنوبية الشرقية من سور بيت المقدس، وهذا الوادي حسب «الكتاب المقدس» شاهد على وثنية اليهود، ففي هذا الوادي يقدمون ضحاياهم وربما من أولادهم للصنم «مَلْك» أو «مُوْلَك» وأصل كلمة «مولك»، فينيقي يدل على نوع من أنواع الذبائح، وقد أُلِّه في أوغاريت حيث يوجد هذا الاسم في لائحة أسماء الآلهة، أما في إسرائيل فقد كانوا يفعلون ذلك من تقديم الضحايا من أولادهم «المولك» في هذا الوادي «ابن هِنّوم»، وقد عُرف «مولك» كأله في بني إسرائيل.

و«هِنّوم» فُسرت باللعنة والعذاب، عندما نزع النبي «يوشيا» حرمة هذا الوادي وأبطل ما يقدم من ضحايا، فتحول إلى مزبلة، وأصبح رمزاً

---

(١) لسان العرب (١٢/ ١١٢).

للعنة الأبدية في الأدب الرؤيوي، وبهذا المعنى يستخدم «هِنوم» في إنجيل متى حيث ورد ذكره عشر مرات، فلما تُرجم الكتاب المقدس إلى العربية استعيرت كلمة «جهنم» باعتبارها موضع العذاب الأبدي واللعنة الأبدية، ووضعت موضع كلمة «هِنُوم»، ولم يرد في الكتاب المقدس إطلاقه على نار الآخرة مطلقاً(١)، ومنه نرد المغالطة الشنيعة التي اعتمدتها دائرة المعارف البريطانية عندما زعمت أن «جهنم» في القرآن هي وادي «هِنّوم» في الكتاب المقدس(٢).

وهناك أقوال أخرى بعيدة لا دليل عليها، ولم ترد في شعر العرب وكلامها قبل الإسلام، وقبل نزول القرآن، اللَّهُمَّ إلا في بيت يتيم للأعشى وهو قوله:

دعوتُ خليلي مِسَحلا ودعوا له ... جُهُنَّام جَدْعاً للهجين المُذَمَّمِ

وجُهُنَّام هنا لقب لرجل اسمه: عمرو بن قطن من بني سعد بن قيس بن ثعلبة كان يهاجي الأعشى، وقيل اسم تابعته من الجن(٣).

ولم يذكر الحسن بن محمد الصَّغاني في كتاب الشوارد إلا هذا فقال: «جهنم: اسم تابعة الأعشى جُهُنَّام بضم الجيم والهاء»(٤).

فهي اسم وضعه الله تعالى لناره العظيمة علمٌ عليها لا يسمى به غيرها إلا تجوُّزاً، ولا تتبع لغة من اللغات.

وكذا «سَقَر» كما قال تعالى: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨﴾ [القمر: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢﴾ [المدثر: ٤٢]، من أسماء النار التي هي عذاب الله تعالى.

---

(١) متى (٥/ ٢٢)، وسفر الرؤية (١٤/ ١٠)، وسفر الأحبار (١٨/ ٢١)، وسفر الأخبار الأول (٢٨/ ٣)، و(٣٣/ ٦)، وسفر الملوك الثاني (٢٣/ ١٠).

(٢) دائرة المعارف البريطانية (٥/ ٥٨٢ ـ ٥٨٤).

(٣) المصدر السابق.

(٤) الشوارد (٢٠٨).

وكذلك «لظى» قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [المعارج: ١٥].

قال **الإمام الطبري** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما سقر فإنها اسم باب من أبواب جهنم، وترك إجراؤها لأنها لمؤنث معرفة»(١).

وقال **القرطبي**: «سقر اسم من أسماء جهنم لا ينصرف لأنه اسم مؤنث معرفة، وكذا لظى وجهنم»(٢).

وإن كانت «لظى» عربية، ولذلك جاءت بالاسم «لظى» قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾﴾، وجاءت بالفعل ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الليل: ١٤]، فاشتق اسمها من فعلها، وتلظى معناه: تتوقد، أصله اللزوم والإلحاح، ومنه حديث: «ألظوا بياذا الجلال والإكرام»(٣).

وأضف إلى ذلك ما ذكره الخليل: أن من خصائص العربية حرف الظاء فقال: «وليس في شيء من الألْسُن ظاء غير العربية»(٤).

النوع الثالث: ما سوى ذلك من أسماء الأجناس مما ورد في القرآن، مما زعموا أنه أعجمي فسننظر في أشهر هذه الأسماء والكلمات مما قيل إنها غير عربية، ونترك ما تكلفه المتكلفون، فإذا ثبتت عربية الأشهر الأظهر فغيره كذلك من باب أولى.

قرّر **الإمام اللغوي الكبير**: الخليل بن أحمد الفراهيدي رَحِمَهُ اللَّهُ: أن اللغة العربية امتازت عن سائر اللغات بالحروف الذُّلْق وهي ثلاثة: الراء، واللام، والنُّون، والأحرف الشفويّة وهي أيضاً ثلاثة: الفاء، والباء، والميم، فقال: «اعلم أنَّ الحروف الذُّلْقَ والشَّفَوِيَّةَ ستَّة وهي: ر، ل، ن،

---

(١) تفسير الطبري (١١/ ٥٦٨). (٢) المصدر السابق (١٧/ ٩٦).

(٣) انظر: كتاب: ما وقع في القرآن من الظاء لأبي الربيع السرقوسي (١٦)، والحديث أخرجه الترمذي (٣٥٢٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٣٦).

(٤) كتاب العين (١/ ٥٣).

ف، ب، م، وإنَّما سُمِّيَتْ هذه الحروف ذُلْقا لأن الذلاقة في المنطق، إنّما هي بطَرَف أَسَلة اللِّسان والشفتين، وهما مدرجتا هذه الأحرف الستة، منها ثلاثة ذليقة ر، ل، ن، تخرج من ذَلْقَ اللسان؛ من طَرَف غار الفم، وثلاثة شفوية: ف، ب، م، مخرجها من بين الشَّفَتَيْن خاصة، لا تعمَلُ الشَّفتان في شَيء من الحُرُوف الصِّحاح إلَّا في هذه الأحرف الثلاثة فقط، ولا ينطلق اللِّسانُ إلا بالرَّاء، واللّام، والنون، وأما سائر الحروف فإنَّها ارتفعَتْ فوق ظهر اللِّسان من لَدُنْ باطِن الثنايا من عند مَخْرَجْ التاء إلى مخرج الشين بين الغارِ الأعلَى، وبين ظَهْر اللِّسان، ليس للِّسان فيهِنَّ عَمَلُ، كثُر من تحريك الطبقتين بهنَّ، ولم ينحرفْنَ عن ظهر اللِّسان انحراف الرَّاء واللّام والنُّون، وأمَّا مَخْرَج الجيم والقافِ والكافِ فمن بين عكدة اللِّسان، وبين اللَّهاة في أقصى الفَم، وأما مَخْرَجُ العين والحاء والهاء، والخاء والغين فمن اَلْحَلْقُ. . .»[1].

قال **الخليل**: «فلمَّا ذَلَقَتِ الحُروفُ السِّتَّةُ، ومَذَلَ بِهِنَّ اللِّسان وسَهُلَتْ عليه في المَنْطِقِ كَثُرَتْ في أَبنِيَةِ الكلام، فليس شَيْءٌ من بِناء الخماسيِّ التَّامِّ يَعْرَى منها أو من بعضها»[2].

وبعد هذه المقدمة العلمية الرائعة من هذا العالم اللغوي الفذ عن اختصاص وامتياز لسان العرب بهذه الحروف السِّتَّة الذُّلْق والشفوية، بنى على هذه المقدمة هذه النتيجة المهمة التي هي قاعدة لغوية نفيسة.

فقال: «فإن وَرَدَتْ عليك كلمة رباعيَّة أو خماسيَّة معرَّاة من حروف الذَلَق أو الشفوية ولا يكون في تلك الكلمة من هذه الحروف حرف واحد أو اثنان أو فوق ذلك فاعلم أنَّ تلك الكلمة مُحْدَثة مُبْتَدَعة، ليست من كلام العرب لأنك لست واجداً من يسمع من كلام العرب كلمة واحدة

---

(١) كتاب العين (١/ ٥١ ـ ٥٢).

(٢) المصدر السابق (١/ ٥٢).

رباعيَّة أو خماسيَّة إلَّا وفيها من حروف الذَلَق والشفوية واحد أو اثنان أو أكثر»[(١)].

وهنا يستوقفه تلميذه الليث بن المظفَّر يسأل إمامه الخليل هذا السؤال؟

قال الليث: قلت: فكيف تكون الكلمة المولَّدة، المبتدعة غير مشوبة بشيء من هذه الحروف؟

فأجاب الخليل: «نحو الكَشَعْثج والخَضَعْثَج والكَشَعْطَج وأشباهِهِنَّ، فهذه مولَّدات لا تجوز في كلام العرب؛ لأنه ليس فيهن شيء من حروف الذَلَق والشفوية فلا تَقْبَلنَّ منها شيئاً، وإنْ أشبَهَ لفظهم وتأليفهم، فإن النحارير منهم ربَّما أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب إرادة اللَّبس والتَعنُّت»[(٢)].

ثم أفاد الخليل بأنه لا يشذّ عن هذه القاعدة إلا كلمات معدودات نحواً من عشر كلمات.

فقال: «وأما البناءُ الرباعيُّ المُنبَسِطِ فإنَّ الجُمهور الأعظم منه لا يَعْرَى من الحروف الذُلْق أو من بعضها، إلَّا كلمات نحواً من عشر هنَّ شواذّ، ومن هذه الكلمات: العَسْجَدُ، والقَسْطوس، والقُداحِس، والدُعشُوقةُ، والهُدْعةُ، والزُهْزُقَةُ، وهي مُفَسَّرة في أماكنها... وهذه الأحرف قد عَرينَ من الحروف الذُلْق، ولذلك نَزَرْنَ فَقَلَلْنَ. ولولا ما لزِمَهُنَّ من العين والقاف ما حَسُنَّ على حال»[(٣)].

وبعد هذا التأصيل البارع[(٤)] الذي ملخصه: أن أي كلمة رباعية أو

---

(١) كتاب العين (١/ ٥٢). (٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق (١/ ٥٣).

(٤) لا يلتفت إلى محاولة بعض متأخري اللغويين التشكيك في كتاب العين وفي صحة نسبته للخليل، كما فعل السجستاني والقالي وأشدهم الأزهري، فإن =

خماسية دخلها حرف أو أكثر من الحروف الذلق الثلاثة: ر. ل. ن، أو الحروف الشفوية الثلاثة: ف. ب. م، فهي كلمة عربية لا أعجمية، وبناءً عليه سنذكر ما ورد في القرآن من أسماء الأجناس مما زُعم أنه أعجمي وهو عربي، ولذلك تكلمت به العرب وورد في القرآن الكريم.

• «إِسْتَبْرَق»:

ورد في عدة آيات كريمات في وصف لباس أهل الجنة، فهو اسم لنوع من القماش، وفسّروه بأنه الدِّيباج الغليظ، وبعضهم فسّره بأنه الديباج المُحَلى بالذهب، وكما ترى فيه حرف «الباء» وهو من الحروف الشفوية، وكذلك حرف «الراء» وهو من حروف الذلْق، ثم دخل عليها حرف «القاف»، وقد قال الخليل أيضاً: «والعين والقاف لا تدخلان في بناء إلا حسَّنَتَاه؛ لأنهما أطلق الحروف وأضخمها جرساً، فإذا اجتمعا، أو أحدهما في بناء حَسُن البناء لنصاعتهما، فإن كان البناء اسماً لزمته السين، أو الدال مع لزوم العين أو القاف»[1].

فهذه الكلمة اجتمع فيها كل ذلك: ففيها من الحروف الذُلْق «الراء»، وفيها من الشّفوية «الباء»، ودخلتها «السين» و«القاف»، فهي إذن عربية ولا شك.

والذين قالوا وزعموا: إن «استبرق» كلمة فارسية معرّبة، مما يدل

= الأزهري مع تحامله الشديد على كتاب العين وزعمه أنه ليس للخليل وعدم ذكره للخليل ضمن مصادره في كتاب تهذيب اللغة، إلا أنه أقام كتاب تهذيب اللغة على كتاب العين. انظر لذلك ولرد صنيع الأزهري وغيره: المزهر للسيوطي (١/ ٨٠ ـ ٨٨)، ومقدمة كتاب العين للمحققين، د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، ومقدمة كتاب البارع لأبي علي القالي للمحقق، د. هشام الطعان (٦٦) وما بعدها.

(١) كتاب العين (١/ ٥٣).

على ضعف قولهم أنهم اختلفوا اختلافاً متبايناً في تحديد ما هو الأصل الفارسي لهذه الكلمة.

فالجواليقي جعلها: «استَفْرَهْ»(١).

وابن دريد جعلها: «استَرْوَهْ»(٢).

وأبو الحسن الهُنائي جعلها: «استَبْرَهْ»(٣).

والسيوطي علها: «ستبرة»(٤).

ومما يدل على عربيتها ورودها في أشعار العرب، فأنشدوا للمرقِّش قوله:

تَرَاهُنَّ يَلْبَسْنَ المَشاعِرَ مَرَّةً وإسْتَبْرَقَ الدّيباجِ طَوْراً لِباسُها(٥)

ومما يدل على عربيتها: أنهم ذكروا تصغيره على: «أُبَيْرق»(٦).

ومما يدل على عربيتها: أنهم ذكروا أن إستبرق؛ إستفعالٌ من البَرِيق(٧)، فالقول بأنها أعجمية بعد هذا كله، ليس معه إلا الزعم الخالي من أي حجة وبرهان.

• «سُنْدُس»:

ورد في عدة آيات كريمات في وصف لباس أهل الجنة فهو نوع من القماش، وفسَّروه بأنه الرقيق من الدّيباج.

فكما ترى في هذه الكلمة من الحروف الذُّلْق حرف «النون» ودخلها

---

(١) كتاب المُعَرَّب (٦٣).
(٢) جمهرة اللغة (٣/ ٥٠٢).
(٣) المجرد في غريب كلام العرب (١٢٤).
(٤) المهذب في معرفة المعرب.
(٥) نقله ابن جرير في تفسيره (٨/ ٢٢١)، وكذا القرطبي (١٠/ ٢٥٨).
(٦) صحاح الجوهري (٤/ ١٤٥٠) مادة: (برق).
(٧) انظر: القرطبي (١٠/ ٢٥٨).

في أولها وآخرها حرف «السين» وكذا «الدال» فكما قال الخليل: «فإن كان البناء اسماً لزمته السين أو الدال»، فهذه الكلمة لزمتها السين والدال مع توسط حرف النون من الحروف الذلق، فدل ذلك على عربيتها.

وسُنْدُس عندهم جمع، ومفردُهُ كلمة «سُنْدُسة» كما قال الكسائي[١] ونقل كلامه الطبري[٢].

ومن زعم أنها فارسية عجزوا عن أن يذكروا ما يقابلها في الفارسية، وإنما زعموا هكذا أنها فارسية[٣].

حتى جاء المستشرق الألماني الشهير: «آرثر جِفْرِي» فدلهم على أصلها كما يزعم ولكنه تردد هل هي فارسية أو سريانية[٤].

فيحق لنا أن نردد بيت المتنبي:

وماذا بمصر من المضحكات ولكنّه ضحِكٌ كالبُكا
بها نَبَطِيٌّ من أهل السّواد يُعَلِّمُ أنساب أهل الحِجَا[٥]

● «السلسبيل»:

قال الله تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝١٨﴾ [الإنسان: ١٨]، هذا اسم وصف الله تعالى به هذه العين التي في الجنة، وهذه العين والجنة ربما خلقت قبل آدم ووصف الله هذه العين بهذا الوصف «سلسبيلاً».

فجاء من يزعم من عنده أنه عبراني، وهي «سلسبيلاً» قبل أن يخلق الله البشر، فما هذا إلا الادعاء بعينه.

---

(١) تفسير القرطبي (١٠/٢٥٨). (٢) المصدر السابق (٨/٢٢١).
(٣) انظر: السامي في الأسامي للميداني (١٣٢)، والمعرّب للجواليقي (١٧٧)، وشفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل للشهاب الخفاجي (١٠٤).
(٤) مفردات القرآن الأجنبية (١٧٩).
(٥) انظر: ديوان المتنبي (٤٩٩).

وسننظر فيه من وجوه:

- **الوجه الأول:**

على قاعدة الخليل بن أحمد السابق ذكرها: فإن «سلسبيلاً» فيها من الحروف الذّلق «اللام»، وفيها من الحروف الشفوية «الباء».

أولها حرف «السين» ثم «اللام» الذلقية ثم «السين»، ثم «الباء» الشفوية، فأي عربية أنصع من هذه؟!

وليس في لغة العبرانيين مثل هذا التركيب، «والسين» لا ينطقونها، بل يقلبونها «شيناً»، «فموسى» عندهم: «موشى»، وسلام عندهم: «شَلام»، وهكذا، فمن جعل هذه الكلمة العربية الناصعة، عبرانية، فقد أعظم الفرية، وقلّد بلا روية.

- **الوجه الثاني:**

أن «سلسبيلاً» صفة للعين لا اسم لها، نقل ابن جرير الطبري إجماع أهل التأويل على ذلك(١).

ونقل عن أهل التفسير أن لها معنيين:

الأول: «سلسبيلاً»؛ أي: سَلِسَةٌ مُنْقادٌ ماؤها يصرفونه حيث شاءوا، ونقل هذا التفسير عن قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ.

والثاني: أن «سلسبيلاً»؛ أي: شديدة الجريان، ونقل هذا المعنى عن: مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «والصواب من القول في ذلك عندي أن قوله: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ صفة للعين، وُصِفت بالسلاسة في الحلق، وفي حال الجري، وانقيادها لأهل الجنة يصرّفونها حيث شاءوا، كما قال

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٣٦٩).

مجاهد وقتادة؛ وإنما عني بقوله (تُسَمَّى): توصف، وإنما قلت ذلك أولى بالصواب لإجماع أهل التأويل على أن قوله: (سَلْسَبِيلا) صفة لا اسم»[(١)].

● **الوجه الثالث:**

قال الجوهري: «قال الأكثرون: يقال شراب سلسل، وسلسال، وسلسبيل؛ أي: عذب سهل المسانح، وإنما زيدت الباء في التركيب للدلالة على بلوغ الغاية في السلامة، والمعنى الذي ذكره أئمة اللغة في السلسبيل ذكروه في صفات الماء السلسال مع اختصاص الأول بغاية السلاسة»[(٢)].

وقال ابن سيده: «ماء سلسال؛ أي: ماء جارٍ، وتقدم أنه السهل في الحلق»[(٣)].

وأما الفيروزآبادي فقال: «السلسبيل: اللين الذي لا خشونة فيه، والخمر وعين في الجنة»[(٤)].

ونقل الإمام محمود بن حمزة الكرماني[(٥)] رَحِمَهُ الله في كتابه «البرهان» عن الإمام عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ الله معنىً لطيفاً في «سلسبيلاً».

فقال الكرماني: «وقال ابن المبارك رَحِمَهُ الله: معناه: سَلْ من الله إليه سبيلاً».

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٣٦٩).

(٢) تاج اللغة وصحاح العربية (٥/ ١٧٣١ ـ ١٧٣٢).

(٣) المخصص (٩/ ١٤٧).

(٤) القاموس المحيط (١٠١٦).

(٥) هو: الإمام محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، تاج القراء، وأحد العلماء الفقهاء النبلاء، كان عجباً في دِقَّة الفهم، وحسن الاستنباط، توفي سنة (٥٠٠هـ)، انظر: معجم الأدباء لياقوت (١٩/ ١٢٥)، وطبقات القراء للذهبي (١٥٩)، وغاية النهاية لابن الجزري (٢/ ٢٩١) وغيرها.

ثم عقّب الكرماني قائلاً: «فيجوز أن يكون اسمها «زنجبيلاً»، ثم ابتدأ فقال: «سَلْ سَبيلاً» فيجوز أن يكون اسمها[١] هذه الجملة، كقولهم: «تَأَبَّطَ شراً»، و«بَرَقَ نَحْرُه»، ولا يجوز أن يكون معنى تُسَمَّى: «تُذْكَر»، ثم قال الله: «سَلْ سبيلاً»، واتصاله في المصحف لا يمنع هذا التأويل لكثرة أمثاله فيه»[٢].

ولم أجد كلام ابن المبارك في غير البرهان للكرماني.

وأما وروده في بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي، فلأن الفيروزآبادي ينقل كلام الكرماني نقلاً حرفياً، فقد صبّ الفيروزآبادي كتاب البرهان للكرماني في الجزء الأول من البصائر صبّاً واستبطنه استبطاناً في قسم المتشابه من كل سورة، ولكنه تجنى عليه وظلمه حيث لم يذكره بالاسم ولم يشر إليه ولا مرة واحدة[٣].

• «السِّجِلّ»:

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

زعم بعضهم أنه بلغة الحبشة[٤]، وهذا باطل، فهي كلمة عربيّة دارجة في كلام العرب، واتفق القراء على قراءتها بتشديد اللام «السِّجلّ» ومعناها عندهم: الصحيفة التي فيها الكتابة والخط، وقيل: كتاب الحُكْم[٥].

---

(١) نقل الفيروزآبادي كلام الكرماني نصاً في بصائر ذوي التمييز (١/ ٤٩٤) ولم يشر إليه.

(٢) كتاب البرهان في متشابه القرآن (٣٥٥).

(٣) اقرأ المقدمة الضافية لمحقق البرهان للكرماني، أحمد عز الدين خلف الله (٧٣ ـ ٨٠).

(٤) المعرب للجواليقي (١٦١).

(٥) المُغْرِب في ترتيب المعرب للمطرِّزي (١/ ٣٨٥).

قال **الطبري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب: قول من قال: السجل في هذا الموضع الصحيفة؛ لأن ذلك هو المعروف في كلام العرب»[١].

وعلى قاعدة الخليل السابق ذكرها، فإن كلمة: «السّجلّ» مبتدأة بحرف «السين»، مختومة بحرف من الحروف الذلقية وهو اللام، فهي إذن عربية فصيحة، ونحت منها الفعل: سجّل في الماضي بمعنى: دوَّن، ويسجّل في المضارع بمعنى: يدوِّن.

• «السُّرادِق»:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾ [الكهف: ٢٩].

زعم الجواليقي بأنه فارسي معرّب، وأن أصله: سرادر، ثم زعم أنه الدهليز[٢].

والصواب أنها عربية: وأصلها: «سَرْدَق» وهو ما يدار حول الخيمة من شُقَقٍ بلا سقف[٣].

وقال بعضهم: هو الحُجْرة التي تكون حول الفسطاط[٤].

وفسّره ابن قتيبة بأنه دخان يحيط بالكفار في القيامة، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢٩ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ۝٣٠﴾ [المرسلات: ٢٩، ٣٠][٥]، وهو منقول عن قتادة قبلُ.

وعلى قاعدة الخليل: فهي كلمة مفتتحة بحرف «السين»، وفيها من

---

(١) تفسير الطبري (٩/ ٩٥).
(٢) المعرب (٢٤٨).
(٣) المغرب للمطرزي (١/ ٣٩٤).
(٤) نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز لأبي بكر ابن عُزَيز السجستاني (٢٧٧)، وهو منقول من كلام أبي عبيدة في المجاز (١/ ٣٩٨)، وكذا قال اليزيدي في غريبه (٢٢٧).
(٥) تفسير الغريب (٢٦٧).

حروف الذّلق، حرف «الراء»، وكذلك ختمت بحرف «القاف»، فهي عربية إذن بلا شك.

ثم سُرادق مفرد، ويجمع على «سُرادِقات» قاله الجوهري[١].

وقال بعضهم: كل بيت من كُرْسُف فهو سُرادق، وأنشدوا لرؤبة بن العجّاج قولَه:

يا حَكَم بن المنذر بن الجارُودْ   سُرادِقُ المجد عليك ممدود

وبيت مُسَرْدَق؛ أي: ذو سور محيط به، قال سلامة بن جندل يذكر قتل أبرويز الفرس للنعمان بن المنذر تحت أرجل الفِيَلَة:

هُوَ الْمُدْخِلُ النُّعْمَانَ بَيْتاً سَمَاؤُهُ   صُدُورُ الْفُيُولِ بَعْدَ بَيْتٍ مُسَرْدَقِ[٢]

قال **الخليل**: «السُّرادق: كل ما أحاط بشيء نحو الشُّقة في المضرِب، أو الحائط المشتمل على الشيء، والسُّرادق يجمع على السُّرادقات، وبيت مُسَرْدق أعلاه وأسفله: مشدود كله»[٣]، ثم ذكر بيت سلامة بن جندل السابق.

● **«القِسْطَاس»**:

ذكروا أنها كلمة رومية مُعرَّبة، نُقِل ذلك عن مجاهد[٤]، وتداوله بعد كل من زعم دخول المعرَّب في القرآن[٥]، وهي كلمة عربية صحيحة، وهي وإن عَرِيَت من الحروف الذّلق والشفوية إلا أنها كما قال الخليل: «وهذه الأحرف قد عريت من الحروف الذُّلق ولذلك نزرت

---

(١) الصحاح (٤/١٤٩٦).

(٢) تفسير القرطبي (١٠/٢٥٦)، والبيت في ديوان سلامة بن جندل (١٨٤).

(٣) كتاب العين (٥/ ٢٥٠ ـ ٢٥١).

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (٩/ ٢٨١٢)، وكذا الطبري (١٧/ ٤٤٥).

(٥) المعرب للجواليقي (٢٩٩)، والإتقان للسيوطي (٢/ ١١٥)، وشفاء العليل (١٥٦)، وحتى آرثر جفري في معجم المفردات الأجنبية في القرآن (٢٣٩).

فقللن ولولا ما لزمهن من العين والقاف ما حَسُنَّ على حال. . .فإذا اجتمعا أو أحدهما في بناء حَسُنَ البناء لنصاعتهما فإن كان البناء اسماً لزمته السين أو الدال مع لزوم العين أو القاف»[١].

وكلمتنا هذه: «القسطاس» من هذا الباب فلزمتها السين مع القاف لأنها اسم، ولذلك ذكرها الخليل في معجم العين في باب القاف والسين والطاء معهما، فقال: «والقِسْطاس والقُسْطاس: أقوم الموازين»[٢].

العرب تقول: أَقْسَطَ إِقْسَاطاً؛ أي: عدل، ومنه قوله تعالى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ [النساء: ٣]، والاسم منه: القِسْط، وهو العدل والسَّويّة، ومنه قوله تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٣٥][٣].

وفيه لغتان صحيحتان هي قراءتان سمعيتان.

اللغة الأولى: بكسر القاف، وهي قراءة حمزة والكسائي وحفص عن عاصم.

واللغة الثانية: بضم القاف وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر وأبي بكر وهو شعبة عن عاصم[٤].

وذكر ابن خالويه: أن الضم هو لغة أهل الحجاز، والكسر لغة غيرهم[٥].

وقال الأخفش سعيد بن مسعدة: «القِسْطاس، مثل القرِطاس والقُرْطاس والفِسْطاط والفُسطاط»[٦].

فظهر أن كلمة «القِسْطاس» مشتقة من المصدر «القِسْط».

---

(١) العين (١/ ٥٣).
(٢) معجم العين (٥/ ٢٧١).
(٣) المغرب للمطرّزي (٢/ ١٧٦).
(٤) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٧٩)، والتيسير لأبي عمرو الداني (١٤٠).
(٥) الحجة (١٩٢).
(٦) معاني القرآن (٢/ ٦١٢).

قال **ابن عطية** رَحِمَهُ اللَّهُ: «واللفظة منه للمبالغة من القِسْط، والمراد بها في الآية جنس الموازين المُعَدّ له»[١].

وتعقبه أبو حيان في البحر فقال: «ولا يجوز أن يكون من القِسْط لاختلاف المادتين؛ لأن القِسْط مادته: ق، س، ط، وذلك مادته: ق، س، ط، س، إلا إن اعتقد زيادة السين آخراً كسين قَدْمُس، وضغيوس، وعرفاس، فيمكن لكنه ليس من مواضع زيادة السين المنفية»[٢].

وتعقبه مردود؛ لأن السين خاصة ربما زيدت في الكلمة استكثاراً بها للحروف دون زيادة في المعنى، كقولك: استنفقت المال؛ أي: أنفقته، واستخرجته؛ أي: أخرجته، ونحو طار واستطار، وأجاب واستجاب، وأفاد واستفاد.

وأنشدوا لذلك قول كعب بن سعد الغَنَوِي في رثاء أخيه أبي المغوار:

وداع دعا يامن يجيب إلى الندى   فلم يستجبه عند ذاك مجيب[٣]

والمعنى: لم يجبه عند ذاك مجيب[٤].

وفي هذا مقنع إن شاء الله في إثبات عربيتها.

● **«قِرْطاس» و«قراطيس»:**

القرطاس مفرد، قال تعالى ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [الأنعام: ٧].

---

(١) المحرر الوجيز (١٠/ ٢٩٢).   (٢) البحر المحيط (٧/ ٤٦).

(٣) انظر: لبيت كعب: أمالي القالي (٢/ ١٢١)، ومغني اللبيب (٢٣٦).

(٤) انظر: كتاب: المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى، لأبي نصر أحمد بن محمد السمرقندي المعروف بالحدادي (٥٥٠).

والقراطيس جمعه، قال تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١].

وكلمة «قِرطاس» على وزن سابقتها كلمة «قِسطاس» وفيها وجهان من العربية: بكسر القاف «قِرطاس»، وبضمها «قُرطاس».

ويجمع على قراطيس كما في الآية الثانية، فهي كلمة عربية تعني الصحيفة التي يُكتب فيها، إلا أنهم تحاموا ذكرها في المعرّب الذي دخل القرآن، فلم يذكرها إلا الجواليقي في المعرب وعبارته فيها تردد وضعف، فإنه قال: «يُقال: إن القِرطاس أصله غير عربي»[1]، ولم يزد على هذا.

ولذلك أهمل ذكرها ابن الجوزي فيما نقله عن شيخه الجواليقي من المعرب الوارد في القرآن وذلك في كتابه فنون الأفنان[2].

- «الفِرْدَوس»:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الكهف: ١٠٧].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ١١].

زعم أصحاب المُعرّب: أنها رومية ومعناها البستان[3].

وهي كلمة عربية، فيها من الحروف الذّلْق: «الراء»، وقبلها

---

(١) تفسير القرطبي (٦/ ٢٥٤).

(٢) فنون الأفنان لابن الجوزي (٣٤٧).

(٣) شفاء العليل للشهاب الخفاجي (١٤٨)، وآرثر جفري في معجم المفردات الأجنبية في القرآن (٢٢٣)، والمعرب للجواليقي (٢٤٠)، وفقه اللغة للثعالبي (٢/ ٥٣٠).

«الفاء»، وهي من الحروف الشفوية ولزمتها الدال والسين معاً كما مرّ في قاعدة الخليل بن أحمد السابق ذكرها.

ولذلك ذكرها الخليل في باب الرباعي من السين والدال، فقال: «الفردوس: جنة ذات كَرْم، وكَرْم مُفَرَدْس؛ أي: مُعَرَّش: قال العجاج:

. . . . وكَلا كِلاً ومَنْكِباً مفردساً»[١].

والعرب تُسَمِّي المكان البارز المرتفع الكثير المياه والجنان والثمار: فِرْدَوساً، ومنه قول مُضَرِّس بن رِبْعِيّ الأسدي:

فَقُلْنَ على الفِرْدَوس أوّل مشرب أَجَلْ جَيْرِ إن كانت أُبيحت دعاثره[٢]

وقال **يحيى بن زياد الفراء**: «وهو عربي، العرب تُسَمِّي البستان فِرْدَوساً»[٣].

وقد شرحها النبي ﷺ وليس فوق كلامه كلام.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ، وفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ»[٤].

فهذه جنة خاصة رفيعة المقام، عالية القدر، سمّاها الله ورسوله ﷺ: «الفِرْدَوس» ما للرومية، وكلام الله ورسوله ﷺ.

• **«المشكاة»:**

قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٖ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ﴾ [النور: ٣٥].

---

(١) معجم العين (٧/ ٣٣٩).

(٢) انظر: معاني القرآن للفراء (٢/ ١٢٢).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٢٣١).

(٤) أخرجه البخاري حديث رقم (٢٧٩٠).

زعموا أن «مِشْكَاة» لغة حبشية معناها: الكوَّة(١).

وهي عربية: فيها من الحروف الشفوية: أولها وهو: «الميم».

قال **القرطبي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمِشكاة: الكُوّة في الحائط غير النافذة، قاله ابن جبير وجمهور المفسرين وهي أجمع للضوء، والمصباح فيها أكثر إنارة منه في غيرها، وأصلها: الوعاء يجعل فيه الشيء، والمشكاة وعاء من أَدَم، كالدّلو يبرد فيه الماء، وهو على وزن مِفْعَلَة كالمِقراة، والمصفاة، قال الشاعر:

كأن عيْنَيه مِشكاتان في حَجَرٍ … قِيضا اقتياضاً بأطراف المناقيرِ»(٢)

وقال ابن نَاقِيا البغدادي(٣): «المشكاة في كلام العرب: الكُوَّة لا منفذ لها، وأنشد:

تدير عَيْنَين لها نَجْلاوَيْن … كَمِثْل مِشْكاتين مِصْباحَين»(٤)

• **«السَّرِيّ»:**

قال الله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ [مريم: ٢٤].

خاضوا فيه، فَمِنْ قائل: إنه سرياني، ومِنْ قائل: إنه نَبَطي، ومِنْ

---

(١) فنون الأفنان لابن الجوزي (٣٥١)، والإتقان للسيوطي (٢/ ١٠٩)، وكذا في المهذب (٢٦).

(٢) تفسير القرطبي (١٢/ ١٧٠ ـ ١٧١).

(٣) هو: أبو القاسم عبد الله بن محمد بن الحسين بن نَاقِيا البغدادي، المتوفى سنة (٤٨٥هـ)، وصفه القفطي بأن له في العربية يد باسطة، له شرح على كتاب الفصيح لثعلب، انظر وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/ ٢٨٤)، وإنباه الرواة للقفطي (٢/ ٣٣، ١٥٦) وغيرها.

(٤) كتاب: الجُمَّان في تشبيهات القرآن (١٤١).

قائل: إنه يوناني[١]، وهي كلمة عربية، وما خلافهم إلا دليل الضعف والبعد، فالزعم باب واسع.

قال **يحيى بن زياد الفراء**: «هو النهر»[٢]، ولم يزد على هذا.

وثبت تفسير «السَّريّ» بالنهر أو الجدول الصغير عن الصحابة وجِلَّة التابعين كما ثبت في كلام العرب قبل نزول القرآن.

أخرج الطبري وغيره بسندين صحيحين عن أبي إسحاق السَّبيعي عن البراء بن عازب ﷺ قال: «سَرِيّاً» الجدول»[٣].

وكذا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ: «السَّريّ: النهر»[٤].

وقاله من التابعين جماعة:

قال **عمرو بن ميمون**: نهر تشرب منه.

وقال **إبراهيم النخعي**: النهر الصغير.

وقال **قتادة**: هو الجدول بلغة أهل الحجاز.

وقال **وهب بن منبه**: ربيع الماء.

وقال **السُّدّي**: النهر[٥].

واختار هذا القول الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله.

وقد ثبت في أشعار العرب: أن السَّريّ هو نهر الماء الجاري.

قال **الإمام الطبري**: «والسَّريّ معروف من كلام العرب أنه النهر الصغير، ومنه قول لبيد:

---

(١) فنون الأفنان لابن الجوزي (٣٥١)، والإتقان (٢/ ١١٢).

(٢) معاني القرآن (٢/ ١٦٥).

(٣) تفسير الطبري (٨/ ٣٢٨).

(٤) المصدر السابق (٨/ ٣٢٨).

(٥) المصدر السابق (٨/ ٣٢٨).

فتوسطا عُرْضَ السَّريِّ وصَدَّعا مسجورةً متجاوراً قُلَّامُها»[١].

هذا بيت من معلقة لبيد بن ربيعة العامري وقبله قوله؛ يعني: حماراً وأتاناً:

فَمَضى، وَقَدَّمَها، وَكَانَتْ عَادَةً مِنْهُ، إذا هِيَ عَرَّدَتْ، إقْدَامُهَا
فَتَوسطَا عُرْضَ السَّريّ، وَصَدَّعَا مَسْجُورَةً مُتَجَاوِراً قُلّامُهَا[٢]

قال **أبو زيد** محمد بن أبي الخطاب القرشي في شرحه لأبيات الجمهرة: «السَّري: نهر صغير»[٣].

وقال **القرطبي**: «والنهر يُسمى سَرِيّاً؛ لأن الماء يسري فيه قال الشاعر:

سَلْمٌ تَرَى الدَّالِيَّ مِنْهُ أَزْوَرَا إِذَا يَعُبُّ فِي السَّرِيِّ هَرْهَرَا

وقال لبيد...»[٤]، وذكر البيت السابق.

فهذه عَشْرُ كلمات هي أشهر ما يذكره أنصار دخول المُعَرَّب في القرآن الكريم، وقد أجبنا عنها وبينا صحة عربيتها، وجذورها، وورودها في كلام العرب.

وبقي القول بأنها أعجمية ادعاء هو الذي يحتاج إلى برهان وإثبات، والله الموفق.

وما بقي مما لم يذكر داخل في أسماء دائرة في لغات الخلق ليس للغة بها اختصاص، ومن هذا الدينار والدرهم والتّنور.

---

(١) تفسير الطبري (٨/ ٣٣٠)، والبيت من معلقة لبيد الشهيرة التي أولها:
عَفَتِ الديارُ محلُها فمقامُها بمنىً تأبَّد غَوْلُها فرجَامُها
انظر: جمهرة أشعر العرب لأبي زيد القرمشي (١/٣٤٨ ـ ٣٧٠).
(٢) جمهرة أشعار العرب (١/ ٣٦٢). (٣) المصدر السابق.
(٤) تفسير القرطبي (١١/ ٦٤).

حتى قال الخليل: «ولا من لسان إلّا والتّنّور فيه تنّور»[١].

● **الوجه الرابع:**

فإن قال قائل: فما هو الجواب عن ما يُنقل عن ابن عباس وهو من هو فضلاً وصحبة وقرابة وعلماً بالقرآن وعربيَّته من تنصيص على بعض الكلمات مما ورد في القرآن أنها ليست من لسان العرب؟

وكذا ما يُنقل عن مجاهد وغيره من التابعين فإنهم نقل عنهم في كلمات أنها بغير لسان العرب.

وكذا ما رواه الطبراني بسند صحيح عن أبي ميسرة عمرو بن شُرَحبيل الهَمداني الكوفي، الإمام التابعي الكبير العابد أنه قال: «في القرآن من كل لسان»[٢]؟

فهذا جوابه من وجوه:

الأول: أن كثيراً مما نقل عن الصحابة ابن عباس وغيره من ذلك، إنما رُوي بغرائب الأسانيد مما يُتَوقف في قبولها، مثال ذلك:

● روى الطبراني من طريق حَكَّام بن سَلْم قال: حدثنا عنبسة عن أبي إسحاق ـ هو السبيعي ـ عن أبي الأحوص عن أبي موسى ﷺ قال: «الكفلان: ضعفان من الأجر بلسان الحبشة»[٣].

● روى الطبري من طريق حَكَّام بن سَلْم عن عنبسة عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: «إن ناشئة الليل» قال: بلسان الحبشة»[٤].

● وروى الطبري من طريق حَكَّام بن سَلْم عن عنبسة عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة: «أَوِّبي معه» سَبِّحي بلسان الحبشة»[٥].

---

(١) كتاب العين (١/ ٥٣).
(٢) تفسير الطبري (١/ ٣١).
(٣) المصدر السابق (١١/ ٦٩٤).
(٤) المصدر السابق (١/ ١٣) و(٢٣/ ٦٨٢).
(٥) المصدر السابق (١/ ١٣) و(٢٠/ ٣٧٥).

فحَكّام بن سَلْم الذي يروي هذه الآثار وغيرها في هذا المعنى كثير هو الكناني، يتفرد برواية غرائب كهذه مما يتوقف في قبولها.

فقد قال الإمام أحمد عنه: «قدم علينا، وكان يحدث عن عنبسة أحاديث غرائب»[١].

وأكبر ظني أن الإمام أحمد إنما عنى مثل هذه الآثار.

● روى الطبري من طريق حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال: «القَسْورة بالحبشة: الأسد»[٢].

وهذا السند فيه علي بن زيد بن جُدعان التيمي وهو ضعيف عندهم لا يحتج به؛ بل قال الإمام أحمد عنه: ليس بشيء[٣].

الثاني: ما أجاب به الإمام أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ اللهُ فإنه أجاب عن هذا بجواب طويل ألخصه فيما يلي:

قال رَحِمَهُ اللهُ: «إنّ الذي قالوه من ذلك غير خارج من معنى ما قلنا، من أجل أنهم لم يقولوا: هذه الأحرف وما أشبهها لم تكن للعرب كلاماً، ولا كان ذاك لها منطقاً قبل نزول القرآن، ولا كانت بها العرب عارفةً قبل مجيء الفرقان، فيكون ذلك قولاً لقولنا خِلافاً، وإنما قال بعضهم: حرف كذا بلسان الحبشة، معناهُ كذا، وحرفُ كذا بلسان العجم معناه كذا، ولم نستنكر أن يكون من الكلام ما يتفق فيه ألفاظ جميع أجناس الأمم المختلفة الألسن بمعنى واحد، فكيف بجنسين منها؟ كما قد وجدنا اتفاق كثير منه فيما قد علمناه من الألسن المختلفة، وذلك كالدرهم، والدينار، والدواة، والقلم، والقرْطاس، وغير ذلك... مما

(١) تهذيب التهذيب (١/ ٦٣٤).

(٢) الطبري (١/ ١٤).

(٣) انظر: تهذيب التهذيب (٤/ ١٩٤ ـ ١٩٦).

اتفقت فيه الفارسية والعربية باللفظ والمعنى»[١].

فالطبري هنا يجيب بما أجاب به الشافعي من قبل من أن هذا ونظائره مما اتفقت فيه اللغتان.

وقال **ابن ناقيا البغدادي**: «فإن قيل: كيف جاز أن تخاطب العرب بذلك مع قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣]؟

فالجواب: إنه جائز اتفاق الاسم الواحد في لغتين، ولا يُنكر مثل ذلك فيما يقع من الوِفاق فقد يقع الوِفاق في الأبيات بين الشاعرين، فلا يُنكر ذلك، ومثله الوِفاق بين أهل اللسانين»[٢].

ويشهد لذلك جريان بعض هذه الألفاظ في شعر العرب بألفاظها لفظاً ومعنى كما هي عند غيرهم.

ومن شواهد ذلك قول الحارث بن حِلِّزة اليشكري وهو من شعراء الجاهلية قبل الإسلام ونزول القرآن في مطلع قصيدة له:

لِمَنِ الدِّيارُ عَفَتْ بذي الحِلْسِ ... آياتها كمهارقِ الفرسِ[٣]

المَهَارق: جمع، ومفرده: مُهْرَق، وفُسِّرت بالصحيفة التي يكتب فيها.

ولها عند العرب معاني أخرى، فهي تعني أيضاً: الفَلَوات، ومنه قول غيلان ذي الرُّمّة:

بَيَعمَلة بين الدُّجى والمَهَارق

عنى: الفلوات.

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٢) وبسط الطبري الكلام في ذلك وأبدى فيه وأعاد وحَرّر وأكّد فانظره ثَمَّ.

(٢) الجُمَّان في تشبيهات القرآن (١٤١ ـ ١٤٢).

(٣) المفضليات للضبي (٢٦٣).

ويراد بها أيضاً ثوب الحرير الأبيض يُصْقَل ثم يُكْتب فيه.

ومنه قول حسان:

كم للمنازل من شهر وأحوال　　كما تقادم عهد المُهَرقِ البالي[1]

ويُطلق ويراد به الصحاري القاحلة المهلكة[2]، ومنه قول الأعشى:

ربيٍّ كريمٌ لا يُكدِّرُ نِعْمَةً　　فإذا تُنُوشِدَ في المَهَارِق أَنْشَدا

والمعنى: إذا دُعي ونودي وطلب في المهلكة والمفازة أجاب وأنجد الداعي.

ومن هذا أيضاً: «التَّامور»، يطلق عند العرب، ويراد به: الإبريق، والخمر، والدّم، والنفس، فمِن إرادة الإبريق قول الأعشى:

وإذا لها تامورةٌ　　مرفوعةٌ لشرابها

ومن إرادة الدم قول عمر بن قُنْعاس المرادي:

وتامورٍ هَرَقْتُ وليس خمراً　　وحبَّةِ غير طاحيةٍ طَحَيْتُ

وقيل: إن تامور في السريانية: صومعة الراهب.

وفي الفارسية: يطلق على الزعفران[3].

الثالث من وجوه الجواب: أن هذا الأثر المروي عن التابعي الكبير أبي ميسرة عمرو بن شُرَحبيل الهمداني وما في معناه: من أن في القرآن من كل لسان.

فهذا الأثر هو الذي اعتمد عليه من يرى دخول المُعَرَّب في القرآن الكريم حتى قال السيوطي: «وأقوى ما رأيته للوقوع ـ وهو اختياري ـ ما

---

(١) انظر: لسان العرب (١٠/٣٦٨).

(٢) انظر: كتاب العين للخليل (٣/ ٣٦٤).

(٣) انظر: لسان العرب (٤/ ٩٣ ـ ٩٥)، المجرَّد في غريب كلام العرب ولغاتها لأبي الحسن الهُنائي (٣٠٣).

أخرجه ابن جرير الطبري فذكر أثر أبي ميسرة السابق: «أُنزل القرآن بكل لسان».

ثم قال السيوطي: «ورواه ابن أبي شيبة، ونقل الثعلبي عن بعضهم قال: «ليس في الدنيا لغة إلاوهي في القرآن».

فهذه إشارة إلى أن حكمة وقوع هذه الألفاظ في القرآن أنه حوى علوم الأولين والآخرين، ونبأ كل شيء فلا بد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن ليتم إحاطته بكل شيء، فاختير له من كل لغة أعذبها، وأخفها وأكثرها استعمالاً للعرب»[1].

فهذا بنوه على أن مراد أبي ميسرة رَحِمَهُ اللَّهُ «أنزل القرآن بكل لسان» أنه أراد ألسنة الأمم في الأرض كلها، فيدخل فيه لسان الفرس، والروم، والنَّبط، والحبشة، والسريان، واليونان، وحتى الهند وغيرها.

وهذا فهم بعيد، وباطل من القول شديد، ووالله ما قصد أبو ميسرة رَحِمَهُ اللَّهُ هذا ولا خطر بباله، ولهو أتقى لله، وأخشى له، وأفصح لساناً، وأعمق علماً أن يعمد إلى كتاب الله العربي المبين الذي لا عُجْمَةَ فيه بحال، فيزعم أنه جمع أخلاط كلام الأعاجم وهو يسمع الله يقول: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت: ٤٤].

وإنما الواضح من كلامه، والظاهر من خطابه: أن لسان العرب تَفرّق في قبائل العرب من مضر وربيعة وغيرهم، فأنزل القرآن حاوياً لسان العرب كله، ولذلك نزل القرآن على حرف فاستزاد النبي ﷺ ربه، فزاده إلى سبعة أحرف كلها كافٍ شافٍ، ولكن لما كتبت المصاحف زمن

---

(١) المهذب فيما وقع في القرآن من المُعَرَّب (٣ ـ ١٤) باختصار يسير.

عثمان أرشد عثمان أولئك النفر من قريش: الحارث بن هشام، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، ورابعهم زيد بن ثابت وهو من الأنصار من الخزرج ﷺ، أنهم إذا اختلفوا في رسم كلمة وكتابتها فليعتمدوا لسان قريش وحرفها لأنهم عشيرة النبي ﷺ الأقربون كما ثبت في الحديث(١).

ولهذا عقد الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة تفسيره باباً في ذلك فقال: القول في اللغة التي نزل بها القرآن من لغات العرب(٢).

ثم قال: «قد دللنا على صحة القول بما فيه الكفاية لمن وُفِّق لفهمه، على أن الله جل ثناؤه أنزل جميع القرآن بلسان العرب دون غيرها من أَلْسُن سائر أجناس الأمم، وعلى فساد قول من زعم أن منه ما ليس بلسان العرب ولغاتها، فنقول الآن ـ إذا كان ذلك صحيحاً ـ في الدلالة عليه، بأيّ ألسن العرب أنزل: أبألسن جميعها أم بألسن بعضها؟»(٣).

ثم أحال بالجواب على من جُعِل إليه بيان القرآن وهو رسول الله ﷺ، ثم ساق الطبري من أوجه كثيرة حديث: «أنزل القرآن على سبعة أحرف».

ثم بسط الكلام على معناه(٤).

فهذا هو مراد أبي ميسرة التابعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومن قال مثل قوله، فلا ينبغي حمله على غير ذلك والله الموفق لا إله إلا هو.

وإنما أطلنا البحث في رد كلام عبد المسيح الكندي السابق ليظهر وهاءه وسقوطه، وأنه ما تعلق بما ذكر بشيء إلا إظهار نفخةٍ بفيه ظاناً أنه بذلك سيطفئ نور الله، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في الصحيح رقم (٣٥٠٦).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٣٥). (٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق (١/ ٣٥ ـ ٥٢).

• قال **عبد المسيح**: «وإن الإنس والجن لا يقدرون على أن يأتوا بمثله؛ لأنه وقع إلى قوم أميين أنباط عجم علوج، فعظم في أعينهم وكبر في صدورهم. . .وأن مسيلمة الحنفي والأسود العنسي، وطليحة بن خويلد الأسدي وغيرهم، قد عملوا مثلما عمل صاحبك، وأشهد أني قرأت مصحفاً لمسيلمة لو ظهر لأصحابك لارتد أكثرهم، إلا أنه لم يتهيأ لهؤلاء أنصار مثلما تهيأ لصاحبك»[١].

في كلام عبد المسيح السابق أمران:

الأول: أن القرآن نزل على قوم أنباط عجم علوج لذلك عَظُم في نفوسهم، وهذا أمر عجيب، وكذب رخيص، لا يلجأ إليه إلا من عدم الحجة، وفقد البينة فما بقي إلا أن يتعلق بالكذب لعله يصنع شيئاً.

فالقرآن نزل على نبي عربي بين قوم عرب عرباء أهل فصاحة ونباهة وبلاغة، وتحداهم أن يأتوا بشيء من مثله فظهر عجزهم وبان أن القرآن ليس من كلام البشر.

ولا أدري بأي شيء تعلق هذا الرجل في زعمه هذا، حيث جعل العرب أنباطاً عُجماً علوجاً، ليس إلا الكذب الذي فرّغ فيه شحنات الحقد في نفسه لكن أبان عن فقد الحجة وعوار المحجة.

الثاني: لما شعر عبد المسيح أنه في كل ما قال وافترى لم يصنع شيئاً في إضعاف حجة القرآن وفصاحته وإعجازه وأنه من أعظم دلائل نبوة النبي الخاتم ﷺ لجأ إلى مثل هذا الدّس الرخيص، والكلام الخسيس، ومن المضحك أنه ما وجد له شاهداً إلا نفسه فاستشهد بها، وذلك في محاولته اليائسة أن يعارض القرآن العظيم بسخافات مسيلمة الكذاب ومن على شاكلته.

---

(١) رسالة عبد المسيح (٥٧).

والجواب له من وجوه:

• **الوجه الأول:**

ذكر عبد المسيح أسماء الذين ادعوا النبوة كذباً وبهتاناً وهم: مسيلمة الحنفي، والأسود العنسي، وطليحة الأسدي.

أما الأسود فاسمه عبهلة العنسي، ظهر في اليمن وادعى النبوة في آخر أيام النبي ﷺ، وانتهى أمره إلى الخسار والبوار، فقتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين هو فيروز الديلمي[1].

ولم يُذْكَر في الأخبار مطلقاً أن الأسود هذا صنع كتاباً أو دَوَّن كلاماً على أنه من الوحي، لا يُعرف هذا مطلقاً ومنه نعلم شدة خطأ عبد المسيح وكذبه.

وكذا طليحة بن خويلد الأسدي ادعى النبوة بعد وفاة رسول الله ﷺ أيام الردة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقاتله وقومه الصحابة رضي الله عنهم، وتاب بعد ذلك وندم وحسنت توبته وإسلامه، ولم يقل كلمة واحدة زاعماً أنها من الوحي[2].

• **الوجه الثاني:**

أما مسيلمة الكذاب الحنفي فهو أشهرهم، وفد على النبي ﷺ في وفد بني حنيفة وكان يقول: إن جعل محمد لي الأمر بعده تبعته، ووقف عليه النبي ﷺ وبيده عود وقال له: لو سألتني قدر هذه لم أعطك، ولن تعدوا أمر الله فيك، فلما رجع إلى قومه ادعى النبوة وأن محمداً أشركه في الأمر معه، وشهد له بذلك شاهد زور وهو الرّجال بن عنفوة. ووافقه على دعواه من كبارهم حكيم، حتى قال بعض من ثبت على الإسلام منهم وهو ابن عمير اليشكري:

---

(١) انظر تفصيل ذلك في: البداية والنهاية لابن كثير (٦/ ٣٣٩).

(٢) انظر عنه: البداية والنهاية لابن كثير (٦/ ٣٤٢).

يا سعاد الفؤاد بنت أثال طال ليلي بفتنة الرَّجّال[١]
إنها يا سعاد من حديث الدهـ ر عليكم كفتنة الرجال[٢]

وقد قاتلهم الصحابة بإمرة الصّدّيق أبي بكر في اليمامة وحوصروا حصاراً شديداً في حديقة لهم تحصنوا بها وكَثُر القتل، فلما رأى الخبيث مسيلمة الهزيمة، وعضتهم السيوف، أظهر حقيقة أمره، وكذبه، فقال لقومه: أيها القوم أما الدين فلا دين، ولكن قاتلوا عن أحسابكم، حتى قُتِل خاسراً مرتداً كذاباً، وتفلل قومه واستحر بهم القتل وهرب على وجه منهم من هرب.

- **الوجه الثالث:**

وتذكر المصادر أن قوم مسيلمة قالوا له: إن محمداً أتى بقرآن، وأنت لم تأتنا بشيء، فدخل فصنع كلاماً يزعم أنه يحاكي به القرآن العظيم، فكان ذلك أدعى لظهور كذبه وافتضاح أمره.

قال **ابو بكر الباقلاني** رحمه الله: «وأما مسيلمة الكذاب، وما زعم أنه قرآن، فهو أخسُّ من أن نشتغل به، وأسخف من أن نفكر فيه، وإنما نقلنا منه طرفاً ليتعجب القارئ، وليتبصر الناظر، فإنه على سخافته قد أضلّ، وعلى ركاكته قد أزلّ، وميدان الجهل واسع، ومن نظر فيما نقلناه عنه، وفهم موضع جهله، كان جديراً أن يحمد الله على ما رزقه من فهم وآتاه من علم، فمّما كان يزعم أنه نزل عليه من السماء: والليل الأطخّم، والذئب الأدلم، والجذع الأزلم، ما انتهكت أسيد من محرم».

---

(١) يعني: الرّجّال بن عنفوة.

(٢) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء لسليمان بن موسى الحميري (٢/ ١١٤)، وتاريخ الخميس للبكري (٢/ ١٥٩)، وإمتاع الأسماع للمقريزي (١٤/ ٢٣٠).

وقال أيضاً: «والليل الدامس، والذئب الهامس، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس....».

ولم ننقل كل ما ذكر من سخفه كراهية التثقيل... ومن كان له عقل لم يشتبه عليه سخف هذا الكلام[1].

وأعاد الباقلاني البحث في كتاب التمهيد ثم قال: «هذا الكلام دال على جهل مورده وضعف عقله ورأيه، وما يوجب السخرية والهزء به، وليس هو مع ذلك خارجاً عن وزن ركيك السجع وسخيفه، وعلى أنه لو كان معجزاً لتعلقت العرب وأهل الردة به، ولعرف أتباع النبي ﷺ أنه عرض له، ولوقع لهم العلم اليقين بأنه قد قوبل، وفي عدم ذلك دليل على جهل مدعي ذلك، وعلى أن مسيلمة لم يَدَّعِ هذا الكلام معجزاً، ولا تحدى العرب بمثله فعجزوا عنه، بل كان في نفسه ونفس كل سامع له أخف وأسخف وأذل من أن يتعلق به، ولذلك لا نجد له نبأ ولا أحداً من العرب تعلق به»[2].

وقال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللهُ: «فإنهم قد علموا بالتواتر أن مسيلمة ادّعى النبوة، واتبعه قومه على ذلك، وأنه كتب إلى النبي ﷺ في حياته يقول: «من مسيلمة رسول الله» فكتب إليه النبي ﷺ: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب»، ويعلمون أن له مخاريق وأنه ظهر كذبه من وجوه، وأن أبا بكر الصديق والصحابة قاتلوه على كذبه في دعوى النبوة وقاتلوا قومه على ردتهم عن الإسلام».

وقال أيضاً عن هذين الكذابين مسيلمة والأسود: «ومما ظهر من دلائل كذبهما، مثل الأخبار الكاذبة التي تناقض النبوة، ومثل الإتيان

(١) إعجاز القرآن (١٥٧ ـ ١٥٨) باختصار.

(٢) التمهيد (١٢٨).

بقرآن مختلق، يعلم من سمعه أنه لم يتكلم الله به، وإنما هو تصنيف الآدميين، كما قال أبو بكر الصديق لهم لما تابوا من الرِّدة وعادوا إلى الإسلام: «أسمعوني قرآن مسيلمة» فلما أسمعوه إياه، قال لهم: «ويحكم أين يذهب بعقولكم، إن هذا الكلام لم يخرج من إلّ»؛ أي: لم يخرج من ربّ[(١)].

«فالصدق له دلائل مستلزمة له تدل على الصدق، والكذب له دلائل مستلزمة تدل على الكذب»[(٢)].

ومن دلائل كذب هذا المدعو عبد المسيح قوله وشهادته أنه رأى قرآن مسيلمة هذا وهو في القرن الرابع وربما أبعد وأنه رأى فيه دلائل الحق ما لو ظهر لارتد عامة المسلمين.

فيقال له: فأظهره إذن والدواعي عندك قائمة، هذا من أعظم ما يدل على كذبه ولجوئه إلى مثل هذا الادعاء السخيف، فإذا كان ما وجد ما يبطل بزعمه كتاب الله إلا هذا الهراء، فهذا أعظم الدليل على أن القرآن حق وصدق وما يفعله هذا وغيره يذهب هباءً منثوراً، وصدق الله القائل: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

❁ ❁ ❁

(١) قال الباقلاني في تفسيره «أي: عن ربوبية»، إعجاز القرآن (١٥٨).
(٢) الجواب الصحيح (٦/ ٤٧٤ ـ ٤٧٧) باختصار.

بطرس المبجَّل وروبرت الكيتوني،
وهيرمان الدالماتي،
وأول مشروع ترجمة للقرآن إلى اللاتينية

بطرس المبجّل وروبرت الكيتوني، وهيرمان الدالماتي، وأول مشروع ترجمة للقرآن إلى اللاتينية

في مدينة فرنسية صغيرة أسس عام (٩١٠م) اسمها «كلوني» «Cluny»، وازدهرت في القرن الحادي عشر الميلادي كمركز مهم لإصلاح خلافات وطرائق النصرانية، والإصلاح الكنسي عامة، وأسس بها دَيْر شهير جدّاً ببنائه الثلاثي الأضلاع ليكون مركزاً دينياً مسيحياً خاصة ما يتعلق بقواعد الترخيص البابوي[(١)].

وقد تعاقب على رئاسة دير كلوني قساوسة كثر من أشهرهم القديس «بطرس المبجل» الذي ولد في حدود سنة: (١٠٩٢م) وتوفي سنة (١١٥٧م)، وهو راهب لاهوتي فرنسي، وقبل في سلك الرهبنة على يد القديس «هوج» وصار رئيساً لدير كلوني سنة (١١٢٢م).

وفي خضم الحملات الصليبية المحمومة على العالم الإسلامي والمنطلقة من أوروبا، وتحديداً في أثناء الإعداد للحملة الصليبية الثانية التي كانت بين عامي (١١٤٥م ـ ١١٤٩م) حصل نوع من تبادل الأدوار في مواجهة الإسلام والمسلمين.

ففي حين تقوم الحملة الصليبية العسكرية الثانية التي ينشأها ويقودها ويغذوها بالعمق الديني الصليبي بابا الفاتيكان «أوجين الثالث»

(١) موسوعة المستشرقين، عبد الرحمٰن بدوي (١١٠).

الذي دعا إلى قيام هذه الحملة بمرسوم كنسي أصدره بتاريخ الأول من كانون الأول سنة (١١٤٥م)[1] وقام بواجب الوعظ الديني لإشعال الحماس في أفراد الحملة الواعظ الكنسي المعين من قبل البابا، وهو القديس «برنارد دي كليرفو».

في أثناء ذلك يقوم الصديق المقرب من هذا البابا، وهو القديس «بطرس المبجل» رئيس دَيْر كلوني بدور آخر في مواجهة الإسلام ومحاربته في الجانب العلمي والفكري[2].

وسنذكر الدور الخطير الذي قام به دير كلوني ورئيسه «بطرس المبجل» في المواجهة الفكرية والعلمية على الإسلام والقرآن على وجه الخصوص.

عاشت أوروبا المسيحية والعالم الإسلامي قروناً جنباً إلى جنب، دون أن تتعرف أوروبا حقاً على الإسلام وحقائقه والقرآن ودعوته، ومحمد ﷺ ورسالته.

لقد عاش المسلمون في حالة حرب ومواجهة مع عالم أبى أن يسمع لهم ولا أن يعترف بدينهم، وفي المقابل: أدارت الكنيسة الغربية على وجه الخصوص الحرب على هذا الدين الجديد وأهله في الجانبين الحربي العسكري، وفي الجانب العلمي الفكري المتمثل هذه المرة في القيام بترجمة للقرآن الكريم من العربية إلى اللاتينية مع ترجمة أعمال أخرى سيأتي ذكرها.

وكان لبطرس المبجل رئيس دير كلوني الريادة في هذا العمل الذي كانت له أسبابه الكبيرة بالنسبة للفاتيكان والكنيسة الغربية وآبائها وقساوستها.

---

(١) انظر: كتاب: الحرب المقدسة، جان فلوري، ترجمة: غسان مايسو، دار المدى للنشر والتوزيع، سنة ٢٠٠٤م (٢١٥) وما بعدها.

(٢) انظر كتاب: مسيحية ضد الإسلام، لودفيغ هاغمن (٥٥).

هذه الأسباب يمكن أن نجملها فيما يلي:

١ ـ الدافع التبشيري «التنصيري» للمسلمين هو الدافع والسبب الأكبر خلف انشغال الكنيسة بترجمة القرآن إلى اللغة اللاتينية، وتكليفها بطرس المبجل بذلك.

يعترف بذلك المستشرق «يوهان فوك» فيقول: «لقد كانت فكرة التبشير هي الدافع الحقيقي خلف انشغال الكنيسة بترجمة القرآن الكريم، واللغة العربية، فكلما تلاشى الأمل في تحقيق نصر نهائي بقوة السلاح، بدا واضحاً أن احتلال البقاع المقدسة لم يؤد إلى ثني المسلمين عن دينهم بقدر ما أدى إلى عكس ذلك، وهو تأثر المقاتلين الصليبيين بحضارة المسلمين وتقاليدهم ومعيشتهم في حلبات الفكر»(١).

٢ ـ الدفاع عن العقيدة المسيحية، ومهاجمة الإسلام باعتباره هرطقة من الهرطقات الخارجة عن المسيحية مما ينبغي دراسته والرد عليه، وقد نص بطرس المبجل على هذا الهدف العميق في مشروعه لترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية.

يقول بطرس المبجل: «لقد كانت رغبتي أن أتبع أسلوب أولئك الآباء الذين لم يغضوا الطرف فقط ساكتين عن أي من هرطقات أيامهم، وإن كانت أقلها شأناً، إذا جاز لي أن أعبّر على هذا النحو، بل كانوا يقاومونها بكل طاقات إيمانهم ولقد أثبتوا عن طريق كتاباتهم، ومناظراتهم أنها جديرة بالاشمئزاز واللعنة»(٢).

ويقول المستشرق «يوهان فوك»: «خرج بطرس المبجل بقناعة، بأن لا سبيل إلى مكافحة «هرطقة محمد» بعنف السلاح الأعمى، وإنما بقوة

---

(١) كتاب: تاريخ حركة الاستشراق (١٦ ـ ١٧).

(٢) نقل هذا النص لبطرس المبجل، أستاذ الدراسات اللاهوتية، لودفيغ هاغِمن في كتابه: مسيحية ضد الإسلام، حوار انتهى إلى الإخفاق (٦٣).

الكلمة، ودحضها بروح المنطق الحكيم للمحبة المسيحية، لكن تحقيق ذلك كان يشترط المعرفة المتعمقة برأي الخصم أولاً وهكذا وضع خطة للعمل على ترجمة القرآن إلى اللاتينية»[١].

٣ ـ مواجهة التوسع والتحدي الذي يمثله الإسلام على الغرب المسيحي، وما يمثله الإسلام من نقد حاد وإبطال للعقيدة المسيحية.

يقول **«ريتشارد سوذرن»**: «سوّغ بطرس المبجل عمله لرؤية بعيدة المدى لمصالح المسيحية...، رأى بطرس في الإسلام «هرطقة مسيحية»، هي آخر الهرطقات وأشدها ضرراً، واعتقد بطرس أن التحدِّي الإسلامي لم يجد إجابة مسيحية مناسبة حتى أيامه، ولهذا رأى أن من الضروري مواجهة هذه الهرطقة التي شكلت بزعمه الأصل والمنبع لكل الهرطقات التي تغزو المسيحية الأوروبية التقليدية آنذاك، فإذا كان الإسلام لا يشكل خطراً عسكرياً مباشراً فلا شك أنه شديد الخطورة فكرياً، لذا لا بد من التعرف عليه لتمكن مكافحته»[٢].

يقدم بطرس المبجل بنفسه هذا الدافع فيقول: «إذا بدا أن العمل الذي أدعو له غير ضروري الآن؛ لأن العدوّ لن يتأثر بهذا السلاح، أجيب أن بعض الأعمال التي تجري في مجال سلطة الملك الأفخم، إنما تتم من أجل ضرورات الدفاع والباقي يجري للمستقبل لا للحاضر، وهذا هو الشأن في العمل الذي أقوم به هنا، فإذا لم يمكن بهذه الطريقة إعادة المسلمين إلى المسيحية الصحيحة، فلا أقل من أن يستفيد العلماء المسيحيون من عملنا في مجال دعم إيمان المسيحيين السُّذَّج الذي يمكن أن تضير هذه الصغائر عقيدتهم»[٣].

---

(١) تاريخ حركة الاستشراق (١٧).
(٢) صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى (٨١).
(٣) المصدر السابق (٨١).

يقرر إدوارد سعيد ذلك فيقول: «مجمل الأسباب يمكن أن يؤول إلى اضطرار الغرب النصراني في القرون الوسطى إلى معرفة الإسلام للإحاطة بعوامل قوّته الدافعة بأبنائه إلى الانتشار في العالم المعروف آنذاك بقصد الرد عليه، ومواجهته والحيلولة بينه وبين أن يستهوي نفوس النصارى أو إعجابهم، ولتمكين النصرانية من تحقيق رغباتها في القوة والانتشار كذلك»[١].

هذه أسباب ودوافع واضحة، والحقيقة أن مشروع بطرس المبجل في القيام بأول ترجمة للقرآن الكريم إلى اللاتينية، لم يكن بدافع شخصي منه فحسب، بل كان مشروعاً فاتيكانياً بامتياز، فقد تم تكليف بطرس المبجل بهذا العمل من قبل بابا الفاتيكان، «أوجين الثالث» الذي تولى منصب البابوية في الفاتيكان ما بين عامي: (١١٤٥ ـ ١١٥٣م) ويحمل الرقم (١٦٦) من بين بابوات الفتيكان.

يقول المستشرق الفرنسي «رجيس بلايشير»[٢] عن هذا البابا «أوجين الثالث»: «وكان طلبه من بطرس المبجل ترجمة القرآن، استمرار لروح الحروب الصليبية، ومن جهة أخرى لحاجته إلى ما يمحو به أية آثار ما زالت عالقة بذهن المسلمين الأسبان الذين تم تنصيرهم حديثاً»[٣].

• بداية مشروع بطرس المبجل لترجمة القرآن الكريم:

كانت إسبانيا بعد سقوطها كاملة في أيدي ملوك قشتالة الإسبان تخضع دينياً لسلطة بابا الفتيكان، وإدارياً كانت كنائس إسبانيا تحت إدارة

---

(١) الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء (٩٩ ـ ١٠٠)، وانظر كذلك: كتاب: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، القاسم السامرائي (٩٠ ـ ١٠٠).

(٢) انظر عنه: موسوعة المستشرقين، بدوي (١٢٦).

(٣) كتاب: عن القرآن (١٠).

«دَيْر كلوني» وإشراف رئيسه بطرس المبجل[(١)].

في سنة (١١٤١م) قام بطرس المبجل برحلة عمل إلى إسبانيا وكان لهذه الزيارة هدفان:

الأول: التوسط لإزالة الخلاف وإحلال السلم والمصالحة بين، «الفونسو الثاني» ملك قِشتالة، و«الفونسو الأول الأرجواني» بسبب خلاف نشب بينهما، وتكللت هذه الوساطة بالنجاح.

الثاني: التعرف عن كثب على الحوار القائم بين الإسلام والمسيحية، والمعارك الدائرة بين المسلمين والإسبان، والشعار المرفوع لاسترداد بيت المقدس، وسياسة الموّحدين الذين شنوا هجماتهم على إسبانيا في تلك السنوات[(٢)].

وفي رحلته الإسبانية هذه التقى بطرس في إحدى ضواحي شبه الجزيرة الإيبريّة براهبين كان لهما دور كبير في مشروع بطرس لترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية، وهما:

الأول: راهب إنجليزي يُدعى «روبرتوس كيتينسيس» أو «روبرت الكيتوني»[(٣)].

والثاني: راهب يُدعى «هيرمان الدالماتي».

كان لهما إلمام باللغة العربية، ويعكفان على دراسة المؤلفات

---

(١) يقال له: «المبجَّل» ويقال له «الموقَّر» ويقال له: «المحترم»، ويقال له: «المعظَّم»، كلها ألقاب لرجل واحد هو بطرس رئيس دير كلوني فتنبّه.

(٢) تاريخ حركة الاستشراق، يوهان فوك (١٧ ـ ١٨)، ومسيحية ضد الإسلام، لودفيغ هاغِمن (٦٢).

(٣) الاسم الأول حسب يوهان فوك، والثاني حسب لودفيغ هاغِمن، وهو واحد وزيادة حروف السين بفعل اللغة اليونانية ولم أعثر له على ترجمة سوى ما ذكر من عمله مع بطرس المبجل في ترجمة القرآن الكريم.

العربية الفلكية، فأدخلهما بطرس معه في مشروعه للترجمة مقابل مبلغ مغرٍ من المال[١].

• مشروع بطرس المبجل للترجمة ومكوناته:

وزّع بطرس العمل على رفيقيه بحيث يقوم «روبرت الكيتوني» بترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية.

ويقوم رفيقه الآخر: «هيرمان الدالماتي» بترجمة نبذ مختصرة تشمل:

١ ـ كتاب زُعم أنه كتاب «مسائل عبد الله بن سلام».

٢ ـ رواية مختصرة منسوبة لكعب الأحبار عن مولد النبي ﷺ وطفولته.

٣ ـ نبذة تاريخية مختصرة لتاريخ الإسلام إلى وفاة الحسين بن علي ﵄.

ثم أضاف بطرس المبجل إليهما ثالثاً هو: الأستاذ: «بطرس التوليتاني»، ومعه مساعد له هو «بطرس البكتافينسي»[٢].

هذا مشروع بطرس المبجل للترجمة كما عرضه المستشرق «يوهان فوك»[٣].

وأضاف «لودفيغ هاغِمَن» لما سبق كتاباً شملته الترجمة، وهو رسالة عبد المسيح بن إسحاق الكندي[٤]، وهي التي كانت موضوع دراستنا في الفصل السابق.

---

(١) تاريخ حركة الاستشراق (١٧).

(٢) لم أجد لهما أي ترجمة تعرِّف بهما.

(٣) في كتابه تاريخ حركة الاستشراق (١٧ ـ ١٨).

(٤) مسيحية ضد الإسلام (١١٤).

أما ترجمة «روبرت الكيتوني» للقرآن فسنتحدث عنها بتفصيل إن شاء الله.

أما رسالة عبد المسيح بن إسحاق الكندي فقد تحدثنا عنها بتفصيل في الفصل السابق.

أما ما يُسمى «رسالة عبد الله بن سلام» فبعد بحث طويل للاهتداء إليها وقفت على بعض المعلومات في كتاب لمؤلِّف يهودي مُسْتَعْرِب هو «إسرائيل وِلْفِنْسُون»[(١)] وهذا الكتاب عنوانه: «مُسْلِمة اليهود في الإسلام. . .كعب الأحبار»[(٢)].

فقد ذكر «إسرائيل ولفنسون» معلومات عن هذا الكتاب معترفاً بأنه منحول ولا صحة له فقال وهو يتحدث عن الصحابي الجليل عبد الله بن سلام ﵁: «وكذلك نُسِبَ إليه كتاب قديم منذ الحقبة الهجرية الأولى عُرِف باسم: «أسئلة عرضها عبد الله بن سلام على النبي» ولما وجد هذا المصنف رواجاً عظيماً في الأقطار الإسلامية، تنافس في شأنه المتنافسون من المؤلفين، وضموّا إليه معلومات شتى إلى أن عُرف بكتاب: «الأسئلة الألف»، وكذلك عثرنا بدار الكتب المصرية[(٣)]، بالقاهرة على رسالة صغيرة نُسِبت إلى عبد الله بن سلام، تُعْرف باسم: «كتاب في عظمة الله»،

(١) من يهود روسيا البيضاء، درس العربية على يد الشاعر المعروف «معروف الرُّصافي» وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة سنة ١٩٢٧م، وكانت رسالته بعنوان: «تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام»، وكانت تحت إشراف د. طه حسين، من أشهر مؤلفاته: «تاريخ اللغات السامية»، توفي سنة (١٩٨٠م).

(٢) وهو أطروحة دكتوراه ثانية حصل عليها من جامعة «كوته» بألمانيا، سنة ١٩٣٣م، طبع مترجماً إلى العربية بالمركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت، ٢٠١٣هـ.

(٣) (ج٧) قسم (٢)، (ص٤٤٣).

وهي بلا شك من الرسائل المنحولة في عصور إسلامية متأخرة وهي مدسوسة عليه، وكانت وفاة عبد الله بن سلام بالمدينة سنة ثلاث وأربعين للهجرة»[١].

أما المصادر الإسلامية فلم تذكر شيئاً من ذلك إلا أن ابن النديم ذكر في فهرسته معلومات عن أحمد بن عبد الله بن سلام وأنه عمّر طويلاً حتى أدرك خلافة هارون الرشيد، وأنه كان ينقل أخبار والده إلى الرواة والقُصَّاص، وأنه أول من ترجم التوراة والإنجيل من اللغات العبرانية واليونانية والصابية إلى اللغة العربية»[٢].

وهذه معلومات مغلوطة، لا صحة لها ولم يذكر ابن النديم من أين حصل عليها، وجميع من ترجم لعبد الله بن سلام في كتب الصحابة والتواريخ، ذكروا أن له ولدين اثنين هما: يوسف ومحمد[٣]، ولم يُذكر له ولد باسم أحمد، ولا هذا العمر المديد والعمل الكبير في الترجمة، فهذا محض افتراء وتلفيق لا غير.

أما أول ترجمة للأناجيل من السريانية إلى العربية فقد قام بها الرهبان الأرثوذكس العرب المقيمون بدير «مارسابا» في القرن التاسع الميلادي، وأقدم مخطوطة مؤرّخة بتاريخ (٢٧٢هـ)[٤].

أما ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية، وهو الأمر الذي قام به «روبرت الكيتوني» فالملامح العامة لهذه الترجمة حسب المطلعين عليها[٥]:

---

(١) كتاب مسلمة اليهود في الإسلام (٨).

(٢) الفهرست (٣٣).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ٤١٣)، والإصابة لابن حجر (٤/ ١٠٢).

(٤) انظر: كتاب: مخطوطات البحر الميت، قصة الاكتشاف، أسامة العيسة (٦٧ ـ ٦٨).

(٥) ذكر الدكتور رضوان السيد في كتابه: «المستشرقون الألمان، النشوء والتأثير والمصائر» (٧٧) أن مجلة: «Lsiamic Quarterly» نشرت دراسة عن هذه الترجمة وافية ولكنه لم يستطع الحصول والاطلاع عليها.

أولاً: استبدل روبرت الكيتوني كلمة «السّوُرة» بمصطلح من عنده هو «أزارا» «Azara» وهذا المصطلح كما يرى المستشرق «دالفرني» إنما هو مجرد تقريب لهذه الكلمة «السورة» من اللفظ المألوف محلياً «بطليطلة» بأسبانيا بحسب فهمه(١).

ثانياً: حذف روبرت الكيتوني سورة الفاتحة فلم يدخلها في عدد سور القرآن باعتبار أنها دعاء يُتلى، بل وشبّهه بالدعاء النصراني: «أبانا الذي في السموات»(٢).

ثالثاً: عَمَد روبرت الكيتوني إلى سور القرآن الطوال السّت الأولى فقسمها إلى فصول قصيرة، غير مراعٍ للترابط المعنوي، وبذلك وصل عدد سور القرآن في ترجمته من (١١٤) إلى (١٢٣) سورة إجمالاً(٣).

رابعاً: أما المضامين فقد قال المستشرق «يوهان فوك»: «وترجمة روبرت الكيتوني للقرآن تزخر بأخطاء جسيمة سواء في المعنى أو في المبنى، ولم يكن أميناً إذ أغفل ترجمة العديد من المفردات، كما لم يتقيد بأصل السياق، ولم يقم وزناً لخصوصيات الأسلوب بل أعمل جهده لاستشفاف مضمون فكرة كل آية من كل سورة يترجمها، وتقديمها بما يجافي المنطق»(٤).

بينما يقدم لنا أستاذ الدراسات اللاهوتية الألماني «لودفيغ هاغِمَن» تصوراً آخر لمنهج روبرت الكيتوني غير الأمين والملفق في ترجمته للقرآن الكريم فيقول: «على أن ما هو أهم من التقسيم الجديد الشكلي للقرآن: هو النقائص في المضمون التي ضمنتها ترجمة الكيتوني، فكثيراً ما يُعبِّر عن معنى النص مجرد تعبير مختصر، وكان قلما يحفل بالدقة في

---

(١) مسيحية ضد الإسلام (٦٥).
(٢) المصدر السابق (٦٦).
(٣) المصدر السابق.
(٤) تاريخ حركة الاستشراق (١٩).

الألفاظ، بل كان همُّه الأول أن يجعل القرآن مفهوماً فهماً عاماً، ومن أجل الوصول إلى ذلك لم يكن يُغْفِل مواضع من النص القرآني ببساطة فقط، بل كان يضيف أيضاً، حين كان هذا يبدو له مناسباً من جانبه تكميلاً لتكون على ما يبدو بوضوح أنه وسائل مساعدة على الفهم»[(١)].

فنحن إذا أمام عملية تشويه متعمدة من جانب روبرت الكيتوني وبطرس المبجل للنص القرآني بلغت حد التدخُّل بإضافة كلمات من عنده ليصل إلى المعنى المشوّه الذي يزعم باطلاً أنه هو المقصود القرآني، وهذه عملية تشويه صليبية كنسية مكشوفة، الهدف منها واضح هو تقديم صورة مشوهة ومغلوطة للإسلام والقرآن الكريم، لجمهور النصارى بأسبانيا وأوروبا تحول بينهم وبين الفهم الصحيح للإسلام والقرآن الذي لو وقع اكتشف جمهور النصارى محاسنه وجماله وحقائقه العظيمة في مقابل خرافات وأساطير وظلم الكنيسة والأباطرة.

وفي لحظة إنصاف واعتراف يصل إليها الأب «روبير كاسبار» إذ يقول: «إن الغرب لم يفهم الإسلام على حقيقته أبداً، بل ولم يحاول ذلك مطلقاً، وحتى خيرة المسيحيين القلائل الذين كانوا يعيشون على مقربة من الإسلام من أمثال يوحنا الدمشقي، وتيودور أبي قرة أو بولس الصيدوني، فلم يتمكنوا من إدراك جوهر الإسلام وعظمته، وهي: التصعيد إلى الله الواحد الأحد... ولعل ذلك يرجع أساساً إلى أن الغرب المسيحي قد اكتفى لمدة قرون طويلة بتلطيخ الإسلام ومؤسِّسه بأسخف الأقوال، دون حتى أن يكلف نفسه عناء دراسة هذه العقيدة، فأول ترجمة لاتينية للقرآن، لم تظهر إلا في القرن الثاني عشر؛ أي: بعد خمسة قرون من ظهور الإسلام، وقد تمت بناء على مبادرة من بطرس المبجل وتحت إشراف أسقف دير كلوني، ولا بد لنا من إضافة، أن هذه

---

(١) مسيحية ضد الإسلام (٦٦).

الترجمة وكل الترجمات التي تليها لم تكن لها أي هدف آخر سوى أن تكون الأساس لتوجيه المزيد من الإدانات ضد القرآن، وتلك الإدانات التي امتدت سلسلتها على مدى قرون تناثر عليها بعض أشهر الأسماء»(١).

ويقول المستشرق الفرنسي «**رجيس بلايشير**»: «يبدو أن هذه الترجمة التي تمت في مدينة توليدو «طليطلة» لم تكن أمينة بالمرّة وغير كاملة»(٢).

وسنذكر هنا نماذج من التحريفات والأخطاء التي وقع فيها روبرت الكيتوني في ترجمته:

١ ـ ترجم روبرت كلمة «مسلم» التي تعني الاستسلام لله والخضوع التام له في كل مواردها في القرآن بالكلمة «credere» وهي تعني: يعتقد، وهذا لا يؤدي المعنى التام لكلمة «مسلم».

يقول أستاذ الدراسات اللاهوتية «**لودفيغ هاغِمَن**»: «ومن المؤسف أن روبرت الكيتوني لم يدرك المعنى القرآني الحقيقي لكلمة «مسلم» ولا أصاب المضمون الروحي العميق الذي يكمن فيه، فكان إما أن يعبر عن هذا الموقف الذي يعد أنموذجياً جدّاً بنظره إلى العقيدة الإسلامية تعبيراً معقداً، أو يتجاوزه ببساطة، أو يعبر عنه بالكلمة اللاتينية «credere» أي: يؤمن أو يعتقد»(٣).

٢ ـ يورد هاغِمَن نموذجاً آخراً فيقول: «وثمة سوء فهم ترتبت عليه عواقب خطيرة، وهو مبني على القراءة الخاطئة، وذلك عند ترجمته للآية رقم (٤٥) من سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ

(١) أعمال مجمع الفتيكان الثاني «vatican II 209».
(٢) عن القرآن (١٠).
(٣) مسيحية ضد الإسلام (٦٧).

﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ فعند ترجمة هذه الآية وقع روبرت الكيتوني في خطأ فادح كثير العواقب: فالكلمة العربية «وجيه» أي: مرموق السمعة، قرأها على أنها: «وجه»، وبناء على ذلك عبّر عنها بكلمة «Facies»(١).

ثم أضاف إليها الناحية التأويلية فنقل الوصف للمسيح بأنه «وجيه» فصار بناء على هذه الترجمة المغلوطة: «وجه كل الشعوب» «Facies Omnium Gentiam»؛ أي: جاء لكل الشعوب وكل الأمم، وبنى عليه عالمية الرسالة المسيحية وإلزام جميع العالم بها، على أن ذلك هو وصف القرآن للمسيح.

٣ - يمدنا «يوهان فوك» بنموذج آخر خطير للتحريف المسمّى ترجمة، وذلك في سورة الهُمَزة فقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾؛ أي: يظن هذا الهمزة اللمزة أن ماله الذي جمعه وعدده سيخلِّده، فيأتي روبرت الكيتوني فيحذف كلمة «يحسب نهائياً، وبذلك يعطي عكس المعنى المراد من الآية تماماً»(٢).

٤ - وفي تحريف آخر خطير وقذر، لقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ [آل عمران: ١٤].

يجعل روبرت الكيتوني البنين معطوفة على النساء ويجعل معنى الكلام مجامعة الأبناء كمجامعة النساء ومعانقتهم.

يقول «هاغِمَن»: «وفي الترجمة الكيتونية للقرآن يوجد تعلق بالمبالغات لا يمكن للمرء أن يسقطها من حسابه، وحتى المواضع البريئة من تلك النصوص تكتسب في أحيان ليست قليلة مذاقاً ينطوي على

---

(١) مسيحية ضد الإسلام (٦٧). (٢) تاريخ حركة الاستشراق (١٩).

الجموح وينبو عن الذوق، فإذا ورد في القرآن: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾، جعل منه روبرت الكيتوني هذا الكلام: «مجامعة الأبناء ومعانقتهم»[١].

فوضح سوء هذه الترجمة وأن غرضها تقديم صورة مشوهة عن الإسلام والقرآن في تصورات وأذهان جمهور النصارى بأوروبا.

• نتائج مشروع بطرس المبجل وروبرت الكيتوني:

تمت هذه الترجمة سنة (١١٤٣م) بمدينة طليطلة الإسبانية، وجمع بطرس المبجل هذه الترجمات السابق ذكرها، وأرسلها مشفوعة بخطاب عن هذا المشروع ونضال رجال الكنيسة ضد الإلحاد، إلى الأب: «برناردفون كليرفو» وهو الصديق الشخصي لبابا الفاتيكان: «أوجينوس الثالث».

وهذه الرسالة من بطرس المبجل إلى برناردفون كليرفو لها دلالتها الواضحة، فالأب «برناردفون كليرفو» هو أحد الدعاة بحماس إلى اعتماد سياسة الحروب الصليبية في مواجهة الإسلام والمسلمين، وبطرس المبجل هو رائد البحث والدراسات لمواجهة الإسلام فكرياً[٢].

اكتمل المشروع الفاتيكاني النصراني الصليبي في مواجهة الإسلام وحربه في القرون الوسطى.

يقول «ريتشارد سوذرن»: «سيظل دير كلوني معلماً تنويرياً في تاريخ العلاقة بين المسيحية والإسلام، للعمل الضخم والمتقدم الذي قام به رئيسه «بطرس المبجل» عندما رعى أول ترجمة للقرآن إلى اللاتينية، فهذه الترجمة التي قام بها العالم الإنجليزي «روبرت الكيتوني» شكلّت المعلم

(١) مسيحية ضد الإسلام (٦٨).
(٢) المصدر السابق (١٢٩).

البارز والأساسي في مجال الدراسات الإسلامية بأوروبا الغربية الوسيطة»[١].

وظلت هذه الترجمة هي الوحيدة العاملة في أوروبا[٢] لمدة أربعة قرون أو خمسة.

يقول «**لودفيغ هاغِمَن**»: «يمكن أن يقال عن الترجمة اللاتينية الأولى للقرآن أنها ظلت طوال خمسة قرون، الترجمة الأكثر استعمالاً، وعليها تقوم أقدم ترجمات القرآن المعروفة لدينا، إلى الإيطالية، والألمانية، والهولندية، على أن المخطوطات الجمة العدد التي توجد فيها، فتشهد على انتشارها الواسع في ذلك العصر، ولم تجر إزاحة ترجمة القرآن اللاتينية لروبرت الكيتوني بسبب ترجمة الإيطالي «لود فيكو مرّاتشي»[٣]، إزاحة نهائية إلا في عام (١٦٩٨م) إذ كانت هذه أفضل وأكثر دقة بما لا يقاس»[٤].

يؤكد «**يوهان فوك**» ما قاله هاغِمَن فيقول: «فمن ترجمة روبرت الكيتوني، نبعت أقدم ترجمة إيطالية للقرآن أشرف عليها الناشر «أريفا بيني» سنة (١٥٤٧م)، وفي سنة (١٦١٦م) ترجم «سالمون شفايجر» القرآن إلى الألمانية عن الترجمة الإيطالية، وعن الألمانية إلى الهولندية سنة (١٦٤١م) ولم تتوار ترجمة «روبرت الكيتوني» عن الأنظار إلا بعد ظهور

---

(١) صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى (٨٠).

(٢) ذكر بعضهم ترجمة أخرى ظهرت في القرن الثالث عشر الميلادي باللغة القَشْتالية، بأمر من الملك «الفونسو العاشر»، انظر: كتاب: الإسلام في تصورات الاستشراق الأسباني، د. محمد العسري (٩٨).

(٣) راهب من أعضاء جمعية رهبان أم الله، وكان معرفاً للبابا «أنوسنت الحادي عشر»، موسوعة المستشرقين، بدوي (٤٣٨).

(٤) مسيحية ضد الإسلام (٦٩).

النسخة الإيطالية التي ترجمها: «ماراتشي» سنة (١٦٩٨م)، والتي لا سبيل إلى مقارنتها من حيث صحتها مع أي ترجمة أخرى قبلها»[1].

ولما ظهرت الطباعة بأوروبا نشب جدل بين القساوسة في أوروبا حول طباعة ترجمة بطرس المبجل وروبرت الكيتوني، ولم ينته هذا الجدل، حتى تدخل اللاهوتي الشهير الكاهن «مارتن لوثر»[2]، وأمر بطباعتها بكل ما فيها من مساوئ وذلك بتاريخ (١١) كانون الثاني سنة (١٥٤٣م)، وقام على الطباعة والنشر الأب والناشر السويسري «تيودور المكتبي» وصدرت بمدينة «بازل» السويسرية بعد انقضاء (٤٠٠) سنة على ترجمتها، وصدرت في ثلاثة أجزاء، وصدرت الطبعة الثانية منها سنة (١٥٥٠م).

يسجل المستشرق «يوهان فوك» ملاحظاته على الأخطاء والتسرع الذي صاحب هذه الطبعات، فيقول: «يجدر بالذكر هنا، أنه وضع تحت تصرف الناشر مخطوطات مترجمة للقرآن، وعلى سبيل المثال فإنه يملي من نسخة العصر الوسيط كما على الصفحات (١٩، ٩٣، ١٨٥)، وبما أن هذه المخطوطات لم تخضع للمراجعة، فإن السؤال يظل قائماً حول ما إذا كان النص الوارد ذكره هنا قديماً، أو أنه أجري عليه تعديل، إن التلاعب بالنص الأصلي الذي أشار إليه: «بيبلياندر» على صفحة العنوان، لم يؤثر في شكل نصه، ولقد كانت معرفته بالعربية متواضعة إلى درجة أنه لم يكشف النقاب في حواشيه عن جود ثغرات أو أخطاء في النص إلا نادراً، بالإضافة إلى عدم بذل أي محاولة لتصحيحها، كما جاء على الصفحات: (١٨٥، ١٨٧، ١٨٨)، على سبيل المثال، وغير مرة، قام بضبط الأرقام الناقصة في النص (٣ و٤) ص(١٦، ١٩) بحسب ما جاء

---

(١) تاريخ حركة الاستشراق (٢٠).

(٢) ستأتي له دراسة إن شاء الله.

في النص الآخر، ومن فقد أرفق ترجمة متميزة لسورة البقرة لمترجم أُغفل اسمه مع محاولة أخرى لترجمة السورة نفسها من قبل «فلهلم بوستل» وبعد الشروع في الطباعة تلقّى مخطوطين آخرين، اقتبس منهما عدداً كبيراً من القراءات مدونة على الهامش»[١].

والجدير بالذكر، أن هذه الطبعة الأولى لترجمة بطرس المبجل للقرآن، والصادرة سنة (١٥٤٣م) كانت بعد سنوات قليلة من صدور أول طبعة للقرآن الكريم بحرفه العربي بأوروبا، وذلك سنة (١٥٣٠م) بمدينة البندقية بإيطاليا، لكن بُودر إلى مع نُسَخ تلك الطبعة وحرقها، ولم يعثر لها على أثر وأفاد الدكتور «عبد الرحمٰن بدوي» بأن أقدم من ذكرها هو «إربنيوس» في كتابه: «مبادئ اللغة العربية»[٢].

هذا هو مشروع هذا القسيس الشهير «بطرس المبجل» ورفيقه «روبرت الكيتوني» فهو حلقة في سلسلة متواصلة من محاربة الإسلام في مصادره العظيمة، خاصة القرآن الكريم، وأدى هذا المشروع فعله وأثره كما رأينا على مدى نحو من خمسة قرون وعليه اعتمد كثيرون في موقفهم من القرآن الكريم كما سيأتي في الفصول القادمة إن شاء الله تعالى.

❁ ❁ ❁

---

(١) تاريخ حركة الاستشراق (١٨).

(٢) موسوعة المستشرقين (٤٣٨).

توما الأكويني

«Thomas d' Aquin»

توما الأكويني
«Thomas d' Aquin»

هو القديس الشهير، والمعلم الأشهر في القرون الوسطى «توما الأكويني»، ولد بقصر «روكاسكا» ببلدة «أكونيو» بإيطاليا سنة (١٢٢٤م)، وأودعه أبوه خادماً بدير «مونت كاسينو» وفي سنة (١٢٤٣م) بعد وفاة والده انضم «توما» إلى جماعة «الأخوة الوعّاظ»[١].

تتلمذ في اللاهوت على يد أستاذه: «البرت الكبير»[٢].

ودرس الفلسفة على طريقة «أرسطو» فيعتبر قمة الفلسفة في العصر الوسيط، واعتمد عليها في عرض الديانة المسيحية.

ودعاه البابا «جريجوار العاشر» إلى المجمع المسكوني الذي عقد في مدينة «ليون» الفرنسية، ولكن توما مرض في الطريق ومات في مدينة «فوسانوفا» سنة (١٢٧٤م).

له قيمة لاهوتية وعلمية رفيعة في النصرانية فلُقِّب «شمس المدارس»

---

(١) هو نظام الرهبنة الشهير «الدومينيكان» نسبة إلى مؤسس هذا النظام الراهب «دومينيكو دي غوزمان»، وهو قديس إسباني، أسس هذه الرهبنة لمواجهة هرطقة جماعة «الألبيجيين» في أسبانيا وفرنسا، اشتهروا بالعلوم والوعظ، ولبسهم أبيض ومن فوقه رداء أسود، من أشهر المنظمين إلى هذه الرهبنة الراهب «توما الإكويني» وأستاذه القديس «ألبرت الكبير»، انظر: المجمل في تاريخ الكنيسة الجامعة للأب أنطون الفرغاني (٧٥).

(٢) أستاذ توما فيلسوف لاهوتي، توفي سنة (١٢٨٠م) انظر عنه: البرت الكبير للدكتور عبد الرحمٰن بدوي في موسوعة الفلسفة (١/ ٢١٧).

و«الفيلسوف المثالي» و«معلم معلمي الكنيسة» و«المعلم الملائكي» وغيرها[١].

مؤلفاته:

كتب القدّيس «توما الأكويني» كمًّا كبيراً من المؤلفات والكتب والرسائل، وفي المقدمة التي كتبها الأب «بولس مسعد» والأستاذ «يوسف كرم»، لكتاب توما «الوجود والماهية» قائمة واسعة لجميع مؤلفات هذا القديس[٢].

يقول **الدكتور لويس صليبا**: «بلغت المجموعة الكاملة لمؤلفاته في طبعة باريس (١٨٧١ ـ ١٨٨٠م) أربعة وثلاثين مجلداً»[٣].

والذي يهمنا من مؤلفاته هنا:

الأول: «الخلاصة اللاهوتية»، وهو أضخم إنتاج «توما» في علم اللاهوت المسيحي، ويُعد موسوعة واسعة في الفلسفة الدينية والعقائد اللاهوتية، والفرق والطوائف المسيحية.

وقد كتبه «توما» باللغة اللاتينية، وله ترجمتان إلى اللغة العربية:

الأولى: ترجمة قام بها: «إسحاق بن جبير الموصلي» راهب توفي سنة (١٧٢١م)، وإسحاق بن جبير هذا مطران مدينة «آمد»[٤].

---

(١) انظر عنه: المخطوطات العربية لكتبة النصرانية (٧٨)، وكتاب: هكذا علّم توما الأكويني، تأليف: لويس صليبا، وكتاب «توماس الأكويني»، الفيلسوف المثالي في العصور الوسطى، تأليف: كامل محمد عويضة.

(٢) مقدمة كتاب: الوجود والماهية (١٧ ـ ٢٠) ونقلها عنها د: حسن حنفي في كتابه: نصوص من الفلسفة المسيحية (١٨٤ ـ ١٨٦)، وكذا كتاب: هكذا علم توما للدكتور لويس صليبا (٢٣ ـ ٢٧).

(٣) كتاب: هكذا علّم توما الأكويني (٢٣).

(٤) انظر عنه: المخطوطات العربية لكتبة النصرانية: للأب لويس شيخو (٣٠) وكذا =

والترجمة الثانية: قام بها المطران: «بولس عوّاد» وطبعت في «ستة» أجزاء[(١)].

والكتاب الثاني: كتاب «منطق الإيمان» وهو كتاب مهم، وضعه توما للرد على المسلمين، وكذا اليونان والأرمن، وعنوان الكتاب كاملاً كما في الطبعة الإنجليزية[(٢)] الأولى الصادرة ما بين عامي (١٢٦١م ـ ١٢٦٣م) «Derationibus Fidei Conta Saracenos Gracos et Armenos».

الكتاب الثالث: كتاب «المجموعة ضد الأمم» «Summa Contra Gentiles»[(٣)] يقول د. لويس صليبا في التعريف بهذا الكتاب: «يتضمن عرضاً شاملاً للعقيدة المسيحية موجّهاً إلى الأمم من يهود ومسلمين، يرد فيه حججهم ضد الدين المسيحي، ويقدم براهين لإقناعهم بصحته. . .أما أهل الإسلام فيقدم لهم براهين تستند إلى العقل السليم»[(٤)].

هذه الكتب الثلاثة، فيها موقف القدّيس «توما الإكويني» من الإسلام ومصادره، خصوصاً القرآن الكريم، وسيكون اعتمادنا عليها في عرض موقفه من القرآن الكريم، والجواب عنه.

أما بقية كتبه فهي إما في تقرير العقيدة النصرانية الكاثلوكية، أو في شرح الأسفار المقدسة أو في الفلسفة، فلسفة الكون والحياة والوجود

= (٧٨) ومجلة المشرق اليسوعية عدد (١١) سنة (١٩٠٨م) (ص٢٨٦ ـ ٢٩١).

(١) طباعة ونشر: دار ومكتبة: بيبليون، بيروت، ٢٠١٤م، وعلى هذه الطبعة اعتمد في النقل في هذه الدراسة.

(٢) وقد ترجمه إلى العربية الأستاذ: جرجس فرج صفير، وطبع سنة ١٩١٤م.

(٣) ترجمه إلى العربية وعلّق عليه: المطران: نعمة الله أبي الكرم، دار ومكتبة بيبليون، بيروت (٢٠٠٠م).

(٤) هكذا علّم توما الأكويني (٣١).

والماهيّة، أو في العِظات الروحية على طريقة نظام الرهبنة، الدومينيكاني[١].

- **نشاط «توما الإكويني» ومنهجه:**

مع بداية النشاط التبشيري «التنصيري» في مستهل القرن الثالث عشر الميلادي، ظهرت في الساحة الكنسية ما يُعرف بنظام الرهبانيات، ومن أشهرها:

١ ـ نظام الرهبنة الثالث «الفرنسيسكان» الذي أسّسه، الراهب «فرنسيس الأسيزي»[٢]، الذي حصل على تكريسه كناشط في الدعوة إلى المسيحية، من البابا «إنْسُنس الثالث» سنة (١٢٠٩م) وحضر مجمع «لاتيران» الرابع في روما الذي دعا إليه البابا الذي جُددت فيه الدعوة إلى الحملة الصليبية الرابعة لاستعادة الأراضي المقدسة، ولقد شارك في الحرب الطائفية في أوروبا سنة (١٢٠٢ ـ ١٢٠٣م)، ثم عاد داعياً مبشراً بالإنجيل، وأسس نظام الرهبنة الثالث الذي حمل اسمه «الفرنسيسكان»، وأراد أن ينقل دعوته بالإنجيل إلى العالم الإسلامي فحل في بلاد المغرب سنة (١٢١٤م)، ومرض وعاد إلى دياره، ثم رحل مرة أخرى ووصل إلى مصر سنة (١٢١٩م)، وزار وأقام مدة في معسكر الصليبيين الذين كانوا

---

(١) انظر: كتاب: هكذا علّم توما الأكويني للدكتور: لويس صليبا (٢٣ ـ ٣٨).

(٢) ولد سنة (١١٨٢م) في بلدة أسيزي بإيطاليا، في عصر الحروب الصليبية واحتدامها على المسلمين التي كان يرعاها البابا «إنْسُنس الثالث» الذي قال عنه: «فولتير»: «إنه من كبار الشخصيات السياسية في أوروبا في ساعة عابرة حاسمة من تاريخ العالم» وتوفي الأسيزي سنة (١٢٢٦م) وأشهر الرهبان المنضمين لهذا النظام الرهباني القديس «بونا فنتوره»، والقديس «أنطون البادوي»، انظر: المجمل في تاريخ الكنيسة الجامعة للأب أنطون الفرغاني (٧٤ ـ ٧٥).

يحاصرون مدينة «دمياط» المصرية في أثناء الحملة الصليبية الخامسة.

ولما هُزم الصليبيون على يد السلطان الأيوبي الكامل[١]، ومن ثم قرر هذا الراهب «فرنسيس الأسيزي» أن يزور عسكر المسلمين، وأتيح له أن يدخل على السلطان الكامل الأيوبي ليقرب إليه رسالة الإنجيل في تصوره وزعمه، ولكن السلطان صرفه خائباً خاسراً، فرحل إلى سوريا، وذهبت كل أمانيه في نقل رسالة الإنجيل إلى المسلمين سدى.

٢ ـ نظام الرهبنة «الدومينيكان» الذي أسسه الراهب «دومينيك دي غزمان»[٢].

أما عن أثر وانتشار نظام الرهبنة الخاص به مع نظام الرهبنة «الفرنسيسكان» فيقول عنه وعن أهميته المطران ميخائيل عسّاف: «كان الله قد أعد لتلك القرون الوسطى، الملأى بالحروب والمظالم والمطامع، والبدع، كوكبين عظيمين، لينير بهما الظلمات، ويبدّد الغيوم، ويجعلهما للشعوب نوراً وهداية وتقديساً، وهذان الكوكبان هما: «فرنسيس الأسيزي» الذي لمع في سماء إيطاليا، و«دومينيك دي غزمان» الذي أشرق في أسبانيا، فقد كان كل منهما قدّيساً عظيماً، ورسولاً ناريّاً، ومنشئاً لفرق عظيمة من الجيوش الرهبانية، وقد تعارفا وتعانقا وتصادقا، ورجا كل منهما من صاحبه أن يذكره في صلواته»[٣].

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٢/ ١٣٩).

(٢) ولد سنة (١١٤٥م) ببلدة «لاهورا» بإسبانيا، درس بجامعة «فالنسيا» اللاهوت والفلسفة والخطابة، وقضى حياته في الوعظ والتبشير بالإنجيل ومحاربة الهرطقات، مات سنة (١٢٢١م)، انظر: المجمل في تاريخ الكنيسة الجامعة (٧٥).

(٣) سيرة القدّيسَيْن في كنيسة الملكيين الكاثوليك (٢/ ٦٢٩)، المكتبة البوليسيّة، بيروت، ٢٠٠٣م.

وقد سماها مؤسسها باسم: «الأخوة الوعّاظ»، وعُرفت «بالدومينيكان»، وقد انضم إليها وتخرج منها وعمل فيها: (أربعة باباوات، وستون كردينالاً، ومائة وخمسون رئيس أساقفة، وأكثر من ثمانمائة أُسْقُف)(١).

ومن أشهرهم هذا الراهب القديس: «توما الإكويني»، والعمل الرئيس لهذه الرهبنة خاصة «الدومينيكان» هو كما قال أستاذ اللاهوت الألماني: «لودفيغ هاغِمن»: «تقريب العقيدة المسيحية إلى أذهان المسلمين، وتكريس العمل الفكري والجدل المذهبي ضد محمد ﷺ والقرآن»(٢).

وأما «توما الإكويني» فبالنظر لإنتاجه الفكري ومؤلفاته خصوصاً الكتب السابق ذكرها فيمكن أن تتضح لنا معالم منهجه وغاياته التي نجملها في أمرين رئيسين:

الأول: دفاعه عن العقيدة المسيحية خصوصاً التثليث، ودفاعه عن الكتاب المقدس، ولقد سلك في ذلك مسلك المطالبة بالتسليم الكامل للعقيدة المسيحية وأنها مستعصية على الإدراك البشري، ولا تفهم إلا بالإيمان، بلا برهان عقلي ولا بحث نظري، فهو يطالب بإلحاح بعدم جعل العقيدة المسيحية عرضة للنقاش والجدل.

يقول توما: «فقد مست الحاجة إلى تعليم مقدس موحى من الله سوى التعاليم الفلسفية التي ينظر فيها بالعقل، وإن كان لا ينبغي للإنسان أن يبحث بالعقل عمّا يفوق إدراكه إلا إن كان من ذلك موحى من الله يجب أن يقبله بالإيمان ولذلك قيل أيضاً في سي [٣: ٢٥] «قد اطلعت على أشياء كثيرة تفوق إدراك الإنسان» فبهذا يقوم التعليم المقدس»(٣).

---

(١) سيرة القدّيسَيْن في كنيسة الملكيين الكاثوليك (٢/ ٦٣١).

(٢) مسيحية ضد الإسلام (٧١).

(٣) الخلاصة اللاهوتية (١/ ١١).

ويطالب «توما» بذلك المبدأ من مبادئ اللاهوت المسيحي الذي يمس كل مسيحي ويملي عليه أن يكون على استعداد لتحمل مسؤولية عقيدته تجاه الاعتراضات، والصعوبات هذا الاستعداد هو الذي يغني عند توما عن إقامة البراهين على صحة العقيدة المسيحية ولا ينزع إلى إثبات صحتها بمنطق العقلانية.

يقول «توما» في جوابه للمدعو «كنتر الأنطاكي: «أريد بادئ ذي بدء أن أذكرك أنه يجوز لك أن تهدف في الخلافات مع الكفار[١]، حول أركان الإيمان إلى البرهنة على صحة العقيدة وتساميها، وهي التي لا تتجاوز صحتها مجال الفكر البشري فقط، بل تتجاوز حتى مجال فكر الملائكة، بل نحن نعد مضامين العقيدة كأنما هي أمور موحى بها من الرب نفسه، ولكن لما كان ما يصدر من الحقيقة العليا لا يمكن أن يكون خاطئاً ولا يمكن أن يدحض بالأسباب القاهرة، ما ليس بالخاطئ فإن عقيدتنا لا يمكن البرهنة عليها بالأسباب القاهرة أيضاً، مثل تلك المضامين المذكورة آنفاً؛ لأنها تتجاوز مجال العقل البشري، غير أنها لا يمكن دحضها أيضاً بالأسباب القاهرة بسبب صحتها»[٢].

ولذلك فإن توما الإكويني مع أنه دارس نهم للفلسفة خصوصاً فلسفة «أرسطو» وله حوارات ومجادلات مع الفلاسفة المسلمين ابن رشد وابن سينا وغيرهما[٣].

إلا أنه يطالب بشدة بعدم التعرض لنصوص الكتاب المقدس بشيء من التحليل العقلي والنقد المنطقي، ويمنع بقوة من تجاوز حرفية الكتاب المقدس، ومنع كل صور المجاز والتأويل في فهمه وتحليله، وهو يصنع

---

(١) غير النصارى، ويقصد المسلمين خصوصاً.

(٢) منطق الإيمان (٩٧).

(٣) انظر: كتاب: توما الأكويني وأثره عبر العصور، د. لويس صليبا (١٧٧ ـ ٢٠٦).

ذلك لعلمه بأن عرض الكتاب المقدس على شيء من التحليل سيكشف جوانب كثيرة وخطيرة من التناقضات الصارخة، والمصادمة للحقائق التاريخية، والمنطق العقلي السليم.

في كتابه الشهير: «الخلاصة اللاهوتية» يعقد توما فصولاً عديدة لذلك، ففي فصل عقده بعنوان: «هل التعليم المقدس استدلالي»:

يقول توما: «إن هذا التعليم ليس استدلالياً فقد قال «امبروسيوس» في كتاب «الإيمان الكاثوليكي» [١ب٥] «دَعْ الأدلة حيث يُبْحَث عن الإيمان»[(١)].

ثم اعترف بضعف الدلالة النقلية وامتناع الدلالة العقلية على العقيدة والإيمان المسيحي، فقال توما: «وأيضاً فلو كان استدلالياً، فإما أن يكون استدلاله من النقل أو من العقل؛ فإن كان من النقل فليس ذلك لائقاً بشرفه في ما يظهر؛ لأن الدليل النقلي في غاية الوهن كما نبَّه عليه «بويسيوس»، وإن كان من العقل فليس ذلك لائقاً بغايته فقد قال «غريغوريوس» في [خط: ٢٦] على الإنجيل: «إن الإيمان إذا أُثبت بالعقل الإنساني خلا عن استحقاق الثواب»، فإذاً التعليم المقدس ليس استدلالياً»[(٢)].

وأفاض في هذا الفصل محاولاً تقرير ذلك.

وفي فصل عقده «توما» بعنوان: «هل ينبغي التجوُّز في الكتاب المقدس» وفيه منع من استخدام أنواع المجازات والتأويلات في التعاطي مع نصوص الكتاب المقدس، فقال «يظهر أن الكتاب المقدس لا ينبغي فيه التجوُّز؛ لأن ما كان خاصاً بالعلم الأدنى[(٣)] لا يليق بهذا العلم الذي

---

(١) الخلاصة اللاهوتية (١/ ٢٠). (٢) المصدر السابق (١/ ٢١).

(٣) يقصد العلوم اللغوية من الشعر ونحوه.

له المقام الأعلى بين سائر العلوم، واستعمال التشابيه المختلفة، والاستعارات خاص بعلم الشعر الذي هو أدنى جميع العلوم فهو إذاً ليس لائقاً بهذا العلم»(١).

وقال أيضاً: «فإن الحق يستتر بمثل هذه التشابيه، فإذاً لا يليق بهذا العلم إيراد الإلٰهيات تحت مثال الجسمانيات»(٢).

واستفاض في محاولة إثبات ذلك.

وفي عنوان آخر يقول توما: «هل للكتاب المقدس تحت لفظ واحد معانٍ كثيرة»(٣).

يقرر توما منع ذلك فيقول: «يظهر أن الكتاب المقدس ليس له تحت لفظ واحد معانٍ كثيرة؛ أي: تاريخي، أو حرفي، أو رمزي، أو أدبي، أو علوي؛ لأن تكثير المعاني في كتاب واحد يؤدي إلى الالتباس والخطأ، ويوهن الاستدلال، ولذا كانت القضايا المتكثرة المعاني لا يحصل عنها حجة، بل إنما يحصل عنها المغالطات، والكتاب المقدس يجب أن يكون قوياً على إيضاح الحق من دون أدنى مغالطة، فإذا ليس ينبغي إيراد معانٍ كثيرة تحت لفظٍ واحد»(٤).

وأفاض في ذلك محاولاً تقريره.

فواضح من منهج «توما» أنه في هذا الجانب، جانب تقرير العقيدة المسيحية بتناقضاتها الصارخة ومجافاتها للبراهين العقلية، وافتقارها حتى إلى الدليل النقلي الصريح، خصوصاً التثليث، فهو يحاول تفادي ذلك بالمطالبة بالتسليم الكامل، وإلغاء دور العقل تماماً حتى بالمطالبة بالدليل النقلي الواضح، وظن أنه بذلك أنقذ العقيدة المسيحية من التناقضات أو قدم لها سياجاً من الحماية!!.

---

(١) الخلاصة اللاهوتية (١/ ٢٣).
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق (١/ ٢٥).
(٤) المصدر السابق.

المعلم الثاني: من معالم منهج الأكويني: فهو ما يختص بمجادلته للمسلمين وموقفه السلبي من القرآن الكريم، هذا الجانب الذي كرّس «توما» كثيراً من إنتاجه الفكري له.

فإن منهجه الذي سلكه في التعامل مع العقيدة الإسلامية، ومع نصوص القرآن الكريم عكس منهجه السابق في تعامله مع العقيدة المسيحية ونصوص الكتاب المقدس.

ذلك المسيحي الظاهري الحرفي ينقلب إلى مُأوِّل شديد التأويل، مع نصوص القرآن الكريم، ويستخدم كل ما لديه من معارف فلسفية وطرائق كلامية ومنطقية وعقلية في مجادلة نصوص القرآن الكريم خصوصاً ما يتعلق منها بالمسيح ﷺ وولادته ورسالته ونفي صلبه والتنصيص على أنه عبد الله ورسوله.

• موقف «توما الإكويني» من القرآن الكريم:

يتركز أكثر كلام «توما» عن القرآن الكريم في كتابه «منطق الإيمان»، وكتابه الآخر «المجموعة ضد الأمميين»، فبين الكتابين تشابه كبير.

وكتاب: «المجموعة ضد الأمميين» ألفه «توما» بطلب من الراهب «رِمُنْددي بينافور» وهو ذات الوقت الراهب الأكبر في نظام رهبانية «الأخوة الوعاظ» «الدومينيكان» الذي كان يعمل باجتهاد لتنصير المسلمين في إسبانيا في ذلك الوقت.

يُعرِّف أستاذ اللاهوت الألماني «لودفيغ هاغِمن» هذا الكتاب فيقول: «وتشير كل المظاهر إلى أن كتاب «المجموعة ضد الأمميين» كان يقصد به أن يكون كتاباً تعليمياً للكليّات التي أنشأها نظام رهبانية الدومينيكان لتدريب مبشّري المستقبل»(١).

(١) مسيحية ضد الإسلام (٧٨).

أما كتاب «منطق الإيمان» فهو عبارة عن أجوبة جدلية صاغها «توما» جواباً على أسئلة وجَّهها له رجل يُدعى: «كنْتُر الأنطاكي»، يريد «توما» من خلال أجوبته أن يقدم وسائل جدلية تساعد «كَنْتُر» هذا أو غيره من المبشرين في مجادلاتهم مع المسلمين.

يقول «**هاغمن**»: «وإذا كان كتاب «منطق الإيمان» من حيث كونه رسالة جوابيه عن أسئلة «كنتر الأنطاكي» في أول الأمر، وهو كتاب مناسبة معينة، فإنه لا يقل عن ذلك مبدئياً في طبيعته عمّا تتسم به التفصيلات المعروضة في كتاب «ضد الأمميين» فهناك، وهنا يدرك توما أنه ملتزم بمباديء نظرية تبشيرية أساس فيما يتعلق بالمجادلة مع ذوي العقائد الأخرى خصوصاً المسلمين»(١).

وأهم القضايا التي جادل فيها «توما» القرآن الكريم:

القضية الأولى: موقف القرآن لكريم من وحدانية الله تعالى، ومنع الولد والشريك والتعددية والتثليث.

القضية الثانية: نفي القرآن لألوهية المسيح ﷺ، ونفي قتله وصلبه.

وواضح أن معرفة توما بالإسلام والقرآن معرفة ناقصة ومشوشة إلى حد بعيد، وسبب ذلك أن توما الأكويني اعتمد في دراسة القرآن على تلك الترجمة اللاتينية للقرآن الكريم والتي قام بها «بطرس المبجل» و«روبرت الكيتوني» من قبل، والتي تحدثنا عنها في فصل سابق، وفيها من المغالطات والتحريف والتشويه الشيء الكثير.

فاعتمد توما عليها لمعرفة دلالات القرآن، وبنى مجادلته لها على ضوء ذلك، وهذا أول خطأ منهجي علمي في موقفه من القرآن الكريم.

---

(١) مسيحية ضد الإسلام (٧٩).

ولذلك كانت معرفته بالإسلام ناقصة ومشوشة، وهذه الملاحظة سجلها أستاذ اللاهوت الألماني «هاغمن» فيقول: «وهذه الإشارة جديرة بالملاحظة على أنها تكشف بلا ريب عن أن «توما» لا يعد من العارفين بالإسلام، والحق أن هناك محاولات لنسبة المعارف الأكثر إحاطة فيما يتعلق بالإسلام، إلى توما الأكويني، ولا سيما فيما يتصل بما يُسَمَّى «مجتمع توليتانوم»[(١)]، وذلك أن توما نفسه يعترف صراحة بعدم كفاية معرفته، وليس ثمة من سبب يحمل على افتراض أنه قرأ القرآن في أي يوم من الأيام مع توافر ترجمات لاتينية له بلا ريب، ومن المعروف أن الترجمة اللاتينية الأولى للقرآن ترجع إلى مبادرة «بطرس المبجل»، أما ما يوجد حول محمد وتعاليمه لدى توما فهو الروايات المعروفة في تلك الأيام في الأوساط الفكرية في كل مكان في الغرب، ولا تتجاوز معلومات توما عن الإسلام مقدار معرفة متخلفة، كما يثبت ذلك كتابه «منطق الإيمان»[(٢)].

وبناء على هذه المعلومات الناقصة والمشوشة إلى حد كبير تأتي اعتراضات توما على القرآن الكريم يشوبها العجز عن الفهم وسوء الظن، وحالة من العدائية تزيد من معدل التشوية والاضطراب.

القضية الأولى: موقف القرآن من وحدانية الله، ومنع ألوهية المسيح عليه السلام، وإبطال التثليث:

يقدم توما بين يدي اعتراضه على القرآن في هذه القضية الحاسمة والفارقة فيقول: «وذلك أن المسلمين يهزؤون بنا، كما كنا نقول؛ لأننا

---

(١) مجتمع توليتانوم هو: مجموعة الرسائل التي قام بطرس المبجل وفريق عمله بترجمتها من العربية إلى اللاتينية بالإضافة إلى ترجمة القرآن وقد سبق الحديث عنها مفصلاً.

(٢) مسيحية ضد الإسلام (٨٢ ـ ٨٣).

نؤمن بثلاثة أشخاص «أقانيم» يجتمعون في الرب؛ لأنهم يعتقدون حسب قرآنهم أننا بذلك نؤمن بثلاثة من الآلهة»[١].

وأحال إلى الآية رقم (١٧١) من سورة النساء.

وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾.

وجادل توما في ذلك بإصرار على عدم وحدانية الله، والإصرار على أن الله تعالى ثالث ثلاثة، فهو يقرر التشريك مع الله صراحة، ويريد بذل مجادلة دلالات القرآن الصريحة في توحيد الله تعالى، وأن الله تعالى إلٰه واحد لا إلٰه إلا هو.

يقول توما تحت عنوان: «هل الله واحد»:

«يظهر أن الله ليس واحداً، فقد قيل في [أكوز ٥ : ٨]: «قد وُجد كذلك آلهة كثيرون وأرباب كثيرون»[٢].

قرر «توما الأكويني» في هذا النص التشريك وكثرة الآلهة لمصادمة نص القرآن الكريم القاطع الدال على أن الله تعالى هو الإلٰه الواحد الأحد الذي لا إلٰه إلا هو.

والعجيب أنه استشهد بنص من الكتاب المقدس، وهذا النص في العهد الجديد، رسالة القديس «بولس» الأولى إلى أهل «قورنتس» ضمن سفر أعمال الرسل.

---

(١) منطق الإيمان (٢٣ ـ ٢٤).

(٢) الخلاصة اللاهوتية (١/١١٨).

ولكن النص في الموضع المشار إليه[١]: «وقد يكون في السماء أو في الأرض ما يُزعم أنهم آلهة، بل هناك كثير من الآلهة وكثير من الأرباب».

ولكن هذا النص من رسالة بولس إلى أهل قورنتس فيه قلق واضطراب وآخره ينقض أوله، فقبل الفقرة السابقة نجد النص يقول[٢]: «فنحن نعلم أن لا وثن في العالم، وأن لا إلٰه إلا الله الأحد».

ثم يعود بعد النص السابق ليقول[٣]: «أما عندنا نحن فليس إلا إلٰه واحد وهو الأب، منه كل شيء وإليه نحن نصير، وربٌّ واحد هو يسوع المسيح، به كل شيء وبه نحن أيضاً».

فعاد فنقض ما سبق وأبرم، وليس تحليل النص من غرضنا الآن هنا، وإنما أردت أن أبين أن: توما الأكويني في ظل حماسته لرد دلالة القرآن الكريم على توحيد الله تعالى والنهي الصريح عن دعوى التثليث، لم يكن أميناً ولا دقيقاً في نقل نص رسالة بولس الأولى إلى أهل قورنتس، فكيف يريد توما دفع دلالة القرآن الكريم على توحيد الله بالنقل المتشابه والمضطرب.

وقرر توما أن الثالوث الأقدس كما يسمّيه: هو الذي بجمعيّته وكليَّته له المقام الأرفع في الوحدانية، واستشهد بقول أحد القسيسين السابقين عليه وسمّاه: «برنردوس»[٤] في كتابه الملاحظة: [٥ب٨] عنه

---

(١) سفر أعمال الرسل: رسالة بولس الأولى إلى أهل قورنتس [٨: ٥].
(٢) الرسالة الأولى إلى أهل قورنتس [٨: ٤].
(٣) المصدر السابق [٨: ٦].
(٤) هو القديس الناسك المتوفى سنة (١١٥٣م)، اسمه «ماري برنردوس» الناسك، له ترجمة مقتضبة جداً في كتاب: المخطوطات العربية لكتبة النصرانية للأب لويس شيخو (٢٢٦).

قال: «إن وحدانية الثالوث الإلٰهي لها المقام الأعلى بين جميع الآحاد»(١).

فظهر بهذا أن توما يريد أن يدفع حجج القرآن الكريم على وحدانية الله تعالى بتكريس الوثنية والشرك.

فهو ما زاد في هذا على ما قاله أسلافه الأولون من مشركي العرب عندما دعاهم النبي ﷺ إلى وحدانية الله تعالى، وأنه لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له كان جوابهم ما أخبر القرآن عنهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾ [صٓ: ٥، ٦].

ومن عجائب القرآن الكريم:

أن هذه الشبهة التي جابه بها المشركون من قريش والعرب رسول الله ﷺ إنما اعتمدوا في إيرادها، والاعتماد عليها مع فجاجتها وسقوطها، اعتمدوا على ملة النصرانية قبلهم التي حرفها بولس ومن بعده من القساوسة، وصرفوها من توحيد الله وحده لا شريك له إلى التعددية والتثليث والوثنية الصليبية التي يدافع عنها بكل صلافة «توما الأكويني».

وقد كشف القرآن العظيم ذلك وأظهره من حالهم وحال أسلافهم، وأن أهل الشرك والوثنية يصدرون من مشكاة واحدة، وهذا من عجائب القرآن الكريم وأسراره، فبعد الآية السابقة من سورة (صٓ) وهي قوله تعالى عن المشركين من العرب وقريش: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾، يقول تعالى في الآية التي تليها مباشرة عنهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾.

(١) الخلاصة اللاهوتية (١/ ١٢٠).

فهؤلاء المشركون من العرب وقريش يطالب بعضهم بعضاً بالثبات على شركهم والصبر على آلهتهم وعدم الاستجابة لدعوة رسول الله ﷺ إلى توحيد الله تعالى، ثم أرادوا أن يستدلوا على صحة ما هم عليه وشذوذ ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ بقولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾، والمراد عندهم بالملة الآخرة هي النصرانية التثليثية الشركية الوثنية ديانة بولس وقسطنطين وكرادلة مجمع «نيقية» (٣٢٥م) الذين قرروا فيه التثليث ونص الأمانة بذلك، هكذا قال أهل التفسير من السلف والأئمة.

قال **الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري** رحمه الله: «معناه: ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد من البراءة من جميع الآلهة إلا من الله تعالى ذكره، وبهذا الكتاب الذي جاء به في «الملة النصرانية»، قالوا: وهي الملة الآخرة»[(١)].

ثم أسند عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: «الملة الآخرة» يقول: النصرانية»[(٢)].

وأسند عنه أيضاً قوله: «قوله: «ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة»: يعني، فقالوا: لو كان هذا القرآن حقاً أخبرتنا به النصارى»[(٣)].

وأسند عن محمد بن كعب القرظي رحمه الله: «قال: ملة عيسى»[(٤)].

وعن السدي كذلك[(٥)].

فالنصرانية المنحرفة إذن حلقة وصل بين الوثنيات القديمة الإغريقية وغيرها وبين وثنيي العرب، وعاد النصارى بعد ذلك من أمثال «توما

---

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٥٥٢).
(٢) المصدر السابق (١٠/ ٥٥٢).
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.

الإكويني» إلى الوثنية التي كان عليها العرب التي تلقوها عن أسلافه السابقين.

يقول المؤرخ «برتشرد»: «لا تخلو كافة الأبحاث المأخوذة عن مصادر شرقية من ذكر أحد أنواع التثليث أو التوالد الثلاثي «أي: الأب والابن وروح القدس».

ويقول «موريس»: «كان عند أكثر الأمم البائدة الوثنية تعاليم دينية جاء فيها القول باللاهوت الثلاثي: «أي: الإله ذو الثلاثة أقانيم».

ويقول المؤرخ وعالم الآثار «توما أَنْمِن»: «وكافة الرموز والإشارات المستعملة عند النصارى، كانت للدلالة على عبادة أشياء يُخْجل منها، وليس بالإمكان نكران حقائقها.... أتأمل أنه متى عرف الناس معانيها يتركونها، ولربما يبقى بعض الناس متمسكين بهذه العبادة التي هي عندي قبيحة ووثنية».

وقال العلامة «فِسْك»: «وكان الرومانيون القدماء الوثنيون يعتقدون بالتثليث وهو أولاً: الله، ثم الكلمة، ثم الروح»(١).

وهذا التثليث الشركي الوثني من مخلفات الأمم البائدة صار هو بعينه عند النصارى وهو من أحد أخطر مدخلات «بولس الرسول» ومن مدخلات «الأكليروس الروماني» الذي اجتمع في «نيقية» سنة (٣٢٥م)، واعتمد التثليث رسمياً كديانة للنصارى التي يدافع عنها «توما الأكويني».

وإلى هذا نبّه القرآن العظيم، وهذا أيضاً من أسراره وعجائبه.

فأخبر ربنا تبارك وتعالى: أن المشركين الوثنيين في قديم الزمان وحديثه في مخاصمتهم للأنبياء ﷺ وتكذيبهم لهم إنما يصدرون عن

---

(١) هذه النقول تمت بواسطة كتاب: العقائد الوثنية في الديانة النصرانية للشيخ محمد طاهر التّنير ﷺ، ط. الأولى، ١٤٠٨هـ، الكويت (٣٥ ـ ٤٠).

مشكاة واحدة، ويتوارثون شبهة واحدة، يرددونها، مع فجاجتها وسخافتها.

فقال الله تعالى في سورة الذاريات: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات: ٥٣].

فهذا توقيف وتعجيب من توارد نفوس وأعمال وأقوال المشركين الوثنيين في تكذيب الأنبياء ورد دعوة التوحيد على تفرق أزمانهم، فكأنهم يتوارثون ذلك عن بعضهم ويوصي بعضهم بعضاً به، والعلة في ذلك اشتراكهم في فعل الطغيان، والإفساد في الأرض وأعظم الإفساد، هو الشرك والوثنية التي هم عليها(١).

ويعقد «توما» باب: في الثالوث الأقدس(٢).

وفي الفصل الأول من المبحث الثاني والثلاثون يعترف توما بأن تثليث الآلهة مما اجتمعت عليه كلمة قدماء فلاسفة اليونان وقدماء الفراعنة المصريين وغيرهم.

فيقول: «يظهر أنه يمكن معرفة ثالوث الأقانيم الإلٰهية بالعقل الطبيعي؛ فإن الفلاسفة لم يتوصلوا إلى معرفة الله إلا بالعقل الطبيعي، ولهم أقوال كثيرة في ثالوث الأقانيم، فقال «أرسطو»(٣) في كتاب «السماء والعالم»: «بهذا العدد ـ يعني: الثلاثي ـ نعظِّم الإلٰه الواحد المتعالي عن صفات المخلوقات».

---

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (١٥/ ٢٢٤) مع بعض التصرف.

(٢) الخلاصة اللاهوتية (١/ ٣٤٧).

(٣) الفيلسوف اليوناني الشهير «أرسطوطاليس»، أخذ الفلسفة من «أفلاطون» رائد المدرسة المشائية، توفي سنة (٣٢٢ق.م) انظر أعلام الفلسفة، روني إيلي ألفا (١/ ٧٢).

وقال «أوغسطينيوس»[(١)] في كتاب «الاعترافات»: «قرأت هناك ـ يعني: في كتب أفلاطون ـ أنه في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله، لا بهذه الألفاظ بل بما يثبته بعينه من الحجج الكثيرة»، ونحو ذلك مما يلي هناك، وفي هذا الكلام يدل على تمايز الأقانيم الثلاثة الإلٰهية، وقال الشارح أيضاً في «روا» و«خر ٨»[(٢)]: «إن سُحَراء فرعون أخطأوا في العلامة الثالثة؛ أي: في معرفة الأقنوم الثالث، وهو الروح القدس وهكذا عرفوا أقنومين»، وقال أيضاً «ثامسطيوس»[(٣)] في كتاب «بمندر»: «موناس ولد مونادس، وعكس حرارته إلى نفسه» مما يظهر أن الإشارة إلى توليد الابن وانبثاق الروح القدس، فإذا يمكن معرفة الأقانيم الإلٰهية بالعقل الطبيعي»[(٤)].

ثم بعد زعمه أنه أثبت الأقانيم الثلاثة الإلٰهية بالعقل الطبيعي يأتي توما في مجادلته للقرآن الكريم الذي صرح بأن النصارى يدعون آلهة ثلاثة، ويجعلون الله تعالى وهو الإلٰه الحق ثالث ثلاثة، يأتي توما في محاولته إبطال ذلك وتكذيب القرآن، وأنه يخبر بما ليس بواقع.

فبعد أن قرر التثليث بما سبق في إصرار مصادم لكل تفكير عقلي

---

(١) هو: القدِّيس «أوغسطين» كان من أتباع مذهب المانويين، ثم اعتنق مذهب الشك الأكاديمي وقرأ رسائل القديس «بولس»، وأصبح مسيحياً متديناً وهو في سن (٣٣)، توفي سنة (٤٣٠م)، انظر المصدر السابق (١/ ١٥٥).

(٢) يقصد نصين من الكتاب المقدس فيها كما يزعمون إشارة إلى التثليث: الأول من سفر الرؤية (١/ ٤): «عليكم النعمة والسلام من «يَهْوَه» الكائن، والذي كان، والذي يكون»، والثاني من سفر الخروج (٣/ ٦) «أنا إلٰه أبيك، إلٰه إبراهيم، وإلٰه إسحاق، وإله يعقوب».

(٣) هو فيلسوف يوناني جمع في فلسفته بين المسيحية والوثنية، توفي بالقسطنطينية سنة (٣١٨م). انظر: أعلام الفلسفة (١/ ٣٦٤).

(٤) الخلاصة اللاهوتية (١/ ٣٩٨).

منطقي إن هذه الثلاثة ما هي إلا إلٰه واحد، ثم يدعو إلى تقبل ذلك لأنه مقتضى الإيمان، والإيمان لا يستدل عليه إلا بظاهر نص الكتاب المقدس، كما قدمنا ذلك من منهجه.

فنجده يقول: «وكما نقول: إن في الله ثلاثة أقانيم(١)، كذلك نقول: إن فيه ثلاث قيامات بالنفس، وما ذلك إلا لأن الأقنوم والقيام بالنفس يدلان على شيء واحد بعينه، فإذاً الأقنوم والقيام بالنفس يدلان على شيء واحد بعينه»(٢).

يحاول أستاذ اللاهوت الألماني «هاغِمن» أن يُقرِّب شرح «توما» الطويل إلى المنطقية العقلية ليبدو مقبولاً بحيث يمكن مدارسته ومناقشته.

فيقول «هاغمن»: «يرد توما الأكويني على التشويه(٣) القرآني لعقيدة التثليث المسيحية ويُفَصِّل في ذلك قائلاً: «كيف ينبغي أن نفهم انبثاق ابن الله ومن ثَمَّ ولادته في الجسد، وعلى إثر ذلك يفسر وجهة النظر المسيحية، إذ يوضح روحانية إنجاب الولد من الأب «بدلالة روحانية»، وصدور الروح القدس عن الأب والابن «بطريقة المحبة» ليبين كيف يمكن

(١) في موضع آخر يتناقض توما عندما يتوصل بخطأ في تصور الصفات الإضافية إلى الله إلى أنها تعني تكثير الأقانيم، فقال: «يظهر أن الله أكثر من ثلاثة أقانيم لأن تكثُّر الأقانيم في الله بحسب تكثُّر الخواص الإضافية كما مر في الفصل السابق، والإضافات في الله أربع وهي: الأبوَّة، والبنوَّة، والنفخ، والصدور، فإذاً في الله أربعة أقانيم».
وأيضاً: إن إشراك الأب في ذاته على وجهٍ غير متناهٍ بإصدار الأقنوم الإلٰهي إنما هو من طريق خيريَّته الغير متناهية، والروح القدس فيه أيضاً خيرية غير متناهية فهو إذاً يُصدر أقنوماً إلهياً، وهذا يصدر أقنوماً آخر وهكذا إلى غير نهاية». الخلاصة اللاهوتية (١/ ٣٨٠ ـ ٣٨١)

(٢) الخلاصة اللاهوتية (١/ ٣٦٩).

(٣) هكذا عبارته ويبدو أنه متماهي مع توما في مجادلته.

أن نتصور ثلاثة من أشكال الأقْنَمَة المختلفة في جوهر رباني واحد على أن مسارات الأفكار التي يعرضها توما هنا بكل إيجاز تعبر في لمحة خاطفة عن الحجج التي يعبر عنها في كتب أخرى، وتكون هناك صريحة وأكثر تفصيلاً»[١].

وقد أدرك من جادل النصارى من المسلمين ذلك، فهذا «الناشيء الأكبر»[٢] يكشف هذا من فعلهم فيقول: «فأما مثلثو النصارى فعلى ضربين: قوم يجادلون بالمقاييس العقلية، وقوم يذهبون إلى ظاهر الإنجيل وإلى التقليد لأسلافهم، فأما من ذهب إلى ظاهر الإنجيل فإنما تعلق بقول يحكى في الإنجيل عن المسيح أنه قال: «أنذروا الناس باسم الأب والابن وروح القدس»، وليس فيه بيان أنها قديمة ولا محدثة، ولا أنها جوهر واحد ولا غير ذلك، ولا في الإنجيل لفظة واحدة تدل على جوهر ولا أقنومات، وهذه لفظة فلسفية يونانية سقطت إلى القوم فتكلموا بها»[٣].

هذا ما حاول به هذا القديس الملائكي كما يلقبونه «توما الأكويني» أن يرد دلالة القرآن العظيم على التوحيد وأن الله واحد أحد لا إله إلا هو، وأن ينسب الخطأ إلى القرآن في نسبته التثليث والتعددية إلى ملة النصارى.

فهو يحاول تارة بأدوات الفلسفة الإقناع بذلك، ثم يتناقض فينقض

---

(١) مسيحية ضد الإسلام (٨٤).

(٢) هو: أبو العباس عبد الله بن محمد الأنباري الملقب بالناشي الأكبر، متكلم وأصولي معتزلي شهير، توفي سنة (٢٩٣هـ)، انظر: طبقات المعتزلة لعبد الجبار بن أحمد (٢٢٩)، وسير أعلام النبلاء (١٤/ ٤٠).

(٣) تم النقل بواسطة كتاب: الفكر الإسلامي في الرد على النصارى للدكتور عبد المجيد الشرفي (٢٢٨).

ما أبرم، ثم لما أعيته الحيلة الفلسفية بعد الجدل الكثير، ذهب يدعو إلى التسليم لنصوص الكتاب المقدس لكونها فوق مستوى عقول وإدراكات البشر كما مر ذكره.

وقد توارد علماء المسلمين على أن قول النصارى بالتثليث إنما هو تكثير للآلهة وشرك صريح، وأنهم يؤمنون بثلاثة آلهة؛ بل بأربعة،[١]، دون أن يغني عنهم شيئاً نبرؤهم من تثليث الإله، وزعمهم في انقلابه ذهنية وعقلية أن الثلاثة تعود واحداً.

يقول في ذلك القاضي عبد الجبار بن أحمد[٢]: «فإن قالوا: فإنا لا نقول إنها ثلاثة آلهة فكيف يحكون عنا التثليث؟

قلنا لهم: إنكم قد أعطيتمونا معنى التثليث، وأشعتموه واستوفيتم حقائقه، ومنعتم بعض العبارة عنه، ألا ترون أنكم تقولون: إله هو أب والد حي قادر قديم خالق رازق وإله هو ابن مولود كلمة حي قادر رازق، ليس بأب ولا والد ولا يجوز أن يكون والداً ولا أباً، وإله روح قدس حي عالم قادر خالق رازق، ثم قلتم هي ثلاثة أقانيم، فقلتم في كل واحد منها إنه إله ورب قديم، وامتنعتم من الإقرار بالجملة، وقد أعطيتم التفصيل.

وما مثال ذلك إلا من قال: عبد الله العربي، رجل وإنسان وجسم

---

(١) هم: الأب والابن والروح القدس والرابع إنسان أزلي هو يسوع المسيح كما زعم توما ففرق بين الابن الكلمة، والابن الإنسان الأزلي. انظر كتاب: الرد على النصارى لعلي بن ربن الطبري (٩).

(٢) هو: القاضي الشهير عبد الجبار بن أحمد الهمداني شيخ المعتزلة صاحب المصنفات الشهيرة كالمغني في أبواب العدل والتوحيد، وتثبيت دلائل النبوة، وتنزيه القرآن عن المطاعن وغيرها، توفي سنة (٤١٥هـ). انظر عنه: سير أعلام النبلاء للذهبي (٧/ ٢٤٤).

وشخص، وخالد الفارسي رجل وإنسان وجسم وشخص، وزيد الرومي رجل وإنسان وجسم وشخص، قلنا: هؤلاء ثلاثة رجال، وثلاثة أناس، وثلاثة أشخاص، وثلاثة أجسام، فقلتم: لا؛ بل هم رجل واحد، فقلنا: لا يؤثر امتناعكم من إطلاق هذه العبارة في شيء قد أضيعت حقيقة، وفيهم من يمتنع أن يقول في كل واحد من هذه الثلاثة أنه غير صاحبه، ثم يقولون ما شبّهنا ولا مثلنا»(١).

القضية الثانية: نفي القرآن الكريم لقتل المسيح وصلبه:

فكرة قتل المسيح وصلبه لخلاص البشرية من الخطيئة تحتل مكانة مركزية في منظومة العقائد المسيحية.

وهي إحدى القضايا التي حسمها القرآن الكريم بقوة ووضوح، فالله تعالى كذّب اليهود في زعمهم أنهم قتلوا وصلبوا عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام، فقال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٧ ـ ١٥٨].

ولذلك جادل فيها «توما الأكويني».

يقول «هاغِمن»: «ثمة قضية أخرى في المجادلة اللاهوتية مع المواقف الإسلامية، تُشَكِّل في كتاب «منطق الإيمان» لتوما، التأويل المسيحي لموت يسوع على الصليب»(٢).

يقول **توما**: «وهم ـ أي: المسلمون ـ يتهكمون على أننا نَدَّعي أن المسيح، ابن الله، قد صُلِبَ من أجل تخليص الجنس البشري لأنه إذا كان الله قادراً على كل شيء فهو يستطيع أن يخلص الجنس البشري، من

---

(١) تثبيت دلائل النبوة (١/ ٩٥).
(٢) مسيحية ضد الإسلام (٨٤).

دون أن يعاني ولده الآلام، وقد كان في وسعه أيضاً أن يخلق البشر في الأصل حيث لا يمكن أن يرتكبوا الخطيئة»[(١)]، وأحال على الآيات السابقة.

وما من شك أن إنكار القرآن الكريم لقضية صلب المسيح ﷺ وقتله يضع نظرية الخلاص المسيحية، موضع الشك بل الرد والتفنيد لذلك يحاول توما الأكويني الاستجابة لسؤال وطلب سائليه وهو «كنتر الأنطاكي» أن يُسَوِّغ النظرية المسيحية الخاصة بصلب المسيح، والموت من أجل الخلاص للرد على القرآن الكريم، وإبطال دلالته، يبدأ توما جوابه واعتراضه بقوله: «إن المسلمين لا يفهمون عمق هذا السر»[(٢)].

وهي مقدمة تدل على مدى شعوره بالعجز عن تقديم البرهان الصريح القاطع على هذه النظرية التي صاغها «بولس» واعتمده «الإكليريوس النيقاوي» سنة (٣٢٥م).

يقرر «وِلْ دِيورانت» ذلك فيقول: «إن «بولس» قال: إن خطيئة آدم قد وصمت الجنس البشري بوصمة الميل إلى الشر، وإن الأعمال الصالحة مهما كثرت لا تستطيع أن تمكن النفس البشرية من التغلب على هذا الميل، ومحو هذه الوصمة، فعقيدة الخطيئة الأولى عَلّمها «بولس» و«ترتليان»[(٣)] للناس»[(٤)].

بل إن «ديورانت» يذكر الجذور الفكرية التي استقى منها «بولس» هذه النظرية فيقول: «ولعل «بولس» قد تأثر بنبذ الأفلاطونية، والرواقية،

---

(١) منطق الإيمان (٩٨ ـ ٩٩). (٢) المصدر السابق (١٠١).

(٣) ترتليانوس يقال: هو أول من كتب كتابات المسيحية باللغة اللاتينية عاش في الفترة ما بين (١٦٠ ـ ٢٢٠م)، انظر: قاموس آباء الكنيسة وقديسيها، تأليف: تادرس يعقوب ملطي (٨٧)، القاهرة، ١٩٩١م.

(٤) قصة الحضارة (٦، ١٢/ ١٤٠).

للمادة والجسم، واعتبارهما شراً وخبثاً، ولقد كانت مصر، وآسيا الصغرى، وبلاد اليونان تؤمن بالآلهة التي ماتت لتفتدي بموتها بني الإنسان، ولم يكن في وسع غير اليهود أن يؤمنوا به إلا كما آمنوا بآلهتهم المنقذين، ولهذا ناداهم «بولس» بقوله: «هو ذا سرٌ أقوله لكم[(١)]»[(٢)].

وكلام «ديورانت» خطير ولكنه كشف الحقيقة في هذا التلفيق الذي عمد إليه «بولس» مبتكر نظرية الخلاص وصلب المسيح فداءاً للبشرية، مع الأفكار الوثنية الأسطورية لتلك الشعوب التي يدعوها.

فإذن «توما» يقلد «بولس» في التهرّب من تقديم البرهان، النصي أو العقلي على نظرية الخلاص والفداء بأنها السّرُّ المكنون الذي لا تفهمه العقول.

فإذن هذه النظرية «الصلب والفداء»، دخيلة على الديانة النصرانية بلا شك، من مدخلات «بولس» ذي النشأة اليهودية فقد كان قبل أن يتحول نصرانياً، كان يهودياً من طائفة «الفِرِّيسين، ودرس على الربّى اليهودي، «جما لئيل» الذي كان من أكبر ربانيّي ذلك الزمان[(٣)].

وهذه النتيجة يصل إليها كل باحث منصف، فقد أدرك كُتّاب غربيون كثيرون أن هذه النظرية دخيلة على المسيحية، من تأثير الأساطير في الديانات السابقة.

يقول «وِلْ ديورانت»: «ولعل المسيحية قد بدت لهم أنها صورة

---

(١) نص بولس في رسالته إلى أهل رومة (١٦/ ٢٥) «للذاك القادر على أن يثبتكم بحسب البشارة التي أعلِنُها منادياً يسوع المسيح وفقاً لسرٍّ كُشِفَ وقد ظل مكتوماً مدى الأزل».

(٢) قصة الحضارة (٦، ١١/ ٢٣٦).

(٣) ذكر ذلك الأب «أسْطفَان شَرَبنتي» في كتابه: قراءة في الكتاب المقدس (١٥٩) ترجمه إلى العربية: الأب صبحي حَمَوي اليسوعي، دار الشروق، بيروت.

أخرى من الأديان الخفية التي طالما حدثتهم عن المنقذين الذين يُبْعَثون بعد موتهم، ولعلهم حين قبلوها قد مزجوها بتلك العقائد القديمة، وأثّروا في «بولس» فجعلوه يفسّر المسيحية تفسيراً يألفه العقل الهلنستّي»[١].

وفي كتاب: «العقائد الوثنية في الديانة النصرانية» للشيخ محمد طاهر التنير رَحِمَهُ اللهُ، يعقد فصلاً هو الفصل الثاني: تقديم أحد الآلهة ذبيحة فداءً عن الخطيئة، ثم يسوق من النصوص والتعليقات لكبار المؤرخين والكُتّاب الغربيين دلائل ذلك[٢].

وهذا ما يفسّر عجز «توما الأكويني» عن القيام بأي محاولة علمية لإثبات هذه النظرية الوثنية بالأدلة العقلية والعلمية ومستخدماً براعته الفلسفية.

ولا أجد تعليقاً ساخراً أحسن من تعليق «ديورانت» حيث قال: «هل مات ابن الله؟ ذلك شيء معقول، لا لشيء إلا أنه مما لا يقبله العقل، وقد دُفن ثم قام من بين الموتى، وذلك محقّق لأنه مستحيل»[٣].

أما من جهة الدلالة النقلية أعني دلالة الأناجيل على قضية صلب المسيح وقتله فداءً للبشرية:

فيعلن «وِلْ ديورانت» شكَّه في صحة ما أُدخل في الأناجيل عبر الزمان تأييداً لهذه النظرية، فهو يرى أنها مجرد حكايات وأساطير يتناقلها الناس مشافهة، ثم أدرجت بعدُ كنصوص مقدسة في الأناجيل.

يقول «ديورانت»: «ولا يسع الإنسان إلا أن يشك في هذه التفاصيل التي تناقلها الناس مشافهة في أغلب الظن ثم دوّنوها بعد وقوعها بزمن طويل»[٤].

---

(١) قصة الحضارة (٦، ١١/٢٦٣).
(٢) كتاب العقائد الوثنية في الديانة النصرانية (٤٨ ـ ٥٩).
(٣) قصة الحضارة (٦، ١١/٣٠٨).
(٤) قصة الحضارة (٦، ١١/٢٣٦).

وهذا ما يبيّن كثرة إضطراب الأناجيل وتناقضها، في عرض هذه النظرية من عدة جهات:

أولاً: تفيد الأناجيل:

أن المسيح تحول إلى لعنةٍ بسبب الصلب، وأنه لعن نفسه بذلك، وهي قضية تضاربت أقاويل شُرَّاح الكتاب المقدس في تفسيرها ومحاولة تفاديها ومن أشهر النصوص في ذلك:

- «فلا تَبِتْ جثّته على الشجرة؛ بل في ذلك اليوم تدفِنه؛ لأن المعلق لَعْنَةٌ من الله، فلا تنجس أرضك التي يعطيك الرب إلٰهك إياها ميراثاً»[(١)].

- «إن المسيح افتدانا من لعنة الشريعة، إذ صار لعنة لأجلنا، فقد ورد في الكتاب «ملعون من عُلِّق على الخشبة»[(٢)].

فهذا «بولس» يقرر في رسالته هذا لعنة المسيح، وهو يستند في ذلك إلى تراثه اليهودي فيستشهد بالنص السابق من سفر التثنية.

ثانياً: تضارب الأناجيل في تحديد اليوم الذي صُلِب فيه المسيح عليه السلام:

فنجد في إنجيل «مرقس» تحديد يوم الصلب بيوم الجمعة،[(٣)]، حيث يفيد أن المسيح أكل طعام الفصح مع تلاميذه مساء الخميس، وقبض عليه وصُلب يوم الجمعة.

بينما نجد في إنجيل «يوحنا» أن يوم الصلب هو يوم الخميس[(٤)]، حيث يفيد أن المسيح أكل الفصح مع تلاميذه مساء الأربعاء، وقبض عليه

---

(١) سفر التثنية (٢١/ ٢٣).

(٢) سفراء أعمال الرسل، رسالة بولس إلى أهل غِلاطية (٣/ ١٣).

(٣) إنجيل مرقس: (١٤/ ١٠ ـ ٥٣).

(٤) إنجيل يوحنا: (١٣/ ١ ـ ٣٨).

وصلب يوم الخميس[١].

وهذه المقدمة لبيان أن قضية الصلب والفداء مستحيلة الإثبات نقلاً، ويطرقها الكثير من الخلل، ونفي القرآن لها صريح وصارم.

شعر توما وهو يريد أن يقرر بطلان ما دل عليه القرآن، أن أدوات الإثبات مفقودة فلجأ إلى دعوى بولس القديمة: إن الصلب والفداء سرٌّ خارج نطاق إدراك العقول.

ثم بعد ذلك يحاول «توما الأكويني» أن يُسَوِّغ النظرية المسيحية الخاصة بصلب المسيح والموت من أجل الخلاص، ويضع لذلك أسس لبحثه على النحو التالي:

١ ـ يقرر توما في بحث فلسفي غامض: أن الإنسان الأول[٢]، لما سقط في الخطيئة[٣]، كان غير قادر بعد ذلك على إرضاء الله، وتبرير فعلته، وكان في حاجة إلى أن يتجدّد تجدّداً مفعماً بالرحمة عن طريق الرّب.

يقول توما: «ومن هنا يرجع إلى الرّبّ في التخلص على الخصوص من القصور المتمثل في الخطيئة التي لا تعد شيئاً آخر سوى الإرادة التي انقلبت رأساً على عقب، وذلك في الحقيقة عن طريق كلمته التي خلق بها المخلوقات»[٤].

٢ ـ يقرر توما: أن الإنسان ليس في وضع يمكنه أن يخلِّص نفسه من دون مساعدة الرب الذي أعاد تكوين الطبيعة البشرية على أساس من حبه للبشر في إطار التزامه الذاتي ممثلاً في شخص الابن، وبالتالي فتح

---

(١) انظر لذلك: كتاب: العقائد الوثنية في الديانة النصرانية للشيخ محمد طاهر التنير (٤٨ ـ ٥٦).

(٢) يريد آدم عليه السلام.

(٣) الأكل من الشجرة التي نُهي عنها.

(٤) منطق الإيمان (٢٨ ـ ٢٩).

لكل البشر الطريق إلى الخلاص من جديد[١].

٣ ـ وبتحول الرب إلى بشر في صورة يسوع أعطى للبشر كل أمل في السعادة الأبدية والكاملة، وهي التي لا يملكها إلا الرب وحده بحكم طبيعته[٢].

٤ ـ إن شرط تحقّق الخلاص عند توما هو تجسّد الرب، ومن أجل ذلك يجعل من المهم عنده أن يفسر «وحدة الشخص»، في يسوع المسيح، وأن يصل إلى ذلك عن طريق قياس وحدة الروح والجسد في الإنسان على سر الاتحاد المادي بين «اللوغوس»[٣] والطبيعة البشرية في يسوع المسيح، الذي يسمى اتحاد اللاهوت بالناسوت[٤].

ويريد توما بهذا الافتراض، وهذا التسويغ اللاهوتي الفلسفي التأملي لطبيعة المسيح أن يرد على النص القرآني الصارم والصريح بنفي قتل المسيح وصلبه، معيداً الكلام اللاهوتي بتسويغ فلسفي غامض: أنه موت من أجل الخلاص، وهو يريد بذلك أن يسهم في الفهم لما تعنيه هذه العقيدة المسيحية: أن موت المسيح على الصليب هو موت من أجل الخلاص[٥].

وما قدمه توما من تسويغ وتبرير مستخدماً ما استطاع من أدواته الفلسفية غير مقنع أبداً، ويعترض عليه بما يلي:

١ ـ هذا التقرير التوماوي، هو إشعار الناس بأنهم مفطورون على الخطيئة والدنس، وهي إحدى المؤاخذات التي كررها مفكرون غربيون كثر.

---

(١) منطق الإيمان (٢٩). (٢) المصدر السابق (٣٣).
(٣) الطبيعة الإلٰهية. (٤) منطق الإيمان (٤٨).
(٥) انظر: كتاب: مسيحية ضد الإسلام، تأليف: لودفيغ هاغِمن (٨٦).

والحقيقة أن توما لأكويني ليس هو مبتكر هذا التعليل؛ بل هو ناقل له، ومتابع فيه لسلفه القدِّيس الشهير «إجناتيوس لويلا»[١]، حيث قال: «وكيف السبيل إلى النجاة من هذا العذاب والدنس الأبدي؟ لا سبيل إلا تضحية الفداء التي قدمها الله بنفسه في المسيح على الصليب»[٢].

يؤكد «وِلْ ديورانت» على ذلك فيقول: «وبعثت الدعوة إلى هذه العقيدة، في الكثيرين من الناس في العصور الوسطى شعاراً، بأنهم مفطورون على الدّنس والانحطاط والإجرام، وهو الشعور الذي غلب على كثير من أدبهم قبل عام (١٢٠٠م)»[٣].

٢ ـ ويرى «ديورانت» في ملاحظة علمية: أن الأناجيل، قد تم تطويعُها، وغُذِّيت بنظرة اليأس هذه، فبدت متناقضة مع نفسها.

يقول «ديورانت»: «ولعلنا نقرأ في هذا المعنى الآية الثامنة عشرة، من المزمور الثاني والعشرين منسوبة إلى المسيح: «يقتسمون ثيابي بينهم، وعلى لباسي يقترعون» ويبدأ هذا المزمور نفسه بتلك الكلمات: «إلٰهي، إلٰهي لماذا تركتني؟»».

وذلك هو «نداء اليأس البشري»، الذي يعزوه «مرقس»، و«متى» إلى المسيح وهو يحتضر، فهل يمكن أن يكون الإيمان العظيم الذي أعانه في موقفه أمام «بيلاطس» قد انقلب في تلك اللحظات المريرة إلى شك أسود؟

---

(١) القديس أسقف أنطاكية، صاحب الرسائل السبع في اللاهوت المسيحي التي كتبها عندما كان سجيناً في روما، وتوفي بها سنة (١١٠م)، وعند النصارى: الأول من فبراير عيد القديس «إجناتيوس»، انظر: قاموس آباء الكنيسة وقديسيها، للأب: تادرس يعقوب ملطي (١١٧)

(٢) النص بواسطة «وِلْ ديورانت» في قصة الحضارة (١٤، ٢٧/٢١٦).

(٣) المصدر السابق (٨، ١٦/١٧٥).

ولعل «لوقا» قد رأى أن هذه العبارة لا تتفق مع عقائد «بولس» الدينية فبدَّلها بقوله: «يا أبتاه في يدك أستودع روحي»، وهي عبارة تردد صدى الآية الخامسة من المزمور الحادي والثلاثين، ترديداً يثير الريب لما فيه من دِقَّة»[١].

هذه النظرة النقدية من هذا الدارس للمسيحية وأناجيلها، و«ديورانت» ليس بِدْعاً من الباحثين الغربيين، الذين وصلوا إلى قناعة باستحالة تبرير هذا الحدث تاريخياً وهو الموقف الذي اعتمدته «دائرة المعارف البريطانية»، حيث جعلت هذه التناقضات في الأناجيل لتبرير حدث «الصلب والفداء»، أوضح مثال للتزوير في هذه الأناجيل[٢].

٣ ـ توما يتناقض مع نفسه، ويرد على تقريره بتقريره، فتوما يناقض توما.

لأننا إذا رجعنا إلى أهم مؤلفات «توما الأكويني» في الفلسفة الإلٰهية، وهو كتابه الشهير «الخلاصة اللاهوتية» نجده يقرر ما يتناقض مع مبرراته التي ساقها هنا في «منطق الإيمان» لتسويغ فكرة «الصلب والفداء» لأجل الخلاص.

فقد قرر توما ما نقلنا عنه سابقاً: أن الإنسان غير قادر على الخروج من خطيئته، وتبرير فعلته إلا بمساعدة الرب ونعمته عليه، ومن هنا جاءت فكرة أن الله بعث ابنه ليخلص البشر من الخطيئة.

ولكننا نجده بوضوح في «الخلاصة اللاهوتية» يقرر عكس ذلك تماماً، وأن الإنسان لا يحتاج إلى مساعدة ولا نعمة ليخرج من خطيئته، ففي المبحث التاسع بعد المائة، وفي الفصل الثاني منه نجد هذا العنوان:

---

(١) قصة الحضارة (٦، ١١/ ٢٣٨).

(٢) دائرة المعارف البريطانية (٣/ ٧٦٢)، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٥م.

«في أن الإنسان هل يستطيع أن يريد الخير ويفعله بدون نعمة».

يقول توما: «يظهر أن الإنسان يستطيع أن يريد الخير ويفعله بدون نعمة فإن الإنسان إنما تتعلق قدرته بما هو ربُّه، وهو ربّ أفعاله ولاسيما فعل الإرادة فهو إذن يقدر أن يريد الخير ويفعله بنفسه بدون معونة النعمة»(١).

واستند توما في مقاله هذا إلى راهب قبله وهو القدّيس «يوحنا الدمشقي»(٢)، فإنه نقل عنه: «والخطيئة منافرة لطبع الإنسان، وفعل الفضيلة ملائم لطبعه فلأن يستطيع أن لا يخطئ بنفسه فإنه يستطيع أن يفعل الخير بنفسه بدون نعمة، كما قاله يوحنا الدمشقي في «الدين المستقيم»(٣).

وفي الفصل الرابع: في أن الإنسان هل يستطيع أن يفي برسوم الناموس(٤) بقوته الطبيعية دون افتقار إلى النعمة.

ثم يقول: «يظهر أن الإنسان يستطيع أن يفي برسوم الناموس بقوته الطبيعية من غير افتقار إلى النعمة وما يفعله الإنسان بالطبيعة يستطيع أن يفعله بنفسه دون افتقار إلى النعمة، فهو إذن يستطيع أن يفي برسوم الناموس دون افتقار إلى النعمة»(٥).

والعجيب أن توما يستشهد لأجل تقرير هذا بنص من «بولس» الرسول، فقال توما بعد ذلك: «فقد قال الرسول في [رو ١٤: ٢](٦)، «الأمم الذين ليس عندهم الناموس يعملون بالطبيعة بما هو في الناموس»(٧).

---

(١) الخلاصة اللاهوتية (٥/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦).

(٢) مر ذكره والبحث معه.

(٣) الخلاصة اللاهوتية (٥/ ٢٧٦).

(٤) أي: الشريعة وتعاليمها وتكاليفها.

(٥) الخلاصة اللاهوتية (٥/ ٢٨٠).

(٦) سفر أعمال الرسل، رسالة بولس إلى أهل رومية (٢/ ١٤).

(٧) الخلاصة اللاهوتية (٥/ ٢٨٠).

وفي الفصل الخامس: في أن الإنسان هل يستطيع أن يستحق الحياة الأبدية بدون النعمة ثم قال: «يظهر أن الإنسان يستطيع أن يستحق الحياة الأبدية بدون النعمة ومن ذلك يظهر أن دخول الحياة الأبدية معلق على إرادة الإنسان، وما كان معلق بإرادتنا نستطيعه بأنفسنا فيظهر أن الإنسان يستطيع بنفسه أن يستحق الحياة الأبدية»(١).

وفي الفصل السابع: تتجلى فلسفته بكل وضوح بأن الإنسان يخرج من خطيئته وعثرته بدون حاجة إلى معاونة ومساعدة خارجية.

فيجعل عنوان هذا الفصل: في أن الإنسان هل يستطيع أن ينتعش من عثرة الخطيئة بدون معونة النعمة؟

ثم يقول توما: «يظهر أن الإنسان يستطيع أن ينتعش من عثرة الخطيئة بدون معونة النعمة؛ لأن ما ينبغي سبقه على النعمة يحصل بدون النعمة، والانتعاش من عثرة الخطيئة ينبغي سبقه على إنارة النعمة.

وأيضاً: إن الخطيئة تقابل الفضيلة مقابلة المرض للصحة، والإنسان يستطيع بقوة الطبيعة أن ينتعش من المرض إلى الصحة من غير استعانة بدواء خارجي، إذ لا يزال فيه مبدأ الحياة الذي يصدر عنه فعل الطبيعة»(٢).

هذا تناقض صارخ، فهناك «توما الأكويني» يتكلم بلسان النصراني اللاهوتي الملغي للعقل غير السامح له بالاعتراض على اللاهوت المقدس وقضية الصلب والفداء برفعها فوق مستوى الإدراك البشري، والزعم بأنها سر مكتوم، لا سبيل لأحد لفهمه ولا حله.

بينما هو هنا في الخلاصة اللاهوتية يتكلم بلسان الفيلسوف المفكر العقلي الذي يضع كل المعارف للنظر والبحث، فكأننا أما شخصيتين، شخصية اللاهوتي المتعصب، وشخصية الفيلسوف المتنوّر.

---

(١) الخلاصة اللاهوتية (٥/ ٢٨٢). (٢) المصدر السابق (٥/ ٢٨٧).

وهذا التناقض لازم لمسيرة الفكر اللاهوتي المسيحي من أيام بولس، وسبب التناقض والتضارب ووجود الأسئلة التي لا جواب لها والاعتراضات التي لا حل لها، هو: أن هذه النظريات: التثليث، والبنوّة، والصلب، والفداء، والخلاص، نظريات موضوعة مصنوعة صناعة بشرية، من وضع وصياغة «بولس الرسول»، ومن جاء بعده حتى اعتمدت عقيدة نصرانية: اعتمدها «الأكلريوس النيقاوي» سنة (٣٢٥م).

فبولس يؤكد في رسائله: أن الإنسان لا يتبرر، ولا يخرج من الخطيئة إلا بالإيمان بيسوع المخلص، ثم يورد على نفسه الإشكالات دون جواب.

ومن أخطر هذه الإشكالات:

(١) قبول نظرية الصلب والفداء والخلاص من الخطايا بيسوع القتيل المصلوب، سيجعل من المسيح قرباناً للخطيئة، وخادماً لها، ومسوّغاً لمن يقبل به مصلوباً مخلّصاً أن ينغمس في الخطايا عمداً، لا يتبرر منها لا بتوبة ولا عمل صالح، فتكون نتيجة فكرة الصلب والفداء خدمة ودعوة للخطيئة، وليس العكس.

استشعر «بولس» هذا الإيراد، وهذا الإشكال، فنجده يورده من طرف خفي مع تعليق الجواب عليه بشكل غامض.

في رسالته إلى أهل غلاطية[١]: «فإذا كنّا نطلب أن نبرَّر في المسيح، ووُجِدْنا نحن أيضاً خاطئين، أفيكون المسيح خادماً للخطيئة؟ حاش له، فإني إن عدت إلى بناء ما هدمته أثبت على نفسي أني عاصٍ؛ لأني بالشريعة مت عن الشريعة، لأحيا بالله».

---

(١) رسالته إلى أهل غلاطية (٢/ ١٧ ـ ١٩).

يعترف بعض شراح الكتاب المقدس[(١)] بغموض إيراد هذا الإشكال وجوابه، فيقولون: «يوجز «بولس» فكرته إلى حدّ الغموض، مراده أن موت المسيح وقيامته تحقّقا فيه، والحال أن موت المسيح كان سببه الشريعة التي باسمها حُكم عليه، فنتج عنه تحرير البشر من نظام الشريعة، ومن اللعنة التي جلبتها عليهم، ولذلك يقول بولس: إنه بحكم اتحّاده بالمسيح المصلوب، مات بالشريعة، ومات عن الشريعة، والغاية من هذا الاتحاد بالمسيح المصلوب هي المشاركة في قيامته، وبفضل هذه المشاركة يحيا بولس لله ولخدمته»[(٢)].

(٢) أما الإشكال الثاني: فإذا كان بإمكان الإنسان أن يتبرّر بنفسه، وأن البر والعمل الصالح ينال بفعل أحكام الشريعة والاستقامة، فيكون المسيح قُتِل وصُلب سدى، بلا فائدة؟

وهذا الإشكال يورده أيضاً بولس في رسالته إلى أهل غلاطية، ولكنه يُعلّقه ويتركه بلا جواب ولا بحث، لا غامض ولا ظاهر.

يقول بولس: «وإذا كنت أحيا الآن حياة بشرية، فإني أحياها في الإيمان بابن الله، فلا أُبْطل نعمة الله، فإذا كان البرُّ يُنال بالشريعة، فالمسيح إذا قد مات سدى»[(٣)].

وهذا ما وقع فيه توما واستشعر ذلك فنقل نص رسالة بولس السابقة، ثم حاول تفادي ما فيها مما يعارض ما ذكره سابقاً بكلام طويل فلسفي غامض.

---

(١) الأب صبحي حموي اليسوعي، والأب يوسف قوشا قجي، والأستاذ بطرس البستاني، طبعة الكتاب المقدس التي أصدرتها الرهبانية اليسوعية سنة (١٩٨٩م).

(٢) الكتاب المقدس، العهد الجديد (٢/ ٥٧٥).

(٣) رسالة إلى أهل غلاطية (٢/ ٢٠ ـ ٢١).

حاصله: **قوله**: «بأنه متى كانت الطبيعة سالمة أمكن لها أن تتلافى بنفسها ما كان ملائماً ومعادلاً لها، أما ما كان مجاوزاً حَدّها فلا تستطيع تلافيه بدون معونة خارجية، وكذلك الطبيعة البشرية التي وهنت بفعل الخطيئة؛ لأنها لم تبق على سلامتها بل فسدت ما تقدم، فإنها لا تستطيع أن تتلافى بنفسها الخير الملائم لها فكيف بخير البرارة المجاوزة لقوتها»(١).

وبعد فإن كل محاولات أساقفة النصارى وقساوستهم وعلى رأسهم توما لتبرير نظرية «بولس» في قتل المسيح وصلبه من أجل الخلاص تذهب هباءاً منثوراً.

ثم يأتي القرآن الكريم وهو عهد الله تعالى الأخير، وكلمته الباقية، وحجته البالغة، وعلمه العظيم، وحكمته النافذة ليحسم الأمر، ويوضح الحق، ويُزهق الباطل والزور والكذب؛ لأن هذا من وظائف رسالة هذا النبي الخاتم محمد ﷺ.

على حد قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝١٦﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

ينفي القرآن الكريم بشكلٍ قاطع قتل عبد الله ورسوله عيسى ابن مريم وصلبه فقال الله تعالى مُكَذِّباً اليهود: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ۝١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ۝١٥٨﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨].

---

(١) الخلاصة اللاهوتية (٥/ ٢٨٩).

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: «فذم الله اليهود بأشياء منها: قولهم على مريم بهتاناً عظيماً؛ حيث زعموا أنها بَغّي، ومنها: قولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ﴾ [النساء: ١٥٧].

ولم يذكر النصارى؛ لأن الذين تولوا صلب المصلوب المشبّه به هم اليهود، ولم يكن أحد من النصارى شاهداً هذا معهم، بل كان الحواريون خائفين غائبين، فلم يشهد أحد منهم الصلب، وإنما شهده اليهود وهم الذين أخبروا الناس أنهم صلبوا المسيح، والذين نقلوا أن المسيح صلب من النصارى وغيرهم، إنما نقلوه عن أولئك اليهود وهم شُرَطُ وأعوان الظلمة، لم يكونوا خلقاً كثيراً يمتنع تواطؤهم على الكذب»(١).

وقال في موضع آخر: «واليهود لم يدَّعوا قتل اللاهوت، ولا أثبتوا لله لاهوتاً في المسيح، والله تعالى لم يذكر دعوى قتله عن النصارى حتى يقال: إن مقصودهم قتل الناسوت دون اللاهوت، بل عن اليهود الذين لا يثبتون إلا الناسوت.

وقد زعموا أنهم قتلوه، فقال تعالى: ﴿...وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ فأثبت رفع الذي قالوا إنهم قتلوه، وإنما هو الناسوت، فعلم أنه هو الذي نُفِي عنه القتل، وهو الذي رُفع، والنصارى معترفون برفع الناسوت، لكن يزعمون أنه صُلب، وأقام في القبر إما يوماً وإما ثلاثة أيام، ثم صعد إلى السماء، وقعد عن يمين الرب الناسوت مع اللاهوت»(٢).

---

(١) الجواب الصحيح (٤/٣٣ ـ ٣٤).

(٢) المصدر السابق (٤/٣٩).

رِكُلْدُس دي مُونتي كُرُوتْشِي

رِكُلْدُس دي مُونتي كُرُوتْشِي

هذا القسيس هو أيضاً من أعضاء «الأخوة الوعّاظ» المعروفين «بالدومينيكان» كسلفه وأستاذه السابق ذكره، «توما الأكويني».

وُلِدَ ركلدس سنة (١٢٤٣م) في بلدة فلورنا، يُعد تلميذاً لتوما الأكويني، وسار على خُطَا أستاذه في موقفه ونقده للقرآن الكريم، كما سنذكر.

لكنه يمتاز عن أستاذه بهذه الميزات:

١ ـ رحل ركلدس بنفسه رحلات طويلة فطاف أسبانيا وأرمينيا وغيرها.

٢ ـ وصل ركلدس إلى بلاد المشرق فدخل فلسطين وبلاد العراق والشام وأقام زمناً طويلاً في بغداد.

٣ ـ أتاحت له إقامته الطويلة بالعراق تعلم اللغة العربية، وتعرّف عن كتب على الإسلام، والقرآن.

٤ ـ ألف كتاباً أشبه بالمذكرات عن رحلته المشرقية هذه وأنشطته التبشيرية سمّاه: «يوميات عن الأمم الشرقية»(١).

● موقفه من القرآن الكريم:

أَلَّف ركلدس كتاباً سماه «ضد شريعة المسلمين»(٢).

---

(١) انظر: مسيحية ضد الإسلام، تأليف: لودفيه هاغمن (٩٨)، ومختصر تاريخ الدول لابن العبري (٢٩٣ ـ ٢٩٤).

(٢) الكتاب لم يترجم إلى العربية، ولم أستطع الحصول عليه بعد البحث الكثير، =

وقد قسَّمه إلى عدة فصول، وقد حدّد «ركلدس» مقصده من تأليف الكتاب فقال في مقدمته: «إنه يريد أن يُلَخِّص الأخطاء الرئيسة للإسلام، وأن يتيح بذلك لإخوانه فرصة حمل المسلمين على التحول إلى الإيمان بالرب الحقيقي»(١).

فهذا هدف تنصيري واضح، وأدوات جدلية يقدمها «ركلدس» للمبشرين من إخوانه في النصرانية ليستعينوا بها في مجادلة المسلمين.

وبخصوص القرآن الكريم يضع «ركلدس» هذا العنوان: «أي دين هو شرع الله الحق: القرآن، أم الكتاب المقدس؟».

يعلق أستاذ اللاهوت الألماني «لودفيغ هاغمن» على هذا العنوان فيقول: «وهذا السؤال يمتد كالخط الأحمر خلال الكتاب بأسره، وفي الحقيقة يستبق «ركلدس» الجواب منذ الفصل الأول عندما يحاول أن يثبت أن القرآن خليط متنافر من الهرطقات المسيحية القديمة المدحوضة منذ عهد بعيد، وأنه مزيج من آراء تعليمية ذات أصول هي في منتهى التباين والاختلاف»(٢).

ولكن«ركلدس» في كتابه هذا، لا يُنْشِئ شيئاً جديداً، وإنما هو يعيد توظيف الشبهات السابقة التي تكلم بها قساوسة وأساقفة قبله، خصوصاً أستاذه «توما الأكويني» فهو مجرد صدى لأولئك، بإعادة تدويرها بأسلوب فيه الكثير من السطحية والفجاجة.

أما في مجال الدعوة للنصرانية ومحاولة إثبات عقائدها والرد على

= ولذلك سأعتمد في النقل على الذين اطلعوا عليه ونقلوا منه وهما مصدران: **الأول**: كتاب مسيحية ضد الإسلام، تأليف: لودفيغ هاغمن (٩٩ ـ ١٠٣)، **والثاني**: مقال عن الكتاب، في مجلة المشرق الكاثوليكية، سنة ١٩١٤م، عدد (١٧) (١٤٤ ـ ١٤٩).

(١) مسيحية ضد الإسلام (٩٩). (٢) المصدرالسابق (١٠٠).

القرآن الكريم في إبطاله للتثليث المسيحي، والتجسد والصلب والقتل للمسيح ﷺ، فإن «ركلدس» يعيد تماماً ما قاله وكتبه أستاذه «توما الأكويني» من قبل.

فهو يرتكز على ما ارتكز عليه «توما» من أن التثليث والتجسّد سِرَّان عظيمان لا يمكن إدراكهما بالعقل البشري، ولذلك وجب التسليم لهما، لذلك يقول «ركلدس»: «ولما كان كلا السِّرَّين(١) يتعاليان على العقل البشري ولا نستطيع أن نسوق أسباباً عقلانية للبرهنة عليهما، بل نسوق مجرد أسباب إيمانية، فإنه لا يبقى لنا سوى اللجوء إلى مرجعية رسالة الإنجيل التي يأتي القرآن على ذكرها أيضاً، وإلى معجزات مشهود لها في الكتاب المقدس».

فركلدس يعيد هنا، نص كلام «توما» بلا زيادة حتى أن عبارته مأخوذة تماماً من عبارات توما، وقد سبق النقاش مع «توما» في هذا والرد عليه.

وأما في موقفه ضد القرآن الكريم فيزعم «ركلدس» أن القرآن حوى تناقضات كثيرة وأن هذه التناقضات ملازمة للقرآن، تجعل في تصور «ركلدس» القرآن غير مناسب أن يكون كتاب من عند الله تعالى.

ويذكر «ركلدس» أربعة تناقضات، يزعم أنها ظاهرة وملازمة للقرآن الكريم، وهي:

١ ـ أن القرآن ـ كما يزعم ـ من تأليف «محمد»، وأنه بناه على أساس أطوار حياته المنافية للأخلاق، كما يزعم «ركلدس».

٢ ـ احتواء القرآن ـ كما يزعم ـ أقوال مسهبة ومكررة مأخوذة من الكتاب المقدس العهد القديم.

---

(١) التثليث والتجسّد.

٣ ـ احتواء القرآن ـ كما يزعم ـ على أمور شهوانية: الدعوة للزواج وممارساته، وطقوس الوضوء قبل الصلاة، الدالة على الدنس.

٤ ـ احتواء القرآن ـ كما يزعم ـ على إشباع الناحية الشهوانية في الإنسان من خلال الوعد بالجنة وما فيها من نساء وخمر ونعيم[1].

هذه تقريباً أهم اعتراضات «ركلدس» الذي يزعم أنها تناقضات، يريد بهذا إضعاف حجية القرآن، ورد كونه كلمة الله المنزلة على محمد ﷺ.

وإذا عدنا قليلاً نجد أن هذه الأمور والافتراءات بعينها وأكثر منها سبقه إليها «عبد المسيح بن إسحاق الكندي» في رسالته الشهيرة، وقد سبق ذكرها، والبحث مطولاً في الجواب والرد لما فيها من جملة الافتراءات، فركلدس لا يصنع شيئاً إلا إعادة توظيف وصياغة تلك الشبهات والافتراءات بعينها.

مع ملاحظة أن «ركلدس» يسلك نفس منهجية «عبد المسيح»، من اجتثاث النصوص من مكوناتها ومن سياقاتها، وروحها العامة، وتفكيكها، وإعادة تركيبها لتحقق ما يريده، من إظهارها بمظهر النقص والتناقض.

٥ ـ وكذلك هو يسلك مسلك المقارنة الثنائية، بإظهار شخص النبي محمد ﷺ بأنه القائد الذي نشأ في مجتمع وثني، وانطلق ممتشقاً سيفه يقاتل لإخضاع الناس لحكمه، والإذن بالجهاد والقتال لأجل الطمع والجشع في مقابل الزهد النصراني والعفة النصرانية، وأن المسيح لم يتزوج ولم يوص أتباعه بقتال، وإظهار المسيحية بمظهر الديانة المتسامحة جداً.

(١) مجلة المشرق، سنة ١٩١٤م، عدد (١٧) (١٤٥).

هذه الثنائية في المقارنة ركّز عليها «ركلدس» كثيراً، راغباً في الوصول لهدف تبشيري بإظهار محاسن المسيحية في مقابل سوء الإسلام كما يزعم.

ولأجل هذا سنقف مع هذا المسلك خصوصاً في قضية الجهاد والقتال في الإسلام وأهدافه، وأبعاده، ونتائجه، مقابل انطلاق النصرانية بآلة الحرب والقتال لأهداف صليبية، وحشية، وأطماع الأباطرة والقساوسة، وباباوات الفتيكان.

إن «ركلدس» وأستاذه «توما» وسلفه «عبد المسيح»، بل وكل أساقفة الكنيسة وقساوستها، في مجادلتهم الإسلام والقرآن، يبرزون هذا الجانب، ويظهرون أن القرآن كتاب دموي، وأن النبي ﷺ، قائد متعطش للدماء، ويصورون كل مراحل وآيات الجهاد في الإسلام من خلال هذا المشهد السوداوي، صداً منهم عن القرآن والإسلام، وتزكية كما يظنون للمسيحية والكتب المقدسة.

وسنقف مع هذا الأمر لرده وتفنيده وقفة طويلة، فيها إظهار قيمة النفس البشرية وحفظها وصيانتها في التشريع الإسلامي والقرآن الكريم، وفيها بيان حقيقة الجهاد في الإسلام وأهدافه العظيمة، وثمراته الكريمة.

• قيمة النفس وحفظها في القرآن الكريم:

النفس الإنسانية قيمة ثمينة؛ بل هي أثمن موجودات هذا العالم. وأكرم مخلوقات الله الخالق العظيم.

وتظهر قيمة هذه النفس الإنسانية وتكريمها في القرآن الكريم في الأمور الآتية:

١ - قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

• كرمهم الله بالعقل وبالنطق وبتعديل القامة وتجميلها، وبالمطاعم والمشارب والملذات، وبحسن الصورة وبتسخير جميع المخلوقات الأخرى لهم.

وأجمع علماء الإسلام أن جسد الآدمي طاهر وشعره وعرقه.

واستدل الشافعي بهذه الآية على أن جسد الآدمي لا ينجس بالموت(١).

• كرم الله هذا المخلوق البشري على كثير من خلقه. كرمه بخلقته على تلك الهيئة. كرمه بتسخير القوى الكونية له في الأرض، كرمه بالاستعدادات العقلية والنفسية والبدنية التي عمر بها الأرض يغيّر فيها وينتج وينشئ، ويركب ويحلل، ثم كرمه بإعلان هذا التكريم كله في كتابه المنزل من الملأ الأعلى إلى هذه الأرض، الدار التي عمرها الإنسان(٢).

٢ ـ كرم الله بني آدم بأن خلق عنصرهم الأول أباهم آدم بيده ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته الكرام المقربين.

وقد نص القرآن على هذا التبجيل والتكريم لأبينا آدم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾ [الأعراف: ١١].

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [صٓ: ٧١ ـ ٧٣].

٣ ـ كرم الله الخالق العظيم هذا المخلوق البشري «الإنسان»

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ١١٥)، والقرطبي (١٠/ ١٩٠ ـ ١٩١)، وروح المعاني للألوسي (٥/ ١١٧ ـ ١١٨).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٤/ ٢٢٤١) بتصرف.

بالفطرة السليمة. العارفة بخالقها. العالمة بربها. التي لولا العوارض والصوارف لما عبدت إلا الله خالقها ومسويها. وربها ومولاها.

قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠].

وقد فسر جماعات العلماء أهل التفسير من السلف الفطرة هنا بالإسلام؛ أي: أن الله فطر الناس من أصل خلقتهم مسلمين له مؤمنين. لولا ما يعرض لهذه النفس من عوارض ويصرفها عن دينها من صوارف لما عبدت إلا الله تعالى، وهذه هي حقيقة الإسلام[(١)].

وهذا قول الصحابة كأبي هريرة والتابعين، ومن بعدهم: كابن زيد ومجاهد وعكرمة وغيرهم. وقد دل الحديث الصحيح على ذلك.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟ حتى تكونوا أنتم تجدعونها». قال أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾[(٢)].

وكلمة «فطرة» في الآية منصوبة بالفتحة عند جميع القرّاء.

ووجه نصبها على قولين:

القول الأول: أنها منصوبة على أنها مفعول به بتقدير فعل اتبع أو الزم، فيكون المعنى: اتبع فطرة الله. وهذا قول الزجاج[(٣)].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ١٨٣ ـ ١٨٥)، والقرطبي (١٤/ ٨).
(٢) أخرجه البخاري برقم (١٣٥٩)، ومسلم برقم (٢٦٥٨).
(٣) معاني القرآن (٤/ ١٨٤).

والقول الثاني: أنها منصوبة على المصدر، فيكون المعنى: فطر اللهُ الناس على ذلك فطرةً، وهذا قول الطبري[١].

والرسل ﷺ جاءوا بتذكير الفطرة ما هو معلوم لها. وتقويته، وإمداده ونفي المغيِّر للفطرة. فالرسل ﷺ بعثوا بتقرير الفطرة وتكميلها، لا بتغيير الفطرة وتحويلها، والكمال يحصل للفطرة المكملة بالشريعة المنزلة[٢].

٤ ـ كرم الله تعالى الإنسان بالعلم وميزه حتى على الملائكة. وجعل ذلك هو مقوم استخلاف الإنسان في هذه الأرض.

وقد ذكر الله تعالى ذلك مفصلاً، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣٣].

يقول **الحافظ العماد ابن كثير**: «يخبر تعالى بامتنانه على بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾»[٣].

وقال أيضاً: «هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم وهذا كان بعد سجودهم له

(١) تفسير الطبري (١٠/ ١٨٣).
(٢) انظر: (١٦/ ٣٤٨) من مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية.
(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ٦٩).

وإنما قدم هذا على ذاك لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليقة حين سألوا عن ذلك، فأخبرهم بأنه يعلم ما لا يعلمون. ولهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم»(١).

وقال تعالى أيضاً: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

هذه الآيات الجليلات. أول ما نزل من الوحي الكريم على رسول الله محمد ﷺ وفيها من تكريم الإنسان وتشريفه أمور جليلة:

(أ) فيها بيان أن الله العظيم الخالق هو الذي برأ هذا الإنسان وكوّنه وأنشأه وطوّره، ونقله في خلقته من العلقة المهينة إلى الصورة الحسنة، والخلقة التامة.

(ب) أنه كرم الإنسان بالعلم ورفعه به، بأن خلق فيه أدوات التعلم والفهم من السمع والبصر والعقل والحواس، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النحل: ٧٨].

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فجعله عليماً. والعليم لا يكون إلا حياً. وكرّمه أيضاً بأن يكون قديراً سميعاً، بصيراً. والأكرم الذي جعل غيره عليماً هو أولى أن يكون عليماً. وكذلك في سائر صفات الكمال والمحامد»(٢).

(ج) علّم الإنسان بأن أوجد له أدوات الكتابة والتعلم ووسائلها ومن أشرفها وأجلها القلم. فالباء في قوله (بالقلم) باء السبب؛ أي:

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٧٣).

(٢) تفسير سورة العلق ضمن مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٦١).

القلم سبب ووسيلة للعلم والتعليم وكتابة العلوم، وحفظها في المدونات.

ولذلك أقسم الله بالقلم لشرفه وعظيم مهنته وفائدته، فقال تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ [نٓ (القلم): ١، ٢].

والقلم هنا: المراد به قلم التقدير الأول: الذي سطر الله به مقادير كل شيء قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء». رواه مسلم[(١)].

وهو اسم جنس يدل على أقلام كثيرة، ليس قلماً واحداً، كما في الحديث الصحيح: «رفعت الأقلام»[(٢)]، فإذا كان الله تعالى كتب من علمه المحيط بالخلق بالقلم دلّ على شرف القلم. وشرف كتابة العلم.

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَقْسَمَ سُبْحَانَهُ بِالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ؛ فَإِنَّ الْقَلَمَ بِهِ يَكُونُ الْكِتَابُ السَّاطِرُ لِلْكَلَامِ: الْمُتَضَمِّنِ لِلْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْإِرَادَةِ وَالْعِلْمِ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ؛ فَالْإِقْسَامُ وَقَعَ بِقَلَمِ التَّقْدِيرِ وَمَسْطُورِهِ فَتَضَمَّنَ أَمْرَيْنِ عَظِيمَيْنِ تَنَاسُبَ الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ. أَحَدُهُمَا: الْإِحَاطَةُ بِالْحَوَادِثِ قَبْلَ كَوْنِهَا وَأَنَّ مَنْ عَلِمَ بِالشَّيْءِ قَبْلَ كَوْنِهِ أَبْلَغُ مِمَّنْ عَلِمَهُ بَعْدَ كَوْنِهِ فَإِخْبَارُهُ عَنْهُ أَحْكَمُ وَأَصْدَقُ. الثَّانِي: أَنَّ حُصُولَهُ فِي الْكِتَابَةِ وَالتَّقْدِيرِ يَتَضَمَّنُ حُصُولَهُ فِي الْكَلَامِ وَالْقَوْلِ وَالْعِلْمِ مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ؛ فَإِقْسَامُهُ بِآخِرِ الْمَرَاتِبِ الْعِلْمِيَّةِ يَتَضَمَّنُ أَوَّلَهَا مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ؛ وَذَلِكَ غَايَةُ الْمَعْرِفَةِ وَاسْتِقْرَارُ الْعِلْمِ إذَا صَارَ مَكْتُوباً. فَلَيْسَ كُلُّ مَعْلُوم مَقُولاً وَلَا كُلُّ مَقُولٍ مَكْتُوباً وَهَذَا يُبَيِّنُ لَك حِكْمَةَ الْإِخْبَارِ عَنْ الْقَدْرِ السَّابِقِ بِالْكِتَابِ دُونَ

(١) مسلم برقم (٢٦٥٣).

(٢) أخرجه أحمد برقم (٢٦٦٩)، والترمذي برقم (٢٥١٦) وصححه.

الْكَلَامِ فَقَطْ أَوْ دُونَ الْعِلْمِ فَقَطْ»(١).

(د) أنه تعالى علم الإنسان ما لم يعلم؛ وذلك يكون بطريقين:

طريق الحس والمشاهدة واستحثاث العقل للوصول إلى المعارف من كتاب الكون الفسيح الهائل.

والطريق الثاني: تعليم الإنسان ما لم يعلم ولا يمكن أن يعلمه لا بحس ولا بعقل وهو ما أرسل به رسله وأنزل به كتبه من أنواع العلم العظيم من علوم الغيب العظيمة ومن علوم التشريع التي بهما صلاح النفوس.

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالتَّعْلِيمُ يَتَنَاوَلُ تَعْلِيمَ مَا أَنْزَلَهُ كَمَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣﴾ [الرحمن: ١ ـ ٣] وَقَوْلُهُ: ﴿بِٱلْقَلَمِ﴾ [الرحمن: ٤] يَتَنَاوَلُ تَعْلِيمَ كَلَامِهِ الَّذِي يُكْتَبُ بِالْقَلَمِ. وَنُزُولُهُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ الَّتِي أَنْزَلَ فِيهَا كَلَامَهُ وَعَلَّمَ نَبِيَّهُ كَلَامَهُ الَّذِي يُكْتَبُ بِالْقَلَمِ دَلِيلٌ عَلَى شُمُولِ الْآيَةِ لِذَلِكَ»(٢). «ودلت هذه الآيات على جميع الأصول العقلية»(٣).

لذلك استحقت النفس الإنسانية الحفظ والصيانة من كل ما يدنسها ويفسد فطرتها من الشرك والكفر والفجور والآثام.

ويتمثل حفظ وصيانة النفس الإنسانية في القرآن الكريم في الأمور الآتية:

- **الأمر الأول:**

حفظها مما يفسدها ويخبثها. ويدنسها. ويجعلها مظلمة شريرة.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٦٢).

(٢) المصدر السابق (١٦/ ٣٦٤).

(٣) المصدر السابق (١٦/ ٣٦٢).

والنفس البشرية إنما يفسدها أعظم الإفساد ويخبثها أعظم الخبث الشرك بربها، والكفر بخالقها وما يجر ذلك من العمل السيئ الفاسد الخبيث. الذي تظلم به النفوس. وتنقلب إلى وحوش لا تعرف إلا شهوتها ولا تحقق إلا نزوتها.

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠].

قال **الإمام الطبري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد أفلح من زكى الله نفسه، فكثر تطهيرها من الكفر والمعاصي وأصلحها بالصالحات من الأعمال»[(١)].

فبالإيمان والعمل الصالح: تزكوا النفوس البشرية وتسمو وتشرق وترتفع وتصفو وتصبح خيّرة طاهرة زكية نقية. تنتج الخير والإحسان والمعروف؛ فإذا تطهرت وزكت وسمت بالإيمان والعلم بالله وعبادته والعمل الصالح أصبحت هذه النفس الإنسانية من جنس نفوس الملائكة الشريفة؛ بل ربما أفضل، فاستحقت أن تنزل عليها الملائكة وتثبتها. وتخالطها.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٣].

ويصبح المؤمنون الصالحون أكمل حالاً ومآلاً باعتبار كمال ما انتهوا إليه من الملائكة الكرام. وإن كان الملائكة أفضل باعتبار كمال ما هم عليه الآن. في منازلهم في الملكوت الأعلى منزهين عما يلابسه بنو

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٦٠٣).

آدم من الأحوال والشهوات[1].

أما إن كفر بنو آدم وعبدوا غير خالقهم تعالى وعملوا السيئات. فتظلم نفوسهم وتقسو قلوبهم. وينحطون في أحط الدركات وأخبث المنازل. حتى أنهم يكونون في حكم خالقهم أحط من البهائم. منزلة. وأضل من الأنعام سبيلاً.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤].

وذلك يتبين بوجوه:

الأول: أن البهيمة منزوعة العقل إلا العقل الغريزي الفطري لمعاشها. فلا سبيل لها إلى أن تتكامل بعلم أو عمل أو صلاح أو إصلاح أو رشد. أكثر مما هي عليه، أما الإنسان ففضل بالعقل والإدراكات والحواس والمواهب التي بها يتكمل ويصلح. فإذا تعطل عن بلوغ صلاحه وكماله الذي خلق من أجله بان نقصه وانحطت منزلته. وظهر خسرانه.

الثاني: أن البهائم غير مكلفة ولا ينتظرها ثواب ولا عقاب. ولا مصير من الشقاوة أو السعادة. وأما الإنسان فهو مكلف من قبل خالقه. وإنما خلقه لذلك. وله مصير محتوم هو صائر إليه. ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤/ ٣٤٣).

رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٥ ـ ١٠٨].

أما البهائم؛ فإنها وإن حُشرت: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾ [التكوير: ٥]، وبُعثت واقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء؛ فإن ذلك لتمام عدل الله تعالى.

قال رسول الله ﷺ: **«لَتُأَدَّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى إنه ليُقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»**(١).

ثم يقال لها كوني تراباً، عندها يتمنى الكافر لما يعاين من الأهوال وينتظره من المصير المؤلم الرهيب أن لو كان مصيره مصير هذه البهائم. ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ: ٤٠].

الوجه الثالث: أن جميع الكائنات بما فيها البهائم مؤمنة بخالقها تسبحه وتصلي له إلا كافر وفاجر بني آدم؛ فإنه كافر بربه، متمرد على خالقه. يعبد ويسبح غير ربه ومولاه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾ [الرحمٰن: ٦].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور: ٤١].

---

(١) أخرجه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة (٨/١٨ ـ ١٩)، والترمذي (٢/٦٨).

• **الأمر الثاني:**

مما تحفظ فيه النفس الإنسانية وتصان في التشريع الإسلامي:

أنها تحفظ من حرمانها في اختيار ما تريد. بما لا يعود بالفساد والمضرة عليها ولا على غيرها حتى الدين؛ فإن الله تعالى مع أنه أبطل جميع الأديان. ولا يقبل غير الإسلام: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]، إلا أنه تعالى منعنا أن نكره أحداً على قبول هذا الحق. وأن نرغم أحداً على الدخول في الإسلام وقبوله عنوة. على قاعدة: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وسبب ذلك وحقيقته أن الدين لا يُكْره أحد عليه. لأنه قناعات واعتقادات ومحبة وشعور. فكيف يكره أحد على هذا؟! لأن الإكراه في حقيقته هو حمل الإنسان بالقوة والإجبار ليوافق بظاهره على ما هو كاره له وغير مريد له بباطنه.

قال **احمد بن فارس**: «الكاف والراء والهاء: أصل صحيح واحد يدل على خلاف الرضا والمحبة»(١).

وفي اللسان: «أكرهته: حملته على أمر هو له كاره»(٢).

وقال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإكراه إلزام الغير بما لا يريده»(٣).

وهذا معنى هذه الآية ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾.

قال **الإمام الطبري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فتأويل الكلام إذن: قد وضح الحق من

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٩٢٣).
(٢) لسان العرب (١٢/٥٨).
(٣) فتح الباري (١٢/ ٣١١).

الباطل واستبان لطالب الحق والرشاد وجه مطلبه فتميز من الضلالة والغواية فلا تكرهوا أحداً من أهل الكتابين ومن أبحت لكم أخذ الجزية منه على دينكم دين الحق؛ فإن من حاد عن الرشاد بعد استبانته له فإلى ربه أمره وهو وليُّ عقوبته في معاده»[١].

وقال **الإمام العماد ابن كثير** رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام؛ فإنه بيّن واضح جلي دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحدٌ على الدخول فيه؛ بل من هداه الله إلى الإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الإسلام مكرهاً مقسوراً»[٢].

يقول **الأستاذ سيد قطب** رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن قضية العقيدة كما جاء بها هذا الدين قضية إقناع بعد البيان والإدراك، وليست قضية إكراه وغصب وإجبار. ولقد جاء هذا الدين يخاطب الإدراك البشري بكل قواه وطاقاته، يخاطب العقل المفكر... يخاطب الكيان البشري كله... بكل جوانبه... في غير قهر حتى بالخارقة المادية التي قد تلجئ مشاهدها إلجاءً إلى الإذعان...»[٣].

ومما يدل على أن الله تعالى: لا يريد إلجاء الخلق إلى الإيمان إلجاءً تخضع له أعناقهم ويستسلم له ظاهرهم ذلة ورهبة. قوله تعالى في أول سورة الشعراء: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ [الشعراء: ٤].

قال **الإمام الطبري** رَحِمَهُ اللَّهُ: «فظلت أعناقهم ذليلة، للآية التي ينزلها الله عليهم من السماء»[٤].

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ١٩).
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٤٦٥).
(٣) في ظلال القرآن (١/ ٢٩١).
(٤) تفسير الطبري (٩/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣).

وهذه الآية جاءت في السياق مباشرة بعد قوله تعالى في الآية قبلها: ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ [الشعراء: ١ ـ ٤].

فذكر تعالى آيات الكتب وهو القرآن المنزل على صفوة وخاتم رسله محمد ﷺ. ووصفه بأنه كتاب مبين. ظاهر الحجج واضح الدلالة، ومع ذلك أعرض عنه القوم وكذب به أكثرهم. وعاندوا حججه. مما جعل النبي ﷺ يكاد يقتل نفسه كمداً وحزناً وقهراً. وهذا معنى قوله: باخع نفسك. بسبب عدم إيمانهم وإعراضهم عن هذا القرآن مع عظيم بيانه. وقوة حججه. وظهور براهينه. وعجزهم عن معارضته.

كما قال تعالى في سورة الكهف: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾، بعد قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾ [الكهف: ١، ٢].

فهو كتاب عظيم منزل من عند الله لا عوج فيه. ولا اختلاف، قيم: يهدي للتي هي أقوم وأحسن.

وكتاب هذا وصفه ينبغي أن تقبل عليه القلوب والعقول به تهتدي. ومنه تستقي. وعليه تستقيم. ولكن الذي يقع من الخلق أو أكثرهم الإعراض عنه وتكذيبه. مما يجعل النبي الكريم ﷺ يكاد يقتل نفسه كمداً وألماً وحسرة عليهم. وأسفاً من إعراضهم بسبب عدم إيمانهم بهذا الحديث الذي هو القرآن العظيم، مع كل هذه القيمية التي هو فيها، والاستقامة التي هو عليها.

يقول **الإمام القرطبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لعلك قاتل نفسك لتركهم الإيمان:

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾﴾؛ أي: معجزة ظاهرة، وقدرة باهرة، فتصير معارفهم ضرورية؛ ولكن سبق القضاء بأن تكون المعارف نظرية»[١].

«وقد كان الله قادراً على أن يلوي أعناقهم كرهاً إلى الإيمان، بآية قاهرة تقسرهم عليه قسراً... ولكنه سبحانه لم يشأ أن يجعل مع هذه الرسالة الأخيرة آية قاهرة، لقد جعل آيات القرآن. منهاج حياة كاملة. معجزاً في كل ناحية. معجزاً في بنائه التعبيري باستقامته على خصائص واحدة لا يختلف ولا يتفاوت... معجزاً في بنائه الفكري فلا فلتة فيه ولا مصادفة، كل توجيهاته وتشريعاته تلتقي تتناسق وتتكامل وتحيط بالحياة البشرية وتستوعبها... معجزاً في يسر مداخله إلى القلوب والنفوس، ولمس مفاتيحها. وفتح مغاليقها واستجاشة مواضع التأثر والاستجابة فيها، وعلاجه لعقدها ومشكلاتها في بساطة ويسر عجيبين...

لقد شاء الله أن يجعل هذا القرآن هو معجزة هذه الرسالة ولم يشأ أن ينزل آية قاهرة مادية تلوي الأعناق وتخضعها وتضطرها إلى التسليم، ذلك أن هذه الرسالة الأخيرة رسالة مفتوحة للأمم كلها، وللأجيال كلها... فناسب أن تكون معجزتها مفتوحة كذلك للبعيد والقريب، لكل أمة ولكل جيل...»[٢].

وقد ضرب الله لنا مثلاً في القرآن بما صنعه ببني إسرائيل. لما كرهوا أمر الله ورفضوا التوراة وتمردوا على أحكام الله وعاندوا نبيهم موسى عليه السلام، فأكرههم الله تعالى إكراهاً وألجأهم إلجاءً إلى الأخذ بها. ففعلوا تحت تهديد هذا الإكراه فما أن زال عنهم هذا الإكراه حتى نكثوا وعادوا إلى غيهم وتكذيبهم وتمردهم.

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ٦١).

(٢) في ظلال القرآن (٥/ ٢٥٨٤ ـ ٢٥٨٥) باختصار.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف: ١٧١].

قال **ابن عباس** رضي الله عنهما: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣]: يقول من العمل بالكتاب، وإلا خر عليكم الجبل فأهلككم، فقالوا: بل نأخذ ما آتانا الله بقوة. ثم نكثوا بعد ذلك».

وقال **قتادة**: «جبل نزعه الله من أصله، ثم جعله فوق رؤوسهم، فقال: لتأخذن أمري أو لأرمينكم به».

وقال **ابن جريج**: «لتؤمنن بالتوراة ولتقبلنها، أو ليقعن عليكم»[(١)].

فلما جاء الإسلام عقب ذلك، جاء يعلن هذا المبدأ الكبير: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وفي هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان، واحترام إرادته، وفكره، ومشاعره، وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد، وتحميله تبعة عمله، وحساب نفسه... وهذه هي أخص خصائص التحرر الإنساني...

إن حرية الاعتقاد هي أول حقوق «الإنسان» التي يثبت له بها وصف «إنسان»، فالذي يسلب إنساناً حرية الاعتقاد، إنما يسلبه إنسانيته ابتداء[(٢)].

ثم لاحظ هنا أن أسلوب الخطاب في قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ﴾ أسلوب إنشائي خبري وإن كان المراد به الطلب، بنهي المؤمنين أن يكرهوا أحداً على دينهم.

وعدل في الخطاب هنا من أسلوب الطلب بالنهي إلى أسلوب

(١) انظر هذه الأقوال في: تفسير الطبري (٦/١٠٨ ـ ١٠٩).
(٢) في ظلال القرآن (١/ ٢٩١).

الإنشاء بالخبر ليبين أن الإكراه والإلجاء لا تأثير له البتة في قبول الدين؛ لأنه قناعات وإرادات ومحبة وشعور. فمتى أكره عليها قبلها ظاهراً وله مخرج بالنفاق بأن يبطن خلاف ما يظهر.

قال **الإمام العماد ابن كثير** رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام؛ فإنه بين واضح جلي دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه؛ بل من هداه الله إلى الإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره؛ فإنه لا يفيده الدخول في الإسلام مكرهاً مقسوراً»(١).

وقال **الشيخ ابن سعدي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا بيان لكمال هذا الدين الإسلامي، وأنه لكمال براهينه، واتضاح آياته، وكونه هو دين العقل والعلم، ودين الفطرة والحكمة، ودين الصلاح والإصلاح، ودين الحق والرشد، فلكماله وقبول الفطرة له، لا يحتاج إلى الإكراه عليه؛ لأن الإكراه إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب، ويتنافى مع الحقيقة والحق، أو لما تخفى براهينه وآياته، وإلا فمن جاءه هذا الدين، ورده ولم يقبله، فإنه لعناده، فإنه قد تبين الرشد من الغي»(٢).

وقال **الطاهر بن عاشور** رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن المراد بنفي الإكراه نفي تأثيره في إسلام من أسلم كرهاً فراراً من السيف على معنى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء: ٩٤]، وهذا القول تأويل في معنى الإكراه وحمل للنفي على الإخبار دون الأمر»(٣).

وقال **الأستاذ سيد قطب** رَحِمَهُ اللَّهُ: «والتعبير هنا يرد في صورة النفي المطلق: «لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ»... نفي الجنس كما يقول النحويون؛

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٦٥).
(٢) تفسير ابن سعدي (١/ ٢٠٤).
(٣) التحرير والتنوير (٢/ ٢٨).

أي: نفي جنس الإكراه. نفي كونه ابتداء. فهو يستبعده من عالم الوجود والوقوع. وليس مجرد نهي عن مزاولته. والنهي في صورة النفي ـ والنفي للجنس ـ أعمق إيقاعاً وآكد دلالة»(١).

لذلك فإن هذه الأمة المسلمة هم خير الناس للناس. وأنفع الخلق للخلق، وأعدل أمة وأرحمها. فاستحقت تفضيل الله وتكريمه وجعلها هي الأمة الخيرية العدل الشاهدة على جميع الأمم. القيمة على الكتاب الوارثة له القائمة به. الداعية إليه. المنقذة للبشرية من ظلمات الشرك. والخرافة. وتسلط الطواغيت. ومصادرة العقول والقلوب.

قال الله تعالى في وصفها: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

قال **الإمام الطبري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كما هديناكم أيها المؤمنون بمحمد ﷺ، وبما جاءكم به من عند الله، فخصصناكم بالتوفيق لقبلة إبراهيم وملته، وفضلناكم بذلك على من سواكم من أهل الملل، كذلك خصصناكم ففضلناكم على غيركم من أهل الأديان بأن جعلناكم أمة وسطاً»(٢).

وقوله تعالى: ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ تحتمل الجعل الشرعي؛ أي: أمرناكم باتباع الشرائع التي شرعناها لكم التي هي متوسطة بين طرفين.

قال **الطبري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأرى أن الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم «وسطاً» لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلوٍ فيه غلوّ النصارى الذين غلوا بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه. ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدّلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم وكذبوا على ربهم، وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه. فوصفهم الله بذلك إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها»(٣).

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٢٩١).
(٢) تفسير الطبري (٢/ ٨).
(٣) المصدر السابق (٢/ ٨ ـ ٩).

ويحتمل أن يكون الجعل القدري: أي: أن الله تعالى أخرج هذه الأمة وشرع لها أحسن الشرائع وأتمها وأعدلها. لتكون في واقع الأمر كذلك عدولاً خياراً.

ليكونوا شهداء على الأمم كلها في الدنيا والآخرة. وقد كانوا كذلك.

أما في الدنيا فبإيمانهم بجميع أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام. وموالاتهم جميعاً. ومحبتهم وتعظيمهم بدون تفريق بين أحد منهم. فهم أولى الناس بالرسل. وألصق الأمم بالأنبياء عليهم السلام.

وجمع الله لهم في شريعتهم المنزلة بين الحزم والعدل، وبين الرحمة والإحسان والفضل ما ليس لغيرها من الشرائع.

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله: «الشَّرَائِعُ ثَلَاثَةٌ: شَرِيعَةُ عَدْلٍ فَقَطْ، وَشَرِيعَةُ فَضْلٍ فَقَطْ، وَشَرِيعَةٌ تَجْمَعُ الْعَدْلَ وَالْفَضْلَ، فَتُوجِبُ الْعَدْلَ، وَتَنْدُبُ إِلَى الْفَضْلِ، وَهَذِهِ أَكْمَلُ الشَّرَائِعِ الثَّلَاثِ وَهِيَ شَرِيعَةُ الْقُرْآنِ الَّذِي جُمِعَ فِيهِ بَيْنَ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ. مَعَ أَنَّا لَا نُنْكِرُ أَنْ يَكُونَ مُوسَى عليه السلام أَوْجَبَ الْعَدْلَ وَنَدَبَ إِلَى الْفَضْلِ، وَكَذَلِكَ الْمَسِيحُ ـ أَيْضاً ـ أَوْجَبَ الْعَدْلَ وَنَدَبَ إِلَى الْفَضْلِ. يقول تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ فهذا عدل، ثم قال: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦] فهذا فضل، وقال تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥] فهذا عدل، ثم قال: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ فهذا فضل، وقال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ فهذا عدل، ثم قال ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشورى ٤٠] فهذا فضل»(١).

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٦١ ـ ٦٢) باختصار.

وقال تعالى عن رسالة خاتم أنبيائه محمد ﷺ وما تحمله من عدل ورحمة وإحسان للعالم ولليهود والنصارى على وجه الخصوص: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾ [التين: ١ ـ ٣].

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: «أقسم بالأمكنة الشريفة المعظمة الثلاثة التي ظهر فيها نوره وهداه، وأنزل فيها كتبه الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن، كما ذكر هذه المواضع الثلاثة في التوراة بقوله: «جاء الرب من سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران»[(١)].

فإن إشراقه من ساعير ظهور نوره بالمسيح، كما أن مجيئه من طور سيناء هو ظهور نوره بموسى، واستعلانه هو ظهور نوره بمحمد ﷺ، وفي نص التوراة: رتبها على ترتيبها الزماني فقدم الأسبق فالأسبق، وأما القرآن فأقسم بها على وجه التدريج درجة بعد درجة فختمها بأعلى الدرجات»[(٢)].

أما في الآخرة، فأخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم يا رب، فيقال لأمته: هل بلغكم؟

---

(١) هذا النص في سفر تثنية الاشتراع الإصحاح ٣٣ (١ ـ ٣) وبدل: استعلن: سطع.

(٢) الجواب الصحيح (٣/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤) و(٥/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨).

فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلغ، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: عدلاً ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[١] [البقرة: ١٤٣].

وعن أبيّ بن كعب ﷺ، أنه قال في هذه الآية: «كانوا شهداء على الناس يوم القيامة، كانوا شهداء على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وغيرهم أن رسلهم بلغتهم وأنهم كذبوا رسلهم»[٢].

وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

هذه الآية الجليلة تشريفية للأمة المسلمة من جهة؛ لكنها تكليفية لها من جهة أخرى، فقد وصف الله تعالى ـ وقوله الحق ـ هذه الأمة بأنها خير أمة وجدت على ظهر الأرض فهم خير الناس. وأجل أمة وأشرفها.

عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده معاوية بن حيدة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنتم متمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله»**[٣].

وتظهر خيرتها في الأمور الآتية متى قامت بها، ورعتها حق رعايتها:

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٤٨٧) و(٧٣٤٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٣٣٦)، وقال الحافظ ابن حجر: إسناده جيد. فتح الباري (١٧/ ٣٤).

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٣٠٠١) وحسنه، وابن ماجه (٤٢٨٨)، والحاكم (٤/ ٨٤) وصححه، وقال الحافظ ابن حجر: «وهو حديث حسن صحيح وفي حديث علي عند أحمد بإسناد حسن: أن النبي ﷺ قال: أنتم خير الأمم». فتح الباري (١٧/ ٨٦).

١ ـ ما اشترطه الله عليها في الآية لضمان الخيرية وبقائها واستمرارها، وهو قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، فإن جملة تأمرون وتنهون وتؤمنون. جملة فعلية في محل النصب على الحال؛ أي: أنتم خير أمة أخرجت للناس حالة كونكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله تعالى.

فعلى هذا فإنه يختل من الخيرية بقدر ما يختل من الشروط السابقة.

رُوي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «هم أصحاب رسول الله ﷺ ومن صنع مثل صنيعهم»[1].

ورُوي عنه أنه قال رضي الله عنه: «من أراد أن يكون من تلكم الأمة فليأدِّ شرط الله منها: تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»[2].

وقال الإمام مجاهد رحمه الله: «معناه على الشرط المذكور: تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»[3].

ولذلك تفقد الأمة من هذه الخيرية بقدر ما تضيع وتفرط في أمر الله والقيام بكتابه وأداء هذه الشروط العظيمة.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد في سبيل الله سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم**»[4].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**ولينزعن الله المهابة من قلوب أعدائكم وليلقين في قلوبكم الوهن**. قيل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال:

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ٣٩٠). (٢) المصدر السابق (٣/ ٣٩٠).
(٣) المصدر السابق (٣/ ٣٩٠).
(٤) أخرجه أبو داود برقم (٣٤٦٢)، والبيهقي (٥/ ٣١٦).

حب الدنيا وكراهية الموت»[١].

واعتبر بحال بني إسرائيل فقد كانوا يوماً من الأيام أمة مختارة مصطفاة. لما كانوا يؤمنون بالله وكان فيهم أنبياء الله وكان فيهم الكتاب والحكم والنبوة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الدخان: ٣٢، ٣٣].

وقال تعالى أيضاً عنهم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الجاثية: ١٦، ١٧].

فلما كفروا بآيات الله ونعمه. وقتلوا أنبياء الله. وتمردوا على شريعة الله؛ بل امتدت أيديهم الآثمة إلى كتاب الله فحرفوه وبدلوه. وقالوا كذباً وافتراءً هذا من عند الله. فانقلب ذلك التفضيل إلى تخسير. وتحول ذلك الاختيار إلى لعن وطرد واندثار.

فوصل بهم الحال إلى أن قال الله عنهم: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المائدة: ٧٨ ـ ٨٠].

٢ ـ وتظهر خيرية هذه الأمة كذلك وفضلها وشرفها أنها أمة العدل والمساواة، الجميع في حكم الله سواء. شعارها الذي قامت عليه:

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٢٩٧)، وأحمد برقم (٢٢٣٩٧).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

يقول رسول الله ﷺ: **«ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى»**[١].

أمة لما قامت وسادت شريعتها أمن الناس كل الناس على حرماتهم وأموالهم وأعراضهم.

أمة يقول نبيّها ﷺ: **«من قتل معاهداً لم يَرَحَ رائحة الجنة»**[٢].

أمة في ظل شريعتها الغراء. ردع الاعتداء. ووصلت الحقوق إلى الأرامل والأيتام والضعفاء.

يقول نبيّها ﷺ: **«لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع»**[٣].

قال الإمام عكرمة في تفسير آية الخيرية هذه: «كان من قبلكم لا يأمن هذا في بلاد هذا، ولا هذا في بلاد هذا، فلما كنتم أنتم أَمِنَ فيكم الأحمر والأسود»[٤].

وقال عكرمة أيضاً: «لم تكن أمة دخل فيها من أصناف الناس مثل هذه الأمة»[٥].

٣ ـ وتظهر خيريتها كذلك في أن هذه الأمة تستنقذ الناس من الكفر بالله والشرك به. ومن العبودية لغير الله تعالى من العبوديات المهينة

---

(١) أخرجه أحمد في المسند برقم (٢٣٤٨٩)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٠٠).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٩١٤)، و(٣١٦٦).
(٣) أخرجه ابن ماجه رقم (٢٤٢٦).
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٣٩٧٢).
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٣٩٧٣).

للطواغيت والجبابرة من الكياسرة والأقاصرة، ومن وهم الخرافة وضلال العقول وظلمة النفوس إلى روح الإيمان وطاعة الرحمٰن وعدل الإسلام؛ بل إنها تقاتل وتجاهد من أجل تحرير البشرية كلها من رق العبودية وذل الخضوع للطواغيت والملوك الجبابرة. لتنعم البشرية بعدل الإسلام ولو لم تدخل فيه. وتتدين به، ثم إنها تنقذ بدعوتها وأخلاقها وجهادها أمماً من جحيم عذاب الله تعالى في الآخرة. وعظيم وأليم عقابه ونقمته لتنعم هذه الأمم بروح الله ورحمته، والفوز بجنته والنجاة من عذابه. ولو كانت ربما في أول الأمر كارهة.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل»**[(١)].

وفي لفظ موقوف على أبي هريرة قال: «كنتم خير أمة أخرجت للناس: خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام»[(٢)].

والمعنى: أنهم يُأسرون في الجهاد، يأسرهم المسلمون فيأتون بهم في السلاسل فإذا رأوا وعاينوا عدل الإسلام ورحمته وكيف يعيش المسلمون في إيمان وعدل ورحمة أحبوا الإسلام فأسلموا طوعاً. فصار مصيرهم إلى الجنة والنجاة.

قال **الإمام ابن الجوزي** رحمه الله: «معناه أنهم أسروا وقيدوا فلما عرفوا صحة الإسلام دخلوا طوعاً فدخلوا الجنة فكان الإكراه على الأسر والتقييد هو السبب الأول»[(٣)].

والجهاد إنما شُرع في الإسلام ليتحرر البشر كلهم من كل

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٠١٠). (٢) البخاري برقم (٤٥٥٧).
(٣) انظر فتح الباري (١٢/ ١١١).

العبوديات المهينة المشينة لغير الله خالقهم. ليكونوا جميعاً عبيداً لله خالقهم، عابدون له لا يخضعون بالدينونة إلا له تعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنفال: ٣٩]، وقال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه لما بعثه لفتح خيبر: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»[(١)].

فهداية الناس للخير والحق واستنقاذهم من الكفر والعبودية لغير الله هو الهدف والغاية في الإسلام من عقد الألوية ونصب رايات الجهاد وبعث السرايا والجيوش.

وقال الصحابي الجليل ربعي بن عامر رضي الله عنه لرستم قائد جيش الفرس المجوس لما سأل رستم ما الذي جاء بكم؟ فقال ربعي: جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد. ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة»[(٢)].

فنتج من حركة الجهاد والفتوحات الإسلامية العظيمة أن اهتدى الناس ودخلوا في دين الله أفواجاً وأحبوا الإسلام رغبة لا رهبة. وصلحت الأرض بعد فساد. وأضاءت بعد ظلام.

وكان من اختار دينه من أهل البلاد المفتوحة يتمتع بعدة مزايا لم تحصل في تاريخ الحروب كلها:

- إنهم يُقَرُّن على دينهم ولا يكرهون على تركه ولا يجبرون على الدخول في الإسلام على قاعدة ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ كما مر.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٢١٠).

(٢) ذكره الطبري في تاريخه (٣/ ٤٠١)، وانظر الإصابة لابن حجر (٣/ ١٥٨).

• إنهم يُأَمَّنون على أموالهم وأعراضهم ودمائهم. بلا عدوان عليها. قال رسول الله ﷺ: **«من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة»**[١].

• إنهم لا يُسْتَرقُّون؛ بل يبقون أحراراً متى كفوا عن القتال ووافقوا على شروط الذمة، ودفعوا مقداراً زهيداً من المال جزية.

• إنهم لا يُكَلفون بالقتال مع المسلمين. بل يقاتل عنهم المسلمون ويحمونهم.

ترجم الإمام البخاري رحمه الله في كتاب الجهاد من الجامع الصحيح فقال: «باب يُقَاتل عن أهل الذمة، ولا يسترقون»[٢].

وفقه هذه الترجمة أن أهل ذمة المسلمين أمنهم من واجب المسلمين، وأن المسلمين يقاتلون في الدفاع عنهم وعن ممتلكاتهم ولا يكلفون هم بقتال؛ بل ولا يسترقون ويبقون أحراراً يقرون على دينهم ما اختاروه ورضوا به حتى ولو نقضوا العهد مع المسلمين وخانوا.

قال **الحافظ ابن حجر** رحمه الله: «ولا يسترقون؛ أي: ولو نقضوا العهد»[٣].

ونقل فيه ابن قدامة رحمه الله الإجماع على ذلك[٤].

وترجم البخاري في كتاب الجهاد من الجامع الصحيح فقال: «باب إذا قالوا صبأنا ولم يحسنوا أسلمنا... وَقَالَ عُمَرُ: إِذَا قَالَ مَتْرَسْ فَقَدْ آمَنَهُ، إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ الأَلْسِنَةَ كُلَّهَا، وَقَالَ: تَكَلَّمْ لَا بَأْسَ»[٥].

أما **الأثر الأول**: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد قال الحافظ في الفتح: «وصله عبد الرزاق عن طريق أبي وائل ـ وهو شقيق بن سلمة ـ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣١٦٦)، و(٦٩١٤).
(٢) فتح الباري (١٢/ ١٤٠).
(٣) فتح الباري (١٢/ ١٤٠).
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق (١٢/ ٣٦٣).

قال: جاءنا كتاب عمر ونحن نحاصر قصر فارس. . .وفيه: وإذا لقي الرجلُ الرجلَ فقال لا تخف فقد أمنه، وإذا قال مترس فقد أمنه، إن الله يعلم الألسنة كلها»(١).

والمراد أن أي رجل مسلم من المجاهدين قال أي كلمة بأي لغة أشعر فيها الكافر المحارب بالأمان فقد عقد له ذمة الإسلام، ووجب على المسلمين تأمينه وحقن دمه. وكلمة «متَّرس» كلمة فارسية معناه: لا تخف».

وأما **الأثر الثاني**: فقد قال الحافظ أيضاً في الفتح: «وروى ابن أبي شيبة ويعقوب بن سفيان في تاريخه من طرق بإسناد صحيح عن أنس بن مالك قال: حاصرنا تستر فنزل الهرمزان على حكم عمر فلما قدم به عليه استعجم فقال له عمر: تكلم لا بأس عليك. وكان ذلك تأميناً من عمر، وفي لفظ: بعث معي أبو موسى بالهرمزان إلى عمر فجعل عمر يكلمه فلا يتكلم فقال له عمر: تكلم، قال: أكلام حي أم كلام ميت؟ قال: تكلم لا بأس. قال: فأرادوا قتله، فقال عمر: لا سبيل إلى ذلك قد قلت له تكلم لا بأس»(٢).

فيالله هذا ملك أسير من ملوك الفرس أمن بين جميع المسلمين على دمه بكلمة واحدة من أمير المؤمنين «لا بأس» ثم انظر إلى هذه المفارقة هذا الهرمزان الذي تمتع بكل هذا التأمين والأمان قابل ذلك كله بالنكران والكفران والغدر، فكان أحد رؤوس المتآمرين على قتل هذا الخليفة المبارك الفاروق عمر رضي الله عنه. فأين أخلاق المسلمين النبيلة وأين غدر ولؤم هؤلاء الكفار؟!

ثم روى البخاري في الباب المذكور عن عمرو بن ميمون عن أمير

---

(١) فتح الباري (١٢/ ٢٦٤).

(٢) المصدر السابق.

المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال في وصيته للخليفة بعده: وأوصيه بذمة الله، وذمة رسوله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم»[١].

وبوّب البخاري أيضاً فقال: «باب: الوصاة بأهل ذمة رسول الله ﷺ»[٢].

وأخرج الحديث السابق.

بل إن الذمي مع تمتعه بكل هذه المزايا؛ فإن للعفو عنه والصفح مجال عظيم حتى مع غدره وجرمه وعدوانه وإضراره بالمؤمنين.

ترجم الإمام البخاري في كتاب الجهاد من الصحيح فقال: «باب إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم»[٣].

ثم أخرج حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لما فتحت خيبر أهديت للنبي ﷺ شاة فيها سم فقال النبي ﷺ: **اجمعوا إليَّ من كان هاهنا من يهود**، فجمعوا له، فقال: **إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه؟** فقالوا: نعم، قال لهم النبي ﷺ: **من أبوكم؟** قالوا: فلان. فقال: **كذبتم؛ بل أبوكم فلان**، قال: صدقت، قال: **فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألت عنه؟** فقالوا: نعم يا أبا القاسم وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال لهم: **من أهل النار؟** قالوا: نكون فيها يسيراً، ثم تخلفونا فيها، فقال النبي ﷺ: **اخسئوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً**، ثم قال: **هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه**، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: **هل جعلتم في هذه الشاة سمّاً؟** قالوا: نعم، قال: **ما حملكم على ذلك؟** قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح، وإن كنت نبيّاً لم يضرك»[٤].

---

(١) البخاري برقم (٣٠٥٢). (٢) فتح الباري (١٢/ ٢٥٤).
(٣) المصدر السابق (١٢/ ٢٦٠ ـ ٢٦١). (٤) صحيح البخاري برقم (٣١٦٩).

وهذا السمّ الذي وضع في الشاة وأكل منها النبي ﷺ وبعض أصحابه تضرر منه النبي الكريم عليه الصلاة والسلام وكان سبباً رئيساً في مرضه الذي توفي منه، وقد قال قبل وفاته عليه الصلاة والسلام: **«وما زلت أجد أثر الأكلة التي أكلت بخيبر. وهذا أوان انقطاع أبهري»**(١).

ومات بسبب هذا السم بعض أصحابه وهو الصحابي: بشر بن البراء بن معرور رضي الله عنه.

ومع هذا لم يعاقب النبي ﷺ يهود بشيء ولم يقتل المرأة وهي زينب بنت الحارث زوج سلام بن مشكم التي وضعت السم في الشاة؛ بل عاملهم مزارعة على القيام بأرضهم على نصف الخارج منها(٢).

وترجم البخاري أيضاً: «باب هل يعفى عن الذمي إذا سحر، وقال ابن وهب: أخبرني يونس، عن ابن شهاب، سئل: أعلى من سحر من أهل العهد قتل؟ قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قد صنع له ذلك فلم يقتل من صنعه، وكان من أهل الكتاب»(٣).

والقتال إنما شرع في الإسلام أولاً لحفظه وردع العدوان عليه من الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ولحفظ بيضته وحقن دماء أهله.

وشرع ثانياً لإيصاله لأهل الأرض قاطبة وكسر كل الحواجز المعيقة لوصوله للناس كي يبصروا نور الله وهدى الله ثم يقررون بمحض إرادتهم الدخول فيه إن شاءوا أو البقاء على أديانهم وما هم عليه.

«لقد انتضى الإسلام السيف، وناضل وجاهد في تاريخه الطويل لا ليكره أحداً على الإسلام؛ ولكن ليكفل عدة أهداف كلها تقتضي الجهاد.

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٤٢٨).
(٢) انظر: فتح الباري (١٦/ ٨١).
(٣) المصدر السابق (١٢/ ٢٦٦).

• جاهد الإسلام وأهله أولاً ليدفع عن المؤمنين الأذى والفتنة التي كانوا يسامونها وليكفل لهم الأمن على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم، وقرر ذلك المبدأ العظيم ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾، ففي هذه الآية جعل القرآن العظيم الاعتداء على الدين الحق وإيذاء أهله لفتنتهم وصرفهم عنه أشد من الاعتداء على الحياة ذاتها ـ ومن هنا أخذ الفقهاء مسألة إذا تضايقت الضرورات قدّم الأهم. فإذا تضايقت كلية الدين وضرورته مع كلية الحياة وحفظ النفس قدم ضرورة حفظ الدين والثبات عليه على حساب فقد النفس وذهاب الحياة. فلو ألجئ مسلم إلى الكفر أو يقتل اختار القتل على أن يبقى مسلماً لا يكفر بالله ـ فالدين الحق أعظم قيمة من الحياة وفق هذا النص العظيم.

وإذا كان المؤمن مأذوناً له في القتال ليدفع عن حياته وماله. فهو من باب أولى مأذون له في القتال ليدفع عن عقيدته ودينه.

• وجاهد الإسلام ثانياً لإيصال الحق والخير للناس وإزالة العقبات من طريق إبلاغ هذا الخير وإيصال هذا الحق للناس كافة كما جاء من عند الله للناس كافة، فقد جاء الإسلام بأكمل تصور للوجود والحياة، وبأرقى نظام لتطوير الحياة، جاء بهذا الخير ليهديه إلى البشرية كلها. وليبلغه إلى أسماعها وإلى قلوبها. فمن شاء بعد هذا البيان والبلاغ فليؤمن ومن شاء فلا. فلا إكراه في الدين كما تقرر آنفاً.

• وجاهد الإسلام ثالثاً: ليقيم في الأرض منهجه وحكمه الذي أنزله الله تعالى وارتضاه ولا يقبل ديناً سواه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥] ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠]، ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٣]،

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وفي نظام الإسلام وحده تتحقق حرية الإنسان. لأن الإسلام وحده هو الذي يقرر أن هناك عبودية واحدة لا غير هي العبودية لله الكبير المتعال، كما قررناه آنفاً.

فليس في الإسلام فرد أو طبقة أو جماعة تشرع للناس أحكاماً وتستذلهم عن طريق هذا التشريع. في الإسلام التشريع وأحكامه حق لله الواحد الأحد، والجميع بدون استثناء يتجهون إلى الله وحده بالخضوع والطاعة والعبودية»(١).

• **الأمر الثالث:**

مما تصان فيه النفس الإنسانية في التشريع الإسلامي هو حفظها، وصيانتها من العدوان عليها بالقتل وإزهاقها وحرمانها الحياة ظلماً وعدواناً.

دبّت الحياة في هذه الأرض بعد أن أهبط الله تعالى أبانا آدم عليه السلام، وأمنا حوّاء إلى هذه الأرض؛ لتكون مستقراً للبشر، ومتاعاً إلى حين.

قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: ٣٦].

وعظّم الله ـ الخالق العظيم ـ شأن الحياة التي هي نفخة كريمة من روحه في الطين اللازب، وجعل الحياة آية كريمة من آياته العظيمة المبرهنة على عظمة الخالق تعالى وقدرته وكماله وجلاله.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم: ٢٠].

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٢٩٣ ـ ٢٩٦) بتصرف واختصار.

ولتعظيم شأن الحياة وتكريمها؛ لأنها نفخة كريمة من روح الله ـ الخلاق العليم ـ أمر الله تعالى الأملاك الكرام والأرواح العظام، وفيهم جبريل ـ روح القدس ـ وميكائيل ـ صاحب القطر والمطر والسحاب، وإسرافيل ـ صاحب النفخ في الصور لبعث الحياة مرة أخرى ليوم المعاد ـ أمرهم جميعاً بالسجود لهذا الطين اللازب بعد أن صار بشراً سوياً بأن نفخ الله فيه من روحه.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٣].

وكان أول ذنب عُصي الله تعالى به في هذه الأرض، وأول جريمة ارتُكبت: هي جريمة العدوان على هذه النفخة الكريمة من روح الله ـ الخلاق العليم ـ.

إنها جريمة القتل، وإزهاق النفس البريئة، وإراقة الدم الحرام، وذلك في قصة ابني آدم «قابيل وهابيل».

ولعظيم أمرها، وشناعة إثمها، وفحش خطيئتها ذكرها الله تعالى في كتبه المنزلة على أنبيائه الكرام.

قال الله تعالى في كتابه الحكيم: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٣١].

وفي التوراة التي بأيدي يهود والكتاب المقدس العهد القديم عند النصارى نجد النص الآتي: «وقال قاين لهابيل أخيه: لنخرج إلى الحقل. فلما كانا في الحقل، وثب قاين على هابيل أخيه فقتله. فقال الرب لقاين: أين هابيل أخوك؟ فقال: لا أعلم أحارس لأخي أنا؟. فقال: ماذا صنعت؟! إن صوت دماء أخيك صارخ إليَّ من الأرض، والآن فملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دماء أخيك من يدك، وإذا حرثت الأرض فلا تعود تعطيك ثمرها تائهاً شارداً تكون في الأرض...»(١).

ثم بعد أن ذكر الله تعالى جريمة القتل الأولى عقّب تعالى بتحذير الناس عموماً وبني إسرائيل خصوصاً من خطورة سفك الدماء، وإزهاق النفوس البريئة.

وخص بني إسرائيل بذلك لعلمه بكثرة ما سيفعلون من هذه الجريمة التي طالت حتى الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

فقال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة: ٣٢].

نعم؛ لقد أسرف بنو إسرائيل عبر تاريخهم في الدماء كثيراً كما قال الله تعالى عنهم.

في إنجيل متى الحواري: «أيها الحيّات أولاد الأفاعي، كيف لكم أن تهربوا من عقاب جهنم؛ من أجل ذلك هاأنذا أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبه، فبعضهم تقتلون، وتصلبون، وبعضهم في مجامعكم

---

(١) الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر التكوين. الإصحاح ٤ (٧ ـ ١٦).

تجلدون ومن مدينة إلى مدينة تطاردون حتى يقع عليكم كل دم زكي سُفك في الأرض، من دم هابيل الصّدّيق إلى دم زكريا بن بركيا الذي قتلتموه بين المقدس والمذبح، «الحق أقول لكم: إن هذا كلّه يقع على هذا الجيل»[١].

وفي **إنجيل لوقا**: «ولذلك قالت حكمة الله: سأرسل إليهم الأنبياء والرسل وسيقتلون منهم، ويضطهدون، حتى يُطَالَب هذا الجيل بدم جميع الأنبياء الذي سُفِكَ منذ إنشاء العالم، من دم هابيل إلى دم زكريا الذي هلك بين المذبح والهيكل. أقول لكم: أجل؛ إنه سيطالب به هذا الجيل»[٢].

فحكم الله في القرآن والإنجيل: أن من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً. ومن أحياها واستبقاها فكأنما أحيا الناس جميعاً.

قال **الإمام الحسن البصري** رَحِمَهُ الله: «إن قاتل النفس الواحدة يصير إلى النار، كما لو قتل الناس جميعاً»[٣].

وأخرج الإمام البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقْتَل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها؛ لأنه أول من سن القتل»[٤].

فهذا أعظم ما يكون في حفظ النفس البريئة، وعصمة الدماء المعصومة في التشريع الإسلامي النبيل.

ونختم البحث مع «رِكلدس» في شأن الجهاد في الإسلام بما دبّجته

---

(١) الكتاب المقدس، العهد الجديد، إنجيل متى (٢٣/ ٣٣ ـ ٣٦).

(٢) المصدر السابق، إنجيل لوقا (١١/ ٤٩ ـ ٥١).

(٣) تفسير الطبري (٤/ ٥٤٠ ـ ٥٤١)، وانظر فتح الباري (٢٦/ ٨).

(٤) البخاري (٦٨٧٦).

الكاتبة الألمانية الشهيرة «زغريد هونكه»[١]، في كتابها: «الله ليس مثله شيء»، الكشف عن ألف فرية وفرية عن العرب».

وتحت عنوان: انتشار الإسلام هل كان بالسيف والنار؟

تقول «هونكه»: «الحقيقة أن العكس هو الصحيح، إذ إن التسامح العربي هو السبب الرئيس لانتشار الإسلام على الرغم من المزاعم المتشددة ضده، ولم يكن رجال الدين المسيحي وحدهم هم الذين لم يقتنعوا بذلك، فما زال مسيحيو الغرب بعد مرور اثني عشر قرناً ميلادياً متمسكين بهذه المزاعم حتى اليوم، ومتمسكين بالحكايات المختلقة والخرافات وما زال ثمة من يُبّر عن ذلك بالكلمة في الصحف والكتب وبالرأي المعلق وبأجهزة الدعاية الحديثة، يزعمون أن الجيوش العربية «بعد موت محمد» نشرت الإسلام بالنار والسيف، من نهر الهند إلى المحيط الأطلنطي، وقد أصبحت هذه المقولة في كل هذه المجالات، وعلى جميع المستويات عبارة مكررة على الرغم من أنها تخالف الحقيقة التاريخية وتخالف الواقع، فـ «لا إكراه في الدين».

وقد ورد هذا في القرآن الكريم بسورة البقرة في الآية السادسة والخمسين بعد المائتين، لقد كان هدف فتوحات الجيوش العربية هو بسط السيادة الإلٰهية في الأرض، وليس نشر العقيدة الإسلامية، فالعكس صحيح، إذ ظل المسيحي على دينه، واليهودي على دينه، كما كان قبل فتح هذه البلاد، ولم يمنعهم أحد أن يقيموا شعائر دينهم، ولم يضار

---

(١) أستاذة علم الأديان والفلسفة، وعلم النفس، وعلم النفس الاجتماعي للشعوب، الألمانية «زغريد هونكه»، حصلت على الدكتوراة سنة ١٩٤١م، وتزوجت من المستشرق الألماني الدكتور: «بيتر شولتز» وهي مؤلفة الكتاب الشهير «شمس الله تسطع على الغرب»، توفيت سنة (١٩٩٩م). انظر: مقدمة كتابها «الله ليس كمثله شيء»، تقديم: محمد عوني عبد الرؤوف (١٠ ـ ٢١).

قساوستهم أو كهنتهم أو كنائسهم ومعابدهم، ولم يتعرض أحد لعباداتهم.

وقد قيل: إن الفاتحين الحكام الجدد جعلوا احتفاظ الشعوب الخاضعة لهم بدينهم أمراً صعباً لأنهم فرضوا الجزية عليهم، وكانوا يسقطونها عن الذين يعتنقون الإسلام.

والحق أن معتنقي الديانات الأخرى ـ مثل المسيحية واليهودية والصابئة ـ هم الذين دخلوا الإسلام تأثراً بحضارة الفاتحين، ولافتتانهم بذلك أطلقوا على أنفسهم أيضاً أسماء عربية ولبسوا الملابس العربية، وقلدوا العرب في تقاليدهم، بل تعلموا العربية، واتبعوا مراسيم العرب في الزواج، والنطق بالشهادتين، ولم يجذبهم إلى العرب كرمهم وتسامحهم فحسب؛ بل جذبهم أيضاً أسلوب معيشتهم، والتمدين العربي، ولا سيما الظُّرْف، والكرم، والمروءة، وجمال الطبع، وكان لهذا له قوة جذب لا تقاوم.

لقد شهد الآباء المسيحيون بالأندلس حانقين، المد الروحي العربي الذي نَعم به رعاياهم المسيحيون طواعية، وقد تحسَّر عليه «ألفارو» أُسْقُف قرطبة بكلماتٍ مؤثرة إذ قال: «قرأ كثير من إخواني في العقيدة أشعار العرب وقصصهم، ودرسوا كتب علماء الدين والفلسفة المسلمين، ليس لمعارضتها وإنما ليتعلموا منها كيف يكون التعبير باللغة العربية بأسلوب صحيح رشيق، واليوم أين نجد واحداً من غير رجال الدين يقرأ شرحاً أو تفسيراً للكتب باللغة اللاتينية؟ من منهم يدرس الأناجيل وكتب الأنبياء، أو كتب الرسل، آهٍ، إن المسيحيين الشباب الذين يلفتون إليهم الأنظار ببراعتهم لا يعرفون إلا اللغة العربية، والأدب العربي، ويدرسون الكتب العربية بحماس، ويبذلون أموالاً وفيرة في اقتناء مكتبات كبيرة لهذه الكتب، ويذيعون في كل مكان بصوت عالٍ أن الأدب العربي جدير بالاهتمام والتقدير».

لقد كان سحر أسلوب الحياة العربية هو الذي اجتذب الفرسان الصليبيين بعد زمن قصير من وجودهم بالمشرق، ويشهد بذلك الفارس الفرنسي «فولشرفون شارترز» وراح يعبر في زهو عن إحساسه، وكان قد وقع أسيراً للسحر الغريب لذلك العالم العجيب ويتساءل: «ما الذي يضطرهم إلى العودة إلى الغرب الكئيب بعد أن أنعم الإله علينا بالوجود بالشرق بدلاً من الغرب»[(١)].

وبعد فهذا تقيم لكتاب «ضد شريعة المسلمين» الذي كتبه هذا القسيس «رِكُلْدُس دي مُونتي كُروتشِي».

وهذا التقييم يكتبه ببراعة أحد القارئين له بدقة وهو أستاذ اللاهوت الألماني «لودفيغ هاغمن».

يقول هاغمن تحت عنوان: كتاب جدلي تلفيقي: «وقد خلف «رِكُلدس» بكتابه «ضد شريعة المسلمين» للعالم من بعده، كتاباً في الجدل المذهبي والعقيدة، يُعد قليل الأصالة في نوعه، ولا يكاد يتميز من المخلفات الأخرى من نوعه، وهو يهدف إلى دحض المواقف القرآنية على أساس افتراض أوَّلي في صحة العقيدة المسيحية واللاهوت المسيحي، وإلى الكشف عن دُونيّة القرآن بالنسبة إلى رسالة الإنجيل، وفي ضوء قناعاته الخاصة ولاهوته الخاص، مع ارتباط ذلك بتجاربه وخبراته التي اكتسبها في الشرق، يتصدى «ركلدس» للقرآن ليتمكن كما يظن، من الكشف عن مواطن ضعفه، ولكي يدع بهذه الطريقة، تفوق الرسالة الإنجيلية الذي هو بنظره بَدَهي، يشرق بنوره على نحو أكثر إقناعاً، وعلى هذا المنهج لا يمت كتاب «ركلدس» بصلة إلى الظاهرة النقدية، ولم يكن هذا المنهج يدخل في اهتمامات «رِكلدس» أيضاً على

(١) كتاب: الله ليس كمثله شيء، ألّف فرية وفرية عن العرب (٨١ ـ ٨٣)، ترجمة: محمد عوني عبد الرؤوف المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى ٢٠١٠م.

الإطلاق، بل كان منهجه بالأحرى هو: أن يكشف بالانطلاق من القرآن نفسه عن حجج تخدم حجية رسالة الإنجيل ليقدمها إلى إخوانه، وكذلك حاول أن يستخرج دفاعاً عن العقيدة المسيحية التي يفترض متانتها الثابتة بطريق الاستنتاج أو بحكم البدهية، والمقياس الوحيد للعثور على الحقيقة عند «ركلدس»، اعتقاده الخاص، فهو عنده المقياس والخيط الموجّه لفهمه للقرآن، ولكن هذا لم يكن كافياً، وذلك أن «ركلدس» ينتظم بكتابه «ضد شريعة المسلمين»، فوق ذلك انتظاماً محكماً في صفوف الجدل المذهبي المعادي للإسلام الذي جاء به قبله الكتّاب المسيحيون في القرون الوسطى، وما من شك في أن الأحوال السياسية التي كانت سائدة في الشرق وتجاربه هناك قد وجدت انعكاساً لها في كتاب «ضد شريعة المسلمين»، وقد أدى انتشاره في الغرب إلى أن طبع بطابعه، فهم الأجيال القادمة من المسيحيين للإسلام، ولم يكن ذلك في الاتجاه الأفضل على الخصوص كما تبين بعد ذلك»[١].

❁ ❁ ❁

---

(١) مسيحية ضد الإسلام (١٠١ ـ ١٠٢).

ريموند لولّوس أو ريمون لول

«Ramon Liul»

ريموند لولّوس أو ريمون لول
«Ramon Liul»

ريموند لولّوس، راهب أسباني من طائفة الرهبنة الثالثة «الفرنسيسكان»[١]، يُعد من أعظم المبشرين بالنصرانية بين المسلمين بأسبانيا وعموم أوروبا في القرون الوسطى، وكان نشاطه التبشيري يتوزع بين: الجهود العملية للدعوة إلى النصرانية، وبين الكتابات الكثيرة، والمؤلفات العديدة بهذا الاتجاه.

ولد ببلدة «بالما»، من أعمال مدينة «ميورقة» الأندلسية سنة (١٢٣٢م).

وكانت «ميورقة» يعيش فيها المسلمون والنصارى واليهود أيضاً، وقد غزاها الملك النصراني «يعقوب الأول «Jakob I» ملك الأرغون عام (١٢٣١م) وخرجت من حكم المسلمين إلى حكم النصارى، وتزعم المراجع المسيحية: أن المسلمين واليهود والنصارى كانوا يعيشون حياة مشتركة تحت الحكم المسيحي، كل على طريقته.

---

(١) هي طائفة تُعرف «بالرهبنة الثالثة»، و«الفرنسيسكان» أسسها القديس «فرنسيس الأسيزي»، توفي سنة (١٢٢٦م) يأخذون أنفسهم بشدة الفقر، وبساطة العيش، ولهم نشاط دؤوب في الدعوة إلى النصرانية، انظر عنهم: المجمل في تاريخ الكنيسة الجامعة للأب أنطون الفرغاني (٧٤).
وأوثق تاريخ لهم جمعهم هو كتاب: أخبار القدّيسين الفرنسيسكان، تأليف: الأب أرتوروس الفرنسيسكاني، انظر مجلة الشرق الكاثوليكية (١٨٩٨م) عدد رقم (١) (١١ ـ ١٣).

يقول المؤرخ «أويلر» «W.A.Euler»: «إنه لا يكاد توجد حقبة من التبادل في مجال البحر المتوسط كان فيها هذا التبادل أكثر تكثيفاً بين الديانات التوحيدية الثلاث الكبرى مما وُجد في إسبانيا وميورقة في القرن الثالث عشر الميلادي»[١]، وهي الفترة التي عاش فيها هذا الراهب الفرنسيسكاني ريموند لولّوس.

انضم «لولّوس» لنظام الرهبنة الثالثة «الفرنسيسكان»، في مرحلة مبكرة من حياته وكان مشروعه الذي نذر حياته له، هو التبشير بين المسلمين لتحويلهم إلى اعتناق المسيحية، وبذلك يكون عضواً نشطاً في تراث الفرنسيسكان والدمنيكان كأسلافه «توما الأكويني»، و«رِكُلْدُس كروتشي»، وغيرهم من المنضمين إلى هذه المنظمات والجمعيات الرهبانية[٢].

تعلم العربية على يد: مملوك مسلم، وأسس بعد أول معهد بأوروبا للّغات الشرقية[٣]، والذي يعد النواة الأولى لمعاهد ومؤسسات لاحقة كانت هي المراكز الأولى للأعمال الاستشراقية.

قام برحلات تنصيرية في إسبانيا وتونس والجزائر والمغرب وغيرها.

أفاد الدكتور: محمد العسري أنه اطلع على وثائق بقرارات للملك

---

(١) نقلاً عن: الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، للأب: مايكل بَرير، (١٥٩)، ترجمة: أحمد الجمل وزياد منى، دار قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ط. الأولى، ٢٠٠٣م.

(٢) لحياة «ريموند لولّوس» انظر: تاريخ التسامح في عصر الإصلاح، جوزيف لوكلير (٩٩)، والإسلام في تصورات الاستشراق الأسباني، د. محمد العسري (١٢٢ ـ ١٢٥)، ومسيحية ضد الإسلام، لودفيغ هاغمن (١٠٢ ـ ١٠٣)، والمخطوطات العربية لكتبة النصرانية للأب لويس شيخو اليسوعي (١٠٧ ـ ١٠٨).

(٣) انظر لهذا: كتاب: المستشرقون، د. نجيب العقيقي (٣/ ١٢٢) وما بعدها.

النصراني «خايمي الثاني» صاحب «أراغون» بشأن السماح والدعم المشروع «ريموند لولوس» التنصيري في بلاد المسلمين شمال أفريقيا(١).

ودرس الفلسفة وله مقارعات علمية ضد الفلاسفة الإسلاميين خصوصاً «ابن رشد» والرشدية نظراً لشهرتها في الغرب وأسبانيا خصوصاً، ولذلك تبوأ مكانة مرموقة لدى رهبان النصارى نظراً لهذه الجهود العلمية والتنصيرية، ويرى الدارسون لمؤلفاته وفكره أنه يتسم بالقصور في فهم مضامين الإسلام والقرآن مع المبالغة في مدح نفسه وأنه الخبير بها، العارف لحقائقها.

ويمكن أن نجمل مصادر التلقي للفكرة الإسلامية عند «الولوس» فيما يلي:

(١) اطلاع نسبي ومجتزأ للقرآن الكريم، وشيء من الحديث النبوي الشريف والسيرة النبوية.

(٢) له اطلاع جيد على مؤلفات وفكر «محيي الدين ابن عربي» وينقل نصوصاً كاملة منه في مؤلفاته، وهو متأثر إلى حد كبير بفكرة ابن عربي في وحدة الوجود، ووحدة الأديان أيضاً.

مع تعديل وتحوير قدمه «لولوس»، وهو أن الأديان كلها يمكن صهرها في العقيدة المسيحية الشاملة.

يدل على ذلك بوضوح هذا النص منه، يقول «لولّوس» «ولما كنا جميعاً، مهما يبلغ من كثرتنا، لا نؤمن إلا برب واحد، فمن الواجب أن يكون لنا نحن جميعاً أيضاً معتقد واحد فقط، وديانة واحدة، هي العقيدة المسيحية المقدسة»(٢).

---

(١) الإسلام في تصورات الاستشراق الأسباني (١٢٤).

(٢) نقلاً عن كتاب: مسيحية ضد الإسلام (١٠٣)، وهو نقل من كتاب لريموند لولوس اسمه كتاب: الأدلة.

يعلّق «هاغمن» على هذا النص فيقول: «كان تمزق البشرية وتفرقها لدى «ريموند لولّوس» دافعاً هاماً للبحث عن ذلك المثال التوحيدي الذي يربط بين الناس جميعاً برباط أساسي، وهذا البحث يشمل الاجتهاد الفكري، مثلما يشمل الصراع على البقاء في سبيل الوحدة والسلام بين البشر قاطبة؛ أي: بين أديانهم ومجموعاتهم السكانية، إنه الحنين العميق إلى إعادة إقامة تلك الوحدة الأصلية بين الشر جميعاً، التي تجد أصلها في الرب خالقها، وبرأي «الولّوس»، فإن ما ينشيء هذه الوحدة هو التفاهم والانسجام في جامعة واحدة «Concordatia in una Lege»[1].

وهذه القضية «وحدة الوجود» عند «ابن عربي»، كما هي عند «لولّوس» لها عمقها الفلسفي في الفلسفة الأفلاطونية خصوصاً عند «أوغسطين»[2].

وهي تقوم على: أن أول الموجودات هو الخير، وثانيها العقل الذي صدر عن الله، والذي يحتوي على نماذج الموجودات وهي المُثُل، وعندما يتجه العقل إلى نفسه تصدر عنه النفس، ولما كانت الأعداد والأنواع موجودة في العقل، فالنفوس الفردية موجودة في هذه النفس الأولى: بعضها يظل قائماً فيها، وبعضها يتحد بالجسد، وفي أثناء هبوط النفس والبدن تمر بعالم الأفلاك، وكل فلك يرمز إلى فضيلة أو استعداد إلى مَلَكَة، وبفضل ما للنفس من ملكة عقلية تحتفظ بمعرفة الله، وتتحد به عن طريق ممارسة الفضائل التي تندرج من أدنى إلى أعلى في أربع

(١) مسيحية ضد الإسلام (١٠٣).

(٢) هو: القديس أوغسطين، ولد سنة (٣٥٤م) بالقرب من مدينة عنابة بالجزائر، من أتباع الأفلاطونية، له العديد من المؤلفات، انظر ما كتبه عنه، د. حسن حنفي في: نصوص من الفلسفة المسيحية (١١ ـ ٣٢).

مجموعات (الحذر ـ القوة ـ الاعتدال ـ العدل)، والفضائل المطهّرة التي تخلص الروح مما يبعدها عن التأمل، ثم الفضائل المثالية الباطنية في العقل الإلٰهي كنماذج للأشياء المخلوقة[١].

يقول أستاذ اللاهوت الألماني «هاغمن»: «ويكمن وراء هذا التطلع إلى الوحدة ذلك المثال الوحدوي العائد إلى القرون الوسطى، كما يتجلى للعين في مبدأ النظام والتفكير اللذين يعودان إلى أصل أفلاطوني جديد «أغسطينوسي» فبانطلاق هذا من نظام موجود في الانتظار بحكم كون هذا من السمات الجوهرية للواقع، يتم الاستدلال على وجود خالق منظِّم، يكون هو الأصل، وينظر إلى وحدة العالم على أنها صورة لوحدة خالقه، ولأن الله واحد، فإنه لا يمكن أن يوجد إلا عالم واحد، وبشرية واحدة على أساس بنية النظام المفترض، وهذا المبدأ الوحدوي يوجد بطريقة مماثلة أيضاً في التفكير الإسلامي ـ ابن عربي[٢] ـ... ومن الممكن أن يكون هذا التصور الخاص بالوحدة الأصلية للبشرية والوحدة الغابرة لديانتها، قد انطبعت بطابعها رغبة «ريموند لولّوس» في الوحدة متجاوزة آفاق ما يسمى بفكر النظام»[٣].

فيكون «ابن عربي» بنظريته في «وحدة الوجود» قد مثّل مرحلة فكرية وسيطة، بين الأفلاطونية الأوغسطينية، وبين هذا الراهب المنصّر «ريموند لولّوس»، وهو سبب كثرة نقله عن ابن عربي في كتبه.

---

(١) انظر: نصوص من الفلسفة المسيحية، د. حسن حنفي (١٣ ـ ١٤) باختصار.

(٢) يقصد فكرة ابن عربي عن وحدة الوجود، وليست هي من الإسلام في شيء؛ بل هي فكرة غاية في الإلحاد والكفر، انظر لمعرفتها وحكم الإسلام فيها: الوصية الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية كاملة، وكذا كتابه: بغية المرتاد في الرد على أهل الزندقة والإلحاد، والمعروف بالسبعينية وغيرها.

(٣) مسيحية ضد الإسلام (١٠٣ ـ ١٠٤) باختصار.

(٣) وأخذ كذلك معلوماته عن الإسلام والقرآن من مملوكه الذي درس عليه العربية وهو مغفل الاسم، مجهول الهوية.

(٤) اطلع «ريموند لولّوس» على رسالة عبد المسيح بن إسحاق الكندي ـ السالف ذكرها في فصل سابق، يذكر الدكتور: محمد العسري: «أن رامون لولوس، ذكر في كتابه المعنون بـ «كتاب الغاية» أنه قد قرأ رسالة عبد المسيح الكندي المذكورة»[١].

• موقف «ريموند لولّوس» من القرآن الكريم:

الأصلان الأساسيان في اللاهوت المسيحي الذي يريد «لولّوس» أن يجمع الديانات عليها هما: التثليث، والتجسد.

وهي نفس المشكلة العويصة التي واجهت من قبله القديس «توما الأكويني»، وجرّد لتقريبها، ومحاولة عقلنتها، خلاصة بحوثه، ومطولات كتبه خاصة: «الخلاصة اللاهوتية» و«الخلاص ضد الأمم» وكذلك كتابه «منطق الإيمان» كما مر المدارسة معه في ذلك، والتي من أجلها اصطدم «توما» مع القرآن الكريم، لكون القرآن كان واضحاً وحاسماً وقاطعاً في إبطال التثليث، وكذلك في نفي قتل المسيح وصلبه وهي جذر فكرة التجسد.

تعود نفس الإشكالية مع هذا المنصّر المتهالك في الدعوة إلى النصرانية، مستحضراً فكرة وحدة الأديان، بل وحدة الوجود، واستحالة الوجود الإلٰهي في الوجود العيني، فإنه قطعاً سيصطدم بالقرآن الكريم، الرافض بقوة والمبطل بوضوح للتثليث، وفكرة التجسد والصلب والفداء، واتحاد الخالق الأحد الصمد بالمخلوق المربوب.

والحقيقة أن «ريموند لولّوس»، مهما تظاهر بالانفتاح، إلا أنه

(١) الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني (١٢٥).

يخفي هدفاً صليبياً وراء مشروعه كله من العدائية الصارخة للإسلام والقرآن والمسلمين، فبالرغم من أن الفترة التي كان فيها يجوب شمال أفريقيا للترويج للنصرانية، كانت فترة فتور في الحروب الصليبية التي شنتها أوروبا الصليبية على المشرق الإسلامي عبر عشرات السنين التي خلت، إلا أن «لولّوس» يقدم مشروعه التنصيري للبابا[١]، وملوك أوروبا، فإن تنصّر المسلمون، وقبلوا بالمسيح المخلص ابن الله، وإلا أرغموا على ذلك بالحرب والسيف، في استنساخ لمشروع سلفه «توما الأكويني» صاحب تلك الجدليات لتقريب رسالة الإنجيل للمسلمين، فإن أفاد ذلك وإلا فإن «توما» هو واضع أسس ما سماه «الحروب العادلة» ضد المسلمين، كما مر ذكره.

تتجلى هذه الروح الصليبية عند «لولّوس» بوضوح من خلال مذكرة كتبها «ريموند لولّوس» وقدمها للمجمع المسكوني المنعقد في «فيينا» عام (١٣١١م)، قبل وفاته بنحو أربع سنوات.

يسوق لنا نص تلك المذكرة دارس ومؤرخ عصر الإصلاح، أستاذ العلوم الكنسية في الجامعة الكاثوليكية بباريس «جوزيف لوكلير» في كتابه الشهير «تاريخ التسامح في عصر الإصلاح».

ففي مذكرة «ريموند لولّوس»: «للكنيسة الكاثوليكية سيفان، كما هو مذكور في الإنجيل: سيف زمني، يفيد المعنى الشائع المتداول[٢]، وسيف روحي، يتمثل في العلم والعبادة، بهذين السيفين تمتلك الكنيسة كل ما يلزم لرد الكفار[٣] كلهم إلى جادة الحقيقة، وعليه، فإن بمستطاع البابا، أولاً: أن يرسل إلى المسلمين والأتراك والتتر رجالاً حكماء

(١) هو: البابا نيقولاس الرابع.
(٢) يعني: الحرب والقتال من أجل المسيح.
(٣) يقصد المسلمين.

ومتبصرين مستعدين للموت، فيبيّنوا أخطاءهم ويعلنوا لهم حقيقة الإيمان الكاثوليكي المقدس بانتظار أن يتقدموا من تلقاء ذواتهم إلى المعمودية، أما في حال المقاومة العنيفة فلا مندوحة للبابا من استعمال السيف العلماني ضدهم»[١].

يُعلق «لوكلير» متعجباً من «لولّوس» الذي يقدم نفسه دعاية حوار ونقاش: «يمكننا أن نسوق في هذا الاتجاه شهادة الطوباوي[٢] «ريموند لولوس»، في بداية القرن الرابع عشر، يوم كانت الحماسة للحروب الصليبية قد مُنيت بفتور ظاهر يصب في مصلحة المشروع التبشيري، هذا الفرنسيسكاني الشهير الذي ينتمي إلى الرهبنة الثالثة، هو أحد المتحمسين الذين يندفعون منادين بالوسائل السلمية والنقاشات الدينية مع المسلمين، وقد كان ينصح بهذا الخصوص في مجمع «فيينا» عام (١٣١١م) لذا يبدو محيّراً أن يوصي مدافع عن النقاش والحوار، بالحروب الصليبية من أجل ردّ الوثنيين، على أننا في حواره نقع على مقطع غريب ترد فيه الرسالة التبشيرية متلازمة مع الحروب الصيبية»[٣].

يسجّل الباحث الألماني «لودفيغ هاغِمن» هذه الحقيقة: «على أن نقطة التحول في حياة «لولّوس» أنه في عام (١٢٩٢م)؛ أي: قبل رحلته إلى تونس عام (١٢٩٣م)، ذلك أنه توجه بالتماس إلى البابا «نيقولاس الرابع»، ربط فيه لأول مرة أنشطته التبشيرية التي كان هدفها المعلن رد غير المسيحين، بمشروع حملة صليبية لاستعادة الأرض المقدسة، وربما أمكن أن يكون الحافز إلى ذلك سقوط «عَكّا» في الثامن من أيار

---

(١) كتاب: تاريخ التسامح في عصر الإصلاح (١١٥).

(٢) الطوباوية: هي المُثُل والفضائل الخيالية على الطريقة الأفلاطونية.

(٣) تاريخ التسامح في عصر الإصلاح (١١٥).

عام (١٢٩١م)[١]، ذلك لأن خسارة عَكّا، وما جرى بذلك من سقوط نقطة الارتكاز المسيحية الأخيرة في فلسطين هَزَّ المسيحية هَزّاً ويُدْخل «الولوس» ذلك في حسابه عندما يتحدث بعد عام من الحزن الذي يهز مشاعر الناس جميعاً بسبب خسارة الأرض المقدسة، ومن الواضح الجلي أن هذا الحدث الحاسم قد حمله على التفكير ومراجعة أفكاره الاستراتيجية بصدد الكيفية التي يجب مواجهة الإسلام بها مراجعة جدّية، وبالانطلاق من عملية التأويل المعدّل يتبين انعطافه وتحوله من حوار الطرشان إلى المشادّة، وحتى الوصول إلى النوايا بالحملة الصليبية»[٢].

لذلك فإن «ريموند لولّوس» يصطدم مع القرآن الكريم بناءاً على ذلك.

يملك «لولّوس» اطلاعاً لا بأس به على القرآن الكريم لكونه تعلم العربية بصعوبة من مملوك له «موريسكي»[٣].

سلك «لولّوس» منهجين مختلفين، لا بل متناقضين، تماماً كما صنع سلفه «توما الأكويني» من قبل.

المسلك المنهجي الأول: في تقريره للعقيدة المسيحية خصوصاً في موضوعي: التثليث والتجسّد.

يطالب «لولّوس» بالتسليم لنصوص الأناجيل، وعدم التعرض لها، أو الاعتراض عليها، ولو لم يتمكن العقل من فهمها أو استيعابها؛ لأن الإيمان لا يؤخذ من التحليل العقلي بل من نص الكتاب المقدس.

---

(١) يعني: استعادة المسلمين مدينة عكا من أيدي الصليبيين، انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١٣/٣١٩).

(٢) مسيحية ضد الإسلام (١٠٥ ـ ١٠٦).

(٣) الموريسكيون: هو اللقب أو الاسم الذي كان يطلقه النصارى الأسبان على المسلمين بأسبانيا. انظر كتاب: الموريسكيون الأسبان ووقائع طردهم للأسقف: دون باسكوال بورنات، ترجمة د.كنزة الغالي.

المسلك المنهجي الثاني: وهو مسلك مناقض تماماً للأول؛ لأنه في خاصة مجادلته للمسلمين وللقرآن الكريم، يدعو إلى تجاوز نصوص القرآن وتأسيس العقائد على العقل والتحليل العقلي، ليخرج بنتيجة يوظفها في نقض القرآن كما يريد.

من أجل ذلك يظل «لولّوس» يعود المرة بعد الأخرى إلى العقل «Vernunft» ونجده يضع هذا المدخل الجدلي لمناقشاته واعتراضاته على القرآن الكريم:

«الكفار لا يَحْفلون بأقوال المؤمنين، بل يهتمون على سبيل الحصر بالأسباب العقلانية»[(١)].

وبالتالي يرى «لولّوس» أن مخاطبة العقل وحده هو القاسم المشترك بين الديانات، وهو أساس الحوار لذلك هو يطالب المسلمين بعدم الرجوع إلى المرجعيات النصية في القرآن لتحديد موقف مسبق من تعاليم النصرانية خاصة في موضوعي التثليث والتجسّد.

يقول «لولّوس»: «إن الاعتماد على المرجعيات؛ أي: على شواهد لا أهمية لها ولا مفعول إلا برأي المؤمنين بديانة معينة، ولا يجوز أن يكون منطلقاً للمناقشة مع غير المسيحيين، بل لا بد من العودة المتواصلة المتكررة إلى الجهة القضائية التي يرجع إليها كل البشر الذين يفكرون... ألا وهي العقل»[(٢)].

والحقيقة أن هذا المدخل لدعوة المسلمين إلى النصرانية، كمدخل

---

(١) كتاب: الملحد والحكماء الثلاثة، نقلاً عن كتاب: الإسلام والغرب لروجيه جارودي (٢٤٠).
أفاد جارودي: أن ريموند لولوس، أراد بالحكماء الثلاثة: حكيم يهودي وآخر نصراني وثالث مسلم، والملحد هو الكافر في تعبيره.

(٢) المصدر السابق.

«وحدة الوجود» الذي استفاده «لولّوس» من ابن عربي، فهذا المدخل الفكري العلمي لمناقشة ونقض القرآن. هو الآخر استفادة «لولّوس» من الفلاسفة والمتكلمين المنتسبين إلى الإسلام خصوصاً «ابن رشد» والرشدية فإن الفلاسفة تجاوزوا نصوص القرآن الكريم في الأمور والعقائد الغيبية باعتبارها قضية ظاهرية على سبيل التخييل وتصوير الغائب بصورة الشاهد، ولذلك لا بد من تدخل العقل لتحديد ما هو الصواب في تصور تلك الغيبيات[١]، وهذا المسلك التأويلي الشديد، وإعطاء العقل مقام الريادة في تأسيس العقائد كما تدعو إليه الفلسفة، هو مدخل «لولّوس» على المسلمين في المطالبة بتنحية نصوص القرآن في الموقف من التثليث، والتجسد النصرانيين.

وعلى هذا الأساس يظن «لولّوس» أنه يمسك بالحجج الأفضل الدالة على صحة العقائد المسيحية بأنها «العقلانيات» التي تفرضها الضرورة، أو ربما سماها «الأسباب العقلانية القاهرة» لتقبل المسيحية، والتي يرى أنه لا بد أن تلقى الاعتراف بل والاحترام معاً من قبل شركاء الحوار من المسلمين الذين يوجه إليهم دعوته ونشاطه الكنسي[٢].

وبعد هذه المقدمة المنهجية التي لا بد منها لفهم مدخل «لولّوس» في نقده للقرآن، نجمل موقف «لولّوس» من القرآن الكريم في هذه الأمور الموجزة؛ لأنها كلها شبهات مكرورة، وتجديفات مجرورة، سبقه إليها من تقدم ذكرهم من قساوسة الكنيسة، وما «لولّوس» إلا واحداً منهم يجترّ ما اجترّوه، ويعيد تكرار ما سبق أن ذكروه.

---

(١) انظر كتاب: درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ٨ ـ ٣٨).

(٢) انظر: مسيحية ضد الإسلام، لهاغِمَن (١٠٤ ـ ١٠٥)، وتاريخ التسامح للوكلير (١١٦).

يتلخص موقف «لولّوس» من القرآن الكريم فيما يأتي:

١ ـ يرى «لولّوس» أن القرآن الكريم، دعوة ملفَّقة، لفّقها النبي ـ ﷺ ـ وأنه أخذ تعاليم القرآن من راهب نصراني كذّاب، متكبر، اسمه «ميكولاو. Miclau» وأنه عاش مذنباً بين الوثنيين العرب، قبل أن يفجأهم ويخبرهم بأنه يوحى إليه[(١)].

واتّكأ كغيره على قصة «بَحيْرا» الراهب هنا تكرار «لولّوس» لنفس تلك الشبهة التي ذكرها كل من سبقه ذكرها يوحنا الدمشقي، وعبد المسيح الكندي، وتوما وغيرهم.

وكل الذي يفعله الواحد منهم هو: أنه يخترع اسماً جديداً لذلك الراهب المزعوم، وقد سبق دراسة هذه الفرية والرد عليها مفصلاً.

يقول «هاغمن»: «هذه الأطروحة الخاصة بتأثر محمد براهب مسيحي تظل، المرة بعد الأخرى تلقى التأييد والاحتضان على مدى التقليد الطويل الخاص بالجدل المذهبي المعادي للإسلام، سواء أكان ذا مصدر بيزنطي أم لاتيني، ومن الممكن أن يكمن أصل تلك الأسطورة عن معلم مسيحي لمحمد كان يوجهه في قصة «بحيرا» العائدة إلى عصر الإسلام الأول...

وفي الروايات البيزنطية واللاتينية اللاحقة يصبح الراهب الأريوسي الذي ورد الحديث عنه عند يوحنا الدمشقي: سرجيوس، ونسطوريوس، وجيوريوس، ونيقولاس، ويوحنا... إلخ، وهو يظهر أيضاً نسطورياً، كما يظهر من أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة، كما يظهر أيضاً آريوسياً، بل يظهر أيضاً مرتداً، حتى مؤلفاً للقرآن، وفي هذا الصدد كان ينظر إليه

---

(١) نقلاً عن كتاب: الإسلام في تصورات الاستشراق الأسباني، للدكتور محمد العسري (١٢٦)، وكتاب: مسيحية ضد الإسلام (١٠٦)، وهما ينقلان من كتاب: الغاية للولّوس.

أكثر ما ينظر على أنه نسطوري، ويصور على أنه مصدر غامض لمعلومات محمد»[١].

وقصة «بحيرا» الراهب، التي اتكأ عليها هؤلاء القساوسة كما قال «هاغمن»، قصة منكرة، وقد فنّد الحافظ شمس الدين الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ هذه القصة سنداً ومتناً ببراعة فائقة، فقال: «وهو حديث منكر جدّاً، وأين كان أبو بكر؟ كان ابن عشر سنين، فإنه أصغر من رسول الله ﷺ بسنتين ونصف، وأين كان بلال في هذا الوقت[٢]؟ فإن أبا بكر لم يشتره إلا بعد المبعث، ولم يكن ولد بعد، وأيضاً؛ فإذا كان عليه غمامة تظلّه كيف يتصور أن يميل فيء الشجرة؟ لأن ظلّ الغمامة يعدم فَيْء الشجرة التي نزل تحتها، ولم نر النبي ﷺ، ذكّر أبا طالب قط بقول الراهب ولا تذاكرته قريش، ولا حَكَته أولئك الأشياخ، مع توفّر هممهم ودواعيهم على حكاية مثل هذا، فلو وقع لاشتهر بينهم أيّما اشتهار، ولبقي عنده ﷺ حِسٌّ من النبوّة، وَلَمَا أنكر مجيء الوحي إليه؛ أوّلاً بغار حِراء، وأتى خديجة خائفاً على عقله ونفسه. . . . وأيضاً فلو أثّر هذا الخوف في أبي طالب وردّه، كيف يمكّنه من السفر إلى الشام تاجراً لخديجة بعد؟ ففي هذه القصة ألفاظ منكرة، تشبه ألفاظ الطُّرقية»[٣].

ثم بحسب قصة «بحيرا»، كان النبي ﷺ لا يزال في سِنٍّ مبكرة جدّاً، وهو إنما بعث نبياً على رأس الأربعين من عُمُره عليه الصلاة والسلام، ثم هو لقاء قصير جدّاً، لم يتجاوز ساعة من نهار، مع حاجز

(١) مسيحية ضد الإسلام (١٦ ـ ٢٧).
(٢) استخدم الحافظ الذهبي في نقد الحديث وبيان نكارته وجود هذه المغالطات في نصّهِ؛ لأن القصة فيها ذكر أبي بكر وبلال، وأنهما كانا مع النبي ﷺ في سفره هذا مع عمه أبي طالب.
(٣) السيرة النبوية (١/٥٨ ـ ٥٩).

اللغة بين بحيرا، وبينه، «فبحيرا» بحسب المصادر النصرانية من النصارى المشارقة السريان، من طائفة النساطرة، وما زال القساوسة «كلولّوس» وكذلك المستشرقون من بعدهم، يعيدون طرح قصة «بحيرا» على أنه سرياني نسطوري، فحاجز اللغة إذن حاجز حقيقي.

ويحاول قساوسة النصارى ومن بعدهم المستشرقون إثبات علاقات وطيدة بين الكنيسة النسطورية، وبين بلاد العرب قبل المبعث النبوي ليكون تأثر النبي العربي بالرهبان النساطرة يأتي في سياق طبيعي، نظراً للعلاقات الوطيدة بين النساطرة والعرب كما يزعمون.

يقول الأستاذ جواد علي: «ومن النساطرة هؤلاء أخذ عرب بلاد العراق، لا سيما منهم أهل الحيرة، العقيدة النسطورية، ومن أهل الحيرة انتقلت النسطورية إلى جزيرة العرب، وغدت السريانية لغة نصارى العرب الطقسية، بها يرتّلون صلواتهم في الكنيسة، وبها يكتبون»[١].

يقول الأب لويس شيخو اليسوعي: «وكان للنساطرة في بلاد البحرين[٢] أساقفة، خصوصاً في «قطر»، وهم يسمونها بيت قطرايا، وقد ذكروا في مجمعهم الذي دعا إليه «الجاثليق يسوعاب» سنة (٥٨٥م)، أهل البحرين المتنصرين، وقد ثبت هؤلاء النصارى على دينهم بعد الإسلام، كما يظهر من مجمع آخر نسطوري عُقد سنة (٦٧٦م)، ومنه يظهر أن بلاد البحرين كانت حافلة بالكنائس والأديرة، ودعاة الدين»[٣].

وهذا مجازفة كاذبة، وتهويل مكشوف من الأب شيخو، والواقع أن «هَجَر» التي هي البحرين كانت قبل البعثة، على المجوسية ديانة فارس، وكذلك بقوا بعد الإسلام، ولذلك صالحهم النبي ﷺ.

(١) المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٦٢٨).
(٢) البحرين في ذاك الوقت تطلق على منطقة هَجَر وهي الإحساء اليوم.
(٣) النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية (٧١).

فأخرج البخاري: «أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذكر المجوس فقال: لا أدري ما أصنع في أمرهم، فشهد عنده عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه: «**أن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر**»[(١)].

وذكر الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله في كتاب الأموال: ستة عشر حديثاً فيها أن النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان والصحابة من بعدهم أخذوا الجزية من مجوس هَجَر[(٢)].

ونقل أبو عبيد عن الإمام التابعي محمد بن شهاب الزهري أنه قال: «**قَبِل رسول الله ﷺ الجزيـة من أهل البحرين وكانوا مجوساً**»[(٣)].

ولا يعرف في بلاد العرب أيام الجاهلية كنائس، حتى الذين تنصروا من قبائل شمال الجزيرة، ومن أشهرها قبيلة «تَغْلِب» فإنما أخذوا من النصارى شرب الخمور، وأكل لحم الخنزير، والاستنصار بالروم والولاية لهم.

ولذلك نشأت مسألة عند الصحابة والتابعين والفقهاء بعدهم، وهي مسألة «نصارى تغلب» نظراً لأنهم لم يأخذوا من النصرانية سوى شرب الخمور وأكل لحم الخنزير.

قال **الإمام الطبري** رحمه الله: «ولذلك حكم من حكم من أهل العلم، لنصارى بني تغلب في ذبائحهم ونكاح نسائهم وغير ذلك من أمورهم، بأحكام نصارى بني إسرائيل، لموالاتهم إياهم ورضاهم بملتهم ونصرتهم لهم عليها، وإن كانت أنسابهم لأنسابهم مخالفة، وأصل دينهم لأصل دينهم مفارقاً»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٣١٥٦، ٣١٥٧).

(٢) انظرها في: كتاب: الأموال (١/ ١٢٠).

(٣) كتاب: الأموال (١/ ١٢٣)، وانظر: كتاب: الأموال لابن زنجويه (١/ ١١٤ ـ ١١٧).

(٤) تفسير الطبري (٤/ ٦١٧)، وأسند عن ابن عباس معنى ذلك.

فظهر بها زيف ما قاله الأب شيخو ومَنْ قبله.

ويزيد جواد علي ضغثاً على إبّالة فيجعل النصرانية عمت شمال الجزيرة العربية وجنوبها وشرقها ووسطها أيضاً.

فيقول: «وصلت «النسطورية» إلى اليمامة، فالأفلاج، فوادي الدواسر بالتبشير بواسطة القوافل التجارية، فقد كانت بين اليمن والحيرة علاقات تجارية وثيقة، وكانت القوافل تسلك جملة طرق في تنمية هذه العلاقات وتوثيقها»[١].

وذهبوا ينسجون القصص عن الرحّالة المبشرين بالنصرانية في الجزيرة العربية، ومن أشهرها خبر «عبد يشوع السائح»، الذي دعا إلى النصرانية باليمامة، في أواخر القرن الرابع الميلادي كما ذكر ذلك القسيس «صليبا بن يوحنّا»[٢].

وزاد الدكتور «لويس صليبا» على كل من تقدمه فقال: «وكان عدد كبير من سكان اليمامة قبل الإسلام نصارى، وملك عليهم قبل الإسلام بقليل «هَوْذَة بن علي الحنفي» الذي أسر قوماً من بني تميم ثم أطلقهم يوم عيد الفصح كما ذكر ابن الأثير في تاريخه فقال الأعشى يمدحه:

بهم يقرب يوم الفصح ضاحية يرجو الإله بما أسدى وما صنعا[٣]

وقد كتب النبي ﷺ كتاباً، لهَوْذَة بن علي الحنفي ملك اليمامة، وأرسله مع سَليط بن عمرو العامري، وليس في كتاب النبي ﷺ لهَوْذَة، ولا في جواب هَوْذَة له؛ أي: ذكر للنصرانية، أو شيء من أمورها

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٦٢٩).
(٢) أسفار الأسرار نقلاً عن: النساطرة والإسلام: جدلية علاقة وتأثر للدكتور لويس صليبا (٢٨).
(٣) الإسلام والنساطرة (٢٨).

وأحوالها على الإطلاق»[١].

٢ ـ عرض «ريموند لولّوس» لسورة الأحزاب؛ لأن الله ذكر فيها أحكاماً، تخص بيت النبي ﷺ خصوصاً ما يتعلق بزواجه عليه الصلاة والسلام بأم المؤمنين زينب بنت جحش وغير ذلك.

حاول «لولّوس»، إظهار أمرين:

الأول: التشكيك في قيمة عدد كبير من آيات سورة الأحزاب، والتساؤل عن قيمة بقائها في القرآن مع أن من تتحدث عنهم لم يعودوا موجودين.

والثاني: القدح السافر في شخص رسول الله ﷺ، وإظهاره بمظهر الرجل الشهواني الشبق كثير النساء، ونحو ذلك من أوصاف.

ليتوصل من ذلك لهدفين:

الأول: التشكيك في كون القرآن الكريم، كتاب منزل من عند الله تعالى.

والثاني: التشكيك في نبوة النبي ﷺ، وأنه لا يمكن أن يكون بذلك نبياً حقيقياً[٢].

وهذه تهمة طالماً لاكها واستخدمها أولئك القساوسة والرهبان، صبغت أكثر إنتاجهم الكتابي خلال القرون الوسطى، وهي تعطينا نظرة واضحة عن سوء الموقف والعلاقة بين المسيحية والإسلام، تبرهن على تلك النظرة المتحاملة جداً، والمتعصبة جداً على القرآن والنبي

---

(١) انظر: زاد المعاد لابن القيم (٣/٦٩٦)، وإعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين لمحمد بن طولون الدمشقي (١٠٩)، والمصباح المضيء لابن حُدَيْدة الأنصاري (٢/٢٩٧) وغيرها.

(٢) انظر: الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني (١٢٦ ـ ١٢٧)، ومسيحية ضد الإسلام (١٠٥ ـ ١٠٦)، وتاريخ التسامح في عصر الإصلاح (١١٦ ـ ١١٧).

الخاتم ﷺ، وسنقف مع شبهة «لولّوس» هذه، ونردها بتوفيق الله تعالى، من عدة وجوه:

• **الوجه الأول:**

هذا المسلك، هو مسلك تشويه صورة الدين الحق والرسول المبعوث به، مسلك قديم، طالما سلكه أعداء الله تعالى، وأعداء رسله الكرام ﷺ، وهي محاولة يائسة بائسة مكشوفة من أولئك الكفار أعداء الرسل، لصد الناس عن السماع منهم والاتباع لهم، وهي وسيلة، ما بقي قوم بعث إليهم نبي إلا سلكوها وطرقوها.

وقد كشف القرآن هذا المسلك:

ـ فهؤلاء قوم نوح في الزمن الأول يرددون تلك الشبهة الفجة، ويسلكون هذه الوسيلة المكشوفة:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ [الأعراف: ٦٠].

فجاء الجواب والرد عليهم: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف: ٦١، ٦٢].

ـ أعاد قوم هود ذاك الشبهة مستخدمين عين الألفاظ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأعراف: ٦٦، ٦٧].

ـ وهذا فرعون لما جاءه نبي الله ورسوله موسى وأخوه هارون عليهما الصلاة والسلام برسالة رب العالمين، قال له موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأعراف: ١٠٤، ١٠٥]، فلجأ فرعون وملأوه بعد أن عجزوا عن دفع

الحقائق، وغلبوا وهزموا في قصة السحرة، لجأ عدو الله فرعون إلى هذه الوسيلة، وهي تشويه سمعة موسى والمؤمنين معه.

فقال الله تعالى في بيان ذلك في سورة الشعراء بعد قصة السحرة وإيمانهم واستشهادهم: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الشعراء: ٥٣ ـ ٥٦].

ـ ولا نترك هنا ما واجه به اليهود رسالة نبي الله ورسوله عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، فكالوا له ولأمة الصديقة مريم عليها السلام التهم أشكالاً وألواناً، باتهام مريم عليها السلام بالزنا والفجور، ولم يدافع عنها ويبرأ ساحتها ويصفها بالطهر والعفة إلا القرآن الكريم ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء: ١٥٦].

واتهامهم للمسيح عليه السلام بأنه ابن زنا، وحاشاه عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [النساء: ١٧١].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [مريم: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦]، وغيرها من الآيات كثير.

فيما صنع هذا القسيس «لولّوس» سوى أن ضم نفسه برتابة بليدة وصفاقة لأعداء الله تعالى وأعداء أنبيائه ورسله، بمن فيهم أعداء المسيح ابن مريم عليه السلام.

فهو يكرر ما ذكروه، ويلوك ما سبق أن لاكوه، وصدق الله: ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٣].

• **الوجه الثاني:**

ذكر ما يتعلق ببيت النبي ﷺ وأزواجه، في القرآن الكريم، خصوصاً في سورة الأحزاب، يدل دلالة عظيمة على قيمة هذا البيت الكريم عند الله رب العالمين، وعلى علو شأنه عنده، فالذي يدبر أمر نبيه فيه ويدافع عنه ويرتب أولوياته هو الله تعالى ليظهر للعالمين، طهر هذا البيت الكريم، وخلود رسالته، وعظيم أهميته، وهذه غاية عظيمة من ذكر تلك الآيات في سورة الأحزاب، وليس كما يزعم «لولّوس» أنه قد مضى زمانها وقصة قد مات أبطالها، فتلك نظرة سطحية فجة، لا يمكن أن يذكرها أحد في مواجهة براعة القرآن، وعظيم دلالاته، إلا حاقد أحمق، يريد أن يذكر أي شيء.

ولذلك لما وقعت حادثة الإفك، ورُمي بيت النبي ﷺ بما رُمي به، تولى الله تعالى الدفاع عن نبيه وبيته الكريم، وزوجه المصون عائشة رضي الله عنها، وأنزل بذلك تلك الآيات الخالدات، الرادعات لكل سفيه، دعي ينظر بريبة أو تهمة لبيت خير الأنبياء وخاتمهم ﷺ.

قال الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله: «الجواب: أن هذا من تمام الحكم الباهرة التي جعل الله هذه القصة سبباً لها، وامتحاناً وابتلاء لرسوله ﷺ، ولجميع الأمة إلى يوم القيامة؛ ليرفع بهذه القصة أقواماً ويضع بها آخرين، ويزيد الله الذين اهتدوا هدى وإيماناً، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً. . .

وأيضاً فكان من حكمة حبس الوحي شهراً، أن القضية محّصت، وتمحّصت، واستشرفت قلوب المؤمنين أعظم استشراف إلى ما يوحيه الله إلى رسوله فيها، وتطلعت إلى ذلك غاية التطلع، فوافى الوحي أحوج ما كان إليه رسول الله ﷺ وأهل بيته، والصِّدِيق وأهله، وأصحابه والمؤمنون، فورد عليهم ورود الغيث على الأرض أحوج ما كانت إليه،

فوقع منهم أعظم موقع وألطفه، وسُرُّوا به أتم السرور، وحصل لهم به غاية الهناء، فلو أطلع الله رسوله على حقيقة الحال من أوّل وهلة وأنزل الوحي على الفور بذلك لفاتت هذه الحكم، وأضعافها؛ بل أضعاف أضعافها.

وأيضاً فإن الله سبحانه أحب أن يظهر منزلة رسوله وأهل بيته عنده، وكرامتهم عليه، وأن يخرج رسوله من هذه القضية، ويتولى هو بنفسه الدفاع والمنافحة عنه، والرد على أعدائه وذمهم وعيبهم بأمر لا يكون له فيه عمل ولا ينسب إليه؛ بل يكون هو وحده تعالى المتولي لذلك الثائر لرسوله وأهل بيته»[(١)].

ويقول **الأستاذ سيد قطب** رَحِمَهُ اللهُ: «لقد جاء القرآن الكريم ليحدد القيم الأساسية في تصور الإسلام للحياة، هذه القيم التي ينبغي أن تجد ترجمتها الحية في بيت النبي ﷺ، وحياته الخاصة وأن تتحقق في أدق صورة وأوضحها في هذا البيت الذي كان وسيبقى منارة للمسلمين والإسلام حتى يرث الله الأرض ومن عليها»[(٢)].

ولا نذهب بعيداً لتأكيد هذه الحقيقة، فإن القرآن الكريم حدد الهدف والغاية من تلك التشريعات كلها الخاصة بالنبي ﷺ وأزواجه، وبيته الكريم.

فقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣].

يقول **الأستاذ سيد قطب** رَحِمَهُ اللهُ: «وفي التعبير إيحاءات كثيرة، كلها رفاف، رفيق، حنون، فهو تعالى يسميهم «أَهْلَ ٱلْبَيْتِ» بدون وصف للبيت ولا إضافة، كأنما هذا هو «ٱلْبَيْتِ» الواحد في هذا العالم، المستحق لهذه الصفة، فإذا قيل «ٱلْبَيْتِ» فقد عُرف وحدد ووصف. . .

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٦١ ـ ٢٦٣).
(٢) في ظلال القرآن (٥/ ٢٨٥٥).

وفي العبارة تلطّف ببيان علة التكليف وغايته. تلطّف يشي بأن الله سبحانه، يشعرهم بأنه بذاته العلية، يتولى تطهيرهم وإذهاب الرجس عنهم، وهي رعاية علوية مباشرة بأهل هذا البيت، وحين نتصور من هو القائل ﷻ رب هذا الكون، الذي قال للكون: كن فكان، الله ذو الجلال والإكرام، المهيمن العزيز الجبار المتكبر، حين نتصور من هو القائل - جلَّ وعلا - ندرك مدى هذا التكريم العظيم»[1].

وهذا الوصف المهيب الجميل «أهل البيت» لم يرد في القرآن إلا في ذكر بيتين كريمين عظيمين:

الأول: بيت خليل الله ورسوله، ونبيه وصفيه، أبي الأنبياء، وإمام الحنفاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

قال الله تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٧٣].

والثاني: بيت خاتم الأنبياء، وسيد المرسلين محمد ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وما أجمل ما قرن النبي ﷺ بين هذين البيتين الكريمين، في الصلاة والسلام عليه وعلى آل بيته، كما صلى الله على إبراهيم وآل بيته، فقد جمع بين البيتين، وقرن بين الآيتين:

عن كَعْب بْن عُجْرَة ؓ قال: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ عَلِمْنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكَ، فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٨٦٢).

حَمِيدٌ مَجِيدٌ»[١].

٣ ـ ثم بلغ التحامق والمجازفة والتهور عند «ريموند لولّوس» حدّه، عند زعم أن القرآن الكريم يستقى من مصدرين مختلفين:

(١) فما فيه من تعاليم وأخبار عن خلق العالم ونحوه فهو مأخوذ من العهد القديم، مما علمه إياه ذلك الراهب المزعوم «ميكولاو».

(٢) وما فيه من تعاليم ـ الفحش والبذاءة ـ كما يزعم ويفتري، فهو مأخوذ مما أوحاه الشيطان إليه.

وتبعاً لذلك وبناءاً عليه فإن القرآن عند «لولّوس»، ليس كتاباً مقدساً، ولا مُعْجزاً، وأنه يمكن معارضته؛ بل تجاوزه، ولذلك زعم هذا المتهالك أنه يمكنه هو لو أراد أن يأتي بأحسن منه[٢].

وهذه أخذها هذا المتهالك من رسالة: عبد المسيح بن إسحاق الكندي والتي سبق لنا دراستها والرد والتفنيد لها في قضية إعجاز القرآن والزعم بأنه يمكن أن يؤتى بمثله.

ونضيف هنا أن داعية الحوار العقلي هذا، والرجوع إلى المعقولات، يتهالك في الافتراء المكشوف، والكذب المفضوح إلى هذا الحدّ، مما يدل على أن الكره والحقد يعمي ويصم كل عقل ونظر وبصيرة.

ولكن لا عجب من أعداء القرآن من هؤلاء القساوسة، أهل

---

(١) رواه البخاري (٦٣٥٧)، وانظر الأحاديث في صفة الصلاة والسلام على النبي ﷺ في كتاب: جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، للإمام ابن قيم الجوزية (٧ ـ ١٧).

(٢) انظر: الإسلام في تصورات الاستشراق الأسباني (١٢٧)، ومسيحية ضد الإسلام (١٠٦).

الصلبان والبهتان؛ فإن سلفهم في ذلك، أحد ألد أعداء رسول الله ﷺ، من قومه من قريش وهو: النضر بن الحارث بن علقمة أخو بني عبد الدار، وقتل يوم بدر كافراً خاسراً.

قال **الحافظ ابن كثير** رحمه الله: «وهذا منهم قول لا فعل، وإلا فقد تُحُدُّوا غير مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً، وإنما هذا قول منهم يغرّون به أنفسهم ومن اتبعهم على باطلهم، وقد قيل: إن القائل لذلك هو النضر بن الحارث ـ لعنه الله ـ كما قد نص على ذلك سعيد بن جبير، والسدي، وابن جريج وغيرهم؛ فإنه كان قد ذهب إلى بلاد فارس، وتعلم من أخبار ملوكهم «رستم واسفنديار»، ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله، وهو يتلو على الناس القرآن، فكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلس، جاء النضر فجلس فيه، فحدثهم من أخبار أولئك، ثم يقول: بالله أيهما أحسن قصصاً؟ أنا أو محمد؟»(١).

قال **محمود بن عمر الزمخشري** رحمه الله: «قولهم: «ولو نشاء لقلنا مثل هذا» نفاجة منهم وصلف تحت الراعدة، فإنهم لم يتوانوا في مشيئتهم لو ساعدتهم الاستطاعة، وإلا فما يمنعهم إن كانوا مستطيعين أن يشاءوا غلبة من تحداهم وقرعهم بالعجز، حتى يفوزوا بالقدح المُعلّى دونه، مع فرط أنفتهم واستنكافهم أن يغلبوا في باب البيان خاصة، . . . ومع ما عُلم وظهر ظهور الشمس، من حرصهم على أن يقهروا رسول الله ﷺ، وتهالكهم على أن يغمزوه»(٢).

وهذا القوم عرب أقحاح، فما لهذا الأعجمي الأغلف الألكن، ومعارضته القرآن الكريم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٩٠ ـ ١٩١).

(٢) الكشاف (٢/ ١٥٥).

وأخيراً: الهدف الذي أنفق «ريموند لولّوس» عمره لأجله، هو هدف صليبي بامتياز، لكنه يموت بحسرته دون الوصول لهدفه.

يقول الأستاذ اللاهوتي «لودفيغ هاغمن»: «كان سلوك «الولّوس» تجاه غير المسيحيين يتذبذب وبدءاً من عام (١٢٩٢م) يتمحور تفكيره على نحو مطّرد الزيادة حول فكرة الحملة الصليبية يبدو أن «ريموند»، قد استحوذت عليه فكرة استعادة الأرض المقدسة، وفي سبيل ذلك يكتب على نحو لا ينقطع، مذكرات، والتماسات، وخُططاً لحملة صليبية، في محاولة يائسة لتعبئة المسيحية من أجل الرسالة الكبيرة، ولئن كان نذر نفسه من قبل، بكل طاقته، لفكرة التبشير، وحاول أن يحقق الشروط الأوّلية لانتشارها في أوروبا، ففي عام (١٢٧٦م) قد أسس باستحسان من البابا[1]، وبمساندة من الملك يعقوب الثاني، في ميرامار على ميورقة، دَيْراً تبشيرياً تعلم فيه العربية في البداية ثلاثة عشر راهباً فرنسيسكانياً، ثم كان مقدراً له فيما بعد أن يدفع إلى الصدارة بفكرة الإجراء العسكري ضد المسلمين على نحوٍ مطرد الزيادة، والحق أن فكرة التبشير ظلت بعد ذلك جزءاً لا يتجزأ من أفكاره الاستراتيجية تجاه الإسلام، ولكن فكرة الحملة الصليبية، ظهرت إلى جانب التبشير، الموعظة والحرب كانتا بنظره وسيلتين ناجعتين لنشر العقيدة المسيحية، ومن ثم تأمين الشروط الأولية من أجل ذلك، على أن إخفاقه الذي تكرر مراراً جعله أكثر استعداداً للوقوع ضحية لإغراء استعمال العنف ولم يستطع التخلص من روح ذلك العصر الذي كان يستعمل فيه القوة والعنف من أجل نشر العقيدة المسيحية وتوسيع نطاق السيطرة. . .

ثم يموت «لولّوس» في طريق العودة من تونس إلى ميورقه في أواخر سنة (١٣١٥م) وفي نوع من نظرة إلى الماضي من حياته وتأثيره

---

(١) نيقولاوس الرابع.

كتب يقول: «لقد كنت متزوجاً، ولي أطفال وكنت موسراً، ولقد استمتعت بالحياة، وتخليت عن كل شيء لكي أعمل في سبيل مجد الرب والصالح العام، وأزيد في انتشار العقيدة المقدسة، تعلمت العربية، وانفتحت من وجوه عديدة على المسلمين لكي أعظهم بالإنجيل، ولبثت أعمل خمسة وأربعين عاماً لكي أحث الكنيسة المسيحية والحكام المسيحيين على خدمة الصالح العام، وقد صرت الآن طاعناً في السن، وفوق ذلك أيضاً فقيراً، وبقي لدي اهتمامي ودَأبي، وسأظل على هذا إلى أن أقضي نحبي هذه مشيئة الرّب»[(١)].

بدأ تغيّر ملحوظ إذن يخالط الموقف الأوربي من الإسلام في نهايات القرن الثالث عشر الميلادي عندما اتضح للجميع أن الآمال الضخمة المعقودة على الشرق المسيحي، مبالغ فيها، كما أن اندحار الحملات الصليبية خصوصاً الخامسة، واسترجاع المسلمين «عكا» و«حيفا» وغيرها شكل نقط تحول بارزة في صراع أوروبا المسيحية مع الإسلام.

إلا أن «ريموند لولّوس» أبى أن يصدق ذلك، وراح يعيد استثارة الإرث المسيحي، ويعيد الأمل المفقود إلى المسيحيين، يكتب فيقول: «إذا عاد المبتدعون «النساطرة» عن بدعتهم، واعتنق التتار المسيحية، فيمكن بسهولة القضاء على الرازانيين[(٢)]، ثم يعترف بالفشل فيقول: «لكن ما يثير المخاوف، إمكان إقبال التتار على الإسلام، إما باختيارهم، أو لأن الرازانيين يدفعونهم إلى ذلك، فإذا حدث شيء من ذلك فإن المسيحية كلها ستواجه مخاطر ضخمة»[(٣)].

---

(١) مسيحية ضد الإسلام (١٠٦ ـ ١٠٧) باختصار

(٢) يعني: المسلمين.

(٣) نقلاً عن: صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى (١١٦).

يعلّق الأستاذ «ريتشارد سوذرن» فيقول: «هذا التخوف الذي اعتمل في أعماق «لول» وجرى به قلمه، كان في طريقه ليصبح حقيقة عندما كان هو يكتب هذا، ففي الوقت الذي سقطت فيه «عكّا»، وكان آخر مثقف أوروبي وسيط، ذي وزن يزور المشرق وبغداد بالذات هو: «رِكُلْدُس دي مونتي كروتشي»(١)، من فلورنا، وقد ترك «رِكُلْدُس» قصة لرحلته تبدو فيها مخاوف «رامون لول» في طريق التحقيق، وأول ما يلفت الانتباه في تقريره هو عدم ثقته بالمغول، فقد لاحظ إقبالهم على الإسلام، بخلاف كل ما توقعته الأجيال الأوروبية السابقة ويعلّل «رِكُلْدس» ذلك بأن الإسلام أسهل في التصديق والتطبيق، وهو يلاحظ أن «تُرْك» تركستان الذين كانوا قد اعتنقوا المسيحية، عادوا فتركوها لصالح الإسلام»(٢).

كان «ريمون لول» هو الرجل المحرك للنشاط التنصيري في هذه الحقبة، ولم تلق مساعيه وأعماله نجاحاً؛ بل خسارة واندحاراً، لذلك تصلبت آراؤه في سنواته الأخيرة وازداد عنفاً في وجهات نظره مستجدياً إيجابية في التعامل لم يلقها إلا في مجمع «فيينا» سنة (١٢١٣م)، وقد عاش حتى رأى تحول التتار إلى الإسلام، وانتهاء وفشل الحروب الصليبية وربما مات مقتولاً، أو منتحراً(٣).

❁ ❁ ❁

(١) تحدثنا عنه وعن مشروعه مفصلاً سابقاً.
(٢) صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى (١١٦ ـ ١١٧).
(٣) المصدر السابق (١٥٧).

رامون مارتي

«Ramon Marti»

رامون مارتي
«Ramon Marti»

راهب أسباني من نظام رهبنة «الأخوة الوعّاظ» المعروف بـ «الدومينيكان»، ولد في حدود سنة (١٢٢٠م)، وانضم مع إخوته السبعة إلى نظام رهبنة «الدومينيكان» درس اللغة العربية بالمعهد الذي أنشأه «رمند بنيافرت»، ودرس كذلك العبرية والسريانية مما مكّنه من التعامل المباشر مع المصادر الإسلامية واليهودية.

حتى وصف بأنه: «راهب في اللاتينية، وفيلسوف في العربية، وحاخام في العبرية»[١].

وكانت مؤلفاته هي مقررات لأعضاء جمعيته «الدومينيكان»، في التعامل مع المؤثرات الإسلامية واليهودية لتعينهم على وظائفهم التنصيرية الدؤوبة.

يحتل «رامون مارتي» مكانة مرموقة بين قساوسة مبشري المسيحية بأسبانيا وأوروبا طوال القرن الثالث عشر الميلادي وما بعده.

وكان عصره، عصر أفول شمس المسلمين والسلطة السياسية الإسلامية بالأندلس، لذلك قام مشروعه على: «امتلاك السلطة المعرفية الضرورية لمجادلة الإسلام، وتمثيله واختزاله في نظر المسلمين والنصارى على السواء، بقصد تيسير إمكانية السيطرة عليه ونفيه وتقويضه

---

(١) انظر: الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني، د. محمد العسري (١٣٢).

في نظر المسلمين والنصارى على السواء»[١].

يكاد يجمع الدارسون لنشاط «مارتي» التنصيري، أنه لا يكاد يختلف عن سابقه «ريموند لول» إلا في انتمائه للنظام الدومينيكاني، بينما «لول» ينضم إلى نظام الفرنسيسكان.

يقول **الدكتور محمد العسري**: «يذهب أغلب مؤرخي تطور الدراسات العربية والإسلامية بالغرب الأوروبي إلى أن إسهام «رامون مارتي» فيها بوّأته مرتبة «أول مستشرق أوروبي» على حد تعبير «مونتيرت دي فيلار» وأهم «أستاذ للاستشراق» في القرن الثالث عشر على حد قول «أ. بيرتي» و«دماغ الدراسات اللغوية» حسب وصف «أنخل كورتا يريا»[٢].

- **مؤلفاته:**

ألّف «ريمون مارتي» العديد من المؤلفات، كلها في مجادلة الإسلام، وتحسين العقائد المسيحية للتبشير بها.

١ ـ «شرح الرموز الرسولية».

يقول عنه «هاغمن»: «وهو تفسير للمعتقدات الإيمانية في اثني عشر مقالاً، ليكون في متناول أعضاء نظام الرهبنة الذين يعملون في كل أرجاء أسبانيا»[٣].

٢ ـ «الدفاع الرئيس عن الموريسكيين»[٤].

يقول عنه «هاغمن»: «ويستكن وراء العنوان الذي يبدو قتالياً، دفاع

---

(١) الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني (١٣١).
(٢) المصدر السابق (١٣١ ـ ١٣٢).
(٣) مسيحية ضد الإسلام (٩٧).
(٤) الموريسكيون: لقب أطلقه الإسبان على المسلمين، انظر: كتاب: الموريسكيون الإسبان ووقائع طردهم، للأسقف الإسباني «دون باسكوال بورونات براتشينا» ترجمه، د. كنزة الغالي.

مرتبط بالبيئة عن العقيدة المسيحية، صادر عن الوضع المحسوس المرتبط بتاريخ العصر الذي عاش فيه المؤلف، على أن المراجع المكتوبة الجمة التي يتضمنها الكتاب المؤلف من ثلاثة أقسام تشهد على ثقافة «ريمون مارتي» الشاملة، وبفضل معارفه اللغوية كان ضليعاً بفروع التراث الفلسفي اللاهوتي في الغرب، كما كان ضليعاً أيضاً بالمراجع اليهودية والإسلامية»[١].

٣ ـ «سيف الإيمان في صدور المسلمين واليهود».

يقول د. عبد الرحمٰن بدوي: «أهم مؤلفات «مارتي»، هو خنجر الإيمان في صدور المسلمين واليهود»، وأتم تأليفه سنة (١٢٧٨م) وكتبه باللاتينية والعبرية.... وقصده أن يضع في أيدي إخوته في الطريقة الدومينيكانية سلاحاً للدفاع عن العقائد المسيحية»[٢].

• موقفه من القرآن الكريم:

يفيد الدكتور عبد الرحمٰن بدوي: أن «لمارتي» كتاباً بعنوان: «الخلاصة ضد القرآن» لكنه كتاب مفقود[٣].

ولكن من خلال كتابه السابق: «سيف الإيمان» نلخص موقفه من القرآن:

١ ـ نظراً لتعلمه اللغة العربية، فإن «مارتي» يفيد مباشرة من القرآن الكريم والمصادر الإسلامية الأخرى:

أفاد الدكتور العسري وكذا الدكتور بدوي: أن «مارتي» أفاد من هذه المصادر:

ـ القرآن الكريم.

---

(١) مسيحية ضد الإسلام (٩٨).
(٢) موسوعة المستشرقين (٣٠٩).
(٣) المصدر السابق (٣١٠).

ـ صحيحي البخاري ومسلم.

حيث أفاد الدكتور بدوي: أن مارتي في دفاعه عن مريم عليها السلام ضد اليهود استشهد بالقرآن الكريم، وكذا بحديث نبوي أورده البخاري ومسلم وهو حديث «كل مولود يستهل صارخاً من وخز إبليس إلا مريم وابنها»[١].

ـ ينقل من كتب الغزالي: المنقذ من الضلال، وتهافت الفلاسفة، وميزان العمل.

ـ ينقل من إشارات ابن سينا مقاطع فلسفية.

ـ وكذا ينقل من ابن رشد مباحث في علم الله.

ـ وكذا من كتاب «مباحث مشرقية» للفخرالرازي[٢].

يظهر موقف «مارتي» من القرآن من خلال:

(١) يعتبر الإسلام فرقة مهرطقة انحرفت عن أصلها النصراني ويسميها «الفرقة المحمدية»[٣].

ويقيم كما يزعم الأدلة على فساد نبوة النبي ﷺ، تحت فصل عَنْوَنه: «الأدلة الأربعة على فساد نبوة نبي المسلمين وزيفها»[٤].

يقول الدكتور محمد العسري: «فإنه يعلن عن غايته من تناول الإسلام، التي هي غاية جدلية تروم تشويه هذا الدين بين المسلمين لتيسير تنصيرهم، وتقبيحه كذلك في أعين النصارى لتحصينهم ضد جاذبيته، أو

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٥٤٨)، ومسلم برقم (٢٣٦٦).

(٢) انظر موسوعة الاستشراق (٣٠٩ ـ ٣١٠)، وكتاب: الإسلام في تصورات الاستشراق الأسباني (١٣٣).

(٣) الإسلام في تصورات الاستشراق الأسباني (١٣٤).

(٤) المصدر السابق.

إقناعهم بصحة معتقدهم»[١].

(٢) يحاول إبطال دلالة إعجاز القرآن، وقد تحامق «مارتي» في هذا الأمر جدّاً لدرجة أنه رام إبطال دلالة إعجاز القرآن، فذهب يضع من عنده «سورة معارضة للقرآن» بزعمه.

يقول عنها الدكتور «بدوي»: «وقد بقيت هذه المعارضة في مخطوط كتاب «Vocabulista in Arabico» ونشرها «اسكيا بارلي» في نشرته لهذا الكتاب وترجمتها إلى الإيطالية، وقد أرفقنا بهذه الترجمة صورة فوتغرافية من هذه المعارضة كما طبعها «اسكيابارلي»، حتى يتبين للقارئ العربي ما في «معارضته» هذه من عجز تام وسخافة وقحة»[٢].

❁ ❁ ❁

(١) الإسلام في تصورات الاستشراق الأسباني (١٣٤).

(٢) موسوعة المستشرقين (٣١٠) لكن الناشر حذف تلك الصورة الفوتوغرافية المشار إليها لما اشتملت عليه فضلاً عن سخفها الفاضح ومن تطاول غير مهذب على القرآن العظيم وعلى مقام سيد المرسلين ﷺ.

نيكولا. دو. كوزا أو نيقولاس الكويسيّ
ويوحنا السيغوفي وجان جيرمان
وإينياس سلفيوس

نيكولا. دو. كوزا أو نيقولاس الكويسيّ ويوحنا السيغوفي، وجان جيرمان، وإينياس سلفيوس

تعود المرجعية الدينية عند النصارى، خلال العصور الوسطى، إلى ثلاث مرجعيات:

- الكتاب المقدس بما تضمنه من العهد القديم والعهد الجديد، ورسائل الرسل.
- التراث الآبائي.
- التقاليد المسيحية القديمة والوسيطة.

وفي القرن الرابع عشر الميلادي وما بعده، ظهرت في أوروبا، حركة فكرية مسيحية تبناها قساوسة مشاهير، عُرفت بـ «الأَنْسَنَة»(١) المسيحية.

وهي مرحلة فكرية وسيطة بين المرجعيات القديمة الثلاث، وبين ثورة الإصلاح البروتستانتي التي قام بها الكاهن «مارتن لوثر».

يحدد «جوزيف لوكلير» هدف ومنهج هذه الحركة الفكرية المسيحية فيقول: «هؤلاء جميعاً كانوا مخلصين لمثال الوحدة الروحية الذي يشد البشر بعضاً إلى بعض لكن طريقتهم في نشدانه كانت تختلف عن طريقة

(١) الأَنْسَنة «Humanisme» مذهب فكري تألق في بداية عصر النهضة، يعتبر الشخص الإنساني غاية وقيمة في ذاته، ويتميز بالعودة إلى الينابيع اليونانية واللاتينية وفلسفاتها. انظر: المعجم الفلسفي (١/١٠٩)، وتاريخ التسامح، الثبت التعريفي (١١٣١).

معلمي العصر الوسيط الذين لم يتوانوا عن اتخاذ مواقف عدائية من التنوعات الدينية، ظهرت في الصراع العنيف ضد الهراطقة، والحروب الصليبية ضد الكافرين[١]، وما ذاك هو موقف «الأنسنيين»، الذين كانوا في تخطيطهم لتوحيد الناس على المستوى الديني أسبق وأميل إلى التفكير بما من شأنه أن يقرب بينهم، منهم إلى الاستغراق في دواعي التفرقة والانقسام، هذه النزعة التوفيقية سابقة جداً لعهد الإصلاح، تطالعنا لدى «نيكولادوكوزا» والأنسنيين الإيطاليين لنعود فنلتقيها في فجر الثورة اللوثرية»[٢].

وحفل عصرالأنسنة هذا بأربع شخصيات، أعمارهم متقاربة، وكانوا جميعاً «مَطَارِنة» وبلغ ثلاثة منهم رتبة «الكردينال»، وبلغ واحد من بينهم رتبة «البابوية».

وهم:

١ ـ يوحنا السيغوفي راهب أسباني، ولد سنة (١٤٠٠م)، وفي عام (١٤٥١م)، عيّنه البابا «فيلكس الخامس»؛ كردينالاً، انعزل في دير «بسافوي»، من عام (١٤٥٣م) إلى وفاته سنة (١٤٥٨م).

٢ ـ نيقولاوس دوكوزا راهب ألماني، ولد سنة (١٤٠١م)، عيّنه البابا «نيقولاوس الخامس» كاردينالاً عام (١٤٤٨م) وتوفي سنة (١٤٦٤م).

٣ ـ جان يرمان، راهب فرنسي، ولد سنة (١٤٠٠م)، عُيّن «مطراناً» سنة (١٤٣٠م) ورئيساً لدير «رهبان القدّيس فليس» توفي سنة (١٤٦١م).

٤ ـ إينياس سلفيوس «بيّوس الثاني» راهب إيطالي، ولد سنة

(١) يقصد المسلمين.
(٢) تاريخ التسامح في عصر الإصلاح (١٤٧ ـ ١٤٨).

(١٤٠٥م)، عمد سكرتيراً للبابا «فليكس الخامس» وصار مطراناً (١٤٤٧م)، ثم كردينالاً سنة (١٤٥٦م) وفي عام (١٤٥٨م)، صار بابا «روما» إلى وفاته سنة (١٤٦٤م)(١).

وكانت القضية التي أشغلت هؤلاء الأربعة، وكانت قاسماً مشتركاً بينهم، هي القضية الإسلامية وكيفية التعاطي معها ومواجهتها، واستدراك الفشل الذريع للمسيحية، طوال القرون الغابرة.

• يوحنا السيغوفي:

أبرز جهوده العلمية، حضوره المجمع المسكوني الذي عقد سنة (١٤٣٣م) بمدينة «بازل» السويسرية، ومصادقته لقرارات المجمع، ودراسته لها في أضخم أعماله، إذ بلغت دراسته هذه كما يقول «سوذرن»: «ألفين وخمسمائة ورقة»(٢).

ولكن ليوحنا السيغوفي عمل مهم، عن القرآن الكريم.

فقد ذكرنا فيما مضى أن مشروع «بطرس المبجل» وصديقه «روبرت الكيتوني» هو أول مشروع أوروبي مسيحي لترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية.

وأن هذه الترجمة هي التي استمر العمل بها قروناً، بعد ذلك.

ويمكن أن نعتبر مرحلة يوحنا السيغوفي، مرحلة نهاية اعتماد هذه الترجمة لبطرس المبجل، وإن كان لم تستطع ترجمة يوحنا السيغوفي مزاحمتهما نظراً لضياعها وعدم الاهتمام بها.

قام يوحنا السيغوفي، بعمل كبير بإنجاز ترجمة جديدة للقرآن الكريم إلى اللاتينية.

---

(١) انظر عن حياتهم: صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى (١٦٠ ـ ١٦٣).

(٢) المصدر السابق (١٣٢)، ويفيد «سوذرن» بضياع هذا العمل، سوى مقدمته التي يشرح فيها يوحنا السيغوفي أهدافه والصعوبات التي واجهته (١٦١).

يقول الأستاذ «هاغمن» عن ترجمة بطرس المبجل: «وقد جرى إدراك مواضع الوهن والنقص في هذه الترجمة منذ أيام مشروع يوحنا السيغوفي الجديد عام (١٤٥٦م)»[١].

يقول الأستاذ «سوذرن»: «في السنوات الخمس الأخيرة أنجز يوحنا السيغوفي: أمرين مهمين، فيما يتصل بالإسلام:

- لقد قام بترجمة القرآن من جديد إلى اللاتينية.

- حاول عن طريق الاتصال بزملائه المشهورين[٢]، التوصل إلى حلٍّ شامل للمسألة الإسلامية»[٣].

أنجز يوحنا السيغوفي ترجمة القرآن لأن الترجمات السابقة خصوصاً ترجمة «بطرس المبجل» لم تكن بالمستوى المطلوب، وفيها من الخلل والنقص ما يقتضي استبعادها وإعداد ترجمة جديدة تغطي الفراغ الهائل في التعرف على القرآن عن كثب.

ولخص يوحنا السيغوفي ملحوظاته على ترجمة بطرس المبجل في: «أنه أدخل فيها تصورات اللاتينيين واستعمل كلمات وتعابير وتعريفات هي في صلب تصورات العالم المسيحي، ولا يعرفها المسلمون»[٤].

ولذلك سلك طريقة الاحتفاظ بترتيب السور القرآنية على ما رتبها المسلمون في مصاحفهم والاقتراب من الأسلوب القرآني في النقل، بحسب تقييم سوذرن[٥].

إلا أنه وقع هو أيضاً في عدة أخطاء منهجية يلخصها لنا «سوذرن» فيقول: «ولا شك أنه ارتكب أخطاء في ذلك، لكنه اقترب فعلاً أكثر من

(١) مسيحية ضد الإسلام (٦٥).
(٢) يعني: الثلاثة السابق ذكرهم.
(٣) صورة الإسلام في أوروبا (١٣٣).
(٤) المصدر السابق (١٣٣).
(٥) المصدر السابق.

سابقيه من روح القرآن، ووصل عن طريق الأمانة إلى تجاوز غموض وتحريف الجدليين السابقين محافظاً بذلك إلى حد بعيد على ما يراه المسلمون في فهم القرآن. . . . وإن كانت مساعيه قد بدت لبعض معاصريه عبثاً فإن الجهد الذي بذله، والعقبات التي تجاوزها يبعث فينا شعوراً بالتقدير لذلك، إلا أن من الصعوبة العجيبة التي واجهها السيغوفي في العثور على رجلٍ يتقن العربية بأوروبا لمساعدته في الترجمة منذ العام (١٤٥٣م)، أما المسلمون في الأندلس فقد نسي هؤلاء لغتهم ودينهم لصالح لغة الأسبان الفاتحين ودينهم، وقد انتظر يوحنا السيغوفي عامين كاملين حتى تمكن من العثور على نسخة عربية من القرآن، وعالم عربي من «سَلَمنكا» أمكنه إقناعه «بالمجيء» إلى «سافوي» لإعانته في نقل القرآن إلى اللاتينية، وقد عملا معاً عدة شهور بدت طويلة وقاسية، ثم أصرّ العربي على العودة إلى زوجته الشابة التي خلفها وراءه، وكان العمل الأساسي قد أنجز، لكن يوحنا أمّل أن يجد من يعينه في تدقيق بعض المواطن، والقيام بمراجعة شاملة وأخيرة، لهذا طلب من رئيسه مقدَّم الآباء الفرنسيسكان، أن يساعده في العثور على عالم عربي أو أوروبي يحسن العربية، وبحث هو بنفسه في أوروبا طولاً وعرضاً، لكنه لم يعثر على أحد يعرف لغة القرآن، وهكذا بقيت الترجمة دون مراجعة أخيرة»[(١)].

من هذا العرض الموجز لمشروع يوحنا السيغوفي لترجمة القرآن نخلص إلى هذه النتائج:

١ ـ أن مشروع يوحنا السيغوفي مشروع فردي، ذهب جهده في البحث عن من يجيد اللغتين العربية واللاتينية ليقوم بهذه الترجمة.

٢ ـ نفس الخطأ الجوهري الذي وقع فيه من قبل «بطرس المبجل»

---

(١) صورة الإسلام في أوروبا (١٣٣ ـ ١٣٤) باختصار.

في مشروعه بالاعتماد ـ كما تقول المصادر ـ على رجل عربي لكنه مجهول لا يُدرى من هو، مما يجعل الثقة بمثل هذه الترجمة مفقودة إلى حدٍ كبير.

يقول **الدكتور عبد الرحمن بدوي** عن ترجمة بطرس المبجل: «أول وأقدم ترجمة للقرآن هي تلك التي دعا إليها، ورعاها بطرس المحترم، رئيس دَيْر كلوني، وتولاها بطرس الطليطلي، وهِرْمن الألماشي، وروبرت كينت، بمعاونة عربي مسلم يدعى «محمد» ولا يُعرف له لقب ولا كنية ولا أي اسم آخر، وراجع الترجمة اللاتينية، بيير دي بواتييه وتمت سنة (١١٤٣م)»[١].

لذلك لم تكن ترجمة بطرس المبجل أمينة؛ بل ناقصة وانتقائية ومحرفة لحدٍ كبيرٍ كما مر معنا تفصيل ذلك.

ولا تبعد ترجمة السيغوفي عنها كثيراً، رغم ادعائه الحرص على نقل المعنى كما هو عند المسلمين.

٣ ـ واضح أن ترجمة يوحنا السيغوفي فيها نواقض كثيرة، غير محررة ولا مراجعة، وتركت هكذا، ولم تتفاعل معها الكنيسة، وأهملت، وهذا ربما يفسر لنا عدم اشتهارها، فقد فتّشت كثيراً عنها، أو عن أي مصدر اطلع عليها فلم أجد بعد طول بحث إلا تلك المعلومات المقتضبة من الأستاذ «ريتشارد سوذرن» وهي التي نقلتها آنفاً، وكذلك بحث منشور باللغة الإنجليزية عن هذه الترجمة[٢].

يسجل شاهدنا الوحيد المطلع على هذه الترجمة وهو الأستاذ: «سوذرن» هذه النتائج فيقول: «إن جهود القرن الثالث عشر، وقرارات

(١) موسوعة المستشرقين (٤٤١).
(٢) مجلة: دراسات الشرق الأدنى، عدد (٧)، حسبما أفاد، الفرد لويس دي بريمار في: تأسيس الإسلام (٣٠).

مجمع «فيينا» عام (١٣١٢م) والنوايا الطيبة لآخرين كثيرين!! كل ذلك لم يثمر في إيجاد مسيحيٍ أو أوروبي واحد منتصف القرن الخامس عشر يعرف اللغة العربية».

ويواصل «سوذرن» متسائلاً: «ما الفائدة التي كان يوحنا السيغوفي ينتظرها من وراء هذا العمل المضني؟

لقد كان مشروعه يختلف في نقاط عديدة مهمة عن أهداف الجدليين السابقين، فقد حصر النقاش في البداية في القضايا الأساسية، ورأى أن المؤلفين السابقين صرفوا معظم وقتهم في الإجابة على أسئلة جانبية مثل: أخلاقيات محمد... أما التساؤل الحقيقي فهو: هل القرآن كلمة الله أم لا؟

فإذا أمكن عن طريق دراسة النص القرآني إثبات أنه يتضمن تناقضات وأخطاء، وآثار مؤلفين مختلفين، كان بالمستطاع إقناع كل المتسائلين بأنه ليس كتاباً موحىً من عند الله كما يدّعي المسلمون»[1].

إذن؛ ظهر من هذه الشهادة من «سوذرن» الهدف الصليبي المسيحي الواضح من مشروع يوحنا السيغوفي لترجمة القرآن، وهو محاولته اليائسة البائسة إثبات أن القرآن ليس كلمة الله المنزلة الموحى بها من عند الله، وذلك عن طريق إيجاد ما يرومه من تناقضات أو أخطاء.

ولكن بأي مقياس سيقيس يوحنا السيغوفي محتويات القرآن الكريم ليظهر التناقض المزعوم.

إن مقياسه هو الكتاب المقدس، فما وجد في القرآن يناقض ما عنده في كتابه المقدس عد ذلك تناقضاً وخطأ وبنى عليه النتيجة الكبيرة: أن القرآن كما يزعم ليس كلمة الله المنزلة.

---

(١) صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى (١٣٥).

وهذه جدلية بائسة وفاقدة لكل مسلك علمي رصين، فبدل أن يشتغل بالجواب عن الإشكالات العميقة، والتناقضات الضخمة في الأناجيل، جاء ليحاكم القرآن على ما سطرته أيدي البشر «يوحنا ومتّى ومرقص ولوقا» ونحلوه زوراً وبهتاناً إلى كلمة الله ووحيه.

وهذه في نظري هي سبب فشل مشروع يوحنا السيغوفي، فلم يأت بشيء ذي بال حتى في نظر الكنيسة، وحتى في نظر جماعته الرهبانية الفرنسيسكانية التي ينتمي إليها.

ويظهر الفشل الذريع الذي مُنِيَ به السيغوفي، في محاولته التسويق لمشروعه بين إخوانه القساوسة في جمعيته الفرنسيسكانية التي ينتمي إليها.

فيفيد «سوذرن»: «بأن يوحنا السيغوفي فكّر في وسيلة لإيصال النقاش إلى أصحابه، وكتب رسائل شارحاً فكرته إلى رفاقه ذوي النفوذ محاولاً إقناعهم والحصول على دعمهم في التنفيذ»[١].

فكتب إلى صديقه «نيقولاوس فون كيس» وإلى أستاذه «روجر باكوف».

ولكن هذه الرسائل ماتت وذهبت أدراج الرياح، يقول «سوذرن»: «شرح يوحنا مشروعه بأسلوب يغصّ بالمحسنات اللفظية والبلاغية التي تستمر عشرات الصفحات دون توقف، وهو أمر جعل من تلك المساهمة المعتبرة قطعة صعبة الفهم بحيث لم يُقْدم أحد حتى اليوم على نشرها»[٢].

ويضيف دارس آخر لمشروع يوحنا السيغوفي، وهو الأستاذ «مكسيم رودنسون» فيقول: «أنشأ يوحنا السيغوفي في سنة (١٤٥٤م)

---

(١) صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى (١٣٥).
(٢) المصدر السابق.

مشروع سلسلة من المداولات مع الفقهاء المسلمين، ويؤكد أن هذه الطريقة تكون مفيدة، حتى إذا لم تكن نتيجتها اهتداء الطرف الآخر، يقوم بترجمة للقرآن «مفقودة»، كان لها أن تتجنب خطيئة الترجمات «الكلونية»[1] ألا وهي تحويل المعنى الأول بالتكييف مع المفاهيم اللاتينية، يوحنا السيغوفي تلقى عملياً استهجان، «جان جرمان» أسقف «شالون» على نهر السوف، وهو رجل المحافظة التمامية، نصير الرد العسكري، وبعث الروح الصليبية»[2].

● أما ثاني هؤلاء الأربعة المقدم ذكرهم، فهو: الراهب الفرنسي «**جان جرمان**»، مطران «شالون» بفرنسا، ورئيس جمعية «رهبان القديس فليس».

ليس له عمل علمي ملحوظ أو ذي بال، بقدر ما كان داعية نشطاً لإعادة روح الحروب الصليبية التي فترت وتوقفت، ويرى أن العلاج الوحيد الممكن للمسألة الإسلامية هو العودة للكفاح المسلح وإحياء الفروسية والروح الصليبية الأوروبية.

كان هذا هو مشروع هذا الراهب الصليبي الحاقد «جان جرمان»، تجلّى ذلك في رسالته الشهيرة إلى ملك فرنسا، ونصها: «دعنا أيها الملك الجليل نحييّ روح «غود فري دي بويون»، و«فليب» الفاتح ملك فرنسا، والقديس «لويس»، فإذا فعلتم ذلك فإن العالم كله سيصيح: الشرف والمجد والنصر لشارل ملك فرنسا الفاتح، داود الجديد، قسطنطين الجديد، شارلمان الكبير الجديد، الذي تابع انتصاراته الضخمة التي حققها هنا بالصراع من أجل الكنيسة الكاثوليكية المقدسة ومن أجل شرفه ومجده الذي أدعو أن يستمر للأبد. . . .آمين»[3].

---

(١) نسبة إلى دير كلوني الذي كان رئيسه بطرس المبجل.
(٢) جاذبية الإسلام (٣٥ ـ ٣٦).
(٣) صورة الإسلام في أوروبا (١٤١).

وأراد «جيرمان» أن يحيي الحروب الصليبية الأولى.

يقول «سوذرن»: «كان هدفه الرومانطيقي الملحاح حملة صليبية جديدة، عمل كل ما بوسعه لإعداد الناس والأمراء للقيام بها في مواجهة الإسلام»[١].

لن نقف عند «جيرمان» كثيراً؛ لأن مشروعه استهلك في إذكاء روح الحروب الصليبية دون جديد يذكر.

• أما ثالث الأربعة السابق ذكرهم فهو: البابا «**إينياس سلفيوس**»[٢]، أو «بيوس الثاني».

أيقظ نمو الدولة العثمانية الإسلامية اعتباراً من القرن الرابع عشر الميلادي على حساب أوروبا المسيحية، أيقظ الاهتمام الأوروبي بالدين الإسلامي، في دوائر لاهوتية وكنسية بشكل واسع، بينما كان مشروع الحروب الصليبية إلى أفول، وصعب البعث فإن رجال اللاهوت الكنسي، يدفعون إلى البحث في ما إذا كان الصراع العسكري مجدياً حقاً، وما إذا كان الجهد التبشيري أيضاً نفسه كافياً في شكله ووضعه المعتاد، تلك لحظة «رؤيوية» كما يقول الأستاذ «سوذرن»، بدأ يعلو صوتها خصوصاً بعد وقوع ذلك الحدث الهائل الذي هزّ العالم المسيحي في أعماقه، وهو فتح المسلمين العثمانيين لمدينة القسطنطينية على يد السلطان الكبير «محمد الفاتح» رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة (١٤٥٣م)، وكان الذي اعتلى منصب البابوية في روما، إبّان هذه الفترة هو «إينياس بيوس الثاني» هذا.

يقول الأستاذ «سوذرن»: «فإن إينياس إيطالياً، وأكبر الإنسانويين المعاصرين وكان في طريقه ليصبح «بابا روما»[٣].

---

(١) صورة الإسلام في أوروبا (١٤١).

(٢) انظر عنه وعن بعض جهوده الكَنَسية: تاريخ الفكر المسيحي عند آباء الكنيسة، للمطران: كيرلس سليم، والأب حنا الفاخوري، والأب جوزيف العبسي (١/ ٨٧).

(٣) صورة الإسلام في أوروبا (١٤٤).

وأحد أهم أعماله التبشيرية التي وصفت بالجريئة، هو رسالته الشهيرة التي كتبها سنة (١٤٦٠م) بعد نحو سبع سنوات من سقوط القسطنطينية، في يد السلطان محمد الفاتح وهي الرسالة التي كتبها هذا البابا إلى السلطان محمد الفاتح نفسه يدعوه فيها إلى ترك الإسلام والدخول في النصرانية.

يقول الأستاذ: «سوذرن» عن هذه الرسالة: «تعتبر هذه الرسالة التي وجهها إلى محمد الثاني فاتح القسطنطينية، عام (١٤٦٠م)، نموذجاً رائعاً للرسائل من هذا النوع تبدو فيها بلاغة «إينياس» العالية، وحكمته وعمقه، في فهم نفسية العثمانيين، وقدرته على مجاراتهم في كبريائهم»[(١)].

إلا أن «سوذرن» يعترف بافتقارها إلى الصدق في عرض المضمون خاصة ما يتعلق بحقائق الديانة المسيحية.

يقول «سوذرن»: «بيد أن النقص الأساسي يتمثل في فقد الحرارة والاستقامة العميقة «فإينياس»، مَثَلُه في ذلك مثل المحامي الذي يعرض قضية بطريقة موضوعية ودفاعية دون أن يمسّ شغاف القلوب، لقد كان «إينياس» رجل دولة جالساً على عرش روما، ومن وجهة النظر هذه اعتقد أنه من المفيد توجيه مثل هذه الرسالة إلى السلطان الغازي المهدد لأوروبا»[(٢)].

وهي نفس النتيجة التي وصل إليها أيضاً الأستاذ «مكسيم ردونسون»، فيقول: «رسالة البابا «بيّوس الثاني» إلى السلطان محمد الثاني (١٤٦٠م)، هي تحفة من هذا الديالكتيكي الماهر، تحاول الإقناع الفكري، لكنها في الحقيقة عمل رجل سياسة، وبالأساس مناورة مجردة عن الصدق»[(٣)].

---

(١) صورة الإسلام في أوروبا (١٤٥). (٢) المصدر السابق.
(٣) جاذبية الإسلام (٣٦).

إذن هي محاولة لإقناع المسيحيين قبل غيرهم بكبرياء الكنيسة في روما، وأنها ما تزال تمثل الريادة الدينية والسياسية في آن واحد.

والذي يهمنا في هذه الدراسة من رسالة هذا البابا هو ما عرض فيها للقرآن الكريم بَهْجر القول.

فهو في محاولته تقريب نص العهدين القديم والجديد للمسلمين ومطالبته باعترافهم بهما، جادل في القرآن الكريم معتمداً على عنصرين اثنين:

* **الأول**: طرح سؤالاً جدلياً معتمداً على منهجية «تاريخية النص» فقال: «أي النصوص أحق بالتصديق، تلك الحديثة العهد التي يعرفها المسلمون، وسلطانهم أم نصوص العهد القديم البالغة القدم والأصالة؟»[1].

وهذه مساءلة مغلوطة لوجوه:

الوجه الأول: بناء على هذه المنهجية المعتمدة على الأقدمية التاريخية يحق لأصحاب الديانات الموغلة في القدم قبل العهد القديم والجديد، والتي تزعم أن لديها نصوصاً مقدسة، أن تستخدم حجة الأقدمية هذه في إبطال قداسة نصوص العهدين القديم والجديد.

الوجه الثاني: يحق لليهود أن يبطلوا أصالة وقداسة وصحة نصوص الأناجيل ومعها ما يسمى سفر رسائل الرسل، وسفر الرؤيا وغيرها، بنفس منهجية البابا «بيّوس الثاني» هذه أن الأناجيل حديثة جدّاً بالنسبة لقدم نصوص اليهود المقدسة فأسفار التوراة وغيرها فماذا سيكون جوابه عن هذا؟

ولذلك اعتبر الأستاذ «سوذرن» مثل هذا الإيراد غريباً، والاعتماد

---

(١) جاذبية الإسلام (٣٦)، وصورة الإسلام في أوروبا (١٤٧).

عليه في مجادلة القرآن أشد غرابة نظراً لتهالك مثل هذه الحجة التي اتكأ عليها هذا البابا[١].

* **والعنصر الثاني** الذي أورده البابا «بيّوس الثاني» في رسالته إلى السلطان محمد الفاتح ويريد به الطعن في صدقية القرآن وكونه حقاً منزلاً من عند الله، أن النبي محمد ﷺ حرّم النقاش حول القرآن، يقول «بيوس الثاني»: «كان محمدٌ ذكياً، ويعرف أن موقفه لا يمكن الدفاع عنه عن طريق العقل والنظر، ولذلك فعل ما هو في مصلحة تعاليمه عندما رفض الكلام حولها، فإذا كان هذا القول من جانبي يهزكم، فإنني أقول لكم إن الشريعة هي العقل في العمل، وما هو ضد العقل هو ضد الشرع، بيد أن شارعكم يحرم الجدل لذلك، فإن ما جاء به ليس معقولاً وليس شرعاً»[٢].

هنا يعود البابا «بيّوس الثاني»، إلى المجادلة بالعودة إلى العقل، وهي نفس الحجة التي اتكأ عليها من قبل قساوسة كثر من أشهرهم «توما الأكويني» وقد تم التباحث معه في ذلك، وأنه إذا فتح باب المحاجة بالتحاكم إلى القضايا العقلية الكلية، واتساق المنقول الصحيح مع المعقول الصريح، فإن القساوسة يفتحون على أنفسهم وما يسمونه بالكتاب المقدس باب الإبطال على مصراعيه، ولذلك فإن «توما الأكويني» كما مرّ معنا يحرم التدخل بالعقل والفكر البشري في فهم وقبول ما يدعو إليه الكتاب المقدس، وهي ذات الحجة التي يوردها هنا هذا البابا «بيّوس الثاني» على القرآن الكريم.

فإما أن يفتح باب المحاجة العقلية في: أي الكتابين هو الحق المحض المتسق مع الفطرة وصحيح العقل، من الكتاب الزائف الملفق،

(١) انظر: صورة الإسلام في أوروبا (١٤٧).
(٢) المصدر السابق، وكتاب: جاذبية الإسلام (٣٧).

الذي كتبه الأحبار والرهبان بأيديهم ثم قالوا هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً.

إنها حجة اليائس المنهزم، وهذه المجادلة إنما تسربت إلى البابا «بيّوس الثاني» من صديقه «نيقولاوس الكويسي»، الآتي ذكره، فإنه أهدى إلى هذا البابا كتاب عن القرآن الكريم[١]، الآتي ذكره، والمدارسة معه فيه.

لم تجد رسالة البابا «بيّوس الثاني» نفعاً، وقابلها السلطان محمد الفاتح بالإهمال.

يقول «سوذرن»: «كل هذا الجهد لم يثمر شيئاً، فمحمد الثاني لم يترك دينه، بل ربما لم تكن المسألة تقتضي منه ذلك»[٢].

• أما رابع هؤلاء الأربعة، رموز هذه الفترة، فهو أشهرهم، وأشدهم مصاولة ومجادلة للقرآن الكريم.

إنه القدّيس «**نيكولا.دو. كوزا**» أو «**نيقولاس الكويسّي**»[٣].

الراهب الألماني الشهير، ولد سنة (١٤٠٠م)، وعيّنه البابا «نيقولاوس الخامس» كردينالاً عام (١٤٢٨م)، وعيّن أسقفاً عاماً بمدينة «بريكسن».

يقول عنه «سوذرن»: «كان نيقولاس أفلاطونينياً في الفلسفة، كما كان معتدلاً ومحباً للسلام، وكانت الوحدة المسيحية محور أفكاره ومساعيه، وكان قد أسهم في شبابه إسهاماً أساسياً في الحوار مع

(١) ذكر ذلك الأستاذ «هاغمن» في كتابه: مسيحية ضد الإسلام (١١٢).

(٢) صورة الإسلام في أوروبا (١٤٨).

(٣) له ترجمة بجميع أعماله في: موسوعة أعلام الفلسفة، إعداد: الأستاذ روني ألفا (٢/٥١٨).

الهوسيين والإغريق، وقد أنفق أعواماً مديدة في جمع كل ما يقع تحت يده عن الإسلام، والقضية الإسلامية»[١].

«فنيقولاوس» هو أحد الرموز الكبار لهذا العصر، عصر حركة «الأنْسَنة».

ويمثل سقوط القسطنطينية، بأيدي المسلمين، نقطة تحول رئيسة في الاهتمام الفكري لدى نيقولاوس.

فقبل هذا الحدث، كان جهده الفكري والتأليف، هو العمل على التوافق المسيحي وحفظ الانسجام بين جسد الكنيسة وروحها، من خلال مؤلفه: «التوافق المسيحي».

أما بعد سقوط القسطنطينية اتجه إلى الاهتمام بدراسة الإسلام، والقرآن، وإجراء المناقشات مع المسلمين، ظهر ذلك جلياً في مؤلفه هذا «نظرة في القرآن».

- **منهجه الفكري الفلسفي:**

تتلخص فلسفته في «نسبية المعرفة»، ففي كل نظام ديني حقيقة نسبية، تشارك في الحقيقة الواحدة الكلية بدرجات متفاوتة.

فشكل في كتابه «سلام الإيمان»، مقارنة خيالية لمختلف الديانات التي جمعها هذا الراهب الفيلسوف، ووحّدها، ضمن ديانة كلية فلسفية، لكن مسيحية، تعتنق التثليث باستحالته العقلية قاعدة عقائدية رئيسة يمكن تفسيرها بحسب كل ديانة، والكتاب المقدس بتناقضاته، مرجعاً دينياً.

هذه الديانة المتخيلة في ذهن «نيقولاوس»، تكون قادرة على توحيد كل المعتقدات وعلى تأمين مصالحة الشعوب.

---

(١) صورة الإسلام في أوروبا (١٣٨).

ومن هذا المنطلق، يصّور «نيقولاوس»، الديانات: اليهودية والمسيحية والإسلام على أنها مظاهر وطرق متنوعة، توصل إلى نتيجة واحدة، إلى الله.

ولكنه جعل الرسول المؤسس الأول هو موسى ﷺ، وأن المكمل المهم الذي أنارها وأظهرها هو المسيح ﷺ، أما محمد ﷺ فهو عند «نيقولاوس»، إنما يكمن دوره في أنه أمكنه ـ بسبب خداعه الشّرير ـ حسب تعبير «نيقولاوس»، وحاشاه ﷺ. أمكنه أن يسهّل تصوير هذه القضية لكي يتمكن الجميع من بلوغها بمن فيهم عبدة الأوثان والأصنام[١].

بعد سقوط القسطنطينية سنة (١٤٥٣م)، وضع «نيقولاوس» كتابه الشهير «سلام الإيمان» «Depace Fidei»[٢].

وهو نص قصصي متخيل عن رجل غيور ـ وهو يعني نفسه هنا ـ رأى رؤيا خرج منها باقتناع أنه يمكن اجتماع عدد من العقلاء والعلماء المختارين بعناية من رموز وقادة الديانات في العالم خصوصاً اليهودية والمسيحية والإسلام، مما يسهل التوصل إلى اتفاق شامل وسلام ديني دائم، ويزعم «نيقولاوس» أنه شاهد خلال رؤياه ممثلين عن أمم الأرض يَدْنون من الله رافعين إليه أيديهم، ليقوم الرسول الأول ـ يعني: به موسى ﷺ ـ ويبتهل باسم الجميع ملتمساً من الخالق أن يتدارك البشر من الشر الذي يسبّبه تنوع الديانات بين الأمم[٣]، ليقوم بعد ذلك،

---

(١) انظر: تاريخ التسامح في عصر الإصلاح، لوكلير (١٥٠).

(٢) انظر عن هذا الكتاب ومحتوياته كلاًّ من: صورة الإسلام في أوروبا، لسوذرن (١٣٨)، وتاريخ التسامح في عصر الإصلاح للوكلير (١٥١)، ومسيحية ضد الإسلام، لهاغمن (١٠٩)، وموسوعة أعلام الفلسفة، لروني ألفا (٥١٩/٢).

(٣) نقل لوكلير صيغة هذا الابتهال في تاريخ التسامح (١٥١)، وختمه: «فليكن ثمة ديانة واحدة وعبادة واحدة لك أنت أيها الإلٰه الواحد».

الابن، كلمة الله ـ يعني: به المسيح ﷺ ـ مدافعاً عن البشر أمام الله الأب فيجيبه الأب بإرسال ملائكة الأمم لاستقدام أكثر رجال العالم حكمة من أجل عقد مجمع ليعلن فيه كلمة الله إرادة الخالق، لتتحول جميع التنوعات الدينية، برضى البشر أجمعين إلى ديانة واحدة يتعذر خرقها بعد اليوم(١).

يمكن أن نخلص مما تقدم إلى أن مشروع «نيقولاوس» يقوم على:

١ ـ إعادة شيء من أفكار سابقيه، خصوصاً: توما الأكويني، وريموند لول، في محاولاتهم إقناع المسلمين بالمسيحية، وصحة الأناجيل عن طريق مثل هذه الأطروحات.

٢ ـ إلا أن «نيقولاوس» كان أكثر خيالية، وجنوحاً في عالم التوهم في فكرته وأطروحته، ولعل ذلك هروباً من واقع المسيحية المنحدر إن على مستوى الطرح الإقناعي، والدعوة التبشيرية الطويلة الفاشلة، وأو على مستوى الهزيمة العسكرية والتقهقر إلى داخل أوروبا بعد الهزيمة الساحقة بسقوط القسطنطينية بيد المسلمين سنة (١٤٥٣م).

٣ ـ وفي نفس الوقت لا نغفل التأثر الواضح بالفلسفة الإشراقية الأفلاطونية.

يقول «لوكلير» عن فكرة «نيقولاس» هذه: «إذا ما أخذنا النوع الأدبي لهذا المؤلَّف بعين الاعتبار كما يقتضي فعله طبعاً، تحقق لدينا أننا لسنا أمام بحث لاهوتي ـ واقعي ـ بل أمام ما يشبه: «المدينة الفاضلة»، التي تصالح الاتجاهات الدينية على اختلافها في حلم المسيحية الكونية»(٢).

---

(١) تاريخ التسامح في عصر الإصلاح (١٥٢).

(٢) المصدر السابق.

ثم يعترف «لوكلير» بأن «نيقولاوس» بأفكاره الحالمة هذه، تجاوز كل التجاوز، واختلف كل الاختلاف عن الطرح المسيحي الذي نادى به القدّيسان «برنارد»، و«توما الأكويني»، بل وحتى «ريمون لول» أيضاً[(١)].

• موقف «نيقولاوس. دو. كوزا» من القرآن الكريم:

«نظرة في القرآن»، «Cribration Alkrani»، هذا هو العنوان الذي سمّى به الكردينال «نيقولاوس الكويسيّ»، كتابه المؤلف من ثلاثة أقسام، والذي ألَّفه بين عامي (١٤٦٠ ـ ١٤٦١م)، واجتهد فيه في مناقشة لاهوتية مع الإسلام كما يقوله الأستاذ «هاغِمن»[(٢)].

يرى الأستاذ: «هاغِمن»، في تقييم عام لكتاب «نظرة في القرآن»: «أنه البحث عن إمكانيات جديدة على الدوام يرى أنها تصلح لأن تكون نقاط اتصال تمهد للمسلمين الطريق إلى العقيدة المسيحية»[(٣)].

بينما يرى لوكلير: «أن هذا الكتاب لم يكن دحضاً للقرآن بقدر ما كان دعوة إلى فحص المعطيات التي يمكن الإفادة منها في اجتذاب المؤمنين المسلمين إلى الإنجيل»[(٤)].

والمنهج الذي سلكه في كتابه هذا يقوم على محورين:

الأول: تحليل القرآن الكريم، وفحصه بعناية لمحاولة تنقيته ـ كما يزعم ـ من ذلك الخليط من عناصر ومدخلات شديدة التباين، وذات أصول يهودية، أو هرطقة مسيحية سواء كانت «آريوسية» أو «نسطورية».

الثاني: الإبقاء على المضامين المادحة للمسيح والإنجيل، والمتوافقة إلى حدٍ ما مع الكتاب المقدس لديه.

---

(١) تاريخ التسامح في عصر الإصلاح (١٥٣). (٢) مسيحية ضد الإسلام (١٠٩).
(٣) المصدر السابق.
(٤) تاريخ التسامح في عصر الإصلاح (١٥٠).

ينقل الأستاذ «هاغمن» عن «نيقولاوس»: «ما كان «نيقولاوس» يريده في الحقيقة، وما كان يعنيه في مجادلته اللاهوتية مع الإسلام، كان قد عبّر عنه في رسالته التي كتبها إلى «يوحنا السيغوفي»، في كانون الأول عام (١٤٥٤م)، وفيها: «يجب علينا أن نحاول دائماً أن نجعل ذلك الكتاب الذي يتمتع بالمرجعية عندهم ـ أي: المسلمين ـ معتمداً عندنا، ذلك لأننا نجد فيه مواضع تعد مفيدة لنا، والمواضع الأخرى التي تناقضنا نستطيع تأويلها عن طريق تلك المواضع»[(١)].

هذه مسلكية منهجية واضحة، وقانون كلي وضعه «نيقولاوس» في التعامل وفحص آيات القرآن الكريم كما يريد، وهو: تقبل الآيات التي فيها ثناء على مريم والمسيح عليه السلام والتي فيها الإخبار أن التوراة والإنجيل منزلان من عند الله، وأن المسيح، هو كلمة الله وروح منه، والآيات التي فيها الثناء على النصارى وأنهم أقرب مودة للذين آمنوا ونحو ذلك، أما الآيات الكاشفة للشرك، والتعددية والتثليث عند النصارى، وكذلك ما كشفه القرآن عما أخفوه وحرفوه، وبدلوه، فسيتخلص منها «نيقولاوس» عن طريق التأويل الذي نتيجته تفريغ النص من محتواه، وبالتالي رده والتخلص من دلالاته.

ثم ما هو الميزان والمقياس في تحديد ما يقبل وما لا يقبل من القرآن عند هذا الكردينال؟ إنه ما يسمى الكتاب المقدس، فهو الحكم والمرجع.

يقول الأستاذ «هاغِمن»: «هذا هو مراده، وهو الخيط الموجّه لتفسيره للقرآن؛ أي: تأويل القرآن من جهة النظر، الإنجيلية، وبهذا الافتراض الأوّلي يمكن النظر إلى كتاب «نظرة في القرآن»؛ بأوسع معانيه، على أنه دفاع عن العقيدة المسيحية»[(٢)].

---

(١) مسيحية ضد الإسلام (١١٠).
(٢) المصدر السابق.

وهذا المسلك قديم، سلكه كل من يريد التخلص من دلالات القرآن، وأكبر ظني أن هذا الكردينال «نيقولاوس» استقى هذا المسلك، مما قرأه واطلع عليه، من كتابات الفلاسفة الإسلاميين، كابن رشد وابن سينا، وخاصة الفلاسفة المتبنين لفلسفة أفلاطون الإشراقية كالسهروردي[١] وغيره ففي سيرته ما يدل على ذلك، وكذلك مسالك المتكلمين الذي ظهروا في الأمة الإسلامية وأقاموا بناءهم الاستدلالي على قواعد المنطق، الذي هو علم وضعي يوناني.

فاستخدم هذا القانون الكلي: نفاة صفات الله تعالى، في التخلص من دلالات الآيات القرآنية الصريحة في إثبات صفات الكمال لله تعالى.

واستخدمه كذلك نفاة القدر في تأويل الآيات المثبتة للقدر السابق والفراغ منه؛ بل وحتى الباطنية بطوائفها المختلفة، تدخلوا بالتأويل الباطني البعيد لجر دلائل القرآن على عقائدهم الباطنية الفاسدة كل الفساد.

فصار التأويل بحق هو الطاغوت الكلي لكل خصوم وأعداء القرآن الكريم ودلالاته العظيمة، وكل له مرجعه وميزانه.

وزاد «نيقولاوس» هنا، اتهام النبي ﷺ، والقرآن الكريم، بأنه سلك طريقة مُخَادِعة وشرّيرة، وهي حسن تصوير تلك الأمور المرفوضة عند النصارى، والمصادمة لأناجيلهم الموضوعة، وهو؛ أي: النبي ﷺ إنما يفعل ذلك لكي يقنع بدعوته الجهال والأجلاف من عبدة الأوثان.

يقول «نيقولاوس»: «هذا الطريق هي نفسها التي سعى محمد جاهداً، وإن يكن قد وقع فريسة خداع الشرير إلى تصويرها أسهل من

---

(١) هو: شهاب الدين أبو الفتوح يحيى بن الحسن السهروردي، عرف بالفلسفة الإشراقية على الطريقة الأفلاطونية، ومن أشهر كتبه كتاب: هياكل النور و«حكمة الإشراق»، قتل سنة (٥٧٨هـ)، انظر: أصول الفلسفة الإشراقية، د. محمد أبي ريان.

سابقيتها[١]، لكي يتمكن الجميع من بلوغها بمن فيهم عبدة الأوثان والأصنام»[٢].

وهذا مسلك ملاحدة الفلاسفة، وزنادقة الباطنية، ودعاة وحدة الوجود من الزنادقة المعادين لله وأنبيائه وكتبه.

وقد كشف جانباً من هذه الالتوائية في التعامل مع القرآن الكريم ونصوصه المباركة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية فيقول: «ومثل هذا القانون الذي وضعه هؤلاء يضع كل فريق لأنفسهم قانوناً فيما جاءت به الأنبياء عن الله تعالى، فيجعلون الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه هو ما ظنوا أن عقولهم عرفته، ويجعلون ما جاءت به الأنبياء تبعاً له، فما وافق قانونهم قبلوه وما خالفه لم يتبعوه.

وهذا يشبه ما وضعته النصارى من أمانتهم التي جعلوها عقيدة إيمانهم[٣]، وردّوا نصوص التوراة والإنجيل إليها، لكن تلك الأمانة اعتمدوا فيها على ما فهموه من نصوص الأنبياء أو ما بلغهم عنهم، وغلطوا في الفهم، أو في تصديق الناقل كسائر الغالطين ممن يحتج بالسمعيات، فإن غلطه إما في الإسناد، وإما في المتن، وأما هؤلاء فوضعوا قوانينهم على ما رأوه بعقولهم، وقد غلطوا في الرأي والعقل.

ولهؤلاء في نصوص الأنبياء طريقتان: طريقة التبديل، وطريقة التجهيل، أما أهل التبديل فهم نوعان: أهل الوهم والتخييل، وأهل التحريف والتأويل.

---

(١) يعني: التوراة والإنجيل.

(٢) من كتاب: نظرة في القرآن، نقلاً عن: تاريخ التسامح للوكلير (١٥٠).

(٣) تم اعتماد النصارى نص الأمانة في مجمع نيقية سنة (٣٢٥م)، وهي تعتمد التثليث عقيدة رسمية للملة النصرانية، انظر نص الأمانة في: قصة الحضارة، وِلْ ديورانت (١١/ ٣٩٥)، وكتاب: كنيسة مدينة الله، لأسد رستم (١/ ٢٠٣).

فأهل الوهم والتخييل هم الذين يقولون: إن الأنبياء أخبروا عن الله وعن اليوم الآخر والجنة والنار والملائكة بأمور غير مطابقة للأمر في نفسه، ولكنهم خاطبوهم بما يتخيلون به ويتوهمون به»[١].

وأدخل الشيخ كَلَله في هذا النوع: الفلاسفة والباطنية من ملاحدة الإسماعيلية ورسائل إخوان الصفا، والفارابي وابن سينا والسهروردي، وملاحدة الصوفية كابن عربي وابن سبعين وغيرهم، والكردينال «نيقولاوس» يدخل في هذا النوع بمسلكه في كتابه: فحص القرآن أو نظرة في القرآن.

ثم ذكر شيخ الإسلام أهل التحريف والتأويل فقال: «وأما أهل التحريف فهم الذين يقولون: إن الأنبياء لم يقصدوا بهذه الأقوال إلا ما هو الحق في نفس الأمر، وإن الحق في نفس الأمر هو ما علمناه بعقولنا، ثم يجتهدون في تأويل هذه الأقوال إلى ما يوافق رأيهم بأنواع التأويلات، بإخراج اللغات عن طريقتها المعروفة، والاستعانة بغرائب المجازات، والاستعارات»[٢].

أما زعم «نيقولاوس»، أن النبي ﷺ سلك طريقة إقناعية سهلة، بطريقة كما يقول مخادعة وشريرة، ليقنع غتم الأعراب من عبدة الأصنام، فهذه الساقطة إنما التقطها «نيقولاوس» من ملاحدة الفلاسفة الدهريين أعداء الأنبياء، ومنكري خلق الله تعالى للعالم، ومنكري البعث الجسماني للخلائق، وعلى رأسهم ابن سينا، فإن هذا هو نص كلامه ومسلكه، وإن كان ابن سينا استخدم هذا مع نصوص القرآن الذي جاء به رسول الله ﷺ، واستخدمه كذلك حتى مع نصوص التوراة التي جاء بها موسى عليه السلام.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٦ ـ ٩) باختصار.
(٢) المصدر السابق (١/ ١٢).

فالتقط «نيقولاوس» من ابن سينا ما يتعلق برسول الله محمد ﷺ، دون ما يتعلق بنبي الله موسى ﷺ.

لنقف قليلاً مع كلام ابن سينا في رسالته الأضحوية التي كتبها جواباً لأحد الأمراء[١] في شأن المعاد ونفي حشر الأجساد.

يقول ابن سينا: «فظاهر من هذا كله أن الشرائع واردة لخطاب الجمهور بما يفهمون مقرباً ما لا يفهمون إلى أفهامهم بالتشبيه والتمثيل، ولو كان غير ذلك لما أغنت الشرائع البتّة، فكيف يكون ظاهر الشرائع حجة في هذا الباب»[٢].

وقال أيضاً: «فإن المبرزين المنفقين لياليهم وأيامهم وساعات عمرهم على تمرين أذهانهم وتذكية أفهامهم، وترشيح نفوسهم بسرعة الوقوف على المعاني الغامضة، يحتاجون في تفهم هذه المعاني، إلى فضل إيضاح، وشرح عبارة، فكيف بغُتْم العبرانيين، وأهل الوَبَر من العرب»[٣].

هذا وقد رد عليه، وكشف تزييفه، شيخ الإسلام ابن تيمية[٤] رحمه الله، وليس غرضنا في هذه الدراسة دراسة ومناقشة كلام ابن سينا وموقفه من نصوص القرآن الكريم، فإن هذا خارج عن حدود هذه الدراسة.

وإنما أردنا أن نبين أن الكردينال «نيقولاوس»، لم يستحدث شيئاً، وإنما هو في كتابه هذا عالة على هؤلاء، وأن ما كتبوا في مصادمة القرآن الكريم هي الجذور المنهجية والخلفية الفكرية له في كتابه هذا.

---

(١) الأضحوية في المعاد، ألفها ابن سينا للشيخ الأمير السيد أبي بكر أحمد بن محمد البرقي الخوارزمي في يوم عيد الأضحى، طبعت بتحقيق، د. حسن عاصي، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط. الثانية، ١٩٨٧م.

(٢) الأضحوية في المعاد (١٠٣).

(٣) المصدر السابق (١٠١).

(٤) وذلك في درء تعارض العقل والنقل (٥/ ١٠ ـ ٧٠).

• مصادر كتاب «نظرة في القرآن» لـ «نيقولاوس. دو. كوزا»:

أفادنا أحد الدارسين والفاحصين لكتاب «نظرة في القرآن» وهو أستاذ اللاهوت الألماني: «لودفيغ هاغمن»، بالمصادر الأدبية واللاهوتية التي استقى منها «نيقولاوس» وبنى عليها كتابه، وأمدنا بقائمة لتلك المصادر، والتي هي في الحقيقة ما قدم ذكره في أول كتابه «نيقولاوس» نفسه.

يقول «هاغِمَن»: «من الأمور الباعثة للسعادة أن نيقولاوس الكويسّي»، يقدم منذ بداية كتابه «نظرة في القرآن»، بياناً عن مراجعه الكتابية، بعضها مترجم من العربية إلى اللاتينية، وبعضها كتب باللاتينية»[(١)].

وبالنظر في قائمة هذه المراجع التي اعتمد عليها «نيقولاوس» نجدها جميعها إلا قليلاً قد دخلت ـ والحمد لله ـ معنا في هذه الدراسة، وسبق البحث فيها مع القساوسة المتقدم ذكرهم.

وهذه المصادر هي:

١ ـ ترجمة القرآن إلى اللاتينية، وهو مشروع بطرس المبجل، وروبرت الكيتوني، والتي أنجزت عام (١١٤٣م)، وقد سبق الحديث عنها مفصلاً في دراستنا هذه.

٢ ـ رسالة: عبد المسيح بن إسحاق الكندي، وقد نُقلت إلى اللاتينية، وأيضاً سبق لنا معها دراسة واسعة وتفنيد لما فيها من الافتراءات والحمد لله.

٣ ـ الكتاب المزوّر المنسوب لعبد الله بن سلام ﷺ تحت اسم «مسائل عبد الله بن سلام» وقد تقدم أيضاً النظر فيها وتفنيدها، وتزييف نسبتها لعبد الله بن سلام.

---

(١) مسيحية ضد الإسلام (١١٤).

٤ ـ الخلاصة الجامعة لهرطقات المسلمين، لتوما الأكويني، وسبق أيضاً النظر فيه.

٥ ـ رسالة تنسب إلى بطرس المبجل أرسلها إلى صديقه: برنارد فون كليرفو، بشأن مشروعه لترجمة القرآن، وسبق ذكرها وما يتعلق بها.

٦ ـ كتاب «ضد شريعة المسلمين» للقديس: «رِكُلْدُس دي مونتي كروتشي»، وسبق بنا أيضاً دراستها والبحث فيها.

٧ ـ عقلانية الإيمان، لتوما الأكويني وهو أجوبته لـ«كُنْتُر الأنطاكي» حول عقلانية الإيمان المسيحي، وسبق النظر فيها[1].

هذه هي الكتب والمصادر التي اعتمد عليها الكردينال «نيقولاوس الكوسّي»، ومنه نعلم أن الرجل كل الذي عمله: أنه أعاد جمع وصف وتوظيف ما تفرق في كتب القساوسة قبله، واستخدامها في دراسته ونظره في القرآن الكريم، وهذا يعني بالضرورة أن الشبهات التي يذكرها ليست بالجديدة، إنما هو إعادة صياغة لها وتوظيفها في مشروعه المزعوم، لتقريب المسيحية بتناقضاتها الكبيرة إلى المسلمين.

القضايا التي ناقشها «نيقولاوس» وجادل فيها القرآن الكريم:

القضية المحورية الكبرى في جدلية «نيقولاوس» مع القرآن الكريم، بحسب «جوزيف لوكلير» هي قضية ماهية شخصية «يسوع المسيح»، كان «نيقولاوس مقراً بصعوبة إقناع المسلمين بالتثليث استناداً إلى وحدة الجوهر، أما ما يتعلق بالتّجسد فإن المخاطرة ستكون عسيرة كما كانت من البداية، ويضيف قائلاً: «إن هذا الجزء سيظل صعباً إلى أقصى الدرجات، كما كان على الدوام»[2].

---

(١) انظر: كتاب: مسيحية ضد الإسلام (١١٤ ـ ١١٥).

(٢) تاريخ التسامح (١٥١).

إن «نيقولاوس» يعلم تماماً، بحسب «هاغمن»: أن القرآن هو الذي طرح السؤال المتعلق بطبيعة المسيح، وأصدر الحكم والبيان الحاسم في ذلك: ليس عيسى ابن الله، ولا هو الله، وإنما هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ١٧١].

فبأي أسلوب تأويلي سيتفادى «نيقولاوس» هذا الوضوح والصراحة والحسم[١].

وبحسب المطلعين على كتاب «نظرة في القرآن» وهما: «جوزيف لوكلير»، و«لود فيع هاغمن» سنذكر أبرز مخرجات واستنباطات «نيقولاوس» التأويلية، التي يريد من خلالها الاستناد إلى القرآن الكريم في تبرير الانحرافات الشنيعة للمسيحية في طبيعة المسيح، والتجسد والتثليث، وغيرها.

١ ـ وصف المسيح عيسى عليه السلام في القرآن بأنه «كلمة الله».

وظّف «نيقولاوس»، وصف المسيح عليه السلام بـ«كلمة الله»، في القرآن مستخدماً الوسائل التأويلية، لتؤدّي إلى المعنى المراد في العقيدة المسيحية: فكون المسيح هو الكلمة عند النصارى «يعني الحقيقة التي لا يُحاط بها علماً، وهي أن الأقنوم الثاني من الثالوث الأقدس، هو: الكلمة، وهو ابن الله ـ تعالى ـ مع كونه من الأزل هو والأب والروح

(١) مسيحية ضد الإسلام (١١٥).

القدس عين الإلٰه الحق الذي برأ جميع الكائنات»[١].

من المعلوم أن القرآن الكريم وصف المسيح ابن مريم عليه السلام بهذا الوصف «كلمة الله» قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

هذه اللفظة «الكلمة»، ومشتقاتها، عندما تضاف إلى الله صفة أو فعلاً في القرآن الكريم، فإنه تدور على ثلاثة معانٍ عند المسلمين وعلمائهم وكتب تفسيرهم.

المعنى الأول: كلمة الله تعالى الخلّاقة، التي يكون بها الوجود والموجود، ويشمل ذلك إيجاد الموجودات من العدم، وبعث الموتى من الرِّمَم.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

ونظائرها في القرآن.

«فكن» هي كلمة الله الصادرة عن الله تعالى فهي من كلامه وقوله، فهي صفته تعالى، وما تكوّن بها هو المكوَّن المخلوق.

فكل شيء أراد الله تكوينه، يصدر عليه أمره بقوله: «كُنْ»، فيكون ذلك شيء.

---

(١) انظر: سر يسوع المسيح أو الكلمة المتجسد، لتوما الأكويني، ضمن الخلاصة اللاهوتية (٦/ ٣٦٨).

فالمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام غير خارج عن هذا القانون الإلٰهي في تكوين الأشياء، فهو ليس عين كلمة الله التي هي «كن»، وإنما هو تكون فكان بهذه الكلمة وهذا لا يخص المسيح وحده، فكل شيء أراد الله إيجاده وتكوينه إنما يقول له: «كُنْ» فيكون.

ولذلك قدّم القرآن جواب شبهة النصارى في مجادلتهم جعل المسيح هو عين الكلمة، ورد عليهم فقال تعالى عن المسيح عليه السلام: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩].

ومن أسرار القرآن الكريم: أنه في كل المواضع التي يذكر الله تعالى فيها هذا المعنى إنما يذكره ليرد فرية المفترين، وكذب الكاذبين، وكفر الكافرين الذين نسبوا لله تعالى الولد، وهو الله الواحد الأحد، وعلى رأس هؤلاء النصارى.

ففي سورة البقرة يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [البقرة: ١١٦].

ثم يقول بعدها مباشرة: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: ١١٧].

وفي سورة آل عمران في خصوص ولادة المسيح عليه السلام، الذي جعله النصارى ابناً لله تعالى.

قال تعالى عن مريم عليها السلام: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران: ٤٧].

وفي سورة آل عمران أيضاً نجد قوله تعالى عن المسيح أيضاً: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩].

وفي سورة مريم بعد السياق العظيم المهيب في خبر مريم عليها السلام وحملها وولادها بالمسيح عليه السلام قال تعالى في رده على النصارى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ [مريم: ٣٤، ٣٥].

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: «ولكن المعنى من قول الله جل ثناؤه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]»، فالكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال: «كُنْ»، فكان عيسى بكنْ، وليس عيسى هو الكُنْ، ولكن بالكُنْ كان، فالكُنْ من الله قول وليس الكُنْ مخلوقاً، وكذب النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى[1]، وذلك أن الجهمية قالوا: عيسى روح الله وكلمته لأن الكلمة مخلوقة، وقالت النصارى: عيسى روح الله من ذات الله وكلمته من ذات الله كأن يقال: هذه الخرقة من هذا الثوب، وقلنا نحن: إن عيسى بالكلمة كان، وليس عيسى هو الكلمة.

وأما قول الله: «وروح منه»، يقول: من أمره كان الروح فيه، كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، يقول: من أمره، وتفسير روح الله إنما معناها، أنها روح بكلمة الله خلقها الله كما يقال: عبد الله، وسماء الله، وأرض الله»[2].

معنى هذا أن إضافة الروح إلى الله من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، تشريفاً وتكريماً كما يقال رسول الله، بيت الله، عباد الله.

---

(١) الإمام أحمد رحمه الله في جمعه بين النصارى والجهمية في بيان خطأهم، هو مستحضر القاعدة التأويلية التحريفية التي يستخدمها كلا الطرفين، فكل يأول نص القرآن على هواه وبدعته وضلالته، وهو تأويل من جنس التحريف وتبديل الكلم عن مواضعه كما مرّ بيان ذلك.

(٢) كتاب الرد على الجهمية والزنادقة (٤٠)، طبعة: قُصي محب الدين الخطيب، القاهرة، ١٣٩٩هـ.

مما يؤيد هذا ويتممه: أن الله تعالى وصف أبانا آدم وهو أصل الوجود البشري بذلك أيضاً فقال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٩]، وغيرها من الآيات.

بل كل بني آدم إنما يكونون بشراً أحياءاً بعد أن ينفخ الله فيهم من روحه، فلا اختصاص لعيسى عليه السلام بذلك.

وما ذكره الإمام أحمد، هو قول التابعي قتادة في تفسير هذه اللفظة.

فقد أسند عنه الإمام الطبري قوله: «بكلمة منه، قال: قوله: كُن»[(١)].

إلا أن الطبري اختار في تفسيرها معناً آخر فقال: «يعني برسالة من الله وخبر من عنده، وهو قول القائل: «ألقى فلان إليَّ كلمة سرّني بها»... كما قال تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧]، يعني: بشرى الله مريمَ بعيسى، ألقاها إليها، فتأويل الكلام: وما كنت يا محمد، عند القوم إذ قالت الملائكة: يا مريم إن الله يبشرك ببشرى من عنده هي: ولدٌ لك اسمه المسيح عيسى ابن مريم»[(٢)].

فلا أدنى متمسك للكردينال «نيقولاوس» في هذه الإضافة «كلمته» و«روح منه» ونحوها على ما أراد من كون المسيح ابناً لله تعالى، وأنه إله تجسد في صورة إنسان مما هو اعتقاد النصارى.

أما المعنى الثاني للفظة «الكلمة» مضافة إلى الله تعالى في القرآن الكريم.

المراد بها: كلمته تعالى المنزلة على أنبيائه ورسله، المتضمنة شرعه

---

(١) تفسير الإمام الطبري (٣/ ٢٦٨).

(٢) المصدر السابق، وأعاد الطبري هذا المعنى في (٤/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤).

وأمره وخبره، فإنما أنزل على رسل الله تعالى: وحيٌ، وقول، خبر، ضُمّن في كتبه المنزلة:

فالقرآن الكريم: هو كلمة الله تعالى المنزلة على رسوله محمد ﷺ.

والتوراة: هي كلمة الله المنزلة على رسوله موسى عليه الصلاة والسلام.

والإنجيل: هو كلمة الله المنزلة على عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام.

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

وقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ [البقرة: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٢]، وغيرها من الآيات.

المعنى الثالث: تأتي بمعنى القضاء السابق المبرم الذي يصير إليه الخلائق.

ويجعلون من هذا المعنى آيات كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾﴾ [غافر: ٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [هود: ١١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤].

وغيرها من الآيات.

يقول الأستاذ: «هاغمن» مبيناً فشل مشروع: «نيقولاوس التأويلي» لإيجاد مدخل له في القرآن يؤيد عقيدته النصرانية الضالة الفاسدة: «ولذلك لا يمكن لهذه الصياغة أيضاً أن تساق دليلاً على ألوهية عيسى، وأن تكون بذلك دليلاً على تصور للربوبية قائم على التثليث، ويستطيع المرء إذاً أن يقرر بحق أن: «الكلمة» في صدد الحديث عن عيسى لا تفيد بحسب ورودها في القرآن سوى أن عيسى:

أ ـ إنما بُعث إلى الوجود عن طريق الخلق الإلٰهي.

ب ـ أنه يعد كلمة الله من حيث كونه نبياً ورسولاً من الله يبشر بكلمة الله: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: ٤٥].

ومن الجائز أن يكون قد تبين بما يكفي من الوضوح أنه لا يمكن، ولا يجوز أن يستنتج من مجرد التشابه الشكلي بين التعبيرين القرآني، والإنجيلي، القائل: إن عيسى «كلمة الله» التطابق في المضمون بين كلتيهما، وحتى إذا أمكن أن يكون أصل المصطلح القرآني متأثراً بالمسيحية فقد أضفى محمد عليه معنىً جديداً يتوافق مع التوحيد الصارم الذي يمثله. . .

وما يصح على الإشارة إلى عيسى بأنه «كلمة الله»، ينطبق كذلك أيضاً على وصفه بإنه: «روح الله»، وذلك ما يفصل فيه القول «نيقولاوس» أيضاً، ففي كلتا الحالتين يجري التأكد في هذا السياق على مخلوقية عيسى على الخصوص، فقد بُعثت الحياة[١] في عيسى بكلمة الله

---

(١) وقع في الطبعة العربية المترجمة عن الألمانية من كتاب «هاغمن»، هنا «الحيلة»، وهو خطأ وصوابه الحياة كما يقتضيه السياق حتماً.

الخاصة بالخلق[١]، ونُفخ فيه الروح شأنه شأن «آدم»، ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٩][٢].

٢ ـ وصف المسيح ﷺ في القرآن بأنه «وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين» ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: ٤٥].

قال علماء الإسلام بأن معنى كلمة «وجيهاً»؛ أي: «ذا وجهٍ ومنزلة عالية عند الله، وشرف وكرامة»[٣].

وكما وُصف بها نبي الله وعبده عيسى ﷺ كما في هذه الآية أيضاً، وُصف بها نبي الله ورسوله موسى بن عمران ﷺ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: ٦٩].

أي: ذو منزلة عالية وشرف وكرامة عند الله تعالى.

وكل أنبياء الله تعالى ورسله الكرام عليهم الصلاة والسلام، هم ذو وجاهة ومنزلة وشرف وكرامة عند الله تعالى بحسب منازلهم ومراتبهم عند الله تعالى.

وإذا عدنا إلى تلك الترجمة المحرفة للقرآن التي وضعها «روبرت الكيتوني» بإشراف «بطرس المبجل» نجدهم، جعلوا معنى كلمة «وجيهاً» بمعنى «وَجْه»، وأضافوا إليها ما يفيد العموم، فجاءت هكذا: «وَجْه كل الشعوب»[٤]، أو «وَجْه لكل الشعوب».

---

(١) كلمة الله الخاصة بالخلق هي كلمة «كُنْ» كما ذكرنا.
(٢) مسيحية ضد الإسلام (١١٧/١١٨).
(٣) ذكر ذلك الإمام الطبري في تفسيره (٣/ ٢٧٠)
(٤) تقدم ذكر هذا عند دراسة هذه الترجمة.

وهو خطأ تفسيري فادح، وترجمة غير أمينة بل محرفة، أو «خطأ من العيار الثقيل ترتب عليه نتائج فادحة» كما يقول «هاغِمَن»(١).

فجاء «نيقولاوس» فأخذ هذه الترجمة المحرفة من ترجمة «روبرت الكيتوني» وأدخل عليها من التأويلات الغريبة، ليصل إلى نتيجة خاطئة وكاذبة جداً: بأن المسيح بحسب القرآن هو ابن الله المحبوب وأمل كل الشعوب في الخلاص(٢).

فنظم هذا التحريف الفاسد ضمن منظومة الخلاص في الاعتقاد المسيحي.

إذْ أدخل هذا التحريف الفاسد: «وجهاً لكل الشعوب»، في إطار منظور الخلاص الموجود في العهد الجديد.

ويزعم «نيقولاوس»: أن القرآن عندما يصف المسيح بأنه «وجه كل الشعوب»، إنما يعبر عما أفاد به سفر المزامير عنه: «إنك لجميل جمالاً لا يتسم به أحد بين البشر وقد سُكِب السحر على شفتيك، وهكذا باركك الله إلى الأبد»(٣).

---

(١) مسيحية ضد الإسلام (١١٨).
(٢) تاريخ التسامح للوكلير (١٥٢)، مسيحية ضد الإسلام (١١٨)..
(٣) سفر المزامير، المزمور (٤٥)، الفقرة (٣)، في الطبعة العربية المعتمدة لدى الطائفة الرهبانية اليسوعية وجمعيات الكتاب المقدس بالمشرق يوجد النص هكذا: (إنك أجمل بني آدم، والظَّرف على شفتيك انكسب فلذلك باركك الله للأبد)، وبحسب هذا النص يكون المسيح من جملة بني آدم، لا ما يشعر به النص كما نقله «نيقولاوس»، ثم إن شراح العهد القديم ذكروا توجيهات لمن هو الممدوح بهذا الشعر، بأنه قد يكون نبي الله سليمان أو يربعام الثاني أو آحاب الذي تزوج أميرة من صور، والكثير منهم حتى صار تقليداً يهودياً ومسيحياً معاً: أن المراد عُرْس للملك ألمشيح والملكة إسرائيل، راجع: شروحات الكتاب المقدس عن المزمور المذكور.

كما سبكه مع نص إنجيل مَتَّى: «فرأى روح الله يهبط كأنه حمامة وينزل عليه، وإذا صوت من السماوات يقول: هذا هو ابني الحبيب الذي عنه رضيت»(١).

فيريد «نيقولاوس» بهذا التحريف المقيت، والتعسف الشديد، أن يصل إلى نتيجة مفادها: اتفاق القرآن الكريم مع العهد القديم ـ سفر المزامير ـ مع العهد الجديد ـ إنجيل مَتَّى ـ كلها تشير إلى المسيح بأنه ابن الله المحبوب، أمل كل الشعوب بالخلاص.

بأي منطقية، أو عقلانية، يريد هذا الكردينال الفيلسوف أن يجذب المسلمين ـ كما يزعم ـ إلى تقبل «فكرة الخلاص» والتجسد ونسب الولد إلى الله تعالى، والتثليث، ومن خلال القرآن الذي كان حرباً على هذه المدخلات الوثنية على الديانة النصرانية، من صناعة بولس الملقب بالرسول، وبطرس الأنطاكي وغيرهم؟!

ليس إلا الجنوح الخيالي هروباً من الواقع، مستحضراً الفلسفة الأفلاطونية الحالمة الهائمة في عالم الخيال.

يقول «هاغِمَن» في كتابه «نظرة في القرآن»: «يُدخل «نيقولاوس» لقب المسيح القرآني الموهوم في إطار منظور قصة الخلاص الموجود في العهدين القديم والجديد، وهو يقول: إن القرآن حين يشير إلى يسوع بلقب «وجه كل الشعوب» إنما يعبر عما أفاد به، كاتب المزامير عنه على سبيل التوقع... مع الإشارة إلى إنجيل مَتَّى (٣: ١٧)، يقرر «نيقولاوس» أن المسيح هو ابن الله المحبوب الذي يظفر بمرضاة الرب»(٢).

كأن «نيقولاس الكويسّي» شعر أنه تمادى في الخيالية، والتأويلية، فذهب ليضع قاعدته الفلسفية، التي يعوّل فيها على أن الاختلاف الشديد

---

(١) إنجيل مَتَّى (٣/١٦ ـ ١٧).

(٢) مسيحية ضد الإسلام (١١٩).

ما هو إلا تنوع يمكن عن طريق اللغه التأويلية تقبله للوصول إلى الإيمان الجامع على الطريقة المسيحية.

يقول: «متى سلمنا بذلك لم تعد التنويعات الطقسية تؤثر فينا سلباً؛ لأن تأسيسها كان من أجل اقتبالها، كإشارات حسية على حقيقة الإيمان ومعلوم أن ما يتغير هو هذه الإشارات، لا الموضوع الذي تقع عليه الدلالة»[١].

إذن النتيجة التي يصل إليها «لوكلير» هي: «فإذا ما أخذنا هذا النوع الأدبي[٢] لهذا المؤلف[٣] بعيني الاعتبار، تحقق لدينا أننا لسنا أمام بحث لاهوتي، بل أمام ما يشبه «المدينة الفاضلة»، التي تصالح الاتجاهات الدينية على اختلافها في حلم المسيحية الكونية»[٤].

٣ ـ هل دل القرآن على أن عيسى هو الوسيط والمخلص؟

يعترف الكردينال «نيقولاوس» صراحة في كتابه هذا، إلى أن القرآن الكريم كان صريحاً حاسماً في قضيتين:

الأولى: إنكار أن يكون المسيح أو غيره ابناً لله تعالى.

الثاني: انكار أن يكون المسيح قُتل وصُلب.

يقول: «إن إنكار بنوة عيسى لله، وإنكار موته على الصليب هما المقصد الحقيقي للقرآن»[٥].

يعلّق الأستاذ «هاغِمَن»: «في الحقيقة لا يجادل القرآن في بنوة يسوع لله فقط، بل ينكر موته على الصليب، بذلك يضع القرآن لاهوت

(١) نقلاً عن: تاريخ التسامح للوكلير (١٥٢).

(٢) يقصد الاستخدام التأويلي البعيد لنصوص القرآن الكريم.

(٣) يقصد كتاب «نظرة في القرآن».

(٤) تاريخ التسامح (١٥٢).

(٥) نقلاً عن: مسيحية ضد الإسلام (١٢٠).

الخلاص المسيحي موضع الشك ومع ذلك يرى «نيقولاوس»، أنه يجد في القرآن أيضاً دور المسيح التوسطي، ووظيفته الخاصة بلاهوت الخلاص مؤكَّدَيْن في القرآن»(١).

هذه مجادلة عقيمة، فمع الاعتراف السابق بأن القرآن الكريم أبطل قصة الخلاص والصلب من جذورها، إلا أن «نيقولاوس» يحاول عبثاً، مستخدماً ما استطاع من اللغة التأويلية جدلاً ليتوصل إلى محاولة الإقناع، بأن القرآن فيه إشارات إلى دور المسيح باعتباره وسيطاً ومخلصاً.

يتمثل جهده التأويلي، ومنطقه التحليلي، في هذا الصدد مع دعاء نبي الله ورسوله إبراهيم عليه الصلاة والسلام الوارد في القرآن الكريم.

قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩].

وعوداً إلى ترجمة «روبرت الكيتوني» للقرآن الكريم نجد أن «روبرت» يرتكب مرة أخرى مغالطة فادحة، فهو يترجم كلمة «ربنا وابعث فيهم رسولاً» في الآية السابقة إلى «وسيطاً»، فيترجم كلمة «رسولاً» فيجعلها «وسيطاً» وهي مغالطة مكشوفة، لكن «نيقولاوس» يلتقط هذه الترجمة وهذه الصياغة ليبني عليها: «المصادقة القرآنية» على القبول القرآني بدور المسيح بكونه وسيطاً ومخلصاً، كما يقول «هاغِمَن»(٢): وهذه مغالطة غاية في الفجاجة والتحريف.

فإن سياق الآيات في سورة البقرة هو عن بناء نبي الله وخليله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام للبيت العتيق الكعبة المشرفة، وبعد إتمام البناء، دعا إبراهيم وإسماعيل بهذا الدعاء المذكور، لمكة والحرم وأهلها.

---

(١) مسيحية ضد الإسلام (١٢٠). (٢) المصدر السابق (١٢١).

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩].

واستجاب الله تعالى دعاء نبيه إبراهيم وابنه إسماعيل، فبعث في أم القرى ومن حولها خاتم أنبيائه ورسله محمداً ﷺ يتلو على العرب وغيرهم آياته ويزكيهم.

قال الإمام قتادة رحمه الله: «ففعل الله ذلك، فبعث فيهم رسولاً من أنفسهم، يعرفون وجهه ونسبه، يخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد»[(١)].

فبإجماع العقلاء، لم يبعث نبي قط في أرض العرب، مكة أم القرى وما حولها بعد إسماعيل عليه السلام، سوى هذا النبي الأمي العربي الخاتم محمد ﷺ[(٢)].

ونوّه النبي ﷺ بذلك وهو توضيح منه للآية الكريمة، فعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: **«إني لمكتوب عند الله خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول أمري: أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام»**[(٣)].

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٦٠٦ ـ ٦٠٧).

(٢) انظر تفاسير هذه الآيات في: تفسير الطبري (١/ ٥٩٥ ـ ٦٠٨)، وتفسير القرطبي (٢/ ٨٣ ـ ٩٠) وغيرها.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند رقم (١٧١٦٣)، والطيالسي في المسند رقم (١٢٣٦)، وابن الجعد في مسنده (٣٤٢٨)، وابن حبان في صحيحه رقم (٦٤٠٤).

وفي الكتاب المقدس، ما يدل على هذا بوضوح.

ففي سفر التكوين[١]: «وقال ملاك الرب لهاجر من أين جئتِ، وإلى أين تذهبين؟... وقال لها ملاك الرب: لأكثرن نسلك تكثيراً حتى لا يُحصى لكثرته، وقال لها ملاك الرب: ها أنت حامل وستلدين ابناً، وتسمينه إسماعيل؛ لأن الرب قد سمع صوت تذللك ويكون إنساناً[٢] وحشياً بشرياً، يده على الجميع ويد الجميع به، وفي وجه جميع إخوته يسكن».

أورد شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا النص من سفر التكوين ثم قال: «قال المستخرجون لهذه البشارة: معلوم أن يد بني إسماعيل قبل مبعث محمد ﷺ لم تكن فوق أيدي بني إسحاق، بل كان في بني إسحاق النبوة والكتاب،... فلم يكن لبني إسماعيل عليهم يد، ثم بعث المسيح وخُرِّب بيت المقدس الخراب الثاني،... ومن حينئذ زال ملكهم وقطعهم الله في الأرض أمماً، وكانوا تحت حكم الروم وفارس، لم يكن للعرب عليهم حكم أكثر من غيرهم، فلم يكن لولد إسماعيل سلطان على أحد من الأمم، لا أهل الكتاب ولا الأميين، فلم يكن يد ولد إسماعيل فوق الجميع، حتى بعث الله محمداً ﷺ، والذي دعا به إبراهيم، وإسماعيل حيث قالا: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: ١٢٩].

فلما بُعث صارت يد ولد إسماعيل فوق الجميع، فلم يكن في

---

(١) سفر التكوين (١٦/٨ ـ ١٢).

(٢) هكذا في جميع نسخ العهد القديم، وفي نسخة الملك جمس الخامس ملك بريطانيا الشهيرة، وكذا في طبعة العيد المئوي، وقد حُرّفت في الترجمة العربية التي أصدرتها الرهبانية اليسوعية إلى: «فيكون حماراً وحشياً»، وهو دس رخيص، وتحريف لما اتفقت عليه جميع نسخ العهد القديم.

الأرض سلطان أعز من سلطانهم وقهروا فارس والروم وغيرهم من الأمم، وقهروا اليهود والنصارى والمجوس والمشركين والصابئين فظهر بذلك تحقيق قوله في التوراة: «فتكون يده فوق الجميع، ويد الكل به»(١).

ومن أسرار القرآن وعجائبه، أنه بعد الآيات السابقة بدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ وأن المقصود به بالإجماع محمد ﷺ.

قال الله تعالى محذراً من ترك ملة إبراهيم وتجاوزها، وتحريفها، ومنها الإيمان بهذا النبي الخاتم الذي هو دعوة أبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: ١٣٠، ١٣١].

فملة إبراهيم هي الإسلام والتوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له، وهي التي دعا إليها جميع أنبياء الله تعالى من بعده من ذريته من أنبياء بني إسرائيل من أولهم إلى خاتمهم وهو المسيح عليه السلام.

كما قال تعالى بعد ذكر أخبارهم في سورة مريم حيث ذكر خبر إبراهيم ومريم والمسيح وموسى وهارون وإدريس وإسماعيل ثم قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: ٥٨].

قال **الإمام الطبري** رحمه الله في تفسير آية البقرة: «وإنما عنى بذلك اليهود والنصارى، لاختيارهم ما اختاروا من اليهودية والنصرانية على

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٥/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥) باختصار يسير.

الإسلام؛ لأن «ملة إبراهيم» هي الحنيفية المسلمة، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ٦٧]، فقال تعالى ذكره لهم: ومن يزهد عن ملة إبراهيم الحنيفية المسلمة إلا من سفه نفسه»[(١)].

ثم روى عن قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ قوله: «رغب عن ملته: اليهودُ والنصارى، واتخذوا اليهودية والنصرانية، بدعة ليست من الله، وتركوا ملة إبراهيم - يعني: الإسلام - حنيفاً، كذلك بعث الله نبيّه محمداً ﷺ بملة إبراهيم»[(٢)].

فثبت بهذا مقدار التحريف البائس لهذا الكردينال: الذي هو من جنس عملهم الفاسد، الذي حرّفوا به كتب الله تعالى المنزلة عليهم كما وصفهم الله بذلك فقال تعالى عنهم: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ١٣].

هذه الآية عجيبة في كشف هذه النمطية التحريفية التي طالت كتب الله المنزلة عليهم، وكذلك تطال بمثل فعل هذا الكردينال «نيقولاوس»، نصوص القرآن الكريم، يمثل هذه الالتوائية التحريفية التي يسميها التأويل، وفي الآية إشارة واضحة إلى استمرارهم على هذه النمطية مع كتب الله المنزلة عليهم وعلينا؛ لأن الله يقول لنبيه محمد ﷺ ولنا معه: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾، ولا تزال تفيد الاستمرار، فهم لا يزالون يمارسون هذا العمل الفاسد التحريفي التأويلي مع نصوص كتب الله تعالى، ولأن استطاعوا أن يحرفوا الكلم عن مواضعه،

(١) تفسير الطبري (١/٦٠٨).

(٢) المصدر السابق (١/٦٠٨ - ٦٠٩) وأسند عن الربيع مثله.

واستبداله بغيره في كتبهم، فإنهم لا يستطيعون ذلك في القرآن الكريم كتاب الله المنزل المحفوظ، فعند ذلك يلجأون إلى هذا المسلك التأويلي الباطني الخطير والبعيد في تحريفه وفساده.

يقول الأستاذ «هاغِمَن» مبيناً الإخفاق الكبير لـ«نيقولاوس» في محاولته هذه التأويلية: «ولكن مثل هذا التأويل يمتنع مع ذلك بالاستناد إلى القرآن ذاته، فهذه الآية التي يرجو فيها إبراهيم من ربه أن يبعث رسولاً من ذريته هو؛ لا يمكن تأويلها على أنها تقصد إلى «يسوع»، بل الأحرى أن إبراهيم يتملس من ربه رسولاً خاصاً يخرج من مجتمع المسلمين، وذلك أن التماسه في القرآن [الشعراء: ٨٤] من ربه: «بلسان صدق»[(١)] بين الأجيال اللاحقه يتم تفسيره في القرآن: [البقرة: ١٢٩] تفسيراً شخصياً، سيكون محمد نفسه صاحب لسان الصدق، هذا الذي يفزع إليه إبراهيم، إنه النبي الذي يخرج منهم كما يرد في القرآن مراراً، إنه هو

---

(١) يقصد قوله تعالى في دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۝٨٤﴾ [الشعراء: ٨٤]، في تفاسير المسلمين هذا المعنى الذي أشار إليه «هاغمن»: ففي المحرر الوجيز لابن عطية (١٢/٦٧) قال مكي بن أبي طالب: «معنى سؤاله أن يكون من ذريته في آخر الزمان من يقوم بالحق فأجيبت الدعوة في محمد ﷺ، قال ابن عطية: «وهو معنى حسن إلا أن لفظ الآية لا يعطيه إلا بتحكم على اللفظ»، وما اعترض به ابن عطية مردود فاللفظ يعطيه بلا شك، ولا يمنع أن يكون معناً صحيحاً مع المعاني الأخرى المذكورة في تفسير الآية.

وقال محمود الألوسي رحمه الله: «ويحتمل أن يراد بالآخرين آخر أمة يبعث فيها نبي، وأنه عليه السلام طلب الصيت الحسن والذكر الجميل فيهم ببعثة نبي فيهم يجدد أصل دينه ويدعو الناس إلى ما كان يدعوهم إليه من التوحيد، معلماً لهم أن ذلك ملة إبراهيم عليه السلام فكأنه طلب بعثة نبي كذلك في آخر الزمان، لا تنسخ شريعته إلى يوم القيامة، وليس ذلك إلا نبينا محمد ﷺ، وقد طلب بعثته بما هو أصرح، أعني قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [البقرة: ١٢٩]، ولذا قال عليه الصلاة والسلام: «**أنا دعوة أبي إبراهيم**»، روح المعاني (٧/٩٨ ـ ٩٩).

الذي يتلو آيات الله، ويقرأ ما أوحى به الله إليه بلسان عربي مبين.

على أن تفسير «نيقولاوس» إن هذا الرسول الذي يخرج من ذرية إبراهيم، لا يمكن أن يكون إلا عيسى المسيح لا يلتفت فوق ذلك، إلى سلسلة نسب محمد القرآنية من إبراهيم مروراً بإسماعيل ويتخذ من روايات العهد الجديد أساساً لفهمه على سبيل الحصر...

إن كل محاولة لإسناد دور «الوسيط» مهما يكن نوع هذا الدور بين الرب والبشر بالاستناد إلى القرآن، محكوم عليه بالإخفاق سلفاً؛ لأن القرآن ينفي كل إمكانية لوظيفة الوسيط بين الرب والإنسان عن طريق ثالث، فلا وجود هناك لوسيط، وكل إنسان يقف أمام ربه وحيداً، ولا يستطيع امرؤ أن يحمل وزر امرئ آخر في محكمة اليوم الآخر...

على أن الحقيقة: أن القرآن يرفض كل وساطة بين الرب والبشر رفضاً صارماً، لها علاقة بنفيه للخطيئة الموروثة، والإثم الموروث، ومن هنا لا يعود ثمة حاجة إلى لاهوت الخلاص المسيحي كائناً ما كان»[1].

وهكذا اتفقت كلمات العقلاء من النقاد والباحثين، على مجافاة هذا المسلك التأويلي لـ«نيقولاوس» للحقيقة العلمية، والأمانة النقلية، والتصرف العقلي الصحيح، إلى متاهة خاسرة، ومخاطرة فاشلة ما زادته إلا نفوراً وطغياناً كبيراً.

وإن الفرق الكبير بين نصوص القرآن الكريم الصريحة، وما كُتب وسُجل على أنه كتب مقدسة عند أهل الكتاب، هو فرق كبير جدّاً، بين كتاب لا يمكن أن يأتيه الباطل والتناقض من بين يديه ولا من خلفه؛ لأنه بحق تنزيل من حكيم حميد، وبين سجلات توارد على كتابتها آلاف من الأحبار والرهبان عبر عشرات القرون.

---

(١) مسيحية ضد الإسلام (١٢١ ـ ١٢٢).

يسجّل الدكتور «موريس بو كاي» هذه الحقيقة: «هناك فرق آخر جوهري بين المسيحية والإسلام، فيما يتعلق بالكتب المقدسة، ونعني بذلك فقدان نصوص الوحي الثابت لدى المسيحية، في حين أن الإسلام لديه القرآن الذي هو وَحْيٌ منزل وثابت معاً.

فالقرآن هو الوحي الذي أنزل على محمد ﷺ عن طريق جبريل، وقد كتب فور نزوله، ويحفظه ويستظهره المؤمنون عند الصلاة وخاصة في شهر رمضان، وقد رتب في سور بأمر من محمد ﷺ نفسه، وجمعت هذه السور فور موت النبي ﷺ، وفي خلافة عثمان، من السنة الثانية عشرة إلى السنة الرابعة والعشرين التالية لوفاة محمد ﷺ، ذلك ليصبح النص الذي نعرفه اليوم.

أما الكتاب المسيحي المقدس، فإنه يختلف بشكل جلي عما حدث بالنسبة للإسلام، فالإنجيل يعتمد على شهادات بشرية متعددة وغير مباشرة، وإننا لا نملك أي شهادة لشاهد عيان لحياة المسيح عيسى، وهذا خلافاً لما يتصوره الكثير من المسيحيين وهكذا إذن طرحت مشكلة صحة نصوص الكتب المقدسة المسيحية ونصوص الوحي الإسلامي»[(١)].

وفي ختام وقفتنا مع الكردينال «نيقولاوس. دو. كوزا» أرى أنه من المهم أن أختم البحث معه بذكر الخلفية النفسية لدى هؤلاء القساوسة.

إنهم ينطلقون من رؤية فوقية على المسلمين وعلى العرب وعلى القرآن الكريم، فلما تكسرت حروبهم الصليبية، وخسروا أحد أعظم معاقلهم الصليبية وهي القسطنطينية، حصل نوع من التهور في المسلك لهؤلاء القساوسة في التعامل مع القضية الإسلامية.

وهي تقوم على المحافظة على هذه النظرة الفوقية، المحتقرة

---

(١) كتاب القرآن والتوراة والإنجيل، دراسة في ضوء العلم الحديث (١٥ ـ ١٦).

للمسلمين، مع إظهار شيء من التنازل وذلك عن طريق أن في القرآن ما يمكن تأويله ليوصل إلى علم اللاهوت المسيحي، وهم يرون ذلك نوع من التسامح والتنازل، فإن كان ولا بد من قبول الإسلام والقرآن، فإنما بهذا المسلك التعسفي في التأويل.

يقرر هذه المسلكية النفسية الدكتور «موريس بوكاي» فيقول: «هناك بعض أوساط مسيحية تحتقر المسلمين، ولقد خبرت هذا حين حاولت إقامة حوار من أجل دراسة مقارنة حول عدد من الأخبار المذكورة في القرآن والتوراة معاً في موضوع واحد، ولاحظت أن هناك رفضاً باتاً للنظر بعين الاعتبار، ولو لمجرد التأمل، فيما يحتويه القرآن مما يتعلق بموضوع الدراسة المزمعة، كأن الرجوع في ذلك إلى القرآن يعني الاعتماد على الشيطان»(١).

وعلى هذا التحور والتهور النفسي والمنهجية التأويلية أقام «نيقولاوس» مشروعه.

لقد كان يبحث المرة بعد الأخرى عن إمكانيات وطرائق يجسدها للمسلمين لإقناعهم باتحاد الطبيعتين «اتحاد اللاهوت بالناسوت» في يسوع المسيح المخلص، وعقيدة التثليث المسيحية الشائكة.

ويرى أنه قدم في ذلك شيئاً جديداً مفيداً للمسيحية، إلا أنه عمق الخلاف أكثر مما قربه، حتى عند أكثر الإنسيين المعجبين به وبأطروحاته مع زعمه أنه قد يكون في القرآن شيء ما يشير إلى ما في العقيدة المسيحية إلا أنه أقر أن ذلك أمراً لا يزال بعيد المنال جدّاً.

يقول القسّ اللبناني الأستاذ بشارة الخوري: «قد إنه يمكن لنا أن نسمع هنا صدى للنظرية المسيحية، فذلك قد يمكن للمرء أن لا يرتاب

---

(١) القرآن والتوراة والإنجيل، دراسة في ضوء العلم الحديث (١٥ ـ ١٦).

فيه، ولكن يبدو أن من المؤكد بالقدر ذاته بالضبط أن محمداً لم يأخذ بشيء من المسيحية، وورود مفردة «كلمة» لا تدل على أي ربط مضموني عقائدي يتصل بالمسيحية»[1].

---

(١) هل في القرآن ما يمكن فهمه (٥٩)، نقلاً عن كتاب: عودة إلى التاريخ المقدس، نبيه بشير (٢٥٦).

«مارتن لوثر»

«مارتن لوثر»

هو راهب وكاهن لاهوتي ألماني شهير، ولد سنة (١٤٨٣م) بآيسلبن بألمانيا.

ورُسِم كاهناً سنة (١٥٠٧م)، وانضم إلى نظام الرهبنة الأغسطينية. التي أسسها القديس «أوغسطين».

قاد «لوثر» حركة تمرد على تعاليم الكنيسة، ودعا إلى الحرية الدينية التي يُنْشِأها الإيمان المسيحي، حيث قال: «الإيمان وحده يكفي المسيحي، فلا حاجة به إلى أي عمل، وبالتالي، فهو في حلٍّ من الوصايا والشرائع كلها، ومتى تأكد ذلك فقد تأكدت حريته بالفعل عينه، تلك هي الحرية المسيحية التي يولدها الإيمان»[1].

أثرت تعاليمه تأثيراً كبيراً في نشوء ما عُرف «بالحركة البروتستانتية» حيث دعا الكنيسة إلى العودة إلى الكتاب المقدس، مما ساهم في ظهور توجه جديد في المسيحية، وُصف بأنه «حركة إصلاحية».

أحدث «لوثر»، نقلة إصلاحية، لا يستهان بها، فقد حدد معالم الحرية المسيحية باختصار في:

- لا كهنوت يمارس باسم المسيح.
- المساواة بين جميع المسيحين والكهنوت العام.
- الكنيسة الحقيقية هي جماعة المؤمنين المسيحيين.

---

(١) نقلاً عن تاريخ التسامح للولكير (١٩٨).

- الرابطة روحية تضم جميع المسيحيين، المتحدين بالمسيح عن طريق الإيمان[(١)].

و«لوثر» يرى بذلك أنه يسير على خُطى «بولس» المؤسس الحقيقي لهذه المسيحية عندما يقول: «لقد حَرَّرنا المسيح لكي نبقى أحراراً، فاثبتوا إذاً، ولا تَدَعُوا أحداً يعود بكم إلى نير العبودية»[(٢)].

وحدد بعض الباحثين ما أحدثه «لوثر»، معالم حركة «لوثر» الإصلاحية في هذه الأمور:

- تعزيز مكانة الضمير عملاً بالأناجيل ورسائل القديس «بولس».
- مبدأ الحرية من أجل الدخول في الإيمان.
- مبدأ الحسم الإيماني المطلق بالمحبة، على حد قول «بولس»: «إن عملنا للحق بالمحبة نمونا، وتقدمنا في جميع الوجوه»[(٣)].
- استقلال الكنيسة عن العمل والمجتمع السياسي.
- لا يمكن لأحد حتى للكنيسة فرض قوانين على المسيحيين إلا في حال موافقتهم عليها؛ لأنهم أحرار في كل شيء.
- وأخيراً: الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، هو قاعدة الإيمان الموضوعية، ولا يقيّد الضمير شيء إلا كلمة الله، وأن الكتاب المقدس يفسر نفسه بنفسه[(٤)].

---

(١) انظر: مارتن لوثر، مقدمة قصيرة جداً، تأليف: سكوت إتش هندريكس، فصل: جهود الإصلاح (٣٩ ـ ٤٩)، ترجمة: كوثر محمود محمد.

(٢) العهد الجديد، الرسالة إلى أهل غلاطية، الإصحاح: ٥ (١١).

(٣) الرسالة إلى أهل أفسيس، الإصحاح: ٤ (١٥).

(٤) كتاب: عودة إلى التاريخ المقدس، نبيه بشير (٤٦ ـ ٤٧)، وتاريخ التسامح، للولكير (٣٧) و(١٩٩ ـ ٢٠٠).

موقفه من اليهود والمسلمين:

حدث تطور لافت في حياة «لوثر» الفكرية، فقد كان يسجل موقفاً متسامحاً لا بأس به مع: الهرطقة والكفار، ويدخل في هذا ـ اليهود والمسلمون ـ، وكان «لوثر» يندد باستخدام العنف والإكراه لإدخال الناس في المسيحية.

يقول «لوكلير»: «كذلك يرفض «لوثر» بالفعل الإقرار بسلامة طرق محاكم التفتيش، كتب سنة (١٥٢٠م) يقول: «ولا ننتصر على الهراطقة بالنار، بل بالكتاب كما كان يفعل الآباء القدماء، ولو كانت البراعة تكمن في الانتصار على الهراطقة بالنار لكان الجلادون هم أعلم العلماء»[١].

يقول «لوثر» في ذلك: «الهراطقة شأن روحي، لذا كان يستحيل أن نضرب بالحديد أو نحرق بالنار، أو نغرق بالماء، وحدها كلمة تستطيع أن تجهز عليها؛ لأنه كما يقول القديس «بولس»: «ليس سلاح جهادنا بشرياً، ولكنه قادر في عين الله على هدم الحصون[٢]»[٣].

يسجل «لوكلير» تعجّبه فيقول: : «مثل هذه التصريحات تبعث على العجب عندما نفكر بمدى اتساع السلطات الدينية التي ستُعْطي فيما بعد للأمراء في البلدان البروتستانتية»[٤].

والتطور الفكري اللافت لدى «لوثر»: هو تباين موقفه من كل من اليهود من جهة، والمسلمين من جهة أخرى، أما موقفه من اليهود: فقد كان

(١) تاريخ التسامح (٢٠١).
(٢) الرسالة الثانية إلى أهل فورنتس، الإصحاح: ١٠ (٤).
(٣) كتاب: مارتن لوثر، مقدمة قصيرة جدّاً، لسكوت إِتْش هندايكس (٥٣)، وانظر: تاريخ التسامح للوكلير (٢٠٢).
(٤) تاريخ التسامح (٢٠٣).

«لوثر» يعادي اليهود أشد العداء، باعتبار أنهم قتلة يسوع المسيح، وصالبوه، وذم اليهود ووصفهم بالنفاق، وأنهم أبناء إبليس، وأولاد الأفاعي، وأنهم يمتصون دماء الشعوب التي يقيمون بينها بواسطة الربا، وغير ذلك لدرجة أنه جمع كتاباً تحذيرياً شديد اللهجة ضد اليهود وطبعه بالألمانية وحمل عنوانه: «اليهود وأكاذيبهم/ The Jews And Their Lies»(١).

يقول «لوثر» في مقدمة كتابه هذا: «كنت قد قررت أن لا أكتب أكثر لا عن اليهود، ولا ضد اليهود، لكن منذ أن علمت أن هؤلاء الناس الأشرار الملعونين لا يتوقفون عن الدعاية لأنفسهم ومحاولة كسبنا ـ نحن المسيحين ـ أيضاً، فإنني نتيجة لذلك سمحت لنفسي بنشر هذا الكتيب للإعلام بأنني سأكون ـ من الآن فصاعداً ـ بين أولئك الذين يقاومون مثل هذه النشاطات السامّة لليهود، ولكي أنّبه المسيحين أن يكونوا على حذر منهم»(٢).

وصب عليهم جام سخطه وكراهيته الطافحة من عناوين كتابه هذا، من مثل:

- لا فائدة من مجادلة اليهود.
- اليهود أبناء الشيطان.
- اليهود عليهم غضب الله.
- اليهود يمجدون أنفسهم بالباطل.
- اليهود كذابون ودمويون.

إلى غير ذلك.

---

(١) ترجمه إلى العربية وعلق عليه الدكتور: عجاج نويهض، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٤م، وأعاد طبعه مع التعليق: د. محمود النجيري، مكتبة النافذة، ط. الأولى، ٢٠٠٧م.

(٢) اليهود وأكاذيبهم (٥١).

ولكن؛ كل هذا قد تغير إلى النقيض تماماً، فبعد أن أقام «لوثر» مشروعه الإصلاحي على حرفيّة الكتاب المقدس، بما فيه العهد القديم، وأسفار التوراة، ورسائل الرسل ونحوها من كتب اليهود وجد أن العهد القديم، طافح بالثناء على شعب الله المختار «إسرائيل» وأنهم أبناء الإله «يَهْوَه»، وأنهم أصحاب الشريعة والتعاليم والألواح، وأن بركة الله تلاحقهم أينما كانوا.

انقلب «لوثر» إلى أشد المعظمين لليهود، بل وصار يدعو إلى جعل تعظيم اليهود من تعظيم الشريعة والألواح، وتدخل في جذر الإيمان المسيحي المؤمن بنصيّة الكتاب، ودَشّن ذلك بوضوح، بعد مشروعه الكبير الذي قام به وهو ترجمة الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد من اللاتينية إلى الألمانية، والذي أصدره سنه (١٥٢٢م)، وصدرت أول طبعة منه على نطاق واسع سنة (١٥٣٤م)، وهي التي عُرِفت على نطاقٍ واسع باسم: «إنجيل لوثر»[١].

وأصدر في ذلك كتابه الشهير، الذي صار عنوانه، أشبه بترنيمة لدى المسيحين المتصهينين وهو كتاب «المسيح ولد يهودياً»[٢]/ «That Jesus Christ Was Born a Jew».

يقول «لوثر» في كتابه هذا: «قبل أن نتفاخر بموقفنا يجب أن نتذكر أننا مجرد أغراب، أما اليهود فيتصل نسبهم بالمسيح، نحن غرباء، أما هم فأقارب، وبنو عمومة، وإخوة للرب»[٣].

---

(١) انظر تفاصيل هذه الترجمة في: كتاب: مارتن لوثر، لسكونت إتْش هندريكس (٥١ ـ ٦٢).

(٢) ربما كتبه «لوثر» سنة (١٥٢٣م) وربما بعد ذلك، والكتاب ترجمه إلى العربية، د. رضا هلال، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٠م.

(٣) المسيح ولد يهودياً (٨٣).

يقول أحد الباحثين: «وطرح هذه الفكرة في كتاب «لوثر»، تدل على أن «لوثر» وقع تحت تأثير تضلعه بالعهد القديم، والنصوص العبرانية الأخرى، فازدحمت المشاعر والمواقف من اليهود في عقله ولبه، من الحقد الدفين، إلى المحبة الهوجاء»[١].

بل وبالغ «لوثر» لدرجة أنه قال: «إننا ـ أي: المسيحيين ـ يجب أن نكون كالكلاب الذين ليس لهم مكان إلا تحت الموائد، لالتقاط الفتات الذي يتساقط من على موائد أربابنا اليهود، وهذا أمر طبيعي قدرته المشيئة الإلٰهية، منذ القدم، فهم السادة، ونحن العبيد»[٢].

قامت على رؤى «لوثر»، الدول البروتستانتية في أوروبا إلى قيام الولايات المتحدة الأمريكية، و«إسرائيل» و«شعب الله المختار» و«اليهود»، في جذر الإيمان المسيحي اللوثري البروتستانتي[٣].

موقف «لوثر» من الإسلام والقرآن:

أما موقف «لوثر» من الإسلام والقرآن، والمسلمين فشيء آخر تماماً.

كان «لوثر» شأنه شأن كل البابوات والقساوسة في أوروبا، يعيشون تحت هاجس الخوف من تهديد الدولة العثمانية، التي أصبحت على حدود أوروبا.

---

(١) المسيحية الصهيونية والسياسة الأمريكية، محمد المختار الشنقيطي، موقع منتدى مجلة العصر ١٥/ ١٠/ ٢٠٠٣م.

(٢) موقف لوثر من اليهود، لعبد الله المعراوي، مجلة الإنسان، عدد (٤٩١)، نوفمبر، ١٩٩٥م (٣٣).

(٣) انظر لذلك مفصلاً: كتاب: إسرائيل من منظور أمريكي، تأليف: بيتر غروس، ترجمة: محمد الجمل، وكتاب: فلسطين في العقل السياسي الأمريكي، تأليف: كاثلين كِرستسن، ترجمة: مفيد عبدوني.

فبينما كان المسيحيون بطوائفهم المختلفة، في عصر الإصلاح الديني، يتجادلون ويتنازعون كان السلطان الإسلامي العثماني يطوّق أوروبا، ويقف على تخومها، ففي تلك الفترة سقطت «بلغراد» في أيدي العثمانيين (١٥٢١م)، ومن ثم سقطت «رودوس» عام (١٥٢٣م)، وجرى حصار المجر وهزيمتهم، وفي عام (١٥٢٩م)، حُوصرت «فيينا»، ثم غزو «بودابست» عام (١٥٤١م) بعد ضم المجر وبلغاريا إلى الإمبراطورية العثمانية.

كان لهذا التقدم المطّرد للعثمانيين داخل أوروبا المسيحية، تأثيره البالغ على الكنيسة الغربية، ويجب النظر وتقييم موقف «لوثر» من الإسلام والمسلمين، على أساس هذه الخلفية لهذا التقدم السياسي والعسكري للعثمانيين.

فكان نشاطه السياسي والديني قائم على مقاومة الأتراك المسلمين من جهتين:

• **الجهة الأولى:**

عمل وجهد سياسي لمقاومة هذا التمدد الإسلامي الذي يمثله العثمانيون، وقد تجلى ذلك في عدد من الجهود التأليفية والعملية.

• فأصدر «لوثر» سنة (١٥٢٩م) كتابه الشهير: «الحرب ضد الأتراك»/ «Vom Kriege Widder die Turken».

وقدمه لأحد أمراء الحرب المسيحيين كعامل محفز لحرب المسلمين الأتراك وصدهم، وهو الأمير «فيليب فون هيسن»[(١)].

• قدّم مع أتباع مذهبه الإصلاحي الدعم للإمبراطور الألماني «شارل»، بعد حصار الأتراك لفيينا عام (١٥٢٩م).

---

(١) كتاب: «مارتن لوثر» لهندركس (٨٢).

• وأطلق وجوب الوحدة المسيحية، وتناسي الخلافات لمواجهة هذا الخطر الداهم، وأطلق مشروعه في ذلك وعنونه: «لأن الأتراك يقتربون منا»[١].

• تشكل لدى «لوثر» موقف تجاه القوة السياسية والعسكرية للمسلمين ـ العثمانيين ـ وأصدر تباعاً عدة وسائل تحت عنوان: «رسائل الأتراك».

يقول «هاغمن»: «كانت أمثال هذه الرسائل الخاصة بالأتراك كثيرة الذيوع، فكانت تشكل ما يشبه النوع الأدبي القائم بذاته، وكانت دراسة «لوثر»، «الحرب ضد الأتراك»، كما كانت أيضاً رسالته، «الموعظة الحربية ضد الأتراك»، وقد ظهرت كلتاهما عام (١٥٢٩م) مرتبطتين بالوضع... وفي هذا الوضع المتوتر قرر «لوثر» أن يحول دراسته للنزاع العسكري مع العثمانيين، التي كان يأمل كتابتها (١٩٢٤م) إلى فعل»[٢].

• **الجهة الثانية:**

وهي تمثل موقف «لوثر» من القرآن الكريم:

أظهر «مارتن لوثر»، داعية الحرية والتسامح الشهير، قدراً كبيراً من القسوة والشدة ضد «الهراطقة» الذين هم المسلمون الذين يشكلون الخطر الدائم على المسيحية وأوروبا كما ظهر سابقاً.

يكتب «لوثر» فيقول: «لكن من الهراطقة من يرغب في تعليم ما يتنافى مع العقائد الإيمانية الرسمية التي تم التأسيس لها في الكتاب المقدس، والاعتراف بها من قبل المسيحيين في المعمورة كلها... إن ما يطمح هؤلاء الهراطقة إلى تعليمه على الأخص، هو أن المسيح ليس

---

(١) كتاب: «مارتن لوثر» (٨٤)، ومسيحية ضد الإسلام (١٢٦).

(٢) المصدر السابق (١٢٧).

إلهاً بل إنسان وحسب، وبالتالي فلا يعدو أن يكون نبياً شأن سائر الأنبياء كما يعلق الأتراك ـ المسلمون ـ وليس يفترض بنا القبول بهؤلاء الأشخاص، بل بالأحرى معاقبتهم بتهمة التجديف العلني. . .وقد أمر موسى في شريعته برجم أمثال هؤلاء المجدفين، بل وجميع العلماء المزيفين أيضاً»(١).

يعلق «لوكلير» على هذا الموقف المتشدد من «لوثر» فيقول: «إن لوثر الذي أعلن منذ عشر سنوات: أن إحراق الهراطقة مخالف لإرادة الروح القدس، هو نفسه الذي يطالب اليوم بأن تطبق بحق «الأناباتيست»(٢)، تلك العقوبات الرهيبة التي نص عليها العهد القديم في حال التجديف»(٣).

بل إن «لوثر» وقع على مذكرة عقابية، وضعها الراهب «ميلانختون»، نيابة عن لاهوتيي مدينة «فيتنبرغ»، بشأن معاقبة «الأناباتيست» بالسيف.

ولقد صادق «لوثر» بكامل رضاه على هذه المذكرة، موقعاً: أنا موافق، مارتن لوثر، ثم عقّب عليها بالملاحظة الآتية: «لئن يكن من القسوة الموافقة على معاقبتهم بالسيف، فإن في إدانة هؤلاء للوعظ، وإقدامهم على نشر العقائد الخطيرة، وإبطالهم التعليم وإسقاطهم ممالك هذا العالم، ما يفوق ذلك قسوة»(٤).

إذن؛ منطلق «لوثر» مع الإسلام والقرآن، هو العدائية التامة، وبالتالي نستطيع أن نلخص موقف «لوثر» من القرآن الكريم فيما يلي:

---

(١) نقلاً عن تاريخ التسامح للوكلير (٢١٤).
(٢) الأناباتيست هم: رافضوا التعميد والعقائد المسيحية الرسمية.
(٣) تاريخ التسامح (٢١٤).
(٤) انظر: المصدر السابق (٢١٤ ـ ٢١٥).

١ ـ على أساس التنبؤات التوراتية الخاصة بسفر الرؤيا، والمتعلقة بنهاية الزمان، وفهمه الخاص لها، اعتبر «لوثر» أن الإسلام هو: «دولة آخر الزمان»، وأن السلطان المسلم ـ العثماني ـ هو المسيح الدجال القادم، وهو بذلك يتبع خطى قساوسة سبقوه بهذه الفكرة، وقد وظّفوا ما ورد في سفر الرؤيا ـ رؤيا القديس يوحنا ـ لذلك.

منهم القديس الإسباني: «أويلوجيوس»، أسقف مدينة «طليطلة»، حيث اعتبر أن دخول المسلمين الأندلس وإقام الدولة الإسلامية هو تمهيد لمجيء المسيح الدجال في آخر الزمان.

وكذلك أسقف قرطبة «باول آفاروس»[1]، وغيرهم.

والظاهر أن هذه حالة نفسية تصحب القساوسة كلما انحسرت المسيحية وانهزمت أمام المد الإسلامي وقوته.

وهذا ما وقع «لمارتن لوثر»، فقد عاش في الفترة التي تلت انحسار المسيحية في أعقاب سقوط القسطنطينية في يد المسلمين سنة (١٤٥٣م)، وقوة ظهور ونمو وتوسع الدولة العثمانية داخل أوروبا، مما أثار فزعه وفزع القساوسة والبابوات والأباطرة على حدٍ سواء.

يقول «هاغمن»: «أما الخلفية الملموسة في ذلك الوقت، والخاصة بالتفسير الذي جاء به «مارتن لوثر»، فمن الجائز أن تتمثل في الأحاديث التي كان أجراها بالاشتراك مع «ملانختون»، ومع «فريدريك مكونيس»، وقد كان حديثهم عن التنبؤات الغريبة للراهب الفرنسيسكاني «يوحنا

---

(١) في كتابه: اليهود وأكاذيبهم: شنّ «لوثر» حرباً من السخرية والاستهجان باليهود لكونهم ينتظرون «الميسيا» حتى قال: «وفي النهاية أقول لنفسي: إذا كان الله لا يرسل إليّ «ميسيا» من عنده يختلف عن «ميسيا» اليهود ويعلقون عليه رجاءهم، فأفضل لي لو مُسِخت خنزيراً، فلا أبقى بعد ذلك إنساناً» (١٤٦).

هِلْتن»، الذي كان وجد منذ سنوات، في نبؤات «دانيال» السوداوية: أن المحنة التي جاءت مع الأتراك قد وردت في النبؤة، حيث تأثر «لوثر» بهذه النبؤة، وذهب يفسر من جانبه الإسلام بأنه دولة آخر الزمان، وذلك: «لأن الشيطان لا يسعى، عن طريق الإسلام أداته المتمثلة في - التركي - إلى السيطرة على العالم فقط، بل يسعى أيضاً إلى إخراج مملكة المسيح وقدِّسِيهِ وأتباعه من عقيدتهم كما يقول دانيال في الفصل السابع[١]، إذا فما عادت المسألة تتعلق بالإسلام بصفته قوة عسكرية، بل باتت تتعلق أيضاً بالإسلام بصفته قوة دينية وروحية»[٢].

الفصل السابع من سفر «دانيال»، وهو رؤيا الحيوانات الأربعة[٣]، وهي الرؤيا التي يعتمد عليها آباء الكنائس ومفسرو الكتاب المقدس ومنهم «لوثر» لوضع تصور لأحداث آخر الزمان.

من المعلوم عند شارحي الكتاب المقدس، أن سفر دانيال ينتمي انتماءً تاماً إلى الفنّ الرؤيوي، في استعمال مستمر للرؤى والأحلام لتفسير أحداث مستقبلية بما يشبه العرافة والكهانة التي كانت منتشرة عند القبائل والشعوب الوثنية في ذلك الزمان.

لذلك فإن موضوعه الرئيس: هو التفسير اللاهوتي للتاريخ، وخاتمته، وأنباء آخر الأزمنة[٤].

بناءً على ما تقدم جاء نقد «لوثر» للقرآن والإسلام قاسياً وعنيفاً لأنه يرى أنه قوة تنتمي إلى المسيح الدجال في آخر الزمان.

---

(١) سفر دانيال (٧/ ١ - ٢٨)، وتفسير الرؤيا في نفس السفر (٧/ ١٥ - ٢٨).

(٢) مسيحية ضد الإسلام (١٣٢).

(٣) سفر دانيال (٧/ ١ - ٢٨)، وتفسير الرؤيا في نفس السفر (٧/ ١٥ - ٢٨).

(٤) انظر تعليق الآباء: أنطوان أودو، ورنيه لافنان، وصبحي الحموي على طبعة الرهبانية اليسوعية للكتاب المقدس (١٨٥٦).

بل إن «لوثر» دخل في جدلية واسعة مع اليهود أدت إلى إنكاره أن يأتي ما يسمى بالمسيح الدجال أصلاً. والعجيب أنه استشهد لذلك بنص من سفر «حَجِّي». على هذا الإنكار والاستبعاد لمجيء المسيح الدجال. ولكنه مرة أخرى يستخدم اللغة التأويلية.

يقول «لوثر»: «أقول: إن «ميسيا» لن يأتي؛ لأنه قد تخطى الفترة الصغرى التي قال عنها النبي حَجِّي: «إني مرة بعد قليل أزلزل جميع الأمم»(١)، ودخل الوقت في الفترة الطويلة الكبرى وفيها لن يحصل شيء»(٢).

والحقيقة التي يهرب منها «لوثر» وغيره من القساوسة، ويستخدمون اللغة التأويلية لتفادي حقيقة دلالتها، هي أن هذا النص من سفر النبي «حَجّي» من النصوص الباقية في العهد القديم الدالة على عظيم البشارة بقدوم وبعثة خاتم الأنبياء محمد ﷺ.

وهذا النص كما هو في سفر حَجي: «فإنه هكذا قال رب القوات(٣)، بعد وقت قليل، أزلزل السماء والأرض، والبحر واليابسة، ويأتي مشتهى كل الأمم(٤)، فأملأ هذا البيت مجداً»(٥).

فإن هذه الكلمة «مشتهى جميع الأمم»، إذا رجعنا إلى الأصل العبراني لها كما حقّقه العارفون باللسان العبراني، والمطلعون على النص العبراني للأسفار، نجد أن الكلمة بالعبرانية هي: «حمدوت» أو «همدوث».

---

(١) سفر حجي (٢/٧). (٢) اليهود وأكاذيبهم (٩٦ ـ ٩٧).

(٣) هكذا في نسخة الرهبنة اليسوعية، وفي نسخة الملك جيمس الخامس «رب الجنود»، وكذا في نسخة المأويه.

(٤) كذا في نسخة الملك جيمس الخامس والمأوية، أما في نسخة الرهبنة اليسوعية «وتأتي نفائس جميع الأمم».

(٥) سفر حَجّي (٢/٦ ـ ٧).

و«لوثر» نفسه يقرّ بذلك وأن الكلمة بالعبرية في سفر «حَجّي» هكذا «همدث» وأن اليهود حرفوها إلى «متمنى الأمم».

يقول «لوثر»: «ونراهم ـ اليهود ـ هنا يدورون حول المشكلة، ويراوغون، وإذ لا يملكون أن ينكروا اليوم قول النبي حَجِّي... بعد قليل» وهي واضحة، فإنهم يتحولون إلى العبارة الأخرى «متمنى الأمم»، وهي بالعبرية «همدث»، فيتلاعبون بها، ويتخذونها هدفاً، ويصلبونها صلباً لانتزافها»[1].

فهذه الكلمة «يأتي حمدوت الأمم»، هي إحدى البشارات الباقية في العهد القديم بالنبي الخاتم محمد ﷺ، وقدومه عن قريب.

فإن الكلمة العبرية «حمدوت»، ترجمتها الحرفية بالعربية «محمود» الأمم، ومحمود من أسماء وألقاب وأوصاف رسول الله ﷺ، وهو الذي تنتظره جميع الأمم وتحمده وهو الذي ببعثته امتلأ بيت المقدس مجداً وعزاً.

وقد قرر ذلك البرفسور عبد الأحد داود الأشوري من طائفة الروم الأرثوذكس الكلدانيين. قبل أن يسلم، وبَيَّن أن هذه الجملة من سفر حَجّي تقرأ في اللغة العبرية هكذا: «في يافو حمْداث كول هاجوييم»، وهي تعني: «ويأتي محمود كل الأمم»[2].

وفي النسخة الإنجليزية من الكتاب المقدس المعروفة «بنسخة الملك جيمس الخامس» ملك بريطانيا كُتبت الكلمة هكذا: «Hemdath» ويلاحظ أن الحرف الأول كتب بحرف كبير «H»، وهي إشارة واضحة إلى أنه اسم علم.

---

(١) اليهود وأكاذيبهم (٩٧).

(٢) كتاب: محمد في الكتاب المقدس، عبد الأحد داود (٥١).

وقد ذهب القوم مذاهب في تأويلها، فمنهم من جعلها «مُشْتَهى جميع الأمم»، ومنهم من جعلها: «مُتَمنّى جميع الأمم»، ومنهم من جعلها: «نفائس جميع الأمم»، وأخيراً «لوثر» لما ردّ تأويل اليهود بحمل الكلمة على «الميسيا» وهو المسيح الدجال، إلا أنه أتى بتأويل بعيد لا يقل إيغالاً في التأويلية الصارفة عن تأويل اليهود، بل هو أبعد، فقال «لوثر»: «ولنفرض أن هذه العبارة لا تعني «ميسيا» عند اليهود، فإنها من الناحية الأخرى تعني كل ما عند الوثنيين من الذهب والفضة وكلمة «همدث» كما يفيد المعجم معناها «التمني» والتعلق بالشيء، وهذا ما يتمناه ويتعلق به كل الوثنيين، وبهذا التأويل عن اليهود يغدو مساق الكلام هكذا: «بعد فترة قليلة سيأتي متمني جميع الوثنيين»[(١)].

وهذا تأويل بعيد ومردود، وليس هو مقتضى اللسان العبري كما قدمنا[(٢)].

٢ - يزعم «لوثر» أن رسول الله محمداً ﷺ استحوذت عليه روح شيطانية أنتجت هذا القرآن الذي يقتل الأرواح.

واستناداً إلى فقرة في إنجيل يوحنا[(٣)] تقول: «الشيطان كذاب وقاتل، فهو بكذبه يقتل الأرواح، وبالقتل يقتل الأجساد».

يكتب «لوثر» بالإشارة إلى رسول الله ﷺ، ويقول: «ولما كان روح

---

(١) اليهود وأكاذيبهم (٩٧).

(٢) يقرر شارحو الكتاب المقدس الآباء: إنطوان أو دوورينيه لافنان، وصبحي الحموي عند هذه العبارة من سفر حَجّي: «تتضمن هذه العبارة اختياراً إلهياً لرسالة هامة لتاريخ الخلاص»، الطبعة اليسوعية للكتاب المقدس، ٢٠٠٢م، ولم تأتي رسالة هامة جامعة ملأت مواضع الأنبياء ومساجدهم مجداً سوى رسالة النبي الخاتم محمد ﷺ.

(٣) يوحنا (٨/ ٤٤).

الكذب قد استحوذ على محمد، وكان الشيطان قتل الأرواح بقرآنه، وأفسد عقيدة المسيحيين، فإنه لم يكن له بد أن يخرج ويمتشق سيفه، ويهاجم الأجساد ليقتلها، وعلى هذا فلا سبيل إلى العقيدة الإسلامية ـ التركية ـ بالمواعظ والأعمال العثمانية بل وصل الأمر إلى القتل بالسيف»(١).

أراد «لوثر» تنزيل هذا النص من إنجيل يوحنا على رسول الله ﷺ، بجعل القرآن الكريم الذي يعتبره نتاج سيطرة روح الشيطان على رسول الله ﷺ، فهو إذن يقتل الأرواح، وباعتبار الجهاد ونشر الإسلام قتل جسدي من جهة أخرى وهذا تفسيره للتقدم الإسلامي العثماني على حساب المسيحية. كما ذكرنا.

أما اقتباسه تلك الفقرة من إنجيل «يوحنا» فهي تدل على مدى تهّور «لوثر» واضطراره إلى أن يلصق الكذب والقتل بالنبي الخاتم ﷺ، «فلوثر» الذي قضى حياته مناضلاً مطالباً برفع الكنيسة يدها عن تفسير وتأويل الكتاب المقدس، وأن الكتاب واضح يفسّر بعضه بعضاً، أليس هو الذي يقول: «الكتاب المقدس واضح من تلقاء ذاته، ويفسّر نفسه بنفسه، وهو الذي يمتحن ويدين وينير كل شيء للجميع»(٢).

يقول «لوكلير»: «لقد كان «لوثر» مقتنعاً بأن الكتاب المقدس، هو الوضوح بالذات، وأنه يمتلك تفسيره تماماً، مما سيكسبه في نظر أتباعه، ضمانة عقائدية، ويخلع عليه بالتالي صفة نبي حامل للوحي، ومؤتمن على حقائق الإيمان، فمن اعترض على الإنجيل كما هو كان

(١) وتمام كلامه حسبما نقله «هاغمن» (١٨٤): «لأن قرآن محمد الآن ينطوي على جملة كبيرة من الأكاذيب لا يدع شيئاً يتبقى من الحقيقة المسيحية، إذ أصبح قاتلاً كبيراً شديد البأس، وكل هذا وراء ستار الحقيقة ومظهر العدالة».

(٢) نقلاً عن تاريخ التسامح للوكلير (٢٠٠).

يقاوم الله»[١].

إذن؛ سندين «لوثر» بمنهجه هذا، فقد سلك مع النص السابق من إنجيل يوحنا أعتى وأشد درجات التأويل التعسفي الباطني عندما حمله على أن المراد به رسول الله محمد ﷺ، والقرآن الكريم.

وبيان ذلك أن الإصحاح الثامن من إنجيل يوحنا، الذي فيه تلك الفقرة، من بدايته وهو حوار من قبل المسيح عيسى «يسوع» مع اليهود، يدعوهم ويحذرهم فبداية هذا الإصحاح[٢]: «أما يسوع فذهب إلى جبل الزيتون وعاد عند الفجر إلى الهيكل فأقبل عليه الشعب كله، فجلس وجعل يعلمهم».

وهكذا يمضي هذا الإصحاح في كل فقراته: وكلمهم يسوع وقال لهم يسوع، وقال لهم يسوع ثانيةً، وهكذا، تارة هو يسألهم واليهود يجيبون، وتارة هم السائلون وهو المجيب، على هذا تجري فقرات هذا الإصحاح، وكلها حوار، عن من هو والد يسوع؟ ومن هو يسوع نفسه؟ وهو يحاول أن يوضح لهم: أنه نور العالم، وأنه قادم من الله.

وفي الفقرة (٤٣) خطاب يسوع لليهود: «لماذا لا تفهمون ما أقول لكم؟ لأنكم لا تطيقون الاستماع إلى كلامي».

وفي الفقرة (٤٤) وهي التي استشهد بها «لوثر» نجد خطاب المسيح «يسوع» لليهود: «أنتم أولاد أبيكم إبليس، تريدون إتمام شهوات أبيكم كان منذ البدء قتّالاً للناس ولم يثبت على الحق؛ لأنه ليس فيه شيء من الحق، فإذا تكلم تكلم بالكذب؛ لأنه كذاب».

فإذن؛ هو خطاب ووصف المسيح عيسى لليهود أعدائه، وأعداء الرسل وأعداء الله تعالى، كثيري الكذب والشر والقتل حتى للأنبياء

---

(١) تاريخ التسامح (٢٠٦).

(٢) يوحنا (٨/ ١).

أنفسهم، وحتى للمسيح بزعمهم أنهم قتلوه وصلبوه، فبأي مسكة من عقل، أو طرف من علم، أو بيان أو تأويل معقول، يذهب «لوثر» لينزل هذه الفقرة ويفسرها بأن المراد بها النبي الخاتم محمد ﷺ، والوحي النازل عليه وهو القرآن الكريم؟!

وبهذا يظهر أن «لوثر»، مدفوع بحقده الصليبي، وشعوره بالاندحار والانهزام العلمي والعسكري، أمام ظهور حجج الإسلام وأنوار القرآن.

والزعم بأن القرآن نتيجة سيطرة روح شيطانية على رسول الله ﷺ مسلك قديم للقساوسة، فهم لا يجدون شيئاً يقدمونه لأتباعهم في مجادلة حقائق القرآن وكشفه لافتراءاتهم وما حرفوه وبدلوه من الكتاب الأول، وما أخفوه وتلاعبوا به، إلا مثل هذا الزعم الفج الوقح أنه سيطرت عليه روح شيطانية.

و«لوثر» نفسه قد كان عاب على اليهود سابقاً استخدامهم لغة التأويل لتحريف نصوص التوراة لتوافق مزاعمهم في الملك الأبدي وأنهم شعب الله المختار.

يقول «لوثر» عن اليهود: «وانظر إليهم تراهم حتى الساعة على هذه الوتيرة من أمرهم من الصراخ الأرعن بأنهم هم شعب الله، وهو اختارهم له، يصرخون هذا الصراخ وقد رُفضوا وشتتوا، ومضى على شتاتهم ألف وخمسمائة سنة، ولا يزالون يأملون في العودة لأنهم أهل لها كما يزعمون، يتمسك اليهود بهذا ولا سند لهم قائم من التوراة يدعم دعواهم، إلا ما يستخرجونه منها بالتأويل على طريقتهم ومجاراة لخيالهم»(١).

«فلوثر»، وقع تماماً فيما عاب به اليهود من قبل.

---

(١) كتاب: اليهود وأكاذيبهم (٩٢ ـ ٩٣).

فهو إذن مأخذ ومسلك معروف في الجدل المسيحي التقليدي ضد القرآن الكريم وحججه وبيناته العظيمة.

وهذا ما صنعه «لوثر»، فالتقط هذه الساقطة من أسلافه حيث زعم:

أ ـ أن الشيطان هو الذي حرض محمداً ﷺ، وبأن القرآن من تأليفه.

يرد هذا أستاذ الدراسات اللاهوتية «لودفيغ هاغِمْن» مبيناً فجاجة هذا الأسلوب الجدلي العقيم: «بهذه الطريقة يظن «لوثر»، أنه يبطل حجية البعثة النبوية التي يقول بها القرآن، وتفنيد النظرة القرآنية التي تفيد صراحة: أن القرآن كلام الله الحقيقي؛ لأن الله وحده هو الذي يمكنه أن يأتي بمثل هذا الأثر(١)، وهذا هو الفهم الإسلامي وإعجازه، وهذا لا يكمن في جماله الأدبي، وفي لغته العربية، وجرسه وأسلوبه فقط، بل يكمن قبل كل شيء في مصدره الإلٰهي، ولأن القرآن يمثل كلمة الله، فهو يحمل في ذاته السمات التي لا تخطئها العين، والدالة على حجيته»(٢).

ويقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «وهذه الكلمة ذاتها تحمل في ثناياها دليل تأثرهم بالقرآن، فهم يستكثرون في دخيلتهم أن يكون هذا قول بشر؛ لأنهم يحسون فيه شيئاً غير بشري، ويحسون دبيبه الخفي في مشاعرهم فينسبون قائله إلى السحر، يرجعون إليه هذه الغرابة في قوله، وهذا التميز في حديثه، وهذا التفوق في نظمه، فمحمد إذن لا ينطق عن

---

(١) يشير «هاغمن» إلى التحدي وإعجاز جميع الخلق من الجن والإنس أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وإخباره بالنتيجة سلفاً، أنهم لا يأتون بمثله مطلقاً، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقد قررنا هذا في المقدمة من هذه الدراسة.

(٢) مسيحية ضد الإسلام (١٣٥).

نفسه، إنما ينطق عن السحر بقوة غير قوة البشر، ولو أنصفوا لقالوا: إنه من عند الله، فما يمكن أن يقول هذا إنسان، ولا خلق آخر من خلق الله»[١].

ب - وزعم أيضاً أن الإسلام والقرآن إنما انتشروا بالأعمال العسكرية والقتل، وهذه القضية، ما زال القساوسة قبل «لوثر» يلوكونها، ويعيدون الكلام فيها كلٌ على شاكلته وبطريقتهم.

وأقربهم زمناً «للوثر»، وبه تأثر، ومنه نقل وأخذ هو القسيس «رِكُلْدُس دي مونتي كروتشي»، صاحب كتاب: «ضد شريعة المسلمين»[٢].

وذلك أن «لوثر»، أعاد طباعة هذا الكتاب «ضد شريعة المسلمين»، لركلدس، باللغة الألمانية، وكتب له مقدمة ضافية، وأصدره عام (١٥٤٢م)[٣][٤].

وقد سبق إيراد هذه التهمة من قبل «رِكُلْدُس»، وسبق أيضاً الجواب المفصّل عنها في دراستنا هذه.

ويتولى الأستاذ «هاغمن» أيضاً النظر في ذلك مبيناً أن التهمة هذه شكلت تقليداً معتاداً لدى القساوسة والكنيسة: «ولقد ظل أهل الجدل

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٣٢).

(٢) سبق البحث معه في مزاعمه في دراستنا هذه.

(٣) أفاد بذلك «جوزيف لوكلير» في: تاريخ التسامح (٢١١)، وانظر كذلك مسيحية ضد الإسلام لهاغمن (١٨٥).

(٤) ترجم لنا «هاغمن» هذه المقاطع من مقدمة «لوثر» لكتاب «ضد شريعة المسلمين»، من اللغة الألمانية: «هرقل، إنسان، بل شيطان، وأول ولدٍ من مواليد الشيطان «لا يبصر» الحقيقة، وهو عدو للكنيسة المسيحية يقال له: محمد»، مسيحية ضد الإسلام (١٨٥)، لا أدري ما وجه إقحام اسم هرقل هنا.

المذهبي المسيحيون المعادون للإسلام، يمثلون هذه الأطروحة أيضاً المرة بعد المرة، و«مارتن لوثر» لا يشكل هنا استثناءً، ويكتب «لوثر» قائلاً: «إنه أمر يُوصى به في شريعتهم، بصفته عملاً ربانياً مستحسناً، وأن ينهبوا ويقتلوا، ويلتهموا، المرة بعد الأخرى، كلَّ شيء من حولهم، ويفسدوا كل شيء، كما يقولون هم يحسبون أنهم يسدون به خدمة لله»(١).

ولكن «لوثر» وقع في ما اعترض به على الإسلام في موضوع الجهاد والكفاح المسلح.

فإن مشروعه الإصلاحي وصل به إلى هذه النتيجة، وهو الجمع بين الروحي والسياسي فعمل على إنشاء ما عُرف باسم «الكنيسة ـ الدولة» بحسب تعبير «لوكلير» حيث جعل عنوان الفصل الأول: «لوثر، من الحرية الدينية إلى الكنيسة ـ الدولة»(٢).

لقد اتجه لوثر إلى استخدام السلطة والقوة لخدمة التعاليم الإنجيلية وفرضها بالقوة.

يقول «لوثر» في أحد رسائله: «لقد اعتدنا، بأمر من السلطة، وباسم الأمير صاحب السمو أن نرهب الناس، وأن نهدد بالعقاب الذين يهملون العبادة، ولا يأتون لسماع الوعظ، هذا هو الإجراء الأول، فإن لم يحصل أي تحسن كلفنا كهنة الرعية تحديد مهلة شهر أو أكثر كي يثوبوا إلى رشدهم، فإن تمادوا في العناد فصلناهم أخيراً عن الجماعة، وقطعنا كل علاقة بهم كما لو كانوا وثنيين»(٣).

يقول «لوكلير» ملاحظاً هذا التطور في الكنيسة الدولة اللوثرية: «هكذا أخذت الكنائس الدُّول تتكون في الإمارات الألمانية برعاية «لوثر»

---

(١) مسيحية ضد الإسلام (١٣٥).
(٢) تاريخ التسامح (١٩٧).
(٣) نقلاً عن تاريخ التسامح (٢١٢).

الذي راحت وساوسه تتبدد يوماً بعد يوم، ويفارقه معها كل تردد إلى أن رأيناه في شرحه للمزمور (١٠١) عام (١٥٣٤م)، يشيد بإنجاز داوود الديني مقدماً «ملك إسرائيل»، مثالاً لجميع الملوك[١].

لقد ألغى «لوثر» ما عمل له طول حياته: وهو الفصل التام بين السلطة الروحية وهي من حق الكتاب والإيمان المسيحي، وبين السلطة الزمنية وهي المتمثلة في الإمبراطور والأمراء والدول.

وذهب للجمع بين السلطتين في الدول والإمارات والكنائس التي قامت على وفق تعاليمه، ثم أراد في مجادلته للإسلام أن يأخذ على الإسلام الجمع بين السلطتين، وهي من صميم حقائق الإسلام، فهو دين ودولة.

يقول الأستاذ «هاغمن»: «وقد نقل «لوثر» تمييزه وفصله بين السلطة الروحية، والسلطة الزمنية، ونظريته في السلطتين، بأسلوب غير مشروع إلى الإسلام، ذلك أن الإسلام يفهم نفسه، ومنذ نشوئه في الأصل، على أنه مجتمع ديني وسياسي في الوقت ذاته الإسلام دين ودلة، فالمجتمع الديني والسياسي والثقافي شيء واحد، وشعب الدولة هو شعب الله، والقانون الديني الذي هو الشريعة، هو قانون الدولة، والدين والسياسية يتشابكان، ويتداخل كل منهما في الآخر حيث يتعذر الفصل بينهما»[٢].

٣ ـ هل اطّلع «مارتن لوثر» على القرآن الكريم؟

الجواب المباشر لهذا السؤال هو:

(أ) إن «مارتن لوثر»، لم يطلع على القرآن الكريم أول الأمر، وإنما تلقف ما يتعلق به ممن سبقوه بنقد القرآن من القساوسة خاصة من ذكرناه قبل وهو القسيس «رِكُلْدُس دي مونتي كروتشي».

---

(١) تاريخ التسامح (٢١٢).

(٢) مسيحية ضد الإسلام (١٣٧).

يفيدنا الأستاذ «هاغمن» بمعلومة مهمة، وهي أن «لوثر»، كان يتطلع إلى التعرف على القرآن ومحتوياته بنفسه.

يقول «هاغمن»: «كان «لوثر» قد لبث زمناً طويلاً يتوق إلى التعرف على القرآن ذاته، وإلى النظر فيه بنفسه، فقد كتب في (١٥٤٢م)، مقدمته الواسعة لتلك الدراسة عن القرآن المسماة: «ضد شريعة المسلمين»، وقد كان أعلن قبل ذلك في عام (١٤٣٠م) بأنه سيكون مسروراً لو قرأ القرآن»[١].

ويؤكد الأستاذ «ريتشارد سوذرن»، فيقول مبيناً الحالة النفسية التي كان عليها «لوثر» وقت كتابته تلك المقدمة: «إبّان هذا الوقت قام «لوثر» بترجمة كتاب يتعلق بالإسلام، كان «لوثر» آنذاك، عجوزاً ساخطاً على كل شيء، وقد وقع في يده كتاب «رِكُلْدُس كروتشي» المعادي للإسلام والمسمّى: «الرد على القرآن»[٢]، وهو من أعمال القرن الثالث عشر، فنقله إلى الألمانية ولكي يجعله معاصراً بعض الشيء بالنظر للهجوم الإسلامي المستمر على أوروبا آنذاك، قدّم له بمقدمة طويلة، كما أضاف إليه ذيلاً، ويبدو أنه في تمهيده وملحقه على الترجمة لامس دون أن يدري رؤية قديمة عند بعض المؤلفين الأوروبيين السابقين، ترى أن المسألة الإسلامية لن تجد حلاً سياسياً أو فكرياً.... تكاد تكون عباراته مثل ما قاله «جان جرمان» تماماً عندما كان يدعو لحرب صليبية جديدة لحلّ المسألة الإسلامية»[٣].

فكان «لوثر» ضحية هذه المؤلفات المعادية بشدة للإسلام والقرآن الكريم.

---

(١) تاريخ التسامح (١٣٩).
(٢) هو كتاب: ضد شريعة المسلمين نفسه.
(٣) صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى (١٥١).

ب ـ ووقع «لوثر» ضحية مرة أخرى، لأول اطلاع شخصي له، على معاني القرآن الكريم لأنه استطاع وفي مرحلة متأخرة الحصول على تلك الترجمة، التي قام بها «روبرت الكيتوني» بإشراف «بطرس المبجل» فوقع «لوثر» ضحية للتحريفات الشديدة التي في تلك الترجمة فظن أن هذا هو القرآن الكريم فشن عليه حربه الشعواء.

يذكر «لوثر» ظروف عثوره واطلاعه على تلك الترجمة اللاتينية كان ذلك في يوم «ثلاثاء المَرْفع»(١)، الموافق الحادي والعشرين من شباط سنة (١٥٤٢م).

يقول «لوثر»: «غير أني رأيت في ثلاثاء المَرْفع هذا، القرآن باللاتينية، ولكن ترجمته رديئة جدّاً، حتى لقد وددت لو أنظر في ترجمة أكثر وضوحاً»(٢).

ومع اعترافه هذا إلا أن اعتمد ما في هذا الترجمة المحرفة، وبنى عليها موقفه السيئ جدّاً من القرآن الكريم.

يقول «هاغمن» معلقاً: «أي أن هذا يعني، إذا فهمنا «لوثر» فهماً صحيحاً، أنه لم ينظر في القرآن أول مرة إلا في عام (١٥٤٢م)(٣)، وكانت نسخة لاتينية، وقرأه»(٤).

ثم يقرر «لوثر» بناءً على هذا، أن القرآن مصدر الشر والعداء للمسيحية، فيقول «لوثر»: «ما إن قرأت القرآن(٥)، حتى عرفت أن

---

(١) من الأيام التي لها تعظيم عند النصارى.
(٢) نقلاً عن مسيحية ضد الإسلام (١٣٩).
(٣) أي: في مرحلة متأخرة من عمره قبل وفاته بأربع سنوات لأنه توفي في (١٨) فبراير، سنة ١٥٤٦م.
(٤) مسيحية ضد الإسلام (١٤٠).
(٥) هو لم يقرأ القرآن، ولم يتعرف عليه، وإنما قرأ تلك التحريفات الشنيعة، التي قدمتها له، تلك الترجمة اللاتينية التي وضعها «روبرت الكيتوني».

«رِكُلدْس كروتشي»، كان محقاً في رده على القرآن لذلك عمدت إلى ترجمة كتابه للألمانية»[١].

ثم تمنى لو يتسع له الوقت ليقوم هو بنفسه بنقل تلك الترجمة من اللاتينية إلى الألمانية.

يقول «لوثر»: «إذا توفر لدي الوقت فلا بد لي أن أنقله إلى الألمانية، لكي يرى كل امرئ كم هو كتاب فاسد، ومشين»[٢].

ثم وظّف «لوثر» ذلك كله لإقناع المسيحين بصحة وقوة العقائد المسيحية.

يقول «لوثر»: «بات من المعروف لدينا نحن الألمان أيضاً مقدار ما تنطوي عليه عقيدة محمد من الفظاعة، ولكي نزداد قوة في عقيدتنا المسيحية»[٣].

فإذن الدافع له على ذلك هو عين الدافع لمن سبقه من قساوسة، وهو الخوف على ذلك، الخليط من العقائد المسيحية المصادمة للفطرة السوية والعقل المستقيم، والتي كشفها القرآن وأبطلها، وقد علموا قوة حجته وصحتها، وأنه لا مجال لمناقضتها ومصادمتها بالحجة والبيان.

ج ـ وأخيراً كان «لمارتن لوثر» دور حاسم في الأمر بطباعة هذه الترجمة اللاتينية للقرآن الكريم التي عملها: «روبرت الكيتوني» بإشراف «بطرس المبجل»، ويعمل على نشرها بشكل واسع ووظف ذلك ضمن جهوده الدؤوبة في مواجهة المسلمين ـ العثمانيين ـ المحاصرين لأوروبا في ذلك الوقت.

يقول «هاغمن»: «اتخذ «لوثر» موقفاً في تشرين الأول من

---

(١) نقلاً عن صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى (١٦٣).

(٢) مسيحية ضد الإسلام (١٤٠). (٣) المصدر السابق (١٤٢).

عام (١٥٤٢م)، في رسالة له إلى مجلس الكنائس العالمي بمدينة «بازل» إلى جانب طبع ترجمة القرآن اللاتينية، وهي الترجمة المتنازع عليها تلك الأيام والتي قام بها «روبرت الكيتوني»، وأنجزها بتكليف من «بطرس المبجل» عام (١١٤٣م)، يقول «لوثر»: «لقد دفعني إلى ذلك أن في وسع المرء أن يلحق الضرر أكثر مما يفعل ذلك بكل الوسائل، بأن يكشف عن قرآنهم لدى المسيحيين، لعلهم يرون مقدار ما يتسم به هذا الكتاب مما يستوجب اللعنة، والزراية، ويبعث على اليأس إذ يحفل بالأكاذيب والأساطير وكل التهاويل، وعلى أساس هذه المداخلة جرى آخر الأمر في الحادي عشر من كانون الثاني عام (١٥٤٣م) إخراج طبعة القرآن، وكتب لها «مارتن لوثر» مقدمة»(١).

ليس «للوثر» عذر كونه وقع ضحية لتلك الترجمة المحرفة، ولتلك الكتابات الحاقدة السابقة لقساوسة قبله.

فالعداء وحده ليس كافياً ـ منطقياً وأخلاقياً ـ لتبرير وضع العراقيل لاطلاع أفضل والوصول لحقائق عن القرآن أوضح، وأبحاث موضوعية أدق، والتعرف على الحقائق العلمية دون تحريفها وتزييفها.

تستشهد المسيحية ـ ولوثر على وجه الخصوص ـ بالعهد القديم، وأسفار الأنبياء، لبيان البشارة وإعلان مولد المسيح، وتستشهد بالعهد الجديد، للإعلان عن الملكوت الرباني، وتستند إلى تفسيرات ومدخلات «بولس»، وتبشيره بالخلاص بموت وصلب المسيح.

أما الإسلام فهو دين الفطرة، والإسلام هو الدين المشترك العام لكل الأنبياء وأتباعهم من لدن آدم أبي البشر إلى النبي الخاتم محمد ﷺ، وما نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ إلا دعاة إلى هذا الدين

---

(١) مسيحية ضد الإسلام (١٤٢).

الحق إلى الإله الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣].

تقول الكاتبة الألمانية الشهيرة الدكتورة «زغريد هونكه»: «الإسلام يرفع شعاراً بأنه دين الفطرة، وأنه الدين الموجود منذ بدأ الخليقة، وأنه في كل العصور وحيّ خالص من الرّبّ بعث به رسله، ليبشروا به كافة شعوب الأرض، والرّبّ هو «الله»، في اللغة العربية عبده الناس قبل بعثة محمد ﷺ بقرون طويلة، وهو ليس اسم علم مثل «يَهْوَه» فالله هو الرّبّ، ولذلك جاء في سورة آل عمران: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [آل عمران: ٨٤] وآخر الأنبياء وخاتمهم هو محمد»[١] ﷺ.

❁ ❁ ❁

(١) كتاب: الله ليس كمثله شيء، الكشف عن ألف فرية وفرية عن المسلمين (٧٥).

البابا: يوحنا بولس الثاني

البابا: يوحنا بولس الثاني

ولد هذا البابا البولوني في سنة (١٩٢٠م).

اسمه الحقيقي: «فُوْتيلا الكراكوفي»، رسم كردينالاً، واعتلى بعد ذلك كرسي البابوية بروما سنة (١٩٧٨م)، واختار لنفسه اسم «يوحنا بولس الثاني»، وعيّن بابا خلفاً لسلفه البابا «ألبينو لوشياني» الذي لقب نفسه «يوحنا بولس الأول»، الذي استمر في البابوية ثلاثة وثلاثين يوماً فقط.

وتوفي «يوحنا بولس الثاني» في الثاني من شهر نيسان سنة (٢٠٠٥م) بعد أن قضى في السُدّة البابوية ستة وعشرين عاماً[(١)].

منذ انعقاد المجمع المسكوني الثاني (١٩٦٢ ـ ١٩٦٥م)، أصبح الفاتيكان يلعب دوراً خطيراً في تحريك الأحداث السياسية وتوجيهها[(٢)].

وكان للبابا «يوحنا بولس الثاني»، دور بارز في ذلك.

يعبر هذا البابا عن ذلك فيقول: «إن الكرسي الرسولي يسعى للتدخل لدى حكام الشعوب والمسؤولين عن مختلف المحافل الدولية، أو الانضمام إليهم بمحاورتهم، أو إخضاعهم على الحوار لمصلحة المصالحة وسط صراعات عديدة»[(٣)].

---

(١) كتاب: الآتي من بلد بعيد، سيرة البابا يوحنا بولس الثاني، للكاتبة البريطانية: «ماري كريغ»، وترجمه إلى العربية: الخوري نبيل الحاج (١٧ ـ ٢٠).

(٢) المصدر السابق (٩٧).

(٣) انظر لأعمال هذا المجمع وتوصياته والأبعاد السياسية والدينية له: كتاب، الجغرافية السياسية للفاتيكان، الطبعة العربية (٢٧٠ وما بعدها).

في هذا المجمع المسكوني الثاني، تم تقرير أمرين خطيرين، انبنى عليهما توجه وأعمال الفاتيكان بعد ذلك:

الأمر الأول: إعلان براءة اليهود من دم المسيح المصلوب:

ظل النصارى على مختلف طوائفهم يرددون في كل قُدّاس يقيمونه، ولمدة ألفي سنة «التباكي على دم المسيح المسفوح على الصليب لخلاص البشرية».

ثم يأتي الفاتيكان في هذا المجمع، ليعلن براءة اليهود من دم المسيح!!

في إلغاء لجوهر الاعتقاد المسيحي، ويصمت نصارى العالم على ذلك!!

فضرورات التقارب مع اليهود ضد المسلمين تفرض ذلك.

فهل صُلب المسيح حقاً؟!، وإن كان صُلب فمن صَلَبه، إن لم يكن اليهود فعلوا ذلك؟!

أم هي مصالحة سياسية لتوحيد صفوف المسيحيين مع اليهود في مواجهة الإسلام والمسلمين؟!

في الوقت الذي لم يغير اليهود بجميع طوائفهم موقفهم السلبي جدّاً من المسيح وأمه، ومن المسيحية وأناجيلها.

في إنجيل «يوحنا» قال المسيح لليهود: «قد عرفتُ أنكم تطلبون قتلي، إنّ كلامي لا محمل له فيكم»[(١)].

قال له اليهود: «الآن عرفنا أن بك مسّاً من الشيطان»[(٢)].

---

(١) إنجيل يوحنا الإصحاح (٨)، (٣٧).

(٢) المصدر السابق، الإصحاح: ٨ (٥٢).

«فأخذوا حجارة ورموه بها، فتوارى يسوع وخرج من الهيكل»[١].

الأمر الثاني: الدعوة لإعادة تنصير العالم:

وهو المشروع الذي أنفق «يوحنا بولس الثاني» عمره البابوي في سبيل تحقيقه بشتى الوسائل، أعلن «يوحنا بولس الثاني»، ذلك بمدينة «كمبوستيل»، بشمال غرب أسبانيا سنة (١٩٨٢م).

يتساءل باحثون: هل يمثّل هذا الإعلان، الذي طالب فيه البابا بنشر رسالة الإنجيل في العالم رسالة تنصير إلى العالم الإسلامي على وجه الخصوص؟

وإلا فما سرّ اختياره لمدينة «كمبوستيل» التي هي آخر ما امتد إليه الفتح الإسلامي في أوروبا، وقد زادت أهميتها بعد القرن الحادي عشر الميلادي لتصبح مزاراً يحج إليه مسيحيو الغرب[٢]؟

لذلك يسعى الفاتيكان، وهذا البابا «يوحنا بولس الثاني» على وجه الخصوص، على نشر رسالة الإنجيل في العالم كله، والعالم الإسلامي على وجه الخصوص ومن نشاطه الدؤوب في ذلك:

أ ـ عقد المؤتمرات التنصيرية باستمرار للعمل على إحداث اختراق ذي قيمة للعالم الإسلامي والمسلمين، ومن هذه المؤتمرات الشهيرة:

• مؤتمر «لوزان»، سنة (١٩٧٤م)، واتخذ توصيات هامة بهذا الشأن.

• مؤتمر «كولورادو» الشهير (١٩٨٧م)، والذي حضره أكثر من (١٥٠) عالماً مسيحياً متخصصاً في شؤون التنصير، وتمت فيه دراسة أربعين بحثاً

(١) إنجيل يوحنا، الإصحاح: ٨ (٥٩).
(٢) انظر كتاب: الفاتيكان والإسلام (١٩ ـ ٢٠).

تناول كل بحث منها منفذاً ومدخلاً للعمل التنصيري في بلاد المسلمين(١).

- مؤتمر مسيحيي الشرق المنعقد في باريس عام (١٩٨٥م).
- ومن أواخر المؤتمرات: المؤتمر المسيحي الكبير المنعقد بالفاتيكان، في خريف عام (٢٠١١م) وحضره ممثلون من جميع نصارى وكنائس العالم خصوصاً الشرقية، منها مصر والشام والعراق وأفريقيا وغيرها، ولا تزال قراراته وتوصياته طيّ الكتمان.

ب ـ عمل البابا «يوحنا بولس الثاني» على إنشاء عدد كبير من المنظمات والمؤسسات التي تعمل للتنصير، وبثها في مختلف بلدان العالم، والعالم الإسلامي على وجه الخصوص، منها على سبيل المثال:

- منظمة «إيمانويل» الخيرية للعمل الإغاثي والتنصيري.
- منظمة «أسد يهوذا» للغرض ذاته.
- منظمة «عمل الرب» وغيرها كثير(٢).

إنه يُعد نفسه ليكون «بابا للعالم كله»، والكنيسة الغربية رأس الكنائس في العالم.

تحت عنوان «بابا للعالم»، تقول كاتبة سيرته الباحثة البريطانية «ماري كريغ»: «قال أحد الأساقفة: تدخلت الآراء وانصهرت تلقائياً فغاب عن الفكر أنه مجرد زعيم روحي آتٍ من بلدان الشيوعية، أو أنه جندي انتزع من خط المواجه ليعيّن قائداً عاماً، بل أصبح ينظر إليه على أنه بابا لأفريقيا وآسيا كلها، وأميركا اللاتينية، والصين وغيرها».

---

(١) انظر هذه البحوث والأعمال والتوصيات لمؤتمر «كولورادو» في: كتاب: التنصير، خطة لغزو العالم الإسلامي، وهو ترجمة عربية لما نشرته دار «MARC» بعنوان «The Gospel and Islam» ونشر سنة ١٩٧٨م.

(٢) انظر: الجغرافية السياسية للفاتيكان (١٢٦)، وكتاب: تنصير العالم، د. زينب عبد العزيز (٢٩ ـ ٣١).

وكما عبر «كريستوفر بوكر»: «يبدو البابا يوحنا بولس الثاني، وكأنه أعاد الكنيسة الكاثوليكية إلى مكانها في قلب المأساة النفسية التي يتخبط فيها العالم البشري بأسره»(١).

كل هذا العمل الدؤوب ليكرس به دعوته التي أطلقها وكررها في كل مناسبة. وأعلنها البابا في خطابه الرسولي المعنون: «الرب يسوع» وألقاه بتاريخ ٦/٨/ ٢٠٠٠م. قال فيه: «إن عالمية يسوع حتمية، والكنيسة الكاثوليكية وحدها هي التي يقع عليها قيادة كافة الشعوب»(٢). دعوة صريحة وواضحة.

• موقف الفاتيكان والبابا «يوحنا بولس الثاني» من الإسلام والقرآن الكريم:

الفاتيكان وهو رأس الكنائس الغربية في العالم، ما هو إلا امتداد للموقف العدائي الواضح للنصارى في القرون الوسطى ضد الإسلام والقرآن الكريم، فإن الفاتيكان، لا يعترف بالقرآن الكريم ككتاب مقدس منزل من عند الله، ويستبعده تماماً؛ بل ويحاربه وينسب إليه من الشبهات ما تفنن في بثه قساوسة القرون الوسطى مجتمعين.

يقول الدكتور «موريس بوكاي» في ذلك: «لكل دين من الأديان الثلاثة كتاب، تشكل نصوصه الإيمان لدى كل مؤمن يهودياً كان أو مسيحياً أو مسلماً. . . غير أن هذا الموقف ليس هو موقف مسيحيي البلاد الغربية، التي تؤثر فيها المؤثرات اليهودية والمسيحية، والتي ترفض اعتبار القرآن كتاباً منزلاً.

(١) الآتي من بلد بعيد، سيرة البابا: يوحنا بولس الثاني (٢١٥ ـ ٢١٦).

(٢) آفاق الحكمة، خواطر البابا يوحنا بولس الثاني، جمع الأب: عادل تيودور خوري (٢٩ ـ ٣٠).

وزيادة على ذلك فهناك بعض أوساط مسيحية تحتقر المسلمين، ولقد خبرتُ هذا حين حاولت إقامة حوار من أجل دراسة مقارنة، حول عدد من الأخبار المذكورة في القرآن والتوراة معاً في موضوع واحد، ولاحظت أن هناك رفضاً باتاً للنظر بعين الاعتبار، ولو لمجرد التأمل، فيما يحتويه القرآن مما يتعلق بموضوع الدراسة المزمعة، كأن الرجوع في ذلك إلى القرآن يعني الاعتماد على الشيطان»(١).

أما بالنسبة للبابا «يوحنا بولس الثاني» فإن أوضح مصدر نتوصل منه إلى معرفة واضحة عن موقفه من الإسلام والقرآن هو كتابان صدرا للبابا:

الأول: كتاب «رسالة الفادي... القيمة الثابتة لوصية الرسالة».

وهو نص خطاب للبابا، صدر في السابع من شهر ديسمبر عام (١٩٩٠م)، وهو عبارة عن رسالة من البابا لمسيحيي الشرق يدعوهم فيها للعمل الدؤوب للدفاع عن المسيحية والعمل على فرضها باعتبارها هي الحقيقة التي من خلالها يتم تنقية الإسلام من الثغرات والشوائب والأخطاء التي ألحقت به فجعلت منه موقفاً سلبياً ضد المسيح ورسالته العالمية.

ويؤكد البابا في خطابه هذا على: «العمل بثبات على أن الخلاص يأتي من المسيح، وأن الحوار لا يعفي من التبشير بالانجيل، وأن الكنيسة لا تعتبر أن هناك أي تناقض بين البشارة بالمسيح والحوار بين الديانات»(٢).

أما الكتاب الثاني: فهو تحت عنوان: «ادخلوا في الرجاء» وهو أجوبة للبابا على أسئلة وجهت إليه من قبل الكاتب الصحفي الإيطالي: «فيتوريو ميسوري».

وأصدرها الفاتيكان مجموعة في كتاب: وهي أجوبة على خمسة

---

(١) القرآن والتوراة والإنجيل دراسة في ضوء العلم الحديث (١٠ ـ ١١).

(٢) رسالة الفادي، الطبعة العربية، ترجمة: الأب عادل خوري (١٧ ـ ١٨) المكتبة البولسية، جونية، لبنان، ٢٠٠٦م.

وثلاثين سؤالاً وجهها هذا الصحفي الإيطالي للبابا يوحنا بولس الثاني: وصدر في شهر أكتوبر سنة (١٩٩٤م).

ومن ضمن هذه الأسئلة:

ـ ما الفرق بين الله عند المسلمين، وإلٰه المسيحيين؟

وجاء جواب البابا في نحو خمس صفحات[1]، وفيه يظهر موقف هذا البابا بوضوح من القرآن الكريم ودلالاته التعريفية بالله رب العالمين.

وسأُقَسّم، جوابه إلى فقرات مع التعليق على كل فقرة بما يناسبها وبالله تعالى التوفيق.

• يقول البابا: «نعم بالطبع فالأمر مختلف كُليَّةً فيما يتعلق بهذه الديانات الكبرى بدءاً بالإسلام».

وهذا اعتراف بالاختلاف الجذري بين الإسلام وبين المسيحية من جهة القاعدة الإيمانية والتوحيدية.

• يقول البابا: «إن أي شخص يقرأ القرآن، وهو على دراية مسبقة بالعهد القديم والجديد سيلحظ بوضوح، سياق الاختزال الذي تعرض له التنزيل الإلٰهي المسيحي، ومن المحال ألا يُصْدَم المرء من عدم الفهم الذي يظهر في القرآن بوضوح لما قاله الله عن نفسه.

أولاً: عن طريق الأنبياء في العهد القديم، ثم لما قاله بصورة نهائية في العهد الجديد من طريق ابنه، وبالفعل إن كل هذا الثراء الخاص، بكشف الله عن ذاته، والذي يمثل تراث العهد القديم والجديد قد ترك جانباً في الإسلام».

١ ـ واضح أن البابا يتكلم بعقل ولسان قساوسة القرون الوسطى،

---

(١) ادخلوا في الرجاء، ترجمة: الأب عادل خوري (١٤٢ ـ ١٤٧)، المكتبة البولسية، جونية، لبنان ٢٠٠٠م.

المتهمة للقرآن، والمصادرة له، والمغالطة إلى درجة كبيرة في تصوير محتوياته، ومضامينه العظيمة.

يحاول البابا ولكن من طرف خفي: أن يصور أن القرآن نقل واستفاد من الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد ولكن بشكل مختزل، وهي فرية عرفنا من هذه الدراسة أنها سلاح هؤلاء القساوسة على اختلاف توجهاتهم وأزمانهم، فهم يبدون فيه ويعيدون، ويزيدون وينقصون.

والحق أن القرآن الكريم جاء مصدقاً لما سبقه من كتب الله المنزّلة على أنبياءه، وكاشفاً في نفس الوقت ما أخفاه الأحبار والرهبان، وما حرفوه، وبدلوه، هذا هو الذي سماه البابا في جنايته على القرآن، بأنه اختزال كبير لما في العهدين القديم والجديد.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ [المائدة: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وإني أحسب أن البابا يدخل بقوله هذا فيمن عناهم القرآن بقول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩٢﴾ [الأنعام: ٩١، ٩٢].

٢ ـ لا نعلم على أي ترجمة للقرآن الكريم اطلع البابا، وأكبر ظني أنه اطلع على ترجمة «بطرس المبجل» و«روبرت الكيتوني» والتي عمل

على طباعتها «مارتن لوثر» كما ذكرنا سابقاً، خصوصاً أنه توجد منها نسخاً محفوظة في مكتبة الفاتيكان، إلا أن التعصب الصليبي الذي ورثه هذا البابا عن أسلافه أعمى بصره، وأغلق بصيرته عن رؤية الحقائق، والاطلاع الحق على حقائق القرآن الكريم، وفاته بذلك خير عظيم، وخسر خسراناً مبيناً أن يدخل فيمن وصفهم الله بمؤمني أهل الكتاب وعلماء بني إسرائيل الذي شهدوا بأن هذا القرآن هو الحق، فأخبتت له قلوبهم، ودمعت عند سماعه أعينهم، وشهدوا لله تعالى شهادة الحق أن هذا القرآن يدعوا للإيمان ويصدق المرسلين.

قال الله تعالى عن هؤلاء الصادقين: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [المائدة: ٨٢ ـ ٨٥].

هذه الآيات الكريمات من سورة المائدة وهي من القرآن المدني، ونجد أيضاً هذا الثناء على هؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب أيضاً قد سبق في القرآن المكي، فقال الله تعالى في سورة القصص: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٥].

قال الإمام قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المراد بهؤلاء الصادقين المؤمنين من النصارى: «هم أناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق مما

جاء به عيسى عليه الصلاة والسلام، يؤمنون به وينتهون إليه، فلما بعث الله نبيه محمداً ﷺ، صدقوا به، وآمنوا به، وعرفوا الذي جاء به أنه الحق، فأثنى عليهم ما تسمعون»[(١)].

وقال أبو جعفر الطبري رحمه الله: «والصواب من ذلك: أن الله تعالى وصف صفة قوم قالوا: ﴿إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ أن نبي الله يجدهم أقرب الناس وداداً لأهل الإيمان بالله ورسوله، وقد يجوز أن يكون أريد بذلك أصحاب النجاشي، ويجوز أن يكون أريد به قوم كانوا على شريعة عيسى فأدركهم الإسلام فأسلموا لما سمعوا القرآن، وعرفوا أنه الحق، ولم يستكبروا عنه»[(٢)].

٣ ـ وإني أرى من المناسب هنا أن أسوق مقاطع مختصرة، من خطاب ورسالة الإمام شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية رحمه الله، والتي أرسلها، وخاطب بهما ملك الروم وعظيمهم واسمه: «سرجوان» ففيها كشف للحق وإظهار له، وقمع للكذب والزور والباطل الذي افتراه النصارى على الإسلام والقرآن وتسبب ذلك في صدهم عن اتباع الحق والإيمان بالكتاب المنزل من عند الله المصدق لما في أيديهم من الكتاب، دون ما حرفوه، وبدلوه، وإنه لخطاب مناسب لمثل حال وفعل بابا الفاتيكان «يوحنا بولس الثاني» ما دام أنه يتعاطى مع الإسلام والقرآن بعقلية قساوسة العصور الوسطى إمعاناً في الضلال والإضلال، وحفاظاً على مكانته باعتباره رأس الكنيسة الكاثوليكية الغربية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في خطابه لملك النصارى بقبرص، وقد صار في أيديهم بعض الأُسارى من المسلمين: «أما بعد فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، إله إبراهيم، وآل عمران، ونسأله أن يصلي على عباده المصطفين، وأنبيائه المرسلين، ويخص

---

(١) تفسير الطبري (٥/ ٤ ـ ٥). (٢) المصدر السابق.

بصلاته وسلامه أولي العزم، الذين هم سادة الخلق، وقادة الأمم، الذين خُصُّوا بأخذ الميثاق، وهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد. كما سماهم الله تعالى في كتابه فقال ﷻ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧].

ونسأله أن يخص بشرائف صلاته وسلامه خاتم المرسلين، وخطيبهم إذا وفدوا على ربهم، وإمامهم إذا اجتمعوا، شفيع الخلائق يوم القيامة، نبي الرحمة، ونبي الملحمة، الجامع محاسن الأنبياء، الذي بشّر به عبد الله وروحه وكلمته التي ألقاها إلى الصديقة الطاهرة البتول، التي لم يمسها بشر قط «مريم ابنة عمران» ذلك مسيح الهدى عيسى ابن مريم، الوجيه في الدنيا والآخرة، المقرب عند الله، المنعوت بنعوت الجمال والرحمة، لمّا انجرّ بنو إسرائيل فيما بعث به موسى من نعت الجلال والشدة، وبعث الله النبي الخاتم الجامع بنعت الكمال المشتمل على الشدة على الكفار، والرحمة بالمؤمنين، والمحتوي على محاسن الشرائع والمناهج التي قبله، صلى الله عليهم وسلم أجمعين وعلى من تبعهم إلى يوم القيامة»[(١)].

وبعد هذا المدخل الواضح المعالم، المتين الدعائم، المعظم للأنبياء غير المفرّق بين أحد منهم ذكر شيخ الإسلام خصائص رسالة نوح وإبراهيم وموسى عليهم الصلاة والسلام.

ثم قال عن رسالة المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام:

---

(١) الرسالة القبرصية، ضمن مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦٠١ ـ ٦٠٢).

«ثم بعث الله المسيح ابن مريم رسولاً قد خلت من قبله الرسل، وجعله وأمّه آية للناس، حيث خلقه من غير أب، إظهاراً لكمال قدرته وشمول كلمته، حيث قسّم النوع الإنساني الأقسام الأربعة، فجعل آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق زوجه حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق المسيح ابن مريم من أنثى بلا ذكر، وخلق سائرهم من الزوجين الذكر والأنثى، وأتى عبده المسيح من الآيات البينات ما جرت به سنته، فأحيى الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص، وأنبأ الناس بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، ودعا إلى الله تعالى، وإلى عبادته، متبعاً سنة إخوانه المرسلين، مصدقاً لما قبله، ومبشراً بمن يأتي بعده وكان بنو إسرائيل قد عتوا وتمردوا، وكان غالب أمره اللين والرحمة، والعفو والصفح، وجعل في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة، وجعل منهم قسيسين ورهباناً، فتفرق الناس في المسيح عليه السلام، ومن اتبعه من الحواريين ثلاثة أحزاب:

• قوم كذبوا وكفروا به وزعموا أنه ابن بغي، ورموا أمه الصديقة بالفرية ونسبوه إلى يوسف النجار، وزعموا أن الشريعة التوراة لم ينسخ منها شيء وأن الله لم ينسخ ما شرعه، بعد ما فعلوه بالأنبياء، وما كان عليهم من الآصار في النجاسات والمطاعم»(١).

• وقوم غلوا فيه، وزعموا أنه الله، أو ابن الله، وأن اللاهوت تدرع الناسوت، وأنزل ابنه ليصلب ويقتل فداء لخطيئة آدم، وجعلوا الإلٰه الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، قد وُلِدَ،

---

(١) هم اليهود ومع هذا يصدر المجمع الفاتيكاني الثاني صك براءة لليهود من العدوان على المسيح وقتله وصلبه في قلبٍ للعقيدة المسيحية التي صنعها بولس رأساً على عقب، ويتخذ اليهود أصدقاء وحلفاء بل هم الأصل فلهم فضل التقدم والسبق، ويؤكد هذا البابا يوحنا بولس الثاني ويخص إسرائيل بزيارة حائط المبكى يقف ويعلن قداسة إسرائيل وبراءة يهود.
انظر: كتاب: اليهودية العالمية وحربها المستمرة على المسيحية، الأب إليا =

واتخذ ولداً، وأنه إلٰه حي عليم قدير، جوهر واحد، ثلاثة أقانيم، وأن الواحد منها أقنوم الكلمة وهي العلم، هي تدرّعت الناسوت البشري[(١)].

وتفرقوا في التثليث والاتحاد تفرقاً، وتشتتوا تشتتاً، لا يقر به عاقل، ولم يجئ نقل به إلا كلمات متشابهات في الإنجيل، وما قبله من الكتب، قد بينتها كلمات محكمات في الإنجيل وما قبله، كلها تنطق بعبودية المسيح، وعبادته لله تعالى وحده ودعائه وتضرّعه.

فأرباب التثليث في الوحدانية والاتحاد في الرسالة قد دخل في أصل دينهم من الفساد ما هو بيّن بفطرة الله التي فطر الناس عليها أو بكتب الله التي أنزلها[(٢)].

فهذا كشف للباطل والكذب والزيف الذي اعتمده النصارى وقساوستهم، وجعلوه نص الأمانة الإيمانية التي يلزم كل نصراني أن يقول بها، واعتمدوا ذلك في مجمع «نيقية» سنة (٣٢٥م) بعد ميلاد المسيح ﷺ وأصبح قساوستهم ينافحون عن هذا الباطل ويجادلون كتب الله المنزلة وخصوصاً القرآن لأنه هو كتاب الله المنزل الباقي المحفوظ بحفظ الله له، الكاشف لهذا الباطل والزيف المخالف لكل معقول أيضاً كما نبه على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في كلامه السابق.

ثم هنا يعود شيخ الإسلام في خطابه لهذا الملك النصراني

= أبو الروس، وانظر: كتاب: الصهيونية المسيحية، بول ميركلي، ترجمة: فاضل جتكر، دار قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٢م.

(١) وهذه الأباطيل والخرافات هي التي أدخلها «بولس» وزعم هذ اليهودي المتنصر أنها دعوة المسيح وهي ما يدعو إليه ويبشر به هذا البابا «يوحنا بولس الثاني» ويزعم أن القرآن الكريم اختزلها اختزالاً شديداً ولم يذكرها، بل إن القرآن الكريم زيفها، وبين كذبها وبطلانها، وهذا ما أحنق هؤلاء القساوسة الصليبيون على القرآن وعلى رأسهم «يوحنا بولس الثاني».

(٢) الرسالة القبرصية، ضمن مجموع الفتاوى (٢٨/٦٠٦ ـ ٦٠٨) باختصار يسير.

القبرصي «سرجوان» ليكشف الجانب الحقيقي والسبب الحقيقي وراء صد هؤلاء القساوسة الناس عن سماع الحق الذي جاء به القرآن الكريم، وضربهم بحجاب متين دون الناس حتى لا يسمعوا لهذا القرآن، ولا يتعرفوا على الحقائق الباهرة والدلائل القاهرة التي فيها عن المسيح عليه السلام وأمه الصديقة مريم وبيانه للتوحيد الحق الصادق.

هذا السبب ليس جدلاً علمياً مستنداً إلى وقائع وأدلة علمية عقلية ونقلية.

إنما هو دفاع من هؤلاء القساوسة عن مكتسباتهم الدنيوية من الرئاسة والسلطة والجاه، وطاعة الخلق، والمال الواسع، والترف الكبير الظاهر على ألبستهم المبهرجة، ومساكنهم الفارهه، وحتى كنائسهم التي شابهت قصور الأباطرة والملوك، وما «يوحنا بولس الثاني» إلا نموذجاً لهولاء، ورأساً في ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ولهذا كان عامة رؤسائهم ـ من القسيسين والرهبان وما يدخل فيهم من البطارقة، والمطارنة، والأساقفة ـ، إذا صار الرجل منهم فاضلاً مميزاً، فإنه يَنْخلُّ عن دينه ويصير منافقاً لملوك أهل دينه وعامتهم، قد رضي بالرئاسة عليهم وبما يناله من الحظوظ كالذي كان لبيت المقدس الذي يقال له «ابن البوري» والذي كان بدمشق الذي يقال له «ابن القف»، والذي بقسطنطينية وهو «البابا» وخلقٌ كثير من كبار البابوات والمطارنة، والأساقفة، لما خاطبهم قوم من الفضلاء أقروا لهم بأنهم ليسوا على عقيدة النصارى، وإنما بقاؤهم على ما هم عليه لأجل العادة والرئاسة، كبقاء الملوك والأغنياء على ملكهم وغناهم، ولهذا تجد غالب فضلائهم إنما همه أحدهم نوع من العلم الرياضي كالمنطق، والهيئة، والحساب، والنجوم، أو الطبيعي كالطب، ومعرفة الأركان، أو التكلم في الإلٰهي على طريقة الصابئة الفلاسفة الذين بعث إليهم إبراهيم الخليل عليه السلام، قد نبذوا دين المسيح والرسل الذين من

قبله وبعده وراء ظهورهم، وحفظوا رسوم الدين لأجل الملوك والعامة»[١].

• يقول البابا «يوحنا بولس الثاني»: «إن الله القرآني تطلق عليه أجمل الأسماء المعروفة في اللغة الإنسانية، لكنه في نهاية المطاف مجرد إله يظل غريباً عن العالم: إنه عبارة عن إله جلاله فحسب، ليس أبداً «عما نويل»؛ أي: الله معنا، إن الإسلام ليس دين فداء وهو لا يعطي أية مساحة للصليب، ولا للبعث، ولقد ورد ذكر «يسوع» وإنما تم ذكره كنبي فقط، عليه أن يمهد الطريق لمجيء «ما أوميه» أخر كل الأنبياء، ومريم أيضاً الأم العذراء قد ورد ذكرها، إلا أن مأساة العذراء، غائبة كلية لذلك فإن علم اللاهوت بل كذلك علم «الإناسة» في الإسلام شديد البعد عنهما في المسيحية».

يواصل «يوحنا بولس الثاني» إمعانه في مغالطاته المكشوفة والكاذبة عن القرآن الكريم وهو فعلاً يثبت لنا أنه يستدعي أفكار وعقل ولسان قساوسة القرون الوسطى، وهو يسلك في ذلك:

ـ الإنتقائية شديدة الاختزال في عرض ما دعى إليه القرآن الكريم، ولا أدري كيف يريد من المسلمين أن يتقبلوا كلامه ويكون هناك حوار مع المسلمين كما يزعم وهو يفعل هذا الفعل، ويعلم المسلمون جميعاً مدى الانتقائية التي اختزل فيها البابا بل وأعرض عن ذكر آيات مفصلات وحقائق بينات، في القرآن الكريم عن المسيح عيسى وأمه وعموم النصرانية.

ـ الكذب والتشويه المتعمد والمكشوف، فهو ينسب إلى القرآن مغالطات وأكاذيب يزعم بكل صفاقة أنها في القرآن الكريم.

١ ـ **المغالطة الكاذبة الأولى:** محاولته التي تفتقر إلى أبجديات

---

(١) الرسالة القبرصية، ضمن مجموع الفتاوى (٢٨/٦٠٨ ـ ٦٠٩).

الإقناع، والنقاش العلمي، أن يجعل الباطل والخرافة المسيحية في نزول الإله «المسيح» إلى الأرض في صورة إنسانية بشرية ضعيفة، مطاردة، محاربة، ثم مقبوض عليه، ثم مقتولة، مصلوبة على الأعواد. لتحقيق فكرة خرافية أغرق منها في الضلال و«الإسفاف العقلي»، على أن هذا هو الحق والقول الصدق، وأن ما يعلمه القرآن الكريم من تعريف الخلق بربهم الحق وإلههم الصدق «الله» رب العالمين، الإله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ⑪﴾ [الشورى: ١١] ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ㉔﴾ [الحشر: ٢٤]، وغير ذلك من معارض الأوصاف الإلهية العليا والأسماء الكريمة الحسنى لله تعالى في القرآن العظيم.

يريد البابا أن يجعل من هذا الحق الهائل، الظاهر، الناصع، أمراً غريباً عن العالم وعن أفهام الخلق.

وهذا بحق عجز عن قبول الحق الموافق لصريح المعقول، المناسب للفطرة السليمة والعقول المستقيمة. وصدق الله تعالى في حقه وأمثاله ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ⑳﴾ [هود: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ⑩①﴾ [الكهف: ١٠١].

ثم هذا عجز عن مواجهته ومجادلته، فيلجأ إلى هذه الإلتوائية الخاسرة والمخاطرة الفاجرة، التي فضح فيها عقله وتعاطيه مع الأمور اللاهوتية العظيمة الهائلة.

وهروب صريح عن المواجهة والمناقشة الواعية لمضامين الكتب الإلهية المنزلة والقرآن الكريم على رأسها. إلى مثل هذا النوع من المجادلة بالباطل.

إنه يصدق عليه من القرآن هذا الوصف:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ

تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [فصلت: ٢٦، ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [يونس: ٣٧ ـ ٣٩].

يقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا بيان لإعجاز القرآن وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ولا بعشر سور، ولا بسورة من مثله لأنه بفصاحته وبلاغته ورجازته وحلاوته واشتماله على المعاني الغزيرة والعزيزة النافعة في الدنيا والآخرة، لا تكون إلا من عند الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، ولا في أقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب المتقدمة ومهيمناً عليها، ومبيناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل»[(١)].

ثم قال: «وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾. يقول: بل كذب هؤلاء بالقرآن ولم يفهموه، ولا عرفوه، ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي: ولم يُحصِّلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلاً وسفهاً، كذلك فعل من تقدمهم من الأمم السالفة»[(٢)].

٢ ـ **المغالطة الكاذبة الثانية**: زعمه أن «الله» تعالى كما يصفه القرآن ليس أبداً «عما نويل» أي: الله معنا.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٠٠).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٤٠١).

في هذا عدة أمور:

- «عما نويل» في اللسان العبراني، وهو لسان بني إسرائيل، كما أنه هو لسان التوراة والإنجيل، ولسان المسيح عيسى ابن مريم، ليست بمعنى «الله معنا» بل هو اسم أطلق على مولود ولد لأحد ملوك اليهود وهو «أحاز بن يوتام» وهو اسم معروف واسم هذا المولود الحقيقي «حِزْقيا».

- وردت هذه الكلمة «عما نويل» في العهد القديم في موضع واحد وهو سفر أشعيا في ذكر ولادة ابن لملك اليهود «أحاز بن يوتام بن عُزِّنا» ولا يشك أحد من دارسي العهد القديم أن سفر أشعيا: ما هو إلا كتاب مفتوح ما زالوا يزيدون فيه، فهو أشبه بدار كتب فتكثر فيه تواريخ الولادة لملوك اليهود وأبنائهم.

يقول شارحوا الكتاب المقدس الأباء: «انطون أودو، ورينيه لافنان، وصبحي الحموي»: «لا عجب أن يكون لكتاب واحد عدة مؤلفين ففي العهد القديم أسفاراً أخرى تتسم بهذا الطابع الخليط. وأوضح دليل على تعدد المؤلفين يظهر في مطلع العقد الأربعين من سفر أشعيا حيث يبدأ مؤلّف يقال له «سفر أشعيا الثاني»، فبدون أي تمهيد نرى أنفسنا منقولين من القرن الثامن إلى حقبة الجلاء «القرن السادس» ولم يعد يُذْكر اسم «أشعيا»[(١)].

ونجد في أوائل هذا السفر تحت عنوان: «كتاب العمانوئيل» عدة فصول عن موت ملوك بني إسرائيل، ومن ولد لهم ومن مَلَكَ من أبنائهم.

وفي ذكر ولادة ابن الملك اليهودي «آحاز بن يوتام».

هذا النص: «ها إن الصَّبية تحمل فتلد ابناً، وتدعو اسمه عمَّا

---

(١) مدخل لسفر أشعيا (١٥١٣)، طبعة الرهبانية اليسوعية توزيع المكتبة الشرقية، الطبعة الخامسة (١٩٩٩م).

نويل، يأكل لبناً حليباً وعسلاً»[١].

هكذا غير مفسَّر على أن الكلمة «الصَّبية» في النص العبري هي «عَلْمَة» وهي تدل إما على صبية، وإما على امرأة لم يمض على زواجها زمن طويل، غير أن الترجمة السبعينية اليونانية ترجمت هذا اللفظ فجعلته «عذراء» وعلى هذه الترجمة اعتمد كُتَّاب الإنجيل بعدُ فنقلت في إنجيل «متى» كذلك «عذراء»، وجعلوها بشارة متقدمة بحمل العذراء مريم بالمسيح[٢].

ولذلك لا ذكر لهذا الاسم «عمَّا نويل» في الأناجيل إلا في إنجيل «متَّى» ووروده في إنجيل متَّى يحتاج إلى النظر فيه لوجود خلط شديد ومنه تفسير «عمانويل» بـ«الله معنا»:

أ ـ كانت خرافة وأسطورة ميلاد الإله من عذراء موجودة في ثقافات الديانات الوثنية قبل النصرانية بمئات السنين[٣].

ولا شك أن هذه الأساطير والتصورات الخرافية حملتها ثقافات وأجيال متعددة، خصوصاً اليونانية القديمة لتصل بها إلى الأناجيل ليملؤوا بها كتبهم التي يسمونها مقدسة.

ب ـ ما ذكر في «سفر أشعيا» تسجيل تاريخ لولادة أبناء ملوك بني إسرائيل، ولكن بشكل الولادة الطبيعي دون ذكر للإلهية، أو ولادة إله ونحو ذلك.

فلما ترجمت النبؤات والأسفار ومنها أشعيا على يد النصارى إلى اليونانية فظهر ما يعرف بالسبعينية واليونانية وغيرها. حدث هذا التلاعب

---

(١) سفر أشعيا (٧/ ١٤ ـ ١٥).

(٢) انظر: شرح سفر أشعيا (١٥٤٠ ـ ١٥٤١)، طبعة الرهبانية اليسوعية.

(٣) انظر لذلك كتاب: أوز يريس وعقيدة الخلود في مصر القديمة لسيد القمي، دار الفكر، ط١ (٣٩) وما بعدها. وكتاب: مغامرة العقل الأولى لفراس السواح، دار المنارة، ط٩ (٣٣٢) وما بعدها.

والتأويل للنص «فالصبية» في نص أشعيا، صارت «العذراء» في اليونانية، والاسم العلم للمولود الصغير «عمَّا نويل» ابن آحاز صار معناه «الله معنا».

ج - ثم يأتي متى أو من كتب إنجيله أو أضاف إليه فيذكر ولادة المسيح من العذراء مريم وأنها هي نبوءة سفر أشعيا لذلك يستشهد «متى» بها نصاً.

يقول متى: «وأما ولادة يسوع المشيح فهكذا كانت: لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف[1] وُجِدت قبل أن يجتمعا حاملاً من الروح القدس، وكان يوسف زوجها باراً فلم يرد أن يشهر أمرها فعزم على أن يطلقها سراً، وما نوى ذلك حتى ترائى له ملاك الرب في الحلم وقال له: يا يوسف ابن داود لا تخف أن تأتي بامرأتك مريم إلى بيتك فإن الذي كُوِّن فيها هو من الروح القدس، وستلد ابناً فسمه يسوع لأنه هو الذي يخلص شعبه من خطاياهم»[2].

هكذا ذكر اسم «يسوع».

ثم نجد إقحاماً لا معنى له، واستشهاداً بما تقدم في سفر أشعيا النبي، فنجد في «متَّى» مباشرة بعد النص السابق «وكان هذا كله ليتم ما قال الرَّبُ على لسان النبي»[3]: «ها إن العذراء تحمل فتلد ابناً يسمونه عمَّا نوئيل؛ أي: «الله معنا»[4].

فلما قام يوسف من النوم فعل كما أمره ملاك الرب فأتى بامرأته

---

(١) المقصود به: يوسف النجار.
(٢) إنجيل متى (١/١٨ ـ ٢١).
(٣) أي: النبي أشعيا.
(٤) انتهى الاستشهاد المقحم من نص سفر أشعيا السابق عن ولادة «عما نوئيل ابن آحاز بن يوتام».

إلى بيته ولم يعرفها[١]. حتى ولدت ابناً فسماه يسوع»[٢].

ـ فواضح إقحام نص سفر أشعيا لأنه لا معنى له هنا إلا على سبيل التأويل والتحريف المناقض لكل معقول.

ـ فمن في أول النص ذُكر باسم «يسوع» وكذلك في آخره، وتوسط اسم «عمَّا نوئيل» بينهما بلا معنى إلا محاولة إثبات السبق بالبشارة بولادة «يسوع».

ثم يظهر أنه حتى في سفر أشعيا، كما جرى استبدال كلمة «الصبية» بكلمة «العذراء، استبدل الاسم الحقيقي لذلك المولود ابن «آحاز بن يوتام» الذي هو في الحقيقة وفي كل المصادر والمواضع الأخرى اسمه «حِزْقيا».

ففي الأناجيل متَّى، ولوقا وغيرها يذكر نسب المسيح فيذكر هذا بهذا الاسم «حزقيا بن آحاز» ولا ذكر لـ«عمَّا نوئيل» مما يدل على عملية استبدال في الترجمة اليونانية، ليتم الاستشهاد بعد في «متَّى» على أن المقصود المسيح عيسى، فتكون ترجمتها بـ«الله معنا» محض افتراء وتلفيق[٣].

وبهذا تسقط دعوى «متّى»، فليس هناك ما يفيد بأي شكل من الأشكال، أن اسم «عمّانوئيل» قد أطلقه أحد قبل دعوى «متّى» ولا حتى بعده، على المسيح عيسى، لا في الأناجيل القانونية ولا حتى في غير القانونية، وبالتالي تسقط دعوى «متّى»، أو من أقحم «نص» أشعيا المحرف أصلاً في ولادة يسوع كما ساقها «متى».

---

(١) أي لم يعاشرها معاشرة الرجل لزوجه.

(٢) انجيل متى (١/ ٢٢ ـ ٢٥).

(٣) انظر لذلك: كتاب ولادة المسيح وإشكالية التناقض اليهودي المسيحي، د. يوسف هريمة المركز العربي الثقافي (١٧٥ ـ ١٨٧).

فكان الواجب على هذا الحبر الأعظم البابا «يوحنا بولس الثاني» أن يعمل على فكّ هذه الطلاسم، وشرح هذه الأساطير والخرافات في كتابه المقدس لأتباع كنيسته الغربية، وهم بالملايين بدل أن يأتي بكل فجاجة ليكذب بكل وقاحة على القول الفصل الذي ما هو بالهزل. القرآن الكريم المعرِّف بالله رب العالمين أحسن التعريف وأطيبه وأبركه وأجمله.

٣ ـ **المغالطة الكاذبة الثالثة**: زعمه أن المسيح «يسوع» لم يرد في القرآن إلا كنبِيٍّ فقط، وإنه جاء ليمهد الطريق لمجيء «مأأوميه» آخر الأنبياء، وأن القرآن لم يذكر مأساة مريم العذراء.

نقول:

أ ـ نعم كَثُر ذكر المسيح عيسى ابن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ في القرآن، بأحسن الثناء وأجمله، وأنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، فهذا البابا الذي يبرئ ألد أعداء المسيح من عداوته ودمه، وكتبهم طافحة بأعظم الذم والسب له ولأمة وهم اليهود، ويزورهم ويتلاقى معهم، يأتي ليزعم بالبهتان أن القرآن لم يحسن ذكر المسيح، ولم يرد ذكره بأنه الإله أو ابن الله وغير ذلك من كفرهم وأساطيرهم.

نعم؛ إنما جاء القرآن ليزهق هذا الباطل، ويكشف هذا البهتان، ويدافع عن المسيح وأمّه ضد افتراء يهود وكذبهم، ويدافع عن التوحيد الحق وألوهية الواحد الأحد ضد شركيات وكفريات هذا البابا وديانته الملوّثة.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ١٧١].

وقال تعالى: ﴿وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ﴿١٥٦﴾ وَقَوۡلِهِمۡ

إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٦ ـ ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة: ١٧، ١٨].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: ٧٢ ـ ٧٤].

ب ـ ونعم أيضاً كان من أعظم وظائف عبد الله ورسوله عيسى ابن مريم هو بشارة العالم كله بقدوم النبي الخاتم ﷺ، فهو محمد وهو أحمد وهو الماحي الذي يمحو الله به الكفر، والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه، وهو العاقب فلا نبي بعده.

قال الله تعالى محدداً غايات رسالة عبده ونبيه ورسوله المسيح عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ

ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦].

وعلاقة نبي الله ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام بهذه الأمة المسلمة علاقة عظيمة ووطيدة.

● هو آخر أنبياء بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد: ٢٧].

ومعنى قفينا؛ أي: ختمنا، فهو خاتمة أنبياء بني إسرائيل، ولذلك كان لبشارته بالنبي القادم الذي هو خاتمة الأنبياء جميعاً لها وقعها وقيمتها الجليلة.

ولذلك نوّه نبيّنا محمد ﷺ بهذه العلاقة الخاصة والعظيمة بهذا النبي الكريم عيسى ابن مريم.

أخرج البخاري وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: **«أنا أولى الناس بابن مريم، إنه ليس بيني وبينه نبي»**(١).

وفي الحديث الآخر يقول عليه الصلاة والسلام: **«أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام»**(٢).

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٣٤٤٢)، ومسلم رقم (٢٣٦٥).

(٢) أخرجه أحمد رقم (١٧١٥١) وغيره، وقد مضى ذكره.

• إن القرآن هو المصدر الوحيد الذي نفى بكل وضوح أن يكون المسيح عليه السلام قُتل أو صلب، والقرآن هو المصدر الوحيد الذي أثبت رفعه إلى السماء حياً جسداً وروحاً.

قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨].

• إن المسيح عليه السلام سينزل في آخر الزمان، وينضم لهذه الأمة المسلمة حاكماً عادلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام(١).

وقد جاء في الحديث قوله عليه الصلاة والسلام: **«لن يخزي الله أمة أنا أولها، والمسيح آخرها»**(٢).

فنحن المسلمون أقرب للمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وأحب له، وأكثر تعظيماً له وتوقيراً وإيماناً به، وبرسالته الكريمة، من هذا البابا عابد الصليب المعتقد لعقيدة هلامية أسطورية خرافية، لشخصية نصف بشرية ونصف إلهية، أو هو إله وإنسان في آن واحد، أو هو إله في صورة إنسان بعملية التجسد، لأجل الفداء والخلاص.

---

(١) قد دلّ على نزوله آخر الزمان ثلاث آيات من القرآن، وأكثر من (٩٠) حديثاً نبوياً، انظر لذلك كتاب: صراع النهاية بين مسيح الضلالة ومسيح النهاية، لصاحب هذه الدراسة، وانظر كذلك: كتاب: التصريح بما تواتر في نزول المسيح، للشيخ المحدث: محمد أنور شاه الكشميري رحمه الله، تحقيق الشيخ: عبد الفتاح أبو غدة، فإنه مهم.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٤١) من حديث عبد الرحمن بن سمرة مرفوعاً، وحسّنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٧/ ٥).

أما ما سمّاه البابا «مأساة مريم» عليها السلام، فلا أدري، بأي حق أو عدل أو عقل يزعم البابا أن خبر مأساة مريم تم استبعاده في القرآن.

وقد ذكر الله خبر مريم أم المسيح عليه السلام مفصلاً، ورفع قدرها وزكاها واصطفاها على كثير من نساء العالمين، وفصّل خبرها تفصيلاً.

يقول تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٣ ـ ٣٧].

وبعد ذكر خبر دعاء زكريا عليه السلام وبشارة الله له بولادة ابنه يحيى عليه السلام، عاد القرآن لذكر مريم عليها السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران: ٤٢ ـ ٤٨].

وفي السورة التي تحمل اسم هذه السيدة الكريمة المكرمة الصديقة المصدقة مريم أم المسيح، ذكر الله خبرها مفصلاً:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [مريم: ١٦ ـ ٣٦].

وقال تعالى في خاتمة سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٢].

وغيرها من الآيات، ومنه يظهر عظيم الافتراء والبهتان والزور والكذب الذي تفوه به هذا البابا ليبرهن على أنه لا يتكلم بلسان حق

وعلم وعدل، بل بلسان كذب وحقد وغل مستدعياً كل أحقاد وأكاذيب قساوسة القرون الوسطى.

٤ ـ **أما المغالطة الكاذبة الرابعة في خطاب البابا «يوحنا بولس الثاني»:** فهي قوله: «إن علم «الإناسة» في الإسلام شديد البعد عنها في المسيحية».

ويقصد بعلم «الإناسة»، علم يبحث في قيمة الإنسان وكرامته والأخلاق القويمة التي يجب أن تنشأ فيه، ليكون إنساناً صالحاً مصدراً للخير والمعروف والسلام.

فزعم البابا: أن علم إصلاح الإنسان وحفظ قيمته شديد البعد عنه في المسيحية، وكأن المسيحية قد حققت الدرجات العليا في هذا، وما هو إلا محض افتراء وكذب ومغالطة فجة، وسأذكر بحثاً موجزاً رداً عليه، وبياناً لقيمة الإنسان وإصلاحه في المشروع الإسلامي العظيم، وفي التقرير القرآني الكريم.

• كيف أنشأ الإسلام الأخلاق وأصلح الإنسان:

يعاني العالم المعاصر بما فيهم العالم الإسلامي من أزمة حقيقة في القيم والأخلاق، ليست المشكلة في حقيقتها اقتصادية تدعو بعضهم إلى العدوان على بعض ومصادرة حريته ونهب أرضه وماله. وإفقاده فرصة الحياة الكريمة.

وليست المشكلة بكثرة ما أنتجته البشرية من أسلحة الخراب والدمار الشامل، إن البشرية تقف اليوم على حافة خطر عظيم لا بسبب التهديد بالفناء المعلق على رأسها بما أنتجته من أسلحة دمار وفتك شاملة. فذلك عرض للمرض وليست هو المرض.

إن الكارثة الحقيقية هي في ذات الإنسان، في ذات البشرية، هي الإفلاس الكبير في القيم والأخلاق، في انعدام معنى الحياة سوى تحقيق

الشهوة ودوافع النزوة التي تجعل الإنسان يتحول إلى كائن مفسد بكل معاني الإفساد.

الإنسان مخلوق غريب وعجيب ومجهول في نفس الوقت، في النفس الإنسانية التواءات وقبائح لو تركت دون علاج لحولت الإنسان إلى أشد الكائنات في الأرض فساداً وشرّاً.

● وهنا نقرر حقيقة عظيمة ومهمة كشف فيها القرآن العظيم أغوار النفس البشرية وأخلاقها الحقيقية، ليقدم لها العلاج النافع والدواء الناجع.

الإنسان من حيث هو إنسان؛ أي: بالنظر إلى جبلته البشرية المحضة هو إنسان هلوع جزوع منوع قطوع كنود مغرور ظلوم جهول نسي عجول، هو إنسان أناني فردي لا يحب إلا نفسه، ولا يرى إلا ذاته، ولا يسعى إلا لأغراضه وأهوائه. ليس لأطماعه حدود يقف عندها ويقنع بها.

فمخلوق بهذه الصفات القبيحة وبهذه النفسية العدوانية الأنانية؛ أي: خير ينتظر منه؟!! وأي أنواع من الشرور والعدوان ستصدر عنه؟!

واسمع إلى كشف القرآن الكريم لحقيقة الإنسان. الذي هو بحكم خالقه وربه أحط أنواع الحيوان عندما يفقد منهج الإيمان ويتجرد من قيم الإسلام.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٢].

فوصفه خالقه في هذه الآيات الكريمات بثلاثة أوصاف قبيحة تدل على مدى أنانيته وفرديته وانعدام الخير منه: الهلع، والجزع، والمنع.

وقال تعالى في آية الأمانة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فوصفه ربه تعالى بكثرة الظلم مجموعاً إلى كثرة الجهل.

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ۝١١﴾ [الإسراء: ١١].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾ [الكهف: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ۝٦٦﴾ [الحج: ٦٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ [العاديات: ٦].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ۝١٠٠﴾ [الإسراء: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ﴾ [المؤمنون: ٧١].

يقول **الراغب الأصبهاني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فقد كاد قولنا «الإنسان» يصير لفظاً مطلقاً(١) على معنى غير موجود، واسماً لحيوان غير معهود، كعنقاء مغرب وغير ذلك من الأسماء التي لا معنى لها... ولم أعن بالإنسان كل حيوان منتصب القامة، عريض الظفر أملس البشرة ضاحك الوجه، ممن ينطقون لكن عن الهوى، ويتعلمون لكن ما يضرهم ولا ينفعهم. ويعلمون ولكن ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون»(٢).

وقد عبر الشاعر «**البحتري**» عن هذا بقوله:

لم يبق من جل هذا الناس باقية ... ينالها الفهم إلا هذه الصور(٣)

والمتنبي يقول:

أَذُمُّ إلى هذا الزمان أُهَيْلَه ... فأعلمُهم فَدْمٌ وأحزمُهم وَغْدُ
وأكرمُهم كلبٌ وأبصرُهم عمٍ ... وأَسْهَدُهم فَهْدٌ وأشجعهم قردُ(٤)

---

(١) يقصد الراغب: المطلق بشرط الإطلاق وهو وجوده في الأذهان لا في الأعيان.

(٢) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين (٥٠ ـ ٥١).

(٣) ديوان البحتري (٢/ ١١٧).

(٤) ديوان المتنبي بشرح العكبري المسمى بالتبيان في شرح الديوان (٢/ ٣٧٤) من قصيدته التي أولها:

أقلُّ فعالي بَلْهَ أكثرهُ مجد ... وذا الجد فيه نلتُ أم لم أنل جَدُّ

فكيف سينجو الإنسان من هذه الأوضار وهذه القبائح؟

كيف سيخرج من قبضة هذه الجبلات الخطيرة في أصل تكوينه والتي ستجعل منه كائناً مفسداً لكل شيء؟

قديماً وحديثاً حاول المفكرون والفلاسفة والمصلحون الاجتماعيون، وخبراء الجريمة، حاولوا وضع دراسات وفلسفات ونظريات لدراسة هذه الكوامن في الإنسان وسبيل علاجها.

• ونظرياتهم تتراوح بين نظريات موغلة في التصورات الخيالية البعيدة تماماً عن الواقع البشري، وهذه النظريات ما هي إلا هروب عن واقع الإنسان وواقع الشر الذي أحدثه الإنسان في الأرض، وهي تمثل بشكل صريح اعتراف من أصحاب هذه النظريات بالعجز التام عن إدراك عمق هذه المشكلة. والعجز التام بالتالي عن أي شيء لعلاجها.

ويمثل هذا الاتجاه نظريات الفيلسوف الإغريقي الشهير «**افلاطون**» من خلال نظرياته الخيالية بتصور مجتمع مدني خالي من الشر تماماً في «آراء أهل المدينة الفاضلة».

• ومنهم من ظنوا أن الناس كلهم يُخلقون أخياراً بالطبع ثم بعد ذلك يصيرون أشراراً بالميل إلى الشهوات الرديئة ويمثل هذا الاتجاه الرواقيون أتباع الفيلسوف اليوناني«**زينون**».

• وأما «جالينوس» فيرى أن من الناس من هو خيّر بالطبع وهم قليلون، وليس ينتقل إلى الشر، ومنهم من هو شرير بالطبع وهم كثيرون، وليس ينتقل هؤلاء إلى الخير، ومنهم من هو متوسط بين هذين الطرفين وهؤلاء يمكن أن ينتقلوا بالتأديب ومصاحبة الأخيار، وقد ينتقلون إلى الشر بمقاربة أهل الشر وإغوائهم.

• أما «**أرسطوطاليس**» الفيلسوف اليوناني الشهير فقد وافق على وجود طباع الشر في التكوين البشري.

وبين في «كتاب الأخلاق» أنه يمكن نقل الإنسان من جانب الشر إلى الخير بالتأديب، وأخذ الناس بالسياسات الجيدة الفاضلة.

ولكن ليس ذلك على الإطلاق، فمنهم من يقبل التأديب ويتحرك إلى الفضيلة بسرعة، ومنهم من يقبله ويتحرك إلى الفضيلة بإبطاء. ومنهم من لا يقبل ذلك أصلاً»(١).

• واتجهت دراسات أخرى قديمة وحديثة إلى محاولة معالجة السوء الذي في الإنسان بما هو أسوء، من فتح المزيد من الحرية للإنسان لعله يقنع ويشبع بما هو متاح له فيمتنع من العدوان ويعالج الطمع. وهذا الذي تنادي به المناهج العلمانية والليبرالية على مختلف توجهاتها في كل العالم.

يقول فيلسوف الأخلاق الشهير **أحمد بن محمد بن مسكويه**: «وقد ظن قوم أن كمال الإنسان وغايته: هما في اللذات الحسية وأنها هي الخير المطلوب والسعادة القصوى، وظنوا أن جميع قواه إنما ركبت فيه من أجل هذه اللذات والتوصل إليها وأن النفس الشريفة التي سميناها «ناطقة» إنما وهبت له ليرتب بها الأفعال ويميزها ثم يوجهها نحو هذه اللذات لتكون الغاية الأخيرة هي حصولها على النهاية والغاية الجسمانية، وظنوا أيضاً أن قوى النفس الناطقة كالذكر والحفظ والروية كلها تراد لتلك الغاية، قالوا: وذلك أن الإنسان إذا تذكر اللذات التي كانت حصلت له بالمطاعم والمشارب والمناكح: اشتاق إليها وأحب معاودتها فقد صارت منفعة الذكر والحفظ: إنما هي اللذات وتحصيلها ولأجل هذه الظنون التي وقعت لهم: جعلوا النفس المميزة الشريفة: كالعبد المهين وكالأجير المستعمل في خدمة النفس الشهوانية لتخدمها في المآكل

(١) انظر كتاب: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، لأحمد بن محمد بن مسكويه (ص٤٢ ـ ٤٣).

والمشارب والمناكح وترتبها لها وتعدّها إعداداً كاملاً موافقاً، وهذا رأي جمهور العامة والرعاع وجهال الناس والسقاط»[١].

وأنت إذا نظرت إلى العالم اليوم تجد أن أكثر السياسات والنظريات توجه إلى هذا وتقود قوداً إليه.

قال «**ابن مسكويه**» راداً على هذا المسلك مبيناً خلّله وفساده: «إن الناس إذا فعلوا ذلك فإنهم يشاركون في هذه اللذات: الخنافس والديدان، وصغار الحشرات والهمج من الحيوان... وسيظهر عند ذلك أن من رضي لنفسه بتحصيل اللذات البدنية وجعلها غايته وأقصى سعادته: فقد رضي بأخس العبودية لأخس الموالي. لأنه يَصيّر نفسه الكريمة التي يناسب بها الملائكة: عبداً للنفس الدنيئة: التي يناسب بها الخنازير[٢]، والخنافس، والديدان، وخسائس الحيوانات: التي تشاركه في هذا الحال.... وهؤلاء هم الذين يفسدون الأحداث بإيهامهم أن الفضيلة: هي ما تدعوهم إليه طبيعة البدن من الملاذ، وأن تلك الفضائل الملكية: إما أن تكون باطلة ليست بشيء البتة وإما أن تكون غير ممكنة لأحد من الناس»[٣].

يعقد الدكتور **محمد عبد الله دراز** رحمه الله مقارنة بين منهج القرآن في

---

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق (٥٢ ـ ٥٣).

(٢) من كمال وجمال التشريع الإسلامي أن الله تعالى حرم أكل لحم الخنزير وسماه رجساً وحقّره. وكذلك نبيه محمد ﷺ حرّم شرب الخمر أشد التحريم وسماها أم الخبائث والعجب أن العالم اليوم خصوصاً المسيحي الغربي طعامهم المفضل لحم الخنزير وشرابهم المفضل الخمر. فصار هناك تناسب بين نفوسهم الشهوانية البهيمية، وهذه المستقذرات الدنيئة. والحمد لله القائل: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة: ٥]، والقائل في وصف النبي محمد ﷺ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

(٣) تهذيب الأخلاق لابن مسكويه (٥٣ ـ ٥٤).

تأسيس الأخلاق ومنهج الفلسفة فيقول: «إن الفلسفة بالمعنى المألوف للكلمة هي عمل فكر منطقي، معتمد على مجرد ومضات الذهن الطبيعي، ينتقل فيه المفكر من حكم إلى آخر، بمنهج معين للتوصل إلى قرار نظام معين، قادر على تفسير الأشياء في عمومها، أو تفسير وضع معين لأحد هذه الأشياء، وبدهي أن هذا الجهد العقلي، وهذه الخطوة التدريجية لا يتناسبان مع ضوء وحي، يغمر النفس دون بحث أو توقع، ويقدم لها على حين فجأة جملة من المعرفة، لا تسبق فيها المقدمات نتيجتها، ولا المقدم تاليه. فليس القرآن إذن عملاً فلسفياً، بمعنى أنه ليس ثمرة فلسفة، وهو لا يستخدم طرق الاكتساب الفلسفي، بالإضافة إلى أنه لا يتبع كذلك طرق التعليم التي يتبعها الفلاسفة، وهي طرائق المنهج العقلي، التي تقوم على: «التعريف، والتقسيم، والبرهنة، والاعتراضات، والإجابات»، وهي كلها أمور متلاحمة دون جدال، ولكنها لا تؤثر إلا على جانب واحد من النفس، وهو الجانب العقلي، على حين أن للقرآن منهجه الذي يتوجه إلى النفس بأكملها، فهو يقدم إليها غذاءً كاملاً، يستمد منه العقل والقلب كلاهما نصيباً متساوياً، وهكذا يفارق التعليم القرآني التعليم الفلسفي، سواء في المصادر أو في المناهج»[(١)].

إن العلاج لاستخراج واجتثاث هذه القبائح من النفس الإنسانية والطوية البشرية، وإحلال معاني أخلاقية كريمة محلها في التشريع الإسلامي يقوم على المحاور الآتية:

١ - إن خالق الإنسان ومبدعه جل وعلا هو الأعلم بأمراضه وخفايا نفسه الأمارة بالسوء والتواءات طبعه وقبح جبلته الطينية الهابطة.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾

---

(١) دستور الأخلاق في القرآن (١٤).

[الرحمٰن: ١ ـ ٤]، وبناءً عليه فإن الرحمٰن خالق الإنسان هو وحده الأعلم بما يُصلح فساد هذا الإنسان وبما يقوم اعوجاجه وبما يعالج أمراضه ويستخرج ويستفرغ منه تلك الأدواء المهلكة المردية.

وقد منح جلَّ وعلا العلاج وأنزل الدواء. فبعث الرسل مبشرين ومنذرين وأنزل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾ [الأنبياء: ١٠].

قال **الإمام سفيان** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نزل القرآن بمكارم الأخلاق ألم تسمعه يقول: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾»(١).

وقال بعضهم في تفسير قوله ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾: أي: فيه شرفكم، وهو تفسير صحيح، فبمكارم الأخلاق يسمو الإنسان ويشرف ويكرم والقرآن هو مصدرها وهو مؤسسها.

قال **الإمام الطبري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقال آخرون عنى بالذكر في هذا الموضع: الشرف...

وهذا القول الثاني أشبه بمعنى الكلمة وهو نحو مما قال سفيان الذي حكيناه عنه، وذلك أنه شرف لمن اتبعه وعمل بما فيه»(٢).

وقال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ۝٧١﴾ [المؤمنون: ٧١].

قال **الإمام الطبري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولو عمل الرب تعالى ذكره بما يهوى هؤلاء المشركون وأجرى التدبير على مشيئتهم وإرادتهم وترك الحق الذي هم له كارهون لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، وذلك أنهم لا

---

(١) تفسير الطبري (٨/٩).

(٢) المصدر السابق.

يعرفون عواقب الأمور والصحيح من التدبير والفاسد، فلو كانت الأمور جارية على مشيئتهم وأهوائهم مع إيثار أكثرهم الباطل على الحق، لم تقر السموات والأرض ومن فيهن من خلق الله؛ لأن ذلك قام بالحق»[(١)].

وقال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللهُ: «فالله تعالى أمرَ العبادَ بما ينفعُهم ونهاهم عما يَضرُّهم، كما قال قتادةُ: إن الله لم يأمر العبادَ بما أمرَهم به حاجة إليه، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بُخْلاً به، ولكن أمرهم بما فيه صلاحُهم، ونهاهم عما فيه فسادُهم، ولهذا جاء القرآن بالأمر بالصلاح والنهي عن الفساد في غيرِ موضع. والصلاح كلُّه في طاعة الله، والفسادُ كلُّه في معصيةِ الله، فالصلاح والطاعة متلازمان، والمعصية والفساد متلازمان، كتلازُم الطيب والحِلّ، وكلُّ طيب حلال وكل حلالٍ طيّبٌ، وكل خبيثٍ حرام وكل حرام خبيثٌ. والمعروفُ ملازمٌ مع الطاعةِ والصلاحِ، والمنكرُ ملازم مع المعصية والفساد، ولكن بعض الناس قد تبيَّنَ له اتصافُ الفعلِ ببعض من الصفات قبلَ بعض، كما يَعلم كثيراً من العبادات ولا يعلم ما فيها من الصلاح، وكثيراً من المحرَمات ولا يعلم ما فيها من الفساد، وكذلك قد يَرى مصالحَ كثيرةً ولا يعلم أمرَ الشارع بها. والمؤمنُ يعلم أن الله يأمر بكل مصلحةٍ ويَنهى عن كل مفسدة، فإذا كان رأى في بعض الأفعال أنه مصلحة ولم يأمر الله به كان مخطئاً من أحد الوجهين: إما أن يكون في نفس الأمر مصلحة لما ترجح فيه من مفسدة لا يعلمها هو[(٢)]؛ وإِما أن يكون داخلاً فيما أمر الله به ولم يعلم. ولهذا تنازعَ العلماء في المصالح المرسلة التي لم يُعلَم أن الشارع اعتبرها ولا أهدرها»[(٣)].

---

(١) تفسير الطبري (٩/ ٢٣٣).

(٢) كذا في المطبوع والعبارة فيها قلق وعدم وضوح، وأظن الصواب: إما أن يكون في نفس الأمر مفسدة ترجح على ما فيه من مصلحة لا يعلمها هو، والله أعلم.

(٣) شرح حديث أبي بكر (٥٩ ـ ٦١)، وجامع المسائل لابن تيمية (٤/ ٤٥).

وهنا يظهر بجلاء التأصيل العظيم في إدخال النبي ﷺ الأخلاق، وإصلاح النفوس في جذر بعثته وهدف رسالته. وأصل نبوته، فقال عليه الصلاة والسلام: **«إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق»**(١).

ولكن علاج النفس البشرية من أدوائها واستخراج القبائح منها، وإحلال السموّ والرحمة والعفة وصالح الأخلاق محلها، يتطلب عناصر ثلاثة:

(أ) يتطلب الطبيب المعالج العالم العارف بالداء وخطره، والعالم العارف بالدواء الناجع وفضله. وكفى بالله العظيم العليم الحكيم طبيباً عالماً شافياً معافياً.

والطّب في لغة العرب بفتح الطاء وكسرها، هو الرفع والإزالة. فهو رفع ودفع للداء والمرض ليحل محله الشفاء والسلامة والعافية.

في «سنن أبي داود»: عَنْ أَبِي رِمْثَةَ السُّلَمِيِّ، قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ أَبِي عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَرَأَى أَبِي الَّذِي بِظَهْرِهِ، فَقَالَ: دَعْنِي أُعَالِجُ الَّذِي بِظَهْرِكَ، فَإِنِّي طَبِّيبٌ، فَقَالَ: **«إِنَّكَ رَفِيقٌ، وَاللهُ الطَّبِيبُ»**، قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، لِأَبِي: **«مَنْ ذَا مَعَكَ؟»**، فَقَالَ: ابْنِي أَشْهَدُ لَكَ بِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«أَمَا إِنَّكَ لَا تَجْنِي عَلَيْهِ، وَلَا يَجْنِي عَلَيْكَ»**(٢).

وقيل لأبي بكر الصديق ﷺ لما مرض: أندعو لك الطبيب؟ فقال: قد رآني الطبيب.

(ب) ويتطلب العلاج النافع الناجع وهو متمثل في الوحي الكريم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٣٨١)، والبخاري في الأدب المفرد (ح٢٧٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أبو داود في السنن رقم (٤٢٠٧)، والحميدي في مسنده رقم (٨٩٠) واللفظ له، وأحمد في مسنده رقم (١٧٤٩٢)، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (١٥٣٧).

والتشريع الحنيف، الهدي المستقيم، ولذلك سماه الله روحاً لأن به حياة القلوب وصلاح النفوس.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل: ٧٦ ـ ٧٩].

(ج) ويتطلب كذلك الاستعداد النفسي من العباد لقبول العلاج والاستفادة منه والقبول له وذلك من جهة التسليم الكامل له، والاستسلام التام لتشريعاته وأحكامه على حد قول الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

٢ ـ وهناك جانب آخر عظيم يتميز به التشريع الإسلامي الكريم. وهو توسيع مفهوم العبودية والعبادة لتشمل أنواع النشاط البشري كلها، وتكون الأخلاق الكريمة والخلق الحسن أحد أعظم معاني العبادة، فيبلغ العبد المسلم بحسن خلقه وأمانته وعفته درجة الصائم القائم؛ بل أعظم أجراً وأكرم منزلة.

ومنذ الأيام الأولى لبعثة رسول الله ﷺ. والأخلاق الكريمة والصفات النبيلة من الصّلة والعفة والأمانة والرحمة والإحسان إلى الخلق داخلة في أصل دعوته المباركة، بارزة في حقيقة رسالته الكريمة، لينتشل

بها أهل الجاهلية من رديء الأقوال وسيء الأعمال إلى سمو عالٍ من الأخلاق الكريمة.

ولا أدل على ذلك من شهادة أبي سفيان بن حرب وكان إذ ذاك من أشد خصوم النبي ﷺ.

وشهادته هذه أدلى بها بين يدي هرقل عظيم الروم.

فأخرج البخاري في الصحيح من حديث ابن عباس عن أبي سفيان ـ الطويل ـ في كتاب النبي ﷺ الذي كتب إلى هرقل يدعوه فيه إلى الإسلام. فجمع هرقل من كان بالشام من العرب من قريش وكان فيهم أبو سفيان وسأله عدة أسئلة. ومنها: قال هرقل لأبي سفيان: إلى ما يدعوكم هذا النبي؟ ﷺ، فكان جواب أبي سفيان: يقول اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق، والصّلة والعفاف والصدقة، وأداء الأمانة والوفاء بالعهد»[١].

وفي حديث أبي ذر الغفاري لما بلغه مبعث النبي ﷺ قال لأخيه: «اركب إلى هذا الوادي فاسمع من قوله، فرجع فقال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق»[٢].

فأصّل النبي ﷺ في دعوته قواعد العدل والإحسان والرحمة والمساواة وكل ما من شأنه نفع الخلق وإيصال الخير للغير ولو حتى للبهائم. حتى قال له قائل: وإن لنا في البهائم أجراً؟!! فقال عليه الصلاة والسلام: «في كل كبد رطبة أجر»[٣].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا

(١) صحيح البخاري رقم (٧، ٢٦٨١). (٢) صحيح البخاري رقم (٣٨٦١).
(٣) أخرجه البخاري رقم (٢٣٦٣)، ومسلم رقم (١٥٣).

بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ [النحل: ٩٠، ٩١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥٨].

قال الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود عن آية النحل السابقة: ما في القرآن آية أجمع لحلال وحرام وأمر ونهي وأمر بخير ونهي عن شر من هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾[1].

ففي المنهج الإسلامي الكريم سعة عظيمة للرحمة وتأسيس كريم للعمل الكريم ودفع متواصل للإحسان إلى الخلق وجعل ذلك كله مولد عظيم للحسنات، ومكفر كبير للسيئات، لتدخل الأخلاق والأعمال كلها في الجذر التعبدي في حسّ وتصور وسلوك المسلم ويظهر ذلك بجلاء في هذين المعينين الكريمين.

- **المعين الأول:**

أن العمل الشريف لكسب لقمة العيش الكريمة، لكف النفس وصون العيال، من أعظم أعمال البر في الإسلام. ومما يجني العبد المسلم به عفو الله وثوابه الجزيل.

- **والمعين الثاني:**

أن الإحسان إلى الخلق حتى البهائم، بدافع الرحمة لها من أعظم منزلات رحمة الله على العبد الكريم الرحيم المحسن.

فمن المعين الأول: نجد أن النبي ﷺ يبين أن الرجل العامل

(١) أخرجه عنه البخاري في الأدب المفرد (ح٤٨٩).

الكادح العفيف الذي يعمل ليعف نفسه ويكف أهل بيته المؤنة: من أهل الجنة.

فعَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **«أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ»**(١).

ومن أبواب الإمام البخاري في الصحيح: باب كسب الرجل وعمله بيده، وأخرج فيه حديث المِقْدَام بن معدي كرب رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: **«مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قَطُّ، خَيْراً مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ عليه السلام، كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»**(٢).

قال **الحافظ ابن حجر** رحمه الله: «وفي فوائد هشام بن عمار عن بقية: حدثني عمر بن سعد عن خالد بن معدان عن المقدام: «ما كسب الرجل أطيب من عمل يده، ومن بات كالّاً من عمله بات مغفوراً له»(٣).

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ(٤)، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ»**(٥).

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله: «ومن أحب أن يلحق بدرجة الأبرار، ويتشبَّه بالأخيار فلينو في كل يوم تطلع شمسه نفع الخلق، فيما يسره الله من مصالحهم على يديه، وليطع الله في أخذ ما حل، وترك ما حرم، وليتورع عن الشبهات ما استطاع؛ فإن طلب الحلال والنفقة على

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح رقم (٢٨٦٥)، وأحمد (٤/ ١٦٢)، وابن حبان بلفظ: وَرَجُلٌ فَقِيرٌ عَفِيفٌ مُتَصَدِّقٌ» رقم (٧٤٥٣).

(٢) صحيح البخاري رقم (٢٠٧٢).

(٣) فتح الباري (٩/ ١٥٣ ـ ١٥٤).

(٤) هي النخلة الصغيرة.

(٥) أخرجه أحمد في المسند رقم (١٢٩٨١)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (٤٧٩)، والضياء في المختارة وصححه رقم (٢٧١٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٩).

العيال باب عظيم لا يعدله شيء من أعمال البر. وقد روينا عن الصديقة عائشة رضي الله عنها مرفوعاً إلى النبي ﷺ: **«أحل ما أكل العبد من كسب يده، وإن ولده من كسبه»**.

وللبخاري: «خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ عليه السلام القُرْآنُ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِّهِ فَتُسْرَجُ، فَيَقْرَأُ القُرْآنَ قَبْلَ أَنْ تُسْرَجَ دَوَابُّهُ، وَلَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»(١).

وقال **ابن المبارك** لأصحابه وهم في الغزو: «هل تعلمون عملاً أفضل من هذا؟ قالوا: لا نعلمه، قال: أنا أعلمه، رجل متعفف محترف أبو عيال، قام من الليل، فوجد صبيانه مكشوفين فغطاهم، وثار إلى صلاته»(٢).

ومن اجتنب البيوع الفاسدة، ونزه لسانه عن الحلف في البيع، ومن حفظ معاملته عن المخادعة في البيع وخلف الوعد فقد وفق لأمر عظيم، وأفضل ما يستعين به من له عناية بدينه: القناعة، وحسن الظن بالله، والثقة بما ضمن من الرزق، وخوف الحساب، ومراقبة الجليل؛ فإنه قال وقوله الحق: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢](٣).

ومن المعين الثاني نجد خيراً كثيراً، وباباً واسعاً من المعروف والرحمة والإحسان. فإلى شيء من هذا الرصيد النبوي الكريم:

• عن عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو رضي الله عنهما، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أَرْبَعُونَ خَصْلَةً أَعْلَاهُنَّ مَنِيحَةُ العَنْزِ، مَا مِنْ عَامِلٍ يَعْمَلُ بِخَصْلَةٍ مِنْهَا رَجَاءَ ثَوَابِهَا، وَتَصْدِيقَ مَوْعُودِهَا، إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ بِهَا الجَنَّةَ»**(٤).

---

(١) صحيح البخاري رقم (٣٤١٧).
(٢) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٢/ ٣٢).
(٣) شرح حديث جبريل (٦٠٩ ـ ٦١٠).
(٤) أخرجه البخاري رقم (٢٦٣١).

قَالَ حَسَّانُ بن عطيةَ (راوي الحديث): فَعَدَدْنَا مَا دُونَ مَنِيحَةِ العَنْزِ، مِنْ رَدِّ السَّلَام، وَتَشْمِيتِ العَاطِسِ، وَإِمَاطَةِ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَنَحْوِهِ فَمَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَبْلُغَ خَمْسَ عَشْرَةَ خَصْلَةً.

هذا حديث عظيم القدر، جليل المحل، فاضل الخير، يؤسس للمعروف والإحسان قواعده ويفتح أبوابه.

فهذه الخصال الأربعون: أعلاها من جهة البذل والعطاء منيحة العنز، والمراد الحلبة الواحدة للماعز تمنح لمن يحتاجها، فما بالك بأدناها؟

فهي إذن خصال يسيرة، سهلة البذل، ولكن يجمعها قاسم مشترك واحد: هو أنها جميعها للنفع المتعدي للغير. كالأمثلة التي ذكرها حسان بن عطية راوي الحديث: فكلها خير يبذل، ومعروف يصنع. كل واحدة منها كفيلة أن تكون سبباً عظيماً لدخول الجنة، والفوز برضوان الرحمٰن تعالى.

• عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ العَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْراً، فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ، فَسَقَى الكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي البَهَائِمِ أَجْراً؟ قَالَ: «**فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ**»[(١)].

وقد بوّب الإمام البخاري على هذا الحديث: باب رحمة الناس والبهائم.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٢٣٦٣).

وقال **الحافظ ابن حجر** رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: صدور الرحمة من الشخص لغيره، وكأنه أشار إلى حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «**لن تؤمنوا حتى تَرْحَموا**»، قالوا: كلنا رحيم يا رسول الله، قال: «**إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ولكنها رحمة للناس، رحمة للعامة**»[1].

وقال **الحافظ ابن حجر** رَحِمَهُ اللَّهُ أيضاً: «وفي الحديث الحث على الإحسان إلى الناس؛ لأنه إذا حصلت المغفرة بسبب سقي الكلب، فسقي الآدمي أعظم أجراً»[2].

فهذا الإنسان لمّا دخل قلبه رحمة لهذه البهيمة ولو كانت غير محترمة؛ بل ربما مستقذرة عند أكثر الناس. فسقى هذا الكلب وأحسن إليه. بذلك عامله الله تعالى بجزاء من جنس عمله فشكر له فعله. وشملته مغفرته وغطته رحمته تعالى.

وحتى تبقى الصورة مستقرة والرحمة والإحسان إلى الخلق هو الذي يجب أن يكون. فعكس ذلك من القسوة وعدم الإحسان، تسبب غضب الله ومقته وعذابه.

فمن جميل ترتيب الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ. أخرج الحديث السابق. في فضل رحمة الخلق والإحسان إليهم حتى ولو كان كلباً، ثم أخرج بعده مباشرة حديثاً آخر في أن امرأة غضب الله عليها، ودخلت النار لأنها قست على هرّة. فحبستها لا أطعمتها ولا سقتها حتى ماتت.

وهو حديث أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالت: صَلَّى النَّبِيَّ ﷺ صَلَاةَ الكُسُوفِ، فقال: «**دَنَتْ مِنِّي النَّارُ حَتَّى قُلْتُ: أَيْ رَبِّ، وَأَنَا مَعَهُمْ؟ فَإِذَا امْرَأَةٌ ـ حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ ـ تَخْدِشُهَا هِرَّةٌ، قُلْتُ: مَا شَأْنُ هَذِهِ؟ قَالُوا:**

---

(١) فتح الباري (٢٢/٢١).

(٢) فتح الباري (١٠/١١٣).

حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعاً»(١).

وحديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **«عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعاً، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ»** قَالَ: فَقَالَ: وَاللهُ أَعْلَمُ: **«لَا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا وَلَا سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا، وَلَا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا، فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ»**(٢).

• بوّب الإمام البخاري فقال: باب الساعي على الأرملة والساعي على المسكين، ثم أخرج حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ»** وَأَحْسِبُهُ قَالَ: **«كَالقَائِمِ لَا يَفْتُرُ، وَكَالصَّائِمِ لَا يُفْطِرُ»**(٣).

فانظر إلى هذا الحديث ما أجله، وأعظم وقعه. وكيف يؤسس للعدل الاجتماعي والتكافل والرحمة للخلق، والقيام بشؤون الضعفاء. فيرفعها ليجعلها في مقام أجل وأعظم العبادات وأشقها.

والأحاديث النبوية والتوجيهات الكريمة من رسول الله ﷺ في هذا الباب كثيرة وعظيمة، وإنما أردنا ذكر نماذج منها تنبيهاً إلى أن هذا الجانب العظيم قد أخذ حقه وقدره اللائق به في التشريع الإسلامي الكريم.

٣ ـ وهنا نقف أمام هذه الحقيقة التاريخية والواقعية والعظيمة، تحدث لأول مرة في التاريخ البشري.

حوّل الرسول الأعظم الأكرم محمد ﷺ بمنهج القرآن وتشريع رب العالمين المجتمع العربي في ذاك الوقت وهو مجتمع جاهلي بائس مرتكس إلى ذلك الأفق السامق من التلاحم والتراحم والإيثار وجميل الأخلاق وبديع الصفات.

---

(١) البخاري رقم (٢٣٦٤).
(٢) البخاري رقم (٢٣٦٥).
(٣) البخاري رقم (٦٠٠٧).

كان العرب قبل بعثة النبي ﷺ من أكثر شعوب الأرض جهلاً وتخلفاً وقسوة وبؤساً، يعبدون الأصنام ويئدون البنات ويأكلون الميتة ويتدابرون ويتقاتلون على الشاة والبعير. والفتيل والقطمير. تسيطر على عقولهم الخرافات وتسيرهم الثارات والنعرات.

قال **الإمام البخاري** رَحِمَهُ اللَّهُ: «باب جهل العرب»، ثم أخرج حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «إِذَا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ العَرَبِ، فَاقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلَاثِينَ وَمِائَةٍ فِي سُورَةِ الأَنْعَامِ، ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٠] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأنعام: ١٤٠]»[(١)].

لقد حوَّل النبي ﷺ هؤلاء إلى أعظم مجتمع في تاريخ البشرية كله رحمة وعلماً وعفواً وبراً وإيثاراً وحلماً وخيراً.

هذا المجتمع الذي وصفه الله تعالى وصفاً جميلاً يدل على مدى الأخلاقيات الكريمة والنبل العظيم الذي وصل إليه. فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٩].

هذا هو المجتمع الإسلامي الفريد، ضرب في أرض الواقع أروع الأمثال. في عمل الخير والإيثار وصناعة المعروف، بلا تكلف، ولا تحرج؛ بل بكل سخاوة نفس وطيب خاطر. انتظاراً لفضل الله وثوابه، وأجره ورحمته، وإليك بعض الأمثلة من واقعهم الجميل الذي لم تعرف الدنيا له مثيلاً.

وصدقت فيهم شهادة الله تعالى لهم بذكرهم بتلك الخصائص والصفات في الكتب الأولى قبل وجودهم.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ

---

(١) صحيح البخاري رقم (٣٥٢٤).

تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩].

• عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ الْمُهَاجِرُونَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قَوْمٍ قَدِمْنَا عَلَيْهِمْ أَحْسَنَ مُوَاسَاةً فِي قَلِيلٍ، وَلَا أَحْسَنَ بَذْلاً فِي كَثِيرٍ، لَقَدْ كَفَوْنَا الْمَئُونَةَ، وَأَشْرَكُونَا فِي الْمَهْنَأِ، حَتَّى لَقَدْ حَسِبْنَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالْأَجْرِ كُلِّهِ قَالَ: «**لَا، مَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ، وَدَعَوْتُمُ اللهَ لَهُمْ**»(١).

وقد ضرب الأنصار في ذلك نموذجاً رائعاً وذلك في غزوة بني النضير عندما قالوا لرسول الله ﷺ في أموال بني النضير: اقْسِمْ هَذِهِ فِيهِمْ وَاقْسِمْ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا شِئْتَ فَنَزَلَتْ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصديق رضي الله عنه: جَزَاكُمُ اللهُ يَا مَعْشَرَ الأنصار خيراً، فو الله مَا مِثْلُنَا وَمِثْلُكُمْ إلا كَمَا قَالَ الْغَنَوِيُّ:

جَزَى اللَّهُ عَنَّا جَعْفَراً حِينَ أُزْلِقَتْ ... بِنَا نَعْلُنَا فِي الْوَطْأَتَيْنِ فَزَلَّتْ
أَبَوْا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَا ... تُلاقِي الَّذِي يَلْقَوْنَ مِنَّا لَمَلَّتْ(٢)

• عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَصَابَنِي الْجَهْدُ، فَأَرْسَلَ إِلَى نِسَائِهِ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُنَّ شَيْئاً، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَا رَجُلٌ يُضَيِّفُهُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، يَرْحَمُهُ اللهُ؟**» فَقَامَ رَجُلٌ

---

(١) مسند الإمام أحمد (٢٠/ ١٣٠٧٥)، والترمذي في السنن رقم (٢٤٨٧) وقال: حسن صحيح غريب.

(٢) أخرجه البلاذري في فتوح البلدان (١/ ٣٠)، وانظر أيضاً: سبل الهدي والرشاد في سيرة خير العباد للصالحي (٤/ ٣٢٥).

مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: ضَيْفُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَا تَدَّخِرِيهِ شَيْئاً، قَالَتْ: وَاللهِ مَا عِنْدِي إِلَّا قُوتُ الصِّبْيَةِ، قَالَ: فَإِذَا أَرَادَ الصِّبْيَةُ العَشَاءَ فَنَوِّمِيهِمْ، وَتَعَالَيْ فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ وَنَطْوِي بُطُونَنَا اللَّيْلَةَ، فَفَعَلَتْ، ثُمَّ غَدَا الرَّجُلُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «لَقَدْ عَجِبَ اللهُ ﷻ - أَوْ ضَحِكَ - مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةَ» فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1].

هذه لوحة مضيئة على مرّ السنين. تضيء في مثل هذا العالم المادي الذي غابت فيه كثير من هذه المعاني السامية العالية حتى بين المسلمين.

وأخيراً بعد ذكر هذه المغالطات المكشوفة لرأس الكنيسة الغربية البابا «يوحنا بولس الثاني» والرد عليه بما اقتضاه المقام نسجّل هنا اعتراف دارسي مواقف الفاتيكان والكنيسة من الإسلام من هؤلاء الكتاب المسيحيين المنصفين نوعاً ما، لنعلم أن الكنيسة في العصر الحديث هي بعينها وجهود قساوسة الكنيسة في حقبة القرون الوسطى والحروب الصليبية لم تزدها الأيام إلا طغياناً كبيراً.

وصدق الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة: ٦٤].

يقول أستاذ اللاهوت الألماني «لودفيغ هاغِمَن»: «إن جولة في تاريخ المسيحية الغربية حَرِيّة بأن تظهر أبعاد نظرة استبعادية متعصبة للإسلام، سواء بالحوار والجدل، أم بالتبشير أم بالحرب، وكان يجب

---

(١) رواه البخاري رقم (٣٧٩٧).

فرض الحقيقة التي يَدّعيها كل طرف، واحتكار السلطة بكل الوسائل، ولم يكن هناك بد من فرض احتكار الحقيقة والسلطة بكل الوسائل»[(١)].

ويقول أيضاً: «لا يزال يلاحظ هناك سُعَار ضد القرآن، بتعبير الأب «جورج قنواتي الدمينيكاني» وهو رائد لا يعتريه الكلل من روّاد المصالحة المسيحية الإسلامية، صاغ هذا التعبير في عام (١٩٨٦م) في المؤتمر الخامس للدراسات الدينية اللاهوتية في «سان غابربيد»، في ضواحي «فيينا»، ويأتي فوق ذلك الخوف السياسي من الإسلام الذي عاد إلى النمو خلال العقود الماضية في أوروبا»[(٢)].

ويقول أيضاً: «المسيحية في مواجهة الإسلام، هذا التاريخ لعلاقات بين المسيحيين والمسلمين، انتهت إلى الإحباط، وباتت تنتمي إلى الماضي، وهذا الماضي يجب أن لا يتكرر، ولكن يجب عدم نسيانه أيضاً، بل يجب إصلاحه وتجديده»[(٣)].

وهذا شاهد آخر وهو «الأب ميشيل لولنج» وهو عضو بارز في جمعية الحوار الإسلامي المسيحي.

يقول «لولنج» بإحباط شديد: «إن الكنيسة تعتبر المسيح خاتم الرسالة، لذلك فهي لا تعترف بنبي الإسلام، الذي أدانه المسيحيون بصورة سلبية تهجمية عدوانية، والمؤلفات العديدة بكل أسف تشهد على ذلك»[(٤)].

❁ ❁ ❁

(١) مسيحية ضد الإسلام (٢٣).
(٢) المصدر السابق (٢٤).
(٣) المصدر السابق.
(٤) نقلاً عن كتاب: الفاتيكان والإسلام (١٩ ـ ٢٠).

الخاتمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، نبيِّنا محمد وآله وصحبه والتابعين، **أما بعد:**

فبعد هذه الجولة فيما كتبه وزَبَره قساوسة النصارى وعلى ما يزيد على ألفٍ من السنين وموقفهم من كتاب الله «القرآن العظيم» نسجّل هذه الحقائق:

(١) وضع الكاتب الشهير: «رومان رولان»[١]، إصبعه على الحقيقة عندما قال: «المزاعم هي الآراء المسبقة التي تتسبب في جعل تفهُّم الشعوب بعضها بعضاً أمراً صعباً، وتيسّر سبيل الازدراء بهم»[٢].

ينطبق هذا على نظرة ومن ثَمَّ علاقة نصارى أوروبا بالعالم الإسلامي والمسلمين ودينهم، فلو نظرنا لوجدنا أنه لم تتوتر علاقة هؤلاء الأوروبيين طوال قرون من الزمان، مع أي شعب آخر مثل هذا التوتر الشديد مع المسلمين، بسبب اتخاذ آراء مسبقة.

تتساءل الكاتبة «زغريد هونكة» عن سبب ذلك فتقول: «ما السبب وراء ذلك؟ لا بد أن هناك سبباً يجعل الأحكام المسبقة عن الإسلام والمسلمين، والتي سادت في القرون الوسطى، وما زالت مستمرة حتى اليوم، هي التي تعوق التعرّف الموضوعي على عالمهم الروحي وعلى

(١) كاتب درامي من دعاة التفاهم بين الشعوب ومبادئ الإنسانية، حصل على جائزة نوبل سنة (١٩١٥م)، توفي سنة (١٩٤٤م).

(٢) نقلاً عن «زغريد هونكة» في كتاب: شمس الله تسطع على الغرب (١٨٢).

دينهم وتاريخهم وثقافتهم، ويبدو أنها ما زالت تسيطر حتى اليوم على الرأي العام عن العرب والمسلمين من خلال تزييف التاريخ»[١].

لقد كان العمل الدؤوب لهؤلاء القساوسة وعلى ما يعبر بالعقلية المسيحية أكثر من ألف سنة من الزمان، وهو تقديم هذه المعلومات المغلوطة والمسبقة عن الإسلام والقرآن الكريم، بتصويره بأنه عدو للمسيح وأمّه، وكتاب مليء بالشر والخرافة، ومصادرة حقوق الإنسان، ونحو ذلك من المغالطات الكاذبة.

هذا العمل الدؤوب لهؤلاء القساوسة، هو الذي صنع الفوبيا ضد الإسلام والقرآن والمسلمين عبر هذه القرون حتى الوقت الحاضر.

مع أن العقلاء كلهم يقرّرون: أن العداء وحده ولو كان بسبب العقيدة، ليس مبرّراً كافياً، لوضع وفرض العراقيل أمام معلومات أفضل وأصدق، وأبحاث موضوعية أدق، وتَعرُّف على الحقائق العلمية، دون تحريفها وتزييفها عن الإسلام والقرآن الكريم، فضلاً عن ازدراء الخصم، والحقد الكبير غير المبرر عليه.

الحقيقة أن الصدمة العلمية العظيمة، وكذلك الصدمة من اندحار الحروب الصليبية، والشعور المسيحي العميق لدى أرباب الكنائس: أن حقائق القرآن لو ظهرت لدمرت خرافات المسيحية وعقائدها المستحيلة عن البنوّة والأُبوّة والتجسد والولادة الإلٰهية والخلاص والصلب والفداء وغير ذلك.

إن هذه الحقيقة مضموماً إليها تلك الصدمة، هي التي توصد الطريق أمام كل معرفة موضوعية ناضجة وصادقة للقرآن الكريم ومضامينه الجليلة، وحقائقه الصادقة.

---

(١) الله ليس كمثله شيء (٣١).

وبدلاً من تقصي الحقيقة موضوعياً، انتصر لدى الغرب وقساوسته الهجوم الجدلي الحاد، فانتشرت الدعايات والأضاليل الكاذبة عن القرآن الكريم التي أصبحت أحكاماً مسبقة راسخة في العقلية المسيحية الأوروبية على وجه الخصوص.

(٢) لقد فوّت مسيحيّو العصر الحاضر، وعلى رأسهم الفاتيكان، فرصة ذهبية لفهم الإسلام والقرآن الكريم، والتعامل الحسن مع المسلمين، إذ سلكوا مسلك القدماء في صناعة الفوبيا ضد الإسلام والقرآن، والعمل بجد لتنصير المسلمين أيضاً.

يعبّر عن ذلك بوضوح الأب «كاسبار» إذ يقول: «إن هناك من بين رجال الدين الحاضرين من يعتبرون أن الإسلام خطأ مطلق لا بد من رفضه؛ لأنه يمثّل خطراً حقيقياً بالنسبة للكنيسة ولا بد من محاربته»[(١)].

وهذا مبشّر الصليبية في العصر الحاضر: القسّيس الشهير: «استيفان نيل» أصدر كتاباً عام (١٩٧١م) تحت عنوان: «تاريخ الإرساليات المسيحية»، يسجّل في كتابه هذا الشهادة على الأخلاقية المسيحية لكل ما حدث فيما مضى، ولكل ما ربما سيحدث فيقول: «حيث إنه قد قررت الجحيم بخصوص هؤلاء «الكفار»[(٢)]، فإن الصليبيين يعتقدون أن سحقهم أمر ضروري وخلقي أيضاً، وأما من يُسمح له بالحياة منهم، فإلى عبودية دائمة، بمعنى ما يقومون به من خدمات للمؤمنين ـ المسيحيين ـ وحيث أن المسلمين ببساطة كفار فليس لهم الحق في الوجود، فلا عهد معهم، وينبغي أن يذبحوا بلا رحمة أو شفقة تمجيداً لإله المسيحية»[(٣)].

ما الذي يختلف في هذا الخطاب عن خطاب البابا «أوربان

---

(١) نقلاً عن كتاب: الفاتيكان والإسلام (١٩).

(٢) يقصد المسلمين.

(٣) تاريخ الإرساليات المسيحية (١١٣).

الثاني»، الذي أطلق شرارة الحروب الصليبية في القرون الوسطى؟!

وأوضح تعبير عن هذه النظرة الظالمة، والمستدعية لعقلية قساوسة القرون الوسطى المحاضرة التي ألقاها، البابا «بيندكت السادس عشر»(١)، وهو الذي خلف «يوحنا بولس الثاني» على سُدّة البابوية في الفاتيكان، بدأها بالثناء على الالتقاء المعرفي الكبير بين الإيمان الإنجيلي كما سمّاه، والفلسفة الإغريقية ثم اتجه إلى مناقشة ما سمّاه: سياقات علاقة الإيمان والعقل.

ثم اتجه مباشرة بالنقل عن محاورة افتراضية للإمبراطور البيزنطي «مانويل الثاني» مع مثقف مسلم، ونقل «بيندكت السادس عشر»، على لسان هذا الإمبراطور قوله: «أرني ما هو الجديد الذي أتى به محمد، وسوف تجد أشياء كلها شرّيرة، وغير إنسانية، من مثل أمره بنشر الدين بالسيف»، فنحن إذن أمام تكرار بإصرار على مزاعم «مارتن لوثر» و«توما الأكويني» وغيرهم من قساوسة القرون الوسطى.

يسجّل «لودفيغ هاغمن» بإحباط ذلك فيقول: «لم يتحقق مطلب الكنائس المسيحية في العصر الحديث بالتغلّب على الإسلام عن طريق التبشير، بل على النقيض، إذا أجّج في سياق الاستعمار نار مزايا جديدة عند المسلمين، وفي هذا الوقت فوّت المسيحيون فرصة مناقشة الإسلام والقرآن بحكم كونه ديانة عالمية، بأسلوب موضوعي وبناء، ومن دون نوايا تتصل بالجدل المذهبي والدفاع عن العقيدة مع التحرر من ادعاءات الحق المذهبية، وألوان القسر العقدية»(٢).

(٣) هذه الدراسة التي وفقني الله لها هي للإسهام في إزالة تلك

---

(١) ألقاها بجامعة «بون» بألمانيا، في (١٢) سبتمبر (٢٠٠٦م)، بعنوان: العقل والإيمان في التقاليد المسيحية والحاضر المسيحي.

(٢) مسيحية ضد الإسلام (١٥٩).

العوالق الآثمة والجاثمة على عقول المسيحيين عن القرآن الكريم، فهي دراسة تذكيرية من جهة، ودراسة توضيحية من جهة أخرى.

تذكيرية بذلك العبء التاريخي الذي جثم على عقول وقلوب مسيحيي القرون الوسطى وما قبلها والذي يُسْتَدْعى في كل مناسبة ليحل بثقله على قلوب وعقول مسيحيي العصر الحاضر، حين يختلط الجهل والحكم المسبق الذي لا عزاء له بالإضلال ووصد الباب حتى لا يبصر النور.

وتوضيحية تقريرية للكم الهائل من الهدى والنور والحق الذي يفقده من لم يصل إلى حقائق القرآن ولم يقرأه، ولم يعلم ويتعلم مضامينه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المائدة: ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة: ٦٤].

كلا الآيتين من سورة المائدة، وكلتاهما في اليهود والنصارى، فالذي لا يزيده القرآن الكريم ـ وهو ما أنزل الله إلى نبيه ﷺ ـ إلا الكفر والطغيان، فإنه يكون بحكم الله القدري على هذا الحال:

أ ـ العداوة والبغضاء، لكل قيمة كريمة، والسعي لتحقيق الفردية والأنانية مما سيجعله مبغضاً معادياً لكل ما سواه، وسوى رغبته وهواه، خصوصاً ما فيه قيمة فضيلة، وصلاح للبلاد وخير للعباد.

ب ـ أنهم وقود نار لكل شر وفتنة، وإضلال لعباد الله عن سواء السبيل، مما سيجعلهم صادين عن سبيل الله ويبغونها عوجاً.

ج ـ السعي الحثيث والعمل الدؤوب لإطفاء نور الله، والإفساد في الأرض، فصارت مادتهم الروحية وقيمتهم النفسية من طبيعة الفساد

نفسه، فهي لا تعرف غيره، فيصبح عدوها اللدود هو النور والحق والهدى والصلاح والإصلاح.

حتى قال الله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون: ٧١].

يقول الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولو عمل الربّ تعالى ذكره بما يهوى هؤلاء المشركون، وأجرى التدبير على مشيئتهم وإرادتهم، وترك الحق الذي هم له كارهون، لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، وذلك أنهم لا يعرفون عواقب الأمور، والصحيح من التدبير والفاسد، فلو كانت الأمور جارية على مشيئتهم، وأهوائهم مع إيثار أكثرهم للباطل على الحق، لم تقرّ السموات والأرض ومن فيهن من خلق الله؛ لأن ذلك قام بالحق»[1].

ومن حسن دلالات القرآن الكريم وترتيبه، أن الله تعالى قال بعد هذه الآية في وصف النبي ﷺ، وما أنزل عليه، وما يدعو إليه من الخير والصلاح: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [المؤمنون: ٧٣، ٧٤].

أي: تدعوهم إلى دين قويم، وخير عميم، وهدى مستقيم، فمن عدل عنه ونكب عاد إلى أهواء البشر واستعباد بعضهم بعضاً.

(٤) لقد رأينا في هذه الدراسة كيف سببت الترجمات المغلوطة للقرآن إلى لغات الأوروبيين وغيرهم، في كم كبير من صناعة هذه الغشاوة والضلالة عن القرآن الكريم.

ورأينا أن ترجمة واحدة هي التي قام بها «روبرت الكيتوني»

---

(١) تفسير الطبري (٩/ ٢٣٣).

بإشراف «بطرس المبجل» عملت على صناعة وترسيخ سوء فهم كبير عن القرآن في عقول القساوسة وغيرهم لقرون عديدة.

ولا يزال هذا سلاح أعداء القرآن لإبقاء الناس في أوروبا خصوصاً والعالم معزولين ذهنياً وفكرياً وروحياً عن فهم القرآن وتذوقه، والوصول إلى حقائقه العظيمة، فقد توالت الترجمات الأوروبية بعد ذلك، وكلها مغرقة في تشويه القرآن الكريم.

فصدرت الترجمة الإيطالية الأولى سنة (١٥٤٧م)، وقام بها «أرّيفابيتي».

والترجمة الألمانية الأولى سنة (١٦١٦م)، وقام بها «سالمون اشفِجر».

والترجمة الهولندية سنة (١٦٤١م) عن الألمانية.

وكذا الفرنسية الأولى سنة (١٦٤٧م)، وقام بها «دي ريبر»(١).

يقول الدكتور عبد الرحمٰن بدوي: «وفي ترجمته هذه كثير من المواضع الغامضة، وقد ظفرت بنجاح كبير بدليل أنه عن هذه الترجمة الفرنسية تمت عدة ترجمات»(٢).

وظهرت كذلك الترجمة الإنجليزية الأولى سنة (١٧٣٤م) وقام بها «جورج سيل» وحظيت بانتشار واسع حتى اليوم إذ أعيد طبعها باستمرار(٣).

فبعضها يكون عنوان الترجمة: «الكتاب المقدس التركي الإسلامي»، وبعضها: «التشريع عند المسلمين، لمحمد بن عبد الله، مع بعض الدعوات الاحتفالية»(٤).

---

(١) انظر موسوعة المستشرقين لعبد الرحمٰن بدوي (٤٤٢ ـ ٤٤٣).
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق (٤٤٤).
(٤) المصدر السابق.

وتأتي ترجمة المستشرق الألماني «تيودور نولديكه» في مكان الصدارة بكل ما تحمله من عبث وتحريف يتلفع بأعلى المستويات العلمية واللغوية، أليس هو القائل عن النبي ﷺ والقرآن: «صائغ غير موهوب لسور قرآنية مشوّشة الأسلوب»(١).

ومن أواخر هذه الترجمات المحرفة للمعنى القرآني والمشوهة له الترجمة التي قام بها المستشرق الفرنسي «جاك بيرك»، وصدرت بالفرنسية سنة (١٩٩٣م).

وهي سيئة جدّاً، ومليئة بالتحريفات.

وقد صدر قرار لشيخ الأزهر «جاد الحق علي جاد الحق» رحمه الله بتشكيل لجنة علمية متخصصة من مشيخة وأساتذة الأزهر لدراسة هذه الترجمة، وحصر الأخطاء التي جاءت فيها.

وصدر قرار اللجنة المؤرخ في ٢٦/٦/١٩٩٥م وفيه: «وقد خرجت اللجنة بانطباعها بناء على الملاحظات التالية:

- جهل المترجم «جاك بيرك» باللغة العربية.
- عدم فهمه للنص القرآني.
- عدم الأمانة.
- اعتماد التحريف.
- زعمه أن القرآن شعر قديم.
- يُظْهِر الله تعالى في القرآن بصورة مرعبة وفظة واستخدام ألفاظ لا تليق بالله تعالى.
- زعمه بشرية القرآن.

(١) كتاب القرآن، رجيس بلايشير (١٣).

- انتقاءه وزعمه تقويم القرآن(١).

وغير ذلك من المزاعم.

ولذلك ولمقاومة هذا الدَّس والتحريف والصد عن القرآن فإنني أدعو علماء المسلمين، والهيئات العلمية والدعوية والجامعات ومراكز البحث وغيرها إلى القيام بمشروع ترجمة القرآن إلى جميع لغات العالم الحية الموجودة، تكون أمينة واعية صادقة معبّرة عن المحتوى والمضمون القرآني بحق وصدق، وإن هذا لمن أعظم الواجبات اليوم، لتحقيق هدفين كبيرين:

الأول: عالمية الإسلام وأن النبي ﷺ بُعث بالقرآن للثقلين الجن والإنس، والأبيض والأسود، والعربي والعجمي إلى قيام الساعة، ولا يكون ذلك إلا بإيصال معاني القرآن الكريم الجليلة العظيمة، صافية صادقة كما أرادها الله إلى الناس كافة في هذا العالم عن طريق ترجمة معاني القرآن بكل اللغات.

والثاني: قطع الطريق على هؤلاء الكاذبين الظالمين الذين يبغونها عوجاً ويصدون عن سبيل الله، من بابوات وقساوسة، ومستشرقين وغيرهم.

والله تعالى نسأله أن يوفقنا لخدمة دينه القويم، وكتابه العظيم، وإيصال هذا الهدى والنور للعالمين أجمعين.

والحمد لله ربِّ العالمين

د. عبد العزيز بن أحمد بن محسن الحميدي
كلية الدعوة وأصول الدين ـ جامعة أم القرى
١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م

(١) انظر: كتاب: ترجمات القرآن إلى أين؟ الدكتورة: زينب عبد العزيز (٩٨ ـ ١٠٣)، مكتبة وهبة، القاهرة، ط. الثانية، ٢٠٠٥م.

(١) المصادر والمراجع

- **أبو يزيد البسطامي**، المجموعة الصوفية الكاملة، تحقيق: تامر عباس، ط٢، ٢٠٠٦م، دار المدى، دمشق.
- **الأحاديث المختارة**، الحافظ ضياء الدين المقدسي، تحقيق: د. عبد الملك بن دهيش، مكتبة الأسدي، ٢٠٠٨م.
- **إتحاف المهرة الخيرة، بالفوائد المبتكرة، من المسانيد العشرة**، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. زهير الناصر، ١٤١٥هـ.
- **الإتقان في علوم القرآن**، جلال الدين السيوطي، دار المعرفة، بيروت، ط. الرابعة، ١٩٩٧م.
- **الآثار الباقية عن القرون الخالية**، أبو الريحان البيروني، طبعة بغداد، مصورة عن مخطوطة ليبزيخ سنة ١٩٢٣م.
- **أحكام القرآن**، محمد بن عبد الله ابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط٢، مصر، دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٨م.
- **أحكام القرآن**، للإمام الشافعي، استخرجها أبو بكر البيهقي، حققه: الشيخ عبد الغني عبد الخالق، دار إحياء العلوم، ط. الأولى، ١٩٩٠م.
- **إحياء علوم الدين**، أبو حامد الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.
- **الأدب المفرد**، الإمام البخاري، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر، ط. الثالثة، ١٩٨٩م.
- **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي، تحقيق: علي محمد عوض، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م.
- **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، عز الدين بن الأثير الجزري، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٩٧م.
- **الأسنى شرح أسماء الله الحسنى**، لأبي عبد الله القرطبي، دار المعارف، بيروت، ١٩٩٥م.

- **اشتقاق أسماء الله الحسنى**، لأبي القاسم الزجاجي، تحقيق: د. عبد المحسن المبارك، مؤسسة الرسالة، ط. الثانية، ١٩٨٦م.
- **الإصابة في تمييز الصحابة**، ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٥م.
- **اصطلاحات الصوفية**، عبد الرزاق الكاشاني، ط١، طهران، ١٣٨١هـ.
- **أصول السُّنَّة**، عبد الله بن الزبير الحميدي، تحقيق: عبد الله الغفيلي، ط١، مكتبة الرشد، ٢٠٠١م.
- **الأصنام**، هشام بن السائب الكلبي، تحقيق: أحمد زكي باشا، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط. الرابعة، ١٤٣٠م.
- **الأضحوية في أمر المعاد**، ابن سينا، تحقيق: د. حسن عاصي، ط. الثانية، ١٩٨٧م.
- **أخبار الحلاج**، لويس ماسينيون وبول كراوس، ط٢٠٠٦م، التكوين للطباعة والنشر، دمشق.
- **أصول مذهب الشيعة الإمامية عرض ونقد**، ناصر القفاري، ط٣، دار الرضا، مصر، ١٩٩٨م.
- **الأصول من الكافي**، محمد يعقوب الكليني، طهران، المكتبة الإسلامية، ١٣٨٨م.
- **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، محمد الأمين الشنقيطي، دار عالم الفوائد، ط١، ١٤٢٦هـ.
- **إعجاز القرآن**، الباقلاني، تحقيق: سيد أحمد صقر، دار المعارف، الثاهرة، ط. الثالثة.
- **إعلام السائلين بكتب سيد المرسلين**، محمد بن طولون، حققه: محمود الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط. الثانية، ١٩٨٧م.
- **الأغاني**، لأبي نعيم الأصفهاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، مؤسسة دار الشعب، ط. الأولى.
- **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان**، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت، دار المعرفة.
- **الافتخار**، للداعي أبي يعقوب السستاني، تحقيق: مصطفى غالب، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٧م.

- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: د. ناصر العقل، ط٨، مكتبة الرشد، ٢٠٠٠م.
- الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفا، سليمان بن موسى الكلاعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.
- إكمال المعلم بفوائد مسلم، عياض بن موسى، تحقيق: يحيى إسماعيل، ط١، دار الوفاء، ١٩٩٨م.
- الأم، محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: رفعت فوزي، ط١، دار الوفاء، ٢٠٠١م.
- إمتاع الأسماع، للمقريزي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٨م.
- الأمالي، أبو علي القالي، مطبعة دار الكتب المصرية، بالقاهرة، ط. الثالثة.
- الأموال، أبو عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: د. محمد خليل هراس، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٧٥م.
- الأموال، لابن زنجويه، تحقيق: د. شاكر ذيب الخوالدة، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط. الثانية، ٢٠٠٧م.
- الانتصار للقرآن، أبو بكر الباقلاني، تحقيق: سيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط. الثالثة.
- أهل البيت في الكتاب والسُّنَّة، محمد الريّ شهري، طهران، دار الحديث، ١٣٧٥هـ.
- أوائل المقالات، للمامقاني، طهران، ١٩٧٠م.
- الإيمان الأوسط، شرح حديث جبريل، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: د. علي بن بخيت الزهراني، دار ابن الجوزي، الرياض.
- البارع، لأبي علي القالي، تحقيق: هشام الطحان، بيروت، ١٩٧٤م.
- البحر الزخار المعروف بمسند البزار، أبو بكر البزار، تحقيق: محفوظ الرحمٰن زين الله، ط١، مكتبة العلوم والحكم، ١٩٨٨م.
- البحر المحيط، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، المكتبة التجارية، مكة المكرمة.
- البداية والنهاية، إسماعيل بن كثير، تحقيق: عبد الله التركي، دار هجر، ١٩٩٩م.
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن علي الشوكاني، بيروت دار المعرفة، بدون تاريخ.

- **البرهان في متشابه القرآن**، محمود بن حمزة الكرماني، تحقيق: أحمد عز الدين خلف الله، دار الوفاء للطباعة، ط. الأولى، ١٩٩٠م.
- **بغية الباحث عن زوائد الحارث**، علي بن سليمان الهيثمي، تحقيق: حسين الباكري، الجامعة الإسلامية، ١٩٩٢م.
- **بغية المرتاد**، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: د. موسى الدويش، دار العلوم والحكم، ١٩٩٥م.
- **تأويل مشكل القرآن**، لابن قتيبة الدينوري، تحقيق: سيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، ط. الأولى، ١٩٨١م.
- **تأويل مختلف الحديث**، لابن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.
- **تاريخ الإسلام**، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٣م.
- **تاريخ الفتوح**، أحمد بن أعثم الكوفي، دار الكتب العلمية، ط. الأولى، ١٩٨٦هـ.
- **التاريخ الأوسط**، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد بن إبراهيم اللحيدان، دار الصميعي، ط١، ١٩٨٨م.
- **التاريخ الكبير**، محمد بن إسماعيل البخاري، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.
- **تاريخ بغداد**، الخطيب البغدادي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٢٢هـ.
- **تاريخ دمشق**، ابن عساكر، تحقيق: مجد الدين العمري، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.
- **تاريخ الأمم والملوك**، محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **تثبيت دلائل النبوة**، عبد الجبار بن أحمد الهمداني، حققه: د. عبد الكريم عثمان، دار العربية للطباعة.
- **التحبير في علم التفسير**، جلال الدين السيوطي، تحقيق: فتحي عبد القادر فريد، دار المنار، القاهرة، ١٩٨٦م.
- **التحرير والتنوير**، الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، ١٩٨٨م.
- **التصريح بما تواتر في نزول المسيح**، محمد أنور شاه الكشميري، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، دار القلم، ط. الخامسة.

- **تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين**، الراغب الأصبهاني، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٨٨م.
- **التصوف بين التمكين والمواجهة**، محمد بن عبد الله المقدي، ط١، ١٤٢٩هـ، دار الصفوة، القاهرة.
- **التعريفات**، للشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **تعظيم قدر الصلاة**، محمد بن نصر المروزي، تحقيق: د. عبد الرحمٰن الفريوائي، مكتبة الدار بالمدينة المنورة، ط. الأولى، ١٤٠٦هـ.
- **تفسير القرآن العظيم**، إسماعيل بن كثير، تحقيق: أبي إسحاق الحويني.
- **تفسير ابن أبي حاتم الرازي**، تحقيق: أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان.
- **تفسير القمي**، علي بن إبراهيم القمي، تصحيح: السيد الطيب الجزائري، دار الكتب، ط٣، ١٤٠٤هـ.
- **تفسير الشهرستاني**، مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار، تحقيق: محمد علي آذرشب، مركز البحوث والدراسات للتراث المخطوط، طهران.
- **تفسير ابن سعدي**، دار المدني بجدة ١٩٨٨م.
- **تقريب التهذيب**، أحمد بن علي بن حجر، دار الكتب العلمية، ١٩٩٣م، ط. الأولى، ١٤٢٩هـ.
- **التنبيه والإشراف**، للمسعودي، تحقيق: يارون روزن، ط. الأولى، ١٩٧٩م.
- **تلخيص الذهبي على مستدرك الحاكم**، دار الكتاب العربي، بيروت.
- **تهذيب الأخلاق**، لأحمد بن مسكويه، مكتبة الثقافة الدينية، ط. الأولى.
- **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، الحافظ المزي، تحقيق: د. بشار عواد، دار الرسالة، بيروت، ط. الأولى.
- **تهذيب التهذيب**، أحمد بن علي بن حجر، تحقيق: خليل شيحا وزميليه، دار المؤيد، الرياض، ط. الثانية، ١٤١٧هـ.
- **تهذيب اللغة**، للأزهري، بيروت، دار المعرفة، ٢٠٠١م.
- **تهذيب اللغة**، للأزهري، تحقيق: عبد السلام هارون، الدار العربية للطباعة، ١٩٦٤م.
- **التوفيق للتلفيق**، للثعالبي، تحقيق: هلال ناجي، ود. زهير زاهد، بغداد، ١٩٨٥م.

- **التيسير في القراءات السبع**، أبو عمرو الداني، تصحيح: أوتوبرتزل، إسطنبول، ط. الأولى.
- **الثقات**، محمد بن حبان، ط١، الهند، ١٩٧٣م.
- **جلاء العينين في محاكمة الأحمدين**، خير الدين الألوسي، دار المدني، جدة.
- **جامع البيان**، محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢م.
- **جامع التفاسير**، الراغب الأصبهاني، تحقيق: د. أحمد حسن فرحات، دار الدعوة، الكويت، ط. الأولى، ١٤٠٥هـ.
- **الجامع الصحيح**، للإمام مسلم، تحقيق: د. موسى لاشين وأحمد عمر هاشم، مؤسسة عز الدين للطباعة، بيروت، ط. الأولى، ١٤٠٧هـ.
- **الجامع الصحيح ـ سنن الترمذي ـ**، تحقيق: أحمد محمد شاكر.
- **الجامع الصحيح**، للإمام البخاري، دار السلام، الرياض، ١٩٩٩م.
- **الجامع لأحكام القرآن**، للقرطبي، مؤسسة الرسالة بيروت، ٢٠٠٦م.
- **جامع المسائل**، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمد عزيز شمس، دار عالم الفوائد، ١٤٢٢هـ.
- **جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام**، ابن قيم الجوزية، تحقيق: طه يوسف شاهين، دار القلم، ط. الثانية، ١٩٧٧م.
- **الجمان في تشبيهات القرآن**، ابن ناقيا البغدادي، تحقيق: عدنان زرزور، ود. محمد الداية، المطبعة العصرية، بالكويت، ط. الأولى، ١٩٦٨م.
- **الجماهر في معرفة الجواهر**، للبيروني، حققه: سالم الكرنكوي، حيدر آباد، الدكن بالهند، ١٩٧٠م.
- **الجمل**، للزجاجي، تحقيق: ابن أبي شنب، باريس، ١٩٥٧م.
- **جمهرة أشعار العرب**، محمد بن أبي الخطاب القرشي، تحقيق: د. محمد علي الهاشمي، دار القلم، دمشق، ط. الثانية، ١٩٨٦م.
- **جمهرة اللغة**، لأبي بكر بن دريد، تحقيق: كرنكو، حيدر آباد، الدكن، ١٣٥١م.
- **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: د. علي بن حسن بن ناصر، ود. عبد العزيز العسكر، ود. حمدان الحمدان، دار العاصمة، الرياض، ط. الثانية، ١٩٩٩م.
- **الجواب الفسيح لما لفقه عبد المسيح**، أبو البركات خير الدين الآلوسي، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، القاهرة، ١٩٨٧م، ط. الأولى.

- الحجة في القراءات السبع، لابن خالويه، تحقيق: عبد العالم سالم مكرم، دار الشروق، الطبعة الرابعة، ١٩٨١م.
- الحروف، لأبي نصر الفارابي، سلسلة الفارابي الفلسفية، باعتناء: كارلوس يعقوب لايل، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٧٦م.
- الحلاج أو وضوء الدم، ميشال غريب، ط١، مكتبة الحياة، بيروت.
- حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط. الرابعة، ١٤٠٥هـ.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ط. الأولى، ١٩٨٣م.
- درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية، تحقيق: أحمد رشاد سالم، جامعة الإمام.
- الدعوات والفصول، لعلي بن أحمد الواحدي، المنسوب خطأ للثعالبي، تحت عنوان: تحفة الظرفا وفاكهة اللطفا، تحقيق: عادل فريحات، نور للطباعة والنشر، دمشق، ط. الأولى، ٢٠٠٨م.
- دلائل النبوة، علي بن محمد الماوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. الثانية، ١٩٨١م.
- دلائل النبوة، لأبي بكر البيهقي، تحقيق: مختار الندوي، الهند، الدار السلفية، ١٩٨٩م.
- ديوان سلامة بن جندل، تحقيق: فخر الدين قباوة، المكتبة العربية، حلب، ١٩٨٨م.
- ديوان المتنبي، تصحيح: عبد الوهاب عزام، لجنة التأليف والنشر، القاهرة.
- الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصبهاني، تحقيق: أبو اليزيد العجمي، دار الوفاء، ط٢، ١٩٨٧م.
- الرد على الزنادقة والجهمية، الإمام أحمد بن حنبل، نشره: قصي محب الدين الخطيب، ١٣٩٩هـ.
- الرسالة القشيرية، عبد الكريم القشيري، تحقيق: د. عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة.
- الرسالة، للإمام الشافعي، تحقيق: الشيخ أحمد محمد شاكر، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط. الثانية، ١٩٧٩م.
- الروض الأنف، للسهيلي، تحقيق: عبد الرحمٰن الوكيل، ط١، دار النصر، مصر، ١٩٧٦م.

- زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط١٣، ١٩٨٦م.
- زوائد المسند، للإمام عبد الله بن الإمام أحمد، تحقيق: زياد منصور، بيروت، ٢٠٠٥م.
- السامي في الأسامي، للميداني، تحقيق: د. عبد الله سلوم السامرائي، بغداد، ١٩٧٢م.
- سبل الهدي والرشاد، للصالحي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م.
- سرائر أسرار النطقاء، جعفر بن منصور اليمن، دار الأندلس، بيروت، ١٩٩٨م.
- سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار المكتبة العربية.
- سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت.
- السنن الكبرى، للنسائي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠١م.
- السنن الكبرى، للبيهقي، دار المعرفة، بيروت.
- سنن النسائي بحاشية السندي، مكتبة التراث الإسلامي، بيروت، ١٤٢٠هـ.
- سير أعلام النبلاء، للذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، دار الرسالة، ط٢، ١٩٨٢م.
- السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام الحميري، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، دار الكنوز الأدبية، القاهرة، ١٩٨٨م.
- السيرة النبوية، الذهبي، تحقيق: بشار عواد معروف، الرسالة، ١٩٩٧م.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد، بيروت، بدون تاريخ.
- الشذرات الذهبية في تراجم الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية، لمحمد بن طولون الدمشقي، تحقيق: مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- شرح حديث أبي بكر، شيخ الإسلام ابن تيمية، حققه: أشرف عبد المقصود، أضواء السلف، ٢٠٠٢م.
- شرح النووي على صحيح مسلم، دار الكتب العلمية.
- شرح مشكل الآثار، للطحاوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٢، ٢٠٠٦م.

- شعب الإيمان، لأبي بكر البيهقي، تحقيق: مختار أحمد الندوي، الدار السلفية، الهند، ط. الأولى، ١٩٨٩م.
- الشفا بالتعريف بحقوق المصطفى، القاضي عياض بن موسى، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ١٣٩٢هـ.
- شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، لشهاب الدين الخفاجي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٥م.
- الشكوى والعتاب، المنسوب للثعالبي، تحقيق: د. إلهام المفتي، دار الصحابة، طنطا، ١٩٩٢م.
- الشوارد أو ما تفرد به بعض أئمة اللغة، الحسن الصغاني، تحقيق: مصطفى حجازي، الهيئة العامة لشؤون الطباعة، القاهرة، ١٩٨٣م.
- الصاحبي، أحمد بن فارس، تحقيق: الشيخ أحمد صقر، مؤسسة المختار، ط. الأولى، ٢٠٠٥م.
- الصحاح، للجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت، ط. الثانية، ١٩٧٩م.
- صحيح ابن حبان ترتيب ابن بلبان، خرَّجه شعيب الأرنؤوط، ط٣، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٧م.
- صحيح ابن خزيمة، حققه: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، ط. الثانية، ١٤١٢م.
- الضوء اللامع، للسخاوي، مكتبة القدس، القاهرة.
- طبقات الأطباء، لابن أبي أصيبعة، دار الكتب العلمية، بيروت.
- طبقات الأمم، صاعد الأندلسي، تحقيق: حياة العيو بوعلوان، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.
- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة.
- طبقات النحويين واللغويين، محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. الأولى، ١٩٥٤م، القاهرة.
- طبقات النحاة واللغويين، لابن قاضي شهبة، تحقيق: محسن غياص، بغداد، ١٩٧٤م.
- غريب القرآن وتفسيره، عبد الله بن يحيى اليزيدي، تحقيق: محمد سليم حاج، عالم الكتب، ط. الأولى، ١٩٨٥م.

- **فضائل الصحابة**، للإمام أحمد، تحقيق: وصي الله عباس، دار ابن الجوزاء، ط٢، ١٤٢٠هـ.
- **فضائل القرآن ومعالمه وآدابه**، القاسم بن سلام، تحقيق: أحمد بن عبد الواحد الخياطي، وزارة الأوقاف المغربية، ١٩٩٥م.
- **فتح الباري بشرح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، سنة ١٣٩٨هـ.
- **فتوح البلدان**، للبلاذري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م.
- **فقه اللغة وسر العربية**، لأبي منصور الثعالبي، تحقيق: خالد فهمي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط. الأولى، ١٩٩٨م.
- **فنون الأفنان**، لابن الجوزي، تحقيق: حسن ضياء الدين عتر، دار البشائر، ط. الأولى، ١٩٨٨م.
- **الفهرست**، لابن النديم، تحقيق: هامت ريتر، ألمانيا، ٢٠٠٠م.
- **في ظلال القرآن**، سيد قطب، دار الشروق، ط١٧، ١٩٩٢م.
- **فيض نشر الانشراح من روض طي الاقتراح**، لابن الطيب الفاسي، تحقيق: د. محمود فجّال، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، ط. الأولى، ٢٠٠٠م.
- **القاموس المحيط**، الفيروزآبادي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٧٧م.
- **قيام الليل**، محمد بن نصر المروزي، حديث أكاديمي، حيدر آباد، ط. الأولى، ١٩٨٢م.
- **الكامل في ضعفاء الرجال**، لابن عدي، دار الفكر، بيروت.
- **كتاب سيبويه**، المطبعة الأميرية، بولاق، مصر، ط. الأولى، ١٣١٦هـ.
- **كشاف اصطلاحات الفنون**، للتهانوي، حيدر آباد، الهند، ط. الثانية.
- **الكشاف**، جار الله الزمخشري، مصطفى البابي الحلبي، ط. الأخيرة، ١٩٧٢م.
- **الكشف عن وجوه القراءات**، مكي بن أبي طالب، تحقيق: محيي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، ط. الثالثة، ١٩٨٤م.
- **كشف المشكلات وإيضاح المعضلات**، لنور الدين علي بن الحسين الباقولي، تحقيق: د. عبد القادر عبد الرحمٰن السعدي، دار عمار، عمّان، ط. الثانية، ٢٠٠٦م.
- **الكناية والتعريض**، للثعالبي، تحقيق: أسامة البحيري، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط. الأولى، ١٩٩٨م.

- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٣م.
- لسان الميزان، الحافظ ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.
- العبودية، شيخ الإسلام ابن تيمية، تقديم: عبد الرحمٰن الباني، المكتب الإسلامي، ط. الأولى.
- غاية السول في خصائص الرسول ﷺ، لابن الملقن تحقيق: عبد الله بحر الدين، دار البشائر الإسلامية ط١، ١٤١٤هـ.
- اللمع في التصوف، عبد الله بن علي الطوسي، شركة القدس للنشر، القاهرة، ١٤٢٩هـ.
- ما وقع في القرآن من الظاء، لأبي الربيع السرقوسي، تحقيق: د. علي حسن البواب، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٠م.
- المبهج، للثعالبي، تحقيق: إبراهيم صالح، دار البشائر، دمشق، ط. الأولى، ١٩٩٩م.
- مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق: فؤاد سزكين، مطبعة السعادة، ١٩٥٤م.
- مجالس العلماء، للزجاجي، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، ط. الثانية، ١٩٥٦م.
- المجرد في غريب كلام العرب، لأبي الحسن الهنائي، تحقيق: د. محمد بن أحمد العمري، مكتبة الثقافة الدينية، ط. الأولى، ٢٠٠٧م.
- مجمع الزوائد، للهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٩٨٢م.
- المجروحين، لابن حبان تحقيق: محمد إبراهيم زايد، دار المعرفة، ١٩٩٢م.
- المحرر الوجيز، لابن عطية الأندلسي، تحقيق: المجلس العلمي بفاس، ١٩٩٢م.
- المحلى، علي بن حزم الأندلسي، تحقيق: د. عبد الغفار سليمان البنداري، دار الكتب العلمية، بيروت.
- المخصص، لابن سيدة، طبعة بولاق ١٣٢١هـ.
- مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية، تعليق محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٢م.
- المدخل لعلم تفسير كتاب الله، لأبي نصر الحدادي، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، ط. الأولى، ١٩٨٨م.

- **المزهر**، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى، دار إحياء الكتب العربية، البابي الحلبي.
- **المستدرك على الصحيحين**، للحاكم النيسابوري، دار الكتاب العربي.
- **المسلسل في غريب لغة العرب**، محمد بن يوسف التميمي، حققه: محمد عبد الجواد، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٧م.
- **مسند أبي داود الطيالسي**، ١٣٢١هـ، دائرة المعارف النظامية، حيدر أباد، الهند.
- **مسند أبي يعلى الموصلي**، تحقيق: إرشاد الحق الأثري، ط١، مؤسسة علوم القرآن، ١٩٨٨م.
- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط٢، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩م.
- **المصاحف**، لأبي بكر بن أبي داود، تحقيق: آرثرجفري، الدار الرحمانية بمصر، ط. الأولى، ١٩٣٦م.
- **المصباح المضيء**، لابن حُدَيدة الأنصاري، صححه: محمد عظيم الدين، عالم الكتب.
- **المصنف**، عبد الرزاق بن همام، تحقيق: حبيب الرحمٰن الأعظمي، ط١، بيروت منشورات المجلس العلمي، ١٩٧٢م.
- **المصنف**، لابن أبي شيبة، دار الكتب الثقافية.
- **معاني القرآن**، الأخفش سعيد بن مسعدة، تحقيق: د. عبد الأمير محمد أمين الورد، عالم الكتب، ط. الأولى.
- **معاني القرآن**، للفراء، عالم الكتب، ط. الثالثة، ١٤٠٣هـ.
- **معجم الأدباء**، ياقوت الحموي، دار المأمون، القاهرة، ١٩٧٦م.
- **المعجم الكبير**، للطبراني، حققه: حمدي السلفي، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٢م.
- **معجم العين**، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط. الأولى، ١٤٠٨هـ.
- **المعجم الصوفي**، د. محمود عبد الرازق، دار ماجد عسيري، ط١، ١٤٢٥هـ.
- **المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم**، للجواليقي، تحقيق: الشيخ أحمد شاكر، القاهرة، ١٣٦١هـ.

- **المغرب في ترتيب المعرب**، ناصر الدين المطرزي، حققه: محمود فاخوري وعبد الحميد مختار، مكتبة أسامة بن زيد، حلب، ط. الأولى، ١٩٧٩م.
- **مفردات القرآن الأجنبية**، آرثرجفري، الدار الرحمانية بمصر، ١٩٤٠م.
- **المفضليات**، للضبي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣م.
- **مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، البابي الحلبي، ١٩٦٦م.
- **المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى**، أبو حامد الغزالي، مكتبة القرآن، بولاق، القاهرة.
- **المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار**، عثمان بن سعيد الداني، تحقيق: محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، ط. الثانية ١٩٨٣م.
- **الممتع في التصريف**، لأبي الحسن بن عصفور الإشبيلي، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، المطبعة العربية بحلب، ط. الأولى، ١٩٧٠م.
- **منهاج السُّنَّة النبوية**، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية، ط٢، ١٩٨٩م.
- **مناقب آل البيت**، لأبي الحسن ابن المغازلي، تحقيق: محمد كاظم المحمودي، مركز التحقيقات والدراسات العلمية، طهران، ط١، ٢٠٠٦م.
- **المفردات**، للراغب الأصبهاني، دار الفكر العربي، بيروت.
- **مقدمة ابن خلدون**، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠١١م.
- **مقاتل الطالبيين**، لأبي الفرج الأصفهاني، تحقيق: السيد صقر، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ.
- **المنتخب من أشعار العرب**، المنسوب للثعالبي، تحقيق: د. عادل سليمان جمال، مكتبة الخاني، القاهرة، ط. الأولى، ١٩٩٤م.
- **المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب**، للسيوطي، تحقيق: التهامي الراجحي الهاشمي، مطبعة فضالة.
- **الموطأ**، مالك بن أنس، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.
- **نسب قريش** لمصعب الزبيري، تحقيق: أ.ليفي بروفنسال، دار المعارف، ط٤.
- **مذكرات السلطان عبد الحميد**، تحقيق: محمد حرب، دار الوثائق، الكويت.

- **اللفظ المكرم بخصائص النبي ﷺ**، لمحمد بن محمد الخيضيري، تحقيق: د. محمد الأمين المولود الجكني، دار البخاري، المدينة المنورة، ط٢، ١٤١٧هـ.
- **المواهب اللدنية**، للقسطلاني أحمد بن محمد، تحقيق: صالح الشافي، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤١٢هـ.
- **المناقب والمثالب أبي حنيفة النعمان بن محمد التميمي المغربي**، تحقيق: ماجد أحمد العطية، ط١، ٢٠٠٢م، مؤسسة الأعلى للمطبوعات.
- **المباحث المشرقية**، للفخر الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.
- **المختصر من كتاب الموافقة بين أهل البيت والصحابة**، للزمخشري محمود بن عمر، تحقيق: سيد إبراهيم صادق، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠١م.
- **مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية**، جمع: عبد الرحمٰن بن قاسم وابنه، طبع بأمر خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود.
- **محاسن الكلم**، للمبشر بن فاتك، الدار الفلسفية، بيروت، ١٩٩٧م.
- **نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز**، لأبي بكر بن عُزيز السجستاني، تحقيق: د. يوسف المرعشلي، من مطبوعات وزارة الأوقاف القطرية، ٢٠١٣م.
- **نصوص من التراث الصوفي في الغرب إسلامي**، تحقيق: د. محمد العدلوني ط١، ١٤٢٩هـ.
- **النهاية في غريب الحديث**، ابن الأثير الجزري، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، مطبوعات وزارة الأوقاف القطرية، ط. الأولى، ١٤٣٤هـ.
- **وفيات الأعيان**، أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط. الرابعة، ٢٠٠٥م.
- **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، للثعالبي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٤٧م.

(٢) مراجع حديثة

- **أحوال النصارى في بغداد في عصر الخلافة العباسية**، رافائيل بابو إسحاق، المركز الأكاديمي للأبحاث، ط. الأولى، ٢٠١٥م.
- **الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني**، د. محمد العسري، المدار الإسلامي، ط. الثانية، ٢٠١٥م.
- **إشكالية ترجمة لفظ الجلالة «الله» إلى الإنجليزية، رؤية شرعية**، د. سالم بن حمزة أمين مدني، منشور بمجلة «التأصيل» عدد (٦) سنة (١٤٣٣هـ).

- أصل العرب وموطنهم، د. ماجد عبد الله شمس، دار علاء الدين للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٤م.
- أصول الفلسفة الإشراقية، د. محمد أبو ريان، الدار العربية للفسلسفة، بيروت، ١٩٩٨م.
- إمبراطورية الشر الجديدة، د. عبد الحي يحيى زلوم، ط. الأولى، ٢٠٠٣م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
- أرض الميعاد، د. عبد الوهاب المسيري، القاهرة. ط. الثانية، ٢٠٠٦م.
- أسرار الماسونية، جواد رفعت آتلخان، المختار الإسلامي.
- أوزيريس وعقيدة الخلود في مصرالقديمة، سيد القمي، دار الفكر، ط. الأولى.
- البحث عن يسوع، كمال الصليبي، دار الشروق، عمّان، ط. الأولى، ١٩٩٩م.
- البرت الكبير، د. عبد الرحمٰن بدوي، موسوعة الفلسفة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٥م.
- البعد الديني في السياسة الأمريكية، د. يوسف الحسن، مركز دراسات الوحدة العربية، ط. الأولى، ١٩٩٠م.
- تاريخ الأقباط، زكي شنودة، القاهرة، ١٩٧٧م.
- التاريخ الجغرافي للقرآن الكريم، د. سيد ظفر الدين نادفي، ترجمة: د. عبد الشافي غنيم، سلسلة الألف كتاب، لجنة البيان العربي، مصر، ١٩٥٦م.
- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، د. فيليب حتّى، ترجمة: د. جورج حداد، ود. عبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٨م.
- تاريخ العرب، د. فيليب حتّى، دار الكشاف، بيروت، ١٩٤٩م.
- ترجمات القرآن إلى أين؟ د. زينب عبد العزيز، مكتبة وهبة، القاهرة، ط. الثانية، ٢٠٠٥م.
- تلفيق صورة الآخر في التلمود، زياد منى، دار قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٢م.
- تهافت العلمانية، عماد الدين خليل، بيروت، ط. الأولى.
- التوراة جاءت من جزيرة العرب، كمال الصليبي، دار الشروق، عمّان، ط. الرابعة، ٢٠١١م.
- توما الأكويني وأثره عبر العصور، د. لويس صليبا، دار ومكتبة بيبليون، لبنان، ٢٠١١م.

- توماس الأكويني الفيلسوف المثالي في القرون الوسطى، كامل محمد عويضة، دار الكتب العلمية، ط. الأولى، ١٩٩٣م.
- جغرافية التوراة، زياد منى، رياض الريس للكتب والنشر، ط. الثالثة، ٢٠١٤م.
- الحركة القومية العربية بعيون عثمانية، حسن قايالي، قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ط. الأولى، ٢٠٠٣م.
- حروب داود، كمال الصليبي، دار الشروق، عمّان، ط. الثانية، ١٩٩١م.
- الحضارات السامية القديمة، سبتينو موسكاتي، ترجمة: د. السيد يعقوب بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م.
- حقوق الإنسان في الوطن العربي، تقرير المنظمة العربية لحقوق الإنسان + التقرير السنوي (٢٠٠٩ ـ ٢٠١٠م)، ط. الأولى ٢٠١٠م، مركز دراسات الوحدة العربية.
- حكم الزنا في القانون وعلاقته بمبادئ حقوق الإنسان في الغرب، د عابد محمد السفياني، ط. الأولى، ١٤١٨هـ.
- الخديعة الكبرى، محمد جاد طحان، بيروت، ٢٠٠٠م.
- الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، د. قاسم عبده قاسم، ط الأولى، ١٩٩٩م، عين للدراسات والبحوث الإنسانية.
- الخلفية التوارثية للموقف الأمريكي، إسماعيل الكيلاني، مكتبة الأقصى الإسلامية، قطر، ط. الأولى، ١٤٠٧هـ.
- الخرافات المؤسسة لدولة إسرائيل، روجيه جارودي، ط. الثانية، بيروت، ٢٠٠٢م.
- خفايا التوراة، كمال الصليبي، دار الساقي، ط. السابعة، بيروت، ٢٠١٢م.
- دائرة معارف القرن العشرين، فريد وجدي، ط. الثانية، ٢٠٠٠م.
- دستور الأخلاق في القرآن، د. عبد الله محمود دراز.
- رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب أبي الوليد الباجي عليها، تحقيق: د. محمد بن عبد الله الشرقاوي، من مطبوعات الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء، ١٤٠٧هـ.
- السلطة في الإسلام، نقد النظرية السياسية، عبد الجواد ياسين، المركز الثقافي العربي، ط. الأولى، ٢٠٠٩م.
- صدام الأصوليات، نهاية إسرائيل، نهاية العالم، عاطف عبد الغني، دار الخيال، ط. الأولى، ٢٠٠٠م.

- صراع النهاية بين مسيح الضلالة ومسيح الهداية، د. عبد العزيز الحميدي، دار البيان، ١٤٢١هـ.
- ظلّة على الأرض ألقاب حكام المسلمين في رقوم مقدسية، أسامة العيسة، دار قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ط. الأولى، ٢٠٠٤م.
- الطريق إلى مكة، محمد أسد، القاهرة، الأولى، ١٩٨٠م.
- عبادة إيزيس وأوزيريس في مكة، زكريا محمد، دار آفاق للنشر والتوزيع، ط. الأولى، ٢٠٠٩م.
- العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، محمد طاهر التنير، نشره محمد إبراهيم الشيباني، مكتبة ابن تيمية، الكويت، ١٩٨٧م.
- العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، د. عبد الوهاب المسيري، دار الشرق، القاهرة، ط. الثانية، ٢٠٠٥م.
- العولمة الاقتصادية، عباس برادة، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٧م.
- العولمة وأثارها في الاجتهاد وآفاقه، أعمال الندوة العلمية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، تنسيق فاروق حمادة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. الأولى، ٢٠٠٨م.
- العلمانية نشأتها وتطورها وأثرها في الحياة الإسلامية المعاصرة، د. سفر الحوالي مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى.
- عودة إلى التاريخ المقدس الحربدية والصهيونية، نبيه بشير، دار قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ط. الأولى، ٢٠٠٥م.
- الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، د. عبد المجيد الشرفي، المدار الإسلامي، ط. الثانية، ٢٠٠٧م.
- الفكرة الصهيونية، أنيس الصايغ، دمشق، ٢٠٠٤م.
- فلسفة الحرية، أعمال الندوة الفلسفية السابعة عشر، جامعة القاهرة، طبع مركز دراسات الوحدة العربية، ط. الأولى، ٢٠٠٩م.
- قاموس المورد، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط. الأولى.
- الفاتيكان والإسلام، د. زينب عبد العزيز، القدس للنشر والتوزيع، القاهرة، ط. الثانية، ٢٠٠١م.
- القدس بين الوعد الحق والوعد المفترى، د. سفر الحوالي، مكتبة السُّنَّة، ط الأولى، ١٤١٤هـ.

- القرآن والتوراة والإنجيل، دراسة في ضوء العلم الحديث، د. موريس بوكاي، ترجمة: عادل يوسف، الأهلية للنشر والتوزيع، ط. الأولى، ٢٠٠٩م.
- القرآن والمستشرقون، د. التهامي نقرة، ضمن: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، مكتبة التربية العربية لدول الخليج، ١٩٨٥م.
- كيف يربي اليهود أطفالهم، سناء عبد اللطيف، الدار المصرية، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، دار القلم، دمشق، ط. الثانية عشرة، ١٩٨٢م.
- مؤشر الفساد في الأقطار العربية، أعمال الحلقة النقاشية للمنظمة العربية لمكافحة الفساد، توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية، ط الأولى، ٢٠١٠م.
- مبادئ الإسلام، أبو الأعلى المودودي، دار رحاب، جدة، ١٤٠٢هـ.
- محمد في الكتاب المقدس، عبد الأحد داود، مكتبة العبيكان، ١٤١٧هـ.
- مخطوطات البحر الميت، قصة الاكتشاف، أسامة العيسى، دار القدس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٥م.
- المسألة الشرقية، دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية، محمود ثابت الشاذلي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط الأولى، ١٩٨٩م.
- المستشرقون الألمان، النشوء، التأثير، المصائر، د. رضوان السيد، المدار الإسلامي، ط. الأولى، ٢٠٠٧م.
- المستشرقون، د. نجيب العقيقي، مصر، ١٩٦٥م.
- مشكلة الحرية، زكريا إبراهيم، الدار المصرية، ط. الثانية.
- المعتقدات الدينية لدى الغرب، د. عبد الراضي محمد بن عبد المحسن، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط. الأولى، ٢٠٠١م.
- معجم آلهة العرب قبل الإسلام، جورج مور، دار الساقي، ط. الأولى، ٢٠١٣م.
- معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي، الدار الفلسفية للدراسات، بيروت، ٢٠٠٥م.
- مغامرة العقل الأولى، فراس السوّاح، دار المنارة، ط. التاسعة.
- المفصل في تاريخ العرب، جواد علي، الدار العربية للطباعة والنشر، ١٩٩٧م.
- المكتبة الشرقية، جورج ابن السمعاني، دار الشرق، بيروت، ١٩٨٨م.
- موسوعة المستشرقين، د. عبد الرحمٰن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمّان، ط. الرابعة، ٢٠٠٣م.

- النكبة، وليد الخالدي، الدار الدمشقية، دمشق.
- نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، يوسف رزق الله غنيمة، مكتلة الثقافة الدينية، ط. الأولى، ٢٠٠١م.
- نصوص من الفلسفة المسيحية، د. حسن حنفي، التنوير للطباعة والنشر، ٢٠٠٨م.
- النقشبندية بين ماضيها وحاضرها، نور الدين آيدن، ط. الثانية، ٢٠٠٥ م، إسطنبول.
- هكذا علم توما الأكويني، د. لويس صليبا، دار مكتبة بيبليون، لبنان، ٢٠١١م.
- وتذكروا من الأندلس الإبادة، أحمد رائف، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط. الثانية، ١٩٩١م.
- الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. هاشم يحيى الملاح، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، العراق، ١٩٩٤م.
- ولادة المسيح، وإشكالية التثاقف اليهودي المسيحي، د. يوسف هريمة، المركز الثقافي العربي، ط. الأولى، ٢٠١٤م.
- اليهودية العالمية، وحربه المستمرة على المسيحية، إيليا أبو الروس، دار الطليعة، بيروت، ط. الأولى، ١٩٩٣م.

(٣) مراجع أجنبية

- الآتي من بلد بعيد، سيرة البابا يوحنا بولس الثاني، ماري كريغ، ترجمة: الخوري نبيل الحاج، ط. الثانية.
- أخبار بطارقة كرسي المشرق، ماري بن سليمان، دراسة وتحقيق: د. لويس صليبا، دار مكتبة بيبليون، لبنان، ٢٠١٢م.
- أخبار بطارقة كنيسة الإسكندرية، ساويرس بن المقفع، إعداد وتحقيق: د. عبد العزيز جمال الدين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م.
- ادخلوا في الرجاء، خطاب البابا يوحنا بولس الثاني، نقله إلى العربية: الأب عادل تيودور خوري، المكتبة البوليسية، جونية، لبنان، ٢٠٠٠م.
- الاستشراق: المعرفة السلطة الإنشاء، إدوارد سعيد، ترجمة: كمال أبو ديب، بيروت، ١٩٨٢م.
- الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، القاسم السامرائي، دار الرفاعي، الرياض ١٩٨٣م.

- **الإسلام المبكر في أربعة نصوص يهودية**، جمع ودراسة: د. نبيل فياض، المركز الأكاديمي للأبحاث، تورنتو، كندا، ط. الأولى، ٢٠١٥م.
- **الإسلام والغرب**، روجيه جارودي، الدار العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٠م.
- **الإسلام في القرون الوسطى**، دومينيك سور ديل، ترجمة علي المقلد، ط. الأولى، ٢٠٠٧م، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت.
- **استخدام التاريخ ذريعة للاستيلاء على الأرض**، نيلز لمكة، دار قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ط. الأولى، ٢٠٠٤م.
- **الأسطورة والحقيقة في التوراة**، زينون موسيد فسكي، ترجمة: د. محمد مخلوف، دار الأهالي، دمشق، ١٩٩٦م.
- **إعادة اكتشاف تاريخ فلسطين القديمة**، كيث وايتلام، ترجمة: زياد منى، قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ط. الأولى، ٢٠٠٤م.
- **الله ليس كمثله شيء، الكشف عن ألف فرية وفرية عن العرب**، زغريد هونكة، ترجمة: محمد عوني عبد الرؤوف، المركز القومي للترجمة، ط. الأولى، ٢٠١٠م.
- **إنجيل برنابا**، ترجمه من الإنجليزية، د. خليل بك سعادة، مكتبة وهبة، ط. الأولى، ٢٠١١م.
- **أنشودة انتصار مرفنتاح، إسرائيل وشعب فلسطين**، توماس طمسن وإنغرد هيلين، دار قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ط. الأولى، ٢٠٠٤م.
- **بين الهلال والصليب، وضع اليهود في القرون الوسطى**، مارك.ر. كوهين، ترجمة: معز خلفاوي، منشورات الجمل ألمانيا، ط. الأولى، ٢٠٠٧م.
- **بيزنطة والإسلام**، فاز ليبف، ترجمة: حسين مؤنس ومحمد يوسف زايد، دار الفكر، ط. الأولى، ١٩٩٦م.
- **تاريخ الإرساليات المسيحية**، إستيفانت نيل، نشر: دار الفكر العربي.
- **تاريخ البطاركة السريان**، لأبي الفرج غريغوريوس بن هارون الملطي، الشهير بابن العَبَري، تحقيق: الأب: لويس شيخو، بيروت، ١٩٤٠م.
- **تاريخ حركة الاستشراق**، يوهان فوك، ترجمة: عمر لطفي العالم، المدار الإسلامي، ط. الثانية، ٢٠٠١م.
- **تاريخ التسامح في عصر الإصلاح**، جوزيف لوكلير، ترجمة: جورج سليمان، مركز دراسات الوحدة العربية، ط. الأولى، ٢٠٠٩م.
- **التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق**، سعيد بن البطريق، القاهرة، ١٨٧٦م.

- **تاريخ الفكر المسيحي عند آباء الكنيسة**، المطران: كيرلس سليم والأب: حنا الفاخوري والأب جوزيف العبسي، المكتبة البوليسية، بيروت، ١٩٩٨م.
- **تاريخ الكنيسة في الأرض المقدسة**، فردريك هاير، ترجمة: فهد أبو غزالة، القدس، ١٩٩٥م.
- **تاريخ مسلمي صقلية**، ميكيلي، ترجمة: د. محب سعد إبراهيم، الدار العربية للطباعة، ١٩٨٥م.
- **التاريخ العربي القديم**، د. يتلف نيلست، ترجمة: د. فؤاد حسنين، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨م.
- **التاريخ الحقيقي للعرب**، بيير روسي، ترجمة: فريد جحا، ط. الأولى، دار البشائر للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٩٦م.
- **تاريخ اليهود في بلاد العرب**، د. إسرائيل ولفنسون، تقديم: د. طه حسين، مراجعة: ط. مصطفى جواد، المركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت، ٢٠١٣م.
- **تأسيس الإسلام بين الكتابة والتاريخ**، الفرد لويس دي بريمار، دار الساقي، ترجمة: عيسى محاسبي، بيروت، ٢٠٠٢م.
- **تراث إسرائيل**، الحاخام يوسي بوكس، ترجمة: د. خالص مسّور، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٥م.
- **الترجمة الكاملة لأعمال مجمع الفاتيكان الثاني**، المكتبة البوليسية، بيروت، ١٩٧٧م.
- **الترجمة الكامل لأعمال مؤتمر التبشير بكلورادو ١٩٧٨م**، دار «MAR2»، الولايات المتحدة.
- **التعريف بالداوية في يونغ زينغ**، دار الكتب الصينية، ١٩٩٣م.
- **تلفيق إسرائيل التوارتية**، كيث وايتلام، ترجمة: ممدوح عدوان، دار قَدْمُس للنشر، دمشق، ط. الأولى، سنة ٢٠٠٠م.
- **التلمود البابلي**، الطبعة الأوربية، ١٩٤٢م.
- **جاذبية الإسلام**، مكسيم رودنسون، ترجمة إلياس مرقص، ط٢، ٢٠٠٥م، دار التنوير، بيروت.
- **الحرب المقدسة**، جان فلوري، ترجمة: غسان مايو، دار المدى للثقافة، ط١، سنة ٢٠٠٤م.
- **توراة من؟ بأي حال، تاريخ فلسطين في العصر الحديدي**، إنغرد هيلين، دار قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ط. الأولى، ٢٠٠٤م.
- **الحضور المسيحي في الشرق، شهادة ورسالة**، مجلس بطارقة الشرق الكاثوليكي، الدار العربية للموسوعات، ط. الأولى، ١٩٩٢م.

- **الخلاصة التاريخية للكنيسة الكلدانية**، الكردينال أوجين تران، ترجمة: سليمان الصائغ، الموصل، العراق، ١٩٣٩م.
- **الخلاصة اللاهوتية**، توما الأكويني، ترجمة: المطران بولس عواد، المكتبة البولسية، ٢٠١٤م.
- **دائرة المعارف البريطانية**، النسخة العربية، الطبعة الخامسة عشر، ٢٠٠٥م.
- **الدفاع عن الأيقونات المقدسة**، يوحنا الدمشقي، ترجمة: حمّاطوره، لبنان، ١٩٩٧م.
- **دلالة الحائرين**، مرسي بن ميمون، تحقيق: حسين آتابي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
- **ذخيرة الأذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة السريان**، الأب بطرس نصري، الموصل، العراق، ١٩١٣م.
- **رسالة الفادي، خطاب الباب يوحنا بولس الثاني**، ترجمة: الأب عادل تيودور خوري، المكتبة البوليسية، جونية، لبنان، ٢٠٠٦م.
- **الرسالة اليمنية، شريعة اليهود وجدالهم مع الفرق الإسلامية ونبوءات آخر الزمان**، الحاخام موسى بن ميمون، المركز الأكاديمي للأبحاث، تورنتو كندا، ط. الأولى، ٢٠١٥م.
- **رؤيا أبوكالبتيه للتاريخ الإسلامي**، برنارد لويس، دار الوعي العربي، بيروت، ١٩٩٧م.
- **سيرة القديسَيْن في كنيسة الملكيين الكاثوليك**، المطران ميخائيل عسّاف، المكتبة البوليسية، بيروت، ٢٠٠٣م.
- **شعراء النصرانية في الجاهلية**، الأب لويس شيخو اليسوعي، مكتبة الآداب ومطبعتها، القاهرة ١٩٨٢م.
- **شمس الله تسطع على الغرب**، زغريد هونكة، ترجمة: فاروق بيضون وكمال الدسوقي، دار صادر، بيروت.
- **عقيدة الألوهية في الداوية، دراسة مقارنة بالهندوسية**، أيوب نور الحق شي رين، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد، باكستان، ١٩٩٦م.
- **عقيدة يعقوب**، جيلبير داغروف، ترجمة: عادل خوري، المكتبة البوليسية، لبنان، ١٩٩٦م.
- **عن القرآن**، رجيس بلايشير، المعهد الفرنسي للدراسات، ١٩٧٢م.
- **عودة اليهود في الفكر البروتستانتي الإنجليزي**، مير فرته، ترجمة فاضل جتكر، دار قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ط. الأولى، ٢٠٠١م.

- **فلسطين في العقل السياسي الأمريكي**، كاثلين كرستن، ترجمة: مفيد عبدوني، دار قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ط. الأولى، ٢٠٠٣م.
- **فلسطين أرض الرسالات السماوية**، روجيه جارودي، ترجمة: قصي أتاسي وميشيل واكيم، دمشق، دار طلاس، ١٩٩١م.
- **قاموس آباء الكنيسة وقديسها**، تدروس يعقوب ملطي، القاهرة، ١٩٩١م.
- **القديس يوحنا الدمشقي**، الإكسرخوس جوزيف نصر الله، ترجمة: وهبي، المكتبة البوليسية، بيروت، ١٩٩١م.
- **قراءة في الكتاب المقدس**، الأب أسطفان شربنتي، ترجمة: الأب صبحي حموي اليسوعي، دار الشروق، بيروت.
- **قصة الحضارة**، وِلْ ديورانت، ترجمة: د. عبد الحميد يونس ومحمد علي أبو درة وفؤاد أندرواس، طبعة مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، ٢٠٠١م.
- **كتاب المخطوطات العربية لكتبة النصرانية**، الأب لويس شيخو اليسوعي، دار المشرق، بيروت، ط. الثانية، ٢٠٠٠م.
- **الكتاب المقدس**، نسخة الملك جمس الخامس، الطبعة العربية، بيروت، ط. العاشرة.
- **الكتاب المقدس**، طبعة الرهبانية اليسوعية، جمعيات الكتاب المقدس بالمشرق، بيروت، ط. الخامسة، ١٩٩٩م.
- **الكتابات المسيحية الأولى عن محمد**، المستشرق جوزيف فان أيس، ضمن موسوعة «سيرة محمد»، جمعها: هـ. موتزكي، الدار العربية للترجمة، ٢٠٠٠م.
- **كعب الأحبار، مسلمة اليهود في الإسلام**، د. إسرائيل ولفنسون، المركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت، ٢٠١٣م.
- **كنيستي السريانية**، الأب إسحاق ساكا، ترجمة: جوزيف عوض الله، لبنان، ٢٠٠٠م.
- **كنيسة مدينة الله**، أسد رستم، المكتبة البوليسية، بيروت، ٢٠٠١م.
- **اللغة الفينيقية وآثارها الكتابية**، ف. روزنبرغ، دار المجدل للدراسات اللسانية، بيروت، ط. الثانية، ١٩٤٥م.
- **مارتن لوثر، مقدمة قصيرة جداً**، سكوت إتش هندريكس، ترجمة: كوثر محمود، كلمات للترجمة والنشر، ط. الأولى، ٢٠١٤م.
- **المئة مقالة في الإيمان الأرثوذكسي**، يوحنا الدمشقي، ترجمة: أدريانوس شكور، المكتبة البوليسية، لبنان، ٢٠٠٥م.

- المجدل للاستبصار والجدل، عمرو بن متى الطيرهاني، دراسة وتحقيق: د. لويس صليبا، المكتبة بيبليون، بيروت، ٢٠١٢م.
- المجمل في تاريخ الكنيسة الجامعة، الأب أنطون الفرغاني، دار مكتبة بيبليون، لبنان.
- المجموعة ضد الأمم، توما الأكويني، ترجمة: المطران نعمة الله أبي الكرم، دار ومكتبة بيبليون، لبنان، ٢٠٠٠م.
- محصلة إجمالية للدراسات المحمدية، مكسيم رودنسون، دار الأفق، بيروت، ١٩٩٧م.
- محمد وصحابته اليهود، ج. ليفين، المركز الأكاديمي للأبحاث، تورنتو، كندا، ط. الأولى، ٢٠١٤م.
- مختصر تاريخ الدول، لابن العبري، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٨م.
- المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن، المستشرق: أجنسما جولد تسيهر، ترجمة: د. علي حسن عبد القادر، المركز الأكاديمي للأبحاث، كندا، ط. ٢٠١٣م.
- مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة في الفقه الكنسي، تحقيق: ريدل كوتنكن، ١٩٠٢م.
- المسيح ولد يهودياً، مارتن لوثر، ترجمة: د. رضا هلال، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٠م.
- معجم الإيمان المسيحي، الأب صبحي الحموي اليسوعي، المكتبة البوليسية، بيروت، ١٩٩٩م.
- معجم اللغة الآرامية، المطران توما أودو، الموصل، العراق، ١٩٠٧م.
- مفهوم الحرية في الإسلام، فرانز روزنتال، ترجمة: د. رضوان السيد ود. معن زيادة، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط. الثانية، ٢٠٠٧م.
- مكة في الدراسات الاستشراقية، الأب لامنس، والبرفسور كستر، المركز الأكاديمي للأبحاث، كندا، ٢٠١٤م.
- من آفاق الحكمة، خواطر البابا يوحنا بولس الثاني، ترجمة: الأب عادل تيودور خوري، المكتبة البوليسية، لبنان، ٢٠٠٦م.
- منطق الإيمان، توما الأكويني، ترجمة: جرجس فرج صغير، المكتبة البوليسية، ١٩٦٤م.
- الموريسكيون الإسبان ووقائع طردهم، للأسقف دون ياسكوال بورنات، ترجمة: د. كنزة الغالي، بيروت، ٢٠١٣م.
- موسوعة أعلام الفلسفة، إعداد: روني إيلي ألفا وجورج نخل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

- **النساطرة والإسلام**، د. لويس صليبا، دار مكتبة بيبليون، لبنان، ٢٠١٢م.
- **نسخة العهد الجديد اليونانية ورواياتها**، تشندروف نوفم، نشر: دار المشرق الكاثولوكية، بيروت، ط. الأولى.
- **النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية**، الأب لويس شيخو اليسوعي، المكتبة اليسوعية، بيروت، ١٩١٢م.
- **نقد العهد القديم**، زالمان شازار، ترجمة: د. أحمد هويدي، رؤية للنشر والتوزيع ٢٠١٤م.
- **يشوع والعنف الغربي**، نيلز لمكة، دار قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ط. الأولى، ٢٠٠٤م.
- **هل ينبغي علينا أن نترك التاريخ لعلماء الآثار**، توماس طمسن، ط. الأولى، ٢٠٠٥م، دار قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق.
- **الخيار شمشون**، **أسرار الترسانة النووية الإسرائيلية**، سيمور هيرش، ترجمة فريق من الخبراء، دار الكتب العربي، ط. الأولى، ١٤٢٢هـ.
- **الصهيونية المسيحية**، بول مركلي، ترجمة فاضل جتكر، ط. الأولى، ٢٠٠٢، دار قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق.
- **صورة الإله الوثنية والدموية في التوراة**، الأب حنا حنا، دار رام للنشر والتوزيع، دمشق ط. الأولى، ٢٠٠٧م.
- **الطائفيون العرب والحركة الصهيونية**، يني مورس ولورا آيزينرغ، ط. الأولى، ٢٠٠٥م، دار قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق.
- **مخطوطات قمران، البحر الميت، الكتب الأسينية**، تحقيق: أندريه دوبون، سومر مارك فيلو فنكو، ترجمة: موسى ديب الخوري، دار الطليعة الجديدة، دمشق، ط. الأولى، ١٩٩٨م.
- **مخطوطات قمران، البحر الميت، التوراة المنحول**، تحقيق: أندريه دوبون وزميله، ترجمة: موسى خوري، دار الطليعة الجديدة، بيروت، ١٩٩٨م.
- **ورثة الإمبراطورية الرومانية**، ريتشارد، أ. ساليفان، ترجمة: جوزيف نسيم يوسف، ط. الأولى، ١٩٨٥م.
- **وزراء النصرانية وكتابها في الإسلام**، الأب لويس شيخو اليسوعي، دار المشرق، بيروت، ط. الثانية، ١٩٨٨م.
- **المولوخ، آلة الشر، تاريخ الولايات المتحدة**، كارلها ينتس دشنر، ترجمة: محمد جديد، دار قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ط. الأولى، ٢٠٠٣م.

- **صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى**، ريتشارد سوذرن، ترجمة: د. رضوان السيد، دار المدى الإسلامي، بيروت، ط. الثانية، ٢٠٠٦م.
- **نصوص مختارة من كنيسة الشرق**، الأب جان ماريا السالسي، الدار العربية للموسوعات، ط. الأولى، ٢٠٠٧م.
- **محاكمة هنري كيسنجر**، كرستفر هتشنز، ترجمة فريد الغزي، دار قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ط. الأولى، ٢٠٠٢م.
- **شبكة الفساد والإفساد العالمية**، بيتر آيغن، ترجمة: محمد جديد، دار قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ط. الأولى، ٢٠٠٥م.
- **النهايات، الهوس القيامي الألفي**، ديتر تسمر لنغ، ترجمة: ميشيل كيلو، دار قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ط. الأولى، ١٩٩٩م.
- **مسيحية ضد الإسلام، حوار انتهى إلى الإخفاق**، لودفيغ هاغمن، ترجمة: محمد جديد، دار قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ط. الثانية، ٢٠٠٥م.
- **سنة ٥٠١ الغزو مستمر**، نعوم تشو مسكي، ترجمة: مي النبهان، دار المدى، دمشق، ط. الثانية، ١٩٩٩م.
- **١٩٩٩م نصر بلا حرب**، ريتشارد نيكسون، إعداد: المشير محمد أبو غزالة، الطبعة الثانية، ١٩٨٩م، مركز الأهرام للترجمة والنشر.
- **ماركو بولو هل وصل إلى الصين**، فرنسس وود، ترجمة: فاضل جتكر، دار قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ط. الأولى، ١٩٩٩م.
- **التنصير**، الترجمة الكاملة لأعمال المؤتمر التبشيري الذي عقد بكلورادو بالولايات المتحدة سنة ١٩٨٧م.
- **الإنسان ذلك المجهول**، أليكسس كارل، ترجمة شفيق أسعد، مكتبة المعارف، بيروت، ط الأولى، ١٩٩٩م.
- **الشيعة والتحول في العصر الصفوي**، كولن تيرنر منشورات الجمل، ترجمة: حسين علي عبد الستار، ط. الأولى ٢٠٠٧م.
- **الدولة اليهودية**، ثيودور هرتسل، الطبعة العربية، بيروت، ١٩٧٧م.
- **الكنائس القبطية القديمة**، ألفرد. ج. بتلر، ترجمة: إبراهيم سلامة، الدار المصرية ١٩٩٧م.
- **لمحات من تاريخ العالم**، جواهر لال نهرو، ترجمة: عبد العزيز عتيق، دار المعارف، ط. الأولى، ١٩٩٥م.

- اليهود وأكاذيبهم، مارتن لوثر، دراسة: د. محمد النيجيري، دار النافذة، ط. الأولى، ٢٠٠٧م.
- الخلاصة اللاهوتية، توما الأكويني، الكلية اليسوعية، ١٩٩٨م.
- رسالة عبد الله بن إسماعيل الهاشمي إلى عبد المسيح بن إسحاق الكندي، ورسالة الكندي إلى الهاشمي، الكلية اليسوعية، ١٩٩٨م.
- قديسات وملكات من المشرق السرياني وجزيرة العرب، سبستين برك، سوزان هارفي وغلن بورسك، ترجمة: فريد بولس وميسون الحجيري، تقديم: المطران مارغر يغوريوس يوحنا، دار قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ط. الأولى، ٢٠٠٠م.
- الكتاب المقدس والاستعمار والاستيطاني، الأب مايكل برير، ترجمة أحمد الجمل، دار قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ط. الأولى، ٢٠٠٥م.
- موجز تاريخ العالم، هـ. ج. ويلز، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، مكتبة المتبولي، القاهرة، ١٩٨٦م.
- تاريخ الترك والمغول في آسيا من مبدأ نشأتها إلى عام ١٩٠٥م، ليون كاهون، المقتطف، ١٩١٦م.
- العقائد البدائية في الصين، وان شاو دون، مكتبة الكتب القديمة، شان هاي ١٩٨٩م.
- مختصر تاريخ الفلسفة الصينية، فون بولان، ١٩٩٤م.
- ما بين عصرين، زبيجنو بزيجينسكي، الدار العصرية، بيروت.
- ضراع الحضارات، صموئيل هنتنغتون، ترجمة المشير أبو غزالة، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- الإسلام، كارين آرمسترونغ، الدار العصرية، بيروت.
- العالم مسطحاً التاريخ الملخص للقرن ٢١، توماس فردمان، دار الفكر المعاصر، بيروت.
- المدينة المقدسة، ملاحظات تاريخية وطبوغرافية من القدس، الأب جورج وليمز، دار قَدْمُس، دمشق، ٢٠٠٤م.
- مناهضة الشعوب السامية، برنار لازارية، الطبعة العربية، بيروت، ٢٠٠٣م.
- الهاجرية، كيفية تشكل العالم الإسلامي، كرون كوك، ترجمة: المعهد العربي للترجمة، ١٩٩١م.
- اليهود في كفة التاريخ، الأب قسطنطين، الدار الفلسطينية، بيروت.
- دراسة في التاريخ آرنولد تونبي، الدار العصرية، بيروت.
- مذكرات هرتسل، الطبعة العربية، ١٩٥٣م.
- قصة الحضارة، ول ديورانت، الطبعة العربية، ١٩٩٥م.

- إسرائيل من منظور أمريكي، بيتر غروس، دار قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٤م.
- الجغرافيا السياسية للفاتيكان، الطبعة العربية، ١٩٩٧م.
- الأب يوحنا والمغول، ديفيد مورغان، دار قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ١٠٠٥م.
- العالم العربي اليوم، ستان دور، دار المدى للنشر والتوزيع، بيروت.
- مكافحة الفساد تقتضي نظاماً أخلاقياً، هانزكنغ، دار قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٥م.
- إلى أين تتجه الرأسمالية، جون. هـ. دتنغ، دار الطليعة، بيروت.
- جدول أعمال التطوير وتحدي الفساد، جمس دفلفزن، دار قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٥م.
- الرعب الاقتصادي، فيفان فوستر، منشورات الجمل، ٢٠٠٩م.
- الحرية، جون ستيوارت مل، دار المدى، بيروت، ٢٠٠٧م.
- مدخل إلى الفلسفة، كارل باسبرز، الدار العصرية، بيروت.
- بحثاً عن عالم أفضل، كارل بوبر، الجامعة الأميركية، بيروت، ٢٠٠٩م.

(٤) المجلات والحوليات

- إسلاميات مسيحيات، بيروت، سنة ١٩٧٦م، عدد رقم (٣).
- مجلة التأصيل للدراسات الفكرية المعاصرة، سنة ١٤٣٣هـ، عدد (٦).
- مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٤٧م، عدد رقم (٢).
- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد (٦١)، جزء (٣).
- مجلة المشرق الكاثوليكية، بيروت، إشراف: الأب لويس شيخو اليسوعي، الأعداد: سنة ١٨٩٨م عدد رقم (١)، سنة ١٩٠٧م عدد رقم (١٩ ـ ٢٠ ـ ٢٤) سنة ١٩٠٨م عدد رقم (١١)، سنة ١٩١٤م عدد رقم (١٧).
- مجلة الآباء اليونان، النسخة العربية، المكتبة البوليسية، لبنان، مجلد (٩٤)، ١٩٦٩م.
- مقال: المسيحية الصهيونية والسياسة الأمريكية، محمد المختار الشنقيطي، منقول مجلة العصر، تاريخ ١٥/١٠/٢٠٠٣م.
- مقال: مارتن لوثر واليهود، عبد الله المعراوي، مجلة الإنسان، عدد (٤٩١) نوفمبر، ١٩٩٥م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
المقدمة الأولى: القرآن الكريم كلمة الله الباقية	٩
الذمقدمة الثانية: دور الكنيسة وآبائها في الحرب على الإسلام والمسلمين	٣١
المقدمة الثالثة: موارد المستشرقين بين أحبار اليهود وقساوسة النصارى	٦٩
يوحنا الدمشقي وتلميذه ثيودور أبو قرة	١١١
عبد المسيح بن إسحاق الكندي	١٣٧
بطرس المبجل وروبرت الكيتوني وهيرمان الدالماتي وأول مشروع ترجمة للقرآن الكريم إلى اللاتينية	٣٣٥
توما الأكويني	٣٥٥
رِكُلْدُس دي مُونتي كُرُوتشي	٣٩٥
ريموند لولّوس أو ريمون لول	٤٣٩
رامون مارتي	٤٦٩
نيكولا. دو. كوزا، ويوحنا السيغوفي وجان جيرمان، وإينياس سلفيوس	٤٧٧
مارتن لوثر	٥٢٥
البابا يوحنا بولس الثاني	٥٥٣
الخاتمة	٦٠٥
المصادر والمراجع	٦١٧
مصادر حديثة	٦٣١
مصادر أجنبية	٦٣٦
المجلات والحوليات	٦٤٦
فهرست الموضوعات	٦٤٧